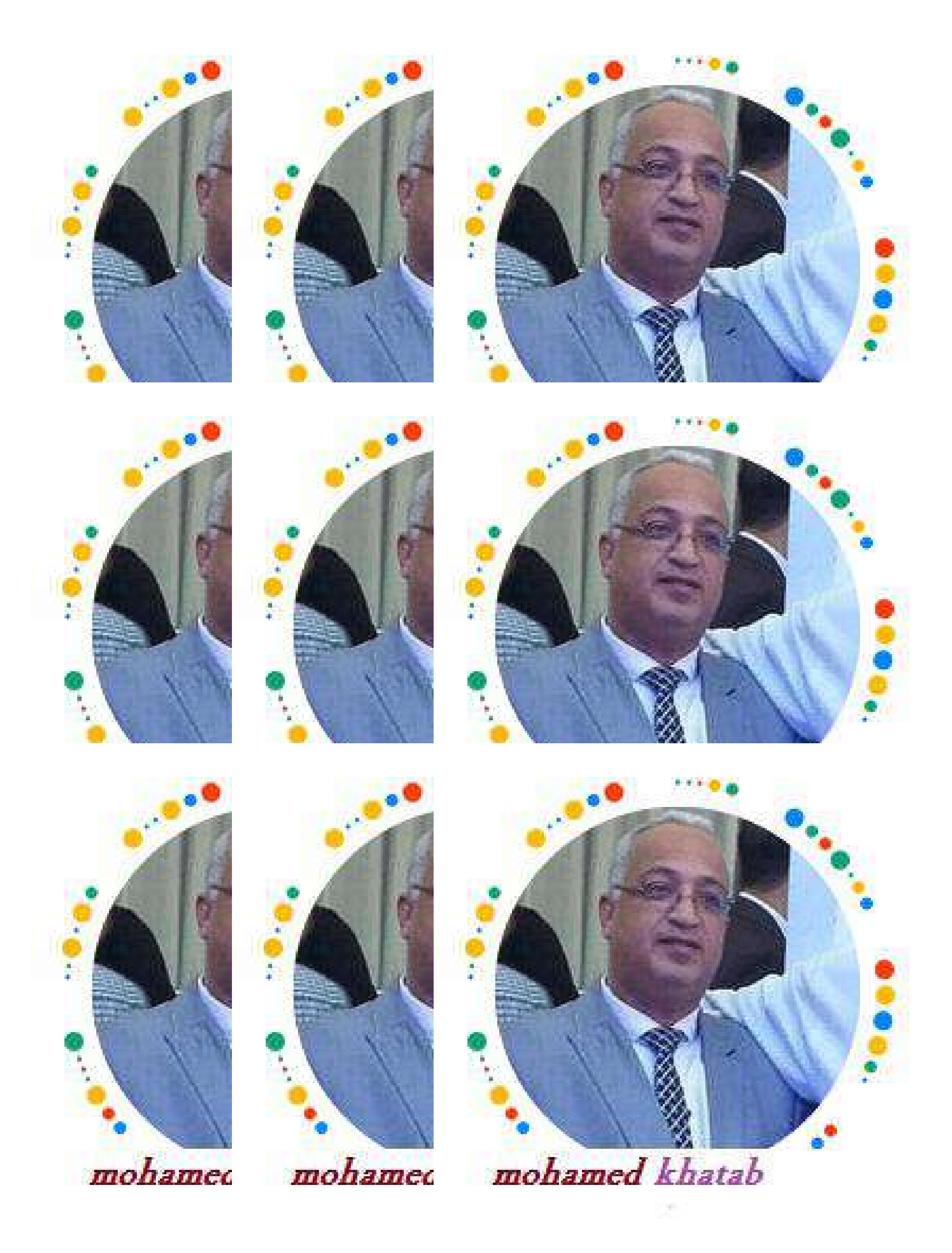
سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء الثالث


mohamed khatab

موسوعة مصر القديمة (الجزء الثالث)

في تاريخ الدولة الوسطى ومدنيتها وعلاقتها بالسودان والأقطار الأسيوية والعربية

تأليف

سليم حسن



موسوعة مصر القديمة (الجزء الثالث)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ٨ ١٥٠٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

المحتويات

تمهيد

في صيف عام ١٩٤٠ أتممت وضع الجزءين الأول والثاني من تاريخ مصر القديمة حتى العهد الإهناسي؛ أي الأسرة العاشرة، وكان بودِّي أن أسير قدمًا في طريقي وأضع الجزء الثالث الذي ينتظم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، ولكن عقبات نهدت في الطريق والحرب قائمة، فلم أستطع بين طوفان الحوادث وطغيان الكوارث أن أتصل بالأوساط العلمية الأوروبية، وأن أغترف من مصادرها ما يساعدني على إخراج بحث وافٍ تام العناصر قوي الأسباب؛ من أجل ذلك آثرت وقتئذ أن أخرج للناس «كتاب الأدب المصري القديم» الذي كنت قد سرت في وضعه شوطًا بعيدًا حتى تنفرج الغمة ويزول شبح الحرب المخيف، فلما استقرت السيوف في أغمادها وذهبت نوازي الشر من الرءوس واتصل ما انقطع من أسباب التعاون الفكري؛ أخذت أدرس كل ما جدَّ من البحوث العلمية حول هذا العصر والأسرة الحادية عشرة منه بخاصة؛ لأن هذه الأسرة لا تزال رغم مجهود العلماء وكشف الباحثين في حاجة إلى من يُظهر حقائقها التاريخية ناصعة بريئة من شوائب الظن والحدس.

لقد أبان لنا معول المنقب صفحات مجيدة في حياة القوم الاجتماعية والزراعية والدينية والصناعية في هذه الفترة مما لم نحظ به في عصر آخر؛ ومن أجل هذا نشرنا هذه الصفحات مستعيضين بها عن تلك الحقائق الجافة المتكررة المتشابهة التي تتناول الملوك وأعمالهم والتي نلقنها أبناءنا في شيء من التكلف والتصنع.

فإذا قرأت رسائل «حقا نخت» في هذا الكتاب وجدت أمامك صورة حية عن حياة الفلاح المصري كانت مطوية محجوبة عنا منذ أربعة آلاف سنة تقريبًا، وإذا فحصت محتويات مقبرة «مكت رع» وجدت صفحة مجيدة تقرأ فيها حياة القوم الاجتماعية بكل مظاهرها من صناعة وفن وتجارة وشئون منزلية وزراعية واقتصادية، مما يجعلك تقف

مشدوهًا حائرًا أمام ما وصل إليه القوم من الحذق والمهارة الفنية وتفهم طرائق الحياة والافتنان فيها والإبداع في إجادتها.

وإذا درس رب السيف لوحات الجندية التي عرضناها في هذا الكتاب لمس فيها قوة التضامن الحربي وإجادة فنون القتال، ومكانة الجندي بين قومه، وعرف لأوَّل مرة في تاريخ العالم قيمة الكلاب في الحروب والدور الذي كانت تلعبه.

كل هذه لمع تبدو من وقت لآخر، فتأخذ بيدنا في تلك المجاهل المظلمة التي اعترضت سيرنا عند الكتابة في تاريخ الأسرة الحادية عشرة.

والواقع أنك لا تجد اثنين من مؤلفي عصرنا يتفقان على رأي واحد عند الكتابة في تاريخ هذه الأسرة، وأن أعظم قدر كُتب فيها لا يتعدَّى عشرين صفحة، على أنَّا قد جمعنا هنا كل ما يمكن من الحقائق التاريخية الهامة عن حياة هذه الأسرة وبخاصة الناحية الاجتماعية، وقد كان اعتمادنا في ذلك على المصادر الأصلية بقدر ما سمحت به الأحوال.

أما الأسرة الثانية عشرة، وهي العصر الذهبي لمصر الخالدة، فإن الباحث فيها، رغم ما يلاقيه من فجوات في تاريخها، لا يعسر عليه أن يعرف تاريخًا لها مرتب العهود مسلسل الحوادث، وإن كان جزؤه الأخير عليه ستار رقيق من الشك والإبهام.

وإن الباحث في التاريخ المصري منذ نشأته يلحظ أن شعب مصر قد قام بعد سقوط الدولة القديمة بأوَّل ثورة اجتماعية على الأغنياء والملوك، وطالب بالعدالة الاجتماعية والدينية، فنال ما أراد؛ وبذلك سجل أول انتصار للإنسانية في ميدان النضال لنيل الحرية الشخصية والمساواة بينه وبين الحكام الغاشمين، مما أفضى إلى مساواته في عالم الآخرة بالملوك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أربابًا، وأن الجنة مأواهم وحسب. وكان أن تأسست الأسرة الثانية عشرة بفضل حاكم عادل يظهر أنه من أسرة شعبية بل من أم نوبية (سودانية)، فسارت البلاد بخطًى واسعة سريعة نحو التقدُّم التجاري والصناعي والفني، وازدهر الأدب ازدهارًا عظيمًا، وبدأت الفتوح المظفرة في الشمال والجنوب، فكان ذلك إيذانًا بتأسيس إمبراطورية عظيمة لم تلبث أن امتد سلطانها على كل أرجاء العالم المتمدن في الدولة الحديثة.

والظاهرة التي تستحق التسجيل هنا أن الثقافة التي عمت البلاد في هذا العصر كانت وليدة التربة المصرية نفسها، والتفكير المصري ذاته، لم تستَعن في ذلك بدولة أجنبية، ولم تأخذ عن غيرها شيئًا؛ فأدبها وفنونها وصناعاتها وديانتها وطرق حياتها ونظم حكمها تضرب بأعراقها إلى أصل مصري بحت؛ من أجل هذا أطلقنا على هذه الفترة «العصر الذهبي في التاريخ المصري».

وقد حاولنا في هذا الفصل من الكتاب أن نعرض أعمال كل ملك على حدة، ثم شفعنا ذلك بفصل في أصول المدنية في هذا العهد، وبخاصة من ناحية علاقات مصر بالأمم المجاورة لها وهي فلسطين وسوريا وبلاد شرق الأردن ولبنان والأناضول ولوبيا، ثم السودان وارتباطه بمصر منذ أقدم العصور التي ترجع إلى ما قبل التاريخ، وقد فصلنا القول في نشأة الإمبراطورية المصرية في آسيا والروابط التي كانت بين أهلها وبين مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة، ثم تعرَّضنا لما كان بين مصر وبلاد النوبة من علاقات، وما طرأ عليها من الوهن، ثم توثقها في عهد «الدولة الوسطى» حتى وصلت الفتوح المصرية في هذه الجهة إلى ما بعد الشلال الثالث على يد «سنوسرت الثالث» الفاتح العظيم.

ولقد وجهنا مزيد عناية لدرس الحياة الدينية في هذا العهد، فرسمنا صورها كما وجدناها على الآثار، وطبق ما أوحته متون التوابيت التي امتاز بها هذا العصر، وأخصها ما جاء عن عالم الآخرة وكيف يصل إليه المُتوفَّى، وما يصادفه من عقبات ومصاعب تحاول صدَّ المُتوفَّى عن ورد الخوض المحبوب، ولقد فصلنا القول في ذلك رغم ما في المتن من صعوبات لغوية بما لم نسبق إليه؛ إذ إن معظم المشتغلين بالآثار لم يلتفتوا إلى هذا الكتاب الذي أسموه «كتاب الطريقين»، ولقد خصصته بعنايتي لأوجه الشبه الكبيرة بينه وبين الخرافات التي نقرؤها في الكتب القصصية عن الجنة والنار، ولأنه يكشف عن ناحية من النواحي العقلية عند القوم، ويبين تصوَّراتهم الفلسفية عن عالم الآخرة الذي لا يفوز فيه إلا من آمن وعمل صالحًا.

وبعد؛ فأرجو أن أكون قد وُفقت بعض الشيء للكشف عن هذا الجزء الغامض من تاريخ مصر الخالدة.

وإني أسأل الله أن يسدِّد خطانا ويوفقنا لخدمة مصر وأبنائها، كما أسأل مواطني الأعزاء أن يقدموا وافر شكرهم معي لأولئك الذين فسحوا لي الطريق على كره منهم لإنجاز هذا العمل الشاق المحبب إلى نفسي.

وإني أتقدَّم بالشكر لصديقي الأستاذ محمد النجار الذي أسهم بقسط وافر في قراءة الكتاب قبل طبعه وقراءة تجاربه، كما أشكر حضرة الأستاذ محمد نديم مدير مطبعة دار الكتب المصرية ورجال المطبعة على ما بذلوه من عناية لإخراج هذا المؤلف.

والسلام على من اتبع الهدى.

الأسرة الحادية عشرة

مقدمة

في العهد الذي نجحت فيه أسرة حكام «هراكليو بوليس» (إهناسية المدينة) في اغتصاب السلطة من آخر ملوك «منف» الضعفاء، كانت هناك أسرة أخرى في الصعيد تنمو وتترعرع في مقاطعتها التي كان يطلق عليها اسم «واست» (الأقصر الحالية)، وهي المقاطعة الرابعة من مقاطعات الوجه القبلي، وتقع جنوب مقاطعتي «قفط» وهي المقاطعة الخامسة، ومقاطعة «دندرة» وهي المقاطعة السادسة، وكانت عاصمة «واست» تسمى «إيون» الجنوبية؛ (أي «عين شمس» الجنوبية)، وموقعها الآن بلدة «أرمنت» الحالية.

ولا نعلم عن تاريخ مقاطعة «واست» شيئًا خطيرًا في عصر الدولة القديمة، وكل ما نعرفه في ذلك الوقت أن البقاع التي تكونت منها بعد مدينة «طيبة» العظيمة كانت قرى صغيرة متجمعة حول مدينة الأقصر الحالية، وهي «واست» السالفة الذكر و«الكرنك»، وكانت هذه المقاطعة تضم مدنًا صغيرة آهلة بالسكان، غير أنه لم تبلغ واحدة منها ما بلغته «واست» أو «الكرنك».

ففي أعلى النهر كانت مثلًا قرية «طود» وتبعد ثلاثين كيلومترًا على الضفة الشرقية من النيل، وكان يقابلها في الجهة الأخرى من النهر بلدة «أرمنت»، وكانت «المدمود» كذلك تقع على منحدر النهر بالقرب من الصحراء الشرقية على مسافة لا تقل عن خمسة عشر كيلومترًا، وعندما برزت هذه المدن الصغيرة أو القرى في عالم الوجود للمرَّة الأولى في عهد الدولة القديمة كان لكل منها معبد للإله «منتو» (إله الحرب) وهو إله المقاطعة، ومن المعقول أن يكون معبده في كل قرية من هذه القرى، هو المعبد الذي يُهتم به ويُسعى

إليه، غير أن الإنسان كان لا يعدم ذكر اسم الإله «أوزير» في هذه الأماكن، وكذلك الإله «مين» الذي كان يُمثَّل بعضو التذكير منتشرًا، ولم نسمع قط بذكر الإله «آمون» حتى عام ٢١٤٠ق.م، ومع ذلك فإنه كان لا يذكر إلا نادرًا جدًّا (Stela of Magegi, Scott–Moncrieff, Hieroglyphic texts in the Brit, Museum, Vol. I, pl. 50)، وقد انتخب عظماء هذه القرى، وهي التي أصبحت طيبة عند نهاية الدولة القديمة، لدفن موتاهم تلًّا صخريًّا قليل الارتفاع في صحراء الجهة الغربية من النيل يسمى في عصرنا «الخوخة»، فقد اختار «ونيس عنخ» الذي كان يلقب ولي العهد، وحاكم الجنوب، ومدير مخازن الغلال، هذه البقعة لدفنه، وكذلك فعل ابنه (راجع ;Metropolitan Museum of Art; 22.3.325 Diaries, Metropolitan Museum of Art, Bulletin March Part II P. 23, Fig 34).

مقبرة إحي حاكم مقاطعة طيبة

وكذلك عثر فيها على مقبرة لعظيم يدعى «إحي» وامرأته «إمي»، وكان يلقب حاكم المقاطعة العظيم، والسمير الوحيد، والكاهن، والمرتل، وكاتم السر لكل كلام سري يصل إلى المقاطعة … ومدير مخازن الغلال، والمدير الملكي. ونجد في مقبرته علاقته بالآلهة فقد كان المقرَّب من الإله «منتو» رب «أرمنت»، ومن إلهة كانت تُعبد في مقاطعة عين شمس (ربما كانت مصر القديمة الحالية)، ومن الإله «أوزير» رب بوصير، ومن الإله العظيم «رع». ومن ذلك يظهر أن «إحي» هذا كانت له مكانة عظيمة في البلاط؛ إذ كان على ما يظهر حاكم مقاطعة عظيمة في الوجه القبلي، وإن لم يذكر ذلك صراحة، وربما كانت المقاطعة الرابعة، كما نرجح أنه كان حاكمًا لمقاطعة أو بعض مقاطعة في الوجه البحري، هذا إذا لم يكن لقب «عزمر» (حاكم مقاطعة في الوجه البحري) مجرَّد لقب فخري له، ولم تذكر نقوشه صلة له بالإله «آمون» الذي كان يظنُّ أنه الإله المحلي للمقاطعة، بل ذكرت علاقته فقط بالإله «منتو»، وكذلك ذكرت علاقته بالإله «أوزير» الذي كانت عبادته شائعة في هذا العصر، كما ذكرت علاقته بالإله «بتاح سوكر» إله عاصمة الملك «منف» وقتئذ.[١]

[١] تقع مقبرة حاكم المقاطعة «إحي» في الجهة القبلية للمكان المسمى الآن «خلوة الهوَّى» وهو تل صخري في الجنوب الغربي من «العساسيف» في طيبة الغربية، وهذا القبر لا يدل في ظاهره على فخامة في صنعه ولا في نقوشه، بل هو في الواقع يشبه في أسلوب زخرفته الطراز البسيط الذي كان شائعًا في مقابر هذا

وقد دُفن في هذه الجهة كذلك الأمير الوراثي وحاكم الخاتم الإلهي (الملكي) «سني إقر» (راجع Gardiner & Weigall, Topographical Catalogue of Private Tombs at Thebes No. 185)، ولم يرد اسم طيبة في عهد الدولة القديمة غير ما ذكر إلا نادرًا في النقوش، وقد ذكر اسم مقاطعتها في قائمة الاثنتين والعشرين مقاطعة التي كان يحكمها «شماي» في عهد الفرعون «نترباو» ولكن على أثر وفاة «شماي» هذا أعطى هذا الملك نفسه ابنه «إدي» خمسًا من هذه المقاطعات تحت حكمه من «إلفنتين» (أسوان) إلى «ذيوس بوليس بارفا» (هوَّ) الحالية (Moret, Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions 1914, P. 565 & Cairo 43053; M. M. A. 14, 7, 11) وتقع بالقرب من مرتفع جبل الطريف حيث ينعطف النيل على هيئة زاوية قائمة عند الحدود الشمالية لمصر الجنوبية، ولا نعلم عن هذه المقاطعات الخمس أكثر من أنها كنت تعتبر كتلة واحدة تحت حكم «قفط» وذلك بعد انقضاء عهد الدولة القديمة.

وإن «إلفنتين» و«إدفو» و«الكاب» قد أغار أهلها على حكام «طيبة» وجيرانها كما نعلم ذلك من نقوش مقبرة[٢] عثر عليها في «المعلة»، وكانت النتيجة أن تمزق شمل أرض الجنوب وأصبحت ولايات صغيرة (Drioton and Vandier, L'Egypte PP. 215–233).

وقد انتهت الدولة القديمة حسب الرواية التي يرويها مؤلف ورقة «تورين» في عام ٢٢٤٢ق.م، وهو تاريخ بداية الدولة الوسطى، وقد حدث ذلك نتيجة للثورة التي قام بها الملك «مري، اب، رع، خيتي» فرعون «هيراكليو بوليس» مؤسس الأسرة التاسعة وموحد مصر حتى الشلال (Ed. Meyer, Geschichte des Altertums Nachtrag P. 68)، وليس هناك من شك في أن «طيبة» كانت ضمن فتوح «خيتي» وقد أصبح ملكها الذي نجهل اسمه الآن ضمن رعايا الفرعون الجديد.

العصر تقريبًا في «أسوان» مثل مقبرة حرخوف، أما عبادة «آمون» باعتباره إلهًا محليًّا لهذه المقاطعة فلم تظهر إلا في أواخر الأسرة الحادية عشرة كما سيجيء بعد (Annales du Service des Antiquities de l'Egypte Vol. IV, P. 97).

[٢] Chronique d'Egypte Vol 35, P. 23.

أصل فراعنة الأسرة الحادية عشرة

وحوالي منتصف القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد رزقت امرأة تدعى «اكوي» ابنًا أسمته «أنتف» ومن هذا الطفل المجدود نسل كل أمراء «طيبة» الذين أصبح منهم فيما بعد فراعنة مصر في عهد الأسرة الحادية عشرة، غير أن الحظ لم يسعفنا حتى الآن بالعثور على أثر معاصر له، اللهم إلا لوحة لحارس باب يدعى «ماعت»، ويحتمل أنه مع ذلك كان معاصرًا للفرعون العظيم «نب حبت-رع» وحامل خاتمه «ببي» وقد دعا «ماعت» هذا في نقوش لوحته بصلوات جنازية من أجل «أنتف عا» ابن «اكوي» هذه قائلًا:

> ليته يهبني قربانًا في الجبانة بقدر ما أحتاج إليه كل يوم من مأكل.

وهذه اللوحة محفوظة الآن (Polotsky Inschriften des XI Dynastie) بمتحف متروبوليتان بأمريكا.

وبعد مرور قرن على تاريخ هذه اللوحة نجد «سنوسرت» الأوَّل قد أهدى تمثالًا صغيرًا من الجرانيت الأشهب على هيئة رجل جالس متربع على الأرض وذراعاه موضوعتان على صدره بخشوع، وقد نقش اسم صاحب التمثال في بردية محفورة على حجرة جاء فيها:

> عمله ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر-كا-رع» بمثابة أثر لوالده الأمير «أنتف عا» قربانًا ملكيًّا يقدَّم من خبز وجعة ونبيذ وألف من البقر والإوز وألف من أواني المرمر وألف من الملابس والبخور إلى المحترم عند «آمون» رب عروش الأرضين الأمير الوراثي «أنتف رعا» الذي وضعته أمه «اكوي».

(Legrain, Statues et Statuettes de Rois et de Particuliers No. 42005 & Evers, Staat aus dem Stein Pl. 52).

أسرة أنتف

وتدل كل الشواهد على أن جد سلالة أمراء «طيبة» وهم الذين أصبحوا فيما بعد ملوكًا فيها كان يسمى «أنتف» وكان أميرًا معروفًا للخاص والعام؛ لدرجة أن «تحتمس الثالث» الذي خلفه على عرش مصر بعد ثمانمائة عام بنى في معبده بالكرنك قاعة خاصة لأجداده ونقش أسماءهم عليها، وكان أول اسم نقشه على جدرانها للأسرة الحادية عشرة هو: الحاكم

والأمير الوراثي «أنتف» المبرأ ولكنه لم يضع الاسم في طغراء (Prisse; Monuments Egyptien, Pl. 1; Sethe, Urkunden der 18 Dynastie; IV. 606).

وقد كشف «مريت» عن لوحة جنازية لهذا الأمير في «ذراع أبو النجا» وهي غاية في دقة الصنع، وقد نقش عليها بعد الصيغة الدينية: الأمير الوراثي والحاكم العظيم لمقاطعة «واست» (طيبة) والذي يرضى الملك بوصفه حارس باب الجنوب، والعماد العظيم لمحيي الأرضين، والكاهن الأوَّل المقرَّب لدى الإله العظيم رب السماء «أنتفي».

(Mariette, "Monuments Divers Recueilles en Egypte et en Nubie, P. 16, Pl. 50; Maspero, Dawn of Civilisation, P. 115; Lange und Schafer," Grab und Denkstein des Mittleren Reich, No. 20009; Breasted, Ancient Records, Vol. 1, Par 420).

غير أن اسم «أنتفي» هنا يوحي إلينا بأننا أمام لوحة لحاكم مقاطعة آخر غير ابن السيدة «اكوي»، ويحتمل أن هناك «أنتف» ثالثًا على لوحة لفرد عادي يحمل نفس الاسم «أنتف»، ويدل الطراز الجميل الذي نُقشت به لوحته على أنه من المحتمل أن ينسب إلى عصر متأخر عن عصر «أنتف» الذي نحن بصدده، وقد جاء فيما بعد الصيغة الدينية = حامل الخاتم، والسمير الوحيد، والمشرف على التراجمة القائد = أنتف = يقول: إني أنحدر في النهر وأصعد فيه مع الأمير الوراثي وحاكم المقاطعة العظيم للوجه القبلي «أنتف»، وتشاهد زوجه واقفة خلف صاحب اللوحة وقد نعتت بأنها زوجه المحبوبة، وحلية الملك الفريدة (وصيفته) رئيسة الكهنة «إرو».

(Spiegelberg & Portner, Grab und Denksteine aus Suddeutschen Sammlungen, Vol, I. Pl. XI, No. 18; Spiegelberg, Zeitschrift für Agyptis-che Sprache "1912" P. 119).

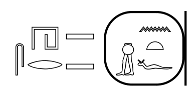
ولدينا قطعة من لوحة عثر عليها في «دندرة» لكاهن الإلهة «حتحور» سيدة «دندرة» تذكر لنا اسم أمير عظيم للأرض الجنوبية يسمى «أنتف عا»، ومن المحتمل أنه أحد هؤلاء الأمراء (Daressy A. S. 1919, 185).

ومن كل هذا نرى أننا أمام اثنين بل أربعة من أعضاء هذه الأسرة قد اختلط علينا أمرهم بسبب تشابه أسمائهم، فلدينا «أنتف عا» بن «اكوي»، و«أنتفي» و«أنتف عا» ومن المحتمل «أنتف» آخر، وكل هؤلاء قد عاشوا في القرن الذي جاء بين قيام دولة «إهناسية المدينة» والثورة التي قام بها الطيبيون.

ومن المحتمل أن يكون أكثر الأمكنة ازدحامًا بالسكان في «طيبة» هو الذي حول «الأقصر» الحالية، وكان يُعرف في الأزمان القديمة باسم «أبت» (الحريم).
(Steindorff and Wolff, Thebanische Graberwelt P. 9).

وتدل ظواهر الأمور على أنه عندما امتدت قرية الأحياء على الشاطئ الأيمن للنيل حتى جاورت معبد «منتو» بالكرنك، كانت مدينة الأموات الواقعة في الغرب على ما يظهر قد نُقلت إلى الشمال، ولم يكن في هذه البقعة صخور مجاورة ليتمكن الأهلون من أن ينحتوا مثواهم الأبدي؛ وذلك لأن الصحراء الواقعة شمالي بداية وادي الملوك عبارة عن سهل من الحصباء يشبه بعضه البعض، وتخترقه مجاري ماء، غير أنه كان في وسع الرجل الرقيق الحال أن يحفر حفرة مستطيلة بصورة لا تجعل التابوت يُخدش عندما يدلى في القبر، أما إذا كان صاحب القبر من أهل اليسار خط لنفسه مقبرة ذات ردهة محفورة في السهل وأقام لها رواقًا ذا عمد بسيطة، وفي خلال القرن الذي تلا استعمال هذه البقعة نجد أن هذه الجبانة قد شغلت ما يزيد عن كيلومتر من هذه الصحراء شمالًا وجنوبًا، وما يماثل هذه المساحة غربًا (Petrie, Qurneh P. 2)، ونظن أن أمراء المقاطعة قد دُفنوا في المقابر الكبيرة الواقعة في الطرف الشمالي من هذه الجبانة بالقرب من مجرى المياه الذي يخترق السهل قبالة معبد «منتو»، ولا نستطيع أن نقطع بمكان دفنهم، غير أننا لسنا بعيدين عن الصواب فيما ذهبنا إليه؛ وذلك لأن العادة قد جرت في أسر التاريخ المصري أن يشغل الفضاء المعد لإقامة المقابر مبتدئًا من الشمال ومنتقلًا إلى الجنوب، وفي هذه الجبانة التي نحن بصددها الآن نجد أن هذا الميل كان متبعًا، وقد أثبتت ذلك الحفائر الضئيلة التي أجريت في هذه الجهة حديثًا.

سهر تاوى أنتف (٢١٤٣–٢١٤٠ق.م)



ويظهر أنه قد جاء بعد «أنتف» مؤسس هذه الأسرة أنتف آخر كان يحكم المقاطعة الطيبية، ولقد أحس في نفسه القدرة على اغتصاب ملك البلاد الجنوبية، ولكنا لم نرَه — كما لم نرَ أحدًا من خلفائه الثلاثة الذين تولوا بعده الملك — يلبس تاج البلاد المزدوج «تاج الوجهين القبلي والبحري» وإن كان يُلقب كل واحد منهم نسوت بيتي «ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري»، وقد روت لنا الأجيال التالية لحكمه أن اسمه «حور سهر تاوى»؛ أي حور مهدئ الأرضين، ابن الشمس أنتف، من غير لقب خاص أو اسم آخر من أسماء هؤلاء الملوك الذين كانوا يحكمون القطرين؛ أي (Vandier, Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale "1936" P. 102; F. Bisson de la Roque, Tod. P. 75, Fig. 27, 30)، أنه لم يحمل كل الألقاب الفرعونية الرسمية التي كان يلقب بها الفرعون يوم توليته العرش في احتفال رسمي (مصر القديمة جزء أول).

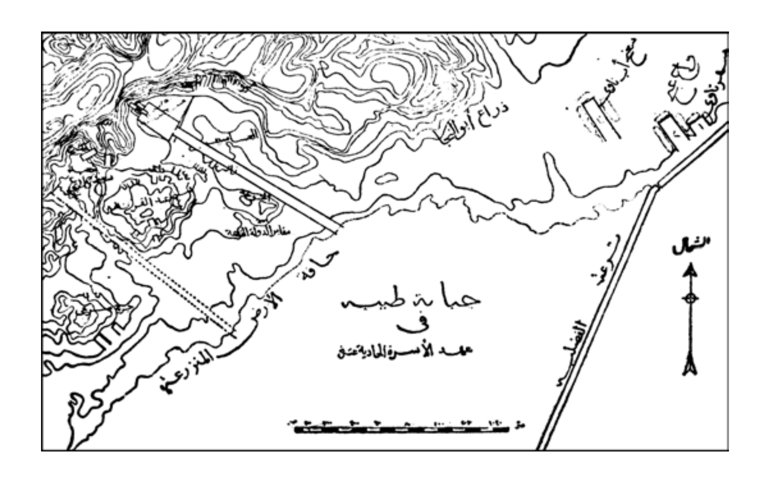
ويعتبر «سهر تاوى أنتف» في نظر التاريخ الأمير الأوَّل من الأمراء الستة الذين تتألف منهم الأسرة الحادية عشرة، وهم الذين حكموا نصف البلاد قبل مجيء الأسرة الثانية عشرة بما يقرب من ١٤٣ سنة؛ أي منذ نحو سنة ٢١٤٣ق.م، إلى سنة ٢٠٠٠ق.م، وقد كان أوَّل حاكم طيبي كتب اسمه داخل طغراء، بل إنه بدأ سافرًا وظهر في غير التواء مناهضًا للفرعون الذي كان يحكم البلاد في «إهناسية المدينة» و«منف» في تلك الفترة.

ولقد أفلح هذا العصيان وأتى بثمره، قبل وفاة «سهر تاوى» بثلاث سنين أو أربع، وكان قد أتم إقامة مقره الأخير على الضفة الغربية للنيل، وتدل ظواهر الأمور على أنه

مكث يحكم «طيبة» عدَّة أعوام، ولا أدل على ذلك من أنه حفر مدفنه في الجبانة الشمالية على مقربة من مقابر حكام المقاطعة.

وهذا النوع من المقابر الملكية يطلق عليه المصريون الآن في هذه الجهة «صف»، ويطلق هذا الاسم بخاصة على أول مقابر ملكية في طيبة الغربية انظر (شكل ١) لأنها تشمل صفوفًا من الأبواب الغائرة في سهل الصحراء، وهذه المقابر كانت تتجه نحو «الكرنك» وقد كانت مقبرة هذا الأمير، أو صفه كما يسميه سكان هذه الجهة الآن، مقامة في السهل المنبسط المكوَّن من الحصا على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا عبر النهر من معبد الإله «منتو»، وكانت قد حُفرت على عمق خمسة أو ستة أمتار في جوف السهل، غير أنها كانت تظهر للعين أكثر عمقًا من ذلك، لما تراكم حولها من الأكوام الهائلة من شظيات الأحجار، وقد كان عرضها حوالي ٨٠ مترًا وطولها يربي على مائة متر قبل أن تخترق ترعة الري الحديثة طرفها الشرقي، وعلى الإنسان الذي يريد الوصول إليها أن يسير من شاطئ النهر قبالة طيبة مخترقًا سهلًا ضيقًا؛ حيث كان صناع اللبن يصنعون لبناتهم التي كانت تحتوي على جزء كبير من الرمل، ولما تحوَّل النيل في السنين الأخيرة نحو الشرق بقي غرينه الجميل، فأصبحت اللبنات التي تُصنع منه تشبه التي تُصنع في عصرنا الحالي. وعلى مسافة خطوات قليلة بعد حفر عمال اللبنات تصادفنا الصحراء، وهنا نجد الردهة الغائرة ذات الأبواب التي أقيمت فيها من كل الجهات، وهي التي تؤدي إلى المقرات الأبدية لرجال بلاط «سهر تاوى»، ويوجد خلف «الصف» نحو الاثني عشر بابًا، وهي التي تشتمل عليها مقبرة هذا الأمير، وهذه الأبواب تنحدر عند زاوية في الصخرة من واجهة بارزة ومنحدرة بعض الشيء، وإنا لنظن أن هذه الواجهة كانت قاعدة لهرم مصنوع من اللبن أقامه هذا الأمير فوق مقبرته، ومما يؤسف له جدَّ الأسف أننا لا نعرف عن هذا الفرعون شيئًا غير اسمه، وغير هذه المقبرة التي كانت بلا مراء مقره الأخير، وغير ثلاث السنوات التي سلخها في حكم البلاد.

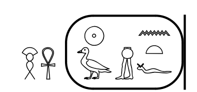
ولا نزاع في أنه هو أول من وضع اسمه في طغراء، واكتسب لنفسه بعض مظاهر الملك من حكام مقاطعة طيبة الذين حكموها زهاء قرن؛ غير أننا لا نعرف شيئًا عن أية حادثة حدثت في عهده خاصة بالحروب التي هزت أركان البلاد نحو ثمانين عامًا أو تزيد.



جبانة طيبة
في
عهد الأسرة الحادية عشر
ذراع أبو النجا
حافة الأرض المنزرعة
ترعة الفضلي
الشمال

شكل ١

واح عنخ-أنتف حوالي (٢١٤٠–٢٠٩١ق.م)



لما توفي سهر تاوى تولى بعده الحكم على طيبة والمقاطعات الأربع الأخرى المؤلفة للوجه القبلي وقتئذ فتى في ريعان الشباب بقي معتليًا عرش ملكه قرابة نصف قرن، والمرجح أنه تولى قيادة ملكه حوالي عام ٢١٤٠ق.م، وقد تسمى باسم «حور-واح عنخ» = (حور مثبت في الحياة) أنتف العظيم، ومما يؤسف له أننا نجد اسمه الحوري قد تهشم بفعل الزمن في قائمة الملوك بالكرنك، وهي تلك التي كتبها الكهنة للفرعون «تحتمس الثالث» أما في ورقة «تورين» فبالرغم من ضياع اسمه قد استخلصنا من طول مدة حكمه الذي بلغ تسعة وأربعين حولًا أنه وضع ترتيبه الثالث بدل الثاني من ملوك هذه الأسرة، ولا نزاع في أنه كان أحد أبناء «سهر تاوى» غير أنه لم يكن ولده البكر.

وقد جرت عادة ملوك مصر في عهد الدولة الوسطى في غالب الأحيان أن يتبادلوا الأسماء من جيل إلى جيل، ولا يبعد إذن أن يسمى «سهر تاوى أنتف» بكر أولاده «منتو حتب» وأنه لما تُوفي قبل والده ورثه في الحكم ابن آخر اسمه «أنتف» وهو الذي لقب نفسه «حور-واح-عنخ» ومن المدهش أنه لم يصلنا حتى الآن إلا شواهد ضئيلة عن الحروب التي يغلب أن أوارها ظل يستعر في طول البلاد وعرضها أيام «واح عنخ» هذا، على أن لوحة الموظف العظيم «ثثي»[١] الذي عاصر هذا الملك وعاصر خليفته، وهي أهم أثر وصل إلينا من عهده لم نرَ فيها أية إشارة للحروب فقد جاء فيها:

[١] Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XVII (1931) P. 56.

يعيش حور واح عنخ طويلًا، ملك الوجه القبلي والوجه البحري ابن رع «أنتف» مبتدع الجمال والعائش مثل رع مخلدًا! خادمه الحقيقي وموضع محبته، صاحب المكانة الرفيعة في بيت سيده، والحاكم المتناهي في عقله، الذي يعرف إرادة سيده، والذي يتبعه في كل روحاته، والذي يمثل قلب جلالته وحده حقيقة، والذي يحتل المكانة الأولى بين العظماء في القصر، والمشرف على الأشياء الثمينة التي في المكان الخفي والتابع المقرب «شمو» للملك» والمبجل ثثي يقول: لقد كنت إنسانًا محبوبًا من سيده ممدوحًا منه كل يوم، وقد أمضيت حقبة طويلة من السنين في خدمة جلالة سيدي، حور العائش طويلًا، مطول البلاد وعرضهالك الوجه القبلي والوجه البحري ابن الشمس «أنتف» عندما كانت هذه الأرض تحت إشرافه جنوبًا من «إلفنتين» (أسوان) إلى «شس» (العرابة المدفونة) في مقاطعة طيبة، وكنت؛ إذ ذاك خادمه الخاص، وتابعه الحقيقي؛ ولقد جعلني عظيمًا ورفع مكانتي واتخذني موضع ثقته في قصره الخاص، وكانت الأشياء الثمينة في حوزتي وتحت خاتمي، بما في ذلك الطيبات النادرة الوجود التي كانت تُجلب لجلالة سيدي من الوجه القبلي ومن الوجه البحري، وكانت تحتوي على كل شيء يجلب السرور، من منتجات كل البلاد وذلك بسبب رهبته في هذه الأرض، وكانت هذه تُجلب دائمًا لجلالة سيدي بمعرفة الرؤساء الذين يحكمون الأرض الحمراء؛ لأنهم يخافون جلالته في كل البقاع الجبلية، ولقد عهد إليَّ بهذه الأشياء بعد أن أيقن أني جم النشاط وقد وضعت له تقريرًا في ذلك، ولم يحدث تقصير أستحق عليه عقابًا؛ لأني كنت حازمًا؛ موضع ثقة حقيقية عند سيدي، وحاكمًا غاية في العقل هادئ الأخلاق في بيت سيده، حانيًا الذراع بين العظماء، ولم أتعوَّد البحث وراء الشر الذي بسببه تُكره الرجال؛ وإني إنسان يحب الخير ويكره الشر وشخصية محبوبة في بيت سيدها، وإنسان تعود أن ينفذ كل واجب حسب إرادة سيده، وإذا وُلِّيت عملًا مثل تحقيق شكاية، أو فحص ملتمس إنسان في حاجة كنت عادلًا، ولم أعتَد أن أتخطى التعليمات التي فُرضت عليَّ، ولا أن أضع شيئًا مكان آخر، ولم أكن متغطرسًا لما أوتيته من ثراء، ولم آخذ شيئًا اختلاسًا لأجل أن أنهي عملًا، ولقد نفذت كل إرادة ملكية وَكَّلَ جلالته أمرها إليَّ، وقمت بما أمرني به من مهام يريدها قلبه مهما عظمت، وقد أتممت كل ما دوِّن خاصًّا بها ولم يوجد فيها تقصير قط؛ لأني كنت حازمًا.

ولقد صنعت سفينة للمدينة، وقاربًا «سحت» لأرافق فيه سيدي عندما كان يجري الحساب مع العظماء وفي أية مناسبة لجلب شيء أو إرسال شيء؛ وهكذا كنت ثريًّا وكنت عظيمًا؛ لأني كنت أمدُّ نفسي من أملاكي الخاصة التي وهبني إياها جلالة سيدي، فلقد كان يحبني دائمًا (حور العائش طويلًا ملك الوجه القبلي والبحري، ابن الشمس «أنتف» ليته يعيش مثل رع مخلدًا) حتى ذهب في سلام إلى الأفق (أي تُوفي)، وعندما خلفه ابنه «حور نخت-تب نفر» ملك الوجه القبلي والوجه البحري ابن الشمس «أنتف» خالق الجمال الذي أتمنى أن يعيش مثل رع إلى الأبد تبعته في مظان مسراته الطيبة، ولم يوبخني مرة؛ لأني كنت حازمًا، وقد وَكَّل إليَّ كل الوظائف التي كنت أشغلها في عهد والده فزاولتها تحت إشراف جلالته، ولم أرتكب أي تقصير فيها، وأمضيت كل أوقاتي على الأرض أعمل تابعًا للملك ملازمًا شخصه، وكنت ثريًّا، وكنت عظيمًا في عهد جلالته وكنت إنسانًا كوَّن شهرته، ومدحه سيده ليل نهار.

ولوحة «ثثي» هذه وإن لم تحدثنا بشيء عن حروب «واح عنخ» إلا أنها تلقي بعض الضوء على ذلك العهد الذي نجهله من حيث النقوش؛ فيحدثنا «ثثي» بأنه كان المشرف على الأشياء الثمينة الخفية التي كانت في حيازة هذا الملك، وأنه هو الذي كان يعلم المكان الذي أخفيت فيه مما يشعر بثقة الملك به، وكذلك بأن الملك كان في خوف على متاعه الثمين الخاص مما يدل على اضطراب الحال في البلاد، وكذلك يحدثنا «ثثي» بأن العظماء كانوا يدفعون ضرائب، وأن الملك كان يقوم بنفسه ليحاسبهم على ذلك إذا خالف واحد منهم الأوامر، وكان «ثثي» يتبع الملك في هذه الجولات في قاربه الخاص، هذا إلى أن رؤساء المقاطعات أو البلاد الصحراوية كانوا يقدِّمون للملك الجزية مما تغله أراضيهم، وفضلًا عن ذلك فقد حدَّد لنا «ثثي» البلاد التي كانت تحت حكم «واح عنخ» وهي من أسوان إلى طينة (أي العرابة المدفونة).

أما ما يذكره «ثثي» عن أحسن الأشياء المختارة التي كانت تأتي للملك من الوجه القبلي والوجه البحري فقد ذكرت من طريق المبالغة وحدها.

وما تحدَّث به «ثثي» عن نفسه وما كان عليه من الاستقامة والعدل ومضاء العزيمة فنعرة كانت شائعة عند كبار الموظفين جميعهم في كل عهود التاريخ المصري، وبخاصة في عهد الدولة الوسطى التي قام فيها رجال الإصلاح يطالبون بالعدالة الاجتماعية، ولدينا نقش آخر من هذا العهد على صخرة في أسوان غير أنه ليس مؤرخًا، ونرجح أنه من عمل

الموظفين الذين ذهبوا للبحث عن الجرانيت الأحمر؛ إذ قد وجد منقوشًا على الصخور في إلفنتين اسم «حور–واح–عنخ»، ابن الشمس (أنتف العظيم) وذلك يدل على أن عماله كانوا قد ذهبوا إلى هذه الجهة يفحصون قطع الجرانيت المنفصلة كما فعل أجدادهم في عهد الدولة القديمة من قبل.

ويقول الأستاذ «ونلك»[٢] عن نقوش «ثثي» هذه: إنها لا بد أن تكون قد كتبت في الفترات العدِّة التي وقعت فيها مهادنة بين القطرين؛ لأنه ليس فيها ما يوحي بثورة المقاطعات الخمس النائية في عهد «سهر تاوى» أو أن «واح عنخ» كان ينتظر الفرصة المواتية ليمدَّ حدود أملاكه.

وقد كان في حاجة بوجه خاص ليمدَّ نفوذه إلى مقاطعة «العرابة المدفونة» (طينة) عندما ينحني النيل انحناء عظيمًا نحو الشمال الغربي، حيث كانت تقع «العرابة» ومعبدها، على أن «قفط» التي كانت عاصمة هذه المقاطعات الخمس في عهد الدولة القديمة لم تعد بعدُ الحاضرة؛ لأنها نزلت عن مكانتها لطيبة الواقعة في أحد السهول الواسعة الجنوبية على امتداد شاطئ النهر. وقد بدأ الآن سكان أهل الجنوب — وتقرب مساحة بلدهم نحوًا من مائتي ميل — ينظرون بعين جشعة إلى «طينة» والعرابة، والظاهر أن «سهر تاوى» لم يلقَ عنتًا كبيرًا من بلاد الوجه البحري مدَّة حياته، ولا بد أنه كان يعتبر في نظر الفرعون في «هيراكليو بوليس» (إهناسية المدينة) بمثابة شريف مشاغب يحكم على المقاطعات الخمس التي في أقصى الصعيد، ويعدُّ من الذين كانوا قد أغرتهم العظمة. هذا؛ ولم نجد أية إشارة في نقوش أمير مقاطعة أسيوط عن «واح–عنخ» وعلى أية حال فإن أسيوط تقع تقريبًا في منتصف الطريق بين طيبة وإهناسية المدينة؛ فكانت لذلك بعيدة عن أية مشاغبة مع أمراء الجنوب.

علاقات الملك مع أمراء المقاطعات في هذه الفترة

وتدل النقوش التي تُنسب إلى هذا العصر كلها على أن «سيوط» كانت موالية لملك «هيراكليو بوليس» بل كانت أكبر عضد له في محاربة من ثاروا عليه. ففي نقوش مقبرة «خيتي» الذي كان يلقب بالأمير والحاكم وخازن مالية الفرعون والسمير الوحيد والكاهن الأول

[٢] Journal of Near Eastern Studies Vol. II. 1943, No. 4 P. 255.

للإله «وابوت» سيد أسيوط نقرأ: «أنه جَنَّد جنودًا … وحاملي أقواس» وجعلهم درعًا أمامية للوجه القبلي، وكان له أسطول جميل وكان محبوبًا لدى الملك أينما صعد في النهر (Brunner, Graber der Herakleopolitarzeit Tomb V, line 1.).

وكذلك تحدَّث إلينا «خيتي» عن حفر ترع عندما كانت البلاد كلها قاحلة، ثم تكلم عن رعايته لسكان مقاطعته في وقت القحط، غير أن هذه العبارات نجدها مكررة في كثير من نقوش هذا العصر كما سنرى، بل نجد أن خلفه قد كررها في نقوشه أيضًا (Ibid, Tomb III,1, 13).

ولكن «خيتي» يقفنا على ارتباطه الوثيق بالفرعون عندما يقول: «لقد جعلني حاكمًا عندما كنت لا أزال طفلًا طوله ذراع (أي عندما ولدت) ووضعني على رأس أولاده وجعلني أتعلم السباحة مع الأمراء الملكيين … وكانت أسيوط سعيدة بقيادتي وشكرتني «هيراكليو بوليس»، وقال عني الوجه القبلي والوجه البحري إنني مثل أولئك الذين تربوا مع الملك.

أما مقاطعات الشمال فقد انتشرت فيها الفوضى والعصيان، حتى إن أمراء مقاطعة «الأرنب» (المقاطعة الخامسة عشرة في الوجه القبلي) قد أعلنوا الحرب على الفرعون نفسه، ولقد شجع هذا العمل أمير طيبة الذي كان سلطانه يزداد يومًا بعد يوم على العصيان والتمرد. ولما كانت هذه المقاطعة تعد من أهم المقاطعات في ذلك العصر بخاصة؛ لأن أمراءها أعلنوا الحرب على أحد فراعنة هيراكليو بوليس مما أدى إلى الخضد من شوكة العرش رأينا أنه لا بد من التحدث عن هؤلاء الأمراء، وعن الدور الذي لعبوه مع الفرعون في تلك الفترة (أي العهد الإقطاعي الأول).

تدل ظواهر الأمور كلها على أن أسرة حكام مقاطعة الأرنب كانوا مشاغبين ثائرين، ولا أدل على ذلك من أن «عجاتخت» أحد حكامها الأول الأقوياء البطاشين قد بين سياسة الشدة التي اتبعها في عصره؛ حيث يقول في نقوش قبره؛ يصف لنا نفسه:

> كنت إنسانًا أدى الحق، ذرب اللسان بين الخصوم وتكلم بلسانه ونفذ بساعده، ومتيقظًا لخطواته بين الحكام … وكنت محارب العصبية … وكنت صاحب المشورة في مجلس استشارة الموظفين في يوم الكلمات المؤلمة.[٣]

[٣] Newberry, El Bersheh, II, Pl. 13.

وفي هذا دليل قاطع على أن الأحوال لم تكن هادئة وقتئذ في الحكومة، ولقد بلغ الخلاف أشده في عهد «نحري» الأول وهو أحد حكام المقاطعة المتأخرين عندما احتك بالتاج، وقد كان «نحري» هذا إلى العام الرابع من حكمه لا يزال مطيعًا مولاه الفرعون، يدل على ذلك ما قرأناه من أن المشرف على سفنه المسمى «نتروحتب» قد ساح في كل مصر من إلفنتين إلى الدلتا لأجل أن يؤدي مهام سيده المتعلقة بالقصر، ثم تكلم بعد ذلك عن احترام مجلس الدولة لسيده،[٤] ولكنا في السنة التالية نسمع بقيام ثورة مسلحة في مقاطعة الأرنب، ففي نقش مؤرَّخ بالسنة الخامسة من حكم «نحري» يحدثنا «كاي بن نحري» الذي يظهر أنه كان مشتركًا مع والده في حكم المقاطعة عن الدور الذي قام به في الحرب التي نشبت فيقول: «وقد جندت جنودي من الشبان وسرت للحرب مع مدينتي، وقد كنت أقوم بنصيبي في المؤخرة في «شديت شا» (اسم مكان مجهول) مع أنه لم يكن معي غير أتباعي من «ألمزوي»، و«واوات» ... والأسيويين (؟) وكان الوجه القبلي والوجه البحري متحالفين ضدي، وقد عدت بعد نجاح باهر ... ومعي كل أهل مدينتي دون خسارة، ولقد خلصت الضعيف من القوي، وجعلت من بيتي حصنا لمن أصابهم الخوف في يوم النزال.»

ويخبرنا كذلك «ماتخوت نخت» أخو «كاي» الذي كان يقوم على أمور المقاطعة الدينية أنه كان ظهير مدينته في «شديت شا» عندما فر كل فرد،[٥] ولا نزاع في أن الفقرتين الأوليين يدلان بوضوح على تاريخ هذه الحرب وعلى شخصية الخصم «فكاي» يخبرنا أن جيش الأعداء قد جند من الوجهين القبلي والبحري، وبذلك لا يكون قد قام بهذه الحروب ضد أناتفة طيبة الذين لم يكونوا قابضين على ناصية الحكم في الدلتا، وكذلك من باب أولى لا يمكن أن يكون محالفًا لهم، يضاف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يكون قد شق عصا الطاعة على أحد الملوك الذين كانوا يسمون «منتو حتب» وهم الذين حكموا البلاد جميعها؛ لأنه ليس من المعقول أن يكونوا قد تركوا خلفهم رجلًا قويًّا من الأشراف يستطيع أن يثور ضدهم، هذا فضلًا عن أن نقوش «حتنوب» كما يقول الدكتور «أنتس»[٦] كانت أقرب في تاريخ نقشها إلى نقوش أسيوط التي تصف لنا حروب أمراء «طيبة» ضد بيت «هيراكليو بوليس» وعلى ذلك فالحل الوحيد الذي بقي لهذا الموقف هو أن هذا العصيان الذي قام في

[٤] Anthes, Die Felseninschriften Von Hatnub, Graffito, 17.

[٥] Anthes, Ibid, Graffito 17.

[٦] A. Z. LIX, 100 & Anthes, Ibid, P. 92.

مقاطعة الأرنب قد حدث قبل قيام الثورة في الجنوب بقليل، وأن المناهض للثوار هو ملك «هيراكليو بوليس»، ولا نزاع في أن ملك «هيراكليو بوليس» كان وقتئذ مسيطرًا على البلاد كلها، وقد كان في مقدوره أن يجند جنودًا من النوبيين مما جعله صاحب السيادة، ولا أدل على ذلك من العثور في «سيوط» التي كانت موالية له كما ذكرنا على تمثال خشبي لأحد رماة السهام خشن الصنع من الجنس النوبي،[٧] على أن تجنيد النوبيين هذا لم يعد ممكنًا بعد ثورة أمراء طيبة ضد العرش في «إهناسية المدينة».

وقد كانت نتيجة هذا الصراع بين الفرعون والأمير «نحري» أن انهزم الأخير هزيمة منكرة، فبعد أن استرد العاصمة التي طرده منها جيش الملك اضطر كما سنرى إلى أن يسرح جيشه، وتدل فقرة من نقوشه مؤرخة بالسنة السادسة من حكمه على أنه خضع[٨] للفرعون، وقد وصف «نحري» نفسه بأنه «إنسان يرد كلمات من يريد أن يعارضه، وأنه هو الذي قال للملك ما أمره به عندما حل يوم الاستشارة» وعلى أية حال فإن «نحري» وابنه قد استمرا يفخران بعصيانهما الفرعون؛ إذ في نفس نقوش السنة السادسة لم يكن «نحري» قد تحول عن الإشارة إلى أنه إنسان فتح بيته لمن انتابه الخوف في يوم النزال، وأنه قلعة في داخل مقاطعته يأوي إليها كل الناس.

وليس هذا نهاية ما تبجح به حكام هذه المقاطعة، فإنا نرى في نقوش يحتمل أن تاريخها يرجع إلى السنة السابعة[٩] من سني حكم «كاي» بن «نحري» يتكلم فيها بصراحة تامة عندما كان يتحدث عن الجنود الذين حلوا محل جنود آخرين شتتوا فيقول:

> لقد جندت جنودها من الشباب ليكون عددهم عظيمًا، بدل جنودها الذين عدلوا في أماكنهم واستوطنوها واستقروا في دورهم (أي أصبحوا ضمن السكان وقعدوا في منازلهم) ولم ينفروا إلى القتال في وقت الفزع من القصر، وخلصت مدينتي في يوم النهب من الهلع الذي اعتراهم من القصر، وكنت حصنها في يوم المعركة وحاميها في «شديت شا». وكذلك يصف لنا «تحوت تحت» الدور الذي لعبه في إنقاذ المدينة بألفاظ مماثلة[١٠] على أن «نحري» نفسه في نقش

---

[٧] Scharff, Die Historische Abschnitt der Lehre für Konig Merikaré P. 21.

[٨] Anthes, Ibid, Graffito.

[٩] Anthes, Ibid, Graffito 25.

[١٠] Anthes, Ibid, Graffito 23.

> مقطوع بنسبته إلى السنة السابعة[١١] من حكمه يقول: لقد كنت عضوًا شجاعًا في المعسكر، وإنسانًا يقظًا لخطواته في كل مكان، وعندما قال الملك: تجهز للحرب، أخذت أهبتي أيضًا للأمر، «وكنت حصنًا في «شديت شا» يأوي إليه كل الناس، وكنت إنسانًا ترتعد الناس منه، وخوفه في قلوب القوم مثل «سخمت» في يوم الواقعة.»

والمدهش في هذا الاقتباس الأخير أنه هو المبارزة الرسمية التي قالها الفرعون لخصمه الثائر، وهذا الحادث يذكرنا بالشكوى التي نطق بها الملك «مري كارع» في تعاليمه الخاصة بالبدو المغيرين: «إنه لا يعلن يومًا للقتال فهو في ذلك مثل من يقوم بالقضاء على متآمرين.» ولا جدال في أن كل المقتبسات السالفة الذكر تشير إلى الحملة التي قام بها «نحري» في السنة الخامسة من حكمه، ولا أدل على ذلك من الإشارات المتعددة إلى المكان «شديت شا» وإلى الحماية التي قدِّمت للشعب خلال الحرب، وتدل الأحوال على أن هذا العصيان الذي حمل لواءه «نحري» كان قبيل نشوب الحروب التي شنتها «طيبة» على الفرعون، تلك الحروب التي كان في مقدور الفرعون أن يقضي عليها في الحال بفضل تهادنه على ما يظهر مع أمير مقاطعة الأرنب الثائرة، وإلا فإن تركه مقاطعة معادية له خلف أمراء أسيوط في الوقت الذي قام فيه أمراء طيبة بهجومهم؛ كان من شأنه أن يقطع مواصلاتهم مع العاصمة، ويشل من مقاومتهم لزحف أمراء طيبة، ولسنا ندري شيئًا عن مثار الخلاف بين الملك وحاكم المقاطعة؛ إذ لم تذكر لنا النقوش شيئًا عن ذلك، غير أنه مما يجدر ذكره أن «نحري» لم يأبَ في نهاية الأمر السيادة الاسمية للفرعون الحاكم في ذلك الوقت برغم عناده ونفوره من الخضوع له خضوعًا فعليًّا، وهو في هذا يختلف عن أناتفة «طيبة» الذين تزيوا بزي الملك من وقت أن شقوا عصا الطاعة، وادَّعوا لأنفسهم عرش مصر كلها في آخر المطاف.

هذا ما كان من أمر مقاطعة الأرنب المعادية، أما المقاطعات التي كانت تليها شمالًا مثل بني حسن؛ فكان إسهام القوم في المعركة التي كانت على أبوابهم بين الفرعون وأمراء طيبة يتوقف مقداره على قربهم من ساحة القتال، بل إن استقلال الأشراف في مقاطعات أعلى النهر كان يزداد كلما اضطر ملك هيراكليو بوليس إلى تفريق جيشه للقضاء على

---

[١١] Ibid, Graffito 25.

أعداء البلاد المنتشرين في داخلها، وأعني بهم حكام الإقطاع الوراثيين المعادين للفرعون، أما في «أسيوط» التي كانت دائمًا مهادنة لفرعون «هيراكليو بوليس» فكانت حالتها على ما يظهر تدل على الرخاء والطمأنينة في ذلك العهد، فلقد تولى بعد موت «خيتي» الذي تكلمنا عنه فيما سبق ابنه المسمى «تف إب»، وكان يحمل ألقابًا طنانة مثل ألقاب والده، فاستمع لما يقول في نقوشه التي تركها لنا على جدران مقبرته الواقعة في جبل أسيوط واصفًا حالة الأمن والرخاء في طول البلاد وعرضها:

> وعندما يجن الليل يمدحني أولئك الذين ينامون على الطريق؛ لأنهم كانوا في أماكن كأنهم في بيوتهم، وكانت قوة جنودي المخيفة هي حمايتهم عندما كانت وحوش الحقل تنام بجوارهم (Brunner, Ibid Tomb III, 1. 10).

وبقدر ما كانت عليه أسيوط من أمن ودعة كان الفزع يغزو الجهات التي في أعلى النيل، ثم يستمر «تف إب» واصفًا أول معركة بين جنوده والمقاطعات الجنوبية التي تجمعت من إلفنتين جنوبًا ثم انحدرت في النهر إلى مكان مجهول بالقرب من العرابة، والظاهر أنه هزمهم هزيمة منكرة؛ إذ قال: «وأتيت إلى المدينة وهزمت أعداء الفرعون واقتفيت أثرهم إلى حصن سد رأس الوجه القبلي وأعطاني الفرعون أرضًا مكافأة.» وقد تبع «تف إب» قتال أمراء طيبة وحلفائهم حتى ولُّوا الأدبار إلى شرق البلاد، فاصطادهم آخرون في الجنوب مثل كلب الصيد الذي يقفز بخطوات واسعة خلف غزال مذعور، ولا شك في أن الإنسان عندما يقرأ مثل هذه العبارات الصريحة لا يتسرب إليه أي شك في نجاح الجيش الإهناسي، ولكن الأمور لم تجرِ مع جيش الشمال (جيش الفرعون وحلفائه) كما كان يظن، فقد كان لزامًا على «تف إب» أن ينازل الطيبين العصاة كرة أخرى بجيش آخر، وذلك عندما هاجمهم للمرة الثانية: «ولقد سرت نحوه بفصيلة صغيرة فقط وضربته ضربة مؤلمة حتى إنه ترك ميدان القتال في ذهول، وعادت مقاطعة أسيوط كالثور الذي يهاجم قطيعًا من الكلاب، ولم يهدأ لي بال حتى قضيت عليهم.» والظاهر أن قائد جيش الجنوب قد سار إلى الموقعة في ملابس جميلة ولكنه سقط في الماء وغرقت سفنه وهرب جيشه مثل الإوز أمام الصائد، «ولقد أشعلت النار في سفنهم وارتفع لهيبها أعلى من السارية، ولقد تغلبت على من قام بالعصيان.

وكان في مقدوري أن أقول وقتئذ لرئيس الوجه القبلي: أصغ، وكنت متأكدًا من أنه سيصغي إليَّ»، وفي نهاية هذا النقش تقريبًا نقرأ:

> وكانت الأرض في رعب أمام جنودي، ولم تعد هناك بلاد أجنبية لا تخاف هيراكليو بوليس بعدما رأت الدخان يتصاعد في المقاطعات الجنوبية.

على أننا قد سمعنا بعض الشيء عن هذه الغزوات نفسها من الجانب الآخر؛ أي من طيبة، فقد ترك لنا «زاري»[١٢] الذي دُفن في «طيبة» لوحة منقوشة نقشًا رديئًا جدًّا ومفعمة بالأخطاء حتى في أسماء الأعلام الذائعة الشهرة مثل «إلفنتين» و«العرابة المدفونة» مما يدل على جهل الحفار الذي نقشها، وقد جاء فيها:

> زاري ابن الأمير والسمير الوحيد «حسي» وكان أميرًا وسميرًا وحيدًا وحاكمًا للحاضرة ومشرفًا على مخازن الغلال يقول: «إن حور-واح-عنخ ملك الوجه القبلي والبحري ابن الشمس «أنتف» مبتدع الجمال أرسل إليَّ رسالة بعد أن حاربت بيت «خيتي» في مقاطعة «طينة» (العرابة المدفونة) ... وإن الأمير قد أعطاني سفينة لأحمي أرض الجنوبيين ... من جهة الجنوب حتى إلفنتين ومن جهة الشمال حتى اشقاو ... ولقد رقيت بين الكبار؛ لأني كنت مفترسًا يوم الواقعة، وقد غمرتني العظمة؛ لأني قمت بأعمال ممتازة وكنت رئيس مقاطعتي وصرت رجلًا قويًّا وأميرًا.

والظاهر مما سبق أن «زاري» هذا وزوجه الحظية الملكية وكاهنة «حتحور» المسماة «سنت منتو» كانا يعيشان عندما بدأ أمراء «طيبة» ينقضون على المقاطعة السادسة؛ أي مقاطعة «طينة» والعرابة التي كانت تعتبر بلدة مقدسة، والواقع أن «واح عنخ» قد ورث المقاطعات الجنوبية الخمس من أسوان وما تحتها، ثم أضاف إلى أملاكه المقاطعة السادسة وهي مقاطعة «طينة»، ووطد حدود ملكه الشمالية بالقرب من أفروديتو بوليس «كوم شقاو» في غربي النيل و«بانو بوليس» «إخميم» في شرقي النيل.[١٣]

---

[١٢] Walker, in Petrie, Qurneh P. 16. Pls. II, III.

[١٣] Meyer, Gesch. Ibid, Par. 276. Scharff, Der Historische Abschnitt des Lehre fur Konig Merikare, PP. 18 ff. أفروديتو بوليس «= كوم شقاو الحالية وهي المقاطعة العاشرة وبانو بوليس «إخميم» وهي المقاطعة التاسعة.»

غير أن الغنيمة الكبرى كانت العرابة ومعبد «أوزير» القائم فيها، ويرجع عهده إلى الدولة القديمة، وكذلك مقابر الملوك الأول الواقعة في الصحراء خلف العرابة، ولا يمكننا أن نقرر شيئًا هنا عن الدور الذي لعبه من كانوا يحجون إلى هذه البقعة المقدسة، أو الأموات الذين دُفنوا في هذه البلدة في أوائل عهد الأسرة الحادية عشرة، ولكنه من غير شك كان دورًا أقل أهمية بكثير من الدور الذي لعبه القوم في عهد الأسرة الثانية عشرة، ومع ذلك فإن من المقطوع به أن تملك معبد أوزير القديم كان له أهمية عظيمة في بداية الدولة الوسطى، وإن كان قد أصبح بعد مرور جيل أو أكثر أعظم أهمية وأعلى شأنًا عند ملوك الأسرة الثانية عشرة وأفراد الشعب على السواء؛ وذلك لقداسته العظمى.

لوحة واح عنخ أنتف

ومما يدعو إلى الأسف أن هذا الأمير العظيم «واح عنخ أنتف» لم يبقَ لنا من مخلفاته إلا لوحة واحدة عليها نقش هام، ولم يصل إلينا منها إلا الجزء الأسفل من نقوشها، وقد عثر عليها «مريت» عام ١٨٦٠، ولكنه تركها في مكانها. ومما زاد الطين بلة أن الأهالي قد هشموها في مكانها، وفي عام ١٨٨٢ راجعها ثانية «مسبرو» وأخيرًا جمع «دارسي» ما تبقى منها، وقد حفظ بالمتحف المصري القطع التي سلمت من يد التهشيم والضياع. والنقوش التي على هذه اللوحة تُقسم قسمين: جزء سياسي محض، والآخر ديني. ففي الجزء السياسي يقول «حور واح عنخ» ملك الوجه القبلي والوجه البحري ابن الشمس أنتف العظيم الموسوم بالجمال كيف سقطت طينة في يده، وكيف خرب تخومها الشمالية حتى مقاطعة «أفروديتو بوليس» (كوم شقاو)، «ولقد نزلت بالوادي المقدس واستوليت على مقاطعة «طينة» كلها وفتحت المعاقل جميعها وجعلتها «باب الشمال العظيم»، كما أن «إلفنتين» كانت باب الجنوب»، وكما يسمي أهل «إهناسية المدينة» هذا الصقع «رأس الوجه القبلي» (Lange & Schafer, Ibid, No. 20512 & Breasted, A. R. I, 421).

وتدل الأحوال على أن الفرعون كان يشعر بدنو أجله عندما أقام هذه اللوحة في العام الخمسين من حكمه، ولذلك لم ينسَ أن يُظهر على لوحته هذه أنه كان من حماة الدين، ورغم ما أصاب لوحته من التدمير نلحظ أن السطرين الأولين منها يعددان ما قام به الفرعون من جليل الأعمال للآلهة، ولا بد أنه كان يقصد الإله «منتو» عندما قال:

وملأت معبده بأواني القربان الفاخرة.

وكذلك يقول عن الآلهة الأخرى:

وبنيت معابدهم وصنعت سلاليمهم وأصلحت أبوابهم وأبقيت قرابينهم المقدسة لكل الأزمان.

وفي نهاية هذه اللوحة جاء ما يأتي:

السنة الخمسون التي أقيمت فيها هذه اللوحة على يد «حور واح عنخ» ملك الوجه القبلي والبحري ابن الشمس أنتف العظيم، وعلى ذلك تكون وفاته في عام ٢٠٩١ ومما يلفت النظر في هذه اللوحة أن هذا الأمير قد رسم على لوحته هذه خمسة من كلاب الصيد؛ يظهر أنه كان يعتز بها، وكان كل منها يحمل اسمًا لوبيًّا، وقد بقي لنا ترجمة ثلاثة أسماء منها بالمصرية بجوار أصحابها وهي: «الغزال، والأسود، وإناء الطهي»، ولا نزاع في أن هذا الأمير لم يرسم كلاب صيده عبثًا، بل ربما كان يقصد ما نشعر به نحن الآن من وفاء الكلاب لأصحابها؛ وهذا يذكرنا بما كتبه أحد الإنجليز المفكرين على لوحة بيته: كلما امتحنت بني الإنسان زاد حبي لكلبي.

ويجوز أن هذا الأمير لم يفكر في هذا قط، بل أراد أن يصحبه كلابه إلى عالم الآخرة ليتمتع بها عند الصيد والقنص؛ لأن كل مصري، كما نعلم، كان يعتقد أن عالم الآخرة صورة مكررة لمصر وطنه العزيز؛ ولذلك يقال: إن المصري هو أكثر الناس حبًّا لوطنه.

على أن هذه اللوحة التي لم تصل إلينا كاملة كان لها تاريخ عجيب في زمن الفراعنة أنفسهم، ففي عهد الفرعون «رعمسيس التاسع» أحد ملوك الأسرة العشرين اتهم عمدة طيبة الغربية بأنه لم يعطِ المقابر التي يشرف عليها العناية الكافية لحراستها؛ مما أدى إلى نهبها؛ ولذلك أُلِّفت لجنة خاصة لفحص المقابر الملكية وغيرها، فذهب المفتشون من مدينة طيبة الشرقية إلى مقابر الملوك، وقد كان القرار عن هذا القبر كما يأتي:

هرم الملك ابن رع «أنتف» العظيم له الحياة والسعادة والصحة، وهو الواقع شمال بيت «أمنحوتب» أحد رجال البلاط له الحياة والسعادة والصحة، والذي قد أزيل هرمه منه، ولكن لوحته لا تزال مثبتة أمامه، وصورة الفرعون مصورة وهو واقف في هذه اللوحة، وكلبه المسمى «بحك» جاثم بين قدميه، وقد فُحص

هذا اليوم ووجد سليمًا (Papyrus Abbott, Col. II, 1. 8; Peet, The Great Tomb Robberies P. 38).

قبر الملك

أما قبر هذا الملك فلا نعرف إلا النزر اليسير عن ترتيبه بالنسبة لمقابر حكام الجنوب، فنعرف أنه كان ثاني مقبرة ملكية أو صف كما يقول الأهالي الآن، إذا اعتبرنا أن قبر «سهر تاوى» الذي يقع شماله هو المقبرة الملكية الأولى، وكذلك نعلم أنه قد أقيم ببساطة تتفق مع وضع صاحبه في مرتبة أقل قليلًا من مرتبة مؤسس الأسرة الأولى بالنسبة لمقبرته.

وقد تركت الشظايا التي تخلفت من نحت مقبرته متراكمة حولها لتجعلها تظهر بعيدة العمق أكثر من الحقيقة.

ومقبرة هذا الأمير وإن كانت أضيق بقليل من مقبرة والده يمتد طولها في داخل الصحراء إلى الوراء ما بين ١٨٠ و٢٠٠ متر تقريبًا، وليس هناك أي أثر ظاهر لهرم كان يقوم فوق نهايتها كما هي الحال في مقبرة «سهر تاوى»، وذلك يجيز لنا أن نأخذ رواية «مريت» كما هي؛ أي إنه وجد اللوحة المنسوبة لهذا الملك في مكان ما في رقعة المقبرة أو الصف، ومن ملاحظاته المختصرة التي تركها لنا نعرف أنها استخرجت من هرم مبني باللبن تبلغ مساحته خمسة عشر مترًا مربعًا، تتوسطه حجرة فيها لوحة ترتكز على جدارها الخلفي، وكان يمكن رؤيتها من الباب غير أن «مريت» لم يحدثنا بشيء عن مكان حجرة الدفن؛ لأنه لا يعرف موضعها بطبيعة الحال، وإذا كانت الأشياء تقاس بأشباهها جزمنا بأنها كانت تحت الهرم نفسه قياسًا على تصميم قبر معاصر لمقبرتنا في العرابة عثر عليه (Peet, Cemeteries of Abydos II, 35)، ويروي لنا «نورمان دي جاريس ديفيز» Norman de Garis Davies نقلًا عن أحد الأهالي في عام ١٩١٧ أنه عندما حُفرت ترعة الفضلية كان الهرم لا يزال قائمًا وأنه هدم في ذلك الوقت، ومن ذلك يمكن للإنسان أن يستنتج أنه كان قائمًا أمام المقبرة أو الصف، وأن تصميم هذا الأثر كان يختلف عن مقبرة «سهر تاوى» التي كانت قاعدة هرمها مقامة على سطحها، ومن المحتمل إذن أن ما كان يسمى «الهرم» كما رأى «مريت» وهو الذي كان يحتوي على اللوحة لم يكن إلا معبدًا أقيم أمام المقبرة، وهو في هذا يشبه معبد الوادي، وأن الهرم الحقيقي قد بني في مؤخرة المقبرة على غرار ما فعل «سهر تاوى» (Winlock, American Journal of semitic Languages (1915) P. 22; Steindortt-wolff; Ibid P. 20).

آثار أخرى لهذا الملك

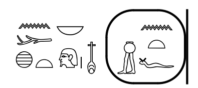
ولم تكن اللوحة العظيمة التي تركها «واح عنخ» تذكاره الوحيد الذي أعدَّه لمقبرته في أغلب ظننا؛ إذ يظهر لنا أنه كان قد أقام عدَّة لوحات مستطيلة الشكل في ردهة قبره، وقد عثرنا على واحدة منها عليها صورة هذا الملك يقدم آنية الجعة وإبريق اللبن للإله «رع» ملتمسًا منه الحماية بالليل، وإلى «حتحور» منشدًا لها المدائح (M. A. M. 13, 182, 3. Winlock, A. J. S. L. 1915, P. 17) وكذلك كان يصلي من أجل قربان جنازي، وكان يسمى في هذه اللوحة «حور واح عنخ» المبجل عند «أوزير» ابن الشمس «أنتف» الكبير مبتدع الجمال.

مقابر الأسرة المالكة والأشراف

أما أسرة هذا الأمير من أزواجه وحظياته وخدمه من الرجال فلا بد أنهم قد دفنوا في المقابر العدة التي نشاهد أبوابها محفورة في الصخرة على كلا الجانبين من مقبرته، وهذه المقابر هي التي يسكنها فقراء القوم في وقتنا الحالي،[١٤] أما أثرياء القوم وعظماؤهم الذين كانوا في حاشية الفرعون فنعرف أنهم قد أقاموا لأنفسهم مقابر خاصة بهم، يدلنا على ذلك لوحاتهم التي عثر عليها في هذه الجهة، وقد كشف كل من «جوتيه» و«فلندرز بتري» عن بعض مقابر هذا العهد، غير أن جوتيه كان قد وجد اللصوص قد سبقوه إلى هذا المكان وخربوه تخريبًا تامًّا، فلم يعثر بعدهم إلا على قطع عديدة مخروطية الشكل عارية من النقوش (Gauthier B. 1. F. A. O. 1908, P. 121 & Petrie, Qurneh, P. 2).

[١٤] هذه المقابر المنحوتة في الصخر يسكنها الأهالي الآن، وقد أخذت الحكومة في نزع ملكيتها.

نخت نب تب نفر-أنتف (٢٠٩١–٢٠٨٨ق.م)



تولى الحكم أنتف الثالث بعد وفاة والده، كما جاء ذكر ذلك في لوحة «ثثي» السالفة الذكر، ولا بد أنه كان متقدمًا في السن؛ لأن والده حكم البلاد زهاء خمسين سنة، ولذلك لا ندهش إذا كان «أنتف الثالث» لم يمكث على العرش إلا مدة قصيرة بعد تتويجه (J. E. A. Vol. 25, P. 116). ومما يؤسف له أن اسم هذا الملك قد فُقد من قائمة الكرنك السالفة الذكر بسبب كسر في الحجر، ولكن لحسن الحظ قد ترك لنا حكمه القصير أثره، وبخاصة في لوحة ثثي السابقة الذكر حيث يقول هذا الموظف الكبير:

> والآن عندما خلفه ابنه في مكانه «حور نخت. نب. تب. نفر» ملك الوجه القبلي والبحري ابن الشمس «أنتف» مبدع الجمال الذي نتمنى له أن يعيش مثل رع مخلدًا تبعته في كل أماكن مسراته الطيبة … إلخ.

لوحة «كاور-أنتف»

هذا ولدينا لوحة لموظف كبير يدعى «كاور-أنتف» يقول فيها بعد الصيغة الدينية إنه خدم في عهد «حور واح عنخ» ابن الشمس «أنتف» الكبير، ثم خدم من بعده حور «نخت. نب. تب. نفر» ابن الشمس «أنتف»، وأخيرًا خدم في عهد «حور سنعنخ أب تاوى» ابن الشمس «منتو حتب»؛ ويلاحظ في هذه اللوحة أن المُتوفَّى قد رُسم واقفًا ويده مرفوعة يتسلم بها قربانًا مقدمًا إليه من ابنه وخلفه، وقد وقفت زوجاته الثلاث، وقد عدَّد لنا

المُتوفَّى أعماله الطيبة، فقال ما معناه: «إنه قدم سفينة للغريق، وأعطى العطشان ماء، والجوعان طعامًا.» ثم أخذ يصف الخدمات الجليلة التي قدمها لأسياده وغير ذلك مما سيأتي ذكره. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أسماء هؤلاء الأمراء لم توضع في طغراء مما يدل على أنهم لم يكونوا ملوكًا للبلاد بالمعنى الحقيقي. (Budge Egyptian Sculptures in the British Museum Pl. VII.)

لوحة «حنو ون»

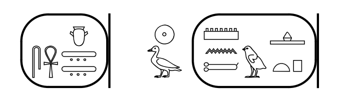
وكذلك لدينا لوحة لموظف يدعى «حنو ون» يلقب بالمدير الملكي نقرأ فيها: أنه قد وضع «نب. تب. نفر» بين؟ «واح عنخ» و«حور سعنخ اب تاوى منتو حتب» (A. Z. 1905, P. 132) والأخير هو حفيد «واح عنخ»، ومن ذلك يمكننا أن نستخلص من بقاء ثلاثة من رجال بلاط والده حتى أيام ابنه أنه لم يحكم إلا فترة وجيزة جدًّا. هذا؛ ونجد على لوحة «ثثي» السالفة الذكر صورة شخص يدعي «ماجيحي» ومن المحتمل أنه كان يدعى كذلك «أمنمحات»، وقد ترك لنا لوحة يقول فيها: لقد عشت في عهد «حور. نب. تب. نفر» (M. M. A. 14, 2, 6) ومع أن هذه المعلومات التي في متناولنا الآن ضئيلة؛ إلا أنها لم تكن معروفة لنا من مدة طويلة، وكان كل ما نعلمه إلى عهد قريب اسمه فقط محفورًا على قطعة من مصراع باب لفرد يدعى «نختي» في جبانة العرابة المدفونة التي كانت لا تزال في قبضة حكام «طيبة»؛ إذ قد نُقش على هذا المصراع ما يأتي:

> «حور نخت. نب. تب. نفر» ملك الوجه القبلي والوجه البحري ابن الشمس «أنتف» العظيم العائش مخلدًا.

وفاة الأمير أنتف

وقد مات «نب. تب. نفر» في عام ٢٠٨٨ق.م، (Lange & Schafer, Ibid No. 20502) بعد حكم مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات، وقد كان من الطبيعي أن يكون مدفنه في جبانة «طيبة» الغربية في مكان ما بين مقبرة والده ومقبرة ابنه، غير أننا لا يمكننا إلى الآن أن نحدد مكانها بالضبط، ولا نزاع في أن غرضه كان نحت مقبرة أو صف له جنوب مقبرة والده أو على يمينها وخلف مقبرة «واح عنخ» ولكنها لا تُرى اليوم، هذا فضلًا عن أنه قد حُفرت ترعة الآن مخترقة السهل في النقطة التي يُنتظر وجودها فيها.

سعنخ. أب تاوى. منتو حتب
(٢٠٨٨–٢٠٧٠ق.م)



وعلى أثر وفاة = نب. تب. نفر = أنتف الثالث = خلفه على العرش بِكر أولاده، ولُقب باسم «حور سعنخ-أب تاوى» ومعناه: «الذي يجعل قلب الأرضين يعيش» ابن الشمس «منتو حتب».

وقد دون المؤرخ الذي وضع قائمة أجداد الفرعون تحتمس الثالث، اسمه في الكرنك بالصورة الآتية، «حور الجد» منتو حتب «المبرأ» في أول طغراء للأسرة، وذلك بعد اسم أمير المقاطعة «أنتف» مباشرة، ولكنه بعد ذلك أتم مهمته بطريقة تدل على عدم الاعتناء، ولذلك لا ندهش إذا كان قد ارتكب غلطة رخيصة كهذه (Prisse; Monuments Divers, Pl. I; Sethe, Urkunden IV P. 608).

والواقع أن «سعنخ-أب-تاوى» كان ترتيبه واضحًا [وهو الرابع] في ورقة تورين، فإنك تجد عند هذه النقطة في الورقة يظهر حكم ملك طوله ٨–[…] وهو ما يمكن تصحيحه ١٨ حتى يتفق مع المجموع الكلي لعدد السنين التي حكمتها هذه الأسرة حسب الفحص الأخير الذي قام به الأستاذ «فرينا» في ترتيب قطع ورقة تورين الممزقة (Farina, Il Papiro dei re P. 53 Pl. V; Winlock, J. E. A. 1940 P. 119).

وإن العلم الذي اتخذه هذا الأمير لنفسه «منتو حتب» يعد عدولًا ظاهرًا عن الاسم التقليدي القديم للأسرة وهو «أنتف»، ولكن يظهر أن كثيرًا من أولياء عهود هذه الأسرة

كان يختصر ويسمي نفسه «منتو حتب»، وإن كان الحفيد الأكبر «لسعنخ أب تاوى» كان يسمى أنتف، فاسما «منتو حتب» و«أنتف» كانا يتبادلان إذن في أفراد هذه الأسرة أو على الأقل من الأسماء التقليدية فيها.

والظاهر أن الأمير الجديد كان في عنفوان الشباب وبهجة العمر في عام ٢٠٨٨ قبل الميلاد عندما ذهبت روح «نب. تب. نفر» إلى الأفق «وهو المقر الأخير حيث توجد الآلهة.» وقد كان «حنو ون» الذي اقتبسنا من لوحته هذا التعبير في خدمة ابنه = حور سعنخ [أب تاوى] بعده: (Sethe, A. Z. 1905 P. 132, Gauthier B. I. F. A. O. 1906. P. 39).

وفي هذا الوقت كان الفرعون في «هيراكليو بوليس» لا يزال يئن من الهزيمة التي ألحقها به «واح عنخ» وأراد أن ينتقم فقام بهجوم على الوجه القبلي عام ٢٠٧٤ق.م، وكان النصر في جانبه إلى درجة ما، وقد جاء على لوحة «كاور أنتف» السالفة الذكر ما يأتي: السنة الرابعة عشرة هي السنة التي ثار فيها طيبيو، ولا بد أنه قد مات في هذه السنة نفسها، وهو نفس الشخص الذي نراه مصورًا على هذه اللوحة مع أزواجه الثلاث وهن «ماري» Mery و«إيوتو» Iutu و«إرو» Iru ولا يمكن أن تكون إحداهن مشجعة للفنون، فإن اللوحة التي رسمن عليها تدل على خشونة وعدم دقة في النحت.

الحالة في هيراكليو بوليس

وفي تلك الفترة كان الفرعون «واح. كا. رع. خيتي» ملك هيراكليو بوليس يتقدم في السن، وقد أخذ على نفسه أن ينتحي ناحية ليكتب طائفة من التعاليم وتجارب الحياة التي مارسها لينتفع بها ابنه مري-كارع (Gardiner, J. E. A. 1914 P. 22, Scharff, Merikare P. P. 7, 18ff).

وقد كان في رأيه أن الخطر العظيم لا يحيق ببلاده إلا من الأجانب النازحين من «آسية»، ومن ثم اعتقد أن الوجه القبلي لا يستحق مثل العناية التي توجه إلى الشمال منزح أولئك الأسيويين؛ ولذلك نراه يحض ابنه على أن يترك «طيبة» تسلك طريقها وبخاصة بعد أن ألحق بها هزيمة نكراء، فأصبح السلم مخيمًا على ربوع البلاد، وليس لدينا ما يدعو إلى عدم تصديقه حين يقول: «إنهم لا يهاجمون حدودنا وإني لفخور بطينة و«مقي» والحدود الجنوبية حتى طود حيث يظهر أن انتصاره بلغ إلى هذه الجهة، ولقد انقضضت عليهم كالصاعقة، ولم يحدث مثل هذا على يد المرحوم الملك «مري أب تاوى» مؤسس أسرة «إهناسية المدينة»، ثم يقول: حافظ على مهادنة الجنوب الذي يأتي إليك

محملًا بالهدايا ... وطالما يأتي إليك الجرانيت دون عائق فلا تحدِث تلفًا بآثار آخرين، واقطع أحجارك من محاجر طره ... وإذا كانت تخومك من جهة الصعيد في خطر؛ فإن الحال كذلك من جهة البدو الذين يتمنطقون بالحزام، ويجب عليك أن تقيم حصونًا لصدِّهم في مصر السفلى.»

وهذا الاقتباس من تعاليم «مري كارع» يدل صراحة على أن الفرعون «واح-كارع» كان محاطًا بالخطر من كلا الجانبين مما جعله يشعر بفداحة الخطر الذي كان يقترب منه، ولكن لم يكن في استطاعته أن يتصور مقدار سيطرة الأمراء الصغار الذين كانوا يحكمون «طيبة» على مصر في الوقت الذي كان هو فيه قانعًا بقطع أحجار الجرانيت الأحمر من أسوان بإذن من سكان الوجه القبلي.

حالة البلاد في الجنوب

ومن جهة أخرى كان توقع اشتعال الحرب يملأ ذهن كل طيبي ويشغله عما سواه؛ ولذلك لا نُدهش عندما نقرأ في النقوش أن أحد أبناء «سعنخ أب تاوى» الذي نرجح أنه قضى نحبه في حياة والده كان جنديًّا في ساحة القتال، فقد اشترى «هِرس» من طيبة قطعة من تابوت نشرها «الأستاذ جرفث» (Griffith, Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, (1891) P. 41) وهذا التابوت كان يضم جسم الأمير حامل الختم الملكي، بِكر أولاد الملك، وقائد الجنود «هرو نفر» المُبرأ الذي وضعته الزوجة الملكية العظيمة «ست شرت»، وإذا كان اسم الملكة يشَك في قراءته فليس هناك مجال لأي شك في أن والده هو «سعنخ-أب-تاوي»»، وليس هذا بغريب فإن الحال إذا تحرجت واستطاع العدو أن يسترد طيبة كان من الطبعي أن يهب أولاد الملك في طليعة جيش والدهم للدفاع عن أملاكهم.

ولم يعثر على الشيء الكثير من آثار هذا الفرعون حتى الآن؛ اللهم إلا خاتمًا من حجر ستايتيت على شكل عجل جاثم على الأرض، وقد نقش عليه على ما يظهر «سعنخ أب تاوى» (M. M. A. 10, 130, Newberry, Scarabs, Fig. 87) وكذلك يظهر أن أحد أتباع هذا الفرعون الذين دُفنوا في دندرة قد ترك لنا شظية منقوشة نقشًا غائرًا عليها اسم هذا الملك (Petrie, Denderah XII).

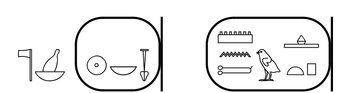
وفاة الملك وآثاره

وقد تُوفي «سعنخ أب تاوى منتو حتب الأول» في عام ٢٠٧٠ق.م، بعد أن حكم ثمان عشرة سنة كانت مليئة بالمتاعب والحروب، وقبل موته كان قد بدأ ينحت لنفسه أكبر مقبرة (صف) من المقابر الملكية الواقعة في الجنوب، وقد انتخب موضعها بكل تواضع خلف مقابر آبائه، وقد كان تصميمها على أن تكون ٣٠٠ متر أو يحتمل أنها نحو ٦٠٠ ذراع في الطول؛ وبذلك تكون أكبر من أية مقبرة أقامها من سبقه من رجال أسرته، غير أن الأجل المحتوم لم يمهله ليتم تشييدها، ولا بد أنه كان قد مضى على وفاته نحو أربعين سنة أو يزيد عندما توفيت زوجه «اعح» وهي والدة خلفه، ومن المحقق أنها قد دُفنت في مقبرة زوجها؛ إذ تدل كل الأحوال على أنه لا يوجد في الدير البحري قبر يتناسب مع منزلتها يمكن أن تكون قد دفنت فيه غير هذا القبر.

وقد أقام أتباعه حول قبره العظيم هذا مثواهم الأخير، بل تدل الدلائل على أن بعض من بدأ حياته في عهده من عظماء القوم لم يمُت إلا في عهد خلفه، على أننا، فضلًا عن ذلك، نرى أن بعض المحافظين الذين جاءوا بعد موت هذا الفرعون بقرن مثل «أنتف بن مايت» وكثيرًا من أهالي «طينة» غيره الذين كانوا أقل ثراء منه كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم في الجزء الجنوبي من هذه الجبانة (Petrie, Qurneh, P. 2).[١]

[١] أحد الهواة الذين كانوا مولعين بجمع الآثار المصرية في عهد سعيد باشا.

نتر حزت (وفيما بعد) نب حبت رع منتو حتب «الثاني» (٢٠٧٠–٢٠١٩ق.م)



في عام ٢٠٧٠ق.م، ذهب سعنخ أب تاوى إلى الأفق (أي تُوفي كما يعبر المصريون عن موت الفرعون)، وخلفه على أريكة الملك أسن أولاده الذي اختار لنفسه اسم «حور نتر-حزت» (السيد المقدس للتاج الأبيض) ملك الوجهين القبلي والبحري ابن الشمس «منتو حتب»، وهذه التسمية كان قد راعى فيها التقليد الذي سار عليه أجداده منذ أربعة أجيال (Vandier; Ordre de Succession des dernier Rois de la XI Dynastie, Studia Aegyptiaca (1938) P. 39) وكان حديث السن؛ ولذا ظل في الحكم واحدًا وخمسين عامًا. ويظهر أن أملاكه لم تكن واسعة في مستهل حكمه؛ لأن والده كان قد فقد «طينة» والعرابة، وقد كانتا من أملاك أمراء «طيبة» منذ أيام جده الأكبر «واح عنخ».

(١) حربه مع ملك إهناسية المدينة وأمير أسيوط

ولم يهنأ هذا الأمير الفتى بهدوء البال طويلًا، فإن كثيرًا من المناوشات بدأ على أثر تسلمه زمام الملك، ولم تعمر الحرب التي اندلع لهيبها، بعد، أمدًا طويلًا؛ لأن «تف إب» أمير أسيوط الذي كان أكبر عضد للفرعون في إهناسية المدينة غاله الموت، وتولى ابنه خيتي مكانه، كل ما نعلمه بعد ذلك أنه لم يمضِ زمن يسير حتى رأينا حدود مملكة طيبة قد

انتقلت إلى «شاسحتب» وتقع الآن مكان «شطب» الحالية القريبة من «دير ريفه» على نفس حدود أسيوط، ويظهر أن «خيتي» أخذ يتسلى ويغطي موقفه بالكلمات الحماسية والجمل الطنانة، يرددها عسى أن تخفي الحقيقة المرة التي كانت تواجهه وتنذره بأن حربًا شعواء على الأبواب تندلع في عهد مليكه «مري كارع»؛ فتراه يقول مفاخرًا: «إنك قد نشرت الرعب في كل البلاد، وإنك بمفردك أخضعت مصر العليا للملك وجعلته يذهب نحو الجنوب، في حين أنك جعلت السماء خالية من السحاب.» وكانت الأرض كلها مع الملك: أمراء الوجه القبلي وأشراف هيراكليو بوليس.

على أنه لم يحدث قط أن كانت أول سفينة من الأسطول تصل إلى «شاسحتب» في حين أن آخر سفينة منه كانت «في قرية ما على مسافة عدة أميال في أسفل النهر.»

أما الجيش فقد عاد بالنهر ورسا عند «هيراكليو بوليس» وفرحت المدينة بسيدها وابن سيدها وكذلك النساء والرجال والشيوخ والأطفال، وقد وصل ابن السيد المدينة ودخل بلاط والده وعاد ثانية من كانوا قد هجروا وطنهم، ودفن أولئك الذين ليس لهم أبناء، سيد الأرضين الملك مري كارع (Brunner Ibid Tomb IV 1, 10).

ومما يؤسف له أننا لا نعرف من النقوش حتى الآن من الذي كان يحكم طيبة وقتئذ، ولا نشك في أنه كان «حور نتر حزت» «منتو حتب».

ولم يمكث «مري كارع» على عرش الملك بعد ذلك إلا سنين قلائل، وتدل الآثار المكشوفة على أنه دفن في منف بالقرب من هرم الملك «تيتي» في هرم يدعى «أماكن مري كارع مزدهرة» (Quibell, Saqqara 1905–1906 Pl. XIII, XV, 1906–1907 Pl. VI; Firth and Gunn, Teti Pyramid Cemeteries PP. 187, 202, 257).

والظاهر أن كهنة هذا الهرم قد مكثوا مدة يزاولون مهمتهم؛ لأننا نعرف أكثر من ستة منهم.

(٢) الملك نب-كاو-رع آخر ملوك إهناسية المدينة

ويقال إنه بعد موت «مري كارع» قد تولى الحكم بعده الفرعون «نب-كاو-رع» وهو الفرعون التي تنسب إلى عصره قصة الفلاح الفصيح،[١] غير أنه لم يحكم إلا عهدًا قصيرًا؛

[١] راجع كتاب الأدب المصري القديم ص٥٤ … إلخ.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن «هيراكليو بوليس» آل أمرها إلى السقوط نهائيًّا وحلت محلها طيبة عاصمة لعرش البلاد من أقصاها إلى أقصاها (Scharff, Merikare P. 51).

(٣) توحيد البلاد

وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة من أننا لا نعرف شيئًا قط عن الحروب التي أدت إلى القضاء الأخير على سلطان ملوك «هيراكليو بوليس» بعد مضي ١٨٠ سنة من بداية تربعهم على عرش البلاد. والدليل المعاصر الوحيد الذي يمكننا أن نقدمه في هذا الصدد هو الأسلوب الذي أصبح يُعرف به حاكم طيبة، ففي بادئ الأمر كان يحمل اسمين يكتب ثانيهما في طغراء (Bissing–Bruckmann, Denkmaler Aegytische Sculptur, Pl. 33 A).

وفي هذه الطغراء كان يكتب قبل الاسم النعت «ابن الشمس» كما كانت الحال غالبًا في عهد الأسرة السادسة، وكان الملك يضيف إلى هذا الأسلوب لقبًا كتب أولًا [«نب حبت» ويجوز أن يكون «حبت» فقط] على آثاره المبكرة جدًّا في الجبلين، وعلى نقش في الصخر في طيبة، حيث يقرأ الإنسان «حور نتر حزت» ملك الوجه القبلي والبحري «حبت» (؟) ابن الشمس «منتو حتب» (Winlock, A. J. S. L. 1941, P. 144) ثم نجده فيما بعد يلقب اللقب بإيضاح أكثر «نب-حبت-رع» (Louvre Stela C 252; Meyer, Gesch. Ibid. Par. 277, Winlock, A. J. S. L. 1915 P. 12).

أي «سيد المربع المقدس هو رع» ثم يضاف اسم إلهتين وُحِّد مع «حور» على أنه يوجد على جزيرة «كونوسو» الواقعة عند الشلال الأول نقشان على الصخر يجوز أنهما نُحتا هناك قبل أن يكون «نب حبت رع» قد أتم فتح البلاد كلها (Lepsius, Denkmaler, Pl. 150 a; De Morgan, "Catalogue des Monuments"; Vol. 1, 71, No. 31, P. 73, No. 44).

وفي كل نقش يلاحظ رسم صورة للإله «مين» إله التناسل، وهو واقف بين الإلهة «ساتت» إلهة الشلال، والإله «منتو» والإله «خنوم» الذين يقدمون له الحياة، وفي إحدى النقوش نرى الملك غير قانع برسم تسعة الأقواس التي اعتاد المصريون أن يرمزوا بها للأقوام الهمج الذين يطؤهم الفرعون بقدميه، فرسمهم خمسة عشر قوسًا، يضاف إلى ذلك أنه عثر على نقش في صخرة في «وادي الحمامات» كتب فيه ابن الشمس «منتو حتب» كل ذلك في طغراء واحدة، محبوب «مين» إله «قفط» مثل رع في الخلود (Couyat & Montet, Inscriptions Hieroglyphiques du Ouadi Hammamat No. 112).

(٤) آثاره وأعماله

وفي تل الشيخ موسى في الجبلين على مسافة بضعة أميال من «أرمنت» أقيم معبد صغير احتفالًا بإقامة باب عظيم لمعبد ما محلي ولإظهار الفرح بإحدى انتصارات الملك الأولى (Bissing–Bruckmann, Ibid Pl. 33 A; Maspero Ibid. P. 459, Breasted, A. R. Vol. I Par. 423 ff).

وقطع الأحجار التي بقيت من هذا المعبد الصغير موجودة الآن في المتحف المصري، وقد حُفظت لنا من يد المخربين الحاليين؛ لأنها كانت قد استعملت ثانية في إقامة جدار لمعبد من عهد البطالمة، وهذه البقايا لها أهمية بالغة، فعلى قطعة منها نشاهد الملك «نتر حزت» يقرب أمير لوبيا المسمى «حز-وواش»، وعلى الأخرى يشاهَد وهو يذبح أربعة من الأسرى البائسين وهو يقول: إنه مسيطر على رؤساء الأرضين، الصعيد والدلتا والأجانب وشاطئ النيل والأقواس التسعة وكل المصريين، وهؤلاء الذين يصب عليهم جام غضبه هم أسرى مجهولو الاسم، ويقول عنهم البعض إنهم: مصري، و«سيتيو» من بلاد النوبة، و«سيتيو» أسيوي، و«تحنو» من لوبيا. وقد كان من الطبعي أن نجد معلومات كثيرة عن هذا الفرعون في «طيبة»، غير أن التغيرات التي حدثت في المباني بسبب تغير الدول منذ الأسرة الحادية عشرة كانت عظيمة جدًّا لدرجة أنه لم يبقَ لنا من آثارها شيء في الجهة الشرقية، أما في الجهة الغربية من «طيبة» على ضفة النيل اليسرى؛ أي في مدينة الأموات، فكانت الأحوال تختلف اختلافًا عظيمًا؛ إذ قد بقي لنا بعض الآثار الهامة عن هذه الأسرة الغامضة. ففي متحف القاهرة توجد لوحة عثر عليها في «ذرع أبو النجا» نقش عليها «حور نتر حزت» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب حبت رع منتو حتب»[٢] (Daressy, A. S. (1907) P. 242).

[٢] ويقول «دارسي»: إن الآثار التي عثر عليها في هذا المكان من عهد الأسرة الحادية عشرة قد وجد معظمها مهشمًا من عهد قدماء المصريين أنفسهم، ويظن أنه لا بد قد حدثت ثورة سياسية ضد ملوك هذه الأسرة مما أدى إلى هذا التخريب المشين.

(٤-١) بدء العمل في بناء معبد «منتو حتب الثاني»

وقد انتخبت نقطة على هذا الشاطئ الغربي نفسه على مسافة ستة كيلومترات من الجنوب الغربي لمعبد «منتو» عند سفح الصخرة وعند رأس الوادي جنوب مقابر الدولة القديمة، وقد بدأ العمل في هذه النقطة على أثر تولية هذا الملك ليجعل منها أثرًا ضخمًا لنفسه، وقد كان أول شيء وضع تصميمه مهندسو هذا الفرعون الشاب هو ردهة ضخمة على هيئة درقة؛ تمشيًا مع روح العصر الفنية، فكانت قاعدتها متجهة نحو معبد «منتو» بالكرنك، وقد بنى من جدارها الشرقي ما لا يقل عن ٢٣٠ مترًا، وترك فيها فتحة اتساعها ٤٠ مترًا عند رأس الوادي، غير أننا لا نعرف مقدار تصميم علو الجدار أو طوله؛ لأن الجدار نفسه قد استعمل في العصر التالي محجرًا تؤخذ الأحجار منه لأعمال البناء حتى اندثرت خرائبه كلية (Winlock, Dier el Bahri P. 203 Pl. 3)، وهذا التغيير في تصميم المبنى الأصلي قد أجبر عليه مهندس البناء بسبب كومة من الشظايا الضخمة نحتت من التلال الواقعة في الجنوب وتراكمت هناك، وسواء أكان هذا الجدار قد عمل تصميمه لتشييد طريق من الردهة يتجه مباشرة نحو معبد منتو أم لغرض آخر، فإن الفكرة قد عدل عنها إلى إقامة بناء يتجه بعيدًا نحو الجنوب.

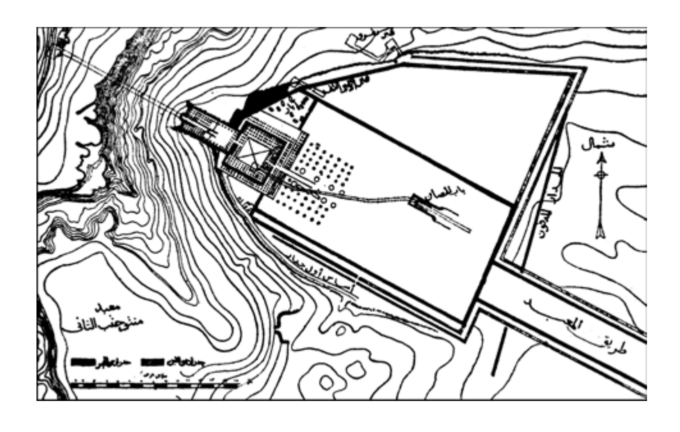
(٤-٢) مقابر زوجات الملك

وأول ما عمل في هذا البناء مسطح في الشظايا الواقعة عند سفح الصخرة أقيم على ظهره ستة هياكل مكعبة الشكل فوق ست مقابر منحوتة في جوف الصخر، لستٍّ من زوجات الملك «نب حبت رع» (Naville; XI Dyn. Temple, 1, 7, 30, 47, 53, Pls. XI, XVII, XXIII.: III, 9 Pls. II, III; Winlock; Dier eI Bahari P. 35, Fig 4).

وقد أقيمت هذه الهياكل الست في صف خلف الموقع الذي كان مخصصًا لإقامة أثر الفرعون نفسه، ولم يكن قد أقيم بعد (شكل رقم ١)، وهذه الهياكل كانت تتألف من مجموعتين كل مجموعة ثلاثة هياكل، ويفصلهما فتحة طولها نحو عشرة أمتار، وكان كل هيكل يبعد عن الآخر بنحو ثلاثة أمتار.

ويوجد في الجهة الشرقية باب ذو مصراع يؤدي إلى حجرة تمثال ضيقة فيها باب وهمي في جدارها الخلفي.

وكانت الأركان الخارجية لكل هيكل أو محراب مزينة بعمود على شكل زهرة اللوتس، كما كانت الجدران الخارجية منحوتة نحتًا متقنًا يزينها نقوش معتنى بصنعها، غير أنها



شكل ١

كانت ريفية الذوق، والجزء الأمامي يمثل خدور النساء والأميرة، وهي تتحدث إلى الملك زوجها أو تتقبل ما تقدّمه لها وصيفتها من الخدمات، أما الأجزاء التي لم تحلَّ بصور ومناظر فكان منقوشًا عليها صلوات وأدعية للملكة، وكانت كل أميرة من هؤلاء الأميرات تنتحل لنفسها لقب الحظية الملكية الفريدة، وكذلك كانت تلقب كل منهن بكاهنة الإله «حتحور»، ولا غرابة في ذلك فإن «حتحور» كانت تلقب بإلهة الغرب في هذه الجبانة، وكذلك كان من ألقابها أنها إلهة الحسن.

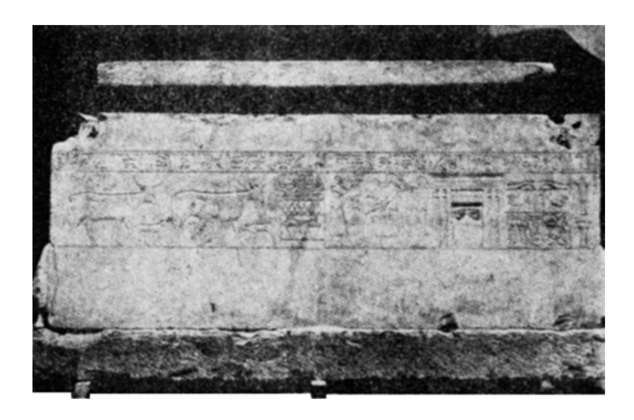
(٣-٤) عبادة الإلهة حتحور

والظاهر أنه كان يوجد بالمعبد جزء خاص بعبادة هذه الإلهة يقع في الجزء الخلفي منه الملاصق للصخر، ويعزز هذا الرأي محراب «منتو حتب» نفسه، وكان يسمى «أنت» (الوادي)، ويستبعد أن الإله «آمون» كان يُعبد هنا وحده في عهد الأسرة الحادية عشرة، وبخاصة أن لفظة «أنت» معناها الوادي الذي تخرج منه الإلهة «حتحور» من جبل الغرب، ويعتبرها المصريون إلهة الجبل؛ إذ كان يظن أنها تخرج من كهفها وتذهب نحو النهر إلى الأراضي المستنقعة حيث كان يعتقد أنها قد أرضعت «حور»، كما سنشاهد ذلك في معبدها العظيم الذي أقامه لها تحتمس الثالث في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

والواقع أن تمثيل البقرة بهذه الكيفية كان الغرض منه إظهار «حتحور» بصفتها الأم الإلهية للملك، كما كانت من قبل أم «حور» التي أرضعته في مناقع الدلتا (أي إنها تمثل الإلهة إيزيس) والرسم الذي وضعه الأستاذ «نافيل» لمعبد «منتو حتب» الثاني يشاهد في نهاية دورانه أسس ستة المحاريب أو المقاصير الصغيرة التي بُنيت لتوضع فيها التماثيل الجنازية للأميرات الست اللائي كن يتألف منهن «الحريم الملكي». وقد عثر على أجزاء كثيرة من جدرانها تكفي للدلالة على أن المحاريب الستة الواقعة جنوب الباب من الدوران إلى الردهة كانت مخصصة لمكان «هنهنيت» و«كمسيت» و«كاويت».

(٤-٤) مقابر الملكات ووصف محتوياتها

أما المحاريب الثلاثة التي في الشمال فكانت للأميرات «ساده» و«عاشيت» وأميرة لم يكُن قد عُرف اسمها بعدُ إلى أن كشف الأستاذ «ونلك» في موسم ١٩٢٠-١٩٢١ عن حجرة دفن هذه الأميرة المجهولة، وهي «مايت» (القطة)، كما كشف عن حجرة دفن الملكة «عاشيت» وبذلك تم الكشف عن مقابر هؤلاء الأميرات جميعًا، وأهم ما يلفت النظر من الوجهتين الفنية والدينية محتويات حجرتي دفن الملكتين «كاويت» و«عاشيت»، وبقايا تابوت الملكة «كمسيت»، فحجرة دفن الملكة «كاويت» وجدت منهوبة، غير أن اللصوص قد تركوا الجثة في تابوتها الذي يعد قطعة فنية من تحف هذا العصر البالغة حد الجمال، وهي الآن بين نفائس المتحف المصري، وقد ألفت من عدة قطع من الحجر الجيري رُكبت معًا بحذق ومهارة حتى إن الناظر إليها يعتقد أنها قطعة واحدة، أما المناظر والرسوم التي وُجدت على هذه التوابيت فإنها ترجع بذاكرتنا إلى ما وجدناه على جدران مقابر الدولة القديمة ومعابدها مما كان ينقله المصري من مناظر الحياة الدنيا إلى قبره، فهناك نرى الرجل الثري وقد جهز نفسه بكل ما يحتاج إليه الشريف في حياته وما كان يملكه، فيشاهد وهو يشرف على عماله وصياديه الذين يمدونه بأنواع لحوم الصيد كلها، وخدمه يقوم كل بعمله ... إلخ، فهذه المناظر التي كنا نجدها على جدران المقابر قد شاهدناها لأول مرة مضافًا إليها الصيغ الدينية على ما نعلم على جوانب التابوت في عهد الأسرة الحادية عشرة؛ إذ كل ما كنا نجده مكتوبًا على التوابيت صيغ دينية وأدعية أو بعض ألقاب المُتوفَّى، ويمكننا أن نفرض هنا أن القرابين التي كانت تقدَّم للأميرة، ومخازن الغلال التي كان يخزَّن فيها غذاؤها، والبقرات التي كانت تدر لبنًا سائغًا؛ كل ذلك كان جزءًا من الخيرات التي يعتقد أن الأميرة ستتمتع بها في الحياة الآخرة.



(أ) منظر من تابوت الملكة كاويت.



(ب) منظر من تابوت الملكة كاويت.

شكل ٢

وصف تابوت كاويت

والواقع أننا إذا استثنينا الصيغ الدينية والأدعية الإلهية التي على تابوت الأميرة «كاويت»؛ وجدنا صورة مختصرة عن مسكن الأميرة في الحياة الآخرة، وهو في الوقت نفسه تابوتها؛

لأن العينين اللتين نراهما مرسومتين على الجانب الأيسر للتابوت قد فُرض فيهما أنهما عينا المُتوفَّى ينظر بهما إلى ما يجري في عالم الدنيا،[٣] وعلى كلا الجانبين نجد أبوابًا تؤدي إلى أجزاء مسكن الأميرة، وعلى الجانب الصغير للتابوت الذي يسبق الجانب الطويل من جهة اليسار نشاهد قربانًا يقدَّم في حجرة «بردوات» وهي حجرة تكون صغيرة أحيانًا يرتدي الإله فيها ملابسه، ويُؤتى له فيها بالعطور والزيوت «حجرة زينة الصباح» (Blackman, J. E. A. Vol. V, P. 148 ff.) فنرى الخادم واقفًا أمام صندوق ربما كان يضم ملابس الأميرة وحليها، ونرى بقية الخدم يحمل كل منهم نوعًا من العطور.

ويظهر أن الباب الكبير الذي على يسار الداخل يؤدي إلى حجرة كانت تتزين فيها الأميرة؛ فنشاهد خادمًا تضع دبوسًا في شعرها، وفي إحدى يدي الأميرة مرآة وفي الأخرى قدح قد ملأته خادم أمامها وهي تقول: «إنه لحضرتك أيتها الأميرة، اشربي ما أعطيك إياه»، ويظهر أنه قدح من لبن بقرة يحلبها خادم بالقرب منها (في المنظر) وقد ربط صغيرها بساقها الأمامي، وكأن هذه البقرة تذرف دمعة حسرة على درِّها الذي حُرمه ابنها. ونشاهد اثنتين من هذه البقرات على هذا الجانب وأخريين على الجانب الآخر من سلالتين مختلفتين، فواحدة منها بلا قرن وهي من سلالة لا تزال موجودة للآن في أفريقية، ويمكن أن تُعرف من بقايا تابوت الأميرة «كمسيت» أن هذه السلالة كانت بيضاء اللون ذات بقع سوداء، وقد استعمل اللون الأزرق هنا للأسود، أما البقرة ذات القرن الكبير فجلها أسمر.

وعلى الجانب الأيمن من التابوت نشاهد ثانية بابًا ذا مصراعين محلًّى بإشارات دينية. ونشاهد كذلك الأميرة تزين نفسها فتأخذ بيدها بعض زيوت معطرة تقدِّمها لها خادمتها التي تحمل في يدها ما يشبه جناح إوزة لتروِّح به على الأميرة، وفي الحجرة نشاهد حليها؛ ويشتمل على صدرية وقلائد وسوار، ثم الجعبة التي تحتوي كل هذا، وعلى يمين الباب تظهر الأميرة تتناول الطعام، وقد أخذت بيدها كعكة أو رغيفًا من قدر عظيم من الطعام مكدس أمامها على مائدة القربان. ولما كانت الأميرة تأكل ولا تشرب فلم يكن هناك داعٍ لحلب البقرات، وعلى أحد جانبي التابوت الصغير بجوار القدمين قد مثلت مخازن الغلال والحقائب التي تفرغ فيها، وهناك كاتب يقيد الكميات التي تُجلب، وعلى مقربة منه

[٣] وقد طلع علينا الأستاذ كابار بتفسير آخر لوظيفة العينين إذ يقول عنهما: إنهما لمنع الحسد (راجع: Chronique D'Egypte, Vol. 4 P. 32. (1946)).

مشرف يدعى «أنتف» يلاحظ ما يجري، ويوجد سلم يؤدي إلى الإيوان التي تجلس فيه الأميرة كما يفعل الفرعون في عيد «سد» (L. D. III, Pls. 76, 77) وذلك عندما يحضر مزارعوها وأتباعها ضرائبَهم ومحاصيلهم مما ينتجونه، وكانوا يؤدُّونها لها في أوقات معينة من السنة.

تابوت الأميرة كمسيت

وعلى غطاء التابوت قد نُقشت أدعية للإله «أنوب».

وما بقي لنا من تابوت الأميرة «كمسيت» يجعلنا نضعه في منزلة أهم وأعظم من تابوت الأميرة «كاويت»، غير أنه لم يوجد كاملًا (Deir el Bahri II Dyn XI, Pls. XXII, XXIII).

فقد كان غاية في الإتقان وكان منحوتًا، وملوَّنا وقد لوِّن داخله كذلك، وما وجد منه قطع صغيرة مركب بعضها مع بعض، وهو الآن في المتحف البريطاني، وقد بقي رسم الأميرة على قطعة من الداخل (Ibid, Pl. XXXIII) ولونها أسود، ويظهر أنها كانت سودانية الأصل، وقد عثر على جمجمة في حجرة دفنها تُنسب إلى الجنس الأسود، ومن المحتمل أنها جمجمة الأميرة، وعلى هذه القطعة نشاهد خادمين تحضران لها قدحين قد يحتويان لبنًا، وتخاطبها إحدى الخادمتين قائلة: «إن هذا لكِ أيتها الأميرة اشربي وكوني مسرورة.» وفوق رأسها كتبت ألقابها فهي «كاهنة حتحور» التي تحب والدها وهي حظيته كل يوم.

ومناظر التابوت كمناظر الأميرة «كاويت» وليس فيها ما يلفت النظر إلا ألوان الخدم؛ إذ نجد بعضهم ملوَّنًا باللون البني المائل للاحمرار، وهو اللون العادي الذي يلوَّن به الرجال المصريون، وبعضهم قد لوِّن بلون أصفر خفيف وهو اللون الذي يدل على السيدات، ويلاحظ بقدر ما تسمح به حالة الأحجار المهشمة أن رؤساء الخدم وهم الذين يشغلون أعلى الوظائف مثل المشرف على المخازن أو الرجل الذي يحضر الجعبتين اللتين ربما كانتا تحتويان على أحجار كريمة أو معدن ثمين، كانوا مصريين ملونين باللون الأحمر، أما الملونون باللون الأصفر فهم الذين يحضرون الزيوت والعطور إلى «بيت الصباح»؛ ذلك البيت الذي يتزين فيه المُتوفَّى عقيب استيقاظه من النوم، ويلاحظ بكثرة في قبور الدولة القديمة أن النسوة تلوَّن باللون الأصفر الخفيف مثل هؤلاء الرجال، وقد فسر

ذلك علماء الآثار بأن النسوة يمكثن في عقر دورهن أكثر من الرجال، فجاء لون جسمهن أفتح من لون زملائهن. ولكن هذا التفسير لا يمكن أن ينطبق هنا على هؤلاء الرجال، وربما كان الحل الحقيقي لذلك أننا نشاهد هنا جنسين من الناس، فالحمر هم المصريون الغزاة، أما الصفر فهم اللوبيون الأفريقيون القدامى. واللون الأصفر كما ذكر «لبسيوس» يمثل «التحنو» الذي حاربهم «منتو حتب الثاني» الذي نحن بصدده. والظاهر أن هذه الصورة التي على تابوت الأميرة «كمسيت» هي ذكرى تدل على أن المصريين كانوا مؤلفين من أفريقيين وعنصر أجنبي غزا البلاد.[٤]

أما التابوت الثالث فهو بسيط الصنع جدًّا عارٍ عن أية زينة اللهم إلا الصيغ الدينية التي نُحتت عليه، والنقوش صورة من نقوش تابوت الأميرة «كاويت» وهو للحظية الملكية الوحيدة كاهنة «حتحور: هنهنيت»، وأغرب ما يبدو في نقوش هذا التابوت أن رسم الأفعي «𓆑» وهو يمثل حرف «ف» قد وجد رأسه مقطوعًا ومفصولًا عن الجسم، وهذه الظاهرة نجدها في نقوش متون الأهرام منذ الدولة القديمة، ويعزو بعض العلماء السبب في ذلك إلى أن المُتوفَّى كان يخاف شر هذه الحشرات، وأنها ربما انقلبت إلى صورتها الحقيقية فتضر بالمُتوفَّى في حجرة دفنه، ولكن الغريب هنا أنَّا نجد ذلك فقط في مقبرة إحدى الأميرات دون سواها مما يبرهن على أنه ربما كان لكل منهن عقائد خاصة في السحر وتأثيره، أو قد يجوز أن هذا يرجع إلى الحفار الذي نَقش هذه الأشكال.

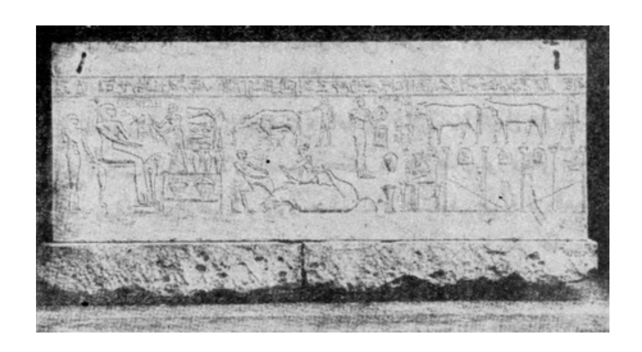
مقبرة عاشيت

كشف عن حجرة دفن الأميرتين «عاشيت» و«مايت» الأستاذ «ونلك» في موسم عام ١٩٢٠–١٩٢١ من مواسم الحفر في جهة الدير البحري.

أما «عاشيت» فكانت على ما يظهر ملكة حقيقية رغم أنها ماتت ولم تبلغ بعد الثالثة والعشرين، وقد وجد في قبرها شعرها مصفوفًا في هيئة جدائل بكل عناية ودقة وتدل موميتها على أنها كانت صغيرة الجسم، ولا شك في أن الصانع المتفنن الذي نحت تابوت الملكة «كاويت» الفاخر الذي سبق الكلام عليه، والذي يعد أجمل قطعة منحوتة وصلت إلينا من عهد الأسرة الحادية عشرة، هو نفس الذي نحت تابوت «عاشيت»، والواقع أن

[٤] Naville, Deir el Bahari I, P. 56.

فن هذين التابوتين يعد مثلًا رائعًا في النحت لمدرسة كانت لا تزال قديمة في طرازها، غير أن ما ظهر من المهارة الفنية في صنع التابوت الأخير يكاد يكون منقطع القرين بالنسبة لهذا العصر، فنشاهد على جانبه الشرقي ممثلًا صورة باب القصر تعلوه شرفة افترض في إقامتها أن تطل عاشيت من نوافذها بعينين حُفرتا لذلك بخاصة، وإن كان هذا التفسير للعينين أصبح غير مقبول عند بعض العلماء كما ذكرنا آنفًا، وفي داخل القصر ترى أكوامًا متراكمة من لذيذ الطعام أمامها، وتُرى هي جالسة وكلبها يُقعي تحت عرشها، وخلفها وصيفة تروِّح عليها بجناح إوزة، وهي تشرب لبنًا سائغًا يقدِّمه لها لبَّان من بقرتين قد أحضرتا لها مع صغيريهما.



شكل ٣: منظر من تابوت الملكة عاشيت.

وترى في منظر آخر وهي تزور مزارعها فتشاهد مدير بيتها مشرفًا على المزارعين وهم يحملون حقائب الغلال ليضعوها في المخازن، وفي منظر آخر تبدو وصيفتها تقدِّم لها زجاجات العطور من صناديق في خزانتها، وكذلك ترى جزاريها يذبحون ثورًا ويكدسون كومة من اللحم فوق مائدة مرتفعة وضعت أمامها، وفي داخل التابوت نشاهد نفس المناظر بالألوان الزاهية، وتلك كانت صفحة من أعمال الأميرة اليومية كما سبق شرحه في وصف تابوت الأميرة «كاويت». أما التابوت الخشبي الذي وُجد داخل التابوت الحجري فإن ما رُسم عليه من الزينة كان خاصًّا بعالم السحر، والتابوت من الظاهر خلو من كل حلية غير إطار ذهبي حول حافته، حُفرت فيه صلوات ودعوات دينية بحروف غائرة، وغير عينين تنظران بهما إلى عالم الأحياء، أما الداخل فقد زُين جميعه بالتعاويذ البراقة التي

تنتمي إلى عالم السحر، فغطاء التابوت يمثل السماء وقد نُقش عليه بالألوان تقويم فلكي في شكل قائمة تبين لنا مطلع النجوم والأبراج مدة الاثنتي عشرة ساعة التي يتكون منها الليل، وصلوات طويلة للكائنات السماوية، فالدب الأكبر قد مثل بساق ثور، وغُطي جانبا التابوت ونهايتاه بمتون سحرية، وفوق هذه المتون صفوف مرتبة من الصيغ المأخوذة من قوائم التعاويذ والصيغ الدينية اللازمة لروح المُتوفَّى حتى تفلت من الأخطار والشراك التي نُصبت لها في العالم السفلي، على أن الباحثين في العلوم الدينية والسحرية سيجدون في هذه النقوش مقدمات غزيرة تدل على حذق الإنسان في اختراع التعاويذ السحرية الغامضة، وقد وجد في داخل التابوت الخشبي مومية «عاشيت» في صندوق من النسيج المقوَّى، ويعد رغم بلاه وتمزقه وثيقة مصرية هامة عن العادات الجنازية؛ إذ وجد مكدسًا فوق الجثة عدد عظيم من الجلابيب المصنوعة من الكتان، وعلى الكتان علامات تدل على أنه من النوع الذي كان يستعمله القصر الملكي منذ أربعة آلاف عام، فنجد على قطعة مثلًا «الملك منتو حتب» أو «مخزن الكتان الجميل» أو نجد اسم مدير القصر الذي كان يشرف على صناعة هذه الجلابيب أو الحصول عليها، وبجانب الملكة وجد تمثال صغير يمثلها، صُنع من الخشب الصلب، وقد حُليت يداه بسوارين من الذهب وقميص أحمر على جسمها مرفوع بحمالة بيضاء، وقد وُجد معها كذلك بعض حلي وأشياء أخرى قليلة.

تابوت مايت

أما تابوت «مايت» التي يظن أنها كانت من صغيرات بنات الملك فلم يوجد معها أشياء كثيرة تستحق الذكر اللهم إلا بعض حلي من حبات الذهب المفرغة وقلادة من الكرنالين وأخرى من الخرز، وقد وجد اسمها مكتوبًا على موميتها، ومعظم هذا الأثاث الآن في متحف المتروبوليتان بنيويورك إلا الأشياء التي ذكرنا أن المتحف البريطاني أو المتحف المصري[٥] أُعْطِيَها.

[٥] وقد فحص الأستاذ دري أجسام هذه المميات في مقال رائع (راجع A. S. Vol. 4 P. 246 ff).

(٤-٥) آثار الفرعون خارج طيبة

أما آثار هذا الفرعون خارج «طيبة» فكثيرة؛ إذ عثر له في دندرة على طغراء نُقشت على قطعة حجر (Petrie, Dendereh Pl. XII) ولكن أهم أثر للملك «نب حبت-رع» في هذه الجهة هو محراب صغير مهدى للإلهة «حتحور» والإله «حور-أختي» والإله «مين».
(Daressy, A. S. 1917, P. 226; Petrie, “History of Egypt” Vol. I. P. 139; Evers, Ibid Pl. 9).

وفي هذا الأثر يُرى الملك لابسًا التاج المزدوج للوجه القبلي والوجه البحري ورافعًا يده قابضة على صولجانه، وباليد الأخرى يقبض على نباتي البردي والبشنين المتعانقين كأنه يريد أن يضربهما، وقد كتب أمامه: محبوب «حتحور» سيدة «دندرة» ابن الشمس «منتو حتب» المنتصر، القابض على البلاد الشرقية وهازم الأصقاع الجبلية، والخائض قلوب النوبيين، والذي يدفع له النوبيون الجزية ... والمازوي و«أرض الواوات»، و«اللوبيون» و«الأسيويون» بوساطة حور صاحب التاج المقدس ملك الوجه القبلي والبحري «نب حبت».

وتحت قدميه نشاهد الأرضين مربوطتين معًا بواسطة إلهين يمثلان النيل: أحدهما يمثل نيل الوجه القبلي، والآخر نيل الوجه البحري وتقف خلفهما الإلهة «مرت»،[٦] ويرى على جدار أحد جانبي المحراب «حور نتر حزت» «لقب الملك» محبوب «حتحور» سيدة «دندرة» ملك الوجه القبلي والبحري «نب حبت رع» الإله الطيب سيد الأرضين ابن الشمس «منتو حتب»، وعلى الجانب المقابل من المحراب يري الملك مع الآلهة ويتبعه حامل المروحة، ويرى ثانية وهو جالس على عرشه يقدَّم له اللبن والطعام، وهذا المحراب لا يتسع إلا لتمثال واحد والنقوش بارزة وعتيقة جدًّا مثل نقوش الجبلين، وتشبه التي على محاريب تماثيل معبد الدير البحري، ويرجع تاريخها للأسرة الحادية عشرة.

[٦] الإلهة مرت هي إلهة مائية، ويلاحظ في النقوش أنها تُكتب في صورة المثنى، وفي هذه الحالة تمثل نيل الدلتا ونيل الصعيد (وراجع Max Muller, Egyptian Mythology, P. 136).

(٥) نهاية الحروب بين هيراكليو بوليس وطيبة

وتدل قرائن الأحوال على أن ختام الحروب بين طيبة وهيراكليو بوليس كانت السنة التاسعة من حكم «نب حبت رع»؛ أي سنة ٢٠٦١ق.م، وكانت قد حلت. وقد دامت هذه الحرب مدة طويلة بين جنود من طراز أولئك الذين نشاهد تماثيلهم النادرة في مقبرة مسحيتي في فرق كل واحدة منها أربعون.

(Porter and Moss, Bibliography IV. 265, Meyer, Ibid Par. 274).

وكان معظم الجنود في ذلك الوقت يحملون قوسًا بسيطًا طويلًا، أما القوس المركب فقد جلبه الهكسوس معهم، ومع هذا القوس كان الجندي يسلح بقبضة من السهام؛ لأن الكنانة كانت غير عادية بشكل مدهش.

(Newberry, Beni Hassan, Vol I, Pls. XIV–XVI, Vol II, Pls. V, XV; Naville, Ibid, Vol I Pls. XIIb, XIV d. F., X. V. C. d. Winlock Dier el Bahri PP. 72, 127 Pl. 20).

وكان بعض الجنود يتسلح لحماية نفسه بدروع ضخمة من جلد الثور، وينتخب الجلد ذا شعر كثيف بقدر ما تجود به الطبيعة، وقد عثر على جثث نحو ستين جنديًّا ممن حاربوا مع جيش هيراكليو بوليس في مقبرة من أوائل المقابر التي تشرف على مقبرة «نب حبت رع» نفسه، وتدل أجسامهم على أنهم قُتلوا عندما كانوا يهاجمون حصنًا (Winlock; Dier el Bahari P. 123, Pl. 19). وبعضهم قُتل في ساحة الوغى فعلًا، أما البعض الآخر فقد جرحه المدافعون فوق الأسوار، ولما هرب المهاجمون نزل رجال الحامية من معقلهم وجمعوا من تبقى من المهاجمين على قيد الحياة وضربوهم بالعصي حتى قضوا نحبهم، والظاهر أنهم بقوا في ساحة القتال مدة طويلة قبل أن يُدفنوا؛ بدليل أن أجسامهم قد نهشتها طيور السماء، ولكن لم يمضِ طويل وقت حتى كان النصر حليف «نب حبت رع»، فجمع موتاه وحملهم إلى قبر على مقربة من المدفن الذي كان يجهزه لنفسه، وهناك واراهم التراب إلى أن كشف عن جثتهم معول الحفار الحديث. وليس لدينا معلومات صريحة مباشرة عن سير القتال منذ أن استطاع أمراء طيبة ضم مقاطعة «طينة» إلى ملكهم، ولذلك لا نعلم شيئًا على وجه التحقيق قبل الهجوم العام الذي قام به «منتو حتب» الثاني، وهو الهجوم الذي أدى إلى توحيد البلاد كلها وجعلها تحت سلطانه، اللهم إلا حادثًا واحدًا وهو الثورة التي قام بها أهل «طيبة» في السنة الرابعة عشرة من حكم «منتو حتب» الأول، ولكن من جهة أخرى لدينا شواهد غير مباشرة تشير إلى الحالة التعسة

التي سادت البلاد خلال تلك الفترة، مما يؤكد لنا ما جاء في الوثائق التاريخية النادرة الخاصة بهذا العهد. ومن بين هذه أسعفنا الحظ ببعض مصادر أثرية لم تفهم قيمتها الحقيقية من حيث إنها تلقي ضوءًا على حالة البلاد الجنوبية (الصعيد) في هذه الآونة من الناحية الحربية، وهذه المصادر تنحصر في بعض لوحات كانت تهدَى للجنود بعد وفاتهم فتنصب على قبورهم لتكون تذكارًا لما قاموا به في سبيل الدفاع عن مملكتهم الجنوبية، وهو ذلك الدفاع الذي أدى إلى تغلب أمراء «طيبة» على ملوك «هيراكليو بوليس» واعتلائهم عرش البلاد كلها، وهذه اللوحات قد وجدت مبعثرة في المتاحف الأوروبية، وقد جمعها الأستاذ «فنديه»[٧] وأظهر ما لها من قيمة تاريخية حربية هامة في هذه الفترة من تاريخ البلاد الغامض.

وعدد هذه اللوحات اثنتا عشرة لوحة يرجع تاريخ معظمها إلى ما قبل حكم الفرعون «منتو حتب» الثاني، ولا بد أن الكثير من بينها يرجع إلى عهد «أنتف واح عنخ» ومعظم هذه اللوحات مصدرها مدينة «نقاده» أو مدينة الجبلين، وهما مدينتان تقعان في شمالي وجنوبي طيبة على التوالي، وهي عاصمة مملكة الجنوب التي كان يحارب في صفوف جيشها هؤلاء الجنود، على أن ذلك لا يحتم أن الملوك الأول للأسرة الحادية عشرة قد حصروا انتخاب أحسن جنودهم في هاتين البلدتين، بل قد يعزى ذلك لمجرد الصدفة، وربما تجود الحفائر المقبلة في جهات أخرى بالكشف عن لوحات تشبه التي سنفحصها الآن، ويلاحظ أن هذه اللوحات تتفق جميعًا في شيء واحد وهو تمثيل الجندي عليها. وليس من السهل دائمًا أن يميز الإنسان بين الجندي والمدني في الرسوم المصرية، ولكن في معظم الأحيان يمكننا تمييز الجندي بأسلحته؛ لأنه يُشاهَد حاملًا قوسه وسهامه بدلًا من العصا الطويلة والصولجان اللذين كانا يحملهما الرجل المدني في معظم الأحيان، ففي الاثنتي عشرة لوحة التي عثر عليها لجنود؛ نجد هذه الميزة شائعة في عشر منها، ومن الجائز أن نتعرف على صورة الجندي أحيانًا بميزة خاصة في هندمة ملابسه؛ والظاهر أن جنود جيش مملكة الجنوب الصغيرة لم يلبسوا حللًا عسكرية نظامية معينة على أن معظم الجنود كانوا يعصبون رءوسهم بشرائط يدلى طرفها على الظهر، وهذه الشرائط تختلف عن أختها المحلاة بالأزهار، التي كان يلبسها عِلية القوم رجالًا ونساء في عصور

---

[٧] Vandier, Quelques Steles des Soldats de la Premiere Periode Intermediaire, Chronique D’Egypte, No. 35 Janvier 1943, P. 21 & Fig. 1–12.

التاريخ المصري كلها، وقد كانت هذه الشرائط من خصائص هذا العهد الإقطاعي الأول لرجال الجيش، ويحتمل كذلك أن البحارة كانوا يربطونها، والرماة الذين نشاهدهم في مقبرة «عنختفي نخت» يلبسونها أيضًا، كما أننا نجد في نفس هذا العصر المحارب الذي يدل عليه في كانوا يرتدون جلبابًا بسيطًا، وقد يستبدلون به جلد حيوان (شكل ٣) (Ibid Fig. 9, Stele Turin II. 115).

وقد يلف الجندي حول وسطه شريطًا من النسيج معقودًا بطريقة تترك حافة النسيج الخارجية ظاهرة من الأمام مكونة شريطًا متدليًا يكون له أحيانًا هدَّابات وينتهي طرفه عند الركبة، ومن النادر أن تكون الملابس الحربية على أتمها إلا عندما نشاهد الجندي يحمل نجادًا يمر فوق كتفه وعلى صدره (Ibid Fig. 8 & Fig. 12) والمتوفى من الجنود كان يصحبه كلب أو عدة كلاب (Ibid Figs. 2, 3, 4, 8, 10).

(٦) استعمال الكلاب في الحروب

وكان الكلب في مصر القديمة كعادته حيوانًا أليفًا كما كان يدرب على فنون الحرب، والمناظر المهشمة التي بقيت لنا على جدران مقبرة «عنختفي» بالمعلَّة[٨] برهان صادق على صحة ما نقول؛ إذ نجد أن الرسام قد نقش على أحد جدران هذه المقبرة صفًّا من الجنود الرماة يسير الواحد منهم في أثر الآخر، وكل منهم بيده مقود كلب، وهذا المنظر يمثل حربًا من غير شك ولا دخل للرياضة فيه. والكلب هنا كان يساعد سيده في الموقعة فيُستخدم لاقتفاء أثر العدو أو مهاجمته، وهذا الاستنتاج يخوِّل لنا أن نفسر بطريقة مقنعة فاصلة سبب وجود الكلاب بكثرة على لوحات العهد الإقطاعي الأول؛ إذ الحقيقة أن الجندي القديم عندما كان يرجع إلى حياته المدنية العادية لم يكن لينسى صديقه القديم وساعده في ساحة القتال؛ فكان يرغب عن طيب خاطر في أن تمثل صورته بجانبه على الأثر الذي كان يهدى إلى ذكراه. ويلاحظ أن نوع الكلاب الذي كان يستعمل في هذه الحروب هو من فصيلة الكلاب السلوقية التي كانت توجد في مصر بكثرة، ويتعرَّف عليها المرء بمخالبها العالية وخرطومها المدبب وأذنها المنتصبة، وذيلها المقوَّس، ومما يؤسف له أن معظم ما رُسم من الكلاب على اللوحات التي نحن بصددها قد رُسم رسمًا رديئًا، وسبب ذلك أنها لم تكن

[٨] هذه المقبرة لم تنشر بعد نقوشها.

لأفراد من عِلية القوم ووجهائهم، وليس في المناظر الأخرى التي مثلت على هذه اللوحات ما يسترعي النظر إلا القليل؛ إذ هي في الواقع من نوع اللوحات الجنازية الكلاسيكية؛ ولذلك يندر رسم المُتوفَّى عليها منفردًا (Ibid Fig. 4) بل كان العرف أن يُرسم مع المُتوفَّى واحد أو أكثر من أفراد أسرته، وكان المُتوفَّى يُرسم دائمًا واقفًا، وفي أغلب الأحيان تكون أمامه مائدة قربان، كما كان وضع الأشخاص في اللوحة كلاسيكيًّا فلا تتطلب إلا إيضاحًا قليلًا جدًّا، ولذلك سنقصر الوصف هنا على اللوحات الثلاث التي وجدنا فيها بعض تفاصيل غريبة.

لوحة الجنود النوبيين: فلوحة «تحنو» راجع (Ibid Fig. 8) تمثل اللوحات الأسرية التي تسودها روح المحبة الخالصة وأفرادها كلهم جنود من النوبيين؛ فيشاهد صاحب اللوحة مرتديًا ملابسه العسكرية وإلى جانبه زوجه وهو يتقبل تحيات إخوته الأربعة، وكلهم جنود مثله كل منهم يقبض على أسلحته بيديه، ويشاهد كذلك ساقٍ بيده قدح يقدمه لسيده وهو من الشراب الذي تصبو إليه نفسه، كما يُرى كلبه الأليف باسطًا ذراعيه عند قدميه.

أما اللوحة الثانية وهي الآن بمتحف تورين فقد عثر عليها في الجبلين (Ibid Fig. 9) ويجد المرء في تفسيرها صعوبة بالغة، فالنقوش التي عليها تذكر فقط أسماء الأشخاص المرسومين دون أن تشير إلى العلاقة الأسرية التي تربط بعضهم ببعض، غير أننا رغم ذلك نتعرَّف على اثنين منهم كانا على ما يبدو رفيقين في ساحة القتال؛ إذ نشاهد كلًّا منهما يمسك بذراع رفيقه كما يحدث ذلك كثيرًا بين الجنود المتحابين. وكان يلبس كل منهما جلد حيوان بسيط ويقبض بيده على الأسلحة التي امتاز بحملها في ساحة الوغى، وهناك اثنان آخران كان يقبض كل منهما على يد زميله، يرتديان جلبابين قصيرين يستقبلان المحاربين السالفي الذكر.

لوحة «إتي» قائد الجيش: أما اللوحة الثالثة فهي لشخص يدعى «إتي» وربما كانت أهم هذه اللوحات وأكثرها إيضاحًا وحيوية (Ibid Fig. 10)، وقد كان «إتي» هذا يحمل لقب قائد الجيش ولقب «حامل الخاتم الإلهي» ويرتدي جلبابًا مقوًّى (منشيًا) ويمسك بيده اليمنى عصا طويلة، وقد زين شعره شريط وفي صحبته زوجه التي تضمه بشغف، وكان يسير بجواره كلباه، ويلاحظ أنه يضغط بيده اليسرى بحرارة على يد أخيه الذي كان يتقدم نحوه، ويشغل بقية رقعة اللوحة القرابين المختلفة وصف من الخدم يتألف من امرأتين ورجلين، والأخيران يحملان على محفة قطعًا من اللحم.

وقد كان بودِّنا أن نجد بعض تفاصيل ثمينة عن الحياة الحربية في تلك الفترة من حياة الأمة، ولكن لسوء الحظ كان المصري وقتئذ يعتبر أن مثل تلك التفاصيل لا قيمة لها عنده؛ لأنها شيء عادي رتيب لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل، بل إنه يعد تناولها بالإسهاب من العبث وفضول القول، وكانت غاية همه أن يدوِّن على مثل هذه اللوحات الصيغ الدينية التي يظن أنها كفيلة بحفظ كيانه في الحياة الآخرة، وتقدم له الطعام والشراب كلما احتاج إليهما، ونجد أحيانًا فضلًا عن ذلك نداء للأحياء كما في اللوحة رقم عشرة.

لوحة حقا إب: وقد نجد على اللوحة تاريخ حياة المُتوفَّى منقوشًا على الطريقة المصرية المألوفة التي كانت سائدة في هذا العصر، وهي التي لا تبرز لنا شيئًا عن شخصية صاحب اللوحة ومميزاته كما نجد في لوحة «حقا اب (Ibid Fig. 6)» فإنه لم يذكر لنا شيئًا مطلقًا عن حياته الحربية وما قام من ضروب الشجاعة في ساحة القتال، في حين أننا نجده من جهة أخرى يقص علينا شجاعته وفضائله المدنية والمنزلية حتى كان من المحتمل أن نجهل إلى الأبد مقدرته الحربية التي جعلته يخوض معارك عنيفة لولا بعض الظواهر البادية في ملابسه الحربية ومعدات القتال التي كان يحملها، ولكن رغم كل ذلك فإنه يوجد على بعض هذه اللوحات سطر من النقوش يلقي ضوءًا جديدًا على محتوياتها ويبرز قيمتها من ناحية خاصة؛ وأعني بذلك عبارة الإهداء التي نجدها على هذه اللوحات؛ إذ نجد خلافًا للقاعدة المتبَعَة أن الابن تولى الإهداء في حال واحدة فقط من ست حالات مع أن المُتوفَّى قد ترك خلفه ذرية من الذكور؛ بدليل أننا نرى معه في بعض اللوحات ولدًا أو أكثر.

والعادة جرت على أن المُتوفَّى إذا خلف من بعده ذُكرانًا قام أكبرهم بدور الكاهن؛ فيقدم القرابين ويؤدي الطقوس الدينية، وقد يحدث أن يقوم بذلك أبو المُتوفَّى أو أخوه بدلًا من الابن باعتبارهما متوليين أمره ومشرفين عليه، وقد يقومان بذلك لأن المُتوفَّى قد عاجلته المنية في ساحة القتال، ولم يعقب ذكورًا تقوم له بما يجب مما جرى به العرف منذ أقدم العهود؛ فإذا اتفق أن لوحة من اللوحات لم تُذكر في نقوشها عبارة الإهداء ولم يمثل عليها أولاد للمتوفى فليس ذلك لمجرد الصدفة، بل لأنه لم يترك أولادًا فعلًا، أو قد هصر عوده في ساحة القتال قبل أن ينجب ذكورًا؛ ولذلك نجد المُتوفَّى ممثلًا في هذه الحالة منفردًا أحيانًا مع زوجه (راجع Ibid Figs. 2, 7, 11) وأحيانًا محاطًا بإخوته (راجع Ibid Figs. 9, 10, 8) وفي هذه الحالة الأخيرة يقوم بطبيعة الحال أحد الإخوة

بإهداء اللوحة لنفس السبب السالف الذكر، وإن لم يُذكر اسمه على اللوحة بأنه هو المهدى.

ومن كل ما سبق من الملاحظات التي أوردناها عن هذه اللوحات نعلم أنها قد أهديت إلى جنود احتضروا في ريعان شبابهم؛ من أجل ذلك يجوز لنا أن نستنبط أن أصحابها قد لاقوا حتفهم في ساحة الشرف والفخار وماتوا ميتة الشجعان! وقد احتفظوا بنفس الأسلحة التي لم يتخلوا عنها في ساحة التضحية السامية فخلد رسمها معهم. والآن نعود إلى الحالة الشاذة التي أشرنا إليها فيما سبق، وأعني بذلك لوحة الجندي «حقا اب» وهي التي أهداها له ابنه الأكبر «إتي»، ومن البدهي أنه ليس من المستحيل أن «حقا اب» كان قد قُتل في ساحة الوغى بعد أن رزق أولادًا ذكورًا بلغوا سن الرشد، ولكن إذا أمعنا في النظر إلى لوحة هذا الجندي نجد فيها حلًّا آخر مقبولًا أكثر من السابق؛ إذ يلاحظ أنه قد رسم على هذه اللوحة شخصية واحدة تحمل السلاح، وهذه الشخصية ليست «حقا اب» المُتوفَّى ولا ابنه «إتي» بل هو ابن آخر للمتوفى اسمه «أقر»، ولا نزاع في أن هذا الابن هو الذي قد لاقى حتفه في ساحة الشرف لا «حقا اب» المهدى إليه اللوحة، وحقيقة الأمر إذن أن «إتي» كانت فكرته المؤثرة هي إقامة هذه اللوحة التي تمجد في وقت واحد ذكرى والده وموت أخيه الأكبر مستشهدًا في ساحة الشرف، والوضع الذي نشاهد فيه هؤلاء الأشخاص في اللوحة يؤكد لنا هذا التفسير؛ إذ نجد أن كلًّا من «حقا اب» و«أقر» يدير وجهه نحو اليمين ويتسلم في الوقت نفسه القربان والخضوع من مهدي اللوحة.

أما اللوحة الأخيرة في هذه المجموعة فهي لشخص يدعى «نختي» ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة، ويلاحظ في صناعتها تقدُّم عظيم عن اللوحات السابقة، ورغم أنها تختلف عنها إلا أنها يوجد وجه شبه بينهما؛ إذ نجد بين الصف الذي يضم أفراد هذه الأسرة ممن رُسموا في أعلى هذه اللوحة شخصًا يدعى «وبوات نخت» قد زين رأسه بشريط ويقبض بيده على قوس وسهام، وكذلك نلاحظ أن «نختي» المهدى إليه اللوحة قد زين رأسه بشريط فلا بد أن يكون كذلك من رجال الجيش، وقد أهدى أباه هذه اللوحة ابنه الأكبر وهو الذي يشاهَد سائرًا في مقدِّمة أعضاء الأسرة، وإذا اقتصرنا على الشخصيات الثلاث الأولى الموجودة في هذا الصف وجد نفس الممثلين الذين وجدناهم على اللوحة السالفة الذكر؛ أي نجد الوالد وهو محارب قديم، وأخوين أحدهما جندي وهو الذي يقبض بيده على القوس والسهام، أما الثاني وهو الذي يقدِّم لوالده فخذ ثور

فهو مُهدي اللوحة، والواقع أنه لا يوجد أي اختلاف بين هاتين اللوحتين إلا في توزيع رسم الأشخاص، مما يجعل بعض الشك يخالج نفوسنا في تفسيرها، ولكن الحقيقة أننا نشاهد الأولاد الآخرين الثلاثة، وحفيد المُتوفَّى يقدِّم له كل منهم قربانًا، وفي هذه الحالة ألا يجوز لنا أن نفرض أن الأسلحة التي يحملها ابنه الثاني ليست إلا قربانًا أيضًا، أو بعبارة أخرى أن الابن الذي اعتنق مهنة الجندية التي كان والده قد انخرط في سلكها من قبل قد جاء ليقدِّم واجبات الاحترام لوالده وهو بملابس الجندية، والواقع أننا لا يمكننا أن نرفض مثل هذه النظرية جملة، ولكن مع ذلك لا نستبعد أن يكون هذا المنظر شبيهًا بمنظر اللوحة السابقة (Ibid Fig. 8) ويفسر بنفس الروح الذي فسر به زميله، وقد كان المهدي يريد في هذه الحالة أن يمجد ذكرى أخيه الأكبر الذي مات في ساحة الشرف في نفس الوقت الذي كان يمجد فيه ذكرى والده.

ومما سبق يتضح أن العادة التي كانت مستعملة في نقش الألواح في العهد الأول من العصر الإقطاعي، وبخاصة في أوائله، للمحاربين لم تستمر عظيمة الانتشار في العهد الذي جاء بعده، ولكنها لم تختفِ نهائيًّا بانتهاء العصر الذي نشأت فيه؛ ولذلك لن نكون متجاوزين حدود الموضوع الذي نحن بصدده الآن إذا فحصنا لوحتين يرجع تاريخهما للدولة الوسطى.

لوحتان لجنود من الأسرة الثانية عشرة: وهما اللوحتان الوحيدتان على ما يظهر اللتان لهما علاقة باللوحات التي فحصناها فيما سبق: وأولى هاتين اللوحتين يرجع عهدها إلى باكورة الأسرة الثانية عشرة (Ibid Fig. 12) وقد أقيمت تذكارًا لموظف كبير وُكِّل إليه القيام بأعمال الشرطة في الصحراء الغربية، وقد كانت الصحراء في هذا الوقت، كما هي الحال في عصرنا، مأوًى للمجرمين، وقد كان عمل الشرطة أن يبحث عن هؤلاء المجرمين في هذا المكان؛ فنشاهد المهدى إليه وقد تسلح بالقوس والسهام ويصحبه كلبه، وقد رُسم في هيئة تدل على أنه يقوم بواجبات وظيفته (Ibid Fig. 12) وليس ببعيد أنه قد امتاز بميتة شريفة؛ لأن حرفته لم تكُ خالية من الأخطار، وليس الجنود المحاربون هم الذين وحدهم كانوا يموتون شهداء الواجب.

أما الأثر الثاني فهو أحدث عهدًا من سابقه (Ibid Fig. 13)؛ لأنه ينسب إلى العهد الإقطاعي الثاني، ومما يؤسف له أن النقوش لم تعطِنا أية معلومات عن شخصية المهدى إليه، اللهم إلا رسمه الذي جعلنا نؤكد أنه كان يحترف الجندية، فهو يلبس جلبابًا غريبًا في هيئته، يتألف من قطعتين من النسيج لكل منهما لون خاص يختلف

عن لون الأخرى؛ ولذلك لا يبعد أن يكون هذا الجلباب هو اللباس العسكري في هذا العهد، ويشاهَد بيده اليسرى القوس والكنانة معًا، ومن المحتمل أن الشيء الذي بيده اليسرى هو مضرب «بومرانج»، ورغم أوجه الشبه المحققة التي نجدها بين منظر هذه اللوحة ومناظر اللوحات الأخرى التي فحصناها، فإنه من خطل الرأي؛ الجزم بأن المهدى إليه هنا قد لاقى في ساحة الوغى ميتة مجيدة.

(٧) الحياة الحربية في هذا العصر

وعلى أية حال فإن فحص هذه اللوحات قد وضع أمامنا صفحة جديدة في تاريخ الحياة الحربية في هذا العصر؛ إذ قد صورت لنا الجندي في ملابسه وأسلحته، وكذلك الكلاب والدور الذي كانت تلعبه في ساحة القتال، هذا فضلًا عن العلاقات الأسرية التي كانت تربط بين أفراد الأسرة وما يكنه كل منهم للآخر من الألفة والمحبة التي تجلت بكل معانيها في مناظر تلك اللوحات، يضاف إلى ذلك أنه كان يوجد في هذا العصر أسر بأكملها من النوبيين يعملون في الجيش المصري في المملكة الجنوبية، وبينهم من الود والإخاء ما نطقت به أوضاع صورهم على اللوحة التي مثلوا عليها.

(٧-١) منتو حتب الثاني موحد الأرضين

ومن المؤكد أن شجاعة مثل هؤلاء الجنود الذين عثرنا على لوحاتهم كانت تجعل النصر يقترب من الأبواب؛ إذ إنهم كانوا يؤمنون بحق أمرائهم في طيبة، ويضحون من أجل قائدهم الأعلى بأغلى شيء لديهم وهي حياتهم، وقد كان أميرهم وقائدهم على يقين من عدالة قضيته، كما كان يثق بأن الغلبة في النهاية ستكون له، وأنه سيصبح حاكم البلاد المصرية كلها؛ ولذلك بادر فأعلن نفسه فعلًا ملك مصر الحقيقي، واتخذ لنفسه اسم «حور-سام-تاوى» (أي الملك موحد الأرضين) وصاحب الإلهتين سام-تاوى وحور الذهبي «قا-شوتي» ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب حبت رع» ابن الشمس «منتو حتب» وهذه هي الألقاب الفرعونية الخمسة الكاملة. (L. D. Vol. II, Pl. 149 b in Aswan & Daressy, A. S. 1907 P. 244; Bisson de La Roque, Ibid. P. 67, Naville ibid, I, 3; II, 21).

وقد كُتب كلا الاسمين الأخيرين في داخل طغرائين في حين أن ملك الجنوب كان لا يوضع في الطغراء إلا اسمًا واحدًا، وعلى أية حال فإن عبارة «سام تاوى» (موحد القطرين)

كانت ترتكز على حقيقة تاريخية حتى ولو كانت الاسم الذي يطلق على صورة من صور «حور» (Lanzone Dizionario di Mitologia egizio P. 600) (حور سماتاوي).

أما عبارة «قا-شوتي» رفيع الريشتين؛ فإنها كانت كذلك نعتًا يليق به لدرجة عظيمة، والواقع أن الأسلوب الذي استحدثه هذا الفرعون في كتابة لقبه كان يعد من وجوه كثيرة تغييرًا هامًّا، وذلك أنه منذ هذه اللحظة كان يكتبه دائمًا بعلامة «المجداف» بدلًا من الإشارة التي تدل على حروفها، وهي الإشارة التي كانت تستعمل في الرقص المقدس، فعلامة المجداف تكتب هكذا «𓊤» وتنطق «حبت» والعلامة[٩] «𓋗» تنطق = «حبت» أيضًا فنجد أن «منتو حتب» أصبح يكتب لقبه «نب حبت رع» بعلامة المجداف بدلًا من العلامة الثانية التي كان يستعملها من قبل. ولزمن قريب جدًّا كان يعتبر التغيير في الاسم علامة على أنه كان يوجد ملكان كل منهما يسمى «منتو حتب» عند هذه الفترة في تاريخ الأسرة الحادية عشرة؛ غير أن الرواية التي وصلت إلينا عن طريق ورقة «تورين» تدعو إلى اعتبارهما ملكًا واحدًا؛ وهذا ما سنتبعه هنا، وقد اعترف كاتب قائمة الكرنك بالمركز الهام الذي ناله هذا الفرعون بوصفه ملكًا على مصر كلها؛ وذلك أنه لم يكتفِ بوضع اسمه في جزء آخر من قاعة الأجداد الصغيرة غير الذي كان في أجداده الذين سبقوه مباشرة، بل نعته كذلك بأنه «الإله الطيب» رب الأرضين ملك الوجهين القبلي والبحري سيد القربان «نب حبت-رع» المبرأ (Prisse Ibid Pl. I; Sethe Urkunden IV P. 609).

ونجد اسمه كذلك في قائمة الملوك التي نُقشت في مقبرة «نتري» بسقارة، أما في الرمسيوم فنجد (Porter & Moss, Ibid III, 192)، أن مكانته قد ظهرت بصورة بارزة جدًّا، فهناك نجد الملك «مينا» والملك «نب-حبت-رع» والملك «أحمس» يظهرون بوصفهم المؤسسين للدولة القديمة، والدولة الوسطى، فالدولة الحديثة؛ على التوالي (L. D. Vol. II, Pl. III, Pl. 163).

والظاهر أن الكُتاب كانوا يعلمون أن من واجبهم تعلم كتابة أسماء الملوك بسرعة دون ارتكاب أخطاء في كتابتها، ولكن قد وجدنا خطأ رغم ذلك في العرابة المدفونة، وذلك عندما نقش حفار ما: «يعيش طويلًا حور سام تاوى ملك الوجه القبلي والوجه البحري»

---

[٩] Gardiner “Egyptian Grammar” PP. 487, 524; Farina II Papiro dei ne No. 16 & Winlock J. E. A. 1940, P. 116.

ابن الشمس «منتو حتب» دون أن يكتب أي لقب للفرعون (Petrie, Abydos Vol. II Pl. XXIV.) ويوجد في متحف اللوفر لوحة قبر يرى فيها الإنسان آثار الرجوع للقديم بوضوح، هذا رغم رسمها الممتاز، وكان يعتبر بمثابة تاريخ فيها الاسم «حور» واسم الملك الذي يكتب بالإلهتين «نبتي» وقد كتب ذلك دون ارتكاب أخطاء، ثم نجد أنه يأتي بعد ذلك فجأة «ملك الوجه القبلي والبحري» ابن الشمس «في الطغراء» منتو حتب، كما كان يكتبه الإنسان عادة في أوائل حكمه (Louvre C. 14, Prisse, Ibid Pl. VII; Maspero, "Transactions of the Society of Biblical Archaeology," 1877, P. 555; Petrie, History, P. 142).

وهذا الاقتباس هو من لوحة مَثَّال يدعى «يرتسن» الذي وضعته «ادت» وزوجته «حيو» وقد رُسما مع أولادهما «سنوسرت» و«منتو حتب» و«سي منتو» وابنتهما «قم» وابنها «تم نك»، ويخبرنا «يرتسن» أنه عرف كيف يصور الخروج والعودة … وحركات صورة الإنسان وهيئة المرأة وتوازن الذراع لصيد فرس البحر وحركات العدَّاء، ولا يفلح أحد في كل هذا غيري أنا وبكر أولادي من جسمي، ويقصد من هذا أنه كان منقطع النظير في فنون الحفر التي لقنها ابنه.

على أن الإنسان قد يشك بحق إذا كان كل ما قاله طبعيًّا كما فكر هذا المثال، غير أنه في مقدورنا أن نرى في بعض القطع المنحوتة في هذا العصر تهذيبًا عظيمًا ورقة بالنسبة للإنتاج الساذج الذي كان ينتجه رجال الفن الطيبيون في الأزمان السابقة، وذلك مما يبشر بفن أرقى ينتظر ظهوره في القريب العاجل في عهد الأسرة الثانية عشرة.

(٧-٢) استمرار الحروب بين الشمال والجنوب

ورغم كل هذه الادِّعاءات الطنانة الرنانة التي يدَّعيها «نب حبت رع» فإنه لم يجنِ للآن انتصارًا حاسمًا على أعدائه، فقد ترك لنا موظف عظيم يدعى «ريمو» في «إبسكو» الواقعة على بعد ٢٧ أو ٢٨ كيلومترًا جنوب الفيلة ثمانية نقوش على الصخور هناك تبرهن على أن الحرب كانت لا تزال مستمرة وإن كانت سائرة ببطء (Roeder, Debod bis Bab Kalabsche, P. 103; Meyer, Ibid par. 277 Drioton & Vandier, Ibid, P. 252).

فقد جاء في إحدى هذه اللوحات على لسان «زامو» ما يأتي: لقد بدأت أذهب إلى ميدان القتال جنديًّا في عهد «نب حبت رع» عندما ذهب مصعدًا في النيل إلى الجبلين، وعدنا إلى



شكل ٤: تمثال الملك منتو حتب الثاني.

الملك بعد أن اخترقنا كل البلاد، وفكرنا في قتل متوحشي «زاتي» الذين كانوا مستولين على المحاجر، ولكنهم ولوا الأدبار وهزمتهم.

وفي نقش آخر نرى أنه يتعدَّى الحديث عن حرب الجنوب ويحدثنا كيف بدأ الموقعة في الشمال (الدلتا) منحدرين في النهر في كل البلاد و«زيمو» مقتفٍ أثرهم، وقد ذهب نحو الشمال مثل الأسد في إثر ابن ملك الوجه القبلي والبحري مع جمعه هذا، وبعد ذلك مات العدو في الواقعة؛ لأني كنت قويًّا ضد ما فعله أهل الشمال، ومن ذلك نستنبط أن مصر

لم تكن قد وضعت السلاح مباشرة بعد أن سمي «نب حبت رع» باللقب الرنان «موحد الأرضين».

ولا يمكننا أن نمر مر الكرام على لوحة «منتو حتب» بن «حابو» فطرازها وتاريخها لا يمكنانا من نسبتها إلى حكم هذا الفرعون؛ إذ نقرأ فيها ما يأتي:

وبعد ذلك أتي نيل منخفض — السنة الخامسة والعشرون.

ومن ذلك نعلم أنه حتى بعد السنين الطوال التي قضتها مصر في حروب داخلية، والتي أخذت البلاد تنسى بعدها ويلاتها نجد أن الطبيعة قد غضبت عليهم لتذيق الأهلين الويل، وتلحق بهم العذاب، فقد انخفض النيل مما زاد الحالة في البلاد ضغثًا على إباله.

(٨) الاحتفال بعيد سد

وبعد ذلك تمر أيام من حكم هذا الفرعون دون أن يصادفنا شيء هام يمكن تأريخه بصفة قاطعة، وكان أول تاريخ يصادفنا بعد ما ذكرنا آنفًا هو تاريخ احتفال هذا الفرعون بعيد «سد» (عيد الثلاثين)، ونحن نعلم أنه احتفل به على التحقيق، والمرجح أنه كان في السنة التاسعة والثلاثين من حكمه؛ أي بعد مرور ثلاثين عامًا على توحيد القطرين، أو بعبارة أخرى بعد أن انتصر على الشمال انتصارًا جعله يؤمن بالنصر النهائي وإحرازه السيادة التامة الفعلية على كل البلاد ريفها وصعيدها (Naville Ibid I, 40)، وتدل الشواهد على أنه عند الاحتفال بهذا العيد أمر الفرعون بنحت تماثيل لنفسه بالملابس العتيقة الغريبة التي كانت تحتم التقاليد لبسها في الاحتفالات المقدسة لهذا العيد، وقد أمر بأن يوضع واحد منها تحت كل شجرة في ردهة معبده، وكذلك أمر بنصب طائفة منها على طول الطريق الذي يؤدي للمعبد، هذا إلى إقامة تمثالين في الردهة نفسها، وبالرغم من أن هذا الفرعون قد شرع يحفر لنفسه مقرَّه الأخير في داخل المعبد نفسه فإنه ابتدأ بنحت مقبرة ضخمة أخرى، وهي المعروفة الآن بباب الحصان، ونعلم أن كل ما كان عليه أن يفعله ليجعل هذا الضريح قابلًا للاستعمال أن يسدَّ الحجرة التي لم يتم حفرها في نهاية البئر، ثم يردم هذه البئر نفسها (Winlock J. E. A. 1940 P. 118; A. J. S. L. P. 143 & 147, 153, Fig. 8) وبعد ذلك جاء بتمثال ثالث (انظر شكل رقم ٤) ولفه بنسيج من الكتان الجميل، ووضعه في الحجرة الآنفة الذكر عند رأس البئر المردومة بجوار تابوت خالٍ، وهذا التمثال عارٍ عن كل نقش، وقد وُضع بجواره بطتان وفخذا ثور وعدد من الأواني،

وقد وجد في كوَّة يظهر أنها كانت بداية لحجرة في المنزلق المؤدي إلى البئر تابوت لتمثال «مجاوب» كتب عليه صلوات «لأنوبيس» و«أوزير» ليقدِّما قربانًا للإله الطيب «نب حبت … «ابن رع منتو حتب» وبعد انتهاء هذه الاحتفالات والمراسيم الدينية ملئ مدخل المقبرة حتى أصبح بمستوى سطح رقعة الردهة، وقد شاءت الأقدار أن يبقى هذا القبر بعيدًا عن الأنظار مدة تقرب من أربعة آلاف سنة إلى أن كُشف عنه حديثًا.

(Carter A. S. 1901, P. 201 Pls. 1, 2; Naville, Ibid, 1, 9, 26 Pl. XIII g, Budge Ibid Pl. VI; Bonnet A. Z. 1925 Pl. 41; Evers. Ibid Pls. 12, 13 Fig. 54; Winlock, Deir el Bahari P. 130, pl. 12).

(٩) الملك نب حبت رع منتو حتب وزيارته مع بلاطه لشط الرجال



شكل ٥: منظر لزيارة منتو حتب الثاني لشط الرجال مع ابنه وزوجه وحامل ختمه «خيتي».

لقد تضاربت الأقوال والآراء في اللوحة التي نُقش عليها رسم الملك «منتو حتب» الثاني والأشخاص الثلاثة الذين معه، والواقع أن المجموعة التي على هذه اللوحة (شكل رقم ٥) غريبة في بابها حتى إنه لم يصل أحد إلى حل رموزها للآن حلًّا شافيًا، ولا نزاع في أنها من أهم اللوحات التي نُقشت على الصخر في هذا الوادي المهجور، ولم يعرف أحد للآن

لماذا اختير ذلك المكان لحفر هذا النقش وغيره من النقوش التي ترجع على ما يظهر إلى الأسرة الحادية عشرة، من أجل ذلك سنبحث هنا اللوحات التي وجدت في هذا المكان؛ لأن ذلك سيلقي ضوءًا عظيمًا على تاريخ الملك «منتو حتب» الثاني وحاشيته وعظماء رجال دولته.

(٩-١) وادي شط الرجال

وشط الرجال الذي وجدت فيه هذه اللوحة وادٍ صغير يقع على حافة الصحراء الغربية على بعد ٣٥ كيلومترًا جنوب «إدفو» وعلى بعد ٤ كيلومترات شمال جبل السلسلة، وأقرب محط له هو محط «كاجوج» على الشاطئ المقابل للنيل.

وتوجد على الصخر «جرافيتي» في هذا الوادي عدة نقوش تعزي إلى عصر ما قبل التاريخ، وعلى بضعة أمتار من فوهة هذا الوادي كان يوجد محط لصيادي عصر ما قبل التاريخ [على ما يظهر] قبل تحوُّل هذه البقعة إلى صحراء، وربما كان ذلك في العصر الذي كان النيل فيه لا يزال يجري شرق جبل السلسلة، فيشاهد على الصخرة مناظر حيوان كالزراف سائرة[١٠] قطعانًا، ومن بينها نلاحظ نعامة وفيلًا، ولا نعرف على وجه اليقين وجود نقش آثار لبعض من ارتادوا هذا المكان بين عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرة الحادية عشرة، وكل ما نعرفه نقش لملك يدعى «حور-وار».

وقد ظن بعض الأثريين أنه من العصر الطيني كما ظن أنه هو الملك ثعبان،[١١] ويعتبره بعض المؤرخين أحد الملوك الذين حكموا بين عهد الدولة الوسطى والدولة والحديثة،[١٢] ومن المحتمل أن الرأي الثاني أكثر رجحانًا؛ لأن شكل الكتابة التي كُتب بها الاسم يؤيده، يضاف إلى ذلك أنه عثر على ملك يسمى «خيتي» في خرطوش وقد قرئ بطرق مختلفة، وقد ذهب البعض إلى أنه في العصر الذي سبق الدولة الوسطى أو العصر الذي أعقبها،[١٣] جريًا وراء الحدس لا اليقين.

---

١٠ Petrie, A Season in Egypt. P. 414.

١١ De Morgan, Les Origines de 1'Egypte I (1896) 163–64. Fig. 488–489 (Nos. 15—25); Winkler, Rock Drawings of Southern Upper Egypt. (Archel. Survey of Egypt. I. 1938, 9. Sites 35–36 Pls. XXXXI; II (1939) 5–6. Sites 35–36, 48, 52).

١٢ Petrie Season P. 15 & A. S, V. (1904) P. 144 ff.

١٣ Petrie Ibid P. 15, No. 430.

(٩-٢) وصف لوحة منتو حتب الثاني

وإنه لمن خطل الرأي أن يستنتج الإنسان من اسم هذين الملكين شيئًا عن تاريخ «شط الرجال»؛ على أننا لم نعثر حتى الآن على أسماء أفراد من عهد الدولة القديمة في هذه المنطقة، والحقيقة أن تاريخ «شط الرجال» قد عُرف فقط من النقوش التي نُحتت على صخور الوادي الملساء، وأول ما يشاهده زائر هذه الجهة عندما يدخل الوادي نقشًا جميلًا قد نُحت فوق النقوش التي من عصر ما قبل التاريخ في شكل لوحة، صور فيها أربعة أشخاص أطولها رُسم بالحجم الطبعي، ونُقش أمام وجهه «حور» موحد الأرضين ملك الوجه القبلي والبحري «نب حبت رع» عاش مخلدًا وعلى رأسه التاج المزدوج، وقد ارتدى الجلباب القصير المحلى بذيل الأسد، وفي يده عصا وبالأخرى «مضرب الحرب» وقد رسم خلفه أم الملك التي يحبها «اعح» وتتحلى بصورة عقاب على رأسها، وتحمل في يدها عصا وفي الأخرى زهرة بشنين، وأمام الملك رُسم شخصان، الأول كُتب فوقه «الوالد المقدس» المحبوب من الملك ابن الشمس «أنتف» عاش مخلدًا، وهو يلبس زي الملوك، فعلى جبهته الصل والكوفية (نمس) ويلبس جلبابًا ملكيًّا وذيل أسد كالذي يلبسه «نب-حبت-رع» وذراعاه متدليتان على جانبيه، ويقف خلفه شخص يحمل لقب مدير الخزانة الشمالية حامل الخاتم «خيتي»، وقد وقف بوضع يدل على الخضوع لابسًا الجلباب الطويل الذي يرتديه العظماء، وبطنه قد ظهر فيه الثنايات التي تُشعر بالأبهة وعيشة الترف والنعيم، وعلى نحو ستة خطوات غربي هذا النقش يوجد نقش آخر على صخرة مفصولة عن الجبل، وهي لوحة تمثل الملك «نب حبت رع» وأمامه حامل الختم «خيتي» فقط.

والملك «منتو حتب» الثاني الذي لا يحتاج إلى تعريف قد حكم البلاد على أقل تقدير نحو ٥١ عامًا، ويعد حكمه أطول حكم في هذه الأسرة، وفي عهده توحد القطران ثانية كما أسلفنا، أما الصورة التي ظهرت خلفه فموضوع إشكال عند المؤرخين، فقال بعضهم إنها زوجة «منتو حتب» الثاني، وأم «أنتف» وهذه فكرة في ظاهرها خلابة، ولكن يعترضها أن قد كتب فوق هذه السيدة أم الملك لا زوجته، ووضعها بهذه الكيفية يدل على أنها كانت تنسب إليه، ويجب أن تكون والدته،[١٤] ويحتمل أنها إحدى حظيات والده لا زوجته

[١٤] Eisenlohre, P. S. B. A, (1881) PP. 99 ff & Petrie, Ibid 15, No. 489 & Winlock M. M. A. Feb 1928, p. 18 ff & 22.

الشرعية، كما يحتمل أنها أم «نفرو» التي أصبحت زوجة أخيها الملك «منتو حتب الثاني»، وقد دفنت بجواره بالدير البحري كما سنرى، ورغم أن «اعح» كانت في هذه الفترة متقدمة في السن فإن ذلك لا يمنع زيارتها مع ابنها هذا المكان.

على أن «أنتف» ابن الشمس كان كذلك موضوع حدس كبير فقد قيل عنه إنه أمير نوبي من أتباع الملك «منتو حتب الثاني» جاء ليقدم خضوعه لسيده (Meyer Ibid I. P. 277) ولم نجد اسم أمير نوبي يحمل لقب «ابن الشمس عاش مخلدًا» يقف في حضرة الفرعون نفسه، وهو الممثل لإله الشمس على الأرض ومن جهة أخرى قال عنه «برستد»: إنه سلف مخلوع للملك «منتو حتب الثاني» وقد تُرك حيًّا إلى عهد هذا الملك (Breasted, A. R. I. P. 418, 424–25)، أو أحد مع أناتفة آخرين من النصف الأول من عهد الأسرة الحادية عشرة.

(Steindorff A. Z. XXXIII, P. 88 & Petrie History I, (1923) P. 141).

كذلك عدَّ من هؤلاء الأناتفة[١٥] (المتوفين) في حضرة «منتو حتب الثاني» حسب رأي «فندييه» (Vandier B. I. F. A. O, Vol. XXXVI P. 114).

ومن جهة أخرى قد سمي «أنتف» ابن «منتو حتب الثاني» ووارثه (Maspero, Dawn of Civilisation P. 462–63 & Naville, “XI Dynasty Temple”, I. P. 7, Gauthier, B. I. F. A. O, Vol. V, P. 30 & 35).

وربما كان هذا الرأي هو التفسير المعقول لمنظر «شط الرجال»، وبهذه الصفة يكون لأنتف كل الحق في أن يسمى «ابن الشمس» «عاش مخلدًا»، كما يجوز له أن يكتب اسمه في طغراء ويلبس النمس والصل الملكيين … إلخ، غير أنه لم يكن ملكًا حاكمًا؛ لأنه لم يلقب بلقب التاج «ملك الوجه القبلي والوجه البحري» ولكنه كان يحمل مع ذلك اللقب الأكثر انتشارًا وهو: «الوالد المقدس؛ المحبوب من الإله»، ونحن نعلم أن الذي خلف «نب حبت رع» كان يطلق عليه «منتو حتب» أيضًا، فيحتمل أن الابن الأكبر الذي كان يحمل اسم «أنتف» وهو اسم أجداد الأسرة، قد مات قبل والده، وأنه دُفن في الدير البحري في مقبرة عظيمة لا تبعد كثيرًا عن قبر والده الملك وبالقرب من مقبرة الملكة «نفرو» كما سنرى (Winlock, M. M. A., Ibid) وقد كُتب فوق ذلك القبر على سور معبد الأسرة الحادية

[١٥] أناتفة جمع أنتف مثل رعمسيس ورعامسة.

عشرة عدَّة مرات اسم «أنتف معطي الحياة»! والظاهر أن الذين كتبوا ذلك كانوا من المعاصرين له، وقد عرفوا حقًّا الفرد الذي أقام هذا القبر.

شخصية «خيتي» المرسوم على اللوحة

وكذلك نعرف شيئًا عن رابع أشخاص هذه المجموعة وهو «خيتي» حامل الختم، فقد كان من أكبر شخصيات البلاط، ولكنه كان يلعب هنا دورًا هامًّا غير عادي، ففي اللوحة الأولى نراه مرسومًا بنفس حجم ولي العهد، وفي اللوحة الثانية نجده واقفًا أمام الملك وحده، وأهم من ذلك نراه قد رُسم بحجم الملك نفسه، ونحن نعلم من نقش في «أسوان» أن أمه تسمى «سات رع» وقد ذكر «برستد» أنه من أسرة أسيوطية، وأنه التحق بخدمة «منتو حتب الثاني» (Breasted “Ancient Records”, I, 414)، بعد أن استولى الطيبيون على الشمال. وفكرة «برستد» لا يوجد ما يناقضها، بل تتفق تمام الاتفاق مع دليل آخر؛ ذلك أن اسم «خيتي» كان يكتب عادة على نسيج الكتان الذي يُنسج للبلاط الطيني، ولكن ذلك على ما يظهر قبل اتحاد القطرين؛ فلم يوجد اسمه على أكفان الطفلة «مايت» التي يظن أنها ماتت قبل توحيد البلاد، ودفنت بين أميرات البلاط في الدير البحري، ولكن من جهة أخرى وجد اسم «خيتي» على لفائف «عاشيت» و«هنهنيت» اللتين يحتمل موتهما بعد اتحاد البلاد، وكذلك وجد على لفائف امرأة بتاريخ السنة الأربعين؛ أي بعد هزيمة الإهناسيين (Winlock M. M. A. Nov. Part II, P. 13–14)؛ وقد نحت «خيتي» لنفسه مقبرة تشرف على معبد الدير البحري في نقطة من أهم نقط جبانة الأسرة الحادية عشرة كما سيجيء ذلك بعد (Winlock, Ibid 1923 Part II P. 14)؛ وقد وضع تمثالًا لنفسه في معبد آمون بالكرنك، ومن المحتمل أنه قرب مذبحًا من الجرانيت (Mariette, Karnak Pl. 5 j Text P. 44 No. 12 Moharram Kamal, A. S. XXXVIII, P. 158).

وفي نقوش معبد الدير البحري ظهر يقدم الخضوع «لمنتو حتب» الثاني في عيد «سد» (Naville, XI Dyn. Temple I, 40 No. 1) كما يشاهد في منظر «شط الرجال» ونعرف من نقوش في «أسوان» أنه قام بحملة إلى «واوات» في بلاد النوبة في السنة الحادية والأربعين من حكم هذا الملك (Petrie, Ibid P. VIII, No. 213).

وفي هذه المناظر المختلفة نلحظ أنه يحمل نفس اللقب الذي يحمله في «شط الرجال» حامل الختم؛ أما على تمثال الكرنك فيلقب «حامل الخاتم في كل الأرض حتى آخر حدودها»، وعلى نقوش قبره يحمل لقب الأمير الوراثي، وحاكم المقاطعة، ويحمل كذلك

لقب حامل خاتم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد (على نقوش قبره ونقوش أسوان وعلى التمثال)؛ وكذلك يلقَّب المشرف على أمناء الخزانة (في نقوش أسوان) والوالد المقدس (على التمثال).

وحوالي منتصف الطريق توجد بين اللوحتين اللتين في شط الرجال على الجانب الجنوبي لهذا الوادي الصغير مجموعة من النقوش الضخمة طولها نحو ثمانية أمتار، (Winlock, M. M. A. Feb. 1928 Part II, Fig. 24).

نقوش لشخصيات أخرى في وسط الرجال

ومن المحتمل أنها كانت أكثر عددًا مما وُجد وضاعت لتآكل الصخر، ومع ذلك فلا يزال موجودًا ثمانية نقوش منحوتة نحتًا متقنًا واثنان نُقشًا على عجل. ويخيل للإنسان أن جماعة من المفتنين قاموا بهذا العمل تحت إشراف الحفار «وسر-إنر» الذي ذكر اسمه على أحسنها نقشًا وموضوعًا وحجمًا وسنبتدئ بنقشه وهو كما يأتي:

(١) الكاهن المطهر المشرف في «حتنوب» (محاجر المرمر) حفار القصر والمشرف على الحفارين «وسر-إنر» ابن «أنتف».
(Eisenlohre, Ibid P. 102, Pl. II. I. I. & Petrie Ibid No. 473 & Bissing Ibid P. 20.)

وحفر هذا النقش يشبه كثيرًا حفر النقش الأول مما يبرر أنه هو الذي كان مسئولًا عن كليهما.

(٢) المشرف ... التابع «سبك حتبو» (Petrie, Ibid No. 487).
(٣) مدير البيت ...؟ حـ (Petrie, Ibid).

والنقشان الأخيران وُجدا مشوهين بعض الشيء في الأعصر القديمة بنقرهما، وقد وجد اسم مدير بيت يدعى «حنون» على قطعة من تابوته ولوحته ومصراعي بابه في الدير البحري (Winlock, A. J. S. L. (1940) P. 149)، ويقع قبره في الصف الذي فيه حامل الخاتم «خيتي» ومدير المالية «مرو» وهو عظيم الحجم كالمقابر التي تجاوره ويحتمل إذن أن «حنون» هذا هو الشخص المقصود هنا.

(٤) المحبوب حقًّا من سيده «مكت رع» مدير المحاكم الست العظيمة (Eisenlohre, Ibid, Pl. II, 1. 7. & Petrie, Ibid No. 455) وأول ما ظهر اسم «مكت رع» كان في معبد الملك «منتو حتب الثاني» حيث ذكر في مكان بلقب «السمير الوحيد» وحامل الخاتم «مكت رع»، ومن المحتمل في مكان آخر «حاكم المقاطعة» وحامل الخاتم «مكت رع» (Naville, XI Dyn, Temple, Vol. II, IX, D) ويحتمل أن نقش «شط الرجال» كان بعد هذه بزمن قصير، وقد عثر على قبره بين رجال بلاط الملك «سعنخ كارع» (منتو حتب الثالث) وهو يشرف على معبده كما سيجيء بعد (M. M. A. Dec. 1922, Part II, P. 19). وعلى جدرانه كان يلقب: الأمير الوراثي، حاكم المقاطعة، حامل خاتم ملك الوجه البحري والأمير الوراثي لباب [جب]، ويحتمل أن أحد هذين اللقبين كان لابنه «أنتف»، وكذلك كان يلقب «المدير العظيم للبيت»، وقد وجد هذا اللقب على قطعة حجر من حفائر قام بها «درسي» عام ١٨٩٥ وهي الآن بمتحف القاهرة، وكذلك ظهر على قاربين من النماذج التي وجدت في سرداب قبره أنه كان يلقب «الأمير الوراثي» فقط، وعلى قطعة حجر وجدت بالقرب من قبره كان يلقب فقط «حامل الخاتم» (A. J. S. L. 1940, April P. 150).

(٥) حاجب الملك المتصرف لدى الإله، والذي يسمع اسمه في الجنوب، وفي الشمال المحبوب حقًّا من سيده «محيسا» بن «دجا» وأمه تدعى «نزمت»؛ ونحن لا نعرف اسم زوجة الوزير «دجا» ولا أولاده، وقبره قد بني في عهد ذلك الملك بالقرب من المعبد، ولذلك لا يمكن أن يوحَّد «دجا» المذكور هنا و«دجا» الوزير.

(٦) قريب الملك حقا حاكم الأرض الشمالية «اتو».

(٧) حامل خاتم ملك الوجه القبلي، السمير الوحيد وحاكم الصحراء الغربية الذي يأتي إليه الأمراء مسلمين عند باب قصر الملك، المحبوب من سيده المشرف على أمناء الخزانة «مرو» (Eisenlohre, Ibid P. 102, Pl. II; II, 10–11 X. & Petrie, Ibid No. 459) وهناك نقش آخر لم تنقشه يد متفنن على قطعة منفردة وجد عليها كذلك: المشرف على أمناء الخزانة «مرو»، وتوجد آثار أخرى لـ «مرو» هذا[١٦] في المقبرة رقم ٢٤٠ في الدير البحري عليها لقبه «المشرف على أمناء الخزانة»، وعلى لوحة يحتمل أنها من «العرابة» هي الآن في متحف تورين (Gauthier, Livres des Rois I, 232) وهي مؤرخة في السنة السادسة

[١٦] Eisenlohre, Ibid, Pl. II, 11. 3–4 & Petrie, Ibid, No. 472 & 474.

والأربعين من عهد الملك «نب حبت رع»؛ أي بعد نقوش شط الرجال بسبع سنين، وقد ذكر فيها اسم والد «مرو» وهو «اكو» وأمه «ختيتي» وألقابه كالآتي: حامل خاتم ملك الوجه البحري، السمير الوحيد، والمشرف على أمناء الخزانة، كما جاء ذلك في نقوش «شط الرجال»، وقد أضيف إليها نعوت أخرى مثل «الذي كسب محبة سيده» «المحبوب والممدوح من سيده».

(٨) حامل خاتم ملك الوجه البحري السمير الوحيد كاتب سجل الملك «إيا» ويوجد نقش بهذا الاسم «إيا» ربما كتبه صاحبه بيده على مسافة ١٠٠ خطوة في داخل الوادي — وقد كتب حروف اسمه هجاء وبعدها «الحياة والسعادة والعافية! الممدوح حقًّا من سيده.» وقد عثر الأستاذ «نيو بري» على قطعة حجر لم تنشر بعد في معبد الدير البحري عليها كاتب الملك «إيا».

(٩) ضام أقطار الملك في كل ممتلكاته، المحبوب حقًّا من سيده، حامل خاتم ملك الوجه البحري المشرف على أمناء الخزانة «مرو» (Eisenlohre, Pl. II, 11 3–4 & Petrie, Ibid, No. 475, 474)، ومن المحتمل أن «مرو» هذا هو الشخص المذكور في نقش أسوان سنة ٤١ (Petrie, Ibid Pl. VIII No. 243) عندما كان حامل الخاتم «خيتي» عائدًا من واوات، ويجب أن تقرأ كالآتي: السنة الحادية والأربعون من حكم ملك الوجه القبلي والبحري «نب حبت رع» عاش مخلدًا مثل رع، إني معروف لدى الملك، وحاكم مقاطعة، والمراقب على الجزء الشرقي من مقاطعة عين شمس، وهذه الألقاب لا تنتزع منه شخصية «مري» الذي كان في «شط الرجال» منذ عامين مضيا.

(١٠) المدير الملكي «حبي» الممدوح حقًّا من سيده (Petrie, Ibid, 468) وقد عثر «نيو بري» على قطعة حجر في الدير البحري لم تنشر بعد، ذُكر عليها اسم هذا الموظف الملكي «حبي».

وهناك نقشان ليسا في المجموعة التي نحن بصددها، ولكن يظهر أنهما ينسبان إليها وهما: الأمير الوراثي كبير المرتلين، وكاتب الكلمات المقدسة «خيتي»؛ وخيتي هذا كذلك معروف من قطعة حجر عثر عليها في الدير البحري كتب عليها: كبير المرتلين «خيتي».

(١١) المشرف على أمناء الخزانة «سبك حتب» (Petrie, Ibid No. 586).

ومما يلفت النظر أنه على مسافة خمس عشرة خطوة من اللوحة الأولى، وعلى مقربة من اللوحة الثانية من الجهة الغربية قد كتب شخص ما بسرعة على الصخور التاريخ سنة ٣٩، ففي المرة الأولى كتب التاريخ في سطر واحد من الشمال إلى اليمين أو اتجاه اللوحة

عندما يدير الإنسان وجهه لهما ... (Petrie, Ibid 542)، وفي المرة الثانية كُتب بنفس اليد التي كتبت الأولى ولكن بالعكس،[١٧] ومن وضع هذين التاريخين يظهر جليًّا أنه يقصد بهما حصر اللوحتين، ومجموعة النقوش التي بينهما، يضاف إلى ذلك أن تاريخًا مدته كبيرة كهذه لا يمكن أن يكون لملك آخر غير «منتو حتب الثاني» نفسه، وعلى ذلك يظهر أن السائح الذي كتبهما كان يعرف زيارة البلاط لهذا المكان فكتبهما هناك وكأنه يريد أن يقول: «هذه الأسماء التي بين هذا المكان وذاك هي للملك وحاشيته الذين كانوا هنا في السنة التاسعة والثلاثين من حكم الملك.»

(١٠) زيارة شط الرجال بعد عهد منتو حتب الثاني

ويظهر أن وادي «شط الرجال» كان يقصد كثيرًا بعد زيارة الملك «نب حبت رع» وحاشيته؛ وفي خلال السنين القلائل التي تلت هذه الزيارة قصد هذا المكان أكثر من مائة شخص وكتبوا بعض كتابات بالقرب من نقوش عام ٣٩ على طول الوادي، وبعض هذه النقوش مؤرخ في أواخر الأسرة الحادية عشرة، وكذلك توجد طغراء للملك «منتو حتب» الثاني كُتبت على عجل في الجزء العلوي من هذا الوادي (Petrie, Ibid No. 394)، وغربي ذلك يوجد رسم تخطيطي للملك «سعنخ كارع» منتو حتب الثالث في ملابس عيد «سد» يتقبل قربانًا من الغزلان حمله إليه رجلان أحدهما يسمى «منتو حتب»، وترى اثنين من حاشيته يركعان خلفه (Petrie, Ibid 359) وقد خلد ذكر هذا الملك في نقش يقع بين نقوش رجال البلاط واللوحة الأولى؛ حيث يوجد اسمه على لوحة سقطت من الصخر وعليها «حور سعنخ» وهي مقلوبة الآن، ولهذا الملك نقش ثالث على قطعة منفصلة من الصخر الرملي في الجانب الجنوبي لمدخل الوادي (Sayce, Ibid P. 171) وتقرأ: ملك الوجهين القبلي والبحري «سعنخ كارع» المحبوب من «حور» و«سبك» رب «خارو» الذي خدم حور (الملك) منذ شبابه: الكاهن المطهر «إني» أو يحتمل «أنتفي» ويمكن أن تستنبط مما سبق أن معظم أسماء الأفراد التي عثر عليها في الوادي تقريبًا كلها من هذا العصر فنجد بينها تسعة باسم «منتو حتب» وسبعة باسم «خيتي» وأربعة باسم «أنتف» وثلاثة باسم «منتو أوي» (Petrie, Ibid No. 464, 465, 467) وكلها أسماء خاصة يتميز بها العصر الأول

[١٧] Petrie, Ibid. No. 452.

من عهد الدولة الوسطى؛ وبعض هؤلاء الذين كتبوا أسماءهم يمكن أن يكونوا من حاشية «نب حبت رع»، وإذا كان الأمر كذلك فليسوا إذن من ذوي الحيثيات؛ لأن أسماءهم كُتبت بخط صغير بغير اعتناء على الصخر، ولا يبعد أن يكونوا من هؤلاء الزوَّار الذين مروا بهذا المكان بعد زيارة الفرعون له بسنين قلائل، ومما يلفت النظر بين هذه الأسماء شخص يدعى «مكتو» وكان يلقب حامل الخاتم، كتب اسمه ثلاث مرات، وربما كان الحافز له على ذلك رؤيته اسم سميه «مكت رع» حامل خاتم الوجه البحري (Petrie, Ibid No. 409, 475) وفي خلال السنين الأخيرة من ختام الدولة الوسطى كان يمر بهذا الوادي بعض الزوَّار، ولكنهم كانوا قلائل فنجد بجوار اللوحة الثانية تاريخ السنة الثالثة من حكم «أمنمحات الرابع».

ومن عهد الأسرة الثالثة عشرة نجد نقشًا باسم الملك «نفر حتب» وضعته أم الملك «كمي» (Petrie, Ibid 479).

وبعد عدَّة سنين وقف أحد السياح وكتب تحت اللوحة الكبيرة اسم الملك «سبك أم ساف» (Petrie, Ibid No. 490).

وقد وجد كذلك نفس هذا الاسم «سبك أم ساف» في هذا الوادي لكاتب لم يدونه «بتري» في نقوشه، وقد قصد هذا الوادي سياح من العصر الذي بين الأسرة الثالثة عشرة والأسرة الثامنة عشرة، فعلى مسافة قريبة من اللوحة الصغيرة كتب بخط جميل المحنَّط: «بام» ابن «رن-سنب» المرحومة، وعلى مسافة قريبة نقشت أسماء جماعة كبيرة من الرجال والنساء (Winlock A. J. S. L. Vol. LVII).

(April 1940, P. 156, and Fig. 14).

(١١) زوَّار شط الرجال في عهد الأسرة الثامنة عشرة

وإذا كان أسماء زوَّار «شط الرجال» في العصر الإقطاعي قليلين فإنهم كانوا أندر في عهد الأسرة الثامنة عشرة رغم النشاط العظيم في محاجر الحجر الرملي العظيمة القرب من هذا الوادي في جبل السلسلة وفي أسفل النهر عند الحوش، ومنهما كان يأتي الزوار القليلون للوادي، فقد عثر على نقش من عهد «أمنحوتب الأوَّل» (Petrie, Ibid 480)، وبعد انقضاء جيل على ذلك نجد «بتباتي» المشرف على الأعمال في معبد آمون في عهد المرحوم «أمنحوتب الأوَّل» والمرحوم «تحتمس الأوَّل» والملك الحاكم «تحتمس الثاني» قد زار الوادي ونقش اسمه على الصخور التي على يمين اللوحة الكبيرة (Petrie, Ibid 476)

والظاهر أن «بتباتي» هذا قد قضى حياته في المحاجر؛ لأنه في عصر الحكم المزدوج لكل من «حتشبسوت» و«تحتمس الثالث» قد جاء ثانية وترك اسمه عند رأس الوادي (Petrie, Ibid P. 14, No. 357)؛ والواضح أن الزوَّار كانوا يأتون إلى هذه البقعة ليروا اللوحة الكبيرة، ومن المحتمل جدًّا أنهم يحجون لاسم هذا الملك الذي أصبح مؤلهًا، فقد كتب تحتها أحد الزوار ما يأتي:

زيارة قام بها الكاتب «أب» ليرى الآثار.

(١٢) شط الرجال لم يستعمل محجرًا

ومن كل ما سبق يتضح أن «شط الرجال» كان مقصد الزوار في عهد أواخر الأسرة الحادية عشرة، ومن المحتمل في أوائل الأسرة الثانية عشرة، وبعد قرن أو قرنين من ذلك العهد كان بعض السابلة ينقش اسمه عليه اعتباطًا أو مصادفة، ولكن في عهد الأسرة الثامنة عشرة كان زوار هذا الوادي منحصرين في رجال المحاجر القريبة من شط الرجال، وكانوا متفرجين على الآثار فحسب؛ وعلى ذلك يمكن القول بأن شط الرجال لم يكن قط يومًا ما محجرًا رغم أن سايس (Sayce, Ibid. 171) قد ذكر أنه وجد نقوشًا من عهد الأسرة الحادية عشرة لموظفين وعمال قد أتوا ليبحثوا عن أحجار في هضبة فوق شط الرجال، ولكن البحوث تدل أن أحجار مباني الأسرة الحادية عشرة المأخوذة من الحجر الرملي كانت من النوع الأزرق والأرجواني الرمادي كالتي توجد في «أسوان» وليس من بينها النوع المائل للصفرة الذي يوجد في محاجر السلسلة، وعلى هذا تكون النقوش التي يشير إليها «سايس» ليست لعمال محاجر أو كانت من عهد غير عهد الأسرة الحادية عشرة، وليس في شط الرجال أثر لمحاجر أكثر من ثلاثة أحجار من الحجر الرملي في الوادي، ولا بد أنها قطعت في عهد الدولة الحديثة، وسنرى بعد سر الشهرة التي خلقت فجأة لهذه البقعة، وبعد اتحاد البلاد بفترة قصيرة في عهد الأسرة الحادية عشرة، والتي أصبحت في زوايا النسيان بعد بضعة أجيال.

والواقع أن المسافر الصاعد في النيل قبل أن يصل إلى شط الرجال يجد نفسه قد دخل في الأقطار النوبية الصبغة، ويلاحظ حتى يومنا أن البيوت في «الكاب» التي تبعد نحو ٦٠ كيلومترًا فيها ذكريات البيوت النوبية، هذا إلى أن اللغة النوبية متداولة في «دراو» التي تبعد نحو ٢٥ كيلومترًا جنوبي جبل السلسلة، وهذا المضيق لم يكن قط عقبة للملاحة

كالشلالات التي في جنوبه، ولكن كان هناك منحدرات وعقبات كان يضطر معها الملاحون أن يجروا السفن للخروج من المضيق وبخاصة في زمن التحاريق، وحتى اليوم لا تزال هناك بعض شعاب وأماكن ضحضاحة. وعند «كوم أمبو» يوجد منحنى في النيل صعب اجتيازه بدون ريح رخاء، ولا نزاع في أنه منذ أربعة آلاف سنة لم يكن النيل قد اختط لنفسه مجرًى عميقًا في وسط التلال كما هي الحال اليوم، ولا بد أن سفن الدولة الوسطى كانت تجد مشقة في اجتياز هذا المضيق، وإذا كانت الألواح والنقوش التي في شط الرجال هي نصب تذكارية كما يظهر منها — والواقع أنها كذلك — عملت لزيارة الملك «منتو حتب» وحاشيته في هذه البقعة، فإنه يمكننا أن نفهم في الحال السبب الذي من أجله حط الفرعون رحاله هنا إذا فرضنا أنه صعد في النهر من عاصمة ملكه «طيبة»، فقد كان عند وصوله إلى هذا المكان قد اجتاز حدود مصر، وكانت المسافة التالية من النهر صعبة الملاحة، ولهذا السبب بلا شك كان قد ضرب موعدًا عند جنادل جبل السلسلة حيث كان الأمير «أنتف» وحامل الخاتم «خيتي» ينتظران المثول بين يدي الملك.

ولما كان الراجح أنهما لم يكلفا الهيمنة على بعثة في جوار جبل السلسلة فلا نستطيع القول بأنهما كانا في مكان آخر بعيدًا عن هذه البقعة، وأنهما كانا عائدين ليقدّما تقريرهما عن بعثتهما، وإذا فرضنا أنهما قد حضرا بطريق النهر في السفن النيلية فإن المعقول أنهما يتشرفان بالمقابلة عند شاطئ النهر، وفي هذه الحالة كانت النقوش التذكارية لا بد تنحت على بعض الصخور المطلة على النهر حتى يمكن رؤيتها من النيل، ولكن النقوش التي لدينا كلها في وادي «شط الرجال» بعيدة عن النهر، ولا يمكن رؤيتها منه، ومن هنا يصعب على الإنسان أن يعتبرها تسجيلًا لرحلات نهرية.

(١٣) الغرض من نقوش شط الرجال

وعلى ذلك يمكن تفسير نقوش وادي «شط الرجال» الخاصة بالملك «منتو حتب» وحاشيته بأنها تسجل قافلة صحراوية كالتي قام بها «حرخوف» و«بيبي نخت» و«سبني» في عهد الدولة القديمة (راجع مصر القديمة جزء أول) أما الواحات فلم يكن لها أهمية تذكر ليذهب إليها الأمير وحامل الخاتم، وإذا كانت قد أرسلت فعلًا بعثة إلى هذه الجهات فإن المعقول أن يسلك رجالها الطريق السهل القصير من بلدة «هو»، وعلى ذلك يكون من المحتمل جدًّا أن تكون البعثة عائدة بطريق واحة كركور.

ومما لا نزاع فيه أنه في أوائل حكم هذا الملك في سنة ضرب الأراضي الأجنبية … في عهد «نب–حبت–رع» قام الملك «منتو حتب» بحملة بنفسه بين الشلال «وكلبشة» حسبما

جاء في نقوش «دهميت» التي نقشها «ثيهامو» وكان ضمن رجال الجيش المصري في ذلك العهد[١٨] (Weigall, "Antiquities of Lower Nubia, P. 61, Pl. XIX & Roeder, Debod Bis Kalabsche 280 ff Pls. 106–8).

قبل سنة ٣٩؛ ورغم أنه ليست هناك نقوش تثبت ذلك فإننا نظن أن أعالي النهر على الأقل حتى وادي حلفا قد اعترفت بسلطان ملك مصر، ومن المحتمل أن «أنتف» و«خيتي» قد قاما برحلتهما لتفقد أحوال الأقاليم التي أخضعت حوالي ٢٠٢٠ق.م، وإنه لمن الأمور المغرية التي يحيطها الشك الكبير أن يرى الإنسان وثائق عن رحلة قام بها «أنتف» إلى بلاد النوبة في ثلاثة عشر نقشًا تقع على مسافات متقاربة على طول شاطئ النيل من كلبشة حتى أبو سنبل ذكر فيها: «حور سنفر-تاوى-اف» السيدتان «تاوى-اف حور الذهبي» «نفر» ملك الوجهين القبلي والبحري «كع-كا-رع إن» سلالة رع أبديًّا.
(Roeder, Ibid, 456, 458, & Weiga 11, Ibid, Pl. XXXIV, LII, LIV, LXII, LXIV. LXV, P. 138).

وكان يسمى في العادة «أنتف» وإن كان اسمه لم يكتب قط بهذه الكيفية، ولا شك في أن اسمه الحوري من طراز «سعنخ تاوى-اف» وهو الاسم الحوري للملك «سعنخ كارع» (منتو حتب الثالث)، كما أن النقش الذي يشمل كتابة اللقب «ابن الشمس» في داخل خرطوش؛ هو على وجه عام يمثل نفس الحالة المتبعة في عهد الأسرة الحادية عشرة، وليس هناك اتفاق بين علماء الآثار على توحيد شخصيته، فنجد الأستاذ «مير» (Meyer, Ibid 277) يقتبس من «جوتييه» ويعتبره حاكمًا نوبيًّا محليًّا، وقد ذكر كل من «دريتون» و«فنديه» حديثًا (Droiton, Les Peuples de l'Orient Mediterraéen II. L'Egypte)، أنه ملك نوبي مستقل معاصر لملوك الأسرة الحادية عشرة أو يحتمل قبل ذلك.

ويعتبره بورخاردت (Borchardt Ibid, P. 23 No. 114) أنه ملك مصري جاء في النصف الأول من عهد الأسرة الحادية عشرة، وقد اعترض على هذه الآراء «ونلك» (A. J. S. L. XXX (1915) 6 No. 3) قائلًا: إن خرطوشيه يدلان على أنه لا بد قد أتى بعد «منتو حتب الأول»، ولا شك في أن رحلتهما كانت آخر رحلة مثل التي كانت ترسل في عهد الدولة

[١٨] قد ذكر سايس في نقش لم ينشر عند الشلال الثاني يجيز فيه وقوع ملحمة بين المصريين في عهد الأسرة الحادية عشرة وبين الأهالي المحليين. (Sayce, P. S. B. A. XXXII (1910) 202).

القديمة. وانتهاؤها عند شط الرجال يمكن تفسيره بأن الرحلة من هناك نحو طيبة كانت قصيرة وسهلة لا يعترضها شلالات أو جنادل.

(١٤) بعض آثار من عهد الملك منتو حتب الثاني

وبعد الرحلة التي قام بها هذا الفرعون إلى «شط الرجال» نجد منقوشًا على صخور أسوان: السنة الواحدة والأربعون في عهد «نب حبت رع» أتى حامل خاتم الملك ورئيس الخزانة خيتي [الذي وضعته «ست رع» المبرأة]، إلى «واوات» بسفن … ونجد كذلك نقشًا آخر يقول: السنة الواحدة والأربعون في عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب حبت رع» عاش مثل رع مخلدًا، لقد كنت مراقبًا في مقاطعة عين شمس الشرقية، وموضع ثقة مليكي في العرابة، الحاكم «مري-ثني» (Petrie, Season Pl. VIII. Nos. 213, 243: Maspero, Ibid P. 462; Breasted, A. R, 1, Par. 426, Deir el Bahari P. 117).

ثم بعد ذلك بخمسة أعوام مات حامل الخاتم «مرو» في السنة السادسة والأربعين من عهد هذا الفرعون (Lanzone, Catalogo P. 117, Farina II Regio Museo di Torino, P. 13. Pl. 40).

الذي كان بدوره طاعنًا في السن وقتئذ، وبعد انقضاء خمسة أعوام قضى الفرعون نحبه و«ذهب إلى الأفق».

ولسوء الحظ ليس لدينا تفاصيل عن الحروب التي دارت على أطراف الدلتا مع الأقوام المعادين من «العامو» و«المنتو» ومن المحتمل أن اللوبيين كانوا يناصرونهم في تلك الحروب (Naville, Ibid I. 5 Pl, XIV: Petrie, History I P. 141).

على أنه حتى في الأمور الداخلية التي لها اتصال وثيق بحالة البلاد الاجتماعية ليست لدينا معلومات ذات شأن إلا نتفًا ضئيلة نعثر عليها الفينة بعد الفينة، فمثلًا نقرأ على لوحة في متحف نيويورك (M. M. A. 14. 2. 7. & Winlock, A. J. S. L. 1915 P. 15 No. 2). أن موظفًا يدعى «ماعت» يشير إلى أن صديق الملك ومدير ماليته «ببي» هو الذي ستؤول إليه أملاكي، ولا بد أن «ماعت» هذا قد وصى بأملاكه له، ومن المحتمل أن «ببي» هذا هو الرجل الذي نسمع عنه في تاريخ متأخر عن هذا، وهو الذي أصبح وزيرًا كما نشاهد ذلك في نقوش معبد الدير البحري (Davies, Five Theban Tombs, P. 39).

ولدينا عدة لوحات جنازية عن عصر هذا الفرعون، ولكنا لا نستطيع أن نحدد لها تواريخ معينة، ومن أهم هذه اللوحات وأقربها عهدًا إلى العصر الثاني لحكم هذا الفرعون؛

أي وقت أن انتحل لنفسه ألقابه الجديدة، ثلاث لوحات تحمل اسم «أنتف» بن «مايت» الذي كان يلقب بالأمير والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحري، وتوجد واحدة من هذه اللوحات بكل من لندن وبرلين وكوبنهاجن، فالأولى منها قد أحصى فيها ملكيته.
(Peet, "Liverpool Annals Archaeology" 1914–1915 P. 82 & Winlock, A. J. S. L. 1915 P. 5, 18).

ويقول فيها:

> هذا كل ما أمتلك أصلًا وما أكسبنيه «نب-حبت-رع»؛ لأنه كان يحبني حبًّا عظيمًا.

وهو يلتمس في نقوشها خبزًا نقيًّا في معبد «منتو» وموائد قربان في معبد «أوزير» ثم يتلو علينا شروط عقد أبرم مع الكاهنين» «نختيو» Nekhtui و«أنتف» للاعتناء بروحه.

أما اللوحتان الأخريان فتذكران كيف أنه وجد المزار الجنازي لمقبرة الحاكم «نختي أقر» ويحتمل أن يكون قبره قد خرب … وليس هناك من يفكر في شأنه، وعلى ذلك يقول:

> أمرت ببنائه من جديد … حتى يصبح اسمي طيبًا على الأرض وذكراي حسنة في القبر.

لوحتا «خيتي»: وتوجد كذلك لوحتان أخريان لم يدوَّن عليهما تاريخ، وهما لموظف يدعى «خيتي» وقد عاش في حكم ملك يدعى «منتو حتب» ولا شك في أن المقصود هنا هو «نب حبت رع»، (Gardiner J. E. A. 1917 P. 28 ff).

وتمتاز واحدة منهما بما جاء فيها من الأسماء الجغرافية الجديدة التي ذُكرت عليها، وبأنواع المعادن التي جلبها معه الفرعون، على أن الغريب في ذلك أن من يقرأ محتويات هذه اللوحة لا يشعر بأن «خيتي» هذا قد تجاوز في رحلته هذه حدود شبه جزيرة سينا، وهاك النص الذي جاء بعد الصيغة الدينية المعتادة يقول فيها:

> لقد كنت حامل خاتم الإله[١٩] «أرسلت» لأجل أن أضعف قوَّة البلاد الأجنبية، وعندما كنت في إقليم المعادن فحصته وسحت حول أقاليم «ثنهت» Thenhet

[١٩] هذا اللقب كان يعطاه غالبًا كبار الموظفين الذين يشتركون في الرحلات الخاصة بالبحث عن الأحجار الثمينة وغيرها، مما يؤتى به من البلاد النائية.

وعندما كنت في بيوت «رجل» الشمال ختمت خزائنه التي في جبل «بيت حور في مدرج الفيروز» بعد أن أخذت فيروزًا من منجم «برشمع» وقد حاولت كرة أخرى في منجم آخر يسمى منجم … وهو منجم قد عمل لحور (الملك) نفسه، ولما كنت قد خرجت في هذه البعثة بأمر سيدي هذا فإني فعلت ما أراده، ولقد كنت مبعوثه والمماثل لقلبه وصورة صدره، ولقد أدَّيت له ما أراد كأن ما فعل كان للإله نفسه، ولقد عاقبت الأسيويين في بلادهم، ولقد كان الخوف منه هو الذي نشر هيبتي، ونفوذه هو الذي بث الرعب مني، حتى إن البلاد التي وصلت إليها صاحت قائلة: مرحى مرحى بقوَّته، إن حبه هو الذي جعل الأرضين تتحدان له والآلهة تسعد زمنه، وعدت في سلام إلى قصره وأحضرت له طرائف البلاد الأجنبية من معدن جديد من «بات» ومعدن لماع من «إهوياو» ومعدن صلب من «منكاو» وفيروز «حروتت» ولازورد «تفررت» ومعدن «ساهرت» من فوق الجبال «وخت عوا» من جبال مستيو، ورننثث من «باوق» من الأرض الحمراء، وعصي من «رشاوت» ومزمت من «كهبو».

ومن ذلك نستخلص أن هذا الموظف الكبير (إذا كان كل ما قاله صحيحًا) يعتبر من أعظم المبعوثين الذين ذهبوا إلى «سينا» وتوغلوا في مختلف مجاهلها ومهدوا الطريق لجعلها تحت سلطان مصر في عهد الدولة الوسطى وما بعدها، ومن جهة أخرى تكشف لنا هذه اللوحة عن أسماء أماكن فيها وأسماء معادن لا زلنا نجهلها تمامًا.

أما اللوحة الثانية لهذا الموظف فليس فيها ما يلفت النظر غير أن «خيتي» كان يشغل وظيفة بحرية ربما كانت خاصة بالنقل.

هذا؛ ولدينا عدد من الآثار المختلفة الأنواع قد نقش عليها اسم «منتو حتب»، وكل الدلائل تشير إلى أنها للفرعون «نب-حبت-رع» «منتو حتب» الذي نحن بصدده، فمنها قطعة من الحجر الجيري كانت في «برلين» منذ ستين سنة مضت، وقطعة من الحجر الجيري الملون في «ميرامار» Miramar بالقرب من تريستة ورأس تمثال في متحف الفاتيكان (Wiedemann, Agyptische Geschichte P. 229) وكذلك عثر على جزء من لوحة لموظف يدعى «أنتف نخت» في جبانة أمراء الأسرة الحادية عشرة في «طيبة» الغربية، ويحتمل جدًّا أنها من عهد هذا الملك، وقد ذكر في نقوشها «بيت خيتي» الذي حاربه الطيبيون مدة طويلة.

(١٤-١) مباني هذا الفرعون في «طود»

وتدل الآثار الباقية على أن هذا الفرعون (A. S. (1907) P. 244) كان سخيًّا في إنشاء مبانٍ عدة بعد أن ملك البلاد من أقطارها، ويلاحظ أن معظم هذه المباني كانت في الصعيد موطنه الأصلي، وليس هذا بالأمر المستغرب، «ولا يبعد أنه أقام مباني عدة أيضًا في الوجه البحري قضت عليها يد التدمير ومياه النيل، كما قضت على معظم الآثار الأخرى التي تُنسب إلى غير هذا العصر في تلك الجهة.» ففي بلدة «طود» الصغيرة التي تقع على ما يقرب من ثلاثين كيلومترًا على شاطئ النيل الشرقي جنوبي «طيبة» كان قد أقيم معبد صغير من اللبن وعمده من الجرانيت «لثورمنتو» ويرجع تاريخه على أقل تقدير للأسرة الخامسة، فلما تولى «نب حبت رع» أعاد بناء هذا المعبد المتهدم للإله «منتو» الذي كان يمثل رأسه برأس صقر ولزوجه «تننت» وقد كانت مساحته ١٧ × ٢٣ مترًا وجدرانه من الحجر الرملي والحجر الجيري ووضع فيه تمثال من الجرانيت، وقد نقش على عمده المؤلف كل منها من قطعة واحدة: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب حبت رع» محبوب «منتو» رب طود».

وبنفس الطريقة كتب ابن الشمس «منتو حتب» وكان سقف هذا المعبد من الحجر الرملي، وقد نقش كذلك على ثلاثة من إطارات الأبواب سطران أو ثلاثة من الكتابة على قممها، وعلى عمودين في أسفل مصاريع الأبواب، أما جدران المعبد فقد نقش عليها مناظر تمثل الفرعون واقفًا أمام الإله «منتو» والإلهة «ساتت» ثم الإلهة «نخبت» والإلهة نيت ربة «سايس»، وأحيانًا تمثل الإله «منتو» وزوجه تننت يتوجان «نب حبت رع» ملك الوجه القبلي، وأهم منظر في هذا المعبد الصغير هو الذي يظهر فيه «نب حبت رع» وأجداده الثلاثة من الأناتفة وهم يقدمون قربانًا للإله المحلي «منتو»، وهذه النقوش كلها يظهر فيها القوة والخشونة معًا، وليس ذلك لأنها قد مثلت في معبد صغير مثل معبد بلدة طود الصغيرة، بل الواقع أن هذا يرجع إلى فن العصر وأسلوبه الذي ينم عن القوة والخشونة كما سنرى بعد (F. Bisson de la Roque, Ibid PP. 1, 10, 14, 25, 62, 79).

(١٤-٢) آثاره في «طيبة»

أما في مدينة «طيبة» فكان يوجد معبد للإله «منتو» ومعبد للإله «أوزير»، ومن المحتمل أنهما كانا قائمين على موقع المحراب الحالي (Winlock, A. J. S. L. (1915) P. 522) الصغير في الجنوب الشرقي من معبد منتو، غير أنه لا يوجد أي أثر منهما الآن، وقد عثر «في طيبة» على مائدة قربان غاية في خشونة الصنعة قدمها الفرعون «نب حبت رع» إلى «رب العرابة» (A. Kamal, Tables d'Offrandes No. 23007).

هذا إلى مذبح آخر رُسم عليه صورتان لإله النيل يقدِّمان القربان، ونُقش عليه: حور موحد الأرضين «نب حبت رع» بن الشمس «منتو حتب» (Chabas, in Congrés Oriental St. Etienne II, 78).

وهذه الندرة في آثار هذا العهد في مدينة «طيبة» يرجع سببها طبعًا إلى تكرار تجديد معبدي الإله «منتو» والإله «أوزير» ولذلك فإن أقدم آثار لهما تنسب إلى قرون بعد هذا العهد الذي نبحث فيه، فمعبد «آمون» لا يمكن أن يكون قد ظهر في عالم الوجود بناء متقنًا إلا بعد عهد «أمنمحات» الأول، وهو الإله الذي كان قد احتل مكانه «منتو» في الأسرة الثانية عشرة.

(١٤-٣) آثاره في بلدة «دير البلاص»

وفي الموقع الذي تقوم عليه قرية دير البلاص الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل قبالة قفط تقريبًا؛ يحتمل أنه كانت توجد هناك بلدة صغيرة يحترف أهلها صناعة الفخار منذ عهد الدولة القديمة، وكان أهلها على ما يظهر في فقر مدقع، وليس في مقدورهم أن ينفقوا على نحاتين أو مثالين من أصحاب الكفايات، ولذلك يحتمل أنه قد وفد عليهم مفتنون من غير أهل قريتهم أرسلوا بخاصة لبناء هيكل، ولينحتوا نقشًا لملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب حبت رع» وهو يقدم قربانًا لبعض الآلهة (Lutz, Egyptian Tomb steles, Pl. 32).

مقابر هذا العصر: ومما هو جدير بالملاحظة هنا أنه قد عُثر على طول المنحنى العظيم للنهر، عند دندرة عند الحد الفاصل بين الشمال والجنوب، على مقابر للقوم من هذا العصر، وقد كانت طريقة دفن الأهلين فيها كما كانوا يُدفنون منذ قرون من قبل (Petrie, Denderah P. 10) فلم يتغير طراز مقابرهم من أجيال عدة، بل كانوا يقيمون

مصاطب من اللبن مستطيلة الشكل، وأمام كل منها «مركن» للقربان، أو يقيمون فيها حجرات ضيقة جدًّا كانت تسقَّف باللبن على هيئة قباب، وكل شيء في هذه المقابر حتى أسماء الذين دفنوا فيها يدل على أنهم من هذا العهد؛ إذ نجد من بينها «ببي» و«أنتف» و«أنتف عا» و«أنتف أقر» و«منتو حتب».

وقد عثر هنا على قطعة حجر نُقش عليها اسم «سعنخ أب تاوى» منتو حتب الأول. وكذلك وجدت قطعة أخرى من أثر قديم للملك «نب حبت رع» منتو حتب الثاني.

هذا؛ وقد عَثر المسمدون على أسطوانة كانت تستعمل خاتمًا منقوشة نقشًا عتيقًا، فقد دوِّن عليها اسما «ملك الوجه القبلي والوجه البحري» «نب حبت رع» والإلهة «حتحور».

(٤-١٤) آثاره في العرابة المدفونة

أما في العرابة المدفونة التي حارب من أجلها ملوك هذه الأسرة حروبًا طاحنة فقد وجد اسم هذا الفرعون مرات عدة، مما يدل على احترامه وتقديسه لها؛ ولذلك فإنه على أثر تقلده لقب حور موحد الأرضين أخذ يقيم فيها المباني (Petrie, Abydos, II 14, 33, 43, Pls. XXIV, LIV).

وقد كان معبد أوزير الذي أقامه له الملك «بيبي» منذ قرنين ونصف قرن من هذا العهد؛ لا يزال في حالة لا بأس بها لم تنَله يد التخريب تمامًا، فلما جاء «نب حبت رع» وضع على جانبي مدخل هذا المعبد مائدتي قربان من الجرانيت الأحمر صناعتهما خشنة، وأقام بدلًا من بعض الجدران المقامة من اللبن أخرى من الحجر، وكذلك أقام محرابًا لتمثال الملك، وبنى رواقًا ذا عمد مختلفة أحجامها في الصف نفسه، هذا بالإضافة إلى حجرة زُينت بمتون تدعو آلافًا من كل المواد الغذائية لتمثال ملك الوجه القبلي والبحري «نب حبت رع»، ونقوش أخرى تعلن أن الملك «منتو حتب» هو الذي أقام هذا ليكون أثره، وقد وجد على جدران الحجرة كذلك صور الآلهة «وبوات» «وخنتي أمنتي» (أوزير) و«حور» و«خنوم» و«تحوت» و«أنحور».

ولا بد للإنسان بعد «العرابة» من أن ينحدر في النيل مسافة حتى يصل إلى «حتنوب»؛ حيث يجد آثارًا يمكن أن تُنسب إلى عهد هذا الفرعون على وجه التقريب؛ إذ ليس لدينا برهان قاطع على أنها من عهد «نب حبت رع».

وذلك لأنه لم يكن من المرغوب فيه أن يكتب أي إنسان (كما كانت الحال في كل مصر السفلى) اسم ملك من ملوك الجنوب، استمر ذلك إلى ما بعد انتقال حكومة الأسرة الثانية عشرة إلى «إثتوي» (اللشت)؛ أي في عهد «أمنمحات الأول» مؤسس الأسرة الثانية عشرة.

وقد حدث أننا نعرف فعلًا أخ حاكم المقاطعة «نحوتي نخت الثاني» في البرشه، ومن المحتمل أن حاكم المقاطعة نفسه كان لا يزال على قيد الحياة في السنة الواحدة والثلاثين من عهد «سنوسرت الأول»؛ أي حوالي عام ١٩٥٠ق.م. (Anthes, Hatnub P. 76; Baly J. E. A. (1932) P. 173).

ومنذ أربعة أجيال من هذا التاريخ إلى الوراء كان «نحري» الأول قد تولى حكم المقاطعة (مقاطعة الأرنب) فإذا قدَّرنا ربع قرن لكل جيل من الحكام، فإنا نجد ابنه «نحري» هذا كان قد تسلم حكم مقاطعته في عهد «نب حبت رع»؛ أي حوالي ٢٠٥٠ق.م، ولا نعلم من كان يعمل في هذه المحاجر قبل ذلك العهد غير أننا نعلم أن الفراعنة أنفسهم في معظم الأحوال هم الذين يأخذون منها لمبانيهم.

ولا يدهشنا ألا نجد أثرًا لمعبد قائم في هذه العاصمة العظيمة قبل الأسرة الثانية عشرة؛ فإن الفاتحين من أهل الجنوب قد خربوا كل شيء في المدينة عندما سقطت في أيديهم، وعندما أراد خلف «أمنمحات الأول» بناء معابد لآلهتهم اختاروا لها أماكن أخرى مختلفة (Petrie Ehnasya P. 3 Pl. IV).

(١٤-٥) إقامة المعبد الجنازي بالدير البحري

شرع الملك «نب حبت رع» قبل توحيد الأرضين في بناء معبده الجنازي في سفح الصخور الواقعة في «طيبة» الغربية، وقد كان في عزمه أن يتسع في عمارته ليكون أعظم معبد قام ببنائه واحد من أسرته؛ غير أنه إلى وقت فتحه للدلتا والاستيلاء عليها لم يكن أقام في بناء هذا المعبد إلا جدارًا عظيمًا أمام ردهته وشيد ستة محاريب فوق المقابر الست التي نُحتت لنسائه، ولكنه بعد فتح الدلتا أحدث تغييرات أساسية في تصميم هذا المعبد، وهذه التغييرات لم ينقطع معينها مدة الأربعين عامًا التالية من حكمه.

وقد كان أول عمل وجه نظره إليه هو أن يبني طريقًا عرضه نحو ٧٠ ذراعًا من المعبد إلى الأرض المنزرعة، يبتدئ من فتحة تركت في الجهة الشرقية الأصلية من جدار ردهة المعبد، وبعد أن تم تمهيد هذا الشارع أُحيط بجدار حجري من كلا جانبيه ليضارع الجدران التي حول الردهة العليا، ثم رُصف باللبن وغُطي بملاط من الطين (Winlock,

Deir El Bahari PP. 9, 72, 203) ويلاحظ أن الطرق المسقوفة التي كانت تستعمل في مثل هذه الأحوال في معابد الدولة القديمة في سقارة مثل طريق «وناس» المسقوف لم يتردد صداها في طيبة وطرقها الخاصة بالمعابد، وعند موقع المعبد كان الوادي الصحراوي يُسوى سطحه كما كانت الأماكن الجبلية تُقطع، وبعد دك المستويات كان يُحفر نحو اثنتي عشرة ثغرة ثغرة على خط واحد بمثابة علامة تبين محور المعبد، وكان يوضع في كل ثغرة أرغفة ثلاثية الشكل (Ibid, P. 101)، وبعد ذلك كان يذبح ثور لروح «نب حبت رع» على مسافة عشر خطوات شمالي هذا الخط، ومن المحتمل كذلك أن هذه العملية كانت تُكرر على بُعد المسافة السابقة جنوبًا، والخط الذي أسس محورًا يكوِّن زوايا قائمة مع الجدار المؤلف من الصخور المنفصلة التي يجوز أن تكون قد دُفنت في وقتها، وبعد أن عُملت هذه الأشياء لتقدِّس المكان وتباركه غابت عن ذاكرة كل إنسان بعد تركها في مكانها، ولما كان الجدار الشرقي للردهة قد دُفن على عمق بعيد، فإنه قد بُني جدار آخر على بُعد أكثر من ٤٠ مترًا غربًا عند طرفها الجنوبي غير أنه ينتهي تقريبًا عند نفس النقطة التي ينتهي عندها الجدار الأصلي في نهايته من جهة الشمال.

وبعد ذلك عمل تصميم مستوي السطح على هيئة درقة عظيمة عرضه عند القاعدة ٤٥٠ مترًا، ثم سوِّر بجدار من الأحجار الخشنة يرتكز على حُفر كانت تُعمل في الصحراء، وفي داخل هذا السور حُفر خندق لإقامة حائط من الحجر الجيري الأبيض وقاعدته من الحجر الرملي، ولقد أصبح من المستحيل علينا أن نعرف مدى امتداد هذا الحائط، ولكننا وجدنا بعض أحجاره في مكانها لا تزال علامات النشر عليها مما يدل على أن هذا الحائط قد أقيم بعضه، ويلاحظ أنها قد أزيلت كلية فيما بعد في خلال حكم هذا الفرعون.

ولا نزاع في أنه عند هذه المرحلة من عمليات البناء بدأ يظهر نهائيًّا تصميم الرصيف الذي أقيم عليه مقابر الأميرات الست، فقد وضعت ودائع قربان الأساس في الردهة السفلية في أركانها الأربعة، وقد ابتُدِئ بالركن الشمالي، وعندما كان واضعو قربان الأساس يمرُّون بالركن الشمالي الشرقي لوحظ أن واحدًا منهم وطئت قدمه عفوًا بعض اللبنات التي كانت لا تزال لينة، وقد كانت هذه النقطة تحتوي على عينات من المواد التي هُيئت لبناء المعبد، وكذلك قد لوحظ في الركن الجنوبي الغربي أن الطين الذي تخلف من صنع اللبنات قد كُوِّم في الثغرة التي فيها طعام القربان فوق الأوساخ التي كانت قد وضعت من قبل. وبعد ذلك جاء دور الحجَّارين ليقيموا كسوة من الأحجار حول الرصيف، ثم جاء غيرهم ليبنوا الردهة التي أمام الرصيف بأحجار كُتب عليها بالمداد: بيت «الكا» (Naville, Ibid

I, 19n) وبعد الفراغ من هذا أقيم حائط من اللبن حول الحائط المصنوع من الحجر وبنفس ارتفاعه، وقد غُطي بطبقة من الجير، وخلف ذلك أقيم حائط آخر أقل ارتفاعًا، وعلى كل هذه الحوائط قد أقيمت على خطوط مستقيمة في المكان الذي كان يرغب أن يقام فيه حائط محني من الحجر، وقد نُقش على كل من الباب الخلفي الذي أقيم في شمال الردهة وفي جنوبها ألقاب الفرعون الخمسة، وبطبيعة الحال كان الباب الرئيسي الذي أقيم في البوابة السميكة المقامة في الشرق قد زُيِّن بمثل هذه النقوش.

أما في داخل الردهة نفسها فإن سطحها مُهد على شكل مدرجات، وأخيرًا غرست أشجار الجميز أربع على كل جانب من جانبي الطريق في حفر ملئت بغرين النيل، وخلف شجر الجميز زُرعت أشجار الخروب، وقد كان زرعها بمناسبة الاحتفال بعيد «سد» أو العيد الثلاثيني للفرعون «نب حبت رع»، ومن المحتمل أن شجر الخروب لم يزرع في الوقت نفسه الذي زرعت فيه أشجار الجميز، ويحتمل أنها زرعت بعد دفن الفرعون (Winlock, Deir el Bahari, PP. 49; 72, Pls. 2. 5).

وكان المعبد ذاته يسمى «أخت أسوت»؛ أي المساكن الممتازة أو كان يسمى مساكن «نب حبت رع» الممتازة (Maspero, Ibid p, 482; Lange und Schafer; Grab und Denkstein, No. 20088 & Naville Ibid I, 10).

وإذا أنعم الإنسان النظر في هذا المعبد وتصميمه بعد الانتهاء من إقامته يجد أنه قد حدث فيه عدة تغييرات (Naville, Ibid I, 27 ff, & Vol. II, Pls. 1, XXI, XXIII; Bonnet, A. Z. 1925, P. 40).

ففي النهاية نلاحظ وجود مساحة غير مسقوفة تبلغ نحو ٥ أمتار عرضًا فوق الرصيف الذي على جانبه الشمالي، وبعد ذلك نجد المعبد نفسه، والظاهر أنه قد أقيم هرم أمام المحاريب التي كانت قد بنيت من قبل لنساء الفرعون في وسط غابة من الدعامات والأعمدة الثمينة الشكل كما ذكرنا، (انظر الشكل رقم ١) وقد وجدنا في ورقة «أبوت» اقتباسًا يدل على أن هرم الملك «نب حبت رع بن الشمس منتو حتب» الذي في «جسر» (المكان العالي؛ أي الجبانة) وجد سليمًا (Peet, Tomb Robberies P. 39) وبدهي أن هذا الهرم لم يكن في الحسبان إقامته اقتصادًا لولا أنه كانت توجد صخرة طبعية اتخذت نواة وشُكلت بشكل هرمي، ثم بُنيت بالحجر، ومن المحتمل أنه قد عمل تصميم حجرة في داخل هذا الهرم مثل التي نُحتت لجدِّه «واح عنخ» غير أن هذا التصميم لم ينفذ قط.

ومن المحتمل أن السور السميك الذي أقيم حول قاعة العمد العليا التي يشرف من فوق سطحها الهرم كانت في بادئ الأمر مقصورة، غير أن التصميم الأخير قد اتخذ منها

قاعدة محاطة بعمد من كل جهاتها، وفي الغرب قاعة عمد مسقوفة أخرى خلف هذه، أما المدخل الذي كان يُؤدي إلى المبنى الأخير فكان موضعه الجدار الخلفي، وقد كانت رقعة هذه الأجزاء الحديثة في المعبد من الحجر الجيري والجدران من الحجر الرملي اللهم إلا الغطاء الذي حول المذبح في الخلف، فإنه كان قد نقش نقشًا جميلًا، ومن المحتمل أن الكوَّة الصغيرة التي في نهاية المعبد كانت قد صنعت خاصة لتمثال الفرعون، ويجب أن لا ننسى هنا أن اللورد «دفرين» قد قام بحفائر بالقرب من هذا المكان. ويقال: إن من بين القطع التي في مجموعته تمثال للملك «نب حبت رع» (Naville, Ibid II, 21, Pl. x) ومن النقط الهامة التي تسترعي الأنظار أن مرور الاحتفال بقارب آمون المقدس كان يعرقله وجود الهرم في وسط قاعة العمد المسقوفة، علاوة على الطرق الضيقة التي تقع بين العمد وكذلك الأبواب الضيقة، وفضلًا عن ذلك فإنه (Winlock, A. J. S. L. 1941 P. 146) مما يلفت النظر أن المبنى كله كان غير صالح للاحتفالات، وأن تصميمه كان يفتقر إلى مكان يوضع فيه القارب المقدس. وفيما بعد؛ أي عندما وضعت الأسرة الثانية عشرة النظام لحج الإله عندما تسلم أمنمحات الأول مقاليد الحكم كان الدير البحري مسرحًا لهذا الاحتفال، وقد كان «أمنمحات» متأثرًا تأثرًا عميقًا بتصميم هذا المعبد؛ ولذلك نجد أن هرمه في اللشت قد وضع على رصيف مقصورته الأصلية، التي كانت عبارة عن مبنى صغير من اللبن في أسفل جانب الهرم الشرقي.

أما ضريح هذا الفرعون فيظهر أنه في بادئ الأمر قد شرع في نحت تصميمه تحت الجدار الشمالي للردهة، وقد وضعت فعلًا لبنات لتعلم المدخل، ولكن هذا التصميم قد أُلغي لسبب ما، وعلى بُعد عدة أمتار جنوبًا وشرقًا نحت مدخل باب الحصان وله ممر تحت الأرض، وقد كان تصميمه يؤدي إلى حجرة تحت الهرم على مسافة ١٤٠ مترًا نحو الغرب.

وقد ذكرنا من قبل أن هذه المقبرة قد استُعملت لتمثال الملك في عيد «سد» عام ٢٠٣١ق.م، ومن ثم أخذ الفرعون ينحت لنفسه قبرًا آخر مدخله في قاعة عمد معبده (Naville, Ibid, 4, 5, 18, 21, Pls. VII, XXI, XXII, XXIV; Vol III, PP. 24, 31 Pl. XIX) وهنا يجد الإنسان ممرًّا منزلقًا طوله ١٥٠ مترًا، ويلاحظ أنه مستقيم تمامًا، وينتهي بحجرة من الجرانيت ليوضع فيها التابوت، وقد وجد «نافيل» التابوت الذي لا يزال في الحجرة خاليًا وقد صنع من المرمر، ولم يجد شيئًا فيه إلا بقايا نماذج قوارب ورءوس من الخشب تشبه الرءوس التي تكون عادة على غطاء أواني الأحشاء، هذا إلى عصي مكسرة وصولجانات وأقواس مهشمة أيضًا.

محتويات المعبد

وقد كان يوجد في داخل هذا المعبد نحو من ٢٣ مدفنًا، منها ثلاثة لم يكن قد تم صنعها بعد (Ibid I, 43, 47. Pits 1, 6, 8) ومن بينها أربعة لرجال واثنا عشر لنساء، ويحتمل أن المدافن الباقية كانت لنساء أيضًا، وكان أحد هؤلاء الرجال يدعى «سي أعح» بن «رن-أقر» وقد وجد تمثاله «المجاوب» بالقرب من مدفنه في الردهة المثلثة الشكل الواقعة جنوبًا (Winlock, Deir el Bahari P. 56) وفي الردهة الشمالية المثلثة الشكل يوجد مدفنان لرجلين أحدهما في مقتبل العمر، وقد لوحظ أن قصبتي رجليه منتفختان بصورة تسترعي النظر (Winlock, J. N. E. S. P. 274) (1943) وحفرة رابعة كانت لموظف مالية يدعى «منتو حتب» ويسمى كذلك «بواي»، وتوجد حجرة دفنه تحت محراب «حتحور» في معبد «حتشبسوت» المجاور، وقد وجد معه قلادة من الخرز ولباس رأس مذهب ونعلان ومقبض مرآة، ونموذج مخزن غلال، ومصنع خبز، ومجزرة، وقاربان، وأربع من حاملات القرابين (Cairo Museum Livre d'entrée Nos. 31342–51, 54; Naville, Archeological Report 1895–96 P. 3; XI Dyn. Temple I. 14, 44; Lacau, Sarcophages Anterieur au Nouvel Empire; No. 28027).

أما النساء اللائي دُفنَّ داخل حدود المعبد فقد نُهبت مقابرهن إلا واحدة عثر عليها «دارسي» وكانت مدفونة بلا شك في أقصى الركن الشمالي من الردهة المثلثة الشكل الشمالية، وهذه المقبرة كانت لحظية الفرعون «آمونت» وقد وجد على جسمها وشم، ويحلى جيدها بالقلائد، وقد كتب على لفائفها «ملك الوجه القبلي والبحري ابن الشمس «منتو حتب» وكذلك اسم ابنته «ادح» وزوجاته «منت» Ment و«تننت» Tennet و«تم» Tem وكذلك تواريخ من السنة الثامنة والعشرين والخامسة والثلاثين والثانية والأربعين من حكمه، وقد كانت كل من «آمونت» وحظية أخرى تسمى «آس» مرسومة في نقوش معبده ومعهما أخريات من نوعهما (Daressy, "Recueil de Travaux" (1893) P. 166; A. S. 1900 P. 141 No. 1. Sphinx XVII, P. 99, Lacau, Ibid, No. 28025–26, Winlock, Deir el Bahari P. 85 & Naville, XI Dyn. Temple I, Pl. XVII b, II, 6) ويحتمل أن «تم» Tem كانت الملكة، وقد دُفنت في أكبر المقابر التي حُفرت في أقصى الركن الغربي من المعبد» حيث لا يزال في استطاعة الإنسان أن يرى تابوتها الضخم المصنوع من المرمر (Maspero Trois Annees de Fouilles, P. 134; Struggle of the Nations P. 240; N. 3; Naville, XI Dyn, I, 51; II 3, 21 Pl. VIII) ووجدنا في قبرين امرأتين قد وُشم كل

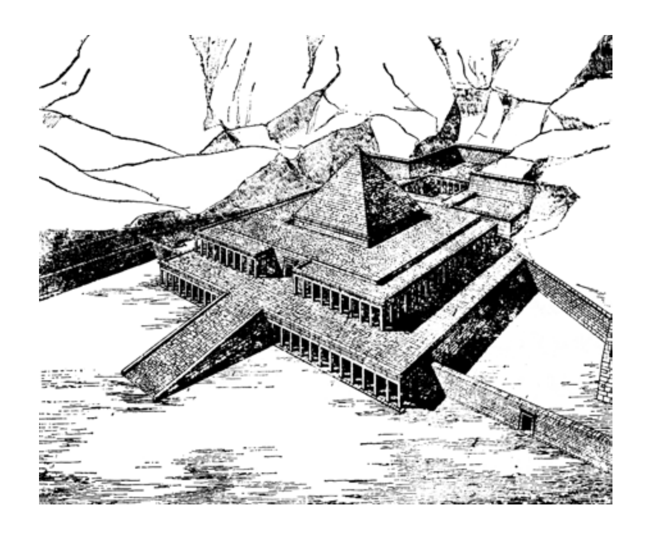
جسميهما (Pits 23 & 26 Winlock, Deir el Bahari PP. 74, 129) وقد كان مع كل منهما وكذلك مع النسوة اللائي كن معهما نموذج قارب أو قاربين، ومن المحتمل أنه كان معهما نماذج مخازن للغلال أيضًا أو مخابز (Pits, 2, 3, 4, 5, 20, 22, 23, 26, 29; Naville, XI Dyn. I. P. 43 ff; III, 24 Pl. XX).

ومن أغرب ما عثر عليه هنا قاعدة إناء من المرمر قد نقش على سطحه كله نسور وصقور مفرغة، وقد عثر «نافيل» على جزء من هذا الإناء، أما الباقي فوجده «ونلك» وقد أهدى الإناء إلى المتحف البريطاني (Ibid I, P. 46)، وأحيانًا كان يعثر على بقايا وجوه من الجبس، وكانت بعض المدافن تحتوي على توابيت من الحجر الجيري أو قطع من التوابيت المصنوعة من الخشب (Pits, 4, 5, 20, 22, 26, 29) وفي حالة أو حالتين وجدنا عيدان قش من مكنسة سحرية كانت تُكنس بها آثار أقدام من كان يوكل إليهم أمر الدفن (Pits, 21, 23, 27, & The Tombs of wah and Hesem Winlock, Deir el Bahari P. 55, Pl. 14).

مقبرة الأميرة «نفرو»: وفضلًا عن الأمير «أنتف» الذي كان مدفونًا خارج الردهة الشمالية؛ كان يوجد عضو آخر من الأسرة المالكة قد حفر قبره في الصخرة الشمالية قبل أن يقام أي جدار من الجدران المصنوعة من اللبن وهو «الأميرة» أكبر بنات الملك من جسده، زوج الملك المسماة «نفرو» التي وضعتها «أعح»، فلم تكن بنت الملك «سعنخ أب تاوى» وشقيقه «نب حبت رع» وحسب بل تزوجت هذا الأخير أيضًا (Newberry, A. Z. 1936, P. 120; Winlock, Deir el Bahari PP. 56, 87, 101 Fig. 8 Pls, 13–14) وفي شمال جدار الردهة المقامة من اللبن، وعلى مقربة من وسطها أقيمت ردهة ضيقة لمقبرة لها ممر قصير مؤدٍّ إلى مقصورة مربعة قد زينت بإتقان، ويوجد ممر خارج من الركن الشمالي لهذه المقصورة يؤدي إلى حجرة دفن كاذبة، ومن رقعة هذه الحجرة الأخيرة يتفرع ممر سفلي يؤدي إلى باب على بعد ٤٠ مترًا من السطح، وخلف الحجر الرملي الضخم الذي يسد الباب حجرة الدفن وفيها التابوت، ولم يعثر فيها إلا على نحو اثني عشر تمثالًا مجاوبين، وهم مصنوعون من الشمع أو الطين في توابيتهم ومغطون بأكفان من نسيج الكتان.

وكذلك عثر على خيط منفرد من الخرز، سقط من اللصوص وكانت الحجرة بعد ذلك خاوية تمامًا، ومن الجائز أن نجد اسم «نفرو» ثانية على لوحة مدير البيت «خنوم أردو» باسم آخر هو «نفرو كايت» محبوبة الفرعون، ووارثة الصعيد وبنت الملك وزوج

الملك المحبوبة التي ورثت عن أمها ثروة طائلة مما جعلها سيدة القوم من إلفنتين حتى «أشقاو» (أفروديتو بوليس) ومن المحتمل أن «خنوم أردو» قد مات في أوائل حكم «نب حبت رع» عندما كانت «افروديتو بوليس» لا تزال الحد الشمالي لمملكة الجنوب، أما الملكة نفسها فيجوز أنها قد عاشت بعد ذلك لتدفن أخيرًا في قبرها الواقع خارج معبد الملك مباشرة بالدير البحري كما ذكرنا (Griffith in Petrie Denderah P. 52., Pl. XV; Lange und Schafer Ibid No. 20543; Newberry. P. S. B. A. 1913, P. 121 No. 20; and A. Z. 1936 P. 119).



شكل ٦: معبد منتو حتب الثاني كما كان في الأصل (رسم نافيل).

لوحة «خنوم أردو»: ولما كانت لوحة «خنوم أردو» لها أهمية تاريخية وأدبية أردنا أن نورد ترجمتها هنا رغم ما فيها من العقد اللغوية التي امتاز بها هذا العصر:

> قربان يقدمه الملك إلى «أوزير» سيد «بوصير» وإلى «خنتي أمنتي» رب العرابة في … ومر، وألف من كل شيء طيب إلى حامل الخاتم والسمير الوحيد وثقة سيدته العظيمة، والذي أتى على الدوام ليبرِّد … والذي تعرف مواقفه، ثابت

الخاتم، جميل المحصول، ممتاز المعاملة في كل خطوة، رب الاحترام عظيم اليد، ناجح ... ناصع الثوب، شريف الجسم، قدسي المنظر، عليم بطرق التنفيذ، مهذب القلب، كتلة أشراف، فهام القلب، ومسيطر على ما في الجوف، طلق المحيا، ممن لا يسأل حتى يقول ما في صدره، والذي يدخل قلب سيدته وحبيبها وقد وهبته كأنه مجلس عظيم في النصح، وهو إنسان محبوب في فم الناس، عظيم المكانة في البيت العظيم، مدير البيت، المحترم «خنوم أردو».

يقول: لقد كنت محبوبًا من سيدتي وممدوحًا منها في شأن اليوم وكل يوم، لقد أمضيت حقبة طويلة من السنين مع سيدتي المحبوبة الملكة «نفرو كايت»، ولقد كانت عظيمة في قواها، مقدَّمة في مركزها، عظيمة الأب، كريمة الأم، عماد هذه السماء لآبائها الأمجاد، أبرز من في هذه الأرض الشمالية (؟) الوارثة بين أهل الصعيد. تأمل إنها كانت بنت ملك، وزوج ملك كان يحبها، ولقد ورثت عن أمها كل أرض مصر ريفها وصعيدها (؟)، أميرة القوم من أول إلفنتين إلى نهاية «أفروديتو بوليس» (المقاطعة العاشرة) من نساء وحكام فلاحين وأشراف من كل الأرض، ولقد أصبحت تحت سلطة بيت سيدتي ... حقارة أصلي؟ لأنها عرفت تفوق عمل يدي وكيف أني مهدت طريق الأشراف، ولذلك وضعتني في دندرة في مكتبة (؟) والدتها العظيمة المخطوطات، البارزة في معلوماتها، وعلى حجرة المشاورة العظيمة في الجنوب، ولقد عملت فيها توسيعات، وجمعت أكوامًا من الثورة لها ولم ينقصها أي شيء لعظم معلوماتي بالأشياء، وقد نظمتها، وجعلتها أحسن حالًا مما كانت عليه من قبل، وقويت ما وجدت متداعيًا، وحزمت ما وجدت مفككًا، وأتممت ما وجدت ناقصًا، ولم أهمل كل الأعياد التي وجدتها في هذه الضيعة (في هذا البيت) فأسست الضحايا اليومية، وأقيم كل عيد في وقته لأجل صحة سيدتي «نفرو كايت» أبد الآبدين، ونظمت بيتي على طراز حسن، فوسعت كل ردهة فيه، وأعطيت المئونة من يسألها، والكلأ لمن لا أعرف مثل من أعرف؛ رغبة في أن يكون اسمي حسنًا في فم من على الأرض، وكنت في الواقع شريفًا عظيمًا في قلبه، وثابتًا، حلو الرغبة، ولم أكن سكيرًا، ولم ينسَ قلبي، ولم ينقم عليَّ بسبب ما وضع في يدي.

وإن قلبي هو الذي جعل مكاني بارزًا، وكان خلقي هو الذي جعلني أستمر في المقدمة، ولقد فعلت وحقًّا فعلت كل هذه الأشياء، تأمل! لقد كنت إنسانًا في قلب سيدته، وكنت جادًّا، ومكنت ما يحيط بي، وتعلمت كل عمل تنظم به الضيعة، وأرسلت المدد لما وجدته قد تداعى قائلًا: تأمل! إنه لحسن جدًّا أن يعمل الإنسان أحسن الأشياء التي

في قلبه لسيدته وهي أفخر آثاره، ولقد أقمت لها هرمًا عظيمًا من كل الأشياء الغالية التي تعمل في وقتها، ولقد أظهرت كل حسن في هذا المكان، ولقد فقت كل أقراني، وإذا كان قد شرع في أي شيء في هذه الضيعة فإني أنا الذي فهمته، وإني على رأس القوم وشجرة شريفة صنعها الله، فقد جعلني ممتازًا بتدبيره، وعظيم الشرف بعمل يده (؟) وكانت رئيستي سيدة أرض الجنوب بمثابة أساس عظيم لهذه الأرض (؟) ليت روحها يبقى طويلًا على العرش العظيم، وليتها تعيش ملايين السنين مثل رع خالدة مخلدة.

قربان للمستحق «خنوم أردو» في عيد «واح» وعيد «تحوت» وفي ... وفي عيد سوكار (؟) وفي عيد الحرارة، وفي عيد أول السنة، وفي العيد الكبير، وفي عيد الخروج وفي كل الأعياد، دع اليد تمد له بالقربان الذي يوضع أمام «حتحور»، وليت المنعمين في «بِرور» يجعلونه مقدسًا وكهنة السلم المفخم، وليت الطرق التي نحتها تفتح له في سلام، المحترم «خنوم أردو» يقول: «لقد كنت إنسانًا أدَّى واجبه، وكنت محبوبًا من بني الإنسان فيما خص اليوم وكل يوم.»

ولنتساءل عن مضمون هذه اللوحة الفذة في ألفاظها الغامضة في معانيها هل ما يشير هنا إليه صاحب هذه اللوحة من أنه كان أمين مكتبة هذه الملكة، التي قد ورثتها عن أمها ... حق؟ إذا كان الأمر كذلك وإذا كان هذا هو المضمون الحقيقي لهذا النقش؛ فإنه قد أصبح لدينا كشف جديد عن المرأة المصرية وقيمتها الأدبية في هذا العصر الذي كان قد بدأ الكُتاب يتسابقون فيه بتنسيق الألفاظ من جهة والدعاية إلى عهد جديد قوامه العدالة الاجتماعية من جهة أخرى. وبذلك يمكننا أن نقول بحق: إن المرأة قد أسهمت في هذه النهضة، بل أكثر من ذلك، كانت من العمد التي قامت عليها النهضة؛ وذلك بتسهيل البحث للكُتاب الاجتماعيين الذين أشرنا إليهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

مقابر الأشراف: وتدل الحفائر التي عملت حديثًا على أن وادي الدير البحري كان مقسمًا بين أشراف هذا العصر بما يحتويه من مقابر عدة منحوتة في الصخر، ففي الجانب الجنوبي منه كان مدخل مقبرة الأمير والحاكم، وحامل الخاتم الملكي، وخازن المالية والمشرف على مدينة الأهرام ... «داجي» وقد كان يحمل طائفة أخرى من الألقاب التي تدرج في مدارجها، حتى وصل في النهاية إلى الوزارة. (Davies, Five Theban Tombs P. 28, Pls. XXIX–XXXVIII).

وقد ظن البعض أن هناك وزيرين بهذا الاسم وذلك خطأ. (Naville, XI Dyn, Temple I, 6. Brit, Mus. 43, 123).

وفي وادي العساسيف توجد عشرة مقابر بدون رواق أمامها غير أنها لا تقل في فخامتها وعظمتها عن مقبرة «داجي» فمقبرة حامل الخاتم ورئيس الخزانة «خيتي»[٢٠] كانت في الجهة الغربية، ومقبرة خازن المالية «مرو»[٢١] كانت في الجهة الشرقية، وبين هاتين المقبرتين كانت المقابر الأخرى؛ فثلاث منها تحمل الأسماء التالية على التوالي: مدير البيت «حنو» وخازن المالية «حور حتب»[٢٢] والوزير «إبي»[٢٣] وكان «خيتي» يعمل في وظيفته طوال حكم هذا الفرعون؛ لأن اسمه وجد على لفائف «عاشيت» وكذلك على لفائف «أمونيت» «وببي» وكان يشغل وظيفة قاضٍ ووزير، وقد وجد حجر في المعبد عليه اسمه بلقب وزير! (Naville, IX Dyn. Temple I, 7).

ومن الجائز أنه قد دُفن في قبر آخر من المقابر العظيمة التي في هذه الجهة. ونجد أسماء معاصرة في مقابر هؤلاء العظماء، وبخاصة في المدافن الصغيرة، فنجد اسم «منتو حتب» واسم «أنتف» وهو ما ننتظره في هذه الفترة تيمنًا بأسماء الملوك، وهذه عادة شائعة في كل عصر وفي كل بلاد العالم على وجه التقريب، وكذلك نجد اسم «حننو» يطلق على الرجال والنساء، ونجد النساء يتسمين باسم «حني» و«حتبي» و«إت» و«إت سنب» و«إيوِي» و«مريت» و«نِبت يونِت» و«نِبت أوتِف» و«ننوس» و«رِرِهنو» و«سِت إشتِك»، أما أسماء الرجال فكان من بينها اسم «ددو» و«حابي» و«حتب» و«حتبي» و«حسم» و«أنحور حتِب» و«إحي» و«ماجاجي» و«نب أوتف» «نب سني» و«نفرحتب الرامي» و«نِسوِ أقِر» و«ببيي» و«سي حابي» و«سبك حتب» و«سبك نخت».
(Winlock, Deir el Bahari P. P. 55, 72, 129, PIs. 14, 35; Carnavon & Carter, Five Years Explorations P. 80 Pls. LXXV–LXXVI).

على أن أهم طائفة من الأسماء هي التي وجدت مكتوبة على أكفان الجنود الذين وجدوا مدفونين معًا حوالي سنة ٢٠٦٠ق.م (Winlock, Deir el Bahari P. 123 Pl. 21).

فمثلًا نجد هناك الاسم «أموني» والاسم «سنوسرت» قبل عدة أجيال من ظهور الأسرة الثانية عشرة حينما سادت التسمية بهما، وكذلك نجد أن الأسماء المركبة تركيبًا

[٢٠] Winlock, Deir el Bahari Index, Fig. 7 Pls. 15, 16, 36.

[٢١] Ibid PP. 118, 123, Pl. 15; Lepsius, Ibid Vol. II Pl. 148.

[٢٢] Tomb No. 314, Winlock, Deir el Bahari PP. 55, 57, 123, Lacau Ibid No. 28023.

[٢٣] Winlock, Deir el Bahari PP. 55, 98, 123, 227, Fig. 6.

مزجيًّا باسم الإله سبك قد عُرفت منذ قرنين قبل أن يدخل اسم هذا الإله في تسمية الملوك — «سبك نخت»، «سبك حتب» و«سبك رع» — هذا؛ ونجد الأسماء «أنتف» و«إنتف إقر» و«منتو» و«شماي» و«سي أب» على أكفان أولئك الجنود، وأخيرًا نجد على أحجار من المعبد أسماء خازني المال «نخت» و«مسي» و«قريري» و«أببت» و«خيتي» آخر (Naville, XI. Dyn Temple I, 6).

وقد نُحت قبر «داجي» في النهاية الشمالية من تل «الشيخ عبد القرنة»، (راجع شكل ١) حيث نجد الصخرة قد مُزقت بسبب عيب فيها، لدرجة أنه قد اضطر إلى تسقيف جزء من الردهة بالخشب، كما أن المزار قد غطيت جدرانه بالمباني، ويظهر أن حجرة الدفن كانت قد تمت، وتابوته الذي كان قد نُحت قبل أن يصير «داجي» هذا وزيرًا وضع في حجرة لا تتفق مع مظهر القبر الخارجي.

وصف مقبرة «خيتي»: وقد كانت مقبرة «خيتي» التي تقع في عرض الوادي مشهورة لذاتها، وكذلك لصاحبها وبقيت مشهورة حتى عهد «رعمسيس الثاني».
(Winlock, Deir el Bahari P. 68 Fig. 7. Pls. 15, 16; Steindorff & Wolff, Ibid 26; Brunner, Die Anlagen der Agyptischen Felsgraber PP. 70, 87).

وكان على الإنسان ليصل إلى هذه المقبرة أن يتسلق منزلقًا مائلًا يكتنفه جدار من كلا الجانبين، وعلى هذه المقبرة صفان من المخاريط المصنوعة من الفخار لتمثل نهاية قطع خشب السقف (Winlock, Deir el Bahari P. 127 Pl. 12) وفي وسط المدرج المصنوع من اللبن المؤدي للمزار وضعت مائدة قربان من الجرانيت حتى يستطيع المارُّ أن يصب للمُتوفى شرابًا، أو يترك له رغيفًا من الخبز، ولو كان باب المزار مغلقًا، وإذا فتح استطاع الإنسان أن يسير في ممر ضيق أحكم نقشه مؤدٍّ إلى مزارٍ مزينٍ بالألوان، ولقد كان من النادر أن يزين الجزء الخاص بعامة الزوار، وإذا اتفق أن رجلًا مثل المشرف على الحرم المسمى «زار» الذي كان يتمسك بأهداب القديم زين قبره بالألوان أحدث ذلك ضجة وتأثيرًا رديئًا في الرأي العام (Ibid P. 204, Fig. 11 Pl. 17) وكان يضع آخرون لوحات كبيرة من الحجر الجيري في جدران الممرات، فإذا كان صاحبها من أهل اليسار مثل «حننو» وضع أربعًا منها.

وتدل الظواهر على أنه كان لا يوجد بعد مزار القبر شيء، غير أن اللصوص الذين نهبوا قبر خيتي كسروا الجدار الخلفي ومروا في حجرتين وهميتين للدفن، وأخيرًا نزلوا من الحجرة الثانية في ممر ملتوٍّ على نفسه ثانية؛ حيث كانت حجرة الدفن، وقد كانت هذه الحجرة مكسوَّة بالأحجار ومزينة بدقة، وكان التابوت مختبئًا فيها تحت رقعتها.

مقبرة «حور حتب»: أما في مقبرة «حور حتب» فإن الحجارين الذين كانوا ينحتونها قد صادفتهم صخرة معيبة فتلافوها وقطعوا ممرًّا جديدًا تحت المزار، وفي نهايته نحتوا حجرة زُينت بالنقوش (Lacau, Ibid No. 28023) وقد دفن «مرو» في حجرة مزينة على مستوى الممر، ولكن معظم المقابر كانت طرق الدفن فيها أبسط بكثير من ذلك، تشبه طريقة دفن الوزير «إبي»، ولا يوجد في بعض القبور إلا خبيئة واحدة أو بعبارة أخرى حجرة دفن واحدة، على حين أن مقابر أخرى تحتوي على نحو عشرين، ويظهر أنها كانت أضرحة عدة أجيال لأشخاص من الطبقة الوسطى. وكانت توجد مقابر أخرى مثل مقابر الجنود أو الخدم الممتازين من خدَّام البلاط، وهي سراديب تحت الأرض كان يحتوي كل منها على نحو عشر حجرات للدفن، وكلها من العصر نفسه.

(١٤-٦) التماثيل الخشبية

وكانت التماثيل المصنوعة من الخشب توجد في هذا العصر في كل مكان، غير أنها ليست ذات قاعدة من الحجر، كما لوحظ ذلك في قبر «خيتي»، وقد عثر على آثار خمسة تماثيل في هذا القبر كذلك، غير أن بعضها كان صغيرًا جدًّا؛ يصح أن يطلق عليه لفظة تصغير تمثال (تُميثيل) (Winlock, Deir el Bahari P. 130 Pl. 36) وفي ثلاث حالات كان يخصص قبر قائم بذاته لمثل هذه الدمي، وموضعه فوق المدخل المؤدِّي إلى حجرة الدفن الرئيسية؛ ونجد في مقبرة «نفر حتب» الرامي تمثالين جالسين (Ibid, P. 71, Pl. 35) وقد بقي لنا تماثيل ثلاثة من الحجر الجيري اثنان منها لمدير البيت «مري» ويلاحظ أن أحدهما قد وضع ذراعيه متقاطعتين على صدره، أما الثاني فقد وضع يديه على ركبتيه، وهناك تمثال ثالث لشخص يدعى «أقر» نُحت في وضع مثل الأول، وكلها مستخرجة من جانب الجبل الواقع شمالي العساسيف (راجع: British Museum, Third and Fourth Egyptian Rooms (1904) P. 92, Hall & King, Egypt and Western Asia P. 320; Carnavon & Carter Ibid P. 23 Pl. XVIII).

ومن الآثار التي تُنسب إلى عهد هذا الفرعون كذلك قاعدة تمثال لشخص يدعى «منتونخت» حسبما جاء في النقوش التي سُجلت فيها، وكذلك عثر على عدد من اللوحات في هذه الجهة كشفت عنها بعثة طليانية (Schiaparelli, Museo Archeologie di Firenze, No. 1710, 1767, 1770, 1773, 1774).

(١٥) التحنيط في هذا العصر

وقد كشفت لنا محتويات بعض مقابر هذا العصر عن ناحية هامة في عادات الدفن والمراسيم الجنازية، بقيت بعدها مستعملة طوال العهد الفرعوني، وذلك أن أهم ما كان يصبو إليه المصري حتى العهد الذي نحن بصدده هو أن يحافظ على جسمه في القبر ليحيا حياة ثانية في عالم الآخرة، فكان يعمل مدة حياته ما يضمن له ذلك في آخرته، وبخاصة أنه كان يأخذ العدة لتحنيط الجسم، فكانت حرفة التحنيط رغم اعتبار محترفها نجسًا من أهم الحرف؛ لأن ما يقوم به صاحبها من العمل كان وسيلة تؤدي إلى الحياة الأبدية؛ إذ كان يخاف المصري انحلال جسمه فتُترك روحه المادية لا مأوى لها. وقد دلت الحفائر التي عملت في الدير البحري من عهد الأسرة الحادية عشرة على تأييد ذلك، فقد عُثر على حجرة تحنيط الوزير «إبي» مختومة لم تُمس بعد وتقع بالقرب من قبره، وقد بقي لنا منها بعض أشياء تعد فريدة في بابها.

فلقد جهز هذا الوزير هذه الحجرة بكل سخاء من منسوجات، وعقاقير، وزيوت عطرية، ونشارة وأوانٍ من الفخار عديدة تفوق ما يحتاج إليه عادة لتحنيط الجسم، وقد استحضر كل ذلك في هذه الحجرة استعدادًا لليوم الذي سيحنَّط فيه، يضاف إلى ذلك أنه وجدت كذلك مغسلة من الخشب طولها سبع أقدام وعرضها أربع أقدام، وهي في شكلها تشبه المشرحة الحديثة، وقد حُليت أركانها الأربعة بتعاويذ أربع تمثل كل منها علامة الحياة. وكذلك وجدت ضمن محتويات الحجرة آلة سحرية لم نصل إلى معرفة كنهها بعد، ويعتقد أنها ذات مفعول سحري عظيم، وقد كانت العادة أن تُقرأ بعض التعاويذ السحرية المخصصة لهذا المقام، ويدلَّك الجسم بالزيوت ويُمسح بالأملاح التي وجدنا آثارها لا تزال على المشرحة، وبعد تحنيط الجثة (جثة «إبي»)[٢٤] وتكفينها يجمع كل ما لامسها اعتقادًا منهم بأن استيلاء العدو على شيء من ذلك وإن كان شعرة من رأس يعتبر سلاحًا سحريًّا يُؤذي المُتوفَّى، من أجل ذلك كانت كل الخِرق القذرة والفخار المهشم وما تبقي من الأملاح والخشب وعلامة الحياة والآلة السحرية تجمع كلها وتوضع في نحو ٦٧ جرة كبيرة، ثم تختم وتوضع في حجرة تحنيط الوزير. وتدل ظواهر الأمور على أنه كان لزامًا على القائمين بهذه العملية أن يحضروا هذه المواد على أربع دفعات من الحاضرة إلى

[٢٤] Winlock, Ibid PP. 72, 124, Pl. 20.

المقبرة؛ إذ وجد ثمانية عشر حبلًا لحمل هذه الجرار، وذلك يقتضي قطع المسافة على أربع مرات، وقد وجد مثل هذه الحجرة في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ووجدت فيها كل هذه الأنواع التي ذكرناها، وزيد عليها أن كل آنية قد كُتب عليها بالمداد الأسود محتوياتها.

وكان يعتقد أن ما يعسر على المحنط القيام به وتعجز عنه مقدرته ومهارته يستطيع الكهنة أن يدركوا تحقيقه بما لديهم من التعاويذ السحرية، فمثلًا كان يمكن الساحر في هذا العصر أن يصنع مومية سحرية من الشمع ويقرأ عليها تعاويذ خاصة فتنقلب إلى الصورة الحقيقية التي تمثلها؛ وبذلك يمكن أن تحل محل الجسم إذا كان قد هُشم رغم الاحتياطات التي اتخذت لحفظه. وقد عثر فعلًا على مومية من الشمع موضوعة في صندوق صغير من الخشب لرجل يدعى «سيوه» عاش في خلال الأسرة الحادية عشرة، وقد عثر على هذا التابوت الصغير في ردهة معبد الملك «منتو حتب». ويجدر بنا أن نلفت النظر هنا إلى أن هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من الشمع هي السابقة لتماثيل المجاوبين التي انتشرت فيما بعد مع فارق؛ هو أن الأولى كانت تصنع لتمثل المُتوفَّى نفسه، أما الثانية فكانت لتمثل خُدَّامه الذين كانوا يقومون بالعمل المفروض على الشريف للإله «أوزير» في عالم الآخرة، ولذلك سمي كل منها «مجاوبًا»؛ لأنه يحل محل سيده في القيام بما فُرض عليه من الأعمال التي تحتاج إلى عناء ومتاعب جثمانية، فكأن الشريف كان ينطبق عليه قول الشاعر:

علوٌّ في الحياة وفي الممات　　　لحق تلك إحدى المعجزات

(١٦) ما يوضع مع المُتوفَّى

أما القربان التي كانت توضع في المقابر فكانت تحتوي على رءوس وأفخاذ وضلوع من لحم البقر، وكذلك كانت توضع في المقبرة نماذج للنساء حاملات القربان، آتيات بالمؤن في سلات، كما كان يوضع أيضًا مجازر ومخابز؛ حيث كان يجهز القربان، كما كانت تعد نماذج قوارب ليقوم المُتوفَّى بسياحاته حتى لا يُحبس الروح في القبر طويلًا.

وكان طيبيو هذا العصر قومًا مارسوا الحروب نحو قرن من الزمان، ولذلك وجد في معظم مدافنهم القوس والسهم الطويلان، وقد وجدنا أحيانًا نحو اثني عشر قوسًا وأكثر

من مائة وأربعة وأربعين سهمًا، وإن كان المصري يعتقد أن وجود ستة أسهم معه في قبره كافية لحاجته، ولم نعثر إلا على كنانتين، وكانت الكنانة مصنوعة على هيئة أسطوانة من الخشب الخفيف المغطى بالجلد، وكذلك عثر على سيور القوس، وهي مصنوعة من الأمعاء المفتولة، وكانت توجد عادة ملفوفة مهيئة للاستعمال، وقد عثرنا على سهم واحد له زر مصنوع من الكتان، يحتمل أنه كان مصنوعًا لصيد الطيور الصغيرة بخاصة، وكذلك عثر مع القوس والسهم على درقة من الجلد، وقد وجد أحيانًا ثمانو درقات كما هي الحال في مقبرة «خيتي»، هذا إلى قضب وعصي رماية وقبضة بُرْت (بلطة) نادرة.

وأحيانًا كان يعثر على دمية من الخشب مسطحة مثل المجداف وعليها نقط مستديرة من الطين على خيطان لتمثل الشعر (Ibid, P. 207 PI. 38) وكانت تدفن هذه الدمية أحيانًا مع الطفل، وفي هذه الحالة كانت توجد بكل أسف متآكلة بدرجة عظيمة مما يدل على أن الطفل كان قد استعملها كثيرًا في حياته. وعندما نجد عشر دميات أو عرائس جديدة لم يصبها إلا تلف يسير نرجح أنها كانت تعتبر حظيات، ونجزم بصحة هذه الحقيقة عندما نجد دمية واحدة فقط أو اثنتين مصنوعتين من الطين المحروق أو المطلي بالأزرق، وقد كانت تدفن مع رجل كامل الرجولة كما هي الحال مع «نفر حتب» الرامي الذي عثرنا على مثل هذه الدمى مدفونة معه في القبر (Ibid, P. 72, Pl. 35).

هذا؛ وقد عثر على نماذج آلات وإزميل حقيقي تركه حجَّار خطأً، وكذلك عثر على أداة «خرج» مصنوعة من الحبال ذات ناحيتين توضع على جانبي الحمار (Ibid, P. 123, Pl. 21).

ومن الأدوات الخاصة بالرجال التي عثر عليها في هذه المقابر المحبرة والورق، وكذلك جعارين نادرة وأشكال أخرى للأختام.

أما أدوات النساء فقد عثرنا منها على صاجات على هيئة العصا السحرية نُحتت من أسنان فرس البحر.

وكذلك عثر على حيوانات خرافية لتطرد الشياطين الذين جبلوا على مهاجمة الأطفال (Ibid, PP. 14, 207, Pls. 37. 39).

وقد كان كل من الرجال والنساء والأطفال أحيانًا في حاجة إلى النعال المصنوعة من الجلد الغفل أو نماذج نعال مصنوعة من الخشب، ومن الأشياء التي وجدت خلال هذا العصر في مقابر الجنسين المرايا التي كانت في العادة بدون مقبض، ونماذج جعب المرايا وصناديق للزينة والعطور وأواني الكحل وسلات صغيرة؛ ليوضع فيها كل ما كان المُتوفَّى

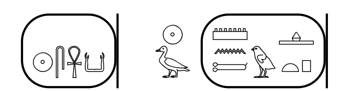
في حاجة إليه، وكذلك وسادات الرأس أو سرير عليه وسادته، وأدوات الكاتب، وقد رسم عليها صور خشنة للحفار.

.(Ibid, P. 129, Pl. 37; Carnavon & Carter. Ibid, P. 89 Pls. LXXV–LXXVI)

هذا إلى أخشاب عطرية كانت تطحن لتكون عطورًا، ومناشف كتان، ورقع لعب.

.(Winlock, Deir el Bahri PP. 129, 206, Pls, 36, 37)

الملك سعنخ كارع «منتو حتب الثالث» (٢٠١٩–٢٠٠٧ق.م)



لقد عاش الأمير «أنتف» بكر أولاد «نب حبت رع» حتى جاوز سن الكهولة، ثم وافاه القدر المحتوم قبل والده، ولذلك آل الملك لأخ له يدعى «منتو حتب»، وقد اشترك «منتو حتب» هذا في الحروب والغزوات التي شنها والده على ملوك «هيراكليو بوليس»؛ إذ نشاهده في منظر من مناظر معبد الدير البحري مرسومًا خلف والده مباشرة، بوصفه ابن الملك «منتو حتب» في ملابسه الحربية ويحمل برتًا (بلطة) وقوسًا (Naville, XI Dyn. Temple 1, 7 Pl. XII b.).

وعلى أثر وفاة والده تقلد الألقاب الفرعونية المعتادة وأسلوب الملك؛ مسميًا نفسه «حور-سعنخ تاوى-إف» (الذي يجعل أرضيه تحييان وصاحب الإلهتين «سعنخ تاوى إف») وحور الذهبي «حتب» (السلام) ملك الوجه القبلي والبحري، سعنخ كارع (الذي يجعل روح رع تعيش) ابن الشمس (منتو حتب) (Bisson de La Roque, Ibid, P. 6, Petrie Qurneh. P. 5 Pl. VII).

وفي القرون التالية كان اسمه ذائع الصيت، فنجده في نقوش الكرنك يُسمى «الإله الطيب رب الأرضين، وسيد القربان سعنخ كارع» المبرأ — وقد ذُكرت هذه التسمية بعد ذكر اسم «نب-حبت-رع» مباشرة. (Prisse, Ibid Pl. I; Sethe Urkunden IV P. 609).

وقد ظهر اسمه كذلك على لوحة «تِنرِي» التي عثر عليها في مقبرته بسقارة. (Porter & Moss, Ibid III, 192).

وفي ورقة «تورين» نص عنه أنه حكم اثنتي عشرة سنة، وقد كانت أعوام سلام وهدوء. (Farina, Ibid, P. 35 Pl. V; Winlock, J. E. A. 1940. P. 119).

إذ كان قد انقضى على السنين الأولى الطافحة بالعصيان والثورات من حكم «نب حبت رع» جيل، وخلفها عهد سكينة واستقرار استمتع به «سعنخ كارع» حينما تولى العرش، وكان وقتئذ يناهز الخمسين من عمره، وقد كان يذعن لأخيه الأكبر «أنتف» الشطر الأعظم من حياته هذه قبل توليته الملك.

(١) أعماله

وقد كان هَم الفرعون الجديد في تنمية فنون السلم الذي يشد الرخاء عضده، فأقام معبدًا في «إلفنتين» قد بقي لنا منه قطعة حجر جيري نقش عليه منظر يرى فيه مادًّا صولجانه؛ ليقدم قربانًا لبعض الآلهة، ومقياس رسم هذا المنظر صغير، غير أنه لم يبقَ لنا من عهد والده «نب حبت رع» ما يضارع الفن الذي في هذه القطعة من حيث الإتقان والدقة إلا النزر اليسير (Cledat, Rec. de Trav. 1909, P. 64).

وإذا ما تركنا «إلفنتين» منحدرين في النهر حتى «أرمنت» الواقعة قبل مدينة الجبلين مباشرة نجد أنه قد أقام بعض المباني هناك؛ إذ عثر على قطعة في هذا المكان من المرمر نقش عليها اسمه الحوري ولقبه (Brugsch, Thesaurus P. 1455 No. 85).

(٢) آثاره

وكذلك وجدت هناك قطعة من الحجر الجيري عليها نقش جميل، يمثل الملك يرقص أمام الإلهة «وازيت» التي تعلن:

لقد أعطيت كل الصحة، ولقد جعلتك تظهر على عرش حور.

(Williams, New Yourk Historical Society Quarterly Bulletin April 1918 P. 17).

وفي «طود» التي تقع قبالة أرمنت كان الفرعون قد بنى جزءًا كبيرًا من معبدها مما جعله يظهر في منظر بهيج، ويلاحظ أن الصور في هذا النقش كانت صغيرة كتلك القطعة التي عثر عليها في إلفنتين، غير أن فيها حلاوة ورقة وتفاصيل غنية في دقتها

مما يجعلها تضارع أحسن ما عثر عليه في عهد الأسرة الثانية عشرة، ولدينا من حجرة واحدة أجزاء من ستة أحجار قد رسم عليها الإله «منتو» وزوجه «تننت». ونشاهد على الجدار الخلفي من الحجرة أن الملك قد رُسم مواجهًا لكل من «منتو» و«تننت» اللذين ظهرا في الرسم ظهرًا لظهر، وكذلك شوهد في هذه القطع رسم قارب مقدَّس وفي مقدمته رسم رأس كبش، وقد حمل هذا القارب أمام الإله «منتو» وقد وجد من بين القطع التي أعيد استعمالها في بناء هذا المعبد بعد نصف قرن من عهد هذا الفرعون سقف حجرة عليه جزء من ألقاب «سعنخ كارع»، وقطعة حجر نُقش عليها اسم أمير وراثي يدعى «أنتف» (Bisson de la Roque, Ibid, PP. 62, 79, Fig. 32–57 Pl. XXI, 2–XVIII).

أما في الكرنك فقد عثر «لجران» على جزء من تمثال صغير من المرمر لملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري «سعنخ كارع» العائش مخلدًا، وقد كتب اسمه على عروة حزامه.

ويلاحظ أن هذا التمثال نُحت راكعًا مقدِّمًا إناءين للإله [ولا نزاع في أن الإله المقدَّم له هذا القربان هو الإله «منتو»، ويحتمل أن هذا التمثال كان في معبده أصلًا، وإن كان قد كشف عنه بين هذا المعبد والمحراب الذي في معبد آمون].

ونجد هذا الفرعون قد أقام لنفسه في «طيبة الغربية» على قمة عالية هيكلًا غريبًا رمزيًّا محاطًا بجدار عالٍ من اللبن (Petrie, Qurneh P. 4 Pls. IV–VIII.) وقد عثر على أجزاء من تابوت نموذجي في هذا الهيكل نقش عليه «حور سعنخ تاوى–أف» وسيد الإلهتين [سعنخ تاوى–أف]، حور الذهبي حتب، ملك الوجه القبلي والوجه البحري [سعنخ كارع ابن الشمس] منتو حتب العائش مخلدًا، لقد عمل هذا … للذكرى، وقد نقش عليه صلاته الموجهة إلى الإلهة «حتحور» والإله «حور».

أما في العرابة المدفونة فنجد أن الأهلين هناك قد أقاموا بدلًا من معبد الدولة القديمة المشيد من اللبن، وهو الذي أصلحه «نب حبت رع»، بناء جديدًا من الحجر الجيري تبلغ مساحته خمسة عشر مترًا مربعًا، وعلى أية حال فإنه كان لا يزال مطبوعًا بالطابع الريفي، وإن كان قد زيد في مساحته عن ذي قبل، على أن أجله كان كأجل معبد «طود» لم يمكث أكثر من نصف قرن، وقد بقي طوال هذه المدة بمثابة بيت روح «سعنخ كارع» (Petrie, Abydos 11, 12, 15, 33, 43, Pls. XXIII, XXV. LV).

(٣) بعوثه إلى بلاد بنت ووادي الحمامات

ومن أهم أعمال هذا الفرعون العظيمة استغلاله محاجر وادي الحمامات، وتمهيد الطريق من «قفط» إلى البحر الأحمر لتسهيل طرق التجارة بين مصر وبلاد «بنت»، وقد كانت محاجر وادي الحمامات معروفة للمصريين منذ الدولة القديمة، غير أنها لم تستَغل بطرق منظمة إلا في عهد الأسرة الحادية عشرة. ولقد كان لزامًا على الفراعنة أن يخضِعوا بدو الصحراء الشرقية أولًا حتى يتيسر لهم الوصول إلى مآربهم، ولذلك أخذت البعوث التي ترسَل إلى وادي الحمامات صبغة حربية، كما سنشير إلى ذلك بعد، فأرسل في السنة الثامنة من حكمه القائد «حنو» حامل خاتمه في بعثة إلى بلاد «بنت»، فسار بجيش يبلغ عدده نحو ٣٠٠٠ مقاتل، واتخذ طريقًا حفر فيه عدة آبار حتى وصل إلى البحر الأحمر، وكذلك جهز سفينة هناك قامت بالرحلة إلى بلاد «بنت» وعادت محملة بالطرف والتحف التي أحضرتها من هذه الأقطار، وفي عودته إلى البلاد المصرية مر «بوادي الحمامات» واستخرج منه الأحجار النادرة وحملت إلى مصر، وقد ترك على صخور هذه المحاجر نقوشًا طويلة عن تفاصيل هذه الحملة نوردها هنا بنصها:

> السنة الثامنة، الشهر الأول من الفصل الثالث (أي الشهر التاسع) اليوم الثالث يقول «حنو» خادمه المحظوظ حقًّا، الذي يفعل كل ما يمدحه كل يوم، وحامل الخاتم الملكي، والسمير الوحيد والمشرف على ما وجد وما لم يوجد بعد، مدير المعابد، ومدير المخازن، والبيت الأبيض (المالية) ومدير كل ما له قرن وحافر، ورئيس محاكم العدل الست، وصاحب الصوت العالي عند إعلان اسم الملك في يوم ردع … والذي يسر قلب سيده بوصفه حارس باب الجنوب، والمشرف على إدارة مقاطعات الجنوب رئيس المالية … والذي يقهر «الهبنو» (سكان جزر البحر الأبيض) والذي تأتي إليه الأرضان خاشعتين، والذي تقدِّم إليه كل إدارة تقريرها، ولابس الخاتم الملكي، والسمير الوحيد، ومدير البيت: لقد أرسلني سيدي له الحياة والسعادة والصحة لأبعث بسفينة إلى بلاد بنت لتحضر له عطورًا «مرا» جديدة من المشايخ المسيطرين على الأرض الحمراء؛ وذلك لأن خوفه كان في الأراضي الجبلية، ولقد خرجت من قفط على الطريق الذي أمر بها جلالته، وقد كان بصحبتي جيش من الجنوب … مقاطعة الغزال وتبتدئ من هنا حتى «الجبلين» ونهايتها «شايت» وقد انضم إليَّ كل وظيفة في بيت

الفرعون، وكذلك أولئك الذين كانوا في المدينة والحقل، وقد كان الجيش يمهد أمامنا الطريق قاهرًا أولئك الذين كانوا غير موالين للملك، وقد قام الصيادون وأبناء الجبال حراسًا لهم، وقد وضع كل طائفة مستخدمين لجلالته تحت سلطتي، وقد بلغوني عن السعاة وصفي أنا الوحيد الذي يقود (الحملة) ويصغي إليه.

ثم سرت بجيش قوامه ٣٠٠٠ رجل، ولقد جعلت من الطريق نهرًا، ومن الأرض الحمراء (الصحراء) حقلًا؛ وذلك لأني أعطيت قربة ماء وقضيبًا لحمل الأمتعة وإناءي ماء و٢٠ رغيفًا لكل فرد في كل يوم، وكانت الحمير محملة بالأثقال.

ولقد حفرت اثنتي عشرة بئرًا في العشب وبئرين في «إداهت» إحداهما عشرون ذراعًا مربعًا والأخرى واحد وثلاثون ذراعًا مربعًا، وحفرت ثالثة في «باهبت» ذرعها ٢٠ × ٢٠ في كل جانب من جوانبها، وبعد ذلك وصلت إلى البحر الأحمر وبنيت هذه السفينة، وأرسلتها بكل شيء وأقمت من أجلها قربانًا عظيمًا من الماشية والثيران والغزلان.

وبعد أن عدت من البحر الأحمر نفذت أمر جلالته، وأحضرت إليه كل الهدايا التي وجدتها في إقليم أرض «الإله» وعدت عن طريق وادي الحمامات، وأحضرت له قطع أحجار فخمة للتماثيل الخاصة بالمعبد، ولم يحضر مثلها قط لبلاط الملك، ولم يعمل مثل هذا على يد ثقة للفرعون أرسل منذ عهد الإله، ولقد فعلت ذلك لجلالته؛ لأنه كان يحبني حبًّا جمًّا …

على أن ما يلفت النظر في هذه البعثة هو تموين ٣٠٠٠ رجل، حقًّا إن العشرين رغيفًا هي في الواقع رغفان صغيرة مستديرة، ولكنها كانت تكلِّف المشرف على أمور البعثة أن يورد ٦٠٠٠٠ رغيف كل يوم، وسنرى فيما بعد أن «أمنمحات» كان جيشه مؤلفًا من عشرة آلاف رجل، فإذا كان تموينهم على هذا النمط كان لا بد لجنوده من ٢٠٠٠٠٠ رغيف يوميًّا لتغذية هذا الجيش، ولا شك أن في هذا درسًا عمليًّا مفيدًا للأمم التي تُعنى بتجهيز البعوث إلى البلاد الأجنبية، وإنه لمن المفيد لهم أن يأخذوا ورقة من الكتاب المصري الخاص بتنظيم البعوث لتكون منارًا لهم يهتدون به في مجاهل الصحراء في العناية برجالهم؛ إذ الواقع أننا في الوقت الحاضر نفضل أن نسرف في الرجال ونتهاون في أرواحهم، أما المصري القديم فكان بعيد النظر يحافظ على حياة رجاله بالعمل على

راحتهم في المسالك الخطرة، وإمدادهم بكل ما يكفل راحتهم وسعادتهم كما تنطق النقوش بذلك (Couyat et Montet, Ibid No. 114, Pl. XXXI; Breasted, A. R. Vol. I par. 437–33).

(٤) حالة البلاد الزراعية والاجتماعية

والظاهر أن مدينة «منف» التي يحتمل أنها كانت تسمى «دد أسوت» باسم هرم الملك ثني (Winlock, Deir el Bahari PP. 58, 61, 65) قد بقيت المركز الإداري للبلاد، وقد استولى الطيبيون على ممتلكات هناك وبخاصة عِلية القوم منهم، وقد كشف لنا الغطاء عن هذه الحقيقة مجموعة أوراق عثر عليها في مقابر «طيبة» من هذا العصر، وهذه الأوراق لها أهمية خاصة فضلًا عن ذلك؛ لأنها تضع أمامنا صفحة مجيدة عن الحياة الأسرية والحياة الزراعية والاجتماعية في ذلك العصر الغامض، وفيها تلميح عن نواحي الحياة الدينية؛ ولذلك وجدنا أن نثبت بعض محتوياتها هنا ليرى المصري الحديث التشابه العظيم بين حياته الحالية وحياة أجداده منذ أربعة آلاف سنة مضت.

كان المصري رغم تشككه الديني في هذا العصر وتحوطه للمحافظة على قبره، لا يزال يبذل عن سخاء محافظة على بقاء روحه المادية «كا» فيجهز القبر بكل ما يحتاج إليه، فإذا كان المُتوفَّى من أصحاب اليسار ومن المقربين إلى الفرعون وقف الضياع على روحه وأقام القربان لروح المُتوفَّى في المواسم والأعياد من ريع هذه الضياع، وقد كان لزامًا على الكاهن أحيانًا أن يسكن في مزار مقبرة المُتوفَّى مدة من الزمن ليل نهار (وهذه عادة شائعة في مصر الآن) ولذلك كان يضطر أن ينقل معه بعض أوراقه الخاصة ليقوم بدرسها وقت فراغه في المزار، وقد أسعد الحظ الأستاذ «ونلك» فعثر على بعض هذه الأوراق بعد أن مضى عليها أربعة آلاف عام، وكانت تعد من المهملات، وقد وجدنا فيها أن كاهن الروح الطيبي الأصل كان يفكر في أشياء أخرى خارجة عن نطاق الأمور الدينية التي تُصورها لنا دائمًا بعض مناظر القبور، وأول مهملات من هذا النوع عثر عليها كان في شق طبيعي في مغارة صغيرة بالقرب من مقبرة «حور حتب» بمقابر الدير البحري؛ إذ عثر على بعض من الفخار كتب عليها كاهن الروح مذكرات بقطعة من الفحم، وكذلك عثر على قطع بردي وكتب عليها أناشيد دينية، وعلى ظهرها كتب حساب قمح أُعطي اثني عشر رجلًا مختلفين، ومن بينها كذلك ورقة أخرى كتب عليها حساب قمح وشعير

وبلح صرف جراية للجيش، ومن المحتمل أن هذه كانت ضرائب يجبيها كاهن روح «حور حتب» بصفته المسيطر على أوقاف القبر.

وفي مقبرة «مكترع»، التي سنتكلم عنها فيما بعد، عثر على حزمة من ورق البردي المهشم في حجر في الطريق المؤدي إلى باب مزار المقبرة، وعند فض هذه الأوراق وجدت أنها تحتوي على نتف من قوائم وبيانات عن أرض قد أعطاها الملك (له الحياة والصحة والعافية) خادم الروح، وهذه بلا شك كانت الأوقاف التي منحها الفرعون للمقرب «مكترع»، وقد وجد مع هذه الأوراق خطاب كُتب على طريقتنا المصرية الحالية التي نشاهدها عند عامة الشعب في مكاتباتهم؛ إذ نجد أن ثلث الخطاب قد خُصص للموضوع الأصلي، وثلثيه الآخرين للتسليمات والتحيات بألفاظ منمقة، ولهذا الخطاب أهمية أثرية عظمى؛ إذ إن صاحبه كان يبتهل فيه لآلهة «منف» و«هراكليو بوليس» (إهناسية المدينة) مما يدل على أنه كتب في الجهة الشمالية من القطر.

رسائل «حقا نخت»

وأهم من كل ما سبق الرسائل التي عُثر عليها لكاهن الوزير «إبي» المسمى «حقا نخت» وكان الوزير قد وقف على قبره ضيعة في بلدة «دديسوت» بالقرب من «منف» (يحتمل أنها منف نفسها)، وضيعة أخرى في الجنوب بالقرب من مدينة «طيبة»، ويظن الأستاذ «ونلك» أن «منتو حتب الثاني» قد استولى على هذه الأراضي الشمالية بعد انتصاراته على مملكة «إهناسية» وقسمها بين أتباعه الذين أظهروا له إخلاصهم التام، وإن تقسيم هذه الأملاك الموقوفة كان يلزم كاهن الروح «حقا نخت»[١] أن يقوم برحلات متعددة طويلة الأمد في الدلتا، وفي أثناء انتقالاته هذه كان ينوب عنه ابنه الأكبر «مرسو» في الإشراف على ممتلكاته الواقعة في «طيبة» وكذلك كان يقوم بدلًا عنه في كهانة الروح في مقبرة «إبي» على أن «حقا نخت» المسن لم يهمل الكتابة لأسرته مدة غيابه في الوجه البحري، وقد كان في غربته يهتم بإدارة بيته فكان يكاتب ابنه، وقد عُثر على هذه الرسائل ضمن المهملات، وتُعد أوراق «حقا نخت» من أهم الكنوز التي عُثر عليها في حفائر «طيبة»

[١] Bulletin Metropolitian Museum Of Art Part II (1921–22) P. 37 f.f; Fig. 31, 32, & J. E. A, X. (1924) P. 15.

من عهد الأسرة الحادية عشرة، ولم يتم بعد درسها درسًا وافيًا، على أن ما نعلمه منها حتى الآن يصور لنا الحياة المصرية من الناحية الزراعية والناحية الأسرية منذ أربعة آلاف سنة، ويمكننا أن نعتبرها أبسط وأصدق صورة صوَّرها المصري بنفسه عن حياته الريفية بكل ما فيها من محاسن ومساوئ، والرسائل كلها في موضوع واحد عدا رسالة واحدة من ابنة لأمها، وفي نهاية هذه الرسالة تقول الابنة لأمها: «بلغي سلامي إلى «جر» منحه الله الحياة والصحة والعافية، ولا تجعليه ينسى الكتابة إليَّ عن أحواله.» والظاهر أن الوالدة رأت أن أحسن وسيلة لتوصيل رسالة ابنتها أن تمحو عنوان الخطاب الذي جاء باسمها وتكتب بدلًا منه إلى مدير البيت «جر».

أما باقي الوثائق السبع فهي كما يأتي: قطعة صغيرة، وثلاث رسائل والثلاثة الباقية قوائم حسابات كاملة، ويوجد بين الخطابات رسالة مختومة ومعنونة وملفوفة كما طواها كاتبها.

ووثائق الحسابات كلها خاصة بأملاك الكاهن «حقا نخت»، وقد كانت هذه الوثائق موضع حيرة عند حلها؛ إذ وجد أن بعضها قد عُنون كما يأتي: كاهن الروح «حقا نخت» يرسل هذا إلى أسرته في «تبسيت» ورسالة أخرى مختومة معنونة إلى المشرف «رع نفر» من «حقا نخت»، وقد كان وجه الغرابة هو أنه كيف يتفق أن هذه الرسائل يرسلها «حقا نخت» إلى مكان مفروض أنه موجود فيه؟ ولكن اتضح كما أسلفنا أن «حقا نخت» كان صاحب أوقاف مقبرة الوزير «إبي» وقد كان جزء من هذه الأملاك في الدلتا، وكان يذهب «إبي» من وقت لآخر ليشرف على إدارة تلك الضياع، وبالموازنة وجد أن الرسالة التي كتبها «إبي» إلى «رع نفر» تشبه من كل الوجوه الرسالة التي وجدت في مقبرة «مكت رع» فقد كُتبا بخط كاتب واحد، هذا إلى أنه اتضح من رسالة أخرى أن الأسرة كان لها غلال في بلدة «دديسوت» إحدى ضواحي «منف» كما اتضح أنه كان لها ضيعة أخرى بعيدة عن «منف» وبعيدة عن «طيبة»، وقد كان السفر في تلك الفترة إلى «منف» متعبًا، وكانت زيارات «حقا نخت» لهذه الضياع تستغرق نحو ثمانية عشر شهرًا أحيانًا، ولذلك كان يرتب أعماله الأسرية بدقة وعناية قبل الشروع في السفر، وقد عين ابنه الأكبر «مرسو» مديرًا لأشغاله في بيته ونائبًا عنه في كهانته مدة غيابه، و«مرسو» هذا هو الذي أحضر هذه الوثائق لدرسها وقت فراغه من أعمال الكهانة في مزار المقبرة، وتدل الأبحاث على أن بلدة «تبسيت» كانت تقطنها الأسرة، وتقع عند منعطف النيل بين بلدة «الجبلين» و«الرزقات»؛ أي إنها على مسافة خمسة عشرة ميلًا من «طيبة» تقريبًا.

وكان «حقا نخت» وقتئذ معتادًا الذهاب إلى «منف» تاركًا كل شيء في يد «مرسو»؛ وقبل قيامه بأول رحلة نعرفها جمع في حضرته ابنه «مرسو» وولدين آخرين بالغين من أكبر أولاده ومعهم أمين أسرته وموضع ثقته «حتى» بن «نخت»، ثم نشر على حجره وثيقة كبيرة من البردي، وأخذ يفحص معهم مهام أموره، وقد كتب في بداية الوثيقة: السنة الخامسة من عهد الملك، الشهر الثاني من فصل «شمو» (الصيف)، اليوم التاسع من الشهر. ولعمري فإن ذلك يشبه ما نكتبه الآن مثلًا ١٤ / ٣ / ١٩٤٣، ولكن كان للعثور على هذه القائمة في قبر لم يمس بعد؛ فضل في أنه أمكننا أن نعرف عن طريق الحدس أن المقصود من الملك الذي لم يذكر هو «منتو حتب الثالث».

ولم نفهم معنى كلمة شمو «صيف» قبل أن نصل إلى هذه النتيجة، والواقع أن فصل «شمو» عند المصريين نظريًّا هو فصل الحصاد، ويقع بين ١٦ مارس و١٣ يوليو، ولكن لما كانت النتيجة المصرية خالية من سنة كبيسة كان كل فصل من فصول السنة يأتي مبكرًا يومًا كل أربعة أعوام، حتى إنه في عهد «منتو حتب الثالث» قد جاء في الخريف، وهذا التاريخ يوافق تاريخ حكم هذا الفرعون تقريبًا، بعد هذا التاريخ نجد العنوان الآتي: بيان عن شعير «حقا نخت»؛ ثم يتفرع من هذا العنوان ما يأتي: عمله لابنه «مرسو»؛ ثم «علف للثيران» ثم الشعير الذي حصل عليه «حقا نخت» لأجل أتباعه كل واحد منهم بقدر ما أعطاه بالشوفان (وكان يقدر قيمته بثلثي قيمة الشعير) وكتب بالمداد الأحمر خوف الخطأ في الجمع. بعد ذلك يأتي بيان عن الثيران التي أعطاها «حقا نخت» ابنه سنبوت هذا إلى ٣٥ رأسًا من الماشية دوِّنت تحت خمسة أنواع، وكذلك نجد الملاحظة الآتية: وإذا شكا إلى «سنبنوت» عن ضياع ثور … فإن نصف ما يفقَد سيكون مسئولًا عنه هو و«حتى» بن «نخت».

ولا نزاع في أن «حقا نخت» قد أجرى عمل حسابه خوف ما عساه أن يحدث عندما نظم أحوال بيته. ونجد أخيرًا بيانًا عن الخبز الذي كان يعطي ابنه «مرسو»، وكان مؤلفًا من ثلاثة أنواع مختلفة ومجموعه ٧٠٠٠ رغيف، والواقع أن هذا العدد يظهر ضخمًا جدًّا، ولكن إذا لاحظنا أنه كان لا يختلف عن نوع الخبز الصغير الذي يُصنع في صعيد مصر وريفها للآن فإن دهشتنا تتلاشى، ولا نعرف حال الأسرة في خلال رحلة «حقا نخت» الأولى؛ ولما أراد «حقا نخت» القيام بالرحلة الثانية في السنة الثامنة من حكم الملك أحضر الوثيقة القديمة ثانية، وكان لا يزال فيها متسع له ليكتب فيها تقويم عقاره، وفي هذه الدفعة كان يستعد لرحلة إلى «منف» في مايو أو يونيو؛ لأن المحصول كان قد جُمع

وقُدر بنحو ٥٥ ½ مكيالًا (بوشل) من الشعير والشوفان، وهو ما بقي في ذمة «مرسو» أو خزن عند ثلاثة عشر شخصًا من الجيران، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لطحن الحبوب وخبزها فلم يدرج عدد الرغفان، وكذلك لم تدرج قائمة بالماشية في الوثيقة، وإن كانت رسائل «حقا نخت» تشير إلى شيء من ذلك، ويلاحظ أنه قد وضعت خميلة أشجار في حيازة الأسرة ليباع ما نما من خشبها، وبعد أن أتم ترتيب كل شيء في داخلية بيته سافر «حقا نخت» إلى «منف» و«دديسوت» في الدلتا، وكان أول رسالة بعث بها «حقا نخت» عندما عاد من «دديسوت» إلى ضياعه الأخرى القريبة من «منف» يقول فيها: «عندما وصلت إلى هنا متجهًا نحو الجنوب»، وكان ذلك في وقت الصيف، ويدل على ذلك ما طلبه من «مرسو» قائلًا: «أن أرسل إليَّ مقدار ٥٠٠ بوشل من القمح، وما يمكنك أن ترسله من الشعير، وكذلك ما يزيد عن مئونتكم إلى أن يأتي محصول الصيف.» وكان يبتدئ في ٢ سبتمبر، ويحتمل أنه كتب هذا الخطاب في أول أغسطس؛ لأن الفيضان لم يكن بعد عاليًا ليعرف منه مقدار حالته، ولذلك نجد في الخطاب تعليمات خاصة بذلك؛ إذ يقول: «أما إذا كان النيل حسنًا» والواقع أن النيل قد أخذ في الارتفاع عندما كان «مرسو» «في خلال تلك المدة يزرع محصوله الصيفي، فقد كتب أنه يخشى ألا تتحمل جسوره ضغط الماء، فيفيض الماء على حقوله قبل أن يحصدها.» وقد ذعر كذلك «حقا نخت» فكتب في الحال بسرعة، ولم يجرِ على عادة تبليغ السلامات والتحيات كما كانت الحال في الخطابات، بل كتب مباشرة قائلًا:

> الكاهن «حقا نخت» يخاطب «مرسو»! أما من جهة فلاحة أرضنا فإنك أنت الذي تزرعها! وستكون مسئولًا عن ذلك، فعليك أن تجتهد في الفلاحة، واحترس جدًّا، وحافظ على كل ما أمتلك؛ لأنك ستكون مسئولًا عنه.» وفي منتصف الخطاب عادت إليه وساوسه ومسئولية ضياع المحصول والغلال فاندفع قائلًا: «وإذا حدث أن أرضي غرقت عندما يكون «سنفرو» أخوك يفلحها معك هو و«أنبو» فالويل لك و«لسيحتور».»

وقبل أن نتكلم عن رسائل «حقا نخت» الأخرى يجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الخطاب الثاني الذي كتبه قد كتبه بعد عام من الخطاب السالف، وفي خلال تلك الفترة كان مقيمًا في إحدى ضياعه التي كانت في الشمال، ولا شك في أنه كان يكتب كثيرًا أثناء غيبته إلى أهل بيته في «نبسيت» يخبرهم بالكيفية التي يجب عليهم أن يتصرفوا بها في

الأمور عندهم، فمثلًا نجد أنه يشير إلى خطاب أول سنة خاصًّا بالقربان لعيد أول يوم في الشهر للإله «خنتخاتي» في معبد الباب المزدوج وإلى خطابين خاصين بابنه «أنبو» غير أن «مرسو» لم يحمل لنا الخطابات معه إلى المقبرة.

أما الخطاب الثاني الذي حمله معه «مرسو» ضمن تلك الوثائق فكان مؤرخًا في أول يوليو، وقد كان النيل في الشتاء المنصرم منخفضًا جدًّا؛ حتى إن الحقول قد انتابها القحط ولم تنتج محصولًا، هذا إلى أن المخزون من العام الماضي قد نفد وحل القحط بالبلاد إثر محصول ضئيل، ولكن «حقا نخت» كان في حالة هادئة هذه الدفعة فلم ينسَ كتابة السلامات والتحيات التي يجب أن يبتدئ بها الخطاب قال:

> إن الولد يتكلم لأمه، وكاهن الروح يخاطب أمه «إبي» ثم «حتبت»: كيف حالكما، لكما الحياة والصحة والعافية ببركة الإله «منتو» رب طيبة؟ وكل الأسرة كيف حالكم؟ كيف حالكم في الحياة؟ أتمنى لكم السلامة والصحة، لا تشغلوا بالكم بي، إنني طيب وفي صحة جيدة.
>
> اعلموا أنكم كرجل كان فيما سلف قد أكل حتى الشبع، ولكنه أصبح ذا مسغبة؛ حتى إنه يغمض عينيه، والبلاد كلها تموت جوعًا، لقد وصلت هنا في الجنوب، وقد جمعت لكم كل ما يمكن من طعام، أليس النيل منخفضًا؟ والطعام الذي جمعته لكم يتفق مع حالة الفيضان، فعليكم بالصبر أنتم يا من ذكرت بالاسم؛ لأنكم ترون أني كنت قادرًا على إطعامكم إلى هذا اليوم.
>
> وعند هذه النقطة يقدم لنا قائمة بأسماء الأفراد الذين تتألف منهم أسرته، ويحدد النصيب الذي يستحقه كل واحد منهم من الطعام الذي يرسله ثم يستأنف الكلام قائلا: «ويجب عليكم ألا تغضبوا لما يحدث؛ إذ الواقع أن البيت كله بما فيه من أطفال عبء عليَّ وكل شيء ملكي، وأن عيشة التقشف خير من الموت كلية، والإنسان لا يمكنه أن يتكلم عن القحط إلا إذا كان هناك قحط فعلًا، وعلى أية حال فإن الناس قد بدءوا يأكلون الرجال والنساء! ولا يوجد في أي مكان آخر أناس يقدم لهم طعام كهذا، ويجب أن تعيشوا حتى عودتي، وإني عازم على تمضية فصل «شمو» (الصيف) هنا أو بعبارة أخرى حتى الثلاثين من شهر ديسمبر القادم»، هذه كانت تعليماته العامة، أما تعليماته

الخاصة جدًّا في نفس الخطاب فهي: «إن «حقا نخت» الكاهن يخاطب «مرسو» و«حِتِي» ابن «نخت» معا: يجب عليكما أن تعطيا أهلي هذا الطعام فقط عندما يقومون بما عليهم من الأعمال، وعليكما أن تراعيا ذلك، واستغلا أرضي كلها بقدر المستطاع، واعملا بكل ما عندكم من جهد في فلاحة الأرض وذلك بجعل كل همكم في العمل، واعلموا أنكم إذا كنتم مجدين فإن الإنسان يدعو الله لكم، وإني سأكون حَسَن الحظ عندما يكون في مقدوري أن أدعو لكم، وإذا عاف أي فرد من نساء أو رجال الطعام فدعه يحضر إليَّ ليعيش كما أعيش»، ولن يحضر واحد منهم.

ونلاحظ أن إدارة شئون المزارع في «نبسيت» وما جاورها لها نصيب كبير فيما يلي من هاتين الرسالتين، ويمكن الإنسان أن يقدِّر على وجه التقريب موقف «مرسو» من هذه الأمور عندما حمل حزمة الرسائل التي نحن بصددها إلى مزار مقبرة «إبي» الوزير، ولا نذهب بعيدًا فإن التعليمات التي كان يجب عليه اتباعها قد جاءت في الخطاب الأول من والده؛ إذ يقول: «مُر «حتي» بن «نخت» أن يذهب في الحال مع «سنبنوت» إلى بلدة «برحاعا» لزراعة حقلين من أرض مستأجرَين على أن يأخذا قيمة أجرهما من المنسوجات التي نُسجت هنا، ويجب أن تقول: إن صناعتها غاية في الإتقان، ولكن دعهما يأخذاها، وبعد بيعها في «نبسيت» دعمها يأخذاها، وبعد بيعها في «نبسيت» دعهما يدفعا إيجار الأرض بثمنها، وعليك أن تجد أرضًا، ولكن من غير أن تتورط في أرض شخص ما، بل عليك أن تستعلم من «حاو» الصغير، وإذا لم تجد عنده أرضًا فاستشر «رع نفر» فهو الذي يمكنه أن يرشدك للأرض الجيدة السهلة الري في «خبشيت»، أما فيما يختص بما يمكن أن يعمله «حتي» بن «نخت» في «برحاعا» فاعلم أني لم أميزه بأية مئونة، وجراية الشهر هي أردب من الشعير لأسرته، وسأعطي أسرته نصف أردب آخر من الشعير في أول الشهر، واعلم أنك إذا خالفت ذلك فإني سأنتقص ذلك مما تأخذه أنت، أما فيما يختص بما قلته لك — أعطه أردبًا من الشعير شهريًّا، فعليك أن تعطيه فقط أربعة أخماس أردب من الشعير شهريًّا — افهم ذلك.»

واتفق أن «حاو» لم يكن عنده أرض ليؤجرها، على حين أن «رع نفر» كان له حقل مجاور لحقل «حاو» فاستأجره كل من «سنبنوت» و«حتي»؛ هذا إلى أن «مرسو» قد دخل في معاملات أخرى في «برحاعا» وكتب ملخصها في وثيقة، عُثر على نسخة منها بين

الأوراق التي وجدناها في المقبرة، ويحتمل أن النسخة الأخرى قد أُرسلت لوالده، وقد جاء فيها:

كان لحقا نخت غلال في بلدة «يوسبقو» في ذمة «إبي» الصغير، وكذلك في بلدة «سبات معات» في ذمة «نحري» بن «إبي»، وقد نزل عنها «حقا نخت» في الخطاب الثالث إلى «رع نفر». ومن جهة أخرى نجد في الخطاب الثاني ما يشير بإتمام مسألة «رع نوفر» وبيع المحصول بمبادلته بزيت. وقد أرسل الخطاب الثالث «حقا نخت» لهذا السبب، ولا بد أن «سنبنوت» و«حتي» قد سلَّماه إلى «رع نفر» حتى يتمم هذا الموضوع، ولكن لسبب ما لم يصل هذا الخطاب لصاحبه، أو أهمله «مرسو» فتُرك مختومًا كما وصل إليه.

أما الخطاب الذي أمر بكتابته «حقا نخت» بيد أحد الكتبة في «منف» والذي يجب إثباته هنا برمته؛ فهو نموذج للرسائل التي تُكتب بأسلوب أهل الحضر الذين يعيشون في المدن الراقية وهو:

> خادم الضيعة وكاهن الروح (المادية) «حقا نخت» يقول: أرجو أن يكون حالك حال الإنسان الذي يعيش مليون عام، وأتمنى أن يرعاك الإله «حريشاف» رب «إهناسية» وكل الآلهة الموجودين أيضًا، وليت الإله «بتاح» الذي يسكن جنوب جداره بمنف يشرح قلبك فتحيا طويلًا، وأتمنى أن يجزيك «حريشاف» رب إهناسية جزاء حسنًا.

خادمك يقول: دع كاتبك — منحه الله الحياة والسلامة والعافية — يعرف أني أرسلت «حتي» بن «نخت» و«سنبنوت» بخصوص ذلك الشعير والشوفان اللذين عندك. ويستطيع كاتبك (منحه الله الحياة والصحة والعافية) أن يتسلمهما دون أن يفرط في شيء منهما وذلك فضل منك إذا تكرمت بالقيام به. أما الثمن فضعه عند تسلمه في بيت الكاتب (منحه الله الحياة والصحة والعافية) إلى أن يأتي من يتسلمه منه، واعلم أني قد كِلْت هذا القمح بالمكيال الخاص به، وهو يملأ مائة حقيبة تمامًا، واعلم أنه يوجد في «برحاعا» ١٥ أردبًا من الشوفان عند «ننكسو» و١٣½ أردبًا من الشعير عند «إبي» الصغير في بلدة «إيسبكو» وكذلك يوجد في بلدة «سبات معات» ٢٠ أردبًا من الشوفان عند «نحري» بن «إبي» وعند أخيه «دشر» ثلاثة أرادب من الشعير؛ فيكون المجموع ٣٥ أردبًا من الشوفان، ١٦½ أردبًا من الشعير، وعلى من يملكه أن يعطيني ما يساوي مقدار ذلك من الزيت، ولا بد أن يعطي مقابل كل أردبين من الشعير أو ثلاثة من الشوفان

مكيالًا «حبت» من الزيت؛ ومع كل فإني أفضل أن أتسلم متاعي شعيرًا، ولا تنسَ أن تكتب لي عن «نخت» وعن كل شيء يأتي إليك من جهته فهو يلاحظ كل أملاكي. وقد ذكر «حقا نخت» في الرسالتين الأوليين أمورًا تتعلق بالزراعة، فنجد أن الخشب الذي كان يؤخذ من غابات الضيعة قد بيع، وما كان يأخذه «سنبنوت» أجرًا له في الخطاب الثاني كان من محصول بيع هذه الأخشاب، وكذلك كان «سيحتحور» مستأجرًا قطعة أرض، وكان يرسل إليه «حقا نخت» ٥ أرطال من النحاس ليدفع بها الإيجار المطلوب منه. هذا؛ ويخبرنا «حقا نخت» عن موضوع إيجار آخر قد جعله «مرسو» صعبًا عليه، وذلك أنه أجَّر الأرض وزرعها شعيرًا فقط، ثم يخبره بأنه قد انتقص من شعير «حقا نخت» الجاهز عنده؛ ولذلك كتب له الأخير محذرًا إياه ألا يقوم بأي تعدٍّ آخر.

على أن الجزء الفكه من خطابات «حقا نخت» هو ما جاء فيها تلميحًا عن الحياة الأسرية، وأظن أننا قد اقتبسنا في الخطابات السابقة ما يجعلنا نعرف شخصية «مرسو» بن «حقا نخت» الأكبر؛ والظاهر أن «مرسو» كما يصفه والده تلميحًا كان غبيًّا بعض الشيء، وكان يشكو منه أحيانًا، ورغم كل ذلك كان يمكنه الاعتماد عليه في أمور بيته؛ والواقع أن «حقا نخت» كان يتطلع إليه في إدارة أحوال أسرته المعقدة وحفظ النظام والطمأنينة في بيته، وكان يساعد «مرسو» في ذلك «سنبنوت» أخوه، و«حتي» أمين الأسرة. أما الابن الثالث «سيحتحور» فنراه في مناسبات غير مشرفة له، ففي الخطاب الأول نرى أنه قد اقترح على «مرسو» اقتراحًا أثار غيظ «حقا نخت» المسن؛ ولذلك يقول الأخير: أما من جهة إرسال «سيحتحور» إليَّ بشعير جاف قديم من بلدة «دديسوت» وعدم إعطائي عشرة الأرادب من الشعير الجديد فإني لا أقبل ذلك بأية حال طبعًا، حقًّا إنك سعيد بأكل الشعير الجديد، واعلم أني على البر، والقارب قد رُبط في المرسى تمامًا، ولكنك عندما تصل إلى الشاطئ ستفعل كل شيء خطأ، فإن كنت قد أرسلت إليَّ بشعير قديم ليحل محل الجديد فما عساي أنا قائل؟ إنه حسن جدًّا!

وفي الخطاب الثاني أخبر «مرسو» أن يلاحظ «سيحتحور» في كل وقت يحضر فيه إلى البيت، وكان الإخوة الثلاثة متزوجين وكذلك «حتي» وكان لهم أولاد يقيمون في بيت الأسرة في «نبسيت»، هذا فضلًا عن وجود نساء وأطفال في بيت «حقا نخت» نفسه مما جعل عدد الأسرة يبلغ نحو الثلاثين نسمة على أقل تقدير، فكان هناك «إبي» وأمه وخادمتها وكذلك إحدى قريباته تسمى «حتبت»، وكان معها ابن صغير يسمى «ماي»، وسواء أكانت «حتبت» هذه دخيلة أو عبئًا على البيت فإنا نعلم أنها كانت ممقوتة من

«مرسو»؛ ومن أجل ذلك كان «حقا نخت» مضطرًا أن يكتب لابنه من أجلها: لقد أخبرتك ألا تباعد بين «حتبت» وبين صاحبة لها سواء أكانت قريبتها أم إحدى معارفها، واعتنِ بها، وإني أتعشم أنك ستفلح في كل شيء تعمله بسبب ذلك، هذا رغم أنني على يقين من أنك لا تريدها معك.

وعلاوة على أبنائه الثلاثة المتزوجين كان لـ «حقا نخت» ولدان آخران هما «انبو» و«سنفرو» وكان كلاهما قاصرًا لم يؤهله سنه للقيام بعمل جدِّي عندما سافر «حقا نخت» في السنة الخامسة؛ ولذلك لم يظهرا في قائمة الأقارب التي تركها في ذلك الوقت، ولكن في خلال رحلته الثانية نحو الشمال بعد انقضاء ثلاثة أعوام على الرحلة الأولى كانا حاضرين في مخيلته، فكتب قائلًا:

اعتن كثيرًا بكل من «انبو» و«سنفرد» فتحيا معهما وتموت معهما، افهم ذلك.

وكان «انبو» أكبر الاثنين سنًّا مما جعله قادرًا على أن يساعد «مرسو» و«سيحتحور» في زرع المحاصيل الصيفية التي كانت على وشك الغرق، وقد أشعر هذا العمل الولد الصغير بأن أخاه لم يعتنِ به تمامًا، ففي خلال مدَّة الشتاء شكا من ذلك لوالده فأمر «مرسو» أن يعطي «انبو» ثانية ما في ذمته، وكل شيء ناقص لا بد أن يدفع عوضه، ثم قال: ولا تجعلني أكتب إليك في ذلك مرة أخرى؛ إذ قد كتبت لك مرتين بخصوص ذلك.

أما «سنفرو» وهو أصغر أولاد «حقا نخت» فكان طفلًا مدللًا، وكان صاحب الحظوة عند والده، وكان عند سفر والده لا يزال صغيرًا جدًّا فلم يكن له مرتب خاص، ولكن حقا نخت قد عدل عن ذلك فيما بعد، وكتب إلى «مرسو»:

«افهم إذا لم يكن «لسنفرو» مرتب في البيت معك فلا تنسَ أن تكتب لي في ذلك؛ لأني سمعت أنه غاضب، فعليك أن تعتني به وتعطيه غذاء، وبلِّغه سلام «خنتخ» ألف مرة بل مليون مرة، واعتنِ به، ولا بد أن ترسله إليَّ في الحال بعد الفراغ من الزراعة.»

غير أن هذا العرض الأخير لم يرُق في عين «سنفرو» ورفض بصراحة أن يسافر إلى والده. وفي الصيف التالي نجد «حقا نخت» يكتب مكتئبًا:

«وإذا كان «سنفرو» يريد أن يحرس الثيران فاجعله يحرسها؛ لأنه لا يريد أن يروح ويغدو حرًّا في الزراعة معك، وكذلك لا يريد أن يأتي إلى هنا معي، فاتركه يفعل ما يريد.»

وكان كذلك ضمن أسرة «حقا نخت» شخص يدعى «رنكاس» له أسرة ومعه أخت أرملة تسكن معه في البيت، هذا إلى ثلاثة أطفال صغار من بينهم بنت صغيرة تدعى

«نفرت» ولم يكن له أم، والنتيجة أن «حقا نخت» كان أرملًا. وأمام كل هذه المتاعب لا يسع الإنسان إلا أن يفكر في أنه مع هذه الأسرة العديدة كان عنده من المشاغل ما يكفي لانصرافه إلى الاهتمام بتدبير شئونه، ولكن الأمر كان عليه أهون مما نتصور؛ إذ اتخذ لنفسه حظية اسمها «ايتنحاب» ويمكننا أن نتصور إحساس أسرته وشعورهم تجاه هذا الأمر من الرسائل المتأججة التي كان يرسلها «حقا نخت» لهم فيقول: «لا بد أن تعزل الخادمة «سِنِن» من بيتي في الحال وحافظ تمامًا على ألا يزورك «سيحتحور» كل يوم، واعلم أنه إذا أمضت «سنن» في البيت يومًا واحدًا فستكون أنت المُلام إذا أساء إلى حظيتي، وإلا فلماذا أنا أعولكم، وما الذي يمكن أن تعمله حظيتي ضدكم وأنتم خمسة أولاد، بلِّغ سلام والدتي «لإبي» ألف مرة ومليون مرة، وبلِّغ سلامي إلى «حِتبت» وكل أفراد الأسرة وإلى «نفرت»، واحذر إيقاع الضرر بحظيتي فإنك لست شريكي في أملاكي، فإذا لزمت الهدوء فإن ذلك سيكون شيئًا جميلًا جدًّا.»

ولا غرابة في أن ترى «حقا نخت» يكتب ذلك منذ أربعة آلاف عام، فإن ما كتبه هو بعينه ما نشاهده كل يوم بين ظهرانينا.

على أنه لم يفلح توبيخ «حقا نخت» في صفاء الحياة الأسرية المتعكرة المضطربة؛ إذ في الصيف التالي لذلك نجد أن صبر «حقا نخت» قد نفد، ففعل ما كان يجب عليه أن يفعله من زمن طويل، فكتب: يجب عليك أن ترسل «ايتنحاب» وما دام هذا الرجل على قيد الحياة وأعني به «اپ» مؤاجري فهو عدوي، ومن يسيء إلى حظيتي فهو عدوي وأنا عدوه؛ وافهم أن هذه هي حظيتي، ومن المعلوم أن حظية الرجل يجب أن تعامَل معاملة حسنة، واعلم أنه لا يمكن أن يقوم لها أي إنسان بمثل ما قمت به، وإذا استطاع أحدكم أن يصبر إذا اتُّهمت زوجته أمامه فإني سألزم الصبر لما يحدث مع حظيتي، ولكن كيف يمكن أن أعيش معكم في دار واحدة إذا لم تحترموا حظيتي إكرامًا لي؟

ولا شك في أن ما لَّمح به «حقا نخت» لابنه «مرسو» من أنه ليس شريكًا في أملاكه وأطفاله، وكذلك تهديداته بأن يقصي كل أولاده من داره إذا لم ينفذوا أوامره؛ لم يأتِ بفائدة.

والواقع أن «حقا نخت» كان يلذ له كثيرًا انتهاز الفرصة لتنبيه أولاده بأنهم عبء عليه وأنهم يأكلون خبزه، وأن كل شيء ملكه، وأن كل أفراد الأسرة كَلٌّ عليه.

والحق أنه كان رجلًا مشاغبًا متعبًا، وكانت رسائله مملوءة بالتهديدات مثل قوله: «افهم هذا، واحترس جدًّا، وكن نشيطًا جدًّا، وستكون مسئولًا أمامي عن ذلك، ولا تنسَ

أن تجيب عن كل شيء كتبت لك عنه.» أو نراه يشدِّد في قوله «افهم أن هذه سنة يجب فيها على الرجل أن يشتغل لسيده.» أو يقول: «ليست هذه سنة يهمل فيها الرجل سيده أو أولاده أو أخاه.»

ولا شك في أن «مرسو» قد تنفس الصعداء عندما سافرت «ايتنحاب» إلى «حقا نخت» الذي كتب بأنه سيبقى بعيدًا ستة أشهر أخرى.

هذه جولات خاطفة في هذه الوثائق إلى أن تُدرس درسًا عميقًا، ومع ذلك فإنها تكشف لنا من صفحة مجيدة من حياة القوم الأسرية والاجتماعية في عصر مظلم لا نعرف عنه إلا القليل. والمتأمل في هذه الوثائق يمكنه أن يستنبط أمورًا كثيرة لم يتسنَّ لنا معرفتها حتى في أزهى العصور المصرية، وسنترك ذلك لفطنة القارئ على أن نعود إليها كلما دعت الضرورة عند درس مدنية الدولة الوسطى جملة.

(٥) آثار الملك سعنخ كارع

وقد بقي لنا عدد محدد من الآثار الصغيرة التي تحمل اسم الفرعون «سعنخ كارع» ففي سقارة عثر له على تمثال محفوظ الآن في متحف اللوفر، ويقال: إن له كذلك خاتمًا من الذهب نُقش عليه اسمه (Wiedemann Ibid, P. 221).

وتوجد له لوحة من ودائع الحجر الأساسي لمعبده، وهي بديعة الصنع قد نُقش عليها «ملك الوجه القبلي والوجه البحري (سعنخ كارع) محبوب «منتو» رب طيبة.» (Petrie, Historical Scarabs, P. 165).

وقد عثر «نافيل» على خرزة كرية الشكل لونها أزرق قاتم تحمل لقبه. (Hall, Egyptian Scarabs in the British Museum No. 61).

وكذلك يوجد في مجموعة «بتري» جعران ولكن يحتمل أنه من عصر متأخر. (Petrie, Scarabs and Cylinders Pl. XI, 11. 9).

على أنه إذا كان «سعنخ كارع» قد قارب الخمسين من عمره عند توليته عرش الملك فقد كانت الضرورة تملي عليه أن يسارع في إقامة مثواه الأخير، ولكن تدل ظواهر الأمور على أنه كان يقوم بهذا العمل بشيء من الفتور والتراخي. (Winlock, A. J. S. L. 1915 P. 29, Figs 1, 6–9; 1941, P. 146, Pl. 23).

فنعرف أنه قد وضع تصميم طريق ابتداء للعمل في البقعة التي قام عليها معبد الرمسيوم الحالي، وكان الحجارون قد بدءوا من جهة أخرى يقطعون طريق المعبد في

الطرف الجنوبي لشيخ عبد القرنة وعلى سفح التلال للجبل، وكان انحدار هذا الطريق بنسبة واحد إلى خمسة وعشرين، ومن المحتمل أن هذين المكانين اللذين ابتدأ عندهما العمل لم يتصل بعضهما ببعض قط، وإذا اتخذنا الخنادق الظاهرة حتى الآن وهي التي قُطعت في سفح التل، أساسًا لحكمنا استنتجنا أن العمل كان يقوم به شرذمة قليلة من العمال، وقد تركوا عدة قطع من الأحجار المنزوعة من الصخر في مكانها في الرصيف السفلي من الجبل، وإنه لمن السهل أن يتتبع الإنسان أثر الجانبين اللذين سيتكون منهما عرض الطريق، ومن ثم يمكن الحكم بأن تصميم عرضه كان مثل عرض طريق «نب حبت رع».

وفي أعلى هذا الطريق كان العمال قد بدءوا عمل رصيف ممهد تقريبًا طوله نحو ١٠٠ متر، ومن المحتمل أن عرضه كان يساوي طوله لو تم، وكذلك كان العمل قد بُدئ في حفر خندق لإقامة جدار طوله نحو ٧٠ ذراعًا أمام مقبرة الملك، غير أنه لم يتم، وكان قد وضع خمس ودائع لحجر الأساس، وهي قربان من اللحم في حُفَر عُملت في الصخر، وكذلك شرع العمل في نحت قبر للفرعون، غير أنه لم يتم منه إلا قطع الممر المنحدر، وطوله نحو ٣٥ مترًا. وعندئذ أُعلن وفاة الفرعون؛ فكانت النتيجة أن وُسع نهاية الممر بسرعة واتُّخذ منه حجرة دفنٍ للملك، ثم سُدَّت بعدُ بقطع من الحجر الجيري الأبيض بدلًا من حجر الجرانيت الذي كان يغلَق به حجرة دفن الملوك.

المعبد: أما معبد الفرعون فكان يتألف من جدار رخيص ملتوٍّ بني، من اللبن، فوق المكان الذي دُفن فيه، وقد أقيم خارج هذا المعبد بيت صغير من اللبن للكاهن الحارس، ولم نجد حول قبر هذا الفرعون إلا حُفرًا صغيرة اتُّخذت مقابر، وكان لكل منها بئر مستطيلة الشكل، ولم يقُم بجواره حتى فيما بعد إلا بعض مدافن مربعة الشكل في أوائل الأسرة الثامنة عشرة.

مقبرة مكت رع[٢]: أما الأغنياء الذين كان في مقدورهم أن ينحتوا لأنفسهم مقابر على جوانب التل المشرف على موقع هذا المعبد، فكان يبلغ عددهم نحو الثلاثين. على أنه من الأمور الغريبة التي يلاحظها الإنسان في هذا المكان أنه كلما جال المرء حول منحدرات هذا التل يلحظ أن معظم هذه المقابر التي حُفرت في واجهته قد هُجرت قبل أن يتم

[٢] M. M. A. December 1920, P. 14 ff.

العمل فيها، وأن العدد القليل منها نسبيًّا هو الذي قد استُعمل للدفن فعلًا، ففي واحد منها نجد اسم مدير البيت للقصر الداخلي المسمى «سي أنحور» على قطعة من غطاء وجه (Winlock, Dier el Bahri P. 32).

ولكن أهم القبور وأعظمها في الجبانة كلها كان قبر الأمير الوراثي، والحاكم، وخازن بيت مال ملك الوجه القبلي والأمير الوراثي، عند بوَّابة (جب) مدير البيت العظيم والسمير الوحيد، وحامل الختم «مكت رع» وهو نفس الرجل الذي ذهب في ركاب الفرعون «نب حبت رع»، ومضى اسمه في «شط الرجال» على الصخور بوصفه المحبوب حقًّا من سيده وحاكم المحاكم الست العظيمة. والواقع أن محتويات هذه المقبرة قد كشفت لنا عن صفحة مجيدة في حياة القوم الاقتصادية والاجتماعية والصناعية والدينية بشكل مجسم مما لم نكن نحلم به في هذا العصر البخيل بآثاره.

ولذلك سأتكلم عنها وعن محتوياتها ببعض التفصيل، ولنترك الملوك وآثارها ونعيش مع موظف كبير وما يحيط به من عامة الشعب على مختلف نِحلهم وطبقاتهم.

نُحتت هذه المقبرة العظيمة في الصخرة المطلة على معبد الأسرة الحادية عشرة بالدير البحري، وقد حاول الكشف عنها «درسي» في عام ١٨٩٥ فلم يصل إلى نتيجة، ثم جاء بعده «السير مند» عام ١٩٠٢ واستطاع كشف الطريق المؤدِّية إلى بابها (A. S. II. P. 133 & VI, P. 77)، وقد بقيت مطمورة بالأتربة حتى كشف عنها «ونلك» عام ١٩٢٢. و«مكترع» هذا كان موظفًا كبيرًا يلقَّب بحامل الختم ومدير القصر، عاش في عهد الملك «منتو حتب الثالث» وقد عثرنا قبل على اسمه في معبد هذا الملك بالدير البحري (Naville, XI, Dyn. Temple II. Pl. IX. d.)، والظاهر أنه عاش في عهد الملوك الذين خلفوا «منتو حتب الثاني»، وتدل محتويات قبره على أنه كان صاحب سلطان عظيم في البلاط، فقد انتخب لنفسه أفخم مكان في جبانة عصره، فهو يشرف كما قلنا من قبل على معبد سيده الجنازي، ويمكن مشاهدة القبر من ساحة المعبد، وتصميم المقبرة يُشعر بأن «مكترع» قد نحت لابنه المسمى «أنتف» مقبرة في نفس مقبرته، وقد أصبح فيما بعد «أنتف» هذا أميرًا، وحامل ختم الملك، ورغم أن المقبرة وُجدت منهوبة فقد عثر فيها على حجرة سرداب لم يُمس بعد.

السراديب ومحتوياتها: وقد كان استعمال السرداب شائعًا في عهد الدولة القديمة ومخصصًا لحفظ تماثيل المُتوفَّى في بادئ الأمر، ثم أخذ القوم بالتدريج يضعون فيه مع تمثال المُتوفَّى بعض أفراد أسرته أو خدمه، وقد كانوا أحيانًا يضعون سردابًا خاصًّا

للخدم وأصحاب الحرف والصناعات التي كان يحتاج إليها المُتوفَّ في آخرته، كل ذلك كان يُصنع من الحجر الجيري الأبيض أو الحجر المحلي في جبانة الجيزة أو في جبانة سقارة. وفي عهد الأسرة السادسة كثر عملها من الخشب؛ وربما كان سبب ذلك اتصال التجارة بين مصر و«سوريا» وجلب الخشب منها. وقد لاحظنا أن هذه التماثيل أخذت تكثر شيئًا فشيئًا، وبخاصة أنها كانت مجرد نماذج صغيرة، ولوحظ أن تمثال صاحب المقبرة أخذ يصغر حجمه حتى أصبح في النهاية يعمل بحجم تماثيل الخدم وأصحاب الحرف والصناعات. وقد رأينا في أواخر الدولة القديمة وما بعدها أن تماثيل الخدم وأصحاب الحرف والصناعات تُعمل في مصانع خاصة بها كما يظهر، وتكوِّن كل منها فرقة خاصة بصناعة أو حرفة أو تعمل في قوارب.

أما تمثال صاحب المقبرة فقد كان يشرف على ما تقوم به هذه الفرق من الأعمال، وقد كانت العقيدة السائدة في هذه الفترة عند معظم الشعب أن روح هذه النماذج من العمال، وكذلك روح الطعام الذي كانوا يصنعونه ليكون خالدًا يمد صاحب المقبرة بما يحتاج إليه من طعام وغيره، وهذه الفكرة كانت منتشرة انتشارًا عظيمًا بين المصريين حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م، فكان كل فرد في مقدوره أن يشتري مثل هذه النماذج لتوضع معه حول تابوته أو بالقرب منه في المقبرة، وكان لا يتأخر قط عن الحصول عليها؛ ولذلك نجد بعض التماثيل من هذا النوع منتشرة في متاحف العالم، على أن المهم في مقبرة «مكترع» هو أنه كان رجلًا صاحب يسار وثروة عظيمة، وأراد حسب اعتقاده أن يحيا حياة بذخ وترف في عالم الآخرة كما كان ينعم بالحياة في الدار الفانية؛ ولذلك جهز نفسه بمجموعة فخمة من هذه النماذج مما لم يعثر على مثيلاتها للآن لشخص عادي. ويرجع الفضل في بقاء هذه المجموعة لنا إلى مهندسه الذي عاد إلى اتباع طريقة بناء السرداب، كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة مما لم يتنبه إليه اللصوص الذين تعودوا نهب القبور في هذا العهد، ولذلك أفلتت من أيديهم هذه المجموعة الفذة لفائدة العلم والتاريخ، وما ذلك إلا لأن طريقة وضعها في المقبرة لم تكن مألوفة للصوص الذين كانوا يعرفون طرق الدفن في ذلك العصر وفي كل عصر بمهارة فائقة، ونحن بوصفنا هذه المجموعة هنا نكشف عن صحيفة اجتماعية في تاريخ الشعب المصري في تلك الفترة الغامضة.

على أننا في مثل هذا الكتاب لا يمكننا أن نصف مجموعات النماذج التي بلغت أربعًا وعشرين، جهز بها «مكترع» قبره لتقوم بحاجياته في الحياة الآخرة.



شكل ١: حاملة القرابين.

والواقع أن كثيرًا من هذه المجاميع يوضح لنا عمليات ومناظر حيوية وصناعات دقيقة وغير ذلك مما يحتاج إلى درس طويل قبل أن نشرح تفاصيل كل مجموعة شرحًا وافيًا، ولا نزاع في أن هذه التفاصيل وبخاصة ما دق منها هي التي تصور لنا حياة وادي النيل منذ أربعة آلاف سنة مضت، وفي ذلك تنحصر أهمية هذه النماذج فهي صور مجسمة من الحياة اليومية بعيدة عن الفكرة الدينية المحضة التي كانت الوازع في عمل الأثاث الجنازي، فمثلها عندنا اليوم مثل متاحف الشمع، وإذا استثنينا

من بين هذه النماذج ثلاث مجموعات لها علاقة مباشرة بالفكرة الدينية كان ما تبقى منها دنيويًّا محضًا.

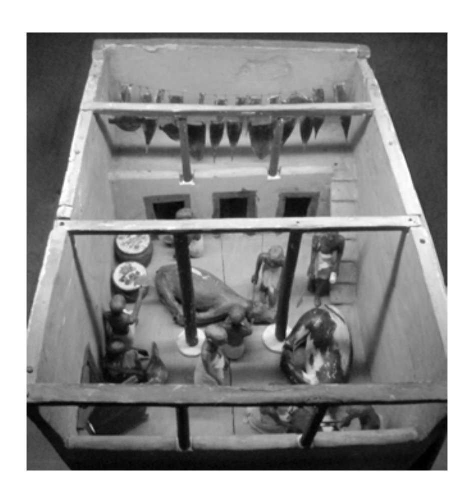


شكل ٢: إحصاء الماشية.

وهذه المجاميع الجنازية تنحصر فيما يأتي: مجموعة تمثل بنتين واقفتين على جانبي السرداب، وترتدي كل منهما ملابس طلية ملوَّنة بالألوان الزاهية، وتحمل كل منهما قربانًا؛ فإحداهما على رأسها سلة فيها لحم وخبز وفي يد كل منهما إوزة حية، وتمثالا هاتين البنتين مصنوعان من الخشب بنصف الحجم الطبيعي.

والمجموعة الثانية تتألف من أربعة أشخاص واقفين على كرسي واحد جميعًا، ويمثلون على التوالي كاهنًا مستعدًا بمبخرته وآنية الطهور، ورجلًا يحمل على رأسه مجموعة ملاءات من الكتان للأسرة، واثنتان أخريان تحملان إوزًا وسلتين فيهما طعام، أما ما بقي من النماذج التي يحتويها السرداب فتمثل صور الحياة التي كان ينعم بها «مكترع» مدة حياته في عالم الدنيا، وهي نفس الحياة التي كان يزعم أنه سيتمتع بها في الحياة الآخرة.

وأفخم هذه الصور وأعظمها المجموعة التي يظهر فيها هذا العظيم وهو يحصي ماشيته بمتحف القاهرة، وقد ظهر هذا المنظر ممثلًا في الردهة التي أمام بيته، ويطل عليها إيوان ذو أربعة عمد ملونة بألوان زاهية، وفيه يجلس «مكترع» ومعه ابنه ووارثه، ويلاحظ أنهما متربعان على رقعة الإيوان في جانب منه، وفي الجانب الآخر جلس أربعة من الكتبة منهمكين في تدوين حسابات الضيعة على قراطيس البردي، وترى ساقيه ومن يرعى بيته قد وقفوا في الإيوان على إحدى مراقيه، وفي الردهة المقابلة للإيوان يقف رئيس الرعاة منحنيًا تحية لسيده ويقدم له تقريره عن الإحصاء، وفي بداية هذا المنظر يشاهد الرعاة وهم يلوِّحون بعصيهم ويشيرون بأيديهم حينما



شكل ٣: حظيرة الذبح.

يسوقون ويقودون الماشية المختلفة الألوان، وقد مثل كل من هذه الماشية بحجم يبلغ حوالي ثلثي قدم، ولا يعتبر صنع تماثيل تلك الماشية من النوع الممتاز من الوجهة الفنية، غير أنها مع ذلك تشعر بصدق التمثيل ودقة الملاحظة؛ إذ إن حركاتها قد أبرزت بحذق، فهذه النماذج بما فيها من ألوان زاهية تعبر عن الحياة والمرح اللذين لا تصادفهما في القطع المصرية الفنية التي صُنعت حسب قواعد موضوعة متبعة.

طريقة تسمين الثيران: وبعد عملية الإحصاء هذه لثيران «مكترع» نجده قد مثل لنا طريقة تسمين الثيران في الحظيرة (تماثيل هذا المنظر محفوظة في متحف متروبوليتان) فنشاهد في الحجرة التي تُعلف فيها الثيران لتسمينها بعض الحيوان مربوطًا حول مقود، ثم نشاهد في حجرة أخرى الثيران التي قد سمنت وهي تُغذى باليد، ويلاحظ أن الثور قد امتلأ جسمه لحمًا وشحمًا؛ لدرجة أنه أصبح من ثقل من وزنه راكعًا على الأرض، والراعي يدس له الطعام في فمه دسًّا.

ذبح الثيران وتجفيف لحمها: وبعد ذلك ننتقل إلى آخر منظر في حياة الثور، وأعني بذلك حظيرة الذبح (متحف المتروبوليتان) فنشاهد هنالك الثيران وقد سيقت إلى قاعة ذات عمد مكوَّنة من طابقين مفتوحة للعراء من جهة واحدة، فهناك تُطرح الثيران

أرضًا بعد أن تعدَّ للذبح، وترى أن في هذه الحظيرة كاتبًا ومعه أدوات الكتابة المؤلفة من جعبة أقلام وقرطاس من البردي يقوم بعملية الحساب، وترى كذلك رئيس القصابين يشرف على عملية الذبح، وطاهيَين يقومان بطهو عصيدة دم على مواقد في ركن الحظيرة، وفي شرفة القاعة قطع لحم معلقة للتجفيف.

أهراء الغلال: ونشاهد أنه بعد أن يحصل «مكترع» على حاجته من اللحم، يهتم بالحبوب التي كانت تعد لطعامه، فنشاهد أهراء الغلال، وترى كتبة يجلسون في ردهته كل يحمل قلمه وقرطاسه ليدوِّن حساب الغلال، ونشاهد في الوقت نفسه رجلين يكيلان القمح بمكاييل خاصة ليوضع في حقائب يحملها طائفة من الرجال ويصعدون في سلم ليضعوها في مخازن عظيمة الحجم بمتحف المتروبوليتان، وقد جلس عند باب الحظيرة «أحدب» وفي يده عصا يشرف على العمل بيقظة حتى لا يترك العمل عامل قبل انتهاء الوقت المحدد.

صناعة الخبز والجعة: ثم ننتقل بعد ذلك إلى مشهد صناعة الخبز والجعة، وقد خُصص لهما بناء واحد، بمتحف المتروبوليتان، فيشاهد في الحجرة الأولى من هذا المبنى امرأتان تطحنان القمح، ثم يُرى رجل يصنع من دقيقه أقراصًا من عجين يلوكها آخر في وعاء، وبالقرب منه نجد العجينة التي تُركت لتختمر في أربعة قدور، وبعد أن تختمر العجينة يشاهَد إنسان آخر يصبها في صف من الأواني المصفوفة وقد أحكمت عليها سداداتها ووضعت مسندة على طول جدار الحجرة، أما في الحجرة الثانية فنجد عملية إنضاج الخبز؛ حيث نشاهد رجالًا يدقون الحبوب بمدقات، ونساء يطحنَّ الدقيق، وآخرين يقلبون العجين ويصنعون منه أرغفة وفطائر في أشكال غريبة، وغيرهم يقومون بوضعها في الأفران.

النسيج والتجارة: أما الأشغال اليدوية فقد عُثر منها على نموذجين: فنجد في صورة نساء يغزلن وينسجن في حانوت، كما يشاهد النجارون يقومون بعملهم في حانوت آخر، وفي حانوت النسيج ثلاث نسوة قد أحضرن الكتان ووضعنه في وعاء ليقوم بنسجه ثلاث نسوة أخر، بعد أن تقوم بغزله نسوة يشاهَدن واقفات، وفي اليد اليسرى لكل منهنَّ مغزل تحركه بيدها اليمنى على ركبتها بمتحف القاهرة، وعندما تمتلئ المغازل بالخيوط المغزولة، توضع محتوياتها على حمالات مثبتة في الجدار المقابل الذي يشتغل النسوة بجواره، ونشاهد في نفس الوقت نساء ينسجن على آلتين (نولين) منصوبتين على رقعة الحجرة.



شكل ٤: حانوت النسيج.



شكل ٥: حانوت النجارة.

ننتقل بعد ذلك إلى حانوت النجار وهو مكوَّن من ردهة مسقف نصفها، وتحتوي على مشحذ لشحذ آلات النجارة وصندوق ضخم يضم الآلات اللازمة؛ ففيه مناشير وقواديم وأزاميل ومخاريز، وهذا الصندوق موضوع تحت الجزء المسقوف من الحانوت (متحف القاهرة)، أما في العراء فيجلس النجارون زمرًا يقومون بقطع الأخشاب الغليظة بالقواديم، ثم يصقلون سطحها بقطع كبيرة من الحجر الرملي، وفي وسط تلك الردهة نشاهد نشارًا ربط قطعة من الخشب في عمود وأخذ في نشرها ألواحًا، وفي مكان آخر نرى نجارًا جالسًا على الأرض وفي يده لوح من الخشب يقوم بثقبه بمثقب ومدقة.

بيته وحديقته: نعود الآن إلى ما أعده «مكترع» لنفسه في حياته الخاصة المنزلية، فنشاهد أنه قد شيد لنفسه حديقتين منقطعتي النظير في كل ما عثر عليه من الآثار المصرية في هذه الناحية.



شكل ٦: البيت والحديقة.

والواقع أن المفتن المصري الذي صنع نماذجهما قد بذل مجهودًا جبارًا في إظهار كل الأجزاء الهامة التي ينتظمها بيت الشريف المصري وحديقته التي تسرِّي عن قلب

صاحبها، وتُدخل عليه الفرح والغبطة بمناظرها البهجة الأنيقة، وجزء من نماذج هذين المنظرين يوجد بمتحف القاهرة والجزء الآخر بمتحف المتروبوليتان وأول ما يلاحَظ أنه قد أقام جدارًا حاجزًا يحجب البيت عن العالم الخارجي، وفي داخل هذا الجدار أنشأ بركَة مستطيلة الشكل صنعها من النحاس حتى يسهل وضع ماء حقيقي فيها، ثم حفَّها بأشجار الفاكهة وأنشأ قبالتها إيوانًا عظيمًا محلًّى بعمد ملونة بألوان نضرة بهجة، وفي نهاية هذا الإيوان أقيم باب رسمي ذو مصراعين، في أعلاه نافذة يدخل منها الهواء والنور، وكذلك أقيم باب آخر صغير للاستعمال العادي، وتشاهد أيضًا نافذة طويلة يخيل للإنسان أنها واجهة البيت نفسه، وقد صُنعت أشجار هذه الحديقة من الخشب، وكل شجرة قد رُكبت فيها أوراقها بعد حبك صناعتها، وهذه الأشجار تمتاز بالبساطة الطبعية التي نشاهدها ماثلة في كل هذه النماذج، أما فاكهة هذه الأشجار فيلاحظ أنها لا تنبت من أغصان الأشجار، بل من سيقانها الأصلية وفروعها.

نماذج سفنه المختلفة: على أن نصف ما عثر عليه من تلك النماذج كان يشتمل على قوارب وزوارق من التي تجري في النيل والبحر، ولا غرابة في ذلك فإن الشريف في تلك الأزمان كان في حاجة ماسة إلى القيام بأسفار في النيل جنوبًا وشمالًا ليدير أملاكه المبعثرة أو ليقوم بما عليه من الواجبات في إدارة حكومة البلاد، ولقد كانت الأسفار في الأزمان الغابرة دائمًا بالنيل في القوارب، وكان لعظماء القوم بطبيعة الحال سفنهم الخاصة بهم للسياحة والنزهة، ولا يدهشنا ذلك؛ لأن النيل والمستنقعات كانت هي مسرح المصريين في غدواتهم وروحاتهم، ومن أجل ذلك كان نصف النماذج التي عثرنا عليها قوارب وسفنًا لتقوم بسد حاجات «مكترع» في عالم الآخرة الذي لم يكن في نظر المصري إلا صورة من عالم هذه الدنيا كما ذكرنا.

على أن «مكترع» قد عاش في عصر يبعد جيلًا أو جيلين عن العصر الذي ظهرت فيه الشعائر الدينية الجديدة في الوجه القبلي، وهي التي كانت تتطلب من المصري أن يجهز نفسه بقارب مقدس ليصحب الشمس في سياحتها، ونتشكك كثيرًا في أن «مكترع» قد أعدَّ واحدًا من هذه القوارب لغرض جنازي، بل الواقع أنها كانت نماذج لسفن عادية من التي كانت تمخر عباب النيل صعودًا وهبوطًا منذ أربعة آلاف سنة مضت.

ويوجد من بين هذه القوارب المصغرة أربعة، وطول الواحد منها في الأصل نحو أربعين قدمًا، وقد صنع نموذجه في نحو أربعة أقدام فقط، ويحتوي القارب على عدد من الملاحين يتراوح بين اثني عشر وثمانية عشر عدا الرعاة والرماة والضابط.

وكانت هذه القوارب عندما تقلع نحو الجنوب إلى أعالي النيل سائرة مع الريح الشمالية، تنشر فيها أربعة من الشرع، ونشاهد النواتي الصغار يثبتون الأمراس ويشدون حبال الشرع بمتحف القاهرة ولكن في العودة عند الانحدار مع تيار النيل حيث يضاد التيار الريح؛ تخفَض السارية، ويُلَف الشراع على سطح السفينة، ويشتغل الملاحون بالمجاديف، كما نشاهد اليوم في قوارب النيل. وترى في كل من هذه القوارب الشريف «مكترع» جالسًا على فراش وثير فوق كرسي، وفي يده زهرة يشم عبيرها، كما يشاهَد ابنه جالسًا بجانبه، وفي الجانب الآخر منه مغنٍّ يمسح فمه ليجلو صوته للغناء، وفي إحدى هذه المناظر ترى بجوار المغني عوَّادًا ضريرًا، وقد وضع عوده على قاعدة من الخشب بين ركبتيه (متحف المتروبوليتان)، ومما تجدر ملاحظته في أحد هذه القوارب أن الصانع كان يتوخى تمثيل الحقيقة إلى درجة تثير الإعجاب والضحك معًا؛ إذ نجد في حجرة قارب من هذه النماذج مدير البيت ممثلًا جالسًا وبجانبه كوَّة، فيها حقيبتان مستديرتان في النهاية تشبه كل منهما تلك التي كانت تستعمل منذ جيلين من الزمان عندنا للسفر (متحف القاهرة).



شكل ٧: قاربان تصيد السمك.

ولم تكن سفن النهر في هذا الوقت كبيرة الحجم؛ ولذلك لم يكن يطهَى الطعام فيها، بل كان يهيَّأ للمطبخ قارب خاص يسير وراء القارب الكبير وعند تناول الطعام كان يُربط به، (متحف المتروبوليتان). هذا؛ ويشاهَد على سطح القارب نساء يطحنَّ

ورجال يعجنون أحيانًا بأيديهم وأحيانًا بأرجلهم، ثم يقتطعون الرغفان من العجينة بأيديهم. وكذلك نرى في حجرات القوارب قطع اللحم معلقة، ورفوفًا صُفت عليها أواني الجعة والنبيذ، وأظن أن ذلك منتهى ما يمكن رؤيته من ضروب البذخ وحياة الرفاهية والنعيم في عصرنا.

أما في السياحات القصيرة الأمد أو النزهة فكانت تُستعمل قوارب نزهة صغيرة ضيقة الحجم ذات لون أخضر، قيدومها، ومؤخرتها معقوفان، وعندما يكون الريح ساكنًا ملائمًا يرفع الملاحون السارية، وينشرون الشراع المربع الشكل، وهو الذي كان يُستعمل في سفن السياحة، أما إذا كان معاكسًا فكانت تُنزَّل السارية ويطوى الشراع ويقوم ستة عشر نوتيًّا بالتجديف (متحف المتروبوليتان) ومثل هذه القوارب كانت خالية من حجر النوم، وكان الشريف وابنه يجلسان تحت قبة صغيرة مفتوحة.

أما إذا خرج الشريف لصيد الطيور والسمك فكان يستعمل لهذا الغرض قاربًا صغيرًا (متحف المتروبوليتان) وكان يقف في مقدمته الصيادون بمقامعهم، وإذا صيدت سمكة عظيمة الحجم جرت من حافة القارب إلى داخله، ويلاحظ أنه قد ربط في جانب حجرة القارب عمد وأوتاد خاصة بشباك الطير، وترى في القارب ولدًا وابنة قد أحضرا إوزًّا حيًّا مما اصطاده الشريف وابنه، ويشاهَدان جالسين فوق سطح القارب، ثم نشاهد أخيرًا قاربين من الغاب يجرَّان شبكة عظيمة مفعمة بالأسماك؛ ويلاحظ أن كل قارب من هذين يجدف فيه رجلان، وفي وسط القارب يقف صيادو السمك وهم يجرون الشبكة ومعهم مساعد يأتي بالسمك إلى القارب (متحف القاهرة).

على أن الأهمية العظمى التي نستخلصها من نماذج السفن هذه منحصرة في المعلومات التي نصل إليها عن كيفية تجهيز السفن بالأمراس والأشرعة والمجاديف، فقد وجدناها تامة إلى حدٍّ بعيد جدًّا ومُحكمة الترتيب والإتقان، ومحفوظة بحالة جيدة لدرجة أن في إمكاننا مشاهدة أمراس القارب وعقده سليمة جدًّا، وكذلك وجدنا المجداف الذي يحرك السكان في حالة جيدة يمكننا بها فحصه تمامًا لأول مرة، وقد ذكر لنا الأستاذ «ونلك» أنه في صيف عام ١٩٢١ قد بعث الدهشة والعجب في نفوس أهالي ساحل «مين» في الولايات المتحدة إلى درجة يقصر عنها الوصف عندما جهز قاربًا بأمراس وآلات لقارب صُنع على نمط قوارب الأسرة الحادية عشرة، فقد صنع مجاديف عظيمة الحجم كالتي على القوارب المصرية، ثم أقام فيها أعمدة لسكان القارب، ووضع المجاديف في أماكنها، ونقل كل الحركات التي كان يقوم بها المصريون في تجديفهم، وقد أسفرت التجربة عن نجاح باهر جدًّا.

(٦) الحروب الداخلية (٢٠٠٧–٢٠٠٠ق.م)

لقد كان الفرعون «سعنخ كارع» يأمل أن يتولى العرش بعد وفاته بكر أولاده، ومن النقوش المهشمة التي عثر عليها في الكرنك[٣] نجد أن «سنوسرت» (الوالد المقدس) (وهو لقب ديني) قد جاء بعد اسم هذا الفرعون مباشرة، وذلك يذكرنا «بالوالد المقدس» (أنتف) الذي كان وارثًا للفرعون «نب حبت رع» حتى عام ٣٩ من حكمه على أقل تقدير، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

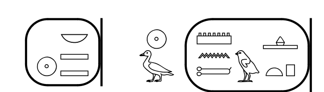
سنوسرت (الوالد المقدَّس)

غير أننا لا نعلم من مصير «سنوسرت» هذا إلا أنه اختفى من مسرح التاريخ قبل أن يلبس تاج البلاد فعلًا؛ وقد أعقب ذلك سبع سنوات مليئة بالفوضى والاضطرابات حسب قول «ونلك» (Winlock J. E. A. Vol. XXVI. P. 118) ومن المحتمل أن «سنوسرت» هذا قد قُتل ولم يترك لنا أي أثر في مخلفات هذا العصر بقدر ما وصلت إليه الكشوف حتى الآن.

---

[٣] Chevrier A. S. (1938) P. 601.

الملك «نب تاوى رع» منتو حتب الرابع



وهؤلاء الذين كافحوا للاستيلاء على العرش مدَّة خمسة الأعوام التي تلت موت «سعنخ كارع» لم يتركوا لنا أي أثر يثبت وجودهم أو شخصيتهم إلى أن نجد ملكًا يظهر لمدَّة قصيرة باسم «منتو حتب»، وقد بقي المكان الذي يجب أن يحتله هذا الفرعون في قائمة ملوك هذه الأسرة غامضًا إلى أن كشف الأستاذ «ونلك» النقاب عن أثر معاصر من عهد هذا الفرعون، الذي كان يسمى «نب تاوى رع» وهذا غير نقوشه التي عثر عليها في وادي الحمامات وغيرها من الأماكن الأثرية، التي سنتكلم عنها فيما بعد.

وهذا الأثر قطعة صغيرة من إناء إردوازي، وقد عثر عليه منذ عدَّة أعوام بين قطع من حفائر متحف «مترو بوليتان» التي عملت في اللشت، وهذا الإناء كان قد صُنع ليستعمل في المعبد، وقد وُجد في داخله نقش وهو الاسم الحوري «وحم نسوت» للملك أمنمحات الأول رأس ملوك الأسرة الثانية عشرة، وقد استعمل الإناء في معبده؛ إذ قد وجد في داخله، غير أن الفحص قد أظهر أنه لم يكن قد صُنع خصيصًا لمعبد «أمنمحات» الأول؛ لأنه قد وجد منقوشًا على ظاهر الإناء بخط مختلف صغير:

> «حور نب تاوى بن رع» منتو حتب محبوب حتحور سيدة دندرة معطي الحياة أبد الآبدين.

ولا نزاع في أن الاحتمال ضئيل جدًّا في أن يكون مثل هذا الأثر القليل القيمة قد عاش بعد حكم «سعنخ كارع» الذي مكث على العرش اثني عشر عامًا، إلى أن أتى به إلى

العاصمة الجديدة (اللشت) ويتضاءل الاحتمال أكثر إذا حكمنا بأن هذا الإناء قد عاش مدة الإحدى والخمسين سنة التي حكمها «نب حبت رع». وعلى ذلك نرجح أن تاريخ هذا الإناء يرجع إلى تاريخ بعد حكم هذين الملكين في الأسرة الحادية عشرة، وبذلك يكون الملك «نب حبت رع» هو صاحب الإناء ومن بين مخلفاته، هذا فضلًا عن أن الرابطة بين تتابع الاسمين بوجودهما على إناء واحد توحي بأن «نب تاوى رع» كان السلف المباشر للفرعون أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، غير أن هذا الفرعون قد حُذف من ورقة تورين لأسباب سنذكرها بعد.

وعلى أية حال فإننا نبحث في عصر مظلم، ولذلك ليس هناك ما يدهشنا إذا كنا لا نعلم عن أصل «نب تاوى رع» أكثر من ذلك بالنسبة لما نعرفه عن غيره ممن ذُكر اسمه على جزء من قائمة الملوك التي وجدت منذ بضعة أعوام مضت في الكرنك، فقد بقي على الجزء المحفوظ من هذه القائمة ثلاثة أسماء وهم: «نب حبت رع» و«سعنخ كارع»، وقد كتب كل منهما في خرطوش، أما الاسم الثالث الذي ذُكر بعدها مباشرة فيدعى الأب المقدس «سنوسرت» ولكنه لم يوضع في طغراء. والظاهر أنه كان ابن الأخير غير أنه قد مات قبل أن يتوَّج كما ذكرنا من قبل.

ونجد إذن كما فهمنا من النقوش التي على قطعة الإناء أن الأسرة الثانية عشرة قد سبقها ملك مشكوك في شرعيته لتولي عرش البلاد، وقد تولى عرش البلاد فعلًا، غير أن اسمه لم يظهر في قوائم الملوك التي ألفت بعد عهده، ومن المحتمَل أنه كان هناك مدَّعون للعرش غيره لم تصل إلينا أسماؤهم، والمختصر الذي جاء في ورقة تورين عن سني حكم ملوك الأسرة الحادية عشرة عند نهايتها هو كما يأتي: مجموع الملوك ستة حكموا ١٣٦ سنة، مضافًا إلى ذلك سبع سنوات فيكون المجموع ١٤٣ سنة، من ذلك المائة والست والثلاثون سنة التي حكمها ستة الملوك الذين ذكرناهم فيما سبق، وهم الملوك المعترف بهم شرعًا، أما سبعة الأعوام المضافة فكانت عهد فوضى، وهي عبارة عن الفترة التي تطاحَن فيها سنوسرت الوالد المقدس ونب تاوى رع وغيرهما على تولي العرش الذي فاز به الأخير مدة وجيزة، ثم انتزعه منه «أمنمحات الأول» مؤسس الأسرة الثانية عشرة كما سنرى. وخلاصة القول أن «نب تاوى رع» الذي وجد اسمه على قطعة الآنية هو الذي نجح أخيرًا في تولي الملك، والواقع أن الآراء كانت في غالب الأحيان تميل إلى جعل الوزير أمنمحات هو الملك الذي خلف «نب تاوى رع» على عرش البلاد، وتدل الشواهد الآن على أن هذه النظرية يمكن قبولها، وبخاصة بعد العثور على قطعة الإناء التي عليها النقوش السالفة الذكر.

أما منتو حتب نفسه الملقب «نب تاوى رع» فكان معروفًا لدينا من نقوشه في وادي الحمامات (Couyat et Montet, Ibid, No. 110 a. b. 191, 192, Breasted, A. R. Vol. 1, 434–53).

فنجده عليها يسمى «حور نب تاوى — رب الأرضين — وصاحب الإلهتين (نب تاوى، حور الذهبي نتر-نتري) الواحد المقدس — ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نب تاوى رع» بن الشمس منتو حتب العائش مخلدًا.»

ويجوز رغم ما يحمل من الألقاب الطنانة أنه ليس صاحب حق شرعي في العرش؛ لأن والدته على ما يظهر كانت من عامة الشعب؛ إذ كانت تلقب «أم الملك أمي»، أما والده فلم يُذكر قط في النقوش، وقد قبض «نب تاوى رع» على صولجان الحكم فعلًا، وقد نقش له وزيره «أمنمحات» أربعة نقوش مؤرَّخة الاحتفال الأول بعيد «سد» في السنة الثانية، الفصل الأول، الشهر الثاني، اليوم الثالث، وفي اليوم الخامس عشر واليوم الثالث والعشرين واليوم الثامن والعشرين من نفس الشهر أو بالتاريخ الحالي من ١٤ يناير إلى ٨ فبراير؛ إذ كانت هذه السنة هي سنة ٢٠٠١ق.م، أو ما يقرب من ذلك (Winlock J. E. A. Vol. XXVI. P. 118).

(١) بعوث هذا الملك إلى وادي الحمامات

ونقوش وادي الحمامات التي تُنسب إلى حكم هذا الملك تعد من أهم النقوش التي وصلت إلينا من العهود القديمة، وليس ذلك لأنها تُحدثنا عن جلب الأحجار من هذه الجهات وحسب، بل لأنها تُحدثنا عن المعجزات التي وقعت في سينا، بالإضافة إلى أن الحملة صارت بقيادة «أمنمحات» الوزير العظيم الذي آل إليه الملك بعد سيده وأسس دولة جديدة. وفي هذه النقوش يشرح لنا هذا القائد بنفسه كل الأعمال بالتفصيل، ومع أنه كان من المألوف عند كبار رجال الدولة في مصر ألا يتورعوا ولا يخجلوا من التحدث عن أعمالهم العظيمة وخدماتهم التي قاموا بها لفرعون البلاد، فإن «أمنمحات» قد غالى مغالاة كبيرة في هذه الناحية؛ حتى إن لوحته التي أقامها في وادي حمامات كانت تتحدث عن مناقبه ومفاخره أكثر من الفرعون نفسه.

أسطورة الغزالة أثناء الحملة

وتبتدئ قصة حملته إلى وادي حمامات، بعد ذكر تاريخها بحادث كان يعتبر بمثابة معجزة في أعين عمال الوزير الأول، وقد أوحى بها من السماء إليهم! هذه المعجزة التي حدثت لجلالته هي؛ أن وحوش الجبال نزلت له منها؛ إذ جاءت غزالة عظيمة ومعها وليدها وقد اقتربت بوجهها نحو القوم، على حين أن عينيها كانتا ملتفتتين إلى الخلف، ولكنها لم تدِر عينيها حتى وصلت إلى هذا الجبل الفاخر عند الكتلة (التي كانت تجهز لتكون غطاء تابوت الفرعون) وكانت لا تزال عالقة بموضعها في الصخر، وفي النية قطعها لتكون غطاء هذا التابوت، فوضعت الغزالة وليدها عليها، وكان جيش الملك ينظر إلى ذلك، وعندئذ قطعوا رقبتها أمام كتلة الحجر، وأحضروا نارًا ليقربوا قربانًا، وبعد ذلك انفصلت الكتلة بسلام (أي قُطعت بسهولة).

وكان جلالة هذا السيد العظيم رب الصحراء الذي منح ابنه «نب-تاوى-رع» (منتو حتب الرابع) عاش مخلدًا: هذا القربان ليكون قلبه فرحًا ويبقى على عرشه أبد الآبدين، ويحتفل له بملايين الأعياد «سد» ثم يأتي بعد ذلك ذكر ألقاب «أمنمحات» الأمير الوراثي والشريف وحاكم المدينة والوزير، ورئيس أشراف مصلحة العدل كلهم، والمشرف على كل ما تجود به السماء وتنبته الأرض وما يجلبه النيل، والمهيمن على كل شيء في البلاد كلها، الوزير «أمنمحات» ومن مختصر ألقاب هذا الوزير نعلم أنه لم تعوزه المشاغل ليصرف فيها وقته؛ إذ يظهر أنه كان المشرف على كل شيء في السماء وفي الأرض وفي الماء وتحت الأرضين، على أن ما ذكرناه هنا ليس إلا مقدمة لحوادث الحملة نفسها؛ وذلك أنه بعد حدوث هذه المعجزة باثني عشر يومًا أخذ «أمنمحات» ينقش على الصخر الغرض الرسمي الذي من أجله أُرسلت الحملة ومدى نجاحها.

وتبتدئ النقوش بأن الملك أمر بإقامة لوحة:

> لقد أمر جلالته بأن تُنصب هذه اللوحة لوالده الإله «مين» رب الصحراء في هذا الجبل الفاخر الأزلي.

ثم بعد ذلك كلام لا فائدة من ذكره. يقول الفرعون «منتو حتب»:

> لقد أرسل جلالتي الأمير الوراثي، حاكم المدينة والوزير، ومدير الأشغال والمقرَّب عند الملك «أمنمحات» جيشًا يبلغ عدده ١٠٠٠٠ رجل من المقاطعات

الجنوبية من مصر الوسطى … مقاطعة الغزال ليحضر لي من هذا الجبل من الحجر النقي الثمين الذي خلق صفاته الممتازة الإله «مين» لأصنع منها تابوتًا أبديًّا ولأصنع آثارًا في معابد مصر الوسطى، وذلك حسبما يرسل ملك الأرضين ليحضر لنفسه ما يتوق إليه قلبه من أرض والده «مين» الصحراوية، وقد جعل هذه الآثار لوالده «مين» رب الصحراء ورئيس البدو؛ حتى يتسنى للفرعون أن يقيم عدة مرات أعياد «سد» وهو حي كالإله «رع» الخالد.

لوحة الوزير «أمنمحات»: أما «أمنمحات» فقد أقام لنفسه لوحة في نفس اليوم، ولكن ما جاء فيها من الإشادة بذكر نفسه ومناقبه يتضاءل أمامه كل شيء ذكره عن مناقب سيده «منتو حتب» فهو يقول: «في السنة الثانية الشهر الثاني من الفصل الأول، اليوم الخامس عشر من الشهر: المهمة الملكية التي قام بتنفيذها الأمير الوراثي، والشريف، وحاكم المدينة، والوزير، والمقرب من الفرعون، ورئيس الأشغال، والمتفوق في وظيفته، والعظيم في درجته، صاحب المكان العالي في بيت سيده، والمشرف على الموظفين، ورئيس محاكم القضاء الست، والقاضي بين الناس والأهلين، والذي يسمع القضايا، والذي يأتي إليه الحكام راكعين، وأهل كل الأرض ساجدين على بطونهم أمامه، والذي يدرج به سيده إلى المعالي في وظائفه، ومحبوبه بوصفه حارس باب الجنوب، والذي يقود إليه الملايين من الناس ليعملوا له كل ما يحبه قلبه نحو آثاره، والمخلد على الأرض، وممثل فرعون في مصر العليا والعظيم عند الملك في مصر السفلى، ومدير القصر، والذي يقضي دون محاباة، وحاكم كل الصعيد، والذي يخبر بكل ما حدث وما سيحدث، ومدير إدارة سيد الأرضين، وقائد القواد، ومرشد الرؤساء، ووزير الملك في مجالسه «أمنمحات»، تلك هي ألقاب «أمنمحات»، ولا شك أنه كان متأكدًا بأن سيده لن يرى كل هذه الألقاب والوظائف الذي أغدقها وزيره على نفسه عن سعة؛ وإلا لحق «لمنتو حتب» أن يتساءل بم يصف هذا الرجل الملك نفسه إذا كان قد كال لنفسه كل هذه النعوت؟»

والآن نعود إلى ما يقوله الوزير عن بعثته: «لقد بعثني سيدي ملك القطرين «نب تاوى رع» كما يبعث إنسانًا امتاز بالصفات المقدسة ليقيم آثاره في هذه الأرض، وقد اختارني على مرأى من مدينته، وفضلني على رجال بلاطه، والآن أمر جلالته أن يسير إلى هذه الصحراء المقدسة جيشًا بقيادتي مؤلفًا من خيرة رجال البلاد كلها من عمال مناجم، ورجال حرف، وحجارين ومفتنين ورسامين، وقاطعي أحجار وصياغ، ورجال مالية الفرعون، ومن كل مصلحة للبيت الأبيض (بيت المال) ومن كل مصالح القصر؛ كل

هؤلاء كانوا في ركابي، ولقد جعلت من الصحراء نهرًا، ومن الوديان العالية مجاري ماء، وأحضرت للملكي تذكارًا أبديًّا خالدًا لم يؤتَ من الصحراء بمثله منذ عهد الإله (أي منذ أقدم العهود)، ولقد عادت جنودي دون أن تحيق بهم خسارة، فلم يمت واحد ولم يضل الطريق منهم فرد، ولم ينفق حمار، ولم يصَب عامل واحد ضعفًا، وقد حدث ذلك تمييزًا لجلالة سيدي، على يد الإله «مين»؛ لأنه يحب سيدي حبًّا جمًّا، ولأجل أن يُكتب البقاء لروحه على العرش العظيم في مملكة قطري «حور» (أي الوجه القبلي والبحري) …

وإنى خادمه المقرَّب الذي ينفذ جميع ما يمتدحه كل يوم.»

وبعد انقضاء ثمانية أيام على هذا النقش أمر بحفر نقش آخر يظهر فيه عطف الإله «مين» عليه والمعجزة التي عملها له.

وقد أخذ الواحد «الإله مين» يعمل في هذا الجبل لإتمام غطاء التابوت، وقد تكررت المعجزة؛ إذ تساقط المطر وظهرت أشكال الإله وتجلت شهرته للناس، فانقلبت الصحراء بحيرة وجرى الماء حتى وصل إلى حافة الحجر، وعُثر على بئر في وسط الوادي أبعادها ١٠ × ١٠ أذرع مملوءة بالماء العذب حتى الحافة لم يمسسه سوء، وحُفظ نقيًّا نظيفًا من عبث الغزلان، وبقي محجوبًا عن أعين البدو المتوحشين، وقد كان جنود الأزمان السالفة والملوك الغابرين يروحون ويغدون بجواره، ومع ذلك لم ترَه عين ولم يلمحه وجه إنسان، ولكنه كُشف لجلالته … ومن كان في مصر قد سمع به، وطأطأ القوم الذين كانوا في صعيد مصر وريفها رءوسهم وحمدوا طيبة جلالته أبد الآبدين.

عودة الحملة إلى مصر

وبعد خمسة أيام من تاريخ النقش المتقدم ختم «أمنمحات» بعثته هذه بالنقوش الآتية:

> في اليوم الثامن والعشرين فُصل غطاء هذا التابوت من الحجر، وهو كتلة أبعادها ٤ × ٨ × ٢ أذرع، وذُبحت الماشية والماعز وأُحرق البخور، وسار في ركابه جيش مؤلف من ٣٠٠٠ جندي من المقاطعات الشمالية (الدلتا) ساروا معه في سلام إلى مصر.» وبذلك يتضح لنا أن جنود مصر كانوا رجال أعمال في زمنهم، ويمكن أن نشبههم بالجنود الإنجليزية الحاليين، فهم من الصنف الذي يُعتمد عليه في جرِّ الأثقال وحملها، ويلاحظ هنا أننا أسرفنا في وصف بعثة «أمنمحات» إسرافًا عظيمًا، وليس ذلك إكرامًا لجلب تابوت من وادي

حمامات أبعاده ٤ × ٨ × ٢ من الأذرع؛ بل لأن هناك أمرًا آخر أعظم خطرًا؛ إذ الواقع أن هذه البعثة هي البرهان الوحيد الذي بين أيدينا عن نمو قوة عظيمة خلف قوة العرش، وهي التي يحتمل جدًّا أنها ستسيطر على العرش فيما بعد كما تدل كل الظواهر على ذلك، وإن كان البرهان القاطع لا يزال يعوزنا في هذا الموضوع.

بعثة القائد سعنخ

على أنه لم يكن «أمنمحات» هو القائد الوحيد الذي قام بحملات في الصحراء في عهد «منتو حتب»؛ إذ قام «سعنخ» قائد جنود الصحراء بحملة في تلك الصحاري حتى وصل إلى البحر الأحمر، وأحضر معه أسرى من البدو؛ ليستعمروا واحة «سليمة»، وكذلك أحضر معهم ماشيتهم، وبذلك أصبح كل الإقليم الجبلي والصحراوي الواقع في الشرق تحت إدارة مقاطعة «منعات خوفو» (بني حسن) في مصر الوسطى. ومنذ ذلك العهد أصبحت البعثات التي ترسَل إلى بلاد «بنت»، المشهورة وقتئذ بروائحها العطرية وبالبخور، لا تذهب عن طريق السويس، كما كانت الحال من قبل، بل صارت تخرج من قفط إلى وادي حمامات ثم البحر الأحمر، حيث أسست مينا «ساوو» (وادي جاسوس الحالية الواقعة في شمالي القصير)، ويبتدئ نقش القائد «سعنخ» كالآتي: «نب-تاوى-رع» (منوحتب الرابع) عاش مخلدًا، ثم يذكر ألقاب «سعنخ»: قائد جنود الصحراء، ومدير بيت الفرعون، وقائد الأسطول النهري. سعنخ يقول:

> لقد كنت قائد جنود هذه الأرض قاطبة في الصحراء مجهزًا بقرب الماء والسلات، والخبز والجعة، وكل الخضر اليانعة من الجنوب، ولقد جعلت وديانها حقولًا خضراء وتلاعها برك ماء جارٍ، وعمرتها بالسكان كلها من الجنوب إلى «زاو» ومن الشمال إلى «منعات خوفو» (بني حسن)، وقد توغلت في سيري حتى البحر الأحمر، وأسرت شبانًا، واستوليت على ماشية، وجبت الصحراء رغم أني كنت في الحول الستين من عمري، ولي سبعون حفيدًا من أولاد زوجة واحدة، ولقد نهضت بإتمام كل شيء على الوجه الأكمل للفرعون «نب-تاوى-رع» منتو حتب عاش مخلدًا.

(٢) وادي الهودي واستغلاله

وتدل الكشوف الحديثة على أنه أول من استغل وادي الهودي، الذي كان يجلب منه حجر الجمشت المستعمل كثيرًا في الدولة الوسطى. وقبل أن نتكلم عن بعوثه إلى هذه الجهة سنورد كلمة عن وادي الهودي وعن حجر الجمشت نفسه.

يقع وادي الهودي[١] في الصحراء الشرقية على بعد أربعين كيلومترًا تقريبًا جنوب شرقي أسوان، وظل هذا المكان مجهولًا حتى عام ١٩٣٨ عندما كانت مصلحة المساحة المصرية تقوم بعمل مصورات لهذه المنطقة، فعثر أحد مهندسيها على لوحة من الحجر الجيري، فأبلغ الأمر إلى تفتيش آثار أسوان.

وعندما ذهب المفتش إلى هناك أحضر اللوحة وأحضر لوحتين أخريين، عثر عليهما هناك، وقد نشر المستر «الن دو» والمسيو «دريتون» هذه اللوحات الثلاث في مجلة أخبار المصلحة عام ١٩٣٨،[٢] وترجم المسيو «دريتون» كلمة «حسمن»، التي كانت الغرض من رحلة صاحب اللوحة بأنها «النحاس». ولما علم البدو بهذا المكان ذهب الكثيرون لسرقة الأحجار، ولكن لحسن الحظ أسرع المستر «مري» مدير المساحة الطبوغرافية بنقل الكثير منها إلى أسوان. ومن عام ١٩٤٢ ذهبت إلى المنطقة لمعاينتها فوجدت الكثير من اللوحات الأخرى والكتابات على الصخور، وتكررت الزيارة في عام ١٩٤٣، ١٩٤٤ حيث نُقلت النقوش بأكملها ودُرست المباني التي حولها التي كان يقيم فيها العمال، كما وجدت نقوشًا أخرى في الوديان المحيطة بالمنطقة.

واتضح من دراسة الجهة جيولوجيًّا أنه لا يوجد بها أي أثر للنحاس، بل على العكس فإن هذه النقوش كانت في منطقتين رئيسيتين كل منها بجوار محجر (منجم) كبير يحميه حصن، وهذا المنجم ما زالت فيه بقايا الأماتيست.

وبالرجوع إلى القاموس نرى أن من معاني «حسمن» معنى غامضًا، وهو أنه مذكور ضمن الأحجار نصف الكريمة، وبدراسة المصادر المختلفة، وخاصة ورقة بردية هاريس نرى في الأجزاء الخاصة بحصر هدايا الملك للمعابد أن هناك تماثيل صغيرة وعقودًا

---

[١] هذه الكلمة التي نكتبها عن وادي الهودي هي للأستاذ أحمد فخري الأمين المساعد بالمتحف المصري، وإليه يرجع الفضل في السماح لي بنشر اللوحات التي عُثر عليها في هذه الجهة.

[٢] A. S. IXXXIX P. 187 ff.

وجعارين من الحسمن مذكورة دائمًا بين مثيلاتها المصنوعة من العقيق والبللور الصخري وأشباهها، وبذلك نؤكد أن معنى كلمة «الأماتيست» (حجر الجمشت) بالهيروغليفية هو كلمة «حسمن».

والنقوش التي عثر عليها في هذه المنطقة يزيد عددها عن ١٣٠، بعضها هام ذو قيمة تاريخية ولغوية، والبعض الآخر لا يعدو رسمًا صغيرًا لرجل أو لحيوان، وبعضها منقوش على الصخر نفسه، والبعض الآخر على لوحات قائمة بذاتها يسهل نقلها؛ فنقلتها كلها إلى أسوان.

ويبدأ تاريخ استغلال هذه المناجم إلى عصر الملك «منتو حتب-نبتاوى-رع» ويستمر استغلالها إلى الأسرة الثالثة عشرة، وأكثر اللوحات وأهمها هي؛ إما من عصر «منتو حتب الرابع» أو عصر سنوسرت الأول.

ومما يجدر ذكره أنه ليس هناك أثر لاستغلال هذه المناجم بعد عصر الدولة الوسطى إلا في أيام الرومان فقط.

وهناك حقيقة هامة؛ وهي أن علماء الآثار كانوا دائمًا يتساءلون عن مصدر الأماتيست الجميل الزاهي اللون الذي كثر استعماله بوجه خاص في الدولة الوسطى، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فبالعثور على هذه المنطقة تأكد لدينا مصدر هذا الحجر الكريم، ومما يستحق الذكر أيضًا أن الكثيرين ممن وردت أسماؤهم في لوحات وادي الهودي باعتبارهم رؤساء بعثات كانوا يقومون برحلات أيضًا إلى وادي الحمامات وإلى سينا.

بعوث الفرعون «منتحوتب الرابع» إلى وادي الهودي

وتدل الكشوف[٣] التي عملت في وادي الهودي حديثًا على أن هذا الفرعون قد أرسل بعوثًا لاستحضار حجر الجمشت (الأماتيست) الذي كثيرًا ما عرفنا أنه كان مستعملًا في عهد الدولة الوسطى، وبخاصة في عهد الأسرة الثانية عشرة، وقد عثر في وادي الهودي على أربع لوحات لموظف كبير اسمه «أنتف بن بتاح شدو».

[٣] هذه اللوحات التي نترجمها هنا ترجمة سطحية قد كشف عنها الأستاذ أحمد فخري، ولم تُنشر بعد، وقد استأذنته في وضع ملخص لها هنا.

وقد كان أنتف هذا في السنة الأولى من حكم الفرعون يلقَّب «مدير البيت ومدير القافلة أو مدير المترجمين»، وفي السنة الثانية؛ أي في رحلته الثانية كان يلقب حامل الخاتم ومدير البيت، ففي رحلته الأولى؛ أي في السنة الأولى من حكم «نب تاوى رع» جاء في لوحته:

> السنة الأولى ملك الوجه القبلي والبحري «نب تاوى رع» (رب الأرضين رع مدير القافلة أنتف خادمه الحقيقي ومحبوب قلبه، والذي يفعل ما يمدحه مدير البيت «أنتف» بن بتاح شدو).

وفي اللوحة الثانية يقول:

> السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلي والبحري «نب تاوى رع» مثل رع الخالد.
>
> إنه مدير البيت أنتف بن بتاح شدو، وهو الذي أرسله ليحضر هذا الجمشت في بعثة بوصفه مدير القافلة «أنتف» المدير الأعظم لبيت سيده … ورئيس … والذي يفعل ما يمدحه ومحبوب قلبه … المبرَّأ.

وقد جاء في اللوحة الثالثة نفس الاسم واللقب غير أن بها بعض كسور يتعذر معها حل نقوشها.

أما اللوحة الرابعة وقد أرِّخت بالسنة الثانية من حكم هذا الفرعون فقد جاء فيها ما معناه أن «أنتف هذا الذي كان حامل الخاتم ومدير البيت، ومدير التراجمة قد خرج ليحضر الجمشت من أرض «نخنت»، والظاهر أنه قهر العبيد السودانيين في «واوات» وقهر أولئك الذين في جنوبي النوبة وفي شماليها، وأنه عاد سالمًا ونفذ كل أوامر سيده.»

ومما سبق نرى أن هذا الفرعون لم يضيِّع شيئًا من أيام حكمه المعدودات، ولكن يظهر أن «أمنمحات» خادمه العزيز الذي يفعل كل ما يحبه سيده؛ لم يبقَ على إخلاصه له وولائه لعرشه، فيظهر أنه بعد عودته من بعثته في الصحراء كان قد اتخذ العدَّة لاعتلاء العرش الذي كان يجلس عليه سيده «نب تاوى رع» وأن يناضل من ينازعه هذا المطمح.

ولا بد أن «أمنمحات» قد ولد في مدينة «طيبة» رغم العلاقة البعيدة التي تربط جده بالأشمونين وهي عادة وطن «آمون» الأصلي. وقد مر علينا سميٌّ له قد مات في

«طيبة» منذ تسعين سنة مضت، وعلى ذلك فإنه لا بد قد وُلد وسُمي كذلك بهذا الاسم في عهد «واح عنخ» أما عن الحوادث التي أدت إلى نهاية حكم «نب تاوى-رع» القصير واعتلاء «أمنمحات» العرش بعده فلا نعلم عنها شيئًا مطلقًا، وكل ما يمكن قوله على وجه التأكيد هو أن «أمنمحات» انتحل لنفسه اسم تتويج يذكرنا باسم تتويج الفرعون «سنعخ كارع»، آخر ملك شرعي للأسرة الحادية عشرة، وعلى ذلك أسس «أمنمحات» باسم «سحتب أب رع» (مُدخل السرور على قلب رع) الأسرة الثانية عشرة.

نظام الحكم في العهد الإقطاعي الأول
في حكومة العهد الإقطاعي بالدلتا

مقدِّمة

إن أقدم عهد إقطاعي معلوم لنا من النقوش المصرية هو العصر الذي جاء بعد تفكك الدولة المتحدة التي قامت في مصر في عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة، ثم بدأ عصر الانحلال في أوائل الأسرة السادسة، وتحولت المديريات القديمة إلى إمارات وراثية قامت على الأعطية التي كان يهبها الملك الأمراء المستقلين الذين لم يكن له سلطان عليهم منذ سنة ٢٥٠٠ق.م، اللهم إلا السلطة الشخصية التي كانت للملك على أتباعه. وهذا العصر الإقطاعي يمتد من أواخر الدولة القديمة حوالي سنة ٢٤٧٥ إلى بداية الأسرة الحادية عشرة، حوالي سنة ٢١٤٠ق.م، وفي هذه الأثناء كانت الوحدة المصرية في طريق التكوين ثانية تحت حكم أسرة كان ينتخب ملوكها على ما يظهر، ولكنها أصبحت فيما بعد وراثية في عهد الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٠٠٠ق.م، وقد حلت هذه الأسرة بدلًا من الإقطاعيات المفككة التي كانت تتألف منها البلاد فكونت مملكة إقطاعية متحدة مهدت السبيل إلى الدولة الحديثة التي بدأت بالأسرة الثامنة عشرة حوالي سنة ١٥٨٠ق.م.

والواقع أن هذا العهد الإقطاعي الذي مكث نحو ثلاثة قرون منذ الأسرة الثامنة إلى نهاية الأسرة العاشرة بقي مجهولًا لنا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الوثائق عنه قليلة، وكل ما لدينا ينحصر في بعض لوحات ومراسيم الملك «نفر-كاو-حور» «نفر-أب-تاوى» ونقوش أمراء إخميم؛ أي المقاطعة التاسعة من مقاطعات الوجه القبلي يضاف إلى ذلك

نقوش أمراء أسيوط … ثم أخيرًا تعاليم الملك «خيتي» لابنه «مريكا رع» أحد ملوك الأسرة التاسعة؛ أي الأسرة الإهناسية، وقد تكلمنا عنها جميعًا ببعض الاختصار فيما سبق.

وعند موازنة هذه الوثائق السالفة الذكر بالوثائق التي من عهد الأسرة السادسة والتي توضح لنا عهد الإقطاع في تكوينه، وبالوثائق التي من عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة التي تضع أمامنا معلومات عن أقوال رجال هذا العصر، يصبح في إمكاننا أن نفهم بوجه عام أن النظام الإقطاعي الذي كان السلطان فيه للأمراء ساد في مصر الوسطى، ولم تصل إلينا حتى الآن معلومات مؤكدة عن حالة البلاد السياسية والاجتماعية في الدلتا في نفس هذا العصر؛ لأن الوثائق التي وصلتنا من العهد الفرعوني في معظمها خاصة بالوجه القبلي ومصر الوسطى؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن رمال هذه الجهات قد حفظت لنا الآثار وملفات البردي، عكس ما كان عليه الأمر في الدلتا؛ إذ إن غرين الدلتا قد دفن كل الآثار الخاصة بهذه المدنية العظيمة الضخمة التي كان مسرحها الوجه البحري، والتي كانت تقع على النيل، وقد أصبحنا لا نعرف عنها شيئًا إلا الإشارات القليلة التي نجدها فيما عثرنا عليه من الوثائق في الوجه القبلي أو ما كتبه بعد مؤرخو الإغريق. وقد كان ذلك سببًا في خلق فكرة خاطئة في أفقنا التاريخي عن مصر القديمة، فقد صورت لنا طبق ما وجدناه في وثائق الوجه القبلي.

عراقة مدنية الوجه البحري

والواقع أن الوجه القبلي كان بلادًا زراعية في أصلها، وقد أُدخلت فيه الحضارة بعد الدلتا بزمن طويل؛ إذ كانت الدلتا معظمها مدن يشتغل سكانها بالتجارة البحرية والنيلية وبالصناعة، ومن أجل ذلك كانت أغنى البلاد المصرية وأكثفها سكانًا وأعرقها حضارة، ومع ذلك فإن مكانة هذه البلاد لا تشغل حيزًا ما تقريبًا في التاريخ المصري القديم لقلة ما لدينا عنها من المصادر المدوَّنة.

لوحة نعر مرو الحكم الديمقراطي

وعلى أية حال فلدينا سلسلة وثائق ذات أهمية ممتازة تسهل لنا درس هذه المدن واقتفاء أثر أنظمتها في إجمالها، وفهم أصل نشأتها الاجتماعية، وذلك في عصر ما قبل الأسرات وعصر الإقطاع الإهناسي. ففي زمن ما قبل الأسرات ألقت اللوحات الأثرية لملوك الجنوب

نورا خاطفًا على مدن الدلتا فقد مثل عليها ملوك هذا العهد وهم يهدمون تلك المدن، ولوحة الملك «نعرمر» الذي يختلط اسمه باسم الملك «مينا» لها أهمية عظيمة جدًّا في موضوعنا هذا، فقد مثل هذا الملك وهو يضرب عصاة الدلتا مرتديًا تاج الوجه القبلي، وهؤلاء العصاة هم أناس يسمون بالمصرية «رخيت» (سكان المدن) وهم من الخوارج وقد ذبح منهم الملك «نعرمر» خلقًا كثيرًا.

وبعد أن قهر قرية متليس ومليج (فوَّة الحالية) القوية، وهي تميز على لوحة «نعرمر» بالرمز الخاص بها وهو المقمعة (الخطاف)، أمر بإزالة جدرانها وقصف رقاب عشرة الرجال الذين يديرون شئونها وأخضعها لسلطانه.

وهذا النصر كان بلا شك حاسمًا؛ لأن الملك كان يحمل في تلك الآونة التاجين الأحمر والأبيض للوجه القبلي والوجه البحري، على أن توحيد مصر في عهد «مينا» لم ينتج عنه تهدئة الأحوال في مدن الدلتا نهائيًّا؛ وذلك لأن ذكرى استقلالها القديم كان يعاودها، فكانت تقوم بثورات ضد السلطة الملكية. ويقص علينا حجر «بلرم» في عهد الأسرة الثانية الحملات التي كان يرسلها الفرعون ضد مدينتي «بزم» و«شمع-رع» (Breasted, A. R. I. P. 62).

وأخيرًا قضت الأسرة الثالثة على كل مقاومة من ناحية هذه المدن فلم تعد تجد بعد أثرًا لعشرة الرجال الذين كانوا يحكمونها منذ أربعة أجيال مضت.

نظام الحكم في مدن الدلتا

وكانت هذه المدن الآن قد وضعت تحت إدارة مديرين ملكيين يحمل كل واحد منهم لقب «عزمر» (المشرف على حفر الترع) وربما كان حفر الترع هذا عملًا يستحق العناية في الدلتا في ذلك الوقت ولا نستغرب ذلك؛ لأن الدلتا في حاجة إلى توزيع المياه والعناية بها في كل الأزمان، وسنرى أن الاهتمام بالنيل في الدلتا كان من الأسلحة التي يشهرها الملك على كل بلدة تعصيه فيحجز المياه عنها بإقامة سد فيعطل تجارتها وري الأراضي التي حولها، وبخاصة إذا علمنا أن مدن الوجه البحري كانت تعيش فيما بينها على التجارة بالنيل وترعه.

والظاهر أن هذه المدن كانت لا تزال تحتفظ بعض الشيء باستقلال قضائي، ومالي يختلف عن الجهات الزراعية في البلاد، ويلاحظ أن الأسرة الرابعة بعد أن ركزت السلطة الملكية في يدها (Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de

l'Ancienne Egypte VoI. II. P. 144, 152) كان الوزير يلقَّب فيها بلقب جديد وهو «مدورخيت»؛ (أي رئيس المدنيين).

ولما كان الوزير هو القاضي الأعلى في البلاد فإنه عُني بمد سلطانه حتى على سكان المدن (رخيت)، وذلك مما يدل على أن هؤلاء المدنيين كانوا قبل ذلك يتمتعون بمركز قانوني خاص، ويظهر ذلك جليًّا منذ قيام الإصلاح التشريعي الجديد الذي أدخلته الأسرة الخامسة.

محكمة العدل العليا

ولما وحدت الأسرة الرابعة الأنظمة الإدارية في البلاد كلها لقبت حكام المقاطعات في الوجه القبلي والوجه البحري بلقب «قاضي مدير الترع» (ساب عزمر) وفوق هؤلاء أنشأ ملوك الأسرة الخامسة في «منف» محكمة ستة المجالس «حت ورت سو» وهي محكمة عليا يرأسها الوزير، مؤلفة من حكام لهم ماضٍ في الخدمة، وكانت سلطتهم تتناول كل البلاد (Pirenne Ibid, P. 168) وفي الوقت نفسه نجد أن القضاة المديرين «ساب عزمر» للمقاطعات قد أضافوا إلى لقبهم هذا لقب «مدور خيت»؛ (أي رئيس الرخيت)، مؤكدين بذلك طبعًا أن الرخيت (سكان المدن) منذ ذلك الوقت أصبحوا تحت سلطانهم كباقي المواطنين الآخرين، ولما كنا قد لاحظنا أن المدن منذ الأسرة الثانية كانت تحت إدارة (مدير) «عزمر»؛ أي حاكم إداري، فإن سلطة القاضي المدير التي امتدت على «سكان المدن» في عهد الأسرة الخامسة لا يمكن إلا أن تعبر عن سلطته بصفته قاضيًا (ساب)؛ أي سلطته القضائية، وهذه النظرية مقبولة جدًّا في ظاهرها، إذا لاحظنا أن الحاكم كان لا يقوم بالعدالة في مقاطعته إلا بصفته رئيسًا لمجلس أشراف «سر»، ومن المحتمل أن هؤلاء لم يكونوا في المدن إلا خلفًا «لعشرة الرجال» الذين كان في أيديهم قبل حكم «مينا» إدارة الحكومة في كل مدينة. ولا بد من القول بأن (الرخيت) سكان المدن كانوا طائفة مميزة من المولين، وهذا يمكن استنتاجه من درس ألقاب الدولة القديمة، فمصلحة المالية «برحز» (P. r. h. d.)، كانت تشمل إدارة هامة يقوم بإدارتها مدير الضرائب «حري. وزب» وكانت إدارة الضرائب في عهد الأسرة الخامسة على ما يظهر تحت سلطة مديرين، مدير ضرائب الزراعة «حري. وزب. مريت» ومدير ضرائب المدنيين «حري. وزب. رخيت» وكان الاثنان تحت إشراف الوزير الأعلى الذي كان من ألقابه العدة مدير الضرائب الزراعية وأهل المدن (Pirenne, Ibid. P. 183) وسكان المدن

هؤلاء (رخيت) رغم أنهم كانوا يخضعون بالتدريج لقانون الحقوق العامة كلما تركزت السلطة الرئيسية، قد حافظوا طوال الدولة القديمة على طابع خاص بهم من الوجهة الاجتماعية على الأقل.

عودة الحكم الديمقراطي إلى الدلتا في العهد الإقطاعي

ومن الأمور الهامة في تاريخ العهد الإقطاعي في عصر الأسرة التاسعة أن نرى عشرة الرجال الذين شاهدناهم في لوحة «نعرمر» كانوا يحكمون المدن قبل جمع السلطة الملكية في يد «مينا» وقد ظهروا ثانية في متن تعاليم الملك «خيتي» لابنه «مريكارع»، وهذا المتن له أهمية ممتازة في درس تاريخ مدن الدلتا والعصر الإقطاعي بوجه عام، ومن المدهش أنه لم يدرس قط حتى الآن من هذه الناحية، وذلك أنه عندما شرح الملك «خيتي» لابنه ما يجب عليه القيام به لتنفيذ سلطانه حتى يكون ملكًا قويًّا فاضلًا في وقت واحد، أشار في سياق الحديث إلى أن الحال قد تستدعي في مواطن كثيرة الاستعانة بسلطانه الشخصي وسلطان أتباعه ورعاياه، على أن طابع هذه الوثيقة التي في أيدينا نفسها لا يعرض أمامنا وصفًا منظمًا عن مملكة «خيتي» التي كانت وقتئذ تنحصر في مصر السفلى ومصر الوسطى، ولكن من الممكن أن نستخلص هذا النظام بجمع كل العناصر التي تضمها الوثيقة، ويكون لها علاقة بالأنظمة الإقطاعية في تلك الفترة.

وسنرى أنها تجتمع من جهة حول الأمراء الإقطاعيين أو الأتباع ذوي الإنعامات الملكية، ومن جهة أخرى حول مدن الشمال.[١]

ورغم أن التعاليم التي وجهت إلى «مريكا-رع» ترجع إلى العهد الإهناسي، فإن النسخة التي في أيدينا قد كتبت في عهد «تحتمس الثالث» أو «أمنحوتب الثاني» هذا فضلًا عن أن المتن الذي في أيدينا مشوَّه وفيه فجوات، ونجد كثيرًا من نقطه لا يمكن الاستفادة منها، وسنقتصر في الترجمة على الفقرات السليمة التي يمكن الوصول فيها إلى حقائق مفهومة.

---

[١] W. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiques N. 1115–1116 A. 1116 b, de L'Ermitage Imperial à St. Petersburg 1913; Gardener, New Literary Works Form Ancient Egypt, J. E. A. 1914 P. 22–32; Erman Die Literatur der Agypter 109–119.

حالة بلاد الدلتا من تعاليم مريكارع

ونعلم من هذا المتن أن الملك الإقطاعي كان قبل كل شيء كاهنًا أعظم، على أنه وإن كان سلطانه من جوهر إلهي فإنه لم يكن بإله كما كان الفراعنة العظام في عهد الدولة القديمة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن تفكك الدولة قد غيَّر الفكرة عن الملكية وجعلها تعود إلى ما كانت عليه قبل توحيد «مينا» للبلاد؛ أي إلى الفكرة الإقطاعية قبل الأسرات.

والواقع أنه بقدر التقوى التي كان يظهرها الملك نحو ربه، يصبح ملكًا ذا بأس عادلًا مهابًا محبوبًا، ولذلك يقول خيتي لابنه:

> أسس بيوتًا للإله وطوائف الناس الذين تجندوا (لهذه البيوت) نافعين لربهم، وهذا هو السبيل لإحياء اسم من أقامها، ويجب على الإنسان أن يفعل ما يسر روحه «با»، أدِّ الخدمة الشهرية للكاهن المطهر «وعبت» فالبس حذاء أبيض، واختلف إلى المعبد، وتفقه في الأسرار، وأنفذ إلى أعماق المحراب، وكل من خبز المعبد، وأبسط مائدة القربان وضاعف خبز «القربان» وزِد في أهمية ضحايا المؤسسات الدينية، فإن ذلك شيء نافع لفاعله، أسس بيوتًا للإله حسب ثروتك؛ لأن يومًا واحدًا يثمر لكل الأبدية، وساعة واحدة تجلب السعادة للمستقبل، والله يعرف الذي يعمل حبًّا في ذاته.

أما ميزة الملك الرئيسية فإقامة العدل، ولكن ما أبعدنا في متون «خيتي» عن النظام القضائي الفاخر الذي كان سائدًا في الدولة القديمة، فمحكمة ست القاعات المقامة في «منف» وهي التي كان يشرف عليها الوزير وتصدر الأحكام باسم الفرعون قد اختفت وحل محلها الملك نفسه يعمل قاضيًا في قصره، أما القصر فلم يعد بعد يطلق عليه اسم البيت العظيم (برعا) الذي كان مقر (Pirenne, Ibid P. 47–17, 59. Vol. III. P. 33, 43) الملك يحيط به حاشيته وعظماء ضباطه وجمٌّ غفير من موظفيه، بل كان مجرد قصر الملك «خنو»؛ أي بيته الخاص؛ وكان الملك يجلس فيه في وسط حاشيته المؤلفة من أتباعه الذين يقيم معهم العدالة في البلاد.

نزاهة الحكم والعدالة

وكانت محكمة العدالة هذه هي أساس القوة الملكية، وذلك لما كانت سلطة الملك تفرض على الناس الرهبة التي كان يجب أن تبعثها في نفوس القوم، وكذلك تفرض رهبته عليهم باستقامته التي كان يعترف بها الجميع، فإنه كان من الضروري أن يكون عظماء حاشيته مستشارين مخلصين له وقضاة نزيهين في أحكامهم، ولذلك كان من واجب الملك أن يجعلهم من أهل اليسار؛ لأن «خيتي» يقول لابنه: «إن الرجل الذي لا يحتاج إلى شيء في مأمن من أن تُشترى نفسه بالمال.

حاب عظماءك حتى يحترموا قوانينك، ولن يكون محابيًا من كان غنيًّا في بيته وله متاع ولا يشكو الفاقة، والرجل المعوز لا يتكلم حسب اعتقاده، ولا يكون مستقيمًا من يقول: آه، لماذا لم أكن غنيًّا، ويكون إذن محابيًا لمن في قدرته أن يدفع له «الرشوة».

وعظمة الرجل العظيم عندما يكون العظماء عظماء.

وإنه لملك قوي إذا ما شد أزره مجلس، وإنه لجدير بالاحترام من كان غنيًّا في عظمائه، وعندما يكون الملك محاطًا بعظمائه الذين تضمن ثروتهم استقامتهم فإنه يقيم عدالة صحيحة.

وعندما تقيم العدالة في بيتك فالعظماء الذين في البلاد يخافونك، وكل شيء ينجح لملك سليم القلب؛ وإن داخلية بيتك هي التي تبعث الرهبة في خارج بيتك، أجرِ العدل حتى يمكن أن تبقى على الأرض، واسِ الباكي، ولا تضطهدن الأرامل، ولا تحرمن رجلًا متاع والده، ولا تؤذين العظماء في مراكزهم، واحذر أن تعاقب ظلمًا، ولا تضربن إلا إذا كان في ذلك مصلحة، ويمكنك أن تعاقب بالجلد وبالسجن، فالبلاد يحسن نظامها بهذه الطريقة، ولا تستثنين إلا الثائر عندما يكشف عن نواياه؛ لأن الله يعرف الشرير ويلعنه في الدم … ولكن لا تضربن رجلًا تعرف مزاياه، وقد رتلت معه الكتب.»

يجب أن يكون الملك متعلمًا تقيًّا — والكتب المقصودة هنا هي التي قد حفظ فيها حكم الأجداد أساسًا لتكوين الرجال المثقفين «قلد آباءك وأجدادك، وتأمل فإن كلامهم محفوظ في الكتب، افتحها واقرأها لتصير من أهل المعرفة؛ لأن الذي يعمل يصبح رجلًا متعلمًا، والواقع أن الملك ببعثه مثل هذه الحكمة التقليدية يصل إلى هذه الاستقامة وطيبة القلب اللتين تسمحان له أن يقابل حساب ربه دون خوف بعد الموت؛ لأنه لن ينسى قط أنه مسئول أمام الإله، إن المحكمة الإلهية التي تحاكم المجرم كما تعرف ليست متهاونة في اليوم الذي يقف فيه الشقي ساعة النطق بالحكم، فالشقاء إذا كان المتهم مجرمًا. ولا

تركنن إلى التفكير في طول الأعوام (التي عشتها)؛ لأن الحياة الإنسانية في نظر المحكمة مثل ساعة واحدة، (هذه هي نظرية العلم الرياضي)، والرجل يظل باقيًا بعد أن يصل إلى ميناء الموت وأعماله تكون بجانبه مكدسة، وسيبقى هناك أبدًا وإنه لمن الحمق أن يستهان بذلك.

ومن يصل إلى ميناء الموت دون أن يرتكب خطيئة كان هناك بمثابة إله (1. 57) وسيتنزه كأسياد الآخرة.»

ومن المهم الآن أن نتساءل من هم هؤلاء العظماء والرعايا الذين مد الملك عليهم سلطانه التشريعي، ولكن متن هذه البردية لا يمكِّننا من فهم ذلك إلا بعد أن نفحص فحصًا دقيقًا الألفاظ التي تعبر عنها، ومن ثم يمكننا أن نصل إلى بعض نتائج بطريقة واضحة بالرغم من الفجوات والإبهامات التي تجعل بعض أجزاء المتن لا يمكن فهمها كلية.

تفسير كلمة عظماء في العهد الإقطاعي

ففي المتن كلمة «العظماء» (ورو) وهذا هو اللقب الذي كان يحمله الإقطاعيون في عهد ما قبل الأسرات، عندما كان مجلس «عشرة رجال الجنوب» «ور. مز. شمع» يؤلفون نوعًا من مجلس عشرة العظماء الإقطاعيين قبل أن يصبحوا عشرة الأمراء في عهد الدولة القديمة (Petrie, Tanis P. 100) وهذا هو اللقب الذي كان يحمله أمراء أسيوط في عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة (Breasted, A. R, I, Par. 393–408)، على ذلك فالعظماء هم أمراء الإقطاع التابعون للملك، وهم رؤساء عشائر، وكلمة العشيرة هنا «وحيت» يقصد بها القبيلة تقريبًا، وهي التي تشمل الأسرة وكل أتباع «السيد»، وهؤلاء الأتباع (الموالي) يعبر عنهم بكلمة «مريت» وهذه اللفظة تفسرها لنا المراسيم الملكية التي صدرت في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة (Pirenne, Ibid, Vol. II. P. 306–316) ومعناها المزارعون أو الفلاحون بالمطابقة مع المدنيين، وهؤلاء الفلاحون قد تحولوا في أواخر الأسرة السادسة إلى مستأجرين (تمليين) (Pirenne, Ibid, Vol. III. P. 299–302) ويطلق عليهم متن «مريكارع»، كذلك لفظة «زت» (تملية) وهي كلمة تدل على نوع من المزارعين (التملية) التابعين لضيعة السيد.

وهؤلاء الأسياد كانوا يسكنون قلاعًا عظيمة «حت-عات» مثل حكام الإقطاع في عصر ما قبل التاريخ، ويلقب كل واحد منهم بلقب «نب» (السيد) مثل الملك نفسه، ونقوش

أمراء أسيوط تُظهر لنا أنهم كانوا يتعاقبون على حكومة مقاطعتهم حسب قواعد الوراثة الملكية، وفي يدهم السلطة الملكية الحقيقية، ومع ذلك فإنهم كانوا تابعين للملك فهم أتباعه وأصحاب إقطاعه، ومرتبطون به من جيل إلى جيل وخاضعون لتشريعه، ويحصلون منه على هبات وثروة؛ وهم مدينون له بالخدمة العسكرية ولكنهم يقودون جيوشهم الخاصة.

وملوك إهناسية لم يمدوا سلطتهم على الأمراء الإقطاعيين فحسب، بل إن قوتهم كانت تتمثل إلى درجة عظيمة في السلطة التي يديرونها، وذلك بفرضها على مدن الدلتا أو على الأقل على طائفة منها.

تقسيم الدلتا إلى مراكز ديمقراطية

وكانت الدلتا خلافًا لمصر الوسطى مقسمة بين العظماء، وتتألف من مراكز (سبت) لكل مركز مدينة عظيمة تُتخذ حاضرة له: وفي كل من هذه المدن كانت السيادة في أيدي عشرة رجال، وكان الحاكم يستمد إيراده من الضرائب المختلفة، أما الكاهن فكان له حقل (أي إن الكاهن كان له حقل بصفة مرتب يستغله هبة وراثية).

وصف مدينة أتريب (بنها) وحكومتها

ويصف لنا المتن بلدة «أتريب» بأنها مدينة من أهم هذه المدن، وهي واقعة في وسط الدلتا على الفرع الأوسط للنيل (المقاطعة العاشرة من الوجه البحري) (٩٩٠١) وهي المركز الرئيسي للطرق التي تؤدي إلى البلاد الأجنبية (في المتن يقول سُرة جبال أهل الصحراء)، وأسوارها وجنودها كثيرة.

ويبلغ تعدادهم عشرة آلاف رجل (الذين يطلق عليهم صفة المواطنين) لا يدفعون ضرائب (أي الضرائب أو السخرة للملك التي أُعفوا منها؛ إذ المتن في الواقع يشير إلى ضرائب يدفعونها إلى حكومة المدينة.»

ولها حكام (سر) منذ زمن الحاضرة (أي منذ أوزير وهو عصر ما قبل التاريخ الذي تنتمي إليه اللوحات المنقوشة، وهي التي عرفنا منها هؤلاء الحكام؛ أي عشرة الرجال).

وحدودها ثابتة، وقوية، وحامياتها (؟)، وهي مؤلفة من جم غفير من رجال الشمال، وبلاد الدلتا تنتج القمح بلا قيد ولا شرط، وهذا القمح ملك لمن يزرعه، ولقد كانت هذه

هي الميزة الأساسية لبلاد الشمال، ولا نزاع في أن هذه الأسطر القلائل من هذا المتن (وهي لم تفهم من قبل على ما أعتقد) تظهر لنا بوضوح حال مدن الدلتا، فكان يدبر شئونها حكام وهم عشرة الرجال، ومن المهم أن نلاحظ أن السلطة التي كانوا يمارسونها قد عبِّر عنها في المتن بكلمة «حقات» وتدل على السيادة التي كانت في يد الأمير، والواقع أن سيادة الأمراء الإقطاعيين كان يعبَّر عنها بلقب «حاكم القلعة» (حقا حت)، ففي مرسوم «نفر كاوحور» وهو أحد العقود القانونية في العهد الإقطاعي يقول: «عندما عين «إدي» أمير «قفط» حاكمًا على ست المقاطعات الجنوبية للوجه القبلي»، وقد أنعم عليه بهذه السلطة في العبارة الآتية: اعمل أميرًا «حاتي عا» … ورئيسًا لحكام القلاع (حقا حت) الذين هناك (في هذه المقاطعات)؛ وعلى ذلك فإن المدينة كانت بالنسبة للملك كإقطاعية؛ أي إنها ليست تابعة لأي أمير إقطاعي، وهذا يدل على أن الدلتا لم تكن مقسمة إمارات إقطاعية، ولكن المدن كانت منظمة جمهوريات تتمتع بحكم ذاتي وتحت سيطرتها الأراضي المنبسطة، وسكان هذه المدن كانوا يتألفون من مواطنين أحرار، وكانوا قابعين داخل أسوارهم، وفي قبضتهم الأراضي التي تحيط بهم. أما مصدر حياتهم فكان التجارة، وكانت تلتقي القوافل البرية في هذه المدن، وكذلك السفن التي كانت تجري على النيل نحوها، وفي أصقاع هذه المدن لم يكن نظام «التملية» الإقطاعية موجودًا، فالقمح كان ينتجه الزراع بحرية ومحصوله ملك لهم.

سكان المدن من الطبقة الوسطى

وهؤلاء السكان الأحرار كانوا يتألفون من الطبقة الوسطى الحرة، ولكنهم لم يكونوا من الأشراف، والمتن يعبر عنهم بكلمة «نزي» التي تعني بالمصرية صغير «متواضع»، وقد ترجمها الأستاذ «جردنر» في سطر ٦٢ بكلمة «متواضع» وفي سطر ١٠١ بكلمة «مواطن». والواقع أن كلمة «نزي» هنا معناها من غير الأشراف، ولكن أهل هذه الطبقة المتوسطة الأحرار كان يتألف منهم قوم على وجه خاص مشاغبون، وكانوا مقسمين عصابات سياسية، وهذا ما يجعلنا نوافق على أن عشرة الرجال كانوا منتخبين من أهل المدن لإدارتها. واستمع إلى المتن يصف تطاحن الأحزاب فيقول:

> إنهم عنصر ثورة في المدينة، فهم كالرجل المشاغب الذي يبعث الشقاق في حزبين بين أهل الجيل الغني، فإذا فهمت أن المدينة منحازة إليه … وأن

أعماله لا تحسب حسابك فعليك أن تحضره أمام المجلس وعاقبه؛ لأنه ثائر، والإنسان المؤذي للمدينة يكون مثل الثرثار، وعليك أن تخضع الجمهور وأن تقمع هياجه.

ونشعر من هذا المتن الممتلئ حيوية بحياة هؤلاء السكان المدنيين المضطربين المتفرقين شيعًا سياسية أنهم يكونون دائمًا على أهبة خلع النير الملكي، وكذلك نجد من جهة أخرى أن الملك، وإن لم يكن يضرب الضرائب على أهل المدن، فإنه كان له عليهم نفوذ تشريعي إقطاعي الصبغة، فالقاضي كان يحضرهم أمام محكمته ويحكم عليهم، على أن الملك مع ذلك كان لا يتردد في أن يتدخل ويخضع الجمهور كما فعل ملوك ما قبل التاريخ وملوك الأسرتين الأوليين الذين أرسلوا الحملات التأديبية إلى المدن، كما جاء في لوحات ذلك العصر وفي حجر «بلرم».

تكوين جيش الفرعون

وعند كلام الملك عن هذه المدن القوية الآهلة بالسكان الواقعة في شرق الدلتا كان يقول: «إنها تقدم له خدمات كزمرة بسيطة (تس).» ويقصد من هذه «الزمرة» أن المدينة تقدم للملك فرقًا عسكرية من المجندين، وسنرى ذلك فيما يلي، فإذا كان أمراء الإقطاع كما نفهم من نقوش أسيوط، لهم جيوشهم الخاصة فإن الملك كذلك له جيشه الذي كان يهتم دائمًا بزيادته، «جنِّد جنودك بطريقة تجعل القصر يقدرِّك، وضاعف عدد رعاياك الذين تتخذ منهم أتباعك.

وارعَ أن تكون المدينة (يعني هنا المدينة الملكية) مكتظة بجنود جدد، وهاك عشرين عامًا، والجيل الغني مرتاح ليعيش حسب رغبته.

وعلى ذلك استمر الأتباع يقدمون أنفسهم، ورئيس الأسرة يشترك في الخدمة مع أولاده … [فهل الشيخوخة هي] التي حاربت لأجلنا عندما جندت جنودي وقت توليتي العرش؟

حابِ عظماءك ومد «محاريبك» وضاعف أجيال أتباعك، ومدهم في قوائمك بالهبات من الحقول المجهزة … بالماشية.» وهذه الفقرة تظهر أن الملك كان يجند من بين رعاياه رجالًا يحملون السلاح ويهبهم إنعامات وراثية، وبذلك أصبحوا أتباعه، والظاهر أنه كان من واجبهم أن يقوموا له بالخدمة العسكرية مدة عشرين عامًا.

وهذا الجيش كان يقوده رؤساء ينتخبهم الملك من بين عظمائه كما كان ينتخبهم من بين أهل المدن.

لا تميزن بين ابن الأسرة (أي الشريف في النسب) وبين الرجل الرقيق الحال؛ أي الذي من الطبقة المتوسطة، بل خذ الرجل في خدمتك حسب قيمته.

ولا شك في أن الملك كان يفرض خدمة عسكرية خاصة على سكان المدن؛ ومن أجل ذلك كان يخرطهم في سلك فرقة من الفرق (تس) التي يتألف منها جيشه، فمع أن مدن الدلتا كانت صاحبة استقلال ذاتي إلا أنها كانت تابعة للتشريع الملكي، ومدينة للملك بتقديم فرق من المجندين، وكانت له منبع قوة؛ ولذلك وصى «خيتي» ابنه بألا يهمل ذلك المنبع؛ ولا نزاع في أن المدن كانت تطبق سلطان الملك بصعوبة، وكذلك الالتزامات التي كانت تنجم عن هذا الخضوع. ولهذا كان يرى الملك من بعيد المعارضة التي ينتظر أن تقوم في وجه ابنه.

أسلحة الملك لمحاربة المدن الثائرة

وكيف حدث أن هذه المدن لم تثُر؟ فيقول: لأن النيل لا يخطئ، فإذا أردت فإنه لا يأتي (إلى هذه المدن)، وهذا هو السبب الذي من أجله أصبحت الضرائب «باك» في يدك وهي التي تُجبى من بلاد الشمال، وهكذا فقد غرست وتد حبل المرسى في القطر الذي أخضعته في شرقي الدلتا (أي أصبحت مسيطرًا على شرقي الدلتا) من بداية حدود حبتو (بني حسن) حتى طريق حور (حدود شرقي الدلتا)، وهذا القطر آهل بالمدن المكتظة بالسكان وهي أحسن البلاد …»

وفي جزء آخر من المتن يفسر لنا الملك كيف تنتهز الفرصة لإجبار المدن على الخضوع، وذلك أن المدن كانت دائمًا في حروب مستمرة فيما بينها، فمثلًا نجد أن «أتريب» لأجل أن تقهرها «إهناسية» حاضرة الملك، قد أقامت سدًّا ضدها، وهو سد في عرض النهر؛ طبعًا لوقف الملاحة وإجبارها على التسليم والخضوع.

وهذه هي نفس الطريقة التي يشير إليها الملك عند قوله أن يمنع المدن من الثورة ضده؛ لأنه هو سيد النيل، وأنه بإرادته يأتي النيل أو لا يأتي حتى مدن الدلتا.

ومن ذلك نعلم أن فيضان النيل وسده كانا هما الطريقين الفعالين للسيادة على المدن؛ فالفيضان يعوق زرع الغلال وهو مادة التجارة لمدن الشمال، والسد يمنع الملاحة.

وهكذا يصف لنا الملك الحرب التي شنها على الدلتا: «أقم سدًّا ضد نصف البلاد، واغمر النصف الثاني بالمياه بما في ذلك (؟) مدينة «أتريب».»

وهذه الجمل مع إيجازها لها أهمية استثنائية؛ إذ تبرهن على أن المدن كلها كانت تتوقف حياتها على النيل؛ لأنه الطريق العظيم للتجارة التي منها تعيش، وبه حافظت على حريتها في داخل أسوارها.

والظاهر أن تعاليم «مريكارع» لم تترك مجالًا للشك في أهمية مدن الدلتا مدة العصر الإقطاعي، إلا أنها قد سهلت علينا فهم النظام الذي كانت تعيش تحت كنفه هذه المدن، وكذلك تأليف سكانها ونشاطهم.

وفي وسط نظام الإقطاع الذي ملك الدولة القديمة تحول المجتمع إلى ضِياع يملكها الأشراف، وأسس بين الأشراف والأحرار والعبيد نظام طبقات وراثي دقيق منظم اقتصاديًّا في نطاق ضيق جدًّا، نجد فيه أن المدن التي كانت مركز التجارة والملاحة، كسرت تلك القيود التي كان يضيق بها الأشراف الخناق باضطراد.

وحوادث الثورة الاجتماعية التي اندلع لهيبها في هذه الفترة في المدن قد حفظت لنا في أحد المصادر التي تعد من أهم الشواهد التاريخية المؤثرة في العصور كلها، وهي التي تعرف باسم «تحذيرات متنبئ»[٢] ففيها نرى الشعب يقتل الأشراف ويخرب دواوين المساحة، ويتخلص من نير الملكية القديمة، والمدن تسترجع استقلالها الذاتي الذي كان لها منذ ألف سنة سبقت ذلك العهد قبل توحيد السلطة على يد مينا.

نظام الحكم الجمهوري في مدن الدلتا

وقد كانت كل مدينة من هذا العهد تؤلف جمهورية لها حكومتها الذاتية، وسكانها الذين كان يبلغ عددهم نحو ١٠٠٠٠ مواطن بالغ، كما في «أتريب» يعيشون أحرارًا دون أشراف بينهم، ولكن كان يقلقل راحتهم حياة سياسية شديدة قسمتهم أحزابًا، وكانت محكومة كما كانت في عهد «نعرمر» بعشرة حكام في يدهم السيادة، وهذه المدن كانت محوطة بأسوار ولها جنود مرابطون يسيطرون على الأراضي المستوية التي تحيط بها ويحافظون على حريتها، وزراع هذه الولايات الصغيرة المدنية كانوا يزرعون بحرية

[٢] راجع كتاب الأدب المصري القديم للمؤلف جزء أول ص١٩٤ ... إلخ.

القمح ويبيعونه في المدن ويصدرونه بفضل مياه النيل إلى الأقطار الأجنبية، وثروة المدن وقوتها كانت تأتي لها عن طريق تجارتها التي سهلت بفضل السفن التي تجري على ماء النيل.

ومع ذلك فقد كان لزامًا على هذه المدن أن تخضع للإشراف الملكي؛ لأن المشاحنات التي قسمتها أحزابًا قد صيرتها تحت رحمة الملك، فجرَّها ذلك إلى الخضوع حتى لا يغرقها أو يمنع عنها النيل، وبذلك يعزلها عن باقي العالم، ويجعل نشاطها التجاري وهو قوام حياتها مستحيلًا.

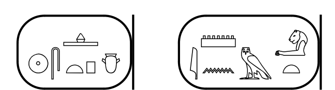
ومع ذلك فإن السلطة الملكية لم تظهر في المدن إلا في امتداد تشريع محكمة الملك الإقطاعية، وفي الالتزامات المفروضة عليها وإمداد جيش الملك بالمجندين.

أهمية تعاليم خيتي في الأنظمة الحكومية

ونجد عند عرض ما قامت به مدن الوجه البحري في العهد الأول الإقطاعي المصري أن تعاليم «مريكارع» تحتل على ما يظهر مكانة تاريخية ذات أهمية ممتازة، فاللوحات التي من عهد ما قبل التاريخ تثبت وجود الحكم الذاتي في مدن الشمال قبل عهد «مينا»، ووثائق الأسرة السادسة والعشرين تبرهن على الصبغة الأصلية للمدنية الصاوية التي نمت في الدلتا بعد العصر الإقطاعي الثاني (الأسرة ٢١–٢٥). أما تعاليم «خيتي» التي وصفت لنا الحياة في المدن المصرية بأنها حياة صاخبة قوية فتبرهن لنا على أن هذه الحياة قد ظلت في خلال أربعة آلاف عام محورًا يدور حوله نظام الحكم، ويرجع به إذا اقتضى الأمر إلى نظام الإقطاع في وادي النيل، ويجعل من هذه المدن المتحضرة جزيرات؛ حيث تسود بفضل التجارة والملاحة حرية لا تختلف كثيرًا عن تلك التي كانت معروفة في مدن سهل «لومباردي» و«الفلندر» في وسط المدينة الإقطاعية منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر.

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠–١٧٨٧ق.م)

أمنمحات الأول (٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م)



(١) مقدمة

قلنا فيما سبق: إن «أمنمحات» الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، يحتمل أن يكون هو نفس «أمنمحات» وزير الفرعون «منتو حتب الرابع»، والمرجح أن سلطان هذا الوزير أخذ يعظم، ونفوذه يزداد ويقوى في عهد «منتو حتب» هذا؛ حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على العرش عنوة، ويقوي هذا الظن أن «منتو حتب الرابع» هذا كان مغتصبًا الملك، ولم يكن صاحب حق وراثي فيه، على أنه من الجائز أن يكون «أمنمحات» تولى العرش بعد وفاة «منتو حتب» مباشرة بفضل ما كان له من قوة ونفوذ في البلاط.

ويعد هذا الرأي الأخير مقبولًا جدًّا إذا ثبت أن «أمنمحات» هذا ينتسب إلى أحد فروع الأسرة الملكية الشرعية القديمة، ولدينا مصادر تاريخية تشير إلى وجود صلة دم بين «أمنمحات» مؤسس الأسرة الثانية عشرة وبين ملوك الأسرة الحادية عشرة، فقد نوَّه «سنوسرت الأول» عن ذلك كما أسلفنا، ولكن على الرغم من وجود صلة الدم هذه فإن «أمنمحات الأول» على ما يظهر أراد أن يبرر اعتلاءه عرش الملك أمام الشعب المصري بطريقة روحية مبتكرة تختلف عن الطريقة التي اخترعها ملوك الأسرة الخامسة عندما أرادوا أن يثبتوا مراكزهم أمام الشعب المصري (مصر القديمة ج١)؛ وقد جرت التقاليد في التاريخ المصري القديم ألا يتولى عرش الفراعنة إلا من كان يجري في عروقه الدم



شكل ١: أمنمحات الأول.

الملكي الخالص، كما سبق شرح ذلك في الجزء الأول (مصر القديمة ج١)، فإذا اتفق أنه ظهر رجل عظيم في البلاد ولم يكن من دم ملكي وأراد أن يؤسس أسرة جديدة أو يغتصب الملك بما لديه من قوة ونفوذ بدون حق شرعي، فإنه كان يلقى في سبيل تنفيذ مآربه عقبات جسامًا؛ وذلك لأن الشعب المصري كان يميل إلى التمسك بأهداب القديم، ويحافظ على ما وجد عليه آباءه وأجداده؛ وبخاصة فيما يتعلق بالبيت المالك الذي يرتفع في نظر المصريين إلى مرتبة الآلهة. من أجل ذلك لم يعتمد «أمنمحات الأول» في استوائه على العرش على القوة وحدها، بل قرنها بحيلة تدل على الحذق والمهارة، استمال بها أبناء الشعب مثقفين وغير مثقفين، تلك هي أسطورة، حرص على إذاعتها بين القوم قوامها نبوءة لحكيم قديم، رأى فيها أن الويلات التي حاقت بالبلاد ستنجاب على يد رجل عظيم يصلح عوجها، ويبرئ بحكمته عللها، وذلك المخلِّص المنتظر هو «أمنمحات»، آمن

بها الدهماء؛ لأنها نبوءة تنبأ بها حكيم من قديم الزمان منذ آلاف السنين، وقال عنه: إنه المخلِّص المنتظر، الذي سيخلص البلاد مما أحاق بها من ويلات ونكبات ظلت قرونًا متوالية، وآمن بها المثقفون؛ لأنها كُتبت بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب في عصر يحتل فيه الأدب مكانة رفيعة؛ بفضل كُتاب نابهين كانوا يصورون حالة البلاد وما انطوت عليه من بؤس وفقر بأسلوب مؤثر، فكان ظهور هذا المخلِّص المنتظر يعد رحمة عند الجميع، وسنورد فيما يأتي هذه النبوءة التي صاغها الكاهن المرتل «نفرروهو» في قالب أدبي جذاب تبريرًا لاعتلاء «أمنمحات» عرش الملك مع التعليق على محتوياتها.

(٢) نبوءة نفرروهو[١]

عثر الأستاذ «جولنيشف» على بردية هي الآن بمتحف «لننجراد» وتحتوي على نبوءات كاهن مرتل اسمه «نفرروهو»، وهو يدعي أنها ألقيت في حضرة الملك «سنفرو» الذي ينتسب إلى أوائل الأسرة الرابعة؛ أي قبل العصر الإقطاعي الذي نحن بصدده بما يقرب من ألف سنة. والواقع أن ذلك هو مجرد وضع تمثيلي ليسبغ على كلمات «نفرروهو» قوة التأثير. ومن حسن الحظ أن كاتبًا آخر من عهد الدولة الحديثة ممن عاشوا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد قد ظهرت له أهمية ذلك المقال، ولما لم يجد لديه برديًّا أبيض ينقشه عليه نقله على ظهر أوراق أخرى سبق أن استعملها في تدوين حسابه هو. وبذلك بقيت نبوءات «نفرروهو» في تلك الصورة التي وصلت عفوًا بما تحتويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التي حدثت عند نقلها بطريق المصادفة كما ذكرنا.

والوثيقة تبتدئ بمنظر مألوف في كل عصور التاريخ المصري حتى في النقوش الرسمية ويصور مقدمة للموضوع، فيجلس الملك مع حاشيته يتشاور في أمر، أو تقص عليه الحاشية حكاية، أو كما نجد في غير هذا المكان أن الملك لحب استطلاعه أمور الغيب تتوق نفسه لسماع شيء لم يكن يعرفه.

فيقول: «والآن اتفق في عهد جلالة الملك «سنفرو» وهو الملك المحسن في كل هذه الأرض؛ أن موظفي الحاضرة دخلوا يومًا القصر ليقدموا للملك تحياتهم، ثم جاءوا ثانية ليقدموا تحياتهم كرة أخرى، كما كانت عادتهم اليومية، وعندئذ قال الملك لمستشاره الذي

---

[١] Papyrus Petersburg No. 1116 B. (Recto).

كان بجانبه: «اذهب واحضر إليَّ موظفي مقر المُلك الذين خرجوا من هنا اليوم ليقدموا تحياتهم،[٢] فدخلوا عليه وسجدوا ثم انبطحوا على بطونهم أمام جلالته كرة أخرى.»

وقال لهم جلالته: «يا إخواني، لقد أمرت بطلبكم؛ لتبحثوا لي عن ابن من أبنائكم يجيد الفهم، أو أخ من إخوانكم بارع، أو صديق من أصدقائكم قد أنجز بعض عمل شريف، أي فرد يتحدث إليَّ بكلمات جميلة وألفاظ مختارة عندما تسمعها جلالتي تجد فيها تسلية.»

وعندئذ سجدوا منبطحين على بطونهم في حضرة جلالته مرة أخرى.

وقالوا في حضرة جلالته: «يوجد مرتل عظيم للآلهة «باست»[٣] يا أيها الملك يا مولانا، واسمه «نفرروهو»، وهو شعبي قوي الساعد وكاتب حاذق الأنامل، وهو شخص مسوَّد أغنى أقرانه، ليته يشاهد جلالتك.»

فقال جلالته «اذهبوا وأتوني به.» وأدخل عليه في الحال[٤] وسجد على بطنه في حضرة جلالته، وقال جلالته: «تعالَ الآن يا «نفرروهو» يا صاحبي وحدِّثني ببعض كلمات جميلة، كلمات مختارة حينما أسمعها ربما أجد فيها تسلية»، فقال المرتل «نفرروهو»: هل ستكون الكلمات من الأمور التي حدثت أو مما سيحدث يا أيها الملك يا مولاي؟ فقال جلالته: «لا مما سيحدث؛ إذ إن الحاضر قد دخل في الوجود ويمر الإنسان به.» فمدَّ يده إلى صندوق مواد الكتابة وأخذ قرطاسًا وقلمًا ومدادًا ودوَّن: كتابة ما تحدَّث به الكاهن المرتل «نفرروهو» حكيم الشرق التابع للآلهة «باست» … ابن مقاطعة «عين شمس» حينما كان يفكر فيما سيحدث في الأرض، ويفكر في حالة الشرق حينما يأتي الأسيويون بقوتهم، وحينما يعذبون قلوب الحاصدين ويغتصبون ماشيتهم وقت الحرث.

[٢] يقصد «بتقديم التحيات» الأنباء اليومية عن كبار الموظفين، وكانت تقدَّم أولًا إلى الملك ثم إلى الوزير وغيره من رؤساء الأقلام.

[٣] «باست» هي إلهة الفرح. رأسها رأس قطة وتُعبد في «تل بسطة»، من أعمال الدلتا وهي «الزقازيق الحالية».

[٤] هذا الاصطلاح «أدخل في الحال» عادي في القصص التي من هذا النوع، ولا يجب الأخذ به حرفيًّا؛ لأن «تل بسطة» على بُعد تسعين كيلومترًا على الأقل من حاضرة «سنفرو».

ثم يصف لنا بعد هذه المقدمة التاريخية التي تنسب لذلك المقال كما أوضحنا، الخراب والفوضى الذين كانا يحيطان به، ومثله في ذلك مثل «خع خبر-رع-سنب»؛ إذ يتكلم مع قلبه فنراه يقول: «أنصت يا قلبي وانعِ تلك الأرض التي منها نشأت …»

وصف حالة البلاد المحزنة

لقد أصبحت تلك البلاد خرابًا فلا من يهتم بها، ولا من يتكلم عنها، ولا من يذرف الدمع عليها، فأية حال تلك التي عليها البلاد؟ لقد حُجبت الشمس فلا تضيء حتى يبصر الناس.

وقد كان من نتيجة تعطيل أعمال الري العظيمة العامة أن أصبح نيل مصر جافًّا، فيمكن للإنسان أن يخوضه بالقدم، وصار الإنسان عندما يريد أن يبحث عن ماء، (يعني النهر) لتجري عليه السفن وجد مجراه قد صار شاطئًا، والشاطئ صار ماء، وكل طيب قد اختفى وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو والذين يغزون البلاد، وظهر الأعداء في مصر فانحدر الأسيويون إليها … وسأريك البلاد وهي مغزوَّة تتألم، وقد حدث في البلاد ما لم يحدث قط من قبل … فالرجل يجلس في عقر داره موليًا ظهره عندما يكون الآخر يُذبح بجواره … وسأريك الابن صار مثل العدو، والأخ صار خصمًا، والرجل يذبح والده، وكل فم ملؤه أحببني [صياح المتكفف؟] وكل الأشياء الطيبة قد ذهبت، والبلاد تحتضر … وأملاك الرجل تُغتصب منه وتُعطى الأجنبي … وسأريك أن الملك صار في حاجة، والأجنبي في غنى … وأن الأرض قد نقصت، وقد تضاعف حكامها، وصارت الحياة شحيحة، مع أن المكيال صار كبيرًا، وتكال الحبوب (أي بجابي الضرائب) حتى يطفح الكيل، سأريك البلاد، وقد صارت مغزوَّة تتألم، وإن منطقة «عين شمس» لن تصير بعد مكان ولادة كل إله.

الدعاية لظهور مخلِّص للبلاد

وبعد ذلك يتحول «نفرروهو» من غير تردد أو شك عن تلك الصورة التي يصف فيها القحط الذي وقعت فيه البلاد، منادٍ بالكلمات التالية الهامة، داعيًا لظهور الملك الذي سيخلص مصر مما حاق بها؛ إذ يقول: «سيأتي ملك من الجنوب اسمه «أميني» وهو ابن امرأة نوبية الأصل، وقد ولد في الوجه القبلي، وسيتسلم التاج الأبيض وسيلبس التاج

الأحمر، فيوحد البلاد بذلك التاج المزدوج، وسينشر السلام في الأرضين، (يعني مصر) فيحبه أهلها … وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الإنسان يبقى أبد الآبدين، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر، ودبروا الفتنة فقد أخرسوا أفواههم خوفًا منه، والأسيويون سيُقتلون بسيفه، واللوبيون سيُحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون للصل الذي على جبينه … وسيقيمون «سور الحاكم» حتى لا يتمكن الأسيويون من أن يغزوا مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لأجل أن ترِدها أنعامهم، والعدالة ستعود إلى مكانها، والظلم ينفى من الأرض، فليبتهج من سيراه، ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك.»

فظهور الملك المخلِّص للبلاد بالفعل، ومجيئه كان هو الأمل الذي ينشده الحكيم «إبور»، ثم عرف ذلك الملك «نفرروهو» بالاسم؛ ورسم كتابة الاسم «أميني» الذي استعمله «نفرروهو» وهو اختصار مشهور للاسم الكامل «أمنمحات»، وهو بالبداهة المؤسس العظيم للأسرة الثانية عشرة، والمصلح الذي أعاد توطيد سلطان مصر في العهد الإقطاعي حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م، وقد ذُكر عنه في نقش تاريخي بعد ذلك العصر بثلاثة أجيال بشكل بارز: «أنه قد محا الظلم؛ لأنه أحب العدل كثيرًا (يعني: ماعت).[٥] وقد كان عرَّافنا هنا واثقًا من أن بطله «أمنمحات» سيستولى على التاجين اللذين يرمزان لحكومة البلاد المتحدة مصر السفلى ومصر العليا، وأنه سيفتح عصرًا جديدًا، غير أنه يرجئ الإصلاح العظيم بوجه عام إلى المستقبل. وذلك يضع أمامنا سؤالا جديدًا وهو: هل هذا التأكيد القوي مجرد نبوءة عن حادثة قبل وقوعها؟ وهل كان ذلك إعلانًا ينم عن الظفر يلقاه بطل منتصر قد نجح نجاحًا عظيمًا في إصلاح مصر العليا، حتى إن انتصاره النهائي وإصلاحه لمصر كلها كان متوقَّعًا حدوثه؟ أم هل كان «نفرروهو» مرسلًا من قبل «أمنمحات» إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان كأي شخص من أنصار «أمنمحات» قد عظم إصلاحاته فصورها بصورة تبرزها إذا قاسها بما صارت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟

وإنه لمن المستحيل أن يعطي الإنسان جوابًا شافيًا عن تلك الأسئلة، ولكن يظهر أنه يوجد سبب قوي يدعونا إلى الاعتقاد بأن «نفرروهو» كان حقيقة محاطًا في زمنه بالخراب الذي صوَّره لنا بصورة حقيقية، وأن تاريخ حياة «أمنمحات» الذي كان رائده

[٥] إلهة العدل والصدق والحق.

النجاح في مصر العليا قد جعل الأمل بنجاحه في إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه، وإرجاع مجدها القديم متوقعًا، ومن المدهش حقًّا أن «نفرروهو» يذكر لنا هنا صراحة أن الفرعون الجديد ليس من سلالة البيت المالك القديم، ولا شك في أنه كان هناك مطالبون بالعرش في البلاد، أو مدَّعون له كثيرون، فظهور مُطالب آخر مثل «أمنمحات» ليس بالأمر الغريب، على أن تسمية «أمنمحات» «بابن الإنسان»[٦] كما ذكر ذلك فيما سلف على لسان ذلك المتنبئ يلفت نظرنا، كما يوحي إلينا في الحال بوجود علاقات بين هذه التسمية والتسمية التي تُطلق على المسيح عليه السلام؛ إذ إن ذلك التعبير قد استُعمل في النصيحة الموجهة إلى «مريكارع» ليدل على «ابن رجل ذي أهمية» وقد جرى في بلاد «بابل» القديمة استعمال تعبير مشابه لذلك التعبير، وذلك الإعلان الذي أعلنه ذلك المتنبئ يشمل القيام بعملين يتعهد بإنجازهما مليكه، وهما من الأهمية للشعب البائس في مصر الطريحة بمكان وهذان العملان هما:

أولًا: القضاء على المغيرين وأخذ العدَّة لدفع الغارات المقبلة.

ثانيًا: إصلاح النظام الداخلي.

«فسور الحاكم» الذي سبق ذكره كان قلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية، وكان واقعًا على التخوم الأسيوية، وقد بُني لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر في عهد بناة الأهرام، وقد أعلن «نفرروهو» أن الملك سيعيده كما كان من قبل.

والصور التي رسمها لنا ذلك المتنبئ عن الحالة التي نتجت عن دخول الأسيويين؛ يذكرنا بما ورد في الرواية العبرانية الخاصة برحلة دخول أجدادهم إلى مصر.

أما إعلان الإصلاح الذي حدث في النظام الداخلي فإنه يسترعي الأنظار لقصره وبساطته؛ إذ يقول: «إن العدالة ستعود إلى مكانتها، والظلم سينبذ بعيدًا.» فكانت إذن «ماعت» القديمة هي التي سيعيدها الملك الجديد في شكل نظام ثابت؛ يكون رقيبًا ومهيمنًا على حياة الشعب المصري الاجتماعية.

وقد رجع إلى «ماعت»، وهي ذلك النظام القديم الذي مكث ألف سنة مرشدًا ومهيمنًا على الحاكم وحكومته، سلطانها مرة أخرى من جديد.

---

[٦] «ابن الإنسان» اسم يطلق على المسيح عليه السلام.

ومن المحتمل أن الابتهاج الذي يظهره ذلك المتنبئ العتيق؛ كان يعني المثل العليا القديمة للأخلاق الفاضلة والسعادة القويمة، غير أن تلك الحالة كانت — مع الأسف — بعيدة عن الحقيقة الواقعة؛ فإن «أمنمحات» وهو من كبار الإداريين في العالم القديم، وكان قد وهبه الله فطنة عظيمة حتى أعاد بلا نزاع ذلك النظام القديم بقدر ما سمحت له الأحوال. قد حتمت عليه الظروف أن يتخير عماله وموظفيه لإدارة شئون البلاد من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا ونشئوا في عهد ذلك الانحطاط الذي جاء عقب عصر الأهرام وأشربت قلوبهم حب الفوضى والفساد، مما أدى إلى قتله ونصحه لابنه بعد موته في رؤية صادقة بألا يعتمد على أحد كما سيجيء بعد.[٧]

(٣) نشأة أمنمحات وعبادة الإله آمون

تلك كانت حالة البلاد المصرية كما يريد أن يصفها لنا «نفرروهو» أو كما يريد أن يصورها لنا «أمنمحات» عند توليته العرش، وسنرى فيما يلي الإصلاحات العظيمة التي أدخلها الفرعون العظيم في خلال مدة حكمه الطويل. ومن الغريب أن المؤرخ «مانيتون» لم يذكر لنا في تاريخه عن هذا البطل العظيم شيئًا إلا أنه هو المؤسس للأسرة الثانية عشرة، ومن مدلول اسمه «أمنمحات» (آمون في الأمام)؛ أي آمون أمام الإله، نلحظ أن أسرته كانت تنتمي إلى عبادة الإله «آمون» معبود «طيبة» المحلي، وأنه كان يقدس هذا الإله أكثر من الإله «منتو» إله الحرب وهو معبود بلدة «أرمنت» المحلي، وكان ملوك الأسرة الحادية عشرة يقدسونه أكثر من «آمون» ويمزجون اسمه في تركيب اسمهم «منتو حتب»، هذا على الرغم من أن عاصمتهم كانت طيبة، ولكن من يوم أن اعتلى «أمنمحات» الأول عرش الديار المصرية أخذ نجم الإله «آمون» يعلو ويتلالأ بين الآلهة المصرية؛ حتى صار فيما بعد أعظم الآلهة المصرية شهرة وعظمة وثراء؛ لدرجة أن غطى على شهرة كل الآلهة المصرية، وانتحل لنفسه صفاتها ليكون هو الإله المسيطر، ومن ذلك أن كهنته لاحظوا أن الإله «رع»؛ أي الشمس، كان أعظم الآلهة المصرية نفوذًا وعظمة فمزجوا اسم «رع» باسم «آمون» وأصبح يسمى «آمون رع»؛ ومنذ عهد هذا الفرعون أخذ ثالوث مدينة «طيبة» يزداد شهرة ويتألف من الأب وهو «آمون» ومن الأم وهي «موت» ثم

[٧] راجع كتاب الأدب المصري القديم من ص٣١٩ … إلخ.

من الابن وهو «خنسو»؛ (أي القمر) وكلهم حسب الاعتقاد المصري إله واحد، أما الآلهة الآخرون فأخذوا يتضاءلون أمام هذا الثالوث، اللهم إلا الإله «أوزير» إله الآخرة، فإنه حفظ مكانته وسلطانه، وسنرى فيما بعد أن كهنة «طيبة» قد ازداد سلطانهم تدريجًا، حتى إنهم في النهاية أصبحوا أصحاب السيطرة الدينية في البلاد كلها، وأغنى طائفة فيها في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة؛ وسنتكلم عن نشأة عبادة «آمون» عند الكلام على الديانة.

(٤) مقر الملك الجديد

ولكن على الرغم من أن «أمنمحات» قد نجح في رفع شأن آمون إله «طيبة» المحلي وهي مسقط رأسه، وجعله يُعبد في كل البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فإن حالة البلاد عندما أخذ بزمام الأمور فيها لم تسمح له أن يجعل «طيبة» عاصمة ملكه، وقد كانت حاضرة الملك في عهد الأسرة الحادية عشرة؛ لأنه كان يريد أن يجعل كل البلاد في متناول قبضته، فرأى بثاقب نظره أن مقر الملك يجب أن يكون في نقطة تكون كواسطة العقد بالنسبة لبلاده، فضرب صفحًا عن «طيبة» مقر أسلافه واختار بقعة بعيدة عن «إهناسية» عاصمة الملك في خلال الأسرتين التاسعة والعاشرة، كما أحجم عن اتخاذ «منف» عاصمة الملك في عهد الدولة القديمة التي كانت حاضرة لسلسلة فراعنة أمجاد، والظاهر أنه كان يرمي من وراء إبعاد الحكم عن هاتين العاصمتين أن يكون مجدِّدًا في كل ما يقوم به، وفي الوقت نفسه معيدًا للبلاد عظمتها وسمعتها. وقد وقع اختياره على بقعة تدل شواهد الأحوال على أن قرية «اللشت» الحالية قامت على أنقاضها، وهي تبعد نحو ١٥ ميلًا جنوبي «منف»، والواقع أن الموقع الحقيقي قد ضاعت معالمه، وقد أقام في هذه البقعة مدينة محصنة كانت تحتوي على القصر الفرعوني ومركز القيادة العامة للجيش على ما يظهر، وقد أطلق على العاصمة الجديدة اسم «اث تاوى»[٨] «اللشت» الحالية ومعناها «مراقبة الأرضين» … وقد وصف القصر بأنه محلى بالذهب وأبوابه من نحاس، وأقفاله من الشبه، وكان كل بنائه قد أتقن إتقانًا عظيمًا، غير أن يد التخريب لم تبقِ منه أي أثر، وبهذه المناسبة نذكر أنه قد عثر على قاعدة تمثال صغير للفرعون «أمنمحات» مصنوع

[٨] A. Z. 59. P. 53.

من النحاس في «سينا» وهذا يدل على أن هذا الفرعون كان يستخرج النحاس الذي استعمله في مبانيه من مناجم «سينا» في عصره.

.(Gardiner and Peet, Inscrptions of Sinai, Pl. 63)

(٥) نظرة عامة في أخلاقه وإصلاحاته

ولا نزاع في أن هذه التسمية «مراقبة الأرضين» تحكي قصة ما كانت عليه البلاد وقتئذ من القلق والاضطراب كما وصفها «نفرروهو»، وأن «أمنمحات» لم يكن بالرجل الذي يخدع نفسه؛ إذ كان يعرف أنه لم يكن بالفرعون المحبوب، بل ربما كان يعدُّ في نظرهم دخيلًا على البيت المالك الأصلي، وإن كان ينتسب إلى فرع منه على حسب إحدى الروايات؛ وأن أكبر شفيع له في تولي عرش البلاد واحترام الأهلين له يرجع إلى كفايته في إدارة البلاد بعد طول الفوضى، وأنه هو المصلح المنتظر الذي تنبأت بظهوره الأساطير منذ قديم الزمان. وحقًّا قد حقق ما أنبأت به الكتب بما أظهره من مقدرة نادرة في توجيه سكان البلاد، وهي تلك المقدرة التي ورثها عنه أخلافه، وميزت هذه الأسرة وجعلتها أقوى أسرة مصرية، حكمت البلاد في كل عصورها بمقدرة فذة وكفاية منقطعة النظير، حتى أصبح عصرها يُعرف بالعصر الذهبي في تاريخ الديار المصرية؛ وبخاصة من حيث الإدارة والأدب والفن.

ذكرنا فيما سبق أن نبوءة «نفرروهو» لم تكن إلا دعاية لهذا الفرعون، ومبررًا لاعتلائه عرش الملك أمام الشعب المصري، وقد كان مما تنبأ به هذا الحكيم أنه سيقام «سور الحاكم» ولن يسمح للأسيويين ثانية بنزول مصر، ولا نزاع في أن «نفرروهو» يشير هنا إلى سور الحدود الذي كان مقامًا على خليج السويس ليصد غارات الأسيويين عن بلاد الدلتا، وقد كانت هذه الغارات الأسيوية موضع شكوى في الأزمان السالفة.

(٦) تاريخ سيدنا إبراهيم وما يقال عنه

وينسب بعض المؤرخين خروج إبراهيم عليه السلام وطرده من مصر إلى هذا العهد، وأن الإشارة إلى الأسيويين في نبوءات «نفرروهو» يقصد بها هذا الحادث بعينه (Weigall, A .History of the Pharaohs, Vol II, P. 40)

وإذا كان من الأمور الثابتة أن «إبراهيم» عليه السلام كان معاصرًا لأحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة، فالقول بأنه معاصر بالذات للفرعون «أمنمحات الأول»، وأن طرده حادثة مؤكدة وقعت في عهد هذا الفرعون قول لا نجد برهانًا على صحته؛ بل نذهب إلى جحوده وإنكاره لأسباب تاريخية؛ فإن من المتفق عليه أن «أمرافيل» Amraphel الذي هزمه إبراهيم عندما كان يريد خلاص ابن أخيه لوط، هو «حمورابي» البابلي؛ أي إن «إبراهيم» كان معاصرًا له، والبحوث التاريخية الحديثة تميل إلى وضع تاريخ حياة «حمورابي» معاصرة بعد قرن على الأقل مما أرَّخا به له من قبل، وآخر تاريخ متفق عليه الآن لهذا الملك البابلي العظيم هو عام ١٩٤٠ق.م، أو ما يقرب من ذلك (Sidney Smith, The Early History of Assyria, PP. 70–71).

ولذلك فإن التاريخ ٢٠٠٠ق.م، الذي يظن المستر «ويجول» أنه يعاصر «أمنمحات الأول» يسبب فجوة تبلغ نحو ٧٠ سنة تقريبًا بين إبراهيم عليه السلام المعاصر للملك «أمنمحات الأول» و«إبراهيم» المعاصر للملك «حمورابي». وهكذا يجد القارئ نفسه أمام نظريتين جذابتين في ظاهرهما، ولا يمكن القطع بإحداهما ما دام التاريخ لا يمكن القطع بصحته بصفة نهائية في مثل هذه الأحوال التي يرتكز التاريخ فيها على استنتاجات قد تصيب وقد تخطئ، ولكن يمكننا أن نقول على وجه التقريب: إن إبراهيم عليه السلام كان معاصرًا لأحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويرجح جدًّا أنه كان يعيش في عهد أحد أواخر ملوك هذه الأسرة لا عهد أحد أوائل فراعنتها.

وهذا كل ما يمكن القول به الآن إلى أن تجود الكشوف في مصر أو «بابل» بما يكشف النقاب عن هذا الحادث العظيم في تاريخ البشر، وبخاصة من الوجهة الدينية.

(٧) إصلاحاته وسياساته الداخلية

ومما لا ريب فيه أن تولي «أمنمحات الأول» مُلك مصر لم يقابَل بالترحاب من أمراء المقاطعات الذين كان ملكهم في مقاطعاتهم وراثيًّا، فكان كل واحد منهم يحكم في عاصمة مقاطعته كأنه ملك مستقل؛ ولذلك عارضوا في توحيد السلطة في كل البلاد من أقصاها إلى أقصاها على يد الفرعون الجديد، ولهذا كان لزامًا على «أمنمحات» أن يذهب إلى كل مقاطعة بنفسه، ويضع كل أمير عند حدِّه، ويكبح من جماح أطماعه، وينزله من عليائه، بقدر ما كانت تسمح الأحوال به في كل مقاطعة، هذا فضلًا عن أنه على ما

يظهر قد ترك له سلفه حروبًا خارجية كان لا بد من متابعتها؛ ولذلك يقول «أدوردمير»: (Histoire de l'Antiquite, "Tome II. Par." 280)، لم يكن في مقدور «أمنمحات الأول» أن يظفر بعرش البلاد والمحافظة عليه إلا بالقوة، ونحن نعلم كذلك أنه كانت هناك حروب خارجية يمكن ربطها بالتغير الأسري، وهذه الحروب كانت قد بدأت فعلًا في عهد سلفيه «منتو حتب الثالث والرابع» وكانت ولا تزال قائمة في «آسيا» و«لوبيا» و«بلاد النوبة».

وقد قص علينا «خنوم حتب»[٩] أحد قواده في نقش جنازي نُقش على جدران مقبرته [غير أنه مما يأسف له مُلِيء بالفجوات] أنه ظهر مع الملك في أسطول يبلغ نحو عشرين سفينة مصنوعة من خشب الأرز، وأنه هزم العدو في مصر، وأخضع السود والأسيويين الذين كانوا في معسكر العدو، واستولى على الأراضي المنخفضة والأراضي العالية في كلا القطرين، وقد كافأ الفرعون «خنوم حتب» على ذلك بأن جعله أميرًا على بلدة «منعات خوفو» (بني حسن) التي كانت إلى هذا الوقت تابعة لمقاطعة الغزال، وفُصلت عن حكومة هذه المقاطعة، وكذلك ضم إليه إدارة الصحراء الشرقية، ولقد امتدت سيطرة هذه البلدة حتى شملت كل مقاطعة الغزال «بالقرب من المنيا»؛ والظاهر أن أسرة الأمراء القديمة في هذه الجهة كانت قد انضمت إلى المعسكر المعادي للفرعون فخلعوا من حكم هذه المقاطعة؛ ولذلك يظن أن السود والأسيويين الذين ذُكروا في هذه الحروب ليسوا إلا جنودًا مرتزقة كانوا يحاربون في المعسكر المعادي للفرعون.

ولما لم يكن في مقدور «أمنمحات» أن يجمع كل السلطة في يده دفعة واحدة، وأن يكون له الحق والسلطان المطلق في تولية حكام المقاطعات الوراثية وعزلهم كما كانت الحال في إبان عز الدولة القديمة؛ لجأ إلى سبيل أخرى للحد من شوكة هؤلاء الحكام الوراثيين والأسرات القديمة القوية، وتلك أنه أخذ يضمهم إلى جانبه بإغداق الإنعامات عليهم ومنحهم الألقاب الرفيعة وتقريبهم منه بالحظوة والوعود الخلابة.

والواقع أن هذه السياسة الحاذقة قد نجحت نجاحًا باهرًا، وبذلك تركت الأسرة الثانية عشرة في تاريخ الفراعنة الطويل ذكرى لعصر كان نظامه الإداري غاية في القوة والرخاء، وبخاصة في نهاية عهدها، وكذلك كان لها أثرها المجيد في السياسة والحياة الاقتصادية؛ هذا إلى تجديد قوى مبتكرة في الفن والأدب. وقد بقي ذكرى إصلاح هذا

[٩] Newberry, A. H. Vol. I, Pl. XIV; Breasted, A. R. Vol. I, Par. 363–455.

الفرعون العظيم يتغنى به الأمراء حتى إن «خنوم حتب الثاني» أمير مقاطعة الغزال أخذ يعدد لنا إصلاحات هذا الفرعون العظيم بعد مضي ثمانين عامًا على عهد جده، وكيف أنه كافأه على إخلاصه وولائه فيقول: «لقد ذهب لمعاقبة الحرم مشعًا مثل «أتوم» نفسه لأجل أن يعيد النظام الذي كان قد قُضي عليه، ويعيد لكل مدينة ومقاطعة ما كان قد انتُزع منها، ويجعل كل إنسان يعرف حدوده بالنسبة لغيره ناصبًا حدودها مثل السماء، ومرتكنًا على السجلات في معرفة كل واحد (أي ما يخصه من فرع النيل وترعه)، وأن يعيد مساحة الأراضي حسب ما جاء في السجلات القديمة؛ وذلك لأن قلبه ينطوي على العدالة» (Beni Hassan Vol. I, Pl. XXXIII)، وإنا لنقرأ من بين السطور بوضوح المعنى الذي يرمي إليه هذا المتن؛ فقد أعاد «أمنمحات الأول» في مصر سلطان الملكية، وجعل الأمراء العظام يشعرون بثقل يده، والظاهر أنه قد عين أسرًا عدة في المقاطعات الأخرى أيضًا مثل «أسيوط». وتوجد بعض نقوش من بداية حكم هذه الأسرة تشير أحيانًا إلى المنازعات التي قامت بين الملك وأمراء المقاطعات، هذا؛ وتشير التعاليم التي وُضعت على لسان «أمنمحات» إلى عهد الرخاء الذي كان يمتاز به عصره كما سيجيء بعد.

والواقع أن «أمنمحات» الأول أحيا في نواحي البلاد كلها تلك الروح القومية القديمة التي أخنى عليها الدهر زمنًا طويلًا.

(٨) آثاره المندثرة وما بقي منها

وأخذ هذا الفرعون في إقامة آثار عظيمة في طول البلاد وعرضها، وأصلح كثيرًا من المعابد التي كانت قد هُدمت، محييًا بذلك ذكري الآلهة التي اندثرت آثارهم. ففي «تانيس» عثر على عتب باب منقوش باسم (A. Z. XXV, 12) مما يدل على أنه قد أقام أو أصلح معبدًا هناك، وعثر في «تل بسطة» على بقايا معبد أقيم تكريمًا للإلهة «باست» «القطة» (Naville, “Bubastis; Pl. XXXIII”)، وفي «منف» أهدى مائدة قربان للإله «بتاح» (Monuments Divers 34 f) ومن المحتمل كذلك أن التمثال الذي عُثر عليه في «تانيس» قد نُقل من «منف» (Petrie, “Tanis” Vol. I, P. 3) ورأس هذا التمثال مرسوم في تاريخ مصر للأستاذ «بتري» (راجع شكل ١) (Petrie, A History of Egypt, Vol. 1 P. 155).

وفي بلدة «شدت»؛ أي (الفيوم الحالية) عثر على بقايا تماثيل وأعمدة من معبده (Petrie, Hawara P. 57) وفي العرابة المدفونة أهدى مائدة قربان (مذبح) للإله «أوزير» (Mariette, Abydos, 138)، وفي «قفط» عثر على قطعة من جدار معبد منقوش عليها اسمه (Petrie, History, 1. 157) وكذلك عثر في «دندرة» على بقايا معبد مشابهة للسابقة (Dumichen, Dendarah, III f. IV b)، وكذلك عثر في «الكرنك» على بقايا أعمدة هناك مهداة للإله «آمون رع» (Mariette, Karnak, 8 d. e.).

وعثر له على قاعدة تمثال في «سينا» عليها اسمه (Gardiner and Peet, Sinai, Pl. 19, 63).

وأقام هرمه بالقرب من «اللشت» عاصمة الملك، وسنتناول الكلام عليه فيما بعد.

وكذلك قام بإصلاحات في «معبد منتو» «ببلدة أرمنت» راجع (Mond, Temples of Armant, "Text", P. 168 ff).

(٩) بعثته إلى وادي الحمامات

ولقد أرسل هذا الفرعون بعثة إلى وادي الحمامات على رأسها «أنتف»[١٠] الذي كان يحمل لقب الأمير الوراثي، وحامل الختم الملكي، والسمير الوحيد، والمبعوث الملكي، والكاهن الأعظم للإله «مين»، وقد خلف لنا «أنتف» هذا لوحة تذكارية لحملته هذه يقول فيها:

> أرسلني سيدي إلى «وادي الحمامات» لأحضر هذا الحجر الفاخر، ولم يكن قد أتى بمثله منذ عهد الآلهة، ولم يكن هناك باحث يعرف غرابته، ولم يتمكن أحد ممن بحثوا عنه من الوصول إليه، على أني قضيت ثمانية أيام في البحث عن هذا المرتفع (الذي فيه الحجر) فلم أعثر على المكان الذي كان فيه، ولقد سجدت للإله «مين» وللإلهة «موت» (والدة الإلهة خنسو بطيبة) ولإلهة السحر العظيمة، ولكل آلهة هذه الأراضي المرتفعة مقدِّمًا البخور لهم على النار. وفي ذات يوم عندما طلع الفجر بدأت أجوب جبال وادي الحمامات ورجالي خلفي وأناسي منتشرون على الجبال باحثين في كل هذه الصحراء، وفي النهاية وجدته،

[١٠] Breasted, A. R. Vol. 1, Par. 468; L. d. II, 118 d; Couyat et Montet, Les Inscriptions Hieroglyphiques et Hieratiques du Ouadi Hommamat, 101.

> وكان العمال فرحين والجيش بأجمعه يحمدون الله، وسُروا خاشعين، وشكرت الإله «منتو».

(١٠) حروبه الخارجية ضد آسيا

ولم يكن نشاط هذا الفرعون منحصرًا في داخل بلاده فحسب، بل وجه همه لمنع هجرة الأسيويين عن طريق «سور الحاكم» السالفة الذكر، واتخذ كذلك تدابير فعالة ضد بدو الصحراء الشرقية، كما تدل على ذلك النقوش التي تركها لنا «نسومنتو» وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر وقد كان هذا القائد مرتاحًا لنتائج حملته، فيقول في اللوحة التي نقشها تذكارًا لهذا[11] الحادث في السنة الرابعة والعشرين من حكم هذا الفرعون:

> كل كلمة ذكرت على هذه اللوحة صادقة تعبر عما حدث بقوة ساعدي، وهو ما فعلته في الواقع، وليس فيه تمويه، وليس فيه أي مين؛ فقد قهرت سكان الكهوف من الأسيويين، وسكان الرمل وخربت معاقل البدو، وجعلتها كأن لم تغنِ بالأمس، ووطئت حقولهم، وتقدمت أمام الذين توانوا خلف حصونهم «من جنودي» ولم يجاريني في ذلك أحد وذلك بأمر الإله «منتو»؛ والظاهر أن جنود «نسومنتو» كانوا يفضلون النجاة على البطولة.

(١١) حروبه في بلاد النوبة

أما في بلاد النوبة فإن «أمنمحات» قد وطد سلطانه فيها، وقد لمح بذلك في التعاليم المنسوبة إليه، وهي التي ألقى فيها على ابنه دروسًا في الحياة، فيقول: «لقد أذللت الأسود، واصطدت التماسيح، وقهرت أهل «واوات» وأسرت قوم «المازوي» وجعلت الأسيويين يمشون كالكلاب.» وقد وُجدت كذلك نقوش مختصرة على صخرة في «كرسكو» تدل على وصول جيوش الفرعون إلى هذه البقعة «في السنة التاسعة والعشرين من حكم ملك الوجهين القبلي والبحري «سحتب إب رع» «أمنمحات الأول» عاش مخلدًا، لقد جئنا

[11] Louvre c. 1 Breasted A. R. Vol. I, Par. (469–471).

لنهزم أهالي «واوات».» (A. Z. (1882) P. 30; Breasted A. R. Vol. I, Par. 472) ولا نعلم إذا كان الفرعون قد قاد الجيش بنفسه في هذه الحملة، أو ذهبت بقيادة أحد عظماء رجال دولته، والمرجح هو الرأي الثاني؛ وذلك لأن «أمنمحات» وكان قد تقدَّم في السن في هذه الآونة.

(١٢) إشراك ابنه «سنوسرت» معه في الحكم

ولما كان «أمنمحات» قد أخذ يتقدم في السن وكانت بغيته أن يناضل بنجاح مستمر في القضاء على حكام المقاطعات الوراثيين الذين كانوا يدافعون عن استقلالهم بكل وسيلة وبالقوة، رأى أن يشرك ابنه الأكبر في تولي مهام الحكم معه، وهو النظام الذي جرى عليه أخلافه من بعده، ولذلك عدت هذه الخطة الحكيمة من مميزات هذه الأسرة؛ ولا شك في أن هذا التجديد في نظام الحكم يعد عملًا حكيمًا؛ لأنه قضى على معظم الفتن والدسائس التي كانت تتبع عادة عند موت الفرعون الحاكم.

والواقع أن سلطان الفرعون قد زاد بإشراك ابنه «سنوسرت» معه في حكم البلاد عام (٢١ من حكم أمنمحات)، فقد ظهر أثر ذلك في الأقاليم؛ إذ أخذ الفرعون يتدخل فعلًا في شئون حكام المقاطعات الخاصة كلما سنحت له الفرصة، فمن ذلك أن الفرعون استطاع أن يحفظ لنفسه حق تولية كبار الموظفين في المقاطعات وعزلهم، وقد كان هذا الحق من قبل من حقوق الأمراء أنفسهم منذ عدة أجيال متعاقبة، وبهذه الطريقة تمكن الفرعون وحكومته من استعادة السلطة العليا المطلقة في كثير من المقاطعات، وهي السلطة التي لم يكن يتمتع بها الفراعنة إلا اسمًا منذ نهاية الأسرة السادسة.

(١٣) سلطة الوزير

وفي ظل هذه السلطة استعادت الحكومة المركزية نفوذها القديم الذي كان قد انمحى منذ زمن بعيد، وقد وضع الفرعون على رأس هذه السلطة المركزية وزيرًا كان في الواقع يعد ساعد الفرعون الأيمن، وممثله في كل شئون البلاد المالية والقضائية والحربية ... إلخ.

ولا شك في أن إدارة الوزير للبلاد بما فيها من أنظمة حازمة، كانت نموذجًا صالحًا لكل الأنظمة الرئيسية، مما جعل البلاد بأجمعها تسير على نظام إدارة واحد حازم،

يشمل الأمور المالية والقضائية والحربية أيضًا، وهذا النظام قد حل محل النظام المرتبك القديم في المدة السالفة. أما في الأمور الدينية فإن الآلهة المختلفة التي كانت تُعبد في كل البلاد قد بقيت على حالها مع إصلاح معابدها، والشيء الجديد هو ظهور الإله «آمون»؛ ولقد عظم شأنه حتى أصبح الإله الأعظم الرسمي للحكومة، وبذلك غطى على معظم الآلهة كما سبق ذكره، اللهم إلا الإله «أوزير» فقد حفظ مكانته بوصفه إله الآخرة.

(١٤) تفكير الفرعون في إصلاح الفيوم

ولم تقف جهود «أمنمحات الأول» عند الإصلاحات الإدارية والبنائية، بل كان كذلك أول من فكر في كثير من المشروعات التي تعود على البلاد بالخير، ولعل أجدرها بالذكر التفاته إلى إصلاح إقليم الفيوم، ويعزو بعض المؤرخين إليه أنه هو أول من فكر في إنشاء خزان المياه الذي عُرف فيما بعد باسم بحيرة «موريس»، وينسب إلى «أمنمحات الثالث» إتمامه جملة.

(١٥) محاربته اللوبيين

وكان آخر حادث هام في حياة هذا الفرعون المسن هو إرسال جيش إلى الحدود الغربية لتأديب اللوبيين وكبح جماحهم، فسار «سنوسرت» ابنه وشريكه في الحكم على رأس الجيش، وعندما كانت الحملة عائدة من الحدود مظفرة قابلها رسول من قبل كبير أمناء القصر ليخبر «سنوسرت» باغتيال والده. وقد بقي لنا وصف هذا الحادث بكل ما فيه من اضطراب وفزع في قصة «سنوهيت»، وقد وصلنا منها لحسن الحظ عدة نسخ، وسنترك المتن المصري يقص علينا تفاصيل هذا الخبر، وما لابسه من الأحداث، ونراه يبتدئ بألقابه ثم يقص قصته فاستمع إليه.

متن القصة

الأمير الوراثي، والحاكم ومدير ضِياع الملك في بلاد الأسيويين، والسمير الوحيد للملك والمحبب إليه «سنوهيت». الخادم «سنوهيت» يقول: «كنت خادمًا يتبع سيده، وخادم نساء الملك يخدم الأميرة، صاحبة الثناء العظيم، زوجة «سنوسرت» الملكية في بلدة الهرم المسماة «ختم–أسوت» والابنة الملكية «لأمنمحات» في بلدة الأهرام «كانفرو» المسماة «نفرو» المحترمة.

واتفق أنه في السنة الثلاثين في اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان دخل الإله أفقه[١٢] «مات».

فطار الملك «أمنمحات» إلى السماء واتحد مع قرص الشمس، وامتزج جسم الإله بجسم خالقه[١٣] وعندئذ صمت القصر، وامتلأت القلوب حزنًا، وأُغلق البابان العظيمان[١٤] وجلس رجال القصر رءوسهم منكسة على رُكبهم، وحزن القوم.

وكان جلالته قد أرسل جيشًا أرض «التمحو»[١٥] وكان بكر أولاده «سنوسرت» الطيب ضابطًا فيه، وقد كان في هذه الأثناء عائدًا بعد أن استولى على أسرى من «التحنو»[١٦] وكل أنواع الماشية التي يخطئها العد.

وأرسل أمناء القصر إلى حدود غرب «الدلتا» ليخبروا ابن الملك بالحادث الذي وقع في البلاط، وقد قابله الرسل في الطريق ولحقوا به عند الغروب، فلم يتأخر طرفة عين؛ إذ طار الصقر[١٧] مع خادمه، ولم يعلم بذلك الجيش، ورغم ذلك فقد أرسلت رسالة[١٨] إلى أولاد الملك الذين كانوا معه في الجيش وطلب واحد منهم، وتأمل: لقد وقفت وسمعت صوته حينما كان يتكلم؛[١٩] إذ كنت عن كثب.

[١٢] أما ترجمته — حسب الاستعمال — «بالأفق» كان في الحالة الأولى مسكن إله الشمس في السماء، ثم استعمل للأمكنة التي تشرق منها الشمس وتغرب فيها. ولما كان الملك هو ممثل إله الشمس فإن قصره وقبره كان كل منهما يسمى «الأفق»، والمقصود هنا هو القبر.

[١٣] يسبح إلى السماء ويصير ثانيًا جزءًا من الشمس التي خرج منها.

[١٤] عند مدخل القصر.

[١٥] قوم من اللوبيين في غرب الدلتا كانوا ينهبونها بانتظام.

[١٦] قوم آخرون من اللوبيين.

[١٧] الملك الجديد «سنوسرت الأول».

[١٨] أي من حزب آخر إذ كانت هناك مؤامرة لوضع ملك آخر يناهض «سنوسرت» وقد مر «سنوهيت» على هذه المسألة دون أن يذكرها بوضوح.

[١٩] من المحتمل أنه هو الأمير الذي طلب.

(١٦) المؤامرة ضد ولي العهد ونصيب «سنوهيت» فيها وفراره

ولا شك في أننا نرى في هذه الجمل القصيرة صورة تامة للأزمة التي حدثت في القصر عقب اغتيال الفرعون، فإنه مات بسبب مؤامرة دُبرت ضده، كما سنوضح ذلك بعد. وقد أعقب هذا الاغتيال دسيسة لتولية أحد أولاد الملك غير «سنوسرت» الذي كان يعتبر خلفه؛ لأنه أشركه معه في الملك مدة تربي على عشرة أعوام، والظاهر بل الواقع أنه كان في البلاط حزبان: حزب موالٍ «لسنوسرت» وآخر موالٍ لابن آخر للملك، ومن حسن الحظ أن رئيس الأمناء في القصر كان يعلم بهذه المؤامرة، وكان في الوقت نفسه على ولاء تام لولي العهد، فأسرَّ إليه بخبر الأزمة التي كانت في البلاط بعد وفاة والده، وطلب إليه العودة على جناح السرعة دون أن يضيع لحظة واحدة، ولكن الحزب الثاني كان على استعداد لانتهاز الفرصة، ولا يبعد أن رجاله هم الذين دبروا المؤامرة ضد الملك، وتمكنوا من تطيير الخبر إلى الأمير الذي وقع عليه اختيارهم من بين أبناء الملك الذين كانوا يحاربون في الجيش مع ولي العهد، غير أن مغادرة «سنوسرت» الجيش كالبرق ومعه ثلة من رجاله الذين يعتمد عليهم مكنه من القضاء على المؤامرة قبل أن تنفذ؛ لأننا لم نسمع عنها بعد ذلك، وتدل ظواهر الأمور على أن «سنوهيت» كان له ضلع مع الفريق المتآمر ضد «سنوسرت»، وأنه كان يعلم بها، وإلا فليس هناك أي تفسير آخر للفرار المفاجئ، والفزع الذي استولى عليه حينما استرق السمع وأصغى لرسول المتآمرين ضد «سنوسرت» حيثما كانوا يقصون رسالتهم على الأمير الذي أرسلوا في طلبه لتولية العرش؛ إذ يقول: «وعندئذ كان قلبي يتحرق، وخارت ذراعاي، واستولت الرعدة على جميع أعضائي، فقفزت باحثًا عن مكان أختبئ فيه، فوضعت نفسي بين أيكتين لأفسح الطريق للمسافر فيها (أي لأكون بعيدًا عن الطريق المطروق)، ثم سرت نحو الجنوب، ولم يكن غرضي الوصول إلى مقر الملك؛ لأني فكرت أن الشجار يقوم هناك، ولم يكن يهمني أن أعيش بعده ... إلخ» (كتاب الأدب المصري ص٣٥)، هذا؛ ولا يمكننا أن نفسر الوقت الطويل الذي قضاه في الخارج قبل أن يسمح له «سنوسرت الأول» بالعودة من منفاه.

ولا بد أن «سنوهيت» قد أقحم نفسه في هذه المؤامرة التي كان مآلها الفشل التام، ولا أدل على ذلك من أنه لم يلمح لا من قريب ولا من بعيد عن سبب هربه وترك وطنه العزيز، مما جعل علماء الآثار المصرية يتحيرون في سبب فراره، مع أنه من كبار موظفي الدولة وأعلامها المشهورين، كما تدل على ذلك ألقابه؛ ولذلك نجده قد وصف هربه بصورة من أروع الصور الحية التي ورثناها من أدب الشرق القديم؛ إذ تدل على

براعة التملص والمروق من الموقف الحرج الذي يتطلب اللباقة والإبهام معًا؛ وبخاصة نلحظ تخلصه من الإجابة بصراحة عندما سأله «عمو ننشي» أمير «رتنوا العليا» ... إلخ (ص٣٦ من كتاب الأدب المصري القديم).

(١٧) الدعاية للملك «سنوسرت الأول»

وهكذا اغتيل «أمنمحات الأول» بعد أن مكث يحكم البلاد المصرية أكثر من ثلاثين عامًا قضاها في كفاح مر في داخل البلاد وخارجها، ولا بد أن «سنوسرت الأول» لما تولى المُلك كانت الأحوال في البلاط مضطربة، وأن الحزب المعارض له كان يدس له خفية. ولذلك احتال الفرعون الجديد على استمالة قلوب الشعب إليه وإثبات شرعيته للعرش بطرق تكاد تكون مبتكرة، واستعان على ذلك بحملة الأقلام الذين كان لهم قدم راسخة في حسن التعبير وصياغة الكلام، فكتب له «خيتي بن دواوف» نصائح وتعاليم جعلها على لسان والده، فقد جعل «أمنمحات» يظهر لابنه في رؤيا صادقة بعد وفاته، ويلقي عليه تعاليمه ونصائحه وتجاريبه في الحياة ليتخذها نبراسًا له يهتدي به في حكم البلاد.

ولقد ظل علماء الآثار واللغة يعتقدون أن هذه التعاليم كُتبت في حياة «أمنمحات» بعد مؤامرة أفلت منها، ولكن الواقع والبحوث الجديدة تثبت عكس ذلك؛ ولذلك سنفرد لها بحثًا خاصًّا حسب الآراء الحديثة التي كشف عنها الغطاء كل من الأستاذ «دي بك» الأثري الهولندي، والأستاذ «جردنر» العالم الأثري الإنجليزي[٢٠] (Melanges Maspero, Vol. 1, PP. 479 ff)، ثم نشفع رأيهما بالترجمة الحرفية.

(١٨) التعاليم المنسوبة إلى «أمنمحات الأول»

تدل الشواهد على أن تعاليم الملك «أمنمحات» لابنه «سنوسرت الأول» كانت تحتل مكانة عظيمة بين الوثائق الأدبية والتاريخية التي خلفتها الدولة الوسطى، وكان يستدل بها في كثير من المواضع على أنها من مأثور كلام هذا الفرعون، غير أن البحوث الحديثة تكاد تثبت بصفة قاطعة أن هذه التعاليم لم يفُه بها «أمنمحات الأول» وأنها كُتبت بعد وفاته لتكون بمثابة دعاية سياسية لابنه «سنوسرت الأول» الذي تولى حكم البلاد بعده

[٢٠] Gardiner, Melanges Maspero, Vol. I, PP. 491 ff.

مباشرة. وقد دلل الأثري الكبير الأستاذ «دي بك» على ذلك بأدلة قوية مقتبسة من صلب متن التعاليم نفسها، وكذلك من وثيقة عثر عليها بين أوراق «شستر بيتي» فقد جاء في هذه الورقة ما نصه:

> وأنه هو (أي الكاتب خيتي) الذي كتب مؤلفًا يسمى «تعاليم الملك سحتب-أب رع» عندما ذهب ليستريح منضمًّا إلى السماء وداخلًا بين أرباب الجبانة.

تحليل العلماء لهذه التعاليم

وقد تشكك الأستاذ «جاردنر» في أن «خيتي» هذا هو مؤلف هذه التعاليم قائلًا: «إنها قد تنسب إليه بسبب جهل أحد الكتاب في عهد الرعامسة، غير أنه من جهة أخرى يرى أن هذه التعاليم قد كُتبت في عهد «أمنمحات الأول»، وإن كان لا يجزم بالطريقة التي دوِّنت بها، وكل ما قاله في هذا الصدد لا يخرج عن كونه مجرد حدس وتخمين.»

فقال: «من المحتمل أنه عندما أشرك «أمنمحات» ابنه «سنوسرت» في حكم البلاد فاه أمام رجال بلاطه بنصائح غالية تحمل في طياتها ما لاقاه من المصاعب والمصائب، وما قام به من عظيم الأعمال، وما جعله يشرك ابنه معه في حكم البلاد، ولا يبعد أن رجال الحاشية الذين أعجبوا بهذه النصائح وتلك الحكم الثمينة، التمسوا من الملك أن يدوِّنها، فكلف بدوره كاتبًا ملكيًّا بذلك.»

ثم قال الأستاذ «جاردنر»: «إنه يمكن أن يقاس ذلك بالخطاب الذي ألقاه الملك عند تولية الوزير، كما نجد ذلك في مقبرة «رخمرع» وغيرها من المقابر.»

أما الأستاذ «دي بك» فيرى أن الملك «أمنمحات» قد قُتل في مؤامرة قامت ضده في القصر، ويدلل على ذلك بجُمل في صلب متن التعاليم وببراهين أخرى؛ إذ يقول: إنه جاء في صلب المتن الجملة التالية:

> لو كنت استللت سلاحي بيدي لكنت جعلت هؤلاء المخنثين يولون الأدبار، ولكن لا شجاع في الليل ولا أحد يحارب وحيدًا، ولا يحرز النصر بدون عضد.

فإذا اعترفنا أن «أمنمحات» يشير في هذه الفقرة إلى مؤامرة ناجحة ضده، وهذا على ما يظهر هو الرأي الصحيح، وأن ما جاء في ورقة «شستربيتي» من أن «خيتي»

هو مؤلفها كان لا بد لنا من أن نأخذ بنظرية من يقول: «إن الملك كان يتكلم، أو كان مفروضًا أن يتكلم من قبره.»

على أن ذكر الميت الذي يترجم حياة نفسه خاصة لا تقتصر على المتن الذي نتحدث عنه، بل نجدها في متون جنازية أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذه ليست هي الظاهرة الوحيدة في تعاليم هذا الملك التي تذكرنا بأسلوب الكاتب الذي يترجم حياة نفسه، وأكبر دليل على ذلك ما يأتي:

> لقد أعطيت الفقير وعلَّمت اليتيم، وقد جعلت الرجل المغمور الذكر يصل إلى غرضه مثل صاحب المكانة.

> وكذلك نجد في فقرة أخرى وهي من الصنف الذي نعثر عليه في تراجم الأموات:

> أنا الذي أنشأت الغلال والذي أحبه «نبر» (إله الحبوب)، والفيضان قد حياني باحترام (أي كان معتدلًا في أيامي)، ولم يجُع إنسان في سني حكمي، ولم يعطش خلالها أحد، وكل ما أمرت به كان في موضعه الصحيح.

ولا شك في أن أي عالم أثري يقرأ هذه الفقرات دون أن يعلم أنها من تعاليم «أمنمحات» لا يشك في أنها كانت على لوحة جنازية.

ولدينا فقرة أخرى يمكن أن تعتبر تفسيرًا للظروف التي انفجرت فيها المؤامرة، وهي في الوقت نفسه تمدنا بسبب من الأسباب التي بها نجحت في بادئ الأمر وهي الفقرة التي يقول فيها «أمنمحات»:

> انظر إن المصيبة قد حلت بي عندما كنت بدونك.

والقول بأن الثورة قد بدأت و«سنوسرت» بعيد عن العاصمة يتفق تمامًا مع بداية قصة «سنوهيت»؛ إذ نقرأ هناك أن «أمنمحات» قد مات عندما كان ابنه عائدًا من حملته إلى بلاد «لوبيا»، على أن السرعة التي عاد بها «سنوسرت» ليصل إلى مقر الملك مع كتمان الأمر عن جيشه، والرسالة التي بعث بها لإحضار أولاد الملك الذين كانوا يرافقون الجيش، وذعر «سنوهيت» الغريب وهربه؛ وسؤال الشيخ الفلسطيني «لسنوهيت» عما إذا كانت قد حدثت كارثة في العاصمة ثم محاولة «سنوهيت» إقناعه بعدم حدوث أي شيء شاذ، (وأن كل ما حدث هو أن «أمنمحات» قد رحل إلى الأفق … وأن ابنه قد دخل القصر وتولى

ميراث والده، واعترافه بأن موت «أمنمحات» لا تُعرف نتائجه). كل هذه الحقائق توحي إلينا أن هذا الموت لم يكن طبعيًّا، مما يتفق وما جاء في سياق التعاليم، ثم يأتي بعد ذلك في المتن (هذا إذا كان ما تُرجم هو المتن الصحيح): «قبل أن يسمع رجال البلاط أني سأسلمك «الحكم» وقبل أن أجلس معك.» وإني أفهم من هذه الكلمات أن «أمنمحات» قد حال بينه وبين إعلان ابنه ملكًا على البلاد بصفة رسمية موته المفاجئ.

وإذا كان هذا الرأي هو الصحيح عن محتويات هذه التعاليم فما هو إذن الغرض منها، وما القصد الذي من أجله كُتبت؟

والجواب عن ذلك أن هذه الوثيقة مقال سياسي في صورة قطعة أدبية صيغت دعاية لتعضيد حزب «سنوسرت الأول»، فقد رأينا أن «سنوسرت» بعد موت والده قد أسرع إلى مقر الملك، وقد وصل في الوقت المناسب، ليمنع ما يخشى من الأحداث، وقد أفلح في تسلم مقود المملكة التي كان والده قد أعدها له.

ولكن لا بد أن يكون تيار المعارضين قويًّا؛ إذ كان المنافسون له على وشك الوصول إلى مأربهم، وربما كان لديهم من الأسباب الحقة ما يبرر موقفهم ويقوِّي جبهتهم ويضعف من «سنوسرت» واستحقاقه العرش.

فمن المحتمل أن يكون «سنوسرت» قد لجأ إلى قوة السلاح الأدبي لتهدأ النفوس عقب الضربات القاصمة التي أودت بحياة الملك الكبير.

فقد كتب أديب بإيعاز من «سنوسرت» أو بوازع من نفسه هذه التعاليم يظهر فيها الملك المُتوفَّى بسلطانه العظيم يعضد «سنوسرت» ويخاطبه من قبره بوصفه الملك الشرعي على البلاد، ومتهمًا أولئك الأوغاد الذين أودوا بحياته، ولما كان غرضه من هذه التعاليم أن يعضد ابنه جاء في مستهلها بما يؤكدها ويثبت صدقها فذكر الجملة التالية يقول لابنه في رسالة صادقة:[٢١] وقد كان من الأمور الطبيعية في التفكير المصري أن يأتي الوالد المُتوفَّى من عالم الأموات لمساعدة ابنه على الأرض؛ وذلك لأن موتى المصريين كانوا دائمًا حاضرين، وكان لديهم من القوة ما يؤثر على حظوظ الأحياء، فكثيرًا ما نجد الحي يطلب مساعدة المُتوفَّى وحمايته، وقد عثر على كثير من الخطابات التي أرسلها الأحياء إلى الأموات؛ مما يوضح لنا تأصل هذه الفكرة في معتقدات المصريين.

[٢١] جاء في بحث جديد للأستاذ «جن» أن «أمنمحات» ظهر لابنه في رؤيا صادقة (حلم) بعد موته. وهذا هو الرأي القديم (J. E. A. Vol. 27. P. 4. ff).

وإذا كان من الممكن الاتصال بالموتى بالرسائل، وإذا كان في مقدور المُتوفَّى أن يقرأ ما يرد إليه من رسائل الأحياء فمن المعقول المنطقي — وكان المصريون منطقيين في مثل هذه الأمور — أن يكتب الأموات بأنفسهم للأحياء.

ولهذا عثرنا على عدد قليل من الخطابات أرسلها الأموات للأحياء مقابل ما يصل إليهم من أقاربهم، ومن بين هذه الوثائق ورقة «هاريس» التي وصفها «ستروف» الأثري الروسي بأنها تزييف ولكنه قديم، وقد ذكر فيها أن الملك «رعمسيس الثالث» المُتوفَّى (وقد كان كذلك فريسة لمؤامرة نسوية) قد أفرد أحد أولاده بأن يكون الوارث الشرعي للعرش، ويرجو من الآلهة والشعب أن يعضدوه، وبذلك أفسد الغرض الذي لاقى من أجله الملك حتفه، ولا شك في أن المتن الذي بين أيدينا الآن بمثابة مثال مبتكر من نفس هذا النوع من المقالات السياسية التي كُتبت للدعاية.

على أن الحرب بالأسلحة الكتابية أو الأدبية لم تكن من مبتكرات الملك «أمنمحات» الأول، وإذا كان من الممكن أن يصل إليه صدى من تعاليمه في العالم السفلي الذي غيب فيه، فإنه لا بد أن يذكر بابتسامة بنوءات «نفرروهو» عنه بأنه هو المخلص المنتظر الذي سينشر في البلاد عهد سعادة ورخاء، فقد كانت تلك النبوءات دعاية له في أول عهده عندما كانت شوكة الحزب المنتمي للأسرة الحادية عشرة لا تزال قوية، وقد كان من نتائج هذه الدعاية أن ضمت إلى جانبه شعور القوم الديني ومهدت له السبيل إلى اعتلاء عرش البلاد.

وفي اعتقادي أن هذه التعاليم تعد من نوع هذه الوثائق، ورغم أننا لا نرى أمامنا صورة ذلك الملك المسن اليقظ الصارم الذي لم تخدعه الأوهام؛ فإن لدينا في مقابل ذلك مقالًا هو دعاية سياسية ليس أقل حيوية ولا إنسانية من شخصه.

التعاليم والتعليق

التعاليم التي ألفها جلالة الملك «سحتب أب رع» ابن الإله «رع» أمنمحات الأول متحدثًا عن رسالة صادقة لابنه رب العالمين يقول:

> أنت يا من ظهرت إلهًا (أصبحت ملكًا) أصغ لما سألقيه عليك حتى تصير ملكًا على البلاد وحاكمًا على شواطئ النهر، وحتى يمكنك أن تفعل الخير «أكثر مما ينتظر»، خذ الحذر من مرءوسيك؛ لأن الناس يصغون لمن يرهبهم، ولا تقتربن

> منهم على انفراد، ولا تثقن بأخ، ولا تعرفن لنفسك صديقًا، ولا تصطفين لك خلانًا؛ لأن ذلك لا فائدة منه.

وبعد أن حذر ذلك الملك العظيم ابنه الثقة ببني الإنسان عامتهم حتى الأخ، حذره كذلك اتخاذ الخلان؛ لأن تجاربه الشخصية عرفته أن أقرب الناس إليه هم الذين اغتالوه. وبعد ذلك ينتقل الملك إلى نصح ابنه بألا يتكل على أحد آخر في أن يحافظ قال:

> وعندما تكون نائمًا كن الحارس لشخصك حرصًا على قلبك؛ لأن الرجل لا صديق له في يوم الشدة، فإني قد أعطيت الفقير، وعلمت اليتيم، وجعلت من لا ثروة له مثل صاحب الثراء، وقد كان آكل خبزي هو الذي جنَّد الجنود ضدي، والرجل الذي مددت له يد المساعدة هو الذي أحدث لي بها المتاعب، والذين يرتدون فاخر كتَّاني عاملوني كالذين في حاجة إليه، والناس الذين يتضمخون بعطوري قد لوثوا أنفسهم وهم يستعملونه «بخيانتي».

وانتقل «أمنمحات» بعد ذكره هذه الصورة التي تدل على الشك في الناس والتشاؤم منهم إلى حث خلفه، وهم لا يزالون يذكرون تأملاته المحزنة وما أتاه من الأعمال الحربية العظيمة، أن يعوا هذه المعلومات في أنفسهم؛ وذلك لأن الخلف دائمًا ينسى ما قام به السلف؛ ومع ذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى السعادة الحقيقية إلا بالمعرفة، اسمع إليه وهو يقول:

> وأنتم يا نسلي من الأحياء ويا من سيخلفونني من الناس؛ اعملوا على أن تكون أحزاني كأنها أشياء لم يسمع بها، وكذلك اجعلوا ما قمت به من عظيم الأعمال الحربية لا يُرى؛ وذلك لأن الإنسان يحارب في ساحة الوغى وقد نسي ما جري بالأمس، ومع ذلك فإن الإنسان الذي يتناسى العلم لا تتم له سعادة.

وينتقل الملك بعد ذلك إلى وصف الحالة التي كان عليها حينما هاجمه المتآمرون، قال: «لقد كان ذلك بعد العشاء حينما دخل الليل، وكنت أخذت ساعة من الراحة واضطجعت على سريري، وكنت متعبًا وأخذ قلبي يجدُّ وراء النوم، ثم شعرت كأن أسلحة تلوح، وكأن إنسانًا يسأل عني، فانقلبت كأني ثعبان الصحراء (أي قمت منتصبًا).»

وبعد هذه القطعة أخذ «أمنمحات» يصف موقفه الحرج عند الهجوم عليه. وهنا تختلف الآراء كما أوضحنا فيما مضى فيقول «دي بك»: إن الملك اغتيل فعلًا، أما «جاردنر»

فلا يعتقد ذلك. ولهذا نجد أن كلا منهما يترجم الجملة التي تشير إلى ذلك حسبما يظن: «وقد استيقظت على صوت الحرب، وكنت وحيدًا ووجدت أنها حرب جنود، ولو كنت أسعفت بالسلاح في يدي لكنت قد شتت شمل المخنثين شذر مزر؛ ولكن لا شجاع في الليل، ولا يمكن أن يحارب الإنسان وحيدًا؛ إذ لا نصر بدون معين.»

يرى بعد ذلك «أمنمحات» أنه قد أصبح طاعنًا في السن وليس في مقدوره أن يحكم البلاد وحده، ولما لاحظ أنه قد أصبح غير قادر على أن يتنبأ ويعوق المؤامرة التي دُبرت ضده؛ نزل عن الملك لابنه «سنوسرت» وهو الذي أشركه معه في حكم البلاد، ولذلك يقول: تأمل! لقد أريق الدم وأنت بعيد عني، وقد سلمت لك «الملك» قبل أن يسمع بذلك رجال البلاط، وعلى ذلك دعني، افعل ما تريد؛ وذلك لأني لم أحتَط لنفسي ضد هذه «المؤامرة»، فإني لم أفطن إليها من قبل، هذا فضلًا عن أن قلبي لم يتنبه إلى تراخي الخدم.

ينتقل بعد ذلك «أمنمحات» إلى التنويه بأن هذه المؤامرة قد دُبرت في الخدور، وقد وضع المؤلف هذه الحادثة في ثلاثة أسئلة قد اختُلف كثيرًا في ترجمتها، ونظن أن الأستاذ «جاردنر» قد قارب الحقيقة؛ إذ يقول:

> هل حدث أن النساء اصطففن في ميدان المعركة؟ وهل من لا يرعى حرمة القانون قد شب في القصر؟ أو هل الماء الذي كسر السد قد انطلق، وعلى ذلك خاب الفلاحون في عملهم؟

ويمكن فهم السؤالين الأولين تمامًا، أما الثالث فإنه استعارة تشبيهية من الطراز الأول؛ إذ من المحتمل أن نفهم منها أن الشعور بالولاء الذي نماه الملك قد تلاشى فأصبح الوئام الذي كان يسود القصر مقضيًّا عليه جملة؛ ولذلك شبهه بتوزيع مياه الفيضان في وقت الزرع بوساطة القنوات الصغيرة تشق الحقول وتقسمها إلى مربعات مثل رقعة الشطرنج، فإذا حدث خلل في هذه القنوات فإن كل المساحة تغمرها المياه، وبذلك يضيع تعب الفلاحين سدى.

على أن ما يأتي لا يثبت أن المؤامرة قد خابت، ويمكن فهم نتيجتها ضمنًا من قوله: «وسوء الحظ لم ينتبني منذ ولدت، هذا فضلًا عن أنه لم يتأتَّ لإنسان قط أن يقوم بمثل ما قمت به من الأعمال العظيمة بوصفي رجلًا شجاعًا.»

ثم ينتقل «أمنمحات» إلى تعداد ما أحرزه من النجاح في ميدان الأعمال المادية فيقول: «لقد اقتحمت طريقي إلى «إلفنتين» (أسوان)، ونفذت حتى مناقع الدلتا، ووقفت

عند نهاية حدود الأرض، وشاهدت وسطها، ووصلت إلى معاقل الحدود بقوة ساعدي وباهر أعمالي العظيمة.»

ثم يأتي ذكر أعمال الخير التي قام بها الفرعون المسن مادحًا إياها قائلًا:

> لقد كنت مؤسسًا للمحاصيل الزراعية، محبوبًا من الإله «نبر» رب الغلال، وقد حياني النيل في كل رقعة من الأرض المكشوفة، ولم يجُع إنسان في سني حكمي، ولم يسغب أحد خلالها (السنون)، ولكن القوم جلسوا في سلام بما عملت لهم وتحدَّثوا عني، وكل ما أمرت به كان في موضعه الحق، ولقد أذللت الأسود، واصطدت التماسيح، وقهرت أهل «واوات» وأَسَرت قوم «المازوي» وجعلت الأسيويين يمشون كالكلاب، وأقمت بيتًا مزينًا بالذهب، وسقفته باللازورد، ... ورقعته ... وأبوابه من النحاس وأقفاله من البرنز، وقد صنعتها لتبقى إلى زمن لا نهاية له، والأبدية تخشاها؛ لأنها لا يمكنها أن تقضي عليها.

ويأتي بعد ذلك عدة جمل لا يمكن فهمها؛ لأن المتن مشوَّه.

ولا نزاع في أن كاتب هذه التعاليم قد رسم لنا صورة التشاؤم والريبة التي بعثتها أحوال البلاد في ذلك العصر، رغم ما قام به «أمنمحات» من إعادة النظام القديم الذي كانت عليه البلاد بقدر ما استطاع؛ إذ كانت الأحوال قد حتمت عليه أن يتخير عماله وموظفيه لإدارة البلاد من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا وشبوا في عهد ذلك الانحطاط الذي عقب عصر الأهرام، وكانت قلوبهم قد أشربت حب الفوضى والفساد اللذين هوى إلى حضيضها الشعب المصري عدة قرون، ولم ينقذه منها في ذاك الوقت إلا «أمنمحات»، وإن كانت بقاياهما قد ظهرت ثانية في حادثة اغتياله على يد من أحسن إليهم؛ لذلك بدأ شعور النفوس في المجتمع المصري في ذلك العهد مملوءًا بالريبة والشكوك إلى حد أن ذلك الشعور قد انعكست ظلاله على أعظم أنواع الفنون في ذلك العصر؛ وأعني بذلك فن نحت التماثيل البشرية؛ فظهر في هيئات التماثيل الخالدة التي تمثل لنا ملوك الدولة الوسطى، سمة الرزانة والوجوم التي تلمح في أقوالهم ونصائحهم، والتي كانوا ينظرون بها في عصر إلى الحياة الدنيا. وعندما ننعم النظر في تلك الوجوه التي تدل على الجرأة والبطولة أمثال «سنوسرت الثالث» و«أمنمحات الأول، والثالث»، وقد ظللتها سحائب اليأس والقنوط، نرى أن نفس هذه الوجوه تُعد كشفًا جديدًا في ميدان الفن يميط لنا اللثام من غير شك عن روح ذلك العصر الذي يعتبر أقدم عصر معروف تخلص من الأوهام ولم ينخدع بها، (راجع صور هؤلاء الملوك في مكانها).

(١٩) هرم أمنمحات ومعبده

وقد أقام «أمنمحات» لنفسه هرمًا بالقرب من مدخل الفيوم (اللشت) يظهر أنه كان على أنقاض بلدة يرجع عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ. وتدل أعمال الحفر التي قامت في تلك الجهة على أن التصميم الأول للهرم ومعبده كان ضخمًا جدًّا، ولكن يظهر أن الملك رأى أنه لا يمكنه إتمام هذا العمل في حياته، وأن المكان الذي اختاره لم يكن ملائمًا من الوجهة الهندسية؛ لأنه كان ينحدر شرقًا وجنوبًا، فترى موضع الهرم وإن كان سهلًا؛ لأن الأرض التي أقيم عليها قد سُويت بقطع الأحجار من المكان العالي وبنائها في المكان المنخفض. إلا أن موضع المعبد كان غير معبد ويحتاج إلى عناء كبير؛ ولذلك اكتفى «أمنمحات» ببناء معبد صغير في الجهة الشرقية على مستوى منخفض جدًّا من الهرم. ومن المدهش أنه وجدت أحجار من أحجار المعبد كانت قد استعملت في بناء آخر باسم «أمنمحات»، ويحتمل أنه كان قد أعدها لبناء آخر ولكن استعملها في هرمه هذا. وكذلك تدل الأبحاث على أن هذا المعبد والهرم قد اغتصبهما ملك آخر فيما بعد، ولكن لا يمكن الجزم بذلك؛ لأن حجرة الدفن موجودة تحت الماء الآن.

ومن الأمور التي تلفت النظر رغم شيوعها منذ الدولة القديمة أن بناء قلب هرم «أمنمحات» وجدت فيه أحجار كثيرة منقوشة، معظمها يرجع إلى عهد الدولة القديمة، وقد اغتُصبت إما من «دهشور» أو «سقارة»، وقد كان تمييز هذه الأحجار من أحجار الهرم والمعبد الأصلية من الأمور الصعبة؛ وذلك لأن «أمنمحات» كان يقلد كتابة الدولة القديمة بكل دقة، بل كان أحيانًا ينقل أسطرًا منها كاملة، ولما تولى «سنوسرت» الملك بنى لنفسه هرمًا على مسافة ميل ونصف من هرم والده جنوبًا. وقد أقيم حول الهرمين عدة مقابر لرجال البلاط وكبار الموظفين، وقد كان قرب كل منهم وبعده من قبر سيده يتوقف على مركزه في البلاط والمجتمع. وحول قبور العظماء أقيمت قبور أسرهم وخدمهم. وقد أخذ عدد هذه المقابر يتزايد حتى شغلت حيزًا عظيمًا في أواخر الدولة الوسطى إلى أن جاء عهد «الهكسوس» فهُجرت؛ ومن ثم أصبحت تحت رحمة السرقة ولصوص المقابر، وقد كان أول بناء عُرض للنهب هو هرم «أمنمحات» الذي كانت معظم أحجاره مغتصَبة من مقابر الدولة القديمة (انتقام التاريخ) حتى إنه بعد فترة أصبح كومة عالية فقدت شكلها الهرمي؛ إذ أخذت كل أحجارها واستعملت في جهات أخرى. وفي الجهة الغربية من الهرم عثر على بعض مقابر لعظماء عصر «أمنمحات»، وكان معظم أحجارها من مقابر الدولة القديمة مما يدل على أن الملك لم يكن يغتصب الأحجار لنفسه فحسب، بل كان يغتصبها أيضًا لعظماء بلاطه.

حجر أثاث الهرم وما وجد معه

وفي هذه الجهة من الهرم عثر الأثري «ونلك» على قطع الأثاث التي كانت توضع عند وضع حجر الأساس، وقد وجدت في الركن الجنوبي الغربي للهرم، ويعد العثور على هذه الأشياء من الأمور النادرة جدًّا، وقد عثر عليها في حفرة مستطيلة عند الفوهة، وبيضية في نهايتها، وقد غطيت بحجر جيري مهذب بعض الشيء وهذه الحجرة كانت مملوءة بالرمل الصافي.

ويتألف هذا الكنز من رأس ثور وستة قوالب من اللبن ذات شكل ساذج، وكمية عظيمة من قطع الخزف المهشم وأطباق من الفخار، وعند فحص قوالب اللبن وجد أنه قد ركب في كل منها لوحتان من النحاس، واثنتان من الخزف المطلي، واثنتان من الحجر الجيري الأبيض، فقدت إحداهما، والكتابة التي على كل منها تشتمل على اسم الملك ثم اسم الهرم «اسوت خعو» ثم العلاقة الدالة على الهرم، ومعنى الاسم «أماكن الظهور»؛ أي الأماكن التي يشرق فيها الملك، غير أن هذا الهرم كان يُعرف قبل الكشف عن أشياء الأساس باسم «كانفر» (الروح الجميلة) لأمنمحات (A. Z. Vol. 59, P. 53)، وقد وجد هذا الاسم على لوحة محفوظة الآن في «متحف اللوفر» وكذلك جاء ذكره في قصة «سنوهيت»؛ إذ قد عين حارسًا «للحريم الملكي» في مدينة هرم «كانفر»، ولا ندري أكان هذا الاسم الأخير هو للهرم كله وتوابعه، والاسم الذي كشف في الأساس هو للهرم — وحده كما نرجح — أم لا. ولكن يقول الأستاذ «شارف» إنه اسم مدينة الهرم (A. Z. Ibid).

مدينة الهرم

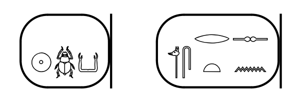
وفي الجهة الجنوبية كشف عن مساحة كبيرة تحتوي على بلدة وجبانة من هذا العصر. ومما يلفت النظر في هذه المدينة أن إحدى منازلها كانت على ما يظهر معملًا لطلي الخزف.

ففي إحدى الحجرات عثر على حجر غائر في رقعتها، ولا بد أنه كان يستعمل لعجن الجير المطفي بالماء. وفي الحجرات الأخرى لهذا المعمل وجد قمين مهشم ومبعثر في كل أنحاء البيت وخارجه، وكذلك وجد عدد عظيم من قطع العجين التي بدئ في تشكيل بعضها، هذا إلى وجود عدد عظيم من آلات الصقل مصنوعة من الحجر الرملي، وآلاف من حبات الخرز، وكمية من المواد المختلفة الأنواع.

أما في الجبانة فقد نُظف كثير من المدافن ووجد معظمها منهوبًا نهبًا تامًّا، غير أن البعض الآن قد عثر فيه على أشياء ثمينة نقف منها على بعض نواحي الفن في هذا العصر وصناعاته، فقد عثر مثلًا[٢٢] على بعض أواني من الفخار المزخرف الذي ينسب إلى هذا العصر، وقد عثرنا على أمثلة منه في منطقة أهرام الجيزة في حفائر عصر الدولة القديمة، غير أن بعض العلماء ينسبه إلى صناعة أجنبية، كما سيأتي بعد. وكذلك عثر على قطعة من الحجر الجيري الأبيض نُقش على جوانبها الأربعة اسم «سنوسرت» وربما كان «سنوسرت الأول»، وهذه القطعة كانت بلا شك مثقالًا يُستعمل في الموازين.

[٢٢] M. M. A. (The Egyptian Expedition, 1920–1921).

سنوسرت الأول حوالي (١٩٨٠–١٩٣٦ق.م)



(١) مقدمة

دلت ظواهر الأحوال على أن المؤامرة التي قامت ضد «سنوسرت الأول» لاغتصاب المُلك منه على إثر اغتيال والده بعد أن اشترك معه في الحكم نحو عشرة أعوام؛ لم تكن واسعة النطاق، وأنه بعودته في الحال قُضي على هذه الفتنة قضاء عاجلًا حاسمًا، كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك.

وقد خلا «لسنوسرت» الجو بعد ذلك وأخذ في الدعاية لنفسه، وقد حكم البلاد نحو ٤٠ سنة، منها عشر سنوات بالاشتراك مع والده، وثلاث منها مع ابنه عندما أشركه معه في الحكم. ويمتاز عصر «سنوسرت الأول» بجلائل الأعمال وبالإصلاحات التي قام بها في داخل البلاد، وبخاصة مبانيه العظيمة التي نشاهدها منبثة في طول البلاد وعرضها، وقد وضعته في الصف الأول بين عظماء الفراعنة الذين اشتهروا بمبانيهم الهامة.



شكل ١: سنوسرت الأول.

(٢) وصف «سنوهيت» للملك «سنوسرت الأول»

ولقد وصفه لنا «سنوهيت» الذي كان معاصرًا له وحارب معه جنبًا لجنب في حملة «لوبيا» وصفًا شيقًا لا يخلو من المبالغة فيقول: إنه هو الإله المنقطع القرين الذي لا يفوقه أحد، وإنه رب الحزم المتفوق في النصيحة والحازم في إعطاء الأوامر، والرواح والغدو تحت إرادته، وهو الذي أخضع الأراضي الأجنبية، ووالده مقيم في القصر ليتلقى الأخبار بأن أمره قد نفذ، وأنه القوي الذي يحرز النصر بساعده القوي، البطل الذي لا نظير له عندما يشاهد منقضًّا على العدو، أو مقتربًا من حومة الوغى، وهو الذي يثني القرون،[١] ويضعف الأيدي، وأعداؤه لا يمكنهم تنظيم صفوفهم.

وإنه لمنتقم محطم للجبناء، ولا أحد يجسر على الوقوف بجواره، وهو الواسع الخُطى، المهلك للهارب، ولا نهاية لمن يولي ظهره له؛ (أي إن الهارب لا يصل إلى غايته

[١] أي قرون العدو الذي يشبهه بالثور في قوته (يعني كناية عن البطش والغلبة).

سالمًا)، شجاع القلب عندما يرى الجموع، ولا يسمح لقلبه بأية راحة، الجسور عندما ينقَض على الشرقيين، وسروره أن يأسر «الربدتو» (العدو)، وهو يقبض على درعه، ويدوس تحت القدم «العدو»، ولا يعيد ضربته ليقتل (أي لا يضرب إلا ضربة واحدة قاتلة).

وليس هناك من حوَّل سهمه عن هدفه، وليس هناك من حنى قوسه (لصلابته)، «وشعب الأقواس» يهرب أمامه كما يهرب أمام قوة الآلهة العظيمة، وهو يحارب بدون نهاية، وهو لا يبقي ولا يذر، وهو رب الرشاقة، غني في عذوبة، وبالمحبة قد تغلب على قلوب الناس، ومدينته تحبه أكثر من نفسها، وهي تبتهج به أكثر من إلهها، والرجال والنساء يمرون أمام قصره فرحين، وهو ملك قد فتح وهو لا يزال في البيضة (أي طفلًا)، وقد كانت وجهته أن يكون ملكًا منذ ولادته.

وهو الذي يكثر عدد من ولدوا معه، وهو نسيج وحده، ومنحة من الله، وسيفتح الأراضي الجنوبية، ولكنه إلى الآن لم يلتفت إلا الأراضي الشمالية.

ومع ذلك فقد خُلق ليضرب على أيدي البدو، ويحطم سكان الرمال.

أرسِل إليه ودعه يعرف اسمك، ولا تنطق بلعنة ضد جلالته، وهو لا يفوته أن يعمل خيرًا لأرض ستكون موالية له.

(٣) حفلة تتويج «سنوسرت الأول»

وقد كان أول عمل قام به «سنوسرت» بعد توليته العرش أن أقام حفلة لتتويج نفسه، وقد كان الغرض منها محض الدعاية لشخصه، وأنه هو الوارث للعرش الحقيقي. وفي ذلك تشبه «بأوزير» و«حور»، فإن «حور» قد أقام لنفسه حفلة تتويج عند اعتلائه عرش والده «أوزير»، وكان الأخير قد قتله «ست» أخوه. وهذه الحفلة كانت تُقام في صورة رواية تمثيلية تمثَّل فيها كل الأدوار التي حدثت في مأساة «أوزير» و«حور»، «فأوزير» هو الملك المُتوفَّى، «أمنمحات الأول» و«حور» هو الملك الذي خلفه، وهو هنا «سنوسرت الأول». وتمتاز التمثيلية التي نحن بصددها الآن بأنها من إنشاء عصر الدولة الوسطى، وقد عثر عليها «كويبل» في عام ١٨٩٥–١٨٩٦ في منطقة «الرمسيوم»، ولما كانت هذه الدراما منقطعة القرين في بابها حتى الآن آثرنا أن نأتي على ملخصها هنا، وبخاصة أنها كانت أكبر دعاية «لسنوسرت الأول» في تثبيت ملكه وتعريف الشعب بأحقيته للملك. وتحتوي هذه الدراما على ستة وأربعين منظرًا، وها هي ذي حسب ترتيب مناظرها.

(٣-١) ملخص تمثيلية عيد التتويج

فنجد في المنظرين الأول والثاني أن الملك قد مات «وهو أمنمحات الأول» وعندئذ يأمر ابنه ووارثه على العرش «سنوسرت الأول» بإحضار السفينة الملكية بعد إعدادها، وقد كان المفروض أن الملك يمثل دوره فيها خلال عرض هذه الدراما كلها، ولكن يظهر أنه قد تركها في المنظرين الأخيرين منها. ونشاهد في المنظر (٣ و٤) تقديم ضحية للملك المُتوفَّى وهو ثور يُذبح ثم يُقطع قطعًا ليقدَّم وجبة، والمعنى هنا رمزي؛ أي إن الثور هو الإله «ست» الذي قتل أخاه «أوزير».

وفي المنظرين الخامس والسادس يُطحن الشعير ثم يقدَّم منه كعك للملك.

وفي المنظر السابع نشاهد تجهيز سفينتين لأولاد الملك.

وفي المنظر الثامن نشاهد شارات الملك الخاصة بحور (أي الملك الجديد) تُستخرج من محرابه، ثم يجهز موكب يمر به الملك في الجبل (أي الجبانة).

وفي المنظر التاسع نشاهد درس الشعير بوساطة البهائم وحمله إلى المخازن، وهذا المنظر رمزي يقصد به أن «حور» بدرس الشعير يمزق أوصال عدو والده «ست» انتقامًا له.

وفي المنظرين العاشر والحادي عشر نشاهد زيادة الاهتمام بإعداد سفينة الملك وسفينتي أولاده، وذلك بوضع أشياء وأوانٍ خاصة بتطهير الملك وأولاده.

وفي المنظر الثاني عشر والخامس عشر وما بينهما نشاهد صورًا تحتوي على صب الماء وتقديم رأس حيوانين «رأس ثور ورأس إوزة» للإله المحلي، ثم يأمر بإقامة العمود المقدس بأيدي الأولاد الملكيين.

وهذا رمز إلى أن «حور» قد أمر أولاده أن يجعلوا الإله «ست» تحت «أوزير»، وعندئذ يُشد العمود بحبل ويقام، ويفسَّر هذا بقتل «ست» ثم يأمر «حور» أولاده بأن يتركوه موثوقًا ويطرحوه أرضًا. أما المنظر السادس عشر فنشاهد فيه أولاد الملك ينزلون في سفينتيهم، ثم يتكلم «حور» عن أولاده مع «ست» الذي يمثل هنا بالسفينة قائلًا له: «احملني أنت يا من حملت والدي على ظهرك» (أي إنه يتغلب عليه)، أما المنظر السابع عشر فنشاهد فيه تقديم الخبز والجعة للإله «حور» الأعمى «رب ليتو بوليس» (أوسيم الحالية) (وهي البلدة التي انتقم فيها «حور» من قتلة والده ثم دفنه فيها)، وبذلك أعيد له نظره. أما المناظر من الثامن عشر إلى الحادي والعشرين فنشاهد فيها حدوث مبارزة

بين «حور» و«ست»، وكذلك إحضار مرضعتين[٢] ونجارين لصنع مائدة قربان للملك، ثم نشاهد الكاهن الخاص بتقديم القرابين يحضر المائدة.

وفي المنظر الثاني والعشرين نشاهد أولاد الملك يقدِّمون له الخمر، وهذا رمز إلى تقديم عين «حور» إليه بعد أن اقتلعها «ست» الشرير.

وفي المنظرين الثالث والعشرين والرابع والعشرين يقدَّم للملك حلي من حجر الدم والفخار المطلي، وهذه يرمز بها إلى إرجاع عين «حور» إليه ثانية. وفي المنظر الخامس والعشرين يقدِّم ساقي الملك له وجبة، وهذا رمز للإله «تحوت» عندما قدَّم عين «حور» إليه بعد أن اقتلعها «ست»؛ ولذلك يقول «تحوت» في هذا المنظر للإله «حور»: «إني أقدِّم لك عينك لتفرح بها.» فتقديم العين إلى «حور» هو تقديم الوجبة. وفي المنظر السادس والعشرين نشاهد كهنة خاصة يلتفون حول علمي «حور»، وهما اللذان يرمز بهما إلى سلطان الملك على الوجهين القبلي والبحري أو غرب الدلتا وشرقيها، وكذلك يرمز بهما إلى عيني «حور». وفي المناظر من السابع والعشرين إلى الحادي والثلاثين نشاهد أنه كان يقدم للملك شارات ملكه الخاصة وهي الريشتان والصولجان والخاتم، وعند ذلك يهلل عظماء الوجه القبلي والبحري فرحًا، وبعد ذلك يؤتى بكل ضروري لتزيين الملك وتضميخه وتعطيره وإطلاق البخور له، ثم وضع الحارستين على رأسه؛ أي الريشتين اللتين يزين بهما تاجه. وفي المنظر الثاني والثلاثين نشاهد بعد التتويج عظماء القوم الذين اشتركوا في احتفال التتويج هذا، ويشتركون كذلك في تناول طعام الوليمة الملكية التي أقيمت لهذا الغرض وحده، وفي المنظرين الثالث والثلاثين والرابع والثلاثين نشاهد الملك قد ارتدى لباس الحزن على والده المُتوفَّى، وعندئذ يقدَّم نوع خاص من الخبز، ونوع خاص من الجعة فالخبز كان يُسمى خبز «أح»؛ (أي «أوزير») الذي قتل، أما الجعة فكانت تُسمى جعة «سرمت» وهي ترمز إلى «إزيس» والدموع التي سكبتها هي و«حور» على «أوزير» المقتول، وكانا يقدَّمان طعامًا في الاحتفال بجنازة «أوزير».

والمناظر من الخامس والثلاثين إلى الأربعين تستحضر في آن واحد أدوات التحنيط للملك الراحل مع الملابس الحمراء للملك، الذي خلفه على العرش، ثم نشاهد الكهنة المسمين «سخنو أخ» (الباحثين عن الأرواح) وهم المكلفون بخدمة الملك المُتوفَّى يؤمرون

[٢] كان اللبن من أهم القرابين التي تقدَّم للمُتوفى.

بحمل تمثاله على أيديهم كما كان يحمل الأصدقاء (أي أصدقاء المتوفى) كما جرت العادة في الشعائر الجنازية. ثم نراهم يبنون بصورة رمزية سلمًا إلى السماء ليصعد فيه الملك المُتوفَّى إلى العالم العلوي الذي كان لا بد له أن يعرج إليه، ثم تنتحب المرأتان اللتان كانتا تقومان بالنحيب على المُتوفَّى، وهما اللتان تمثلان دور «إيزيس» و«نفتيس»، ثم بعد ذلك يعطى الكاهن مقدِّم القربان فخذًا من اللحم، وقطعًا من النسيج لاستعمالها في خدمة المتوفى. وفي المناظر من الحادي والأربعين إلى الرابع والأربعين نشاهد كهنة «سخنو أخ» يتسلمون هذه الأشياء التي كانوا يستعملونها في تكفين الجثة والاحتفال بفتح الفم،[٣] وبخاصة أنواع العطور والزيوت.

وفي المنظرين الآخرين وهما اللذان لا يظهر فيهما الملك، وبهما تنتهي الدراما؛ يحضر إلى الملك المُتوفَّى كل معدَّات التطهير، وبخاصة النطرون الذي كان يستعمل لهذا الغرض، وتوضع في المحراب المقدس، وهو المكان الذي يثوى فيه، وآخر مطاف له في عالم الدنيا؛ وأعني بذلك هرمه الذي يُدفن فيه.

(٤) مبانيه الدينية

(٤-١) معبد عين شمس

وقد كانت الخطوة الثانية في إرضاء الشعب وجعله يلتف حوله ما قام به من المباني الدينية للآلهة وبخاصة الإله «رع»، فقد أقام له معبدًا في مدينة «عين شمس». وقد أسعدنا الحظ بالعثور على بردية كُتبت بعد عصره بنحو ٥٠٠ عام، وتحتوي على النقوش العظيمة التي قدمها «سنوسرت» تذكارًا للاحتفال العظيم الذي أقامه عند إتمام معبد الشمس في «هليوبوليس» (عين شمس الحالية)، وقد كانت هذه النقوش في بادئ الأمر منقوشة على لوحة وضعت في فناء المعبد ثم نقلها الكاتب على بردية، ومما يؤسف له جد الأسف أن هذه البردية لم تصل إلينا كاملة، وهاك نص ما تبقى منها.[٤]

---

[٣] شعيرة فتح الفم كانت من الشعائر التي يقوم بها كهنة خاصة باحتفال خاص؛ وذلك لأجل أن يُعيدوا إلى الميت قوة فتح الفم والعينين ليمكنه أن يتمتع بكل ما يقرب له، وكان ذلك بطريقة سحرية وتعاويذ خاصة وآلات معدة لهذا الغرض.

[٤] Breasted, A. R., Vol. I, Par. 498 ff.; Erman, “The Literaure of the Ancient Egyptians”, P. 49 ff.

وعندما توِّج الفرعون بالتاج المزدوج للوجه القبلي والوجه البحري (أي عند توليته العرش بوصفه فرعونًا منفردًا بعد موت والده)، جمع المجلس وطلب الفرعون رأي أتباعه، وهم أشراف القصر والأمراء الذين في البلاط في مكان المشاورة الخاص، ثم تكلم الفرعون وهم مصغون وسألهم الملك رأيهم، وجعلهم يتكلمون بما عندهم فقال: تأملوا! إن جلالتي عازم على القيام بعمل، ويفكر في أمر حسن للمستقبل، وذلك أن يكون في مقدوري إقامة أثر ونقش لوحة تذكارية للإله «حور أختي» (إله الشمس)، فإنه ذرأني لأقوم له بعمل ما يجب أن أعمله، وأنفذ ما أمر بنفاذه، فهو الذي جعلني راعيًا على هذه الأرض؛ لأنه يعلم أني سأحافظ له على النظام فيها، ومنحني كل شيء تحت حمايته، وما تسطع عليه العين التي فيه (أي الشمس)، وكل شيء يعمل حسب رغبته. وقد أنجزت كل ما يريده مني؛ لأني ملك بحسب إرادته وفرعون لا … وحتى عندما كنت صبيًّا كنت مظفرًا وكنت قويًّا وأنا لا أزال في بطن أمي … وقد قدر لي أن أكون سيد القطرين؛ وقد كنت لا أزال طفلًا قبل أن تُنتزع عني لفائفي، وقد نصبني سيد بني الإنسان … أمام الناس، وعلمني أن أستوي على العرش عندما كنت لا أزال شابًّا … وقد أعطاني صورته وحزامه.

وقد صُورت حسب الشكل الذي اتخذه هو، وقد أُعطيت الأرض وإني سيدها، وبذلك قد وصلت شهرتي إلى عنان السماء … وقد أمرني أن أتغلب على ما يجب أن يتغلب عليه هو، وقد جمعت بوصفي «الصقر الملكي» مناقبه، وقد حبست قرابين الآلهة، وسأقوم الآن بعمل وهو إقامة معبد عظيم لوالدي إله الشمس «آتوم» وسأجعله منيرًا بقدر ما جعلني مظفرًا، وسأمد مائدته بالطعام على الأرض، وسأشيد بيتي (هذا) على الأرض المقدسة، وبذلك سيذكر طيبتي في هذا المعبد وسيكون اسمي (مخلدًا) مثل «حجر بنبن» (قمة الهرم)، وستُكرى البحيرة (البحيرة المقدسة التي تجاور المعبد عادة)، وسيكون هذا العمل الذي عقدت العزم عليه مثل الأبدية؛ لأنه لن يموت ملك وآثاره تتحدث عنه، وإن اسمي سيُذكر دائمًا ولن يفنى لما خلده من الآثار، وما أفعله هو الصواب، وما أبحث وراءه هو الممتاز. فأجاب مستشاروه بما يأتي: إن القول الفصل في فمك، وثاقب الرأي خلفك، يأيها الملك، وإن ما عزمت عليه سينفذ يأيها الملك الذي ظهر موحدًا للقطرين لأجل أن … في معبدك، إنه لحسن أن ينظر الإنسان إلى العدو … ولكن بني الإنسان قاطبة لن يتخيروا شيئًا بدونك؛ لأن جلالتك عين كل إنسان، وإنك لعظيم حينما تقيم آثارًا في «عين شمس» مسكن الآلهة أمام والدك رب القاعة العظيمة «آتوم» ثور التاسوع، أقم بيتك وخصص له منحًا لمائدة القربان لأجل أن نمدَّ تمثاله المقرَّب منه لكل الأبدية.

وبعد أن حصل على الموافقة التامة من مستشاريه، أخذ الفرعون يعطي تعليمات للاحتفال بوضع الحجر الأساسي للمعبد، فقال الملك نفسه لحامل الختم ورئيس تشريفاته ومدير الخزانة والمشرف على أسرار «تاجيه» سيكون رأيك هو المعمول به لتنفيذ العمل.

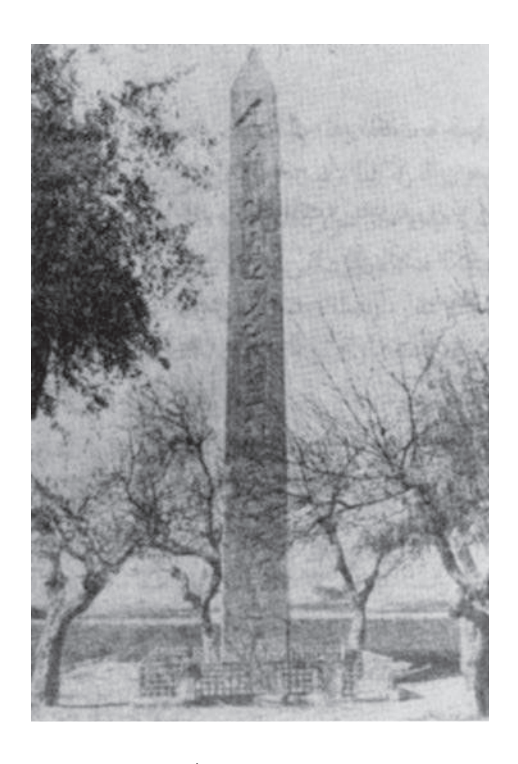
وهذا ما تصبو إليه جلالتي، وستكون أنت المدير المكلَّف به حسبما يحبه قلبي، كن يقظًا حتى ينفذ من غير تراخٍ كل عمل خاص به، أما كل الذين يعملون فإنهم قد أُمروا ليعملوا حسب أوامرك. ثم طلع الملك لابسًا تاجه وعليه الريشتان، وقد سار خلفه القوم كلهم، وبعد ذلك مدَّ رئيس المرتلين وكاتب الكتب المقدسة الخيط، ودق أوتاد الحدود في الأرض (أي حدود المعبد)، وبعد ذلك أمر الملك بأن يمشي كاتب الوثائق الملكية أمام الناس الذين كانوا متجمعين في مكان واحد من الوجهين القبلي والبحري.

ومما يؤسف له أن الورقة قد قطعت عند هذه النقطة بالذات، ولكنا على الرغم من ذلك قد وقفنا على مضمونها في جملتها، ويرى القارئ أن معظم النص ينحصر في مدائح للفرعون كان يكيلها لنفسه، ويفرغها عليه مستشاروه، ولقد أراد «سنوسرت» من إقامة هذا الأثر أن يثبت للملأ أنه من نسل «رع» الذي ينتسب إليه كل فراعنة مصر، وبخاصة أن موضوع نسبه للأسرة المالكة كان مشكوكًا فيه، يضاف إلى ذلك أنه أراد أن يُبقي ذكراه في مدينة الشمس موطن جدِّه الإله «رع» إلى أبد الآبدين.

(٤-٢) مسلة عين شمس

ولكنه لو قدِّر له أن يحيا ثانية لرأى أن يد الدهر لم تُبقِ من كل هذا الأثر الفخم إلا ثلاث قطع من الأحجار، وأهمها مسلته التي لا تزال قائمة في موضعها الأصلي بالمطرية، وهي أقدم المسلات الخمس التي لا تزال قائمة في مكانها الأصلي. أما باقي مسلات الفراعنة فقد نُقلت إلى عواصم المدن الأوروبية وأمريكا لإشباع شهوة طائشة. ففي «روما» وحدها يوجد تسع مسلات يزيد ارتفاع كل منها على ٢٩ قدمًا، ويبلغ ارتفاع مسلة «سنوسرت» هذه ٦٦ قدمًا، وهي كتلة واحدة من الجرانيت الأحمر، وقد نُقش على كل من جوانبها سطر من النقوش الهيروغليفية، يدل على أن مقيمها هو «سنوسرت الأول» الذي تحبه أرواح عين شمس المقدسة (أي الملوك الذين توفوا قبله من أجداده) وفي ذلك من الدعاية لنفسه ما فيه، وأنه صنعها تذكارًا لعيد «سد»؛ أي العيد الثلاثيني لتوليه الحكم، وقد ذكر لنا «عبد اللطيف البغدادي» في كتابه عن مصر عندما زار «عين شمس» عام ١١٩٠ ميلادية أنه شاهد مسلتين عظيمتين؛ واحدة منهما لا تزال قائمة في مكانها، والثانية

ملقاة على الأرض مهشمة. وقد شوهد كذلك الجزء الهرمي لكل منهما، وقد صُنعا من النحاس، وبقي ملقى على الأرض حتى عام ١٢٠٠ق.م. وفي عام ١٩١٢ عثر الأستاذ «فلندرز بتري» على بقايا مسلة في هذه الجهة غير أن نقوشها دلت على أنها للفرعون الفاتح العظيم «تحتمس الثالث».



شكل ٢: مسلة سنوسرت الأول بالمطرية.

أما الحجران الآخران اللذان وجدا من بقايا هذا المعبد فقد نقش على واحد منهما نقوش تذكر لنا أسماء «سنوسرت» وألقابه (A. S. IV. P. 101).

(٤-٣) هدايا «سنوسرت» للآلهة المصرية

أما الحجر الثاني فقد نقش عليه قائمة طريفة تعدد لنا الهدايا المقدسة التي قدمها على ما يظهر هذا الفرعون نفسه للآلهة المختلفة «لم يبقَ ما يدل على اسم هذا الملك إلا كلمة «سنوسرت» (Ibid. P. 102)»، وفي ذلك دليل على رغبة هذا الفرعون في إحياء ذكرى الآلهة الذين كانوا قد أُهملوا في عهد الفوضى مما يحبب فيه الأهلين، وكذلك نستخلص من هذه القائمة انتعاش الثروة المعدنية في البلاد وعظم المستخرج منها، وكذلك المعابد التي أقامها لهم في طول البلاد وعرضها. وهاك النص كما وجد مهشمًا عقد من حجر مسنت (الإله اسمه مهشم) وعدد عظيم من الأختام الكبيرة … وعقد من حجر مسنت وللإلهة «عنقت» (إلهة الشلال) خاتم وآنية من الفضة وآنية من الذهب وآنية من الجمشت وآنيتان من النحاس، ومبخرة من العاج ومبخرة من الفضة.

وللإله «أوزير» أول أهل الغرب وسيد العرابة المدفونة … آنية من الجمشت وآنيتان من النحاس، ومبخرة من العاج. وللإله «أنحور» رب «طينة» آنية من الفضة وآنية من الذهب وآنية من البرنز وآنيتان من الجمشت، ومبخرة من العاج ومبخرة من الفضة. وللإله «إبو» (صورة من صور الإله مين) وآنية من الفضة وآنية من الذهب وآنية من الجمشت وآنيتان من النحاس ومبخرة من العاج ومبخرة من الفضة … ولمعبود اسمه … عقد منات. وكذلك أقمت معبدًا للإلهة «ساتت» و«عنقت» و«خنوم» رب الشلال (وهذا الثالوث خاص ببلاد النوبة السفلية) من الحجر المنحوت، وكذلك أقمت معبدًا للإله «حور» النوبي في الإقليم الثاني لمصر العليا (أي شمالي أسوان) … وقد قدَّمت لمعبد «آتوم» التذكاري رب «عين شمس» كثيرًا من آنية الفضة … ومحرابًا من الذهب (؟) … وتمثالًا … لنفسي (سنوسرت) في مدينة «سايس» وتمثالًا للإلهة «وازيت» سيدة مدينتي «پ» و«دپ» وآنية عظيمة من النحاس وتمثالًا لسنوسرت (أي نفسه) لمدينة «پ» وللإلهة «نفتيس» … وللتاسوع في بلدة «خرعحا» (مصر العتيقة) قدَّمت إناء عظيمًا من النحاس وتمثالًا للإله «حعبي» (النيل)، وعندما أقلعت مصعدًا في النيل إلى «إلفنتين» (أسوان) قدِّمت موائد قربان لآلهة الجنوب، وقدِّمت للإلهة «حتحور» سيدة دندرة … من الذهب وعقدًا من حجر «حماجت» (حجر يشبه العقيق) وعقدًا … وقدِّمت «لحتحور» (سيدة القوصية)! عقدًا من حجر «حماجت» وعقدًا من حجر مسنت.

(٥) آثاره في أنحاء البلاد

هذا وقد شيد هذا الفرعون كذلك معبدًا في الفيوم لم يبقَ منه أمامنا إلا المسلة ذات القمة المستديرة الموجودة الآن في «أبجيج» (L. D. II. 119)، وقد عثر له في «تانيس» (Petrie, Tanis, 1, XIII) على بعض تماثيل منها تمثال نصفي يكاد يكون منقطع القرين في فن النحت المصري؛ إذ ليس له عمود يستند عليه كما هو المألوف في كل التماثيل المصرية، وكذلك عثر له على تمثال في صورة أبو الهول في فاقوس (A. Z. Vol. XXIII. P. 11)، وقد كان لسنوسرت نشاط خاص في إقامة المعابد في جميع أنحاء القطر، فقد أقام زيادة على ما ذكرناه معبدًا في الأطاولة بمديرية أسيوط (A. Z. XXIII, P. 11) كما أقام معبدًا في «العرابة المدفونة» (Petrie, Abydos I, Pl; LIV) وآخر في «دندرة» وفي «قفط» (Petrie, Koptos, PI, X) وفي «الكرنك» (Rec, Trav. XXIII, P. 63)، وقد هدم معبد «الكرنك» «أمنحوتب الثالث» واستعمله حشوًا في إقامة «بوَّابته الثالثة» في الكرنك، وقد عثر على أحجار هذا المعبد كاملة المهندس «شفريه» عندما كان يقوم بإصلاح هذه «البوابة»، وأعيد بناؤه في «الكرنك» ثانية في مكان خالٍ وهو من الحجر الجيري الأبيض، وقد قدَّمه «سنوسرت» للإله «آمون رع»، ونقوشه دقيقة الصنع إلى أبعد حد، ويعد هذا الهيكل من أجمل ما وصل إلينا من الأسرة الثانية عشرة إلى الآن، من حيث الدقة والصنع وجمال الفن، وقد نقش على ظاهره أسماء مقاطعات القطر المصري للوجهين القبلي والبحري. وهذه أول مرة نعثر فيها على أسماء مقاطعات مصر كاملة في الدولة الوسطى. وقد تكلمت عنها في كتاب «أقسام مصر الجغرافية» ص٢٢ … إلخ في عهد الفراعنة. وسنتكلم عن هذا المعبد فيما بعد.

(٥-١) مبانيه بالعرابة المدفونة

وقد نُفذت أعمال البناء التي شيدها في «العرابة المدفونة» تحت إدارة وزيره الأول «منتو حتب» وقد ترك لنا سجلًا بأعماله على لوحة كشف عنها هناك وهي محفوظة الآن في متحف القاهرة رقم ٢٠٥٣٩ (Breasted, A. R. I. par. 530) يقول فيها:

> لقد أشرفت على إقامة المعبد فبنيت بيت الإله وحفرت بحيرته المقدسة، وحفرت البئر بأمر جلالة «الصقر» (الملك) … وقمت بالعمل في المعبد وبنيته من حجر «عين» … وأشرفت على العمل في القارب المقدس، وكنت أنا الذي وضعت ألوانه

... وصنعت موائد قربان، ورصعتها باللازورد، والجمشت، والسوم، والفضة وكثير من النحاس بدون حصر، وشَبَهٍ يخطئه العد، وكذلك صنعت أطواقًا من الفيروز الحقيقي وحليًّا من كل أنواع الأحجار الكريمة ... والمنتخبة من كل شيء ليعطاها الإله في احتفالات الأعياد» (Rec. Trav. X. P. 146)؛ وفي بلدة «طود» بالقرب من «أرمنت» عثر لهذا الملك على مذبح (A. Z. XX. P. 123)، وكذلك عثر على بقايا معبد في بلدة «نِخِن» (الكاب الحالية) عاصمة مصر القديمة (Murray, “Handbook”, P. 50)، وعثر على مذبح آخر في بلدة «نخب» المقابلة «لنخن» (Weigall, Guide to the Antiquities of Upper Egypt, P. 310) على الشاطئ الآخر للنيل، ووجد له قاعدة تمثال في «إلفنتين» (A. S. VIII. P. 47) كما عثر على بعض أحجار معبد من حجر الجرانيت، (P. S. B. A. 1909. P. 252) وعثر له في «الفيلة» على لوحة ذكر عليها اسم هذا الفرعون وهي الآن بالمتحف البريطاني.

(Budge, A. Guide to the Egyptian Galleries, Sculpture P. 39).

وقد استخدم الفرعون لإقامة هذه المباني العدة «حجر البرشيا» المستخرج من محاجر «وادي الحمامات» في الصحراء الشرقية، ولا تزال النقوش الدالة على هذا ترى هناك منحوتة في الصخر، ومسجلة عليها الحملات التي قامت في السنة السادسة عشرة من حكم هذا الفرعون.

وكذلك في السنة الثامنة والثلاثين من حكمه (Coueat atd Montet, Hammamat; 87, 117, 123).

وكذلك توجد عدة نقوش على صخور الجرانيت الواقعة على الشلال الأول، ويحتمل أنها خاصة بقطع الأحجار، ومن بين هذه نقش مؤرخ بالسنة الأولى، وآخر بالسنة الثالثة والثلاثين، وثالث بالسنة الحادية والأربعين (L. D. II, P. 1, 118).

(٦) أعماله في المناجم وآثاره الأخرى

وقد وجد اسم هذا الملك خلف مدينة «الكاب» عند بداية طريق الصحراء لمناجم الذهب (P. S. B. A. 1909, P. 252)، ولا شك في أن هذه المناجم قد جرى العمل فيها في عهد هذا الفرعون، وكذلك قامت عمليات في مناجم الفيروز ومناجم النحاس «بسينا» وقد عثر في

«سرابة الخادم» التي تعد المركز الرئيسي لهذا الإقليم الصحراوي الذي كان يحتوي على بلدة عظيمة وقلعة ومعبد، على آثار كثيرة من حكم هذا الفرعون منها عتبة باب، ومذبح، ولوحة، وتمثال جالس ... إلخ (Gardiner and Peet, Sinai, P. 64–70)، وفي محاجر المرمر الموجودة «بحتنوب» بالقرب من «تل العمارنة» قد قامت أعمال قَطع الأحجار، ولا يزال يوجد نقش على الصخر هناك من عهد هذا الفرعون شاهد على ذلك (Fraser, Hatnub, X. I.).

(٧) محاجر صحراء «النوبة الغربية»

وقد كان على ما يظهر أول من استثمر محاجر صحراء النوبة الغربية في عهد الدولة الوسطى هو الملك «سنوسرت الأول»، وقد كُشف عن موقع هذه المحاجر حديثًا، وتقع على مسافة ٦٥ كيلومترًا في الشمال الغربي من «أبو سمبل»؛ أي على خط عرض ٢٢ / ٤٩ شمالًا وخط طول ٣١ / ١٦ شرقًا. وقد جاء كشفها عن غير قصد، فلقد كان رجال من شرطة الجيش المصري يمرُّون في هذا المكان، فلفت نظرهم قطعتان من الحجر عليهما نقوش ظهر أنها تحمل ألقاب بعض ملوك الدولة القديمة ومن بينها اسم الفرعون «زدفرع».

(٧-١) ما عثر عليه في هذه المحاجر

وقد عثر في هذه المحاجر على حجر الديوريت الجميل الذي كان يستعمله «خفرع» لصنع تماثيله العظيمة، وقد كان مصدر هذا الحجر مجهولًا حتى كُشف عنه كما ذكرنا، وكذلك عثر على أنواع أخرى من الحجر الصلب في هذه البقعة، مثل الجرانيت الوردي ذي الحبات الدقيقة، وحجر الكوارتسيت الأبيض القاتم.

وقد عثر في هذا المكان على لوحة من الحجر الرملي الأسمر نُقش عليها طغراء كل من «أمنمحات الأول» وابنه «سنوسرت الأول».

وفي محاجر الجرانيت الواقعة في هذه البقعة وجدت لوحة لهذا الفرعون مؤرخة بالسنة العشرين، الشهر الثاني، فصل الحصاد، والجزء الأسفل منها غامض.

يُضاف إلى ذلك لوحة أخرى من الحجر الرملي الأصفر، أقامها لهذا الفرعون موظف يدعى «حننو» بن «منتو حتب» ويلقب عظيم عشرة الجنوب، وقد نقش عليها محبوب «حتحور» سيدة الصحراء، له كل الحماية والحياة الخالدة (A. S. XXXIII, P. 65, ff).

(٧-٢) بعوثه إلى وادي الهودي

وأرسل «سنوسرت» الأول عدة بعوث إلى «وادي الهودي» لاستحضار حجر الجمشت في السنوات العشرين، والحادية والعشرين، والثانية والعشرين، والرابعة والعشرين، والثامنة والعشرين، والتاسعة والعشرين من حكمه، وقد ترك لنا رجال هذه البعوث لوحات هامة عما قاموا به في هذه الجهة، ففي السنة العشرين من حكم هذا الفرعون ترك لنا ثلاثة ممن قاموا بالبعثة ثلاث لوحات: الأولى منها لأعظم عشرات الجنوب المسمي «منتو حتب» بن «حننو» بن «بيبي» وقد صُنعت من الجرانيت الأسود.

نص لوحة «منتو حتب»: (١) السنة العشرون في حكم جلالة الصقر «الملك ... ملك الوجه القبلي والبحري «خبر كارع» بن الشمس» «سنوسرت» حور العائش أبديًّا، خادمه الحقيقي وعزيزه الذي يفعل كل ما يمدحه دائمًا وكل يوم، أعظم عشرات الجنوب، الذي شخصه «ماعت» (العدالة): «منتو حتب» بن «حننو» بن «بيبي» يقول: «أرسلني سيدي له الحياة والصحة والسلامة لأحضر الجمشت من أرض «النوبة»، واستوليت من جديد على الأماكن التي كنت قد عملتها، وقد أحضرت منه كثيرًا جدًّا من منجم الأحجار التي من الجمشت، ولقد كانت قوة رب القصر وامتيازه هما اللذان رعياني، ولرهبته انحنى أهل الأراضي الأجنبية، وسيفه يخضِع كل الأراضي ليشتغلوا له، وأعطي الصحراء التي هم فيها بأمر «منتو» ساكن «أيون» (أرمنتت) و«آمون» رب تيجان الأرضين ليبقى خالدًا.

وقد عاد «منتو حتب» هذا مرة أخرى في العالم الرابع والعشرين من حكم هذا الفرعون، فكتب على نفس اللوحة ما يأتي: السنة الخامسة والعشرون من حكم جلالة «حور» حياة المواليد؛ وصاحب الإلهتين، حياة المواليد، ملك الوجه القبلي والبحري «خبر كارع» (روح رع تأتي إلى الحياة)، ابن الشمس «سنوسرت» الإله الطيب رب الأرضين الحي إلى الأبد: العودة لمتابعة (استخراج) الجمشت إنه خادم سيده ومحبوبه ... إلخ.»

لوحة قائد الجيش «أنتف»: (٢) وفي نفس السنة العشرين ترك لنا قائد الجيش «أنتف» لوحة لم يكمل كتابتها، وقد جاء فيها:

> السنة العشرون من حكم «حور» حياة المواليد، الإله الطيب، رب الأضين، ملك الوجه القبلي والبحري، «خبر كارع» عاش مثل «رع» مخلدًا، حامل

> الختم وقائد الجيش «أنتف» خادمه الذي يثق فيه، والذي يفعل كل ما يرضيه، وعشت خاليًا من الذنب «أنتف» المبرأ …

لوحة رئيس الخزانة «أنتف إقر»: (٣) وكذلك ترك لنا لوحة من الجرانيت الأسود رئيس الخزانة، غير أن نقوشها متآكلة.

وقد جاء عليها: «السنة العشرون رئيس الخزانة ووكيل حامل الختم «وني»، عملت «هذه اللوحة» لقائد جيشه الذي يعمل كل ما يرضيه دائمًا، وكل يوم، حاكم المدينة «طيبة»، والوزير، وكاتم أسرار بيوت الفرعون «أنتف إقر»، له الحياة والصحة والسلامة، لقد أرسلني لأحضر الجمشت والذهب … وقد أحضرت منها [الكثير جدًّا] …»

وفي السنة الواحدة والعشرين ترك لنا «منتونسو» لوحة من الجرانيت منقوشة نقشًا جميلًا جاء فيها:

> السنة الواحدة والعشرون من حكم جلالة «حور» حياة المواليد الإله الطيب «سنوسرت» الحي الخالد.

إنه خادمه وموضع ثقته بحق الذي يفعل كل ما يرضيه دائمًا وكل يوم. لقد تبع خطوات سيده في الطرق المعبدة التي أحسن صنعها الخادم «منتونسو» بن «حتبي» بن «ادن».» وفي نهاية اللوحة نجد رسم الملك.

فهل هذا يشعر بأن الفرعون نفسه قد زار هذه المناجم؟

وهذه اللوحة محفوظة الآن بمتحف أسوان.

(٤) وفي السنة الثانية والعشرين ترك شخصان لوحتين من الجرانيت؛ أولهما يُدعى «سنوسرت» بن «وني»، وقد جاء عليها ما يأتي:

> السنة الثانية والعشرون، الخروج لإحضار الجمشت «لحور» (أي الملك) حياة المواليد الإله الطيب ابن الشمس ملك الوجهين القبلي والبحري «خبر كارع» ابن الشمس «سنوسرت» عاش أبد الآبدين خادمه «سنوسرت» بن «وني»، مما يدل على أن خادمه كان معه في الرحلة، أما اللوحة الثانية فهي لشخص يُدعى «سبك» ابن … وقد نقش عليها ما يأتي: «السنة الثانية والعشرون، ملك الوجهين القبلي والبحري «خبر كارع» بن الشمس سنوسرت معطي الحياة مثل «رع» مخلدًا «سبك» ابن … الممدوح … نزل في سلام.

(٥) وفي السنة الرابعة والعشرين قامت حملة خامسة يقول فيها قائدها: إنه تابع البحث عن الجمشت. والظاهر أن كاتب اللوحة قد كتبها على عجل؛ إذ نقش اسم «سنوسرت» بدون طغراء.

(٦) ولدينا لوحة من السنة الثامنة والعشرين باسم «وسدي» ويلقب رئيس القوم، ولم يذكر فيها شيء غير الألقاب الفرعونية والصيغ المعتادة في إخلاصه للفرعون، وكان معه خادمه المخلص الذي يثق فيه «حرور» قاطع الأحجار.

أما في السنة التاسعة والعشرين فقد وجد على ما يظهر لوحتان من عهده: الأولى أقامها موظف يدعى «حننو» وهي من الحجر الرملي وقد جاء عليها ما يأتي:

> في السنة التاسعة والعشرين خرج إلى هذه البلاد أعظم عشرة الوجه القبلي «حننو» ليته يعيش ويقوى ويصح، (ومعه) خادمه الأمين الذي يعمل كل ما يمدحه «سيده» في خلال كل نهار المسمى «سنب حا اشتف».

أما اللوحة الثانية فصاحبها كذلك «حننو» بن «منتو حتب» وهو نفس الموظف صاحب اللوحة السابقة، وقد جاء عليها ما يأتي:

«السنة التاسعة والثلاثون أعظم عشرة الوجه القبلي «حننو» بن «منتو حتب» ليته يعيش ويقوى ويصح (ومعه) خادمه الأمين الذي يعمل كل ما يمدحه «سيده» كل يوم «شمسو سعنخ»»، ومن ذلك نعلم أن اللوحتين قد عملتا للموظف «حننو» ومعه خادماه؛ أي إن الثلاثة كانوا قد ذهبوا سويًّا إلى هذه المناجم.

لوحة «حور»: وأعظم هذه اللوحات التي تنسب إلى عهد هذا الفرعون لوحة أقامها موظف يدعى «حور» أرسله «سنوسرت» لإحضار الجمشت من صحراء النوبة الجنوبية الشرقية من «وادي الهودي»، وهذه اللوحة مصنوعة من الحجر الجيري الأبيض، وهاك النص الذي نقش عليها:

> يعيش «حور» حياة المواليد، صاحب السيدتين: «الصل والعقاب»، حياة المواليد، ملك الجنوب والشمال «خبر كارع» (روح رع تأتي للوجود) ابن الشمس، «سنوسرت» الإله الحسن، الذي يذبح «الأونتي» (سكان الصحراء الجنوبية الشرقية) ويقطع رقاب الذين في الأراضي الأسيوية، الملك الذي يطوق «حانبو» (أقوام الشمال) والذي يصل إلى نهاية حدود المقهورين وحدود السود، والذي يهشم رءوس الأسر الثائرة، موسعًا تخوم مصر،

مفسحًا بذلك المجال (لبلاده)، وهو الذي وحَّد بجماله الأرضين، رب القوة والحروب في البلاد الأجنبية، وسيفه قد أخضع الثوار، ومن ثاروا عليه ماتوا بسيف جلالته، وهو الذي وضع أعداءه في الأغلال، وهو أمير وديع الخلق لمن يخدمه، ومعطيًا نَفَس الحياة من يبتهل إليه، والبلاد تقدم له طعامها، و«جب» «إله الأرض» أفضى إليه بأسراره، والبلاد الأجنبية أصبحت تابعة (له)، والجبال صارت مبتهجة (به)، وكل مكان قد أفضى إليه بأسراره. مبعوثوه عديدون في كل الأراضي، ورسله يفعلون ما يريد، وأملاكه هي السهل والحزن، ويدين له ما يحيط به قرص الشمس، وإليه تُجلب العين وما فيها (العين هنا عين حور وهي تعني كل شيء حسن)، وهي سيدة الموجودات مع كل ما خلقته.

ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبر كارع» الذي يحب «حور النوبة»، والذي يمدح السيدة التي على رأس «النوبة» معطي الحياة والثبات والصحة مثل «رع» مخلدًا، خادمه الأمين حقيقة، حامل ختم ملك الوجه البحري، والسمير الوحيد ومدير مخزني الغلال، ومدير حظيرتي الدجاج، ومدير بيتي التبريد، ومدير ذوات القرن، وذوات الحوافر، والطيور والسمك، ومدير البيت «حور» يقول: «لقد أرسلني السيد «هذا الإله رئيس الأرضين» بأمر يتعلق بأعماله الطيبة في هذه الأرض، وقد كان الجيش خلفي (أي يشد أزري) لأجل أن أقوم بما أراده خاصًّا بهذا الجمشت الذي في أرض «النوبة» وقد أحضرته من هناك بكميات عظيمة، وعندما جمعته مثل فم المخزنين (أي مثل القطع التي تسد فم المخزنين) جر بزحافات وحمل على نقالات، وكل «انتيو» من أرض النوبة الذين سيدفعون الجزية يعمل خادمًا حسب رغبة هذا الإله فإن جنسه سيبقى أبد الآبدين. (A. S. XXXIX. P. 188. ff).

وفي جنوب الشلال الأول عثر له على لوحتين في معبد «بوهن» ويعدان من أهم آثاره، وهذا المعبد قائم أمام بلدة «وادي حلفا»؛ أقامه هذا الفرعون تخليدًا لذكرى انتصاراته على أعدائه، واعترافًا منه بالجميل لآلهة هذه المنطقة.

(Maclver and Wolley, “Buhen” PP. 89, 95).

وتوجد لهذا الملك آثار مؤرخة بسني حكمه من السنة الأولى حتى السنة الخامسة والأربعين (Petrie, “History” P. 163).

(٨) بعض من أعمال دعايته لنفسه

وقد أقام هذا الملك كذلك من باب الدعاية تماثيل للملك «سحورع» أحد ملوك الأسرة الخامسة وتمثالًا للأمير «أنتف» والد «واح عنخ أنتف» مؤسس الأسرة الحادية عشرة. (Legrain, “Statues” Nos. 42004, 42005).

وقد ذكرهما بوصفهما من أجداده وذلك ليدلل على أنه يمكن تتبع سلسلة نسبه إلى نحو ٦٠٠ سنة مضت من تاريخ حكمه كما أسلفنا، وفي «طيبة» يوجد مزار جنازي يظهر أنه قد أقيم لوزيره الأول «أنتف إقر» في عهد هذا الفرعون وكذلك لزوجه «سنت» (Davies and Gardiner, Tomb of Antefoker)، غير أن «أنتف إقر» قد دفن في «اللشت» بالقرب من الفرعون سيده، وتدل ظواهر الأمور على أن زوجته «سنت» قد احتلت هذا القبر بطيبة وادعته لنفسها، ومحت من نقوشه اسم زوجها في كثير من المناظر، وكأنها تريد بذلك ألا يشاطرها قربانها الجنازي.

(٩) أعماله الحربية

(٩-١) حملة بقيادة «منتو حتب» لإخضاع النوبيين

ومن أهم الحوادث التي وقعت في عهد «سنوسرت الأول» حملته العظيمة التي قام بها حتى الشلال الثالث، وكان غرضه منها إخضاع قبائل السود في هذه الأصقاع وتثبيت حدود مصر الجنوبية إلى نقطة تبعد نحو ٢٥٠ كيلومترًا من جنوبي «وادي حلفا» التي تعتبر الآن الحد الشمالي لبلاد السودان، وبذلك تصبح كل بلاد النوبة السفلية وشمال السودان خالية من كل اعتداء أو غزو من جهة السود، وهذه الحملة قد قامت في السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الفرعون وكانت بقيادة قائد من الأشراف يدعى «منتو حتب» (P. S. B. A. 1901. P. 231)؛ وقد ترك لنا هذا القائد نقشًا في معبد «وادي حلفا» مثل في أعلاه «سنوسرت» الأول واقفًا أمام إله الحرب «منتو» الذي يقول للملك:

> «أحضرت كل الممالك التي في «النوبة» تحت قدميك يأيها الإله الطيب.» ويشاهَد بعد ذلك الإله يقود للفرعون عشرة أسرى من النوبيين كل منهم يمثل قبيلة، وتحت هذا دُونت النقوش الخاصة بالفرعون، ولكن لم يبقَ منها إلا بعض كلمات لا تؤدي معنًى مفهومًا، وبعد ذلك ذكر «منتو حتب» بعض مناقبه

الشخصية، وعزى لنفسه مفاخر هذه الحملة ظنًّا منه أن سيده الفرعون لن يرى ذلك، وقد كان الفرعون يعتبر القائد الحقيقي للحملة وإن لم يقدها بنفسه. والظاهر أن الفرعون قد وصله خبر ما نقشه «منتو حتب» فجعله يدفع الثمن غاليًا؛ إذ محا اسمه من اللوحة ومحا كل ما عدده من المناقب لنفسه وأصبح من المغضوب عليهم.

وقد وصلت إلينا معلومات هامة من مصادر أخرى عن هذه الحملة، منها النقوش التي وجدت على مقبرة «أمنمحات» أمير مقاطعة الغزال «ببني حسن»، وهذا الأمير يعرف باسم «أميني» أيضًا، وهو الذي خلف والده «خنوم حتب» الذي سبق ذكره في عهد «أمنمحات» الأول. وقد أرَّخ «أميني» نقوشه بالسنة الثالثة والأربعين من حكم جلالة «سنوسرت الأول» عاش أبد الآبدين، وهذا التاريخ يقابل السنة الخامسة والعشرين من حكمه في مقاطعة الغزال؛ بوصفه الأمير الوارثي والحاكم مما يدل على استمرار استقلال الأمراء الوارثيين في مقاطعاتهم. وهو يقص علينا خبر هذه الحملة فيقول:

«تبعت سيدي عندما أقلع نحو الجنوب ليهزم أعداءه الأربعة أمم الهمج، وقد أقلعت جنوبًا بوصفي ابن الأمير «خنوم حتب» لابسًا الخاتم الملكي، وقائدًا جنود مقاطعة الغزال، وكنت في ذلك أنوب عن والدي، «وقد كان لا يزال على قيد الحياة، ولم يكن في استطاعته قيادة الجيش لكبر سنه»، وذلك لحظوته في القصر ومحبته بين رجال الحاشية، فمررت ببلاد «كوش» وسحت في النهر جنوبًا، وتقدمت نحو تخوم البلاد (الجديدة) وأحضرت كل الهدايا، ووصل مدحي إلى عنان السماء، وبعد ذلك عاد جلالته في سلام بعد أن هزم أعداءه في «كوش» الخاسئة، وعدت في ركابه مرفوع الرأس ولم تحدث أية خسارة بين جنودي (Breasted, A. R. Vol. I, Par. 518).

(٩-٢) حملاته للبحث عن الذهب

وقد ذكر لنا بعد ذلك «أميني» حملتين لم يكن غرضهما حربيًّا، بل كان للبحث عن الذهب الغفل. وقد كانت طبيعة الأرض التي لا بد من السير فيها تحتم أن يكون مع

القائمين بالبعثة جنود؛ فسار مع الحملة الأولى نحو أربعمائة جندي، ومع البعثة الثانية نحو من ستمائة جندي، وإذا كانت الحملة الأولى التي شيد بذكرها «أميني» في نقوشه هي نفس الحملة التي كان القائد فيها «منتو حتب» فإن «أميني» لم يكن فيها إلا قائدًا لجنود مقاطعته فحسب.

وقد أشير إلى حملة بلاد النوبة هذه في ترجمة حياة أمير من «إلفنتين» يُدعى «سرنبوت» في نقش دوِّن على إحدى جدران مقبرته بالقرب من «أسوان».

(De Morgan, Catalogue des Monuments, P. 183; Weigall. “Guide”, P. 431).

وهذا الشريف الذي كان رئيسًا لبلاد النوبة السفلية وحاكم بلاد الجنوب نشاهده مرسومًا مع كلابه، وقد اشترك في هذه الحملة، وكل ما يمكن حله من نقوشه المهشمة خاصًّا بهذه الحملة هو «لقد حضر جلالته لهزم «كوش» الخاسئة وقد حضر جلالته وأحضر معه ...»[٥]

[٥] هذا؛ وقد كشف حديثًا كبير مفتشي الوجه القبلي «لبيب حبشي» عن مبنى يكاد يكون كاملًا من اللبن مع كثير من الآثار التي وجدت في أمكنتها الأصلية، وقد تبين أن الذي أقام هذا البناء هو «سرنبوت» من حكام جزيرة إلفنتين. في عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٨٠ق.م) تمجيدًا لأحد حكام الجزيرة نفسها، وكان يعرف باسم «حقا إب» وهو الذي عاش قبل ذلك بحوالي ستة قرون. وقد شيد في هذا المبني مقصورة «ناووسا» لنفسه، وأخرى «لحقا إب» وضع فيها مذبحًا، كما أقام أربع لوحات، على اثنين منها رسوم تبين «سرنبوت» وهو يقوم ببعض الطقوس الدينية، وعلى الباقية كتابات تدل على أنه كان في نفس المكان مبنى لتمجيد «حقا إب» شُيد قبل إقامة المبنى المكشوف، ويبدو أن هذا المكان لم يزدهر إلا بعد أن أقام «سرنبوت» بناءه، إذ يظهر من الآثار التي عثر عليها أن أكثر الحكام ورؤساء الكهنة الذين عاشوا إبان حكم الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، قد حرصوا على أن يقيموا لأنفسهم هناك مزارات ومقاصير وضعوا فيها تماثيلهم، كما حرص بعض ملوك هاتين الأسرتين وبعض موظفي «إلفنتين» وكهنتها على أن يتركوا بعض الآثار تمجيدًا «لحقا إب» وهذا يفسر لنا السبب الذي من أجله عثر في هذا البناء على عدد كبير من موائد القرابين واللوحات التذكارية والتماثيل [بيان مصلحة الآثار ١٩٤٦].

(٩-٣) حملة «أكوديدي» إلى الواحات

وقد خلف لنا في «العرابة المدفونة» موظف يُدعى «إكوديدي» Ikadidj نقشًا موجودًا الآن بالمتحف البريطاني (Breasted A. R. Vol. I, Par. 524. f.f) ذكر فيه حملته إلى الواحة الخارجية، وعند عودته أمر بتجهيز قبر له في «العرابة» المقدسة فيقول:

> لقد حضرت من «طيبة» بوصفي عامل الملك الخاص لأقوم برغباته، وقد كنت على رأس فرقة من الجنود لزيارة أرض سكان الواحة؛ لأني موظف ممتاز يعرفه سيده بنفاذ بصيرته ويتمدَّح به موظفو القصر، وقد أقمت هذا القبر عند سلم عرش الإله الأعظم «أوزير» لأجل أن أكون في ركابه، في حين أن الجنود الذين يتبعون جلالته يقدمون لروحي من خبزه ومؤنته، كما يفعل رسول الملك عندما يأتي ليفحص حدود جلالته، وقد أرِّخت بالسنة الرابعة والثلاثين من حكم هذا الفرعون.

(١٠) حزم «سنوسرت» وسلوك حكام المقاطعات

وتدل النقوش التي عثر عليها من عصر هذا الفرعون على أنه كان إداريًّا يقظًا حازمًا، وقد ظهر ذلك بوجه خاص في رقابته الشديدة على رجال إدارته، حتى إنهم كانوا يهابونه ويؤدون أعمالهم بكل دقة وأمانة، ولا أدل على ذلك مما ذكره لنا «أميني» عن سلوكه في حكم مقاطعة الغزال، هذا إذا صدقنا كل ما قاله في نقوشه، ولكن على الرغم من كل ما ذكره من المبالغات في كلامه، وتلك سجية في عظماء هذا العصر، فإن مقتضيات الأحوال تدل على أنه كان حتمًا حاكمًا عادلًا يخشى سلطة أكبر من سلطته، فيقص علينا: «كنت سمحًا يحبني الناس كثيرًا، كما كنت حاكمًا تحبه أهل بلدته، وقد قضيت سنين في حكم مقاطعة الغزال، وكانت كل الجزية المستحقة تمر بيدي، وقد أعطاني رؤساء عمال التاج من الرعاة في مقاطعة الغزال ثلاثة آلاف ثور بمحاريثها؛ ولذلك مدحت في القصر كل عام لعدد الماشية (التي أقدمها)، وحملت كل ضرائبها إلى بيت الملك، ولم أكن متأخرًا في أية مصلحة.» ولا نزاع في أن «أميني» كان يعد إدارته مرضية بالنسبة لولائه

للفرعون، ويمكن تصديقه؛ لأن مثل هذه الحوادث والاعترافات كانت تجري على مرأى من كل الشعب، وتقيد في السجلات العامة، وكذلك كان «أميني» مرتاحًا لما كان يقوم به في حكومة مقاطعته من المساواة والعدالة الاجتماعية التي كان ينشدها كل الناس وعلى رأسهم الفرعون، اسمع إليه يقول:

(١٠-١) وصف «أميني» لعدالته

إني لم أسِئ معاملة بنت أي رجل، ولم أظلم أية أرملة، ولا يوجد فلاح احتقرته، ولا راعٍ أقصيته، ولا رئيس عمال قد سخَّرت عماله، ولا يوجد بائس في بلادي، ولا جائع في عهدي، وعند حلول سني القحط كنت أحرث كل حقول مقاطعة الغزال إلى حدودها الجنوبية والشمالية، وبذلك حافظت على حياة أهلها مقدِّمًا لهم الطعام، حتى إنه لم يبقَ فيها جائع، وأغدقت على الأرملة والمتزوجة الخيرات على السواء، ولم أميز العظيم على الصغير في كل ما أعطيت، وبعد ذلك كان يأتي نيل يحمل الحبوب وكل الأشياء، ومع ذلك فإني لم أحصل المتأخر على الحقول.

حقًّا إن هذه العبارات تكاد تكون المثل الأعلى في المعاملة الحسنة وحسن الأحدوثة لا يمكن أن يصدقها إنسان، ولكن يظهر أن روح العصر كانت توحي بذلك لما أدخل من الإصلاحات، وذلك يدل على أن مقاطعة الغزال كانت أسعد البلاد، وبخاصة في وقت كانت البلاد فيه حديثة عهد بالخروج من ظلمات الفوضى والفقر التي شملت البلاد فترة طويلة، على أن هذه التصريحات التي فاه بها «أميني» تكشف لنا من جهة أخرى عما كان يجري في البلاد من مظالم واضطهادات في الإقطاعات في العهد الذي سبق تولي ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم، وأن «أميني» أراد أن يبرئ نفسه أمام «سنوسرت» من أمثال هذه الاتهامات التي كانت فاشية في طول البلاد وعرضها، وأنه اتبع نظامه الجديد الذي يوحي بالعدالة الاجتماعية، كما سنذكره فيما بعد.[٦]

[٦] J. E. A., Vol. V. PP. 77 ff.

(١١) زفاي حعبي حاكم بلاد النوبة من قبل سنوسرت الأول ومقبرتاه

ولقد كان من نتائج حملة «سنوسرت» العظيمة إلى بلاد السودان أن أصبحت هذه الجهات خاضعة للاحتلال المصري الدائم نوعًا ما حتى جنوبي الشلال الثالث، كما عين الفرعون حاكمًا مصريًّا لهذا الإقليم المحتل، وكانت له مكانة وشهرة عظيمة عند المشتغلين بالتاريخ المصري القديم قبل أن يكشف الأستاذ «ريزنر» مقبرته العظيمة في بلدة «كرمة» في بلاد النوبة (١٩١٤–١٩١٥ق.م)، فكان يلقب بالأمير الوراثي والحاكم والكاهن الأعظم «زفاي حعبي»، وهو الذي نحت لنفسه أكبر مقبرة معروفة في تاريخ الدولة الوسطى بجبل «أسيوط»، وجدران مقبرة «زفاي حعبي» الشرقية قد نقش عليها نصوص تعد من أهم ما عثر عليه في هذا العصر، وهي عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على معبده، وكل منها على حدة، وقد تعاقد بها «زفاي حعبي» صاحب المقبرة مع كهنة البلدة المختلفين لأجل أن يقوموا له باحتفالات دينية خاصة في مقبرته على كر الأيام، وهذه النصوص العشرة تعد فريدة في بابها؛ إذ نستخلص منها معلومات جمة خاصة بالأعياد المصرية التي كانت تقام في بلدة مصرية في عهد الأسرة الثانية عشرة، وكذلك الاحتفالات الجنازية التي كانت تقام للأفراد وكان لها ارتباط بالأعياد العامة. ويعتقد بعض علماء الآثار المصرية أن هذه الوثائق المنقوشة على جدران مقبرة «زفاي حعبي» ملخص للشروط الأصلية التي عقدت مع الكهنة، وكانت بطبيعة الحال مكتوبة على ورق بردي ومختومة، ورغم أنها مختصرة فإن الإنسان ليدهش من مقدار ما وصل إليه المجتمع المصري من نضوح في تدوين الوثائق الرسمية سواء أكانت قضائية أم دينية. وقد اتضح بعد درس هذه الشروط أنه لم يكن يمر يوم طوال العام دون أن يقدِّم للأمير «زفاي حعبي» الطعام والشراب اللازمان لبقاء قرينه «كا»، ومن الغريب أننا عرفنا حديثًا أن «زفاي حعبي» لم يدفن في قبره الفاخر الذي أقامه لنفسه في جبل «سيوط»[٧] بل دفن في «كرمة» بالسودان، دفنه النوبيون الذين كان يحكمهم في وسط فرقة كاملة من جنوده، وقد ذُبحوا ليرافقوا سيدهم المُتوفَّى في عالم الآخرة.

على أن الإنسان في هذه الحالة يتساءل إذا كان من المستحيل أن يضمن المُتوفَّى لنفسه — وقد دفن في وطنه الأصلي — استمرار الاحتفالات الجنازية، فأي أمل للأمير «زفاي حعبي» وقد مات في السودان في تنفيذ رغباته بمصر؟

---

[٧] (J. E. A., Vol. V. p. 79 ff).

وقد قال الأستاذ «ريزنر»: إن رغبة «زفاي حعبي» في تحقيق هذه الأمنية الصعبة المنال هو الذي دعاه لكتابة هذا المختصر الفريد في بابه، وذلك أن «زفاي حعبي» وهو ذاهب إلى السودان حذَّر كاهن الروح أو القرينة «كا» بكل مهارة ألا يهمل الاحتفالات التي تعاقد على تنفيذها، ولما كان دخل هذا الكاهن مرتبطًا بالمحافظة على إقامة هذه الشعائر وتنفيذها بكل دقة، عمل جهده ألا تُنسى أو تُهمل، من أجل ذلك دوَّنها على جدران المقبرة، ويظهر أن التعليمات التي أعطاها «زفاي حعبي» كاهن روحه، كما يظن الدكتور «ريزنر» هي التي جاءت في خطاب كتبه هذا الحاكم العظيم من السودان قبل مماته بقليل إلى كاهن الروح. وهذا الخطاب كان يحتوي على بعض التعليمات التي نجدها في السطور ٢٦٩–٢٦٢ من عقوده وهي:

(١١-١) تعليمات زفاي حعبي لكاهن الروح

الأمير الوراثي، حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة الأعظم «زفاي حعبي» يقول: «انظر! إن كل هذه الأشياء التي تعاقدت بشأنها مع كهنة الطهور (وعب) تحت رعايتك؛ وذلك لأن كاهن الروح (القرينة) للإنسان هو الذي يجعل أملاكه تنمو، انظر! لقد جعلتك تعرف هذه الأشياء التي أعطيتها الكهنة المقرَّبين، وذلك مقابل تلك الأشياء التي أعطوها إياي، واحذر أن ينتقص منها شيء، وعليك أن تتكلم عن الأشياء الخاصة بي التي سلمتها لهم، ويجب عليك أن تجعل ابنك ووارثك يسمعهم، فإنه هو الذي سيعمل كاهنًا لروحي، انظر! لقد منحتك أراضي وعبيدًا وماشية وحدائق وكل شيء كأي إنسان عظيم المكانة في «سيوط»، حتى تقوم على عملي بقلب سليم، وحتى تشرف على كل أموري التي وضعتها بين يديك، انظر! إنها كلها أمامك مكتوبة وستؤول كل هذه الأشياء لابنك الذي تريد أن يكون كاهنًا لروحي من بين أولادك، وسيكون هو الذي يتصرف في الدخل دون أن يعبث به، وذلك تنفيذًا لهذه التعليمات التي أعطيتك إياها.»

حقًّا إن «زفاي حعبي» نفسه كان كاهنًا وكان عنده بلا شك من الأسباب ما يجعله يسيء الظن بهؤلاء الكهنة المطهرين، وقد نصح لكاهن الروح أن يحذرهم، وقد كان يعتقد أن مصلحته في أن يجعل مصلحة كاهن الروح متوقفة على نفاذ ما جاء في الشروط التي فرضها. ولا نزاع في أن كاهن الروح كان يقوم بواجبه؛ لأن ذلك من مصلحته بصرف

النظر عن مصلحة «زفاي حعبي»، وقد كان «زفاي حعبي» يعتقد أن روحه «كا» كانت تسافر من «كرمة» مقر جسده؛ لتبعث الحياة في تماثيله في مقبرته أو في مزاره، ولتأخذ بنصيبها كذلك من القرابين اللذيذة التي كانت توضع أمامها، ولا بد أن النشاط الذي كان يبديه الكهنة في تأدية الشعائر أخذ يتناقص على مر الأيام كلما تناسى القوم ذكرى هذا الرجل العظيم، وتغيرت هذه الأحوال الاجتماعية إلى أن أصبحت هذه الأوقاف التي كان يحافظ عليها بكل عناية أثرًا بعد عين؛ إذ لا يبعد أن التهمتها الكهنة الجشعون، أو وضع الفراعنة أيديهم عليها، ولم يبقَ لنا شاهد على وجودها إلا نقوشها المحفورة على جدران المقبرة المنحوتة في الصخر. وسنتكلم عنها عندما نتكلم على الحياة الدينية في هذا العصر.

(١١-٢) مقبرة «زفاي حعبي» في كرمة ومحتوياتها

أما قبره الثاني الذي عثر عليه في كرمة فقد وجد فيه أثاث جنازي يكشف لنا عن صفحة جديدة في أثر الفن النوبي، وتأثير كل منهما في صاحبه، وتأثره به مما جعله يتفق وذوق أهالي بلاد النوبة، والواقع أننا في هذا العصر نشاهد تمصير النوبيين، ومما هو جدير بالملاحظة في هذه المناسبة أن الثقافة المصرية والحكومة كانت في الدولة الوسطى مصرية بحتة، وأن تقدمها كان داخليًّا بحتًا لا يعزى إلى بلد أجنبي، وهذا نفس ما كانت عليه البلاد في عهد الدولة الحديثة إلى حد ما؛ إذ كانت تجد كفايتها في تربة بلادها، وأنها لم تخرج عن نطاق حدودها الأصلية إلا عندما كانت إحدى الممالك المجاورة تهددها طلبًا للغنائم، ولم تشذ عن هذه القاعدة على ما يظهر إلا عند قيام ملوكها بالتوسع في حدودها من جهة الجنوب حيث قد امتدت الحدود المصرية في عهد الدول القديمة حتى ما بعد الشلال الثاني.

(١٢) زحف النوبيين على مصر في العهد الإقطاعي الأول

ولقد بقي السبب الذي دعا إلى هذا الفتح غامضًا حتى أماطت عنه اللثام الكشوفُ الأثرية التي قامت حديثًا في بلاد النوبة؛ إذ تدل الحقائق التي كشف عنها معول الحفار أنه قد حدث زحف قام به أقوام من السودان في العصر الذي يقع بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، والظاهر أن هؤلاء الأقوام قد زحفوا من الجنوب وانتشروا على طول النيل

شمالًا، وقد تخطت القبائل المغيرة في زحفها الشلال الثاني، ثم اكتسحت في طريقها السكان القدامى؛ أي سكان بلاد النوبة السفلية وهزموهم تمامًا، ثم تابعوا سيرهم حتى الشلال الأول، وتوغلوا في الأراضي المصرية نفسها، وقد كشف عن آثار كثيرة تدل على استعمارهم لبعض الأراضي المصرية حتى «الكاب الحالية». وكذلك تدل البحوث الأثرية وما قام به علماء الأجناس البشرية في هذه الجهات على أن قبائل من جنس واحد قد أوغلوا في البلاد حتى الشلال الثاني على أقل تقدير؛ إذ قد وجدت آثار مساكنهم باقية هناك، وهؤلاء القبائل ليسوا من الزنوج وكذلك ليسوا مثل سكان بلاد النوبة الأقدمين، بل ينتسبون إلى الجنس الحامي، ويحتمل أن الدم الزنجي يجري في عروقهم، وقد كانوا يسكنون أكواخًا مستديرة الشكل محملة عروشها على جذوع أشجار، أما قبورهم فكان يقام على ظاهرها كومة مستديرة الشكل أيضًا، وتدل الكشوف على أن ثقافتهم كانت ساذجة تمامًا، ولقد كان من البدهي أن توجد روابط بين هذه الثقافة والثقافة المصرية في عهد ما قبل التاريخ، وهذه الثقافة كانت لها علاقة بالثقافة المصرية التي توغلت في أعماق السودان في الأزمان السحيقة في القدم، ثم بقيت هناك في صورتها الأصلية، على حين أنها أخذت في النمو والارتقاء باستمرار في الجزء الأسفل من وادي النيل. وتدل الكشوف على أن المستعمرات التي قطنها هؤلاء الوافدون كانت عديدة بدرجة تفوق حد المألوف، وأن البلاد كانت مكتظة بالسكان بالنسبة للأزمان السالفة؛ ومع ذلك فإن الهجرة الجديدة لم تكن مصدر خطر ما. وأن إخضاعهم لم يتطلب مصاعب كبيرة؛ لأنهم كانوا يقطنون في الأراضي الضيقة الزراعية الممتدة على شاطئ النيل في بلاد النوبة السفلية، غير أنه كان يقطن في الجنوب قبائل متصلة بهم، وهؤلاء قد أسسوا في «دنقلة» مملكة قوية البنيان واتخذوا «كرمة» حاضرة لملكهم، وتقع على مسافة قصيرة من جنوبي الشلال الثالث، وهذه المملكة هي التي تُعرف بمملكة «كوش».

وقد ظهر هؤلاء الكوشيون لأول مرة في تاريخ العالم، وهم متصلون اتصالًا وثيقًا بسكان بلاد النوبة السفلية، غير أنهم ليسوا من فصيلة واحدة، وتنطوي ثقافتهم على اختلافات كثيرة ظاهرة عن سكان بلاد النوبة. ومن الغريب أننا لم نعثر حتى الآن على مستعمرات أو مساكن لقوم «الكوش» غير أن مقابرهم الضخمة التي عثر عليها في «كرمة» عام ١٩١٣–١٩١٥م، قد بسطت أمامنا صورة واضحة عن هذه المملكة التي تعد أقدم مدنية عثر عليها في مجاهل أفريقية، فكل ملك لهم قد دفن تحت تل ضخم (هرم) يبلغ ارتفاعه نحو ٩٠ مترًا، وقد دفن معه عدد عظيم من خدمه الإناث والذكور

ليقوموا بخدمته في عالم الآخرة، كما كانوا يخدمونه في عالم الحياة الدنيا، وكذلك وجد في مقبرته مدافن لأعضاء أسرته وأتباعه.

وتدل قطع الفخار التي عثر عليها في «كرمة» أنها قد بلغت من الدقة حدًّا مدهشًا، وهي تمثل استمرار تحسن الأواني التي يرجع عهدها إلى عصر ما قبل التاريخ، ويشترك في ذلك مجاميع الفخار التي عثر عليها في بلاد النوبة السفلية، وهذا التحسن في فن صناعة الفخار وشكله نلحظه بصورة منقطعة النظير من جهة الإتقان، وبجانب ذلك نجد أشكالًا محلية كثيرة، كما نجد تقليدًا للأشكال المصرية المعاصرة، فنشاهد في قطع العاج المطعمة طرازًا دقيقًا، وكذلك وجدت بقايا ألوان متساقطة من مباني الأضرحة الملكية التي أقيمت من اللبن، وهذه الألوان تعزى حتمًا إلى صناعة وطنية أصلية، والصور البارزة ترجع إلى أصل مصري، وكذلك الخزف المطلي الذي وجد بجوار مصانعه كان لا بد من عمل مصانع أسسها المصريون هناك.

((Junker, Die Volker des Antiken Orients. Die Agypter, P. 22 ff.); Archaeological Survey of Nubia, Reports, (Firth) 1907 [8; Reisner, 1908] 9, 1909, [10; See also Kees, Kulturgeschichte des Alten Orients; P. 341, ff.)

وقد كان الخطر الذي يهدد الحدود المصرية الجنوبية منبعه مملكة «دنقلة» هذه، وقد كان سكان بلاد النوبة يشدون أزرهم؛ ولذلك جعل ملوك الأسرة الثانية عشرة هذه الجهة ميدان قتالهم، والمكان الذي يدافعون منه عن بلادهم؛ من أجل هذا جعل «سنوسرت الأول» وجهته في بادئ الأمر كما أسلفنا الإقليم الشرقي من بلاد النوبة حيث تمكن من منع أي تقدم نحو مصر من قبل العدو، فأخضع له الأقاليم المجاورة، ومد الحدود المصرية حتى الشلال الثاني، ولكن الضربة القاضية كانت على يد «سنوسرت الثالث» كما سيجيء بعد.

(١٣) وصف سنوهيت لحياته مع بدو آسيا

لقد رأينا كيف أن «سنوهيت» قد ولى الأدبار إلى بلاد فلسطين عندما انفرد «سنوسرت» بالحكم، وكيف أنه وصف لشيخ القبيلة «عمو ننشي» الفرعون الجديد بكل نعوت الشجاعة والمهارة والحزم بما يتفق مع موقفه الجديد بعد موت «أمنمحات الأول»؛ وذلك مما يدل على أنه كان يسير مع الريح ويريد تحسين مركزه بعد هربه الذي لم يذكر له هو مبررًا ما. ولما كانت بقية القصة تفصح لنا عن الخلق المصري في هذا العصر،

وتبديه في مظهر يجمع بين السذاجة والمكر ونفاذ البصيرة والشعور بالعظمة والبراعة في النكتة، كما تكشف لنا عن بعض نواحي حياة البادية وقبائلها؛ فإنا آثرنا أن نوردها هنا حتى يعرف الباحث في تاريخ القوم الاجتماعي والديني ما انطوت عليه القصة، أو بعبارة أخرى ترجمة «سنوهيت» من عجائب وحقائق مدهشة. وعندما انتهى «سنوهيت» من وصف الفرعون اندفع الشيخ قائلًا: «حقًّا إن مصر سعيدة؛ لأنها تعرف أنه (أي الملك الجديد) يفلح «في حكمه» ولكن تأمل إنك ستكون هنا وستسكن معي وسأعاملك بشفقة.» بعد ذلك يصف لنا «سنوهيت» حياته في وسط هذه القبيلة، وما وصل إليه من مركز ممتاز، والمبارزة التي قامت بينه وبين أحد شجعان فلسطين الممتازين فيقول: «وقد جعلني على رأس أولاده، وزوَّجني من كبرى بناته، وقد جعلني أختار لنفسي من بلاده أحسن ما في حيازته على حدوده إلى بلاد أخرى، وقد كانت أرضًا جميلة، تسمى «ياء» وكان فيها التين والكرم، ونبيذها أكثر من مائها، شهدها غزير، وزيتونها كثير، وكل الفاكهة محملة على أشجارها، وكان فيها الشعير والقمح، وماشية يخطئها العد من كل نوع، وكذلك كان نصيبي عظيمًا بسبب ما نلت من الحُب (حب الناس)، وقد نصبني حاكم قبيلة من أحسن قبائل بلاده، وقد كان يضع لي الخبز لأكلي اليومي، والخمر لشرابي اليومي، وكذلك اللحم المطبوخ والدجاج المشوي، هذا فضلًا عن صيد الصحراء؛ لأن ذلك كان القوم يصطادونه، ويضعونه أمامي خلافًا لصيد كلابي، وكان يضع لي كثيرًا من الحلوى، ويحضر اللبن بكل الأشكال.

وقد قضيت سنين عدة، وقد نما أولادي، وأصبحوا رجالًا أشداء؛ كلٌّ يحكم قبيلته، والرسول الذي كان يأتي من قبل مقر الملك شمالًا أو جنوبًا، كان ينزل عندي، وقد أعطيت الظمآن ماء، وهديت الضال إلى الطريق، وخلصت من كان قد نهب، ولما أخذ البدو يخرجون عن الطاعة ويقاومون رؤساء الصحاري كبحت جماحهم؛ وذلك لأن أمير «فلسطين» قد جعلني عدة أعوام رئيس جيشه، وكل بلاد سرت إليها قد طردتها من مراعيها وآبارها، ونهبت ماشيتها، وأسرت أهلها، وحملت طعامهم، وذبحت القوم فيها بساعدي القوي وبقوسي وهجماتي، وتدابيري الحسنة، وقد حزت بذلك الحظوة لديه، وأحبني، وقد جعلني على رأس أولاده عندما شاهد كيف تتفوق يداي.»

(١٣-١) المبارزة بين «سنوهيت» والفلسطيني

«وقد جاء رجل قوي من فلسطين ليبارزني في معسكري، وقد كان بطلًا منقطع النظير، أخضع كل فلسطين، وقد أقسم أن يحاربني، وقد دبر سرقتي، وتآمر على أن يأخذ ماشيتي غنيمة بمشورة قبيلته، وقد تكلم معي هذا الأمير، فقلت له: أنا لا أعرفه، وفي الحقيقة لست محالفًا له؛ ولا من الأفراد الذين حاموا حول معسكره، ومع ذلك هل فتحت بابه قط أو اخترقت سياجه؟ كلا، إن ذلك حقد؛ لأنه يرى أني أنفذ أوامرك، والحق أني كثور الماشية في وسط قطيع غريب، وثور الأبقار يهاجمه، والثور صاحب القرن الطويل ينطحه، وهل يوجد رجل خامل الذكر يكون محبوبًا وفي منزله سيدًا؟ وليس هناك بدوي يحالف رجلًا من الدلتا؛ إذ ما الشيء الذي يمكن أن يربط البردية بالصخرة؟ هل يحب الثور النزال، ويريد من ثور أقوى منه أن يعلن تقهقره خوفًا من أنه ربما كان مضارعًا له في القوَّة؟ فإذا كان قلبه مصممًا على الحرب فدعه ينطق بإرادته، وهل الإله يعلم بما قدر له، أو هل يعرف هو كيف يكون المصير؟»

«وفي وقت الليل شددت قوسي، وفوَّقت سهامي، وأرهفت خنجري، وصقلت أسلحتي، وعند الفجر كانت «فلسطين» قد جاءت؛ إذ إنها أثارت قبائلها وحشدت ممالكها وهيأت هذا النزال، وقد برز إلى المكان الذي كنت أقف فيه، وقد وقف بالقرب منه، وكان كل قلب يحترق من أجلي، ولغط النساء والرجال، وكان كل قلب مكلومًا بسببي وقالوا: هل هناك رجل آخر شديد يستطيع منازلته؟»

«ثم سقط درعه وفأسه وحزمة حرابة عندما تفاديت سلاحه، وجعلت سهمه يمر بي طائشًا، ولما اقترب كل منا من الآخر هاجمني، وأرسلت سهمي عليه فلصق بعنقه؛ فصاح وسقط على أنفه، وألقيته أرضًا بفأسه، وصحت صيحة النصر على رقبته، وصاح كل أسيوي، وقدَّمت الثناء «لمنتو» قربانًا، وحزن له أتباعه، أما هذا الأمير «عمو ننشي» فضمني إلى صدره.»

«وبعد ذلك أخذت متاعه، وأتلفت ماشيته، وما قد دبره من النكاية بي جعلته يحيق به، واستوليت على كل ما في خيمته، ونهبت معسكره، وقد أصبحت عظيمًا بهذا واسعًا في ثروتي، غزيرًا في قطعاني.»

وقد فعل الإله (ذلك) رحمة بفرد غضب عليه، وجعله يفر إلى أرض أخرى، واليوم أصبح قلبه فرحًا ثانية.

سنوهيت يتحدَّث عن مجده:

كنت فارًّا هرب في وقته
والآن يكتب التقرير عني في مقر المليك
وكنت ثقيلًا يتضاءل بسبب الجوع
والآن أقدِّم الخبز إلى جاري
وكنت رجلًا ترك بلاده بسبب العري
والآن أرتدي الملابس البيضاء والكتان
وكنت رجلًا أسرع الخطى لعدم من أرسل
والآن أملك العبيد بكثرة
بيتي جميل ومحل إقامتي رحب
وإني أذكر في القصر الملكي.

(١٣-٢) حنين سنوهيت إلى وطنه

«وأنت يأيها الإله، الذي أمرت بهذا الهرب، كن رحيمًا وأعدني ثانية إلى مقر الملك، وربما تسمح لي أن أرى المكان الذي يسكن فيه قلبي، والأمر الذي هو أهم من ذلك أن تدفن جثتي في الأرض التي وُلدت فيها، تعال لمساعدتي، ولقد وقع حادث سعيد، لقد جعلت الإله يرحمني، وليته يرحمني ثانية حتى تحسن خاتمة من قد عذبه، وقلبه رحيم يحن لمن حتم عليه أن يعيش في الخارج، وإذا كان رحيمًا بي اليوم فليته يصغي إلى دعوات فرد ناءٍ، وليته يعيد من قد نكبه إلى المكان الذي أخذ منه.

آه ليت جسمي يعود إلى الشباب ثانية؛ لأن كِبر السن قد نزل بي، واستولى عليَّ الضعف وعيناي ثقيلتان، وذراعاي ضعيفتان، وساقاي قد وقفتا عن السير، وقلبي متعب، والموت يقترب مني، سأحمل إلى مدن الأبدية، فدعني أخدم سيدتي الملكة، وليتها تتحدث إليَّ عن جمال أطفالها، وليتها تخلع عليَّ قبر اللأبدية.

واتفق أن جلالة الملك «خبر كارع» قد حُدِّث عن الحالة التي كنت عليها؛ من أجل ذلك أرسل إليَّ جلالته هدايا من الفيض الملكي لينشرح صدر الخادم هناك كأنه أمير بلد أجنبي، وكذلك أولاد الملك في القصر جعلوني أسمع أوامرهم.»[٨]

(١٣-٣) صورة من القرار الملكي الذي أُحضر إلى الخادم المتواضع خاصًّا بعودته إلى مصر

«حور» حياة المواليد، الممثل للإلهتين، حياة المواليد، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «خبر كارع» بن «رع»، «سنوسرت» الحي إلى أبد الآبدين.[٩]

قرار ملكي إلى التابع «سنوهيت»

«انظر! إن قرار الملك هذا قد أُحضر إليك ليعلِمك بما هو آتٍ: لقد اخترقت الأراضي الأجنبية، وخرجت من «كدمي» إلى «فلسطين»، وقد أسلمتك أرض إلى أرض، وذلك بمشورة قلبك، فما الذي فعلته حتى يبرم شيء ضدك؟ إنك لم تلعن حتى تعنَّف على كلامك، ولم تتكلم في محفل الحاكم حتى يُلعن حديثك، وهذا العزم (على الفرار) قد ملك عليك قلبك أنت، ولم يكن في قلبي شيء ضدك (عن هذا الهرب)، ولكن سماءك[١٠] هذه التي في القصر لا تزال تسكن وتفلح اليوم، ولها نصيبها في ملك الأرض، وأولادها في البلاط، وليتك تعيش طويلًا على الأشياء الطيبة التي سيعطونك إياها، وليتك تحيا على فيضهم.»

وصف الاحتفال بالدفن: «تعالَ ثانية إلى مصر لترى مقر الملك الذي تموت فيه، وتقبِّل الأرض عند البابين العظيمين، وتنال نصيبك من رجال القصر؛ وذلك لأنك قد أخذت فعلًا تتقدم اليوم في السن، وقد ضيعت شبابك؛ فكر في يوم الدفن والمرور إلى دار النعيم! وكيف سيخصص الليل لك بالعطور والأكفان من يد «تايت»[١١] وسيقام لك محفل جنازي يوم الدفن وسيكون غطاء المومية من الذهب، والرأس من اللازورد،

---

[٨] أي كتبوا إليَّ أيضًا.

[٩] الألقاب الرسمية وقد وضع أول القرار في صورة رسمية.

[١٠] سماء الملكة وتشبه بالإلهة «توت» التي تمثل السماء.

[١١] إلهة للغزل والنسيج.

وسيقام فوقك سماء، وستوضع زحافة، وتجرُّك الثيران، ويمشي أمامك المغنون، ويقام أمامك رقص «موو» عند باب قبرك، وقائمة مائدة القربان ستتلى من أجلك، وتُذبح الضحايا بالقرب من لوحتك، وعمدك تصنع من الحجر الأبيض في وسط مقابر أولاد الملك، وعلى ذلك لن تموت في الخارج، ولن يدفنك الأسيويون، ولن توضع في جلد غنم عندما يصنع لك قبرك، حقًّا كل هذه الأشياء ستسقط في الأرض، ولهذا يجب عليك أن تفكر في جثتك وتعود.»

وقد وصلني هذا القرار الملكي عندما كنت واقفًا في وسط قبيلتي، وقد قُرئ عليَّ فانبطحت على بطني، ولمست التراب، ونثرته على شعري، ومشيت حول معسكري فرحًا قائلًا: «كيف تفعل أشياء مثل هذه لخادم، قد أضله قلبه وقاده إلى أراضٍ متوحشة؟ نعم إن ذلك الواحد المحسن الذي يخلصني من الموت طيب حقيقة، وإن حضرتك ستسمح لي بأن أختم نهاية حياتي في مقر الملك.»

صورة من الاعتراف بهذا القرار الملكي

يقول خادم نساء القصر «سنوهيت» — في سلام غاية في الرقة — إنه من المحقق أن هذا الهرب الذي ارتكبه الخادم هناك «أنا» كان بدون تعقل، بحياتك أنت يأيها الإله الطيب يا رب الأرضين، المحبوب من «رع»، المثنَى عليه من «منتو» رب «طيبة»، ليت «آمون» رب الكرنك، و«سبك» و«رع» و«حور» و«حتحور» و«آتوم» و«تاسوع الآلهة» و«سبدو ونفربايو وسمسرو» وحور الشرق، وسيدة «بوتو» الموضوعة فوق رأسك،[١٢] وإلهة الماء، و«مين–حور»، الذي يوجد في البلاد الأجنبية، و«وررت» سيدة «بنت» (بلاد الصومال) و«حرور–رع» وكل آلهة مصر وجزر البحر، ليتهم كلهم يمنحون أنفك الحياة والقوة، وليتهم يمنحونك هداياهم، وليتهم يعطونك الأبدية المطلقة والخلود الأبدي.

والناس يتحدَّثون عن الخوف منك في السهل والحزن، وقد أخضعت كل ما تحيط به الشمس، وهذه الصلاة من الخادم هناك (يعني نفسه) إلى سيده لينجيه من الغرب، رب الفطنة الذي يفهم صغار الناس، قد أدركها في قصره المنيف، والخادم هناك خاف أن يقولها؛ لأن ذلك أمر خطير أن يعيدها، وأنت أيها الإله العظيم الذي يماثل «رع»

[١٢] الصل الملكي.

في إعطاء الفطنة لفرد يجاهد لنفسه، وخادمك هذا في يد ناصح طيب في مصلحته؛ وفي الحق أني قد أصبحت تحت إرشاده؛ لأن جلالتك «حور» المظفر، وساعداك قويان على كل البلاد، والآن فلتأمر جلالتك أن يحضر «مكي» من «كدمي» «وخنتواش» من بلاد خنتكش، و«منوس» من أراضي «الفنخو» وهم أمراء مشهورون قد نموا على حبك غير أنهم منسيون، و«فلسطين» ملكك كأنها كلابك.

أما من ناحية هذا الهرب الذي فعلته فلم أدبره ولم يكن في قلبي، ولم أفهمه ولم أعرف الشيء الذي أقصاني عن مكاني، وقد كان ذلك كحلم كما لو كان رجل من الدلتا يرى نفسه على غفلة في «إلفنتين» أو رجل من المستنقعات في النوبة، ولم يكن هناك أي شيء أخافه، ولم يطاردني إنسان، ولم أسمع أي كلام معيب، واسمي لم يُسمع في فم المنادي، وكل ما حدث أن جسمي أخذته الرعدة، وبدأت قدماي تخوران، وقادني قلبي، والإله الذي أمرني بهذا الهرب جرني بعيدًا، ومع ذلك لم أكن دعيًّا من قبل، على أن الرجل الذي يعرف بلاده يخاف؛ لأن «رع» قد بث خوفك في كل الأرض، والرعب منك في كل البلاد الأجنبية، وسواء أكنت في مقر الملك أم في هذا المكان فإنك أنت الذي في قدرتك أن تظلم ذلك الأفق، وتطلع الشمس بإرادتك، ومياه النهر تُشرب حينما تريد، وهواء السماء يُستنشق حينما تأمر.

وسيسلم خادمك مركز الوزارة الذي كنت أشغله في هذا المكان، ولكن دع جلالتك تفعل ما تشاء، فالناس يعيشون على النَفَس الذي تمنحه، ليت «رع» و«حور» و«حتحور» يحبون أنفك الرفيع الذي يريد «منتو» رب طيبة أن يبقى إلى الأبد.

وقد حضر إلى هذا الخادم الرسل، وقد سمح لي أن أمضي يومًا في «ياء»، وسلمت فيه متاعي إلى أولادي، فأصبح ابني الكبير المشرف على قبيلتي، وكل ما أملك أصبح في يده: عبيدي وكل ماشيتي وفاكهتي، وكل شجرة لذيذة أملكها.

ثم سار هذا الخادم المتواضع نحو الجنوب، ووقف عند «ممرات حور» وأرسل القائد الذي كان مكلفًا بحراسة الحدود هناك رسالة إلى مقر الملك تحمل الأخبار بوصولي؛ فأرسل جلالته أحد رؤساء الصيد في القصر ممن يثق بهم ومعه سفن محملة بالهدايا من الفيض الملكي للبدو الذين أتوا معي ليقودوني إلى «ممرات حور»، وقد ناديت كلًّا منهم باسمه؛ وكان صناع الجعة يعجنونها ويصبونها في حضرتي، وكان كل خادم منهمكًا في عمله، ثم أخذت في سياحتي إلى أن وصلت بلدة «مراقبة الأرضين» (العاصمة)، وعند انفلاق الصبح، أتوا ليطلبوني مبكرين جدًّا، وقد كان عشرة رجال يأتون، وعشرة رجال يذهبون

ليقودوني إلى القصر، واستلمت الأرض بين تماثيل «بو الهول» بجبهتي، ووقف أولاد الملك عند الباب، واستقبلوني، أما أمناء القصر الذين يقودونني إلى القاعة فإنهم ذهبوا بي إلى الطريق المؤدية إلى الحجرة الخاصة، فوجدت جلالته على عرشه العظيم في مدخل من الذهب، فانبطحت على بطني، وذهب عني عقلي في حضرته؛ مع أن هذا الإله حياني بفرح، وقد كنت كرجل أطبق عليه الظلام؛ إذ فرَّت روحي وتزلزلت أعضائي، ولم يعد قلبي في جسمي؛ ولم أشعر إذا كنت حيًّا أو ميتًا.»

وعندئذ قال جلالته لأحد هؤلاء الأمناء: «ارفعه ودعه يكلمني.» وقال جلالته: «انظر! لقد عدت بعد أن قطعت الصحاري واخترقت الفيافي؛ والكبر قد تغلب عليك، وقد بلغت الشيخوخة، وإنه ليس بالأمر الهين أن يُدفن جسمك في الأرض دون أن يسير في مشهدك المتوحشون، ولكن لا تبقَ هكذا صامتًا باستمرار عندما يُنطق باسمك.» ولكن في الحق خفت العقاب وأجبت عن ذلك جواب الخائف: «ماذا يقول سيدي لي؟ ليت في مقدوري أن أجيب عليه، ولكن لا يمكنني، انظر! كأن ذلك يد الله؛ إذ إن الفزع الذي في جسمي كالفزع الذي سبب هذا الهرب الذي قضى به علي، انظر! إنني في حضرتك والحياة ملكك وليت جلالتك تتصرف كما تريد.»

ثم أُمر بدخول أولاد الملك وقال جلالته للملكة: «انظري! هذا هو «سنوهيت» الذي عاد كأسيوي من نسل أهل البدو.» فصاحت صيحة عالية جدًّا، وكذلك صاح أولاد الملك معًا، وقالوا لجلالته: «حقًّا كأنه ليس هو يأيها الملك يا سيدنا.» فقال جلالته: «حقًّا إنه هو.» وبعد ذلك أحضرن معهنَّ عقودهنَّ ودفوفهنَّ وصاجاتهنَّ ورفعنها إلى جلالته قائلات: «لتكن يداك على الواحدة الجميلة، أيها الملك الخالد، على حلي «سيدة السماء»، ليت «الواحدة الذهبية»[١٣] تمنح الحياة أنفك، و«سيدة النجوم» تضم نفسها إليك، دع إلهة الوجه القبلي تنحدر مع النهر، وإلهة الوجه البحري تصعد مع النهر متحدتين ومنضمتين في اسم جلالتك، ليت الصل يوضع على جبهتك، لقد خلصت رعاياك من الأذى، ليت «رع» يكون رحيمًا بك يا سيد الأرضين، مرحبًا بك وكذلك بملكتنا، أخرج قرنك، وانزع قوسك، وامنح النفس من قد اختنق، وامنحنا هدية جميلة للعيد، هذا الشيخ ابن آلهة الشمال البدوي المولود في مصر، وقد هرب خوفًا منك، وترك الأرض رعبًا منك، ولكن الوجه الذي قد رأى جلالتك لن يصفر بعد، والعين التي شاهدتك لن تخاف.»

[١٣] الإلهة «حتحور» إلهة الحب والجمال.

وعندئذ قال جلالته: «لن يخاف ولن يرتاع؛ لأنه سيصير أمينًا في القصر بين الحكام، وسيوضع بين رجال الحاشية، اذهبوا إلى قاعة الزينة لتكونوا في خدمته.»

وبعد أن تركت الحجرة الخاصة، وقد صافحني أولاد الملك، ذهبنا إلى البابين العظيمين، وقد أسكنت في بيت ابن من أولاد الملك، وكان مزينًا بثمين الأثاث، وكان فيه حمام وأشكال ملوَّنة للأفق، وكان فيه أشياء ثمينة من الخزانة، فكان فيه ملابس الكتان الملكي، والبخور، والزيت الثمين الخاص بالملك، ورجال البلاط الذين يحبهم، وكان كل خادم في عمله، وقد أخذت السنون تذهب عن جسمي، وأُزيلت لحيتي ورُجِّل شعري، وقد ألقي في الصحراء حمل أوساخ، وأُعطيت الملابس القذرة رجال الرمال.

وقد زُينت بأحسن ملابس الكتان، ودُلكت بأحسن الزيت، وفي الليل نمت على سرير، وتركت الرمال لمن هم فيها، وزيت الخشب لمن يدلك نفسه به.

وقد أهدى لي بيت حاكم مقاطعة كما يليق بسمير ملكي، وقد بناه كثير من الصناع، وكانت كل الصناعة الخشبية فيه جديدة.

وكان يُؤتى إليَّ الطعام من القصر ثلاث مرات وأربع مرات في اليوم، هذا فضلًا عما أعطانيه أولاد الملك بدون انقطاع في أي وقت.

وقد أقيم لي قبر من الحجر في وسط المقابر، والبناءون الذين ينحتون المقابر قد وضعوا تصميمه، وكبير مهندسي العمارة قد بدأ في بنايته (؟)، وأخذ النقاشون ينقشونه، وأخذ مهرة النحاتين ينحتون فيه، أما رؤساء بنَّائي الجبانة فوجهوا عنايتهم له، وكل ما يحتاج إليه من لامع المتاع الذي يوضع في القبر قد مُدَّ به، وقد رتب لي كهنة جنازيون، وصُنعت لي حديقة للقبر كان فيها حقول مقابلة لمأواي، كما كان يصنع للسمير الأول للقصر، وقد رُصع تمثالي بالذهب ومئزره كان من خالص النضار، وإن جلالته هو الذي أمر بصنعه، وليس هناك رجل فقير قد عمل له مثل ذلك، وقد تمتعت بعطف من الفيض الملكي إلى أن أتى يوم الممات.

(١٤) إشراك سنوسرت ابنه «أمنمحات الثاني» في الحكم

وفي السنة الثالثة والأربعين من حكمه كان سنوسرت قد ناهز السبعين من عمره (هذا إذا كان قد اشترك مع والده في الحكم وهو بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره)، فأشرك معه ابنه «أمنمحات الثاني» في حكم البلاد، وقد جاء ذكر ذلك في أثر محفوظ الآن بمتحف ليدن: «السنة الرابعة والأربعون من حكم «سنوسرت» المقابلة

للسنة الثانية من حكم «أمنمحات الثاني»» (Boeser, "AegytischenSmmlung" Des Neiderlandischen Reichmuseums der Altertumer in Leiden, Pl. IV).

وكما أعد «أمنمحات الأول» ابنه «سنوسرت الأول» ليكون مدرَّبًا في فنون الحكم والحروب، اتبع «سنوسرت الأول» نفس الطريقة مع ابنه «أمنمحات الثاني»؛ إذ أرسله مع القائد «أميني» ليرى أجزاء مملكته النائية بنفسه، وليتقبل خضوع أمراء هذه البلاد، وليقضي على كل من شق عصا الطاعة منهم.

(١٥) وفاة «سنوسرت الأول»

وقد تُوفي هذا الفرعون المسن في السنة السادسة والأربعين من حكمه، وهي السنة الرابعة من اشتراك ابنه معه في الحكم؛ أي بعد أن حكم خمسًا وأربعين سنة، كما جاء في ورقة «تورين»، وكما تدل على ذلك آثاره المؤرخة؛ إذ وجدنا من بينها أثرًا يذكر لنا السنة الخامسة والأربعين من حكمه.

ولدينا لوحة هامة محفوظة في المتحف البريطاني الآن (No. 828; Breasted, A. R. Vol. I. par 594–598) مؤرخة في السنة الثالثة من حكم «أمنمحات الثاني»، وهذا التاريخ يقابل السنة الخامسة والأربعين من حكم والده، وهي تحتوي على الخطوات المتتابعة التي سار فيها «سمنتو» الذي كان يلقب بالأمير، والكاتب الملكي مدة حياته، فيقول: «لقد ولدت في حكم الملك «أمنمحات الأول» المرحوم، وقد كنت طفلًا متمنطقًا بحزامه عندما تُوفي جلالته، (وكان الأولاد يلبسون حزام الصبية بين العاشرة والحادية عشرة)، وقد نصبني الملك «خبر كارع» «سنوسرت الأول» عاش أبديًّا «كاتب الحريم»، ومدحني كثيرًا جدًّا في هذا العمل، وبعد ذلك نصبني كاتبًا ومدحني كثيرًا على ذلك، ثم بعد ذلك جعلني كاتب حسابات غلال الشمال والجنوب، ثم عينني «كاتبًا للحريم الأعظم»، وأخيرًا نصبني كاتبًا ملكيًّا ومديرًا لكل الأعمال في كل البلاد، وقد مدحني سيدي؛ لأني كنت صامتًا، وكان يحبني؛ لأني كنت ضد المتهور، ولم أعِد كلمة سوء. ولا بد أن «سمنتو» قد بلغ ما يقرب من الخامسة والأربعين من العمر عندما أمر بكتابة هذه النقوش، وفي هذه السن كان يلقب نفسه الأمير الوراثي، حامل الخاتم الملكي، والشريف محبوب الصقر (الملك)، سيد القصر الذي يفعل كل ما يمدحه سيده كل يوم، الكاتب الملكي «سمنتو». ومما يلاحظ هنا أن استعمال عبارة العائش أبديًّا بالنسبة للفرعون في هذا النقش، دليل على أن الفرعون كان لا يزال عائشًا عند كتابته؛ أي في السنة الثالثة من الحكم المشترك مع «أمنمحات».

(١٦) هرم سنوسرت الأول

وقد مات «سنوسرت الأول» بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، بنى فيها مجد الأسرة الثانية عشرة، ودفن في هرم أقامه لنفسه، انتخب موقعه في الجهة الجنوبية من معبد هرم والده باللشت، وقد وجد مدخله في رقعة الهرم عند سفحه، وكان الممر المؤدي إلى حجرة الدفن مسدودًا بقطع كبيرة من الجرانيت، وقد تسرب اللصوص إلى مخدعه بنفق حُفر بجانب المدخل، ولكن الحجرة لم يمكن الوصول إليها بسبب ارتفاع منسوب مياه الرشح فيها الآن.

وقد أحاط «سنوسرت» هرمه بجدار عظيم زُين بألواح منقوشة باسمه، وقد وجد مذبحه في البقعة التي أقيم فيها المعبد، وعلى مقربة من هذا الهرم، أقام كاهن «هليوبوليس» الأعظم «أمحوتب» قبرًا له، وتدل ظواهر الأحوال على أنه هو الذي أشرف على بناء هذا الهرم؛ لأنه يحمل بين ألقابه مدير أعمال الملك كلها. وفي سمك أحد جدران هذه المقبرة المبنية باللبن عُثر على تمثالين جميلين مصنوعين من خشب الأرز باسم الملك «سنوسرت الأول» واحد منهما يمثله وهو لابس تاج الوجه القبلي، والثاني يمثله وهو لابس تاج الوجه البحري (Lythgoe, Ancient Egypt, (1915) p. 145) هذا؛ وقد خلف لنا مساعد الخزانة المسمى «مري» الذي عاش في عهد هذا الفرعون نقشًا سجَّل فيه بناء الضريح الأبدي، وهذه العبارة تشير بطبيعة الحال إما لهرم «اللشت» الذي أقامه الملك هناك، أو إلى مقبرة أخرى ثانية أقامها هذا الفرعون لنفسه في «العرابة المدفونة»، وهذا ليس بغريب؛ لأن عددًا عظيمًا من الملوك قد أقاموا لأنفسهم قبرين. فيقول «مري» في نقشه:

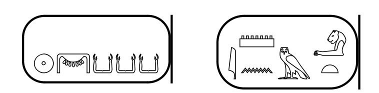
> ولما كنت غيورًا جدًّا أرسلني الفرعون لأقيم له ضريحًا أبديًّا، وكانت جدرانه تخترق السموات، والبحيرة التي حفرت قد بلغت في حجمها النهر، وأقيمت «بواباته» التي تناطح السماء من حجر «طرة»، وقد فرح الإله «أوزير» أول سكان الغرب بهذا البناء الذي أقمته لسيدي، وقد سررت أنا نفسي وكان قلبي فرحًا بما أنجزته.

(Piehl, Inscriptions, I, II–IV; Breasted, A. R. Vol. I, par. 507–509) وقد أرِّخ هذا النقش بالسنة التاسعة، الشهر الثاني من الفصل الأول في اليوم العشرين من حكم هذا الفرعون.

قد سمى «سنوسرت» هرمه في اللشت باسم «المحمي الأماكن» وقد وجد هذا الاسم على نقش مهشم عثر عليه في «منف» (Petrie, Memphis, Vol. I, P. 18, A. Z., Vol. 59, P. 53)، وهو يشير كذلك إلى وقف خُصص لهذا الهرم ولهرم والده «أمنمحات الأول». والظاهر أنه كان قد جهز لمعبد الهرم عشرة تماثيل من الحجر الجيري الأبيض الجميل، غير أننا لا نعلم السبب الذي من أجله لم تقُم هذه التماثيل في أمكانها، لا في عهد هذا الملك ولا في عهد ابنه، بل بقيت ملقاة على الأرض، ومغطاة بالرمال إلى أن عثر عليها في عام ١٨٩٤، ومعها ستة تماثيل للملك «سنوسرت» وكذلك تمثاله في صورة الإله «أوزير»، هذا إلى ثلاثة عشر مذبحًا مهداة من كاهنات هذا الفرعون، وكل هذه التماثيل موجودة الآن بالمتحف المصري بحالة جيدة، عدا تمثال واحد قد أصابه بعض التشقق (Borchardt, “Statuen”, Vol. II, P. 21, pl. 97)، وليس لوجود هذه التماثيل بهذه الكيفية إلا أحد فرضين، فإما أن يكون الملك قد مات قبل إقامتها في أماكنها، وأن ابنه لم يعتنِ بعد وفاة والده بآثاره، وإما أن تكون قد دفنت في الرمال لأسباب دينية قد غاب عنا الوصول إلى معرفة مغزاها.

والظاهر أن مقر الملك في عهد هذا الفرعون كان في مكان يُدعى «اث تو» بجوار الهرم في اللشت راجع (A. Z., Vol. 59. P. 53).

أمنمحات الثاني (١٩٣٨–١٩٠٣ق.م)



(١) مجمل أعماله

انفرد «أمنمحات الثاني» بالملك بعد وفاة والده «سنوسرت الأول»، وكان عندما تولى العرش مشتركًا مع والده، قد اتخذ لنفسه لقب «نب كاو رع»؛ أي الواحد الذهبي لأرواح إله الشمس.

وتدل الآثار المكشوفة إلى الآن، التي وصلت إلينا من عهده، على أن عصره كان عصر هدوء وسلام، وأنه لم يقُم بأعمال جسيمة في الفتوح والغزوات، كما أنه لم يُنسب إلى عهده شيء من المباني العظيمة الخالدة، وذلك لا يعني أن عهده خلا من الأعمال الجليلة التي سارت بسفينة البلاد نحو التقدم والوحدة التي كانت الغرض الأسمى لفراعنة هذه الأسرة، فقد أظهر نشاطه العظيم في إرسال البعوث العديدة إلى مختلف نواحي ممتلكاته لاستخراج المعادن من جبالها الغنية بها، أو لتهدئة الأحوال في الجهات التي حدثت فيها اضطرابات، كما أرسل البعوث للبلاد الأجنبية بقصد التجارة ونشر الحضارة المصرية، هذا إلى أنه أقام مباني عدة للآلهة في مختلف جهات القطر، غير أنها لم تضارع ما قام به والده وجده.

(١-١) بعوثه إلى سينا

فمن أهم أعماله ما أظهره من نشاط في شبه جزيرة سينا؛ إذ أرسل بعثتين لاستخراج المعادن والأحجار الكريمة، وقد أرِّخت الأولى بالسنة الرابعة من حكمه على لوحة وجدت في هذه الجهة. وكذلك وجدت نقوش أخرى تدل على أنه أرسل بعثة ثانية مؤرَّخة في السنة الرابعة والعشرين، وهذه النقوش قد حُفرت على صخرة بالقرب من مخزن مياه «سرابة الخادم»، وتدل على أنه فتح منجمًا جديدًا في هذا المكان لم يكن معروفًا من قبل، ونصها:

> السنة الرابعة والعشرون من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري «أمنمحات الثاني»، منجم حفره صديق الفرعون الحقيقي، وضابط البحارة المسمى «مين»، وأمه «موت» المرحوم.

وقد عثر في هذه الجهات على تمثالين صغيرين من عهد هذا الفرعون، وعلى تسعة ألواح منقوشة فضلًا عن ذلك (Gardiner and Peet, Sinai, pls. XVI, XIX–XXII, Petrie, Sinai, Fig. 130)

يضاف إلى ذلك أن «ساحتحور» أحد الموظفين المجدِّين في هذا العصر، يحدِّثنا أن الفرعون قد أرسله في عدَّة بعوث كما سنذكر بعد؛ إحداها لزيارة أرض المناجم في شبه جزيرة «سينا»، وكذلك عثر على الجزء الأسفل من تمثال جالس للإلهة «حتحور» سيدة الفيروز وحارسة المعدنين في هذه الجهات، وقد قدَّمه لها الضابط الأكبر للأسطول ويسمى «سنفرو». (Breasted, A. R., Vol. I, Par. 599).

(١-٢) آثاره في مختلف جهات القطر

ونجد لهذا الفرعون نقوشًا عدة في مختلف جهات القطر تدل على نشاطه في إقامة المباني، ففي «أسوان» عثر على نقوش عدة محفورة على الصخور، مما يدل على أنه كان يقطع حجر الجرانيت من هذه الجهة، وأهمها نقش مؤرخ بالسنة الرابعة عشرة (Weigall, "History" Vol. II, P. 75)، وفي وادي الحمامات عثر على اسم «أمنمحات الثاني» في مناجم «حجر البرشيا» الشهيرة الواقعة في الصحراء الشرقية (Murray, "Handbook", P. 826).

وكذلك وجد اسمه منقوشًا في محاجر المرمر بجهة «حتنوب»، وفي إقليم الحجر الرملي القريب من جبل السلسلة وجد اسمه منقوشًا (Frazer "Hatnub", XV, 11) هناك، وأرِّخ النقش بالسنة السابعة عشرة من حكمه (Ibid, 512).

(١-٣) البعوث إلى محاجر صحراء النوبة

وقد أرسل هذا الفرعون البعوث إلى محاجر صحراء النوبة الغربية التي كُشف عنها حديثًا لاستحضار حجر الديوريت والجرانيت فقد عثر له على لوحة في المحاجر الجنوبية لهذه الجهة مصنوعة من الديوريت الأسود، ولكن مما يؤسف له أن هذه اللوحة قد وُجدت نقوشها متآكلة وممحوَّة؛ مما يصعب معه حل رموزها، وكل ما يمكن حله في نقوشها أن الذي كان على رأس البعثة أمير، وأن الغرض من إرسالها هو إحضار حجر «منتت» من مكان يسمى «نخنت» (؟).

وكذلك أرسل «أمنمحات الثاني» بعوثًا إلى «وادي الهودي»، وقد وصلتنا لوحة من عهده غير مؤرخة، وقد أقامها رئيس البعثة المسمى «سنببو»، ويحمل لقب رئيس الخزانة، ونقش عليها ما يأتي:

> ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع كاو رع» عاش أبد الآبدين محبوب «حتحور» سيدة الجمشت (حسمن)، قريب الملك الحقيقي ومحبوبه وساكن قلبه رئيس الخزانة، وهو الذي وضعته «سبك رع» ورب الاحترام.

والذي استولى على قلب الملك باختراق الصحاري (في البعثة) التي قام بها لسيده بتفوِّق «سنببو» رب الاحترام.» ولدينا لوحة أخرى من هذا المكان، غير أن معظم كتاباتها قد مُحيت، وهي منحوتة من الحجر الرملي، ويرجع عهدها إلى السنة السادسة من الحكم المشترك لهذا الفرعون، وابنه «سنوسرت الثاني» (هاتان اللوحتان لم تُنشرا بعد).

ومن الغريب أنه قد عُثر على نقش لأمير من عهد هذا الفرعون في سد وادي «العنقابية الراويانه»، وهذا السد يقع على بُعد سبعة كيلومترات في أعالي النهر، وفي الجهة الجنوبية الشرقية عند النقطة التي يقطع فيها الوادي طريق «مصر–السويس» في الكيلومتر الثاني والعشرين، وهذا النقش قد حُفر على وجه السد (صخرة)، غير أنه قد تآكل ولم يبقَ فيه إلا جزء من طغراء الفرعون، ولقب الأمير هو «كاهن عين شمس

الأعظم»، وهذا اللقب لم يعثر عليه في الدولة الوسطى قط إلا هذه المرة، ولا نعلم لوجود هذا النقش في هذا المكان من سبب حتى الآن. (A. S., Vol. XXXIII, P. P. 1–5, Pl, 1).

(١-٤) بعوثه إلى بلاد بنت

ومن أهم البعثات التي أرسلها في عهده إلى الخارج وتعتبر تجديدًا في نشاط هذه الأسرة، البعثتان اللتان أرسلهما إلى بلاد «بنت»، أما البعثة الأولى فقد وجدت نقوشها في وادي «جاسوس» على شاطئ البحر الأحمر على لوحة موجودة الآن في «النوك كاسل» Alnwick Castle بإنجلترا، وقد عثر عليها الرحالة «برطون» (Birch, "Alnwick", Pl. III, P. 268).

ولهذه اللوحة أهمية خاصة؛ إذ عرفنا منها اسم الميناء التي كانت تستعمل كثيرًا لقيام البعوث إلى «سينا» وإلى بلاد «بنت»، وهذه اللوحة تعزى إلى حامل الختم الفرعوني ومدير مخازنه المسمى «خنتخاتي ور»، وقد كان غرضه إحضار العطور والروائح الذكية، ونشاهد على هذه اللوحة صورة الفرعون «أمنمحات الثاني» يقرِّب الشراب للإله «مين» سيد «قفط»، وأسفل هذا المنظر نرى «خنتخاتي ور» نفسه رافعًا ذراعه تعبدًا للإله، ويلي ذلك النقوش وهي: تقديم المديح الإلهي، والشكر من الأمير الوراثي والحاكم وحامل خاتم الفرعون ورئيس قاعة المحكمة «خنتخاتي ور» إلى الإله «حور» والإله «مين» رب «قفط»، وذلك بعد وصوله مع جيشه سالمًا من «بنت» غانمًا مظفرًا، وسفنه قد رست في «سواو» (وادي جاسوس)، في السنة الثامنة والعشرين من حكم هذا الفرعون.

أما الحملة الثانية فكانت في السنة الأولى من اشتراك «سنوسرت الثاني» مع والده «أمنمحات الثاني» بقيادة شريف يُدعى «خنوم حتب»، وقد ذكر تاريخها على لوحة وجدت في «وادي جاسوس» على ساحل البحر الأحمر، وهي موجودة الآن في قلعة «النوك»؛ والظاهر أن الحملات إلى هذه الجهات كانت عديدة ويقول «ويجول» (Weigall, Guide 246) في دليله عن آثار الوجه القبلي: إنه قد ذكر في قبر «خوي» بأسوان، ويرجع تاريخه إلى هذا العصر تقريبًا، وكذلك في قبر شريف آخر يُدعى «ثثي» أنهما زارا «سوريا» وبلاد «بنت» إحدى عشرة مرة (Sethe, "Urkunden", Vol. I, 140).

انظر كذلك «برستد» (Breasted, A. R., Vol. I, Par. 361) حيث يعزى هذا النقش إلى الأسرة السادسة، ولكن هذا الرأي فيه شك كبير.

(أ) أهمية البعوث إلى بلاد بنت

والواقع أن إرسال الفرعون «أمنمحات الثاني» الحملات إلى «بنت» تلك البلاد النائية الواقعة بجوار بلاد «الصومال» الحالية له أهمية عظيمة؛ إذ يدل على أن هذا الفرعون كان يريد مجاراة أجداده القدامي في هذه البعوث التي سبقه إليها «سحورع» و«اسسي» و«بيبي» من ملوك الدول القديمة، و«سنعنخ كارع» من ملوك الأسرة الحادية عشرة، ولا شك في أن الرحلة إلى هذه البلاد النائية كانت في وقت ما شاقة خطرة؛ إذ كان على رجالها أن يخترقوا الصحراء حتى يصلوا إلى البحر الأحمر. وبعد ذلك كان لا بد من بناء السفن اللازمة لحمل رجال البعثة، وفي أراضي الصحراء القاحلة الجرداء يلاقون قبائل العرب الرحل الذين تعوَّدوا السلب والنهب، يجولون طلبًا للسطو على أية غنيمة. وبعد ذلك كانت تقلع البعثة عدة أيام متجهة جنوبًا محاذية الشاطئ الخالي من السكان، وفي نهاية المطاف كان عليهم أن ينزلوا عند قوم من الناس غاية في السذاجة غير معروفين لهم، فيتجرون معهم، ثم يحملون عند عودتهم المرَّ والأصماغ ذات الروائح الذكية. وتدل شواهد الأحوال على أن السياحة إلى بلاد «بنت» العجيبة كانت مما يثير الدهشة والإعجاب؛ حتى إن رجال القصص قد ألفوا سلسلة قصص عن المخاطرات التي كان يلاقيها المسافر إلى هذا القطر الغريب، وقد وصلت إلينا واحدة من هذه القصص وهي «قصة الغريق»، التي يرجع تاريخها إلى هذا العصر، وهي تذكرنا بقصة «السندباد البحري» في «ألف ليلة وليلة»، وبطل هذه القصة الطريفة يقلع في سفينة طولها ١٢٠ ذراعًا وعرضها ٤٠ ذراعًا وبها ١٢٠ من خيرة البحارة المصريين، وقد أرسل هذه البعثة الملك إلى أرض الإله (أي بلاد بنت) ليحضر بعض النفائس منها، ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم فرجعوا بالخيبة بعد أن لاقوا في الطريق أهوالًا عظيمة، وصلوا بعدها إلى الوطن سالمين. ثم تستمر القصة في سرد قصة أخرى، فاستمع إلى ما جاء فيها.

قصة الغريق

يقول تابع حاذق: «كن فرحًا أيها الأمير، انظر! لقد وصلنا إلى مقر الملك، وقد أخذت المطرقة ودُقت أوتاد المرسى، وأُلقيت حبالها على البر، وكان الثناء والشكر لله، وقد عانق كل فرد زميله، وقد وصل ملاحونا سالمين أصحاء، ولم نفقد من جنودنا أحدًا، وقد وصلنا إلى أقصى «واوات» ومررنا «بسنموت»، تأمل! لقد عدنا بسلام ووصلنا إلى بلادنا.»

أصغ إليَّ أيها الأمير، إنني فرد خلو من المبالغة، اغسل نفسك، وصب الماء على أصابعك، وأجب عندما تُحيًّا، وتكلم إلى الملك وأنت مالك لشعورك، وأجب في غير تلعثم، وإن فم الإنسان هو الذي ينجيه، وكلامه هو الذي يجعل الناس يرفقون به، وستفعل ما يحلو لك، ومع ذلك فالكلام معك غير مجدٍ، ومع ذلك سأقص عليك شيئًا مماثلًا لقصتك، فقد حدث لي شخصيًّا عندما أقلعت إلى إقليم مناجم الملك ذاهبًا إلى البحر في سفينة ذرعها ١٢٠ طولًا و٤٠ عرضًا، وكان فيها ١٢٠ بحارًا من نخبة مصر؛ وكانوا يتعرَّفون السماء، وكانوا يتعرفون الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من قلوب الأسود، وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل أن تحدث، والزوبعة قبل أن تمر، وقد هبت عاصفة ونحن ما زلنا في البحر، وقبل أن نصل إلى الأرض، وقد قامت الريح فضاعفت من شدتها، وجاءت موجة ارتفاعها ثمانية أذرع، وقد حُملت من على سطح السفينة مع السارية.

وبعد ذلك غرقت السفينة، ولم يبقَ غير واحد من بين الذين كانوا فيها، وقد رمت بي موجة إلى جزيرة، وقد قضيت ثلاثة أيام وحيدًا، ولم يكن لي رفيق غير قلبي، ونمت في خباء من الخشب، واحتضنت الفيء، ثم وقفت على قدمي لأجد ما يمكن أن أضعه في فمي، فوجدت تينًا وعنبًا هناك، وكل أنواع الخضر الجميلة، وكان هناك فاكهة «كاو» و«نكوت» وخيار كأنه مزروع، وكان هناك سمك وطيور، ولم يكن هناك شيء لا يوجد فيها، وعندئذ أشبعت نفسي، وتركت بعضها على الأرض؛ لأن حمله كان ثقيلًا على ذراعي، ثم أخذت زنادًا وأوقدت نارًا لنفسي، وقدمت قربانًا مشويًّا للآلهة.

وبعد ذلك سمعت صوت رعد، وظننت أنها موجة بحر، فتكسرت الأشجار وزلزلت الأرض، ولما كشفت عن وجهي وجدت أنه ثعبان يقترب مني، وكان ذرعه ثلاثين ذراعًا طولًا، ولحيته تزيد طولها على خمسة أذرع، وكان جسمه مرصعًا بالذهب وحاجباه من خالص اللازورد، وقد كان غاية في العقل، ثم فغر فاه لي حينما كنت ملقى على بطني أمامه وقال لي: من أحضرك إلى هنا؟ من أحضرك إلى هنا أيها الصغير؟ من أحضرك هنا؟ وإذا تأخرت عن إجابتي عمن أحضرك إلى هذه الجزيرة جعلتك لا تجد نفسك إلا ترابًا، وتصير كالذي لم يكن قد رئي.» فأجبت: «إنك تتحدث إليَّ ومع ذلك لم أسمع ما تقول: إني في حضرتك ولكن حواسي قد ذهبت.»

وبعد ذلك أخذني في فمه، وأحضرني إلى حجره، ووضعني دون أن يلمسني، وكنت صحيحًا ولم يمزق شيئًا مني؛ وفغر فاه لي عندما كنت ملقى على بطني أمامه وقال

لي: «من أحضرك إلى هنا؟ من أحضرك إلى هنا أيها الصغير؟ من أحضرك إلى جزيرة البحر هذه التي يحيط بها الماء من الجانبين؟» وقد أجبته وذراعاي مثنيتان في حضرته وقلت له: «إني فرد ذهبت إلى المناجم في أمر للملك في سفينة ذرعها ١٢٠ طولًا و٤٠ عرضًا وكان فيها ١٢٠ بحارًا من نخبة مصر، وكانوا يتعرَّفون السماء، وكانوا يتعرفون الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من قلوب الأسود، وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل أن تحدث، والزوبعة قبل أن تكون، وكان كل واحد منهم شجاع القلب قوي الساعد أكثر من زميله، ولم يكن بينهم أحمق، وقد هبت عاصفة ونحن لا نزال في البحر قبل أن نصل إلى الأرض، وقد قامت الريح فضاعفت من شدتها وجاءت موجة ارتفاعها ثمانية أذرع، وقد حُملت من على سطح السفينة مع السارية؛ وبعد ذلك غرقت السفينة بمن كانوا فيها، ولم يبقَ غيري، وتأمل! فإني هنا بجانبك وقد أحضرت إلى هذه الجزيرة بموجة البحر.»

وعندئذ قال لي: «لا تخف، لا تخف، أيها الصغير، ولا تدَع محياك يصفر ما دمت قد جئت إليَّ، انظر! لقد حفظك الله حيًّا ليحضرك إلى جزيرة الطعام «الوفير» التي ينمو فيها كل شيء؛ لأنها مفعمة بكل شيء حسن، وانظر! ستمضي الشهر بعد الشهر في هذه الجزيرة إلى أن تتم أربعة أشهر، ثم تأتي سفينة من مقر الملك تحمل بحارة تعرفهم، وستذهب معهم إلى مقر الملك، وتموت في نفس بلدك، ما أشدَّ فرحة الذي يقص ما جرى له بعد أن تمر الكارثة! وهكذا سأقص عليك شيئًا مماثلًا لهذا، قد حدث في هذه الجزيرة، وذلك أنني كنت فيها مع إخوتي وأطفالي في وسطهم، وكان كل عددنا ٧٥ ثعبانًا؛ أولادي وإخوتي، هذا غير بنت امرأة مسكينة قد أحضرت إلي … ثم انقض شهاب فذهب هؤلاء في النار بسببه (أي الشهاب).

وقد حدث ذلك وأنا لست مع المحرقين (؟)، ولم أكن بينهم، وقد كدت أموت من أجلهم عندما وجدتهم كومة من الجثث.

فإذا كنت شجاعًا فاكبح جماح قلبك، على أنك ستضم أطفالك، وتقبِّل زوجتك وترى منزلك، وهذا أحسن من كل شيء، وستصل إلى مقر الملك، وتسكن هناك في وسط أولادك.»

وعند ذلك ألقيت بنفسي على بطني ولثمت الأرض في حضرته، وقلت له: «سأتحدث للملك عن قوتك وأعلمه بعظمتك، وسأعمل على أن يجلب إليك «أبي» و«حكنو» و«أدنب» و«خسايت» وكذلك بخور المعابد التي يسر لها كل إله، وسأقص ما حدث لي وما قد شاهدت … وستشكرني المدينة أمام ضباط الأرض كلها، وسأذبح لك ثيرانًا قربانًا مشويًّا، وأضحي لك الإوز، وسأرسل لك سفنًا محملة بكل بضائع مصر الثمينة، كما يجب أن

يُفعل لإله يحب الناس في أرض نائية لا يعرفها الناس.» عند ذلك ضحك مني ومما قلت، كأن ذلك الذي قلته سخافة وقال لي: «ليس عندكم «عنتيو» بكثرة، ولا تملكون إلا البخور، ولكني أمير «بنت»، والمرُّ متاعي الخاص، أما من حيث «حكنو» الذي تقول عنه إنك ستجلبه إليَّ فهو أهم حاصلات هذه الجزيرة، ولكن الواقع أنك لن ترى هذه الجزيرة قط بعد سفرك؛ لأنها ستصير ماء.»

وبعد ذلك أتت هذه السفينة كما تنبأ، وذهبت وتسلقت شجرة طويلة، ورأيت أولئك الذين كانوا فيها، وذهبت لأخبره، فعلمت أنه عرف ذلك من قبل، وقال لي: «بسلام بسلام للوطن، أيها الصغير، وشاهد أطفالك، واجعل لي اسمًا حسنًا في مدينتك، اسمع فإن هذا هو كل ما أبغي.»

وعندئذ ألقيت بنفسي على بطني، وأثنيت ذراعي في حضرته، وأعطاني حمولة «مر» و«حكنو» و«أدنب» و«خسايت» و«تشبس» و«شاس»، وكحل، وذيول زرافات، وكمية عظيمة من البخور، وسن فيل، وكلاب صيد، وقردة ونسانيس، وكل الذخائر الجميلة، وأنزلتها في هذه السفينة.

ولما ألقيت بنفسي على بطني لأشكره قال لي: «انظر! ستصل إلى الحاضرة بعد شهرين، وستضم أولادك في حضنك، وتصير شابًّا ثانية في مقر الملك ثم تدفن.»

وذهبت إلى الساحل حيث كانت هذه السفينة، وحَييت الفرقة التي كانت في هذه السفينة، وأثنيت على رب هذه الجزيرة على الساحل، وكل من كان في السفينة فعل كذلك.

ثم سحنا شمالاً إلى حاضرة الملك، ووصلنا إلى العاصمة في شهرين كما قال، ومثلت أمام الملك، وقدَّمت له هذه الذخائر التي أحضرتها من الجزيرة، وقد شكرني أمام كل ضباط الأرض قاطبة، وعُينت حاجبًا وكافأني ببعض حشمه (؟).

انظر إليَّ بعد أن وصلت إلى الأرض، وبعد أن شاهدت ما لاقيته، اسمع لما أقول انظر إنه من الخير للناس أن يصغوا.

فقال لي: «لا تلعبن دور الحكيم يا صديقي! فإن ذلك كالذي يعطي الطائر عند الفجر ماء وسيذبحه مبكرًا في الصباح؛ أي إني مقضي عليَّ بالموت عندما أقابل الفرعون، وعلى ذلك فإن كلامك المطمئن لا فائدة منه لي.»

(١-٥) بلاد النوبة ونشاطه فيها

وكان نشاط هذا الفرعون في بلاد النوبة لا يقل عن نشاطه في الجهات الأخرى، فقد ترك لنا مساعد خزانته المسمى «ساحتحور» الذي أسلفنا ذكره نقشًا: (British Museum, No. 569; Breasted, "A. R." Vol. I, Par. 599) يعطينا فكرة عن نشاط هذا الفرعون في جهات مختلفة وبخاصة في بلاد النوبة لاستخراج الذهب؛ إذ يقول: «إن الملك «نب كاو رع» «أمنمحات الثاني» قد أرسلني مرات عدة للقيام بكل أنواع البعوث الهامة التي أراد الفرعون أن تتم حسبما يصبو إليه قلبه، فأعطى الأوامر بأن أبعث إلى هرمه المسمى «خرب» الواقع في دهشور؛ لأشرف على عمل الستة عشر تمثالًا لذاته من الحجر الصلب، وقد نفذ هذا العمل في مدة شهرين إلا يومًا، على أنه لم ينجز مثل هذا العمل (بمثل هذه السرعة) على يد أي موظف، وقد زرت مناجم «سينا» وأنا لا أزال شابًّا، وقد أجبرت رؤساء «إقليم مناجم الذهب» أن يغسلوا الذهب لي، واستحوذت على الفيروز من «سينا»، وقد اخترقت بلاد السود وذهبت إليهم وهزمتهم برهبة الملك، وقد وصلت إلى أرض «حح» (سمنة)، وسرت حتى وسط جزرها وأحضرت معي من منتجاتها»، ويلاحظ هنا أنه ليس من السهل تحديد موقع مكان «حح» ولكن «ويجول» (History, Vol. II, P. 75) يقول: إن الحملة إلى بلاد النوبة في عهد الفرعون السابق قد جعلت الشلال الثالث تحت سلطان المصريين؛ ولذلك يظن الإنسان أن الإقليم الذي وصل إليه «ساحتحور» يحتمل أن يكون بالقرب من «أرجو» Argo وجزائرها ونحن نعلم من جهة أخرى أن الإله «حور» الذي كان يُعبد في أرض «حح» في عهد الأسرة التاسعة عشرة كان يُعبد في «أبو سمبل» ومن ثم يظن أن «حح» كانت قريبة من هذا المكان، غير أن نقوش «ساحتحور» تشير صراحة إلى أن «حح» كانت في الجنوب الأقصى، بل كانت تقع بعد النفوذ المصري في السودان، ومن المحتمل جدًّا أن تكون هذه البعثة هي ما تشير إليها النقوش التي عثر عليها مدونة على صخرة في «دهميت» ببلاد النوبة السفلية، وقد ذُكر فيها اسم «أمنمحات الثاني» وهي مؤرَّخة بالسنة الثالثة من حكمه، أو هي التي يشير إليها نقش آخر وجد في «آمادا» ومؤرخ بالسنة الخامسة من عهد هذا الفرعون أيضًا (Weigall, "Lower Nubia", Pl. XVIII).

ومما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة اللوحة التي عثر عليها في «دابود» (على مسافة ١٨ كيلومترًا جنوبي أسوان) وهي محفوظة الآن بمتحف برلين.
(L. D. Vol. II, Pl. 123 b).

وتنحصر أهميتها في تحديد العصر الذي أنشئت فيه هذه البلدة لحماية الحدود المصرية من غارات سكان الجنوب، وتنسب إلى هذا العهد.

(أ) علاقة مصر ببلاد آسيا في عهد هذا الفرعون

أما علاقة مصر ببلاد «فينيقية» (ببلوص = جبيل) و«سوريا» في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة، فإن ظواهر الأمور تدل على أنها كانت على أحسن ما يكون من الود والصفاء، وبخاصة في عهد هذا الفرعون؛ إذ عثر فعلًا في جبيل (ببلوص) على نقوش مصرية قديمة ذُكر فيها اسم شخصية مصرية عظيمة تحمل لقب الأمير الوراثي «حاتي عا»، كما أن اسمه ونسبه يدلان على أنه من أصل مصري بحت، وهذه الوثيقة يرجع عهدها بلا شك إلى الأسرة الثانية عشرة، ولا نزاع في أن تاريخها يرجع إلى ما قبل عهد حكم الفرعون «سنوسرت الثالث»؛ ونحن نجهل الآن مدى بقاء هذه السيادة المصرية على بلاد «فينيقية»، ولكن المؤكد أن النفوذ المصري كان عظيمًا فيها في خلال عهد الأسرة الثانية عشرة حتى ختامها — وقد كُشف حديثًا عن أشياء تدل على أن توطيد العلاقات بين مصر و«فينيقية» كانت على خير ما يكون.

(ب) كنز طود وأهميته

فقد كُشف في بلدة «طود» عام ١٩٣٦ عن كنز في أساس معبد يرجع عهده إلى الأسرة الثانية عشرة من عهد الفرعون «أمنمحات الثاني»، ويشتمل على أربعة صناديق من البرنز نُقش عليها اسم الفرعون «أمنمحات الثاني»، وقد وجدت كلها مملوءة بأوانٍ من الذهب والفضة يربي عددها على مائتي آنية، وكذلك وجد من بين محتوياتها سبائك من الذهب والفضة وكمية عظيمة من الخرز والأسطوانات «البابلية» والتعاويذ المصنوعة من اللازورد وقطع من اللازورد الغفل، ولا شك في أن هذه الأواني من الصناعة «الإيجية» المحضة، أما الأشياء المصنوعة من اللازورد فهي صناعة «بابلية».

(Depot Asiatique Trouvé à Tod, Bisson dé la Roque, “Tod” (1934–1936) Le Caire, 1937, PP. 113 ff.)

ولما كانت ظواهر الأحوال تدل على أن العلاقات بين مصر في عهد «أمنمحات الثاني» والبلاد الأجنبية كانت علاقات صداقة وود، وبخاصة بين هذا الفرعون و«آسيا» فإنه من

المستبعد أن تكون هذه التحف قد أتت إلى مصر عن طريق الغزو، بل يحتمل جدًّا أنها كانت جزية فرضها الفرعون على أمير «ببلوص» (جبيل) سواء أكان أميرًا من أهل البلاد نفسها أم أميرًا مصريًّا قد وضعه الفرعون حاكمًا عليها من قِبله.

(١-٦) محافظته على مباني أسلافه

أما عن أعمال هذا الفرعون الإنشائية في البناء، فيدل ما كُشف من النقوش حتى الآن على أنه لم يقُم بإنشاء مبانٍ عظيمة؛ إذ لم نعثر له إلى الآن على معابد باقية، ولكن من جهة أخرى يظهر أنه كان شديد المحافظة على المباني العظيمة التي تركها أسلافه، وقد كان يسهر على إصلاح ما تخرَّب منها، ولدينا وثائق تشير إلى ذلك مباشرة، ونخص بالذكر الوثيقة الرسمية التي تركها لنا «خنتمسميتي». (British Museum No. 574; Breasted, A. R., Vol. I, Par. 608).

وهو خادم الفرعون المقرَّب لديه، «سكرتير» ملابسه، فيقص علينا: «لقد وضعني الفرعون عند قدميه وأنا صبي، وكان اسمي يُتحدث عنه قبل أقراني، وكان جلالته يحبني، ويُظهر دهشته لعملي الطيب، وكنت أُمدح كل يوم أكثر من اليوم السابق، وكنت موضع ثقة الملك الحقيقية، وكان جلالته يقبل تزلفاتي، وعندما كان موظفو «البلاط» يصطفون في أماكنهم «حسب درجاتهم» كانت مكانتي أمامهم … وكنت كاهن تاج الجنوب وتاج الشمال، وكنت خادم الملابس الملكية، وملبسًا «التاج الذي اسمه» «عظيم في السحر»، وقابضًا على التاج في القصر … ولما أصبحت في المقدمة أمام جلالته كلفني أن أقوم بالتفتيش على الكهنة، وأقضي على العمل الخبيث، وأُحسن حالة عملهم في كل الأمور المقدسة. وذهبت حسب أوامر «الملك» إلى «إلفنتين»؛ وقدمت خضوعي أمام إله الشلال «خنوم»، وعدت بالطريق الذي ذهبت منه، ورسوت عند «العرابة» حيث أقمت هذه اللوحة التي تحمل اسمي عند المكان الذي يسكن فيه «أوزير» أول أهل الغرب ورب الأبدية، وحاكم الغرب، والذي يطير إليه كل كائن لما فيه من فائدة في وسط أتباع سيد الحياة، لأجل أن آكل رغيفه، وأخرج نهارًا (من قبره)؛ ولأجل أن يتمتع روحي باحتفالات القوم الذي يتشفعون بقلوبهم إلى قبري وبأيديهم إلى لوحتي؛ وذلك لأني لم أفعل «شرًّا»، ولأجل أن يكون الإله عطوفًا عليَّ عند الحساب حينما أكون هناك في «الآخرة»، وحتى

يكون في مقدوري أن أعمل بوصفي روحًا في الجبانة المنحوتة في الصحراء، وحاكمًا للأبدية، وحتى يمكنني أن أحرك السكان وأتمكن من النزول في القارب المقدس «نشمت» وأشم الأرض (ألثمها) أمام الإله «وبوات» خنتمسميتي «المرحوم سيد الاحترام».

(أ) المباني

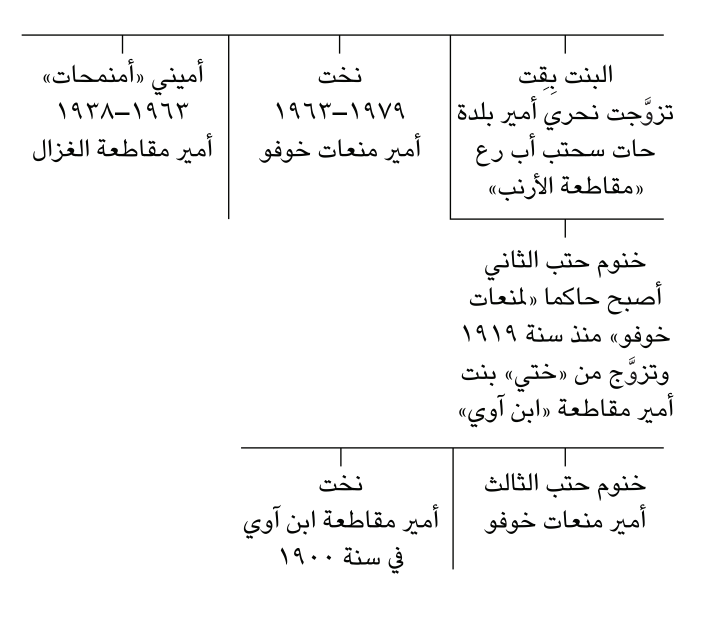
لم نعثر حتى الآن على مبانٍ عظيمة في المدن الهامة مثل «تانيس» و«تل بسطة» لهذا الفرعون، ولكن وجدنا له بقايا من مبانٍ في مواقع ليست ذات شأن عظيم، ويظهر أنه كان أول من زينها بالمباني، ففي «دهدمون» الواقعة بالقرب من «فاقوس» عثر على مذبح من الجرانيت باسمه، وجده عربي من سكان هذا المركز وبيع لمتحف الجيزة، وهو من الجرانيت الأحمر المخطط، جميل الصنع دقيقه (A. Z, Vol. 22, P. 2)، وكذلك عثر في نفس الإقليم في «نبيشة» على بقايا مذبح آخر من الجرانيت الأسود لهذا الفرعون؛ غير أنه قد أضيف عليه كتابة هامة أخرى لحامل خاتم من عصر متأخر (Petrie, Tanis, Vol. II, Pl, IX, 1)، وكذلك عثر على عتبة باب في «منف» باسمه (Petrie, “Memphis” II, P. 14, Pl. XXIII) مصنوعة من الجرانيت.

(٢) الإدارة

والظاهر أن هذا الفرعون كان حازمًا في إدارة شئون البلاد الداخلية، ومسيطرًا على حكام الأقاليم الوراثيين؛ فقد ذكر لنا «خنوم حتب» ابن «نحري» أمير مقاطعة الغزال في نقوشه التي على قبره في «بني حسن» أن الملك «نب كاو رع» «أمنمحات الثاني» قد ولاه منصب والده في السنة التاسعة عشرة من حكمه في الجهة المسماة «منعات خوفو»، ثم يصف لنا بعد ذلك في هذه النقوش المؤسسات الدينية التي أقامها لوالده للاحتفال بالأعياد المختلفة، وكذلك ذكر لنا أن ابنه قد رقي حاكم مقاطعة «ابن آوي» المتاخمة لمقاطعته، وأن الفرعون قد عين الحدود بنفسه، وبهذه المناسبة نذكر أنه قد نقش على مقابر «بني حسن» تاريخ أسرة أمراء مقاطعة الغزال، ولا بد من أن نشير هنا إلى شجرة نسب هذه الأسرة العريقة بالنسبة لحكم هذا الفرعون، حتى يعلم القارئ كيف تغلغل نفوذ الأمراء الوراثيين في المقاطعات، وأن عمل الملوك على نزع السلطة من أيديهم كان أمرًا عسيرًا يحتاج إلى نضال شديد مع حكمة وحزم.

ومؤسس هذه الأسرة «خنوم حتب» الذي لعب دورًا في تثبيت ملك «أمنمحات الأول» على عرش الملك، (انظر سنوسرت الثاني)، وهاك سلسلة النسب وسنتكلم عنها في حكم الملك «سنوسرت الثاني».

خنوم حتب الأول أمير منعات خوفو ومقاطعة الغزال



شكل ١

وهذه النقوش فضلًا عن أنها تمدنا بالحقائق السالفة فإنها قد دونت لنا الأعمال الصالحات لبعض الأمراء، مبينة لنا كيف كانت تؤسس الأوقاف الجنازية المعتادة، وكيف كانت توضع القربان أمام تماثيل الأجداد اتقاء إقامة أعياد خاصة، كما سبق شرحه عند الكلام على «زفاي حعبي».
(Breasted, A. R., Vol, I, Par. 619; Newberry, “Beni Hassan” Vol. I, Pls, XXV, XXVI) … والواقع أن حكام المقاطعات كانوا فعلًا يعاملون الأهلين معاملة حسنة،

كما سنرى ذلك حتى نالوا محبتهم، وقد افتخر هؤلاء الأمراء بهذا إما بتدوينه كتابة أو بالمناظر التي كانوا يرسمونها على جدران مقابرهم، فمن ذلك المنظر الذي خلد ذكرى الأمير «تحوتي حتب» حاكم «مقاطعة الأرنب» في الأشمونين، وقد عاش هذا الأمير في عهد كل من «أمنمحات الثاني» و«سنوسرت الثاني» و«سنوسرت الثالث». وسنتكلم عنه في عهد هذا الأخير.

(٣) اشتراك سنوسرت الثاني في الحكم

وبعد انقضاء ثلاث وثلاثين سنة على الفرعون «أمنمحات الثاني» في الحكم أخذ يشعر بثقل السنين، ويئن تحت عبء الشيخوخة؛ ولذلك أشرك معه ابنه «سنوسرت الثاني» في حكومة البلاد، وكان يتراوح عمره بين الأربعين والخمسين؛ وبذلك أصبحت السنة الثالثة والثلاثون من حكم «أمنمحات الثاني» تقابل السنة الأولى من حكم «سنوسرت الثاني». ويؤكد لنا ذلك نقش وجد على الصخر عند الشلال الأول على مسافة ميل بعد الخزان الحالي وهو: «عمل في السنة الثالثة من حكم «سنوسرت الثاني» تعادل السنة الخامسة والثلاثين من حكم «أمنمحات الثاني» عندما حضر الموظف «حابو» ليفحص تحصينات بلاد النوبة السفلية (De Morgan, Cat. Mon. 25, No. 178; L. D. II, 123)، وقد بقي «سنوسرت» يشاطر والده الحكم سبعة أعوام قضى بعدها الفرعون المسن نحبه بعد أن حكم البلاد نحوًا من ثمانية وثلاثين سنة، ويعزي «مانيتون» موته إلى مؤامرة قامت ضده، وأن الذي قتله هم خدام قصره المقربون إليه، ولكن من الجائز بل من المعقول أن «مانيتون» قد خلط بين «أمنمحات الأول» و«أمنمحات الثاني» بعد أن برهنا على أن الأول قد مات غيلة على يد حراسه، وأن الملك الذي نحن بصدده الآن قد مات حتف أنفه استسلامًا للشيخوخة وحدها.

(٤) هرم الملك أمنمحات الثاني

وقد دفن أمنمحات الثاني في هرمه الذي أقامه في نقطة منعزلة في الصحراء على مسافة خمسة أميال جنوبي «سقارة» في «دهشور»، وعلى مسافة عشرة أميال شمالي «اللشت» حيث يوجد هرم والده. وكان صلب الهرم مبنيًّا من اللبن يغطيه كساء من الحجر الجيري وأحيط بردهة مسورة، وأطلق عليه اسم «خرب» وقد عرفنا ذلك عن لوحة لكاهن من كهنة الهرم نفسه (A. Z., Vol. XII, P. 112).

(٥) مقابر الأسرة الملكية ومحتوياتها

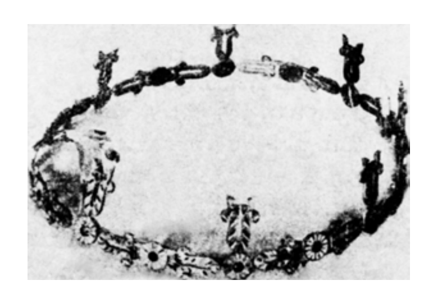
وقد وجد الهرم مخرَّبًا تمامًا منذ الأزمان القديمة، ولكن قد عوَّضنا عن ذلك بعض الشيء مقابر سيدات الأسرة المالكة التي أقيمت على مقربة من هذا الهرم، وقد أخطأتها يد اللصوص الأقدمين، غير أن اللصوص الأحداث قد تسربوا إليها، ورغم ذلك فإن ما بقي منها يقدِّم للعالم المتحضر تحفة فنية قديمة تعد من أهم ما عثر عليه حتى الآن في تاريخ الفن القديم، من حيث دقة الصنع وتناسب التركيب وحسن الذوق، ففي هذه البقعة عثر على مقبرة زوج الملك المسماة «كي نب» Keminub، وكذلك على مدافن أربع أميرات هنَّ «إتا» Ita و«إتاورت» Ita-wert و«خنمت» و«سات حتحور مريت»، والواقع أن يد النهب قد امتدت إلى كل مقبرة منها، ولكن لم يتمكن اللصوص من نهبها تمامًا؛ إذ قد أفلت من أيديهم مقدار عظيم من مجوهرات الأميرات. أما مقبرة الملكة «كي نب» فقد نهبت كلها ولم يبقَ منها إلا قطع من التابوت.

ووجد للأميرة «آتاورت» تابوت من الجرانيت الأحمر غاية في دقة النحت، وعثر في حجرة الدفن على بعض مواد حمراء أرجوانية اللون حول الجسم، وكذلك وجد معها أساور من ذهب وخرز من حجر صلب وطوق من ذهب وخرز، والصولجان العادي ومقمعة Mace وقوس وزخمة وفأس ونماذج أخرى من الخشب المذهب، ووجدت أواني الأحشاء في صندوقها، ويكاد يشبه مدفن «سات حتحور مريت» هذا المدفن الأخير.

أما مقبرة «إتا»[١] فكان مدفنها غنيًّا؛ إذ وجد فيه زيادة عن نظائره التي وجدت في المقبرتين الأخيرتين؛ خنجر ذهبي مقبضه من الذهب المرصع، وكذلك أساور ذات محابس من ذهب، وصقر من الكرنالين، وعلى الجسم وجدت زخرفة مؤلفة من قطع من الحجر وخرز ذهبي، هذا إلى نماذج آلات من النحاس واثنتان وثلاثون آنية من الفخار، ومجموعة من الأواني الخاصة بالزيوت المقدسة، ومجموعة الأواني الأربعة الخاصة بالأحشاء ذات رءوس بشرية ثلاثة منها لها لحى والرابعة مرداء.

[١] De Morgan, “Dahchour”, Vol. II, PP. 37, 75, 57, 68.

(٥-١) مجوهرات الملكة خنمت



شكل ٢: تاج الملكة «خنمت» من الذهب المرصع بالأحجار نصف الكريمة.



شكل ٣: تاج الملكة «خنمت» من الذهب محلى بزهيرات.

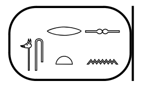
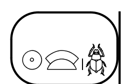
أما مدفن «خنمت» فهو أغنى هذه المدافن جميعًا، ويحتوي على أشياء مماثلة للأشياء التي وجدت في مقبرة «إتا» إلى تاجين وُجدا معًا، واحد منهما من الذهب الخالص المرصع بالأحجار نصف الكريمة، والثاني مؤلف من أسلاك من الذهب محلًّى بزهيرات مرصعة بحجر الكرنالين، وهذا التاج يكاد يكون أحسن قطعة فنية وصل فيها الصائغ المصري إلى محاكاة الطبيعة قدَّمها لنا الفن القديم. ومن المدهش أنه كشف في هذه المقبرة حلي رائع أجنبي الصنع على شكل نجوم ودوائر صغيرة مقسمة، ومع هذا عثر كذلك

على أقراص من الزجاج المنمق تمثل عجلًا، ولا نعلم حتى الآن على وجه التأكيد من أي جهة أجنبية جاءت إلى مصر هذه الصناعة الدقيقة، هذا ويرجح بعض علماء الآثار أنها صناعة متأثرة بالفن «الكريتي» الذي كان قد بدأ يزدهر في هذا العصر. وسنرى في حكم خلف هذا الفرعون أنه عثر على كنز آخر من المجوهرات للأميرة «سات حتحور» عثر عليه السير «فلندرز بتري» عام ١٩١٤ في «اللاهون»، وتعتبر بعض قطعه أدق صنعًا من التي كُشف عنها في عصر «أمنمحات الثاني» الذي نحن بصدده.

(أ) القيمة الفنية لمجوهرات الملكة خنمت

وبدهي عندما نشاهد مثل هذه الدقة الفنية في وضع المجوهرات أن نعترف بأن المصري الذي عاش في عهد الدولة الوسطى؛ أي منذ ٤٠٠٠ سنة خلت تقريبًا؛ قد صعد في بعض نواحي حياته في مدارج الرقي والمدنية حتى وصل إلى ما وصل إليه رجل القرن العشرين من حيث الإنتاج الفني الذي ينم عن حسن الذوق، وفي الحق إذا كان منتهى الذوق السليم يعبر عنه بالجمال والمهارة، ويظهر في المقدرة على التأليف الرائع بين الشكل واللون محاكاة للطبيعة، وإذا كان هذا هو المعيار والمحك للثقافة العالية التي بلغتها الأمة، فإن كثيرًا من ثقافتنا الحاضرة يتضاءل عندما يقرَن بثقافة المجتمع الذي كان ينتج صناعة مثل مجوهرات «دهشور»، وهو ذاك المجتمع الذي كان يضم بين جنبيه مفتنين وصناعًا يخرجون للعالم مثل هذه التحف المنقطعة النظير. ولا نكون مغالين إذا قلنا إذن إن مجوهرات «دهشور» لشاهد عدل على وجود مجتمع لا يقل عن مجتمعنا الحالي إن لم يكن أرقى منه في الذوق الفني، يضاف إلى ذلك أن أحواله المعيشية كانت تجمع بين الثقافة والرخاء والرشاقة والتهذيب إلى درجة لم تصل إلى مثلها مصر إلا نادرًا في أي عصر آخر من عصور حضارتها.

سنوسرت «الثاني» (١٩٠٦–١٨٨٣ق.م)



شكل ١: سنوسرت الثاني.

تولى المُلك بعد «أمنمحات الثاني» ابنه «سنوسرت الثاني» الملقب باسم «خع خبر رع»، بعد أن اشترك معه في الحكم حوالي سبعة أعوام، وقد ذكر «مانيتون» أنه من أطول الملوك الذين جلسوا على عرش المُلك قامة، فكان طوله حسب قول «مانيتون» نقلًا عن

«يوسبيوس» Eusebius أربعة أذرع وثلاثة أشبار وأصبعين؛ أي نحو ستة أقدام. أما مدة حكمه للبلاد فكانت قصيرة؛ إذ لم يمكث على العرش أكثر من تسع عشرة سنة بما فيها سبعة الأعوام التي اشترك فيها مع والده.

(١) اضطراب الأحوال في بلاد النوبة

والظاهر أنه لم يكن ميالًا للحروب، ومن المحتمل أن بلاد النوبة أخذت تفلت من يده بعض الشيء، وقد كان الملوك الذين سبقوه توغلوا بجيوشهم فيها إلى الشلال الثالث كما ذكرنا، وجعلوها إقليمًا مصريًّا، ولكن شواهد الأحوال تدل على أنه في خلال حكم «أمنمحات الثاني» المشترك مع ابنه؛ أخذ نفوذ المصريين يتناقص حتى إن القبائل النوبية هددت البلاد المصرية نفسها بالغزو. وقد عثرنا على بعض نقوش ربما كانت تشير إلى ذلك من بعيد، ففي «الكاب» وجدت لوحة مؤرخة بالسنة الرابعة والأربعين من حكم «أمنمحات الثالث» لجده «سنوسرت الثاني» يقول فيها: «أمر جلالته ببناء حصار داخل سور «سشموتاوى» المرحوم»، وهذا الاسم هو اللقب «الحوري» للفرعون «سنوسرت الثاني»، وأنه من الصعب أن نعرف السبب الذي من أجله أقام «سنوسرت» سورًا في هذا المكان طوله نحو ٨٠ كيلومترًا شمالي الشلال الأول، في زمن كانت البلاد فيه غاية في الهدوء والسكينة والاتحاد، اللهم إلا إذا كان هناك خطر يهددها من الجنوب، يضاف إلى ذلك أنه كان يوجد في بلاد النوبة العليا وفي الصعيد استحكامات وحصون يرجع تاريخها إلى هذا العهد وهي «خشتامنة» و«كوبان» و«عنيبة»، ولدينا من الأدلة ما يثبت أن هذه الاستحكامات كانت موضع عناية في عهد هذا الملك، وقد كان ظاهرًا أنه يحتمل حدوث اضطرابات في بلاد النوبة، وأن القبائل السود كانت تهدد التخوم المصرية.

(٢) لوحة «حابو» وأهميتها

وكان المشرف على تفتيش الحصون في عهد «سنوسرت الثاني» وهو مشترك في الحكم مع والده موظفًا يدعى «حابو»، وقد ترك لنا نقشًا ذهب معظم معالمه على صخرة في «أسوان» وعليه اسم «أمنمحات الثاني» محبوب الإلهة «ساتت» ربة «إلفنتين» واسم «سنوسرت الثاني» محبوب الإله «خنوم» رب منطقة الشلال، وقد جاء فيه ما يأتي: «عمل في السنة الثالثة من حكم جلالة «حور» «سشموتاوى» (سنوسرت الثاني)، وذلك

يقابل السنة الخامسة والثلاثين من حكم جلالة «حور حكن إم ماعت» (أمنمحات الثاني) حضر «حابو» ... لأجل أن يفتش على حصون «واوات» (weigall, “Guide”, P. 411) ورغم ضآلة هذه المعلومات فإنها تفسر لنا السبب الذي من أجله قام «سنوسرت الثالث» على أثر توليته الملك بحملة على بلاد النوبة، ولا يمكن أنها قد قامت فجأة لمحاربته، بل لا بد أن قبضة «سنوسرت الثاني» على تلك الجهات كانت قد أخذت تنحل شيئًا فشيئًا؛ حتى قامت دفعة واحدة بالثورة والعصيان ضد خلفه.

(٣) نشاط «سنوسرت الثاني»

وتدل الآثار الباقية على أن نشاط هذا الفرعون الذي ورثه عن آبائه كان ظاهرًا في عدة جهات مثل «هيراكليو بوليس»، فقد عثر على كتل من معبد أقامه هذا الفرعون (Naville, “Ahnas”, I.)، وقد عثر على لوحة في «وادي جاسوس» لمدير خزانة الإله المسمى «خنوم حتب»، يذكر فيها أنه قام ببعثة إلى أرض الإله «بنت» (Birch, “Alnwick” 269, Pl. IV.)

وعثر له في «الكرنك» على رأس من الجرانيت الأحمر (Legrain, “Statues” No. 42010) وفي «هيراكنبوليس»، وجد له تمثال (Rec. Trav. Vol. X, P. 139)، وقد عثر له كذلك على تمثال صغير في «سرابة الخادم» وهي مركز المناجم في شبه جزيرة «سينا» (Gardiner, and Peet, “Sinai” P. 79)؛ أما في «وادي الحمامات» وهو المكان الذي يستخرج منه حجر البرشيا، فقد عثر على نقش ذُكر فيه اسم هذا الفرعون (Couyat et Montet “Hammamat”, 104) وفي «القصير» على البحر الأحمر وهي الميناء التي كانت تقلع منها السفن الذاهبة إلى بلاد «بنت» (A. Z. XX, 204)، وفي بلدة «الرقة» عثر على قطعة حلي تحمل اسم هذا الفرعون (Riqqeh and Memphis, Pl. 1.)، وتوجد عدة أسطوانات وجعارين باسم هذا الفرعون، وقد كشف عن عشرة منها في بلدة «اللاهون» وحدها، وفي «أسوان» عثر على لوحة جميلة لشريف محلي يسمى «منتو حتب»، وقد أرِّخت بحكم «سنوسرت الثاني» (L. D. Vol. II, pl. 123 d)، وكذلك أرِّخ قبر «سرنبوت» وتمثاله المصنوع من الجرانيت الأسود بعهد هذا الفرعون (Budge, “Sculpture”, P. 157)؛ وكان والد هذا الأمير اسمه «أمنمحات» تيمنًا باسم «أمنمحات الثاني» (Rec. Trav.Vol. X, P. 189)؛ ويوجد الآن في «برلين» تمثال مقدم من موظف اسمه «سر» ويعزى إلى حكم هذا الفرعون (Wiedemann, “Geschichte”, P. 250).

(٤) الملكة «نفرت» زوجة «سنوسرت الثاني»

وتزوج «سنوسرت الثاني» من سيدة كانت شهرتها تفوق جمالها، إذا كان تمثالها الذي عُثر عليه في «تانيس» صورة حقيقية لها، والنقوش التي على عرش التمثال هي: الأميرة الوراثية، والحظية العظيمة، والممدوحة كثيرًا، والزوجة الملكية، وحاكمة النساء، وبنت الملك من جوفه، «نفرت» (ومعني اسمها الجميلة، وربما سميت بهذا الاسم رغبة في أن يغطي اسمها على قبح منظرها)، ومن ذلك نعلم أن الملكة نفسها كان لها حق ولاية الملك، وذلك ما يفسره ذلك اللقب غير العادي «حاكمة النساء» الذي أعطيته، وقد اتخذ هذا الفرعون عادة غريبة في بابها في نظرنا، وإن كانت طبعية وعادية عند الأسرة المالكة.

تلك هي عادة تزوُّج الملك من أخته، ولا شك في أن مثل هذا العمل كان يقوِّي مركزه على عرش البلاد، ومن المدهش أن مثل هذه الرابطة لم تنتج العواقب الوخيمة التي تنجم من العلاقات الجنسية بين الأقارب من هذا النوع، بل على العكس نجد أن فراعنة هذه الأسرة كانوا أشداء أقوياء الجسم.

وهذه الملكة نفسها على ما يظهر، وبنتها «حتشبسوت» قد ذُكرتا على لوحة جنازية لموظف اسمه «إي»، وهو يخبرنا أن زوجته كانت الأميرة «حتشبسوت» بنت الملكة «نفرت» المرحومة (Lange and Schafer, “Grab und Denkstein”, No. 20394)، وكذلك نجد ذكر الملكة «نفرت» وأختين أخريين إحداهما تسمى «نفرت» والثانية «إتا كايت» على بردية من اللاهون (A. Z. Vol. XXXVIII, P. 91).

(٥) منظر العامو الوافدين إلى مصر بالجزية وما قيل عنهم

وقد تمتعت مصر في أيامه بالرخاء والثروة والسعادة مما جلب إليها المهاجرين الساميين من الصحراء، وكذلك أهل البلاد الأخرى التي تجاورها، ولا أدل على ذلك من المنظر الذي نشاهده على مقبرة «خنوم حتب الثاني»[١] سالف الذكر، ويرجع تاريخه إلى السنة السادسة من حكم الفرعون «سنوسرت الثاني» فنشاهد «خنوم حتب» يستقبل جماعة من «العامو» سكان الصحراء الشرقية، ويبلغ عددهم سبعة وثلاثين محملين بالجزية من الكحل، وأشكال هؤلاء الأجانب وزيهم على جانب عظيم من الأهمية؛ إذ تصوِّر لنا نوع

[١] Newberry, “Beni Hassan”, Vol. I, Pl. XXVIII; Breasted, A. R. Vol. I, Par. 619. ff.

المدنية المنتشرة في المناطق التي بين مصر و«مسوبوتاميا» (ما بين النهرين)، فيشاهد في هذا المنظر أن الكاتب الملكي «نفرحتب» الذي يقدِّم هذه الجماعة يحمل لوحة مكتوبًا عليها السنة السادسة من عهد جلالة الملك «حور» مرشد الأرضين ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خع خبر رع»، وعدد «العامو» الذين أحضرهم ابن الأمير «خنوم حتب» لإحضار الكحل، سبعة وثلاثون رجلًا.

ثم يأتي بعد ذلك «خيتي» رئيس الصيادين وخلفه هؤلاء الأجانب، يتقدمهم رئيسهم ومعه غزال أليف واسم هذا الرئيس «أباشا» ويحمل لقب «حقا خاست»[٢] وهو الاسم الذي حُرف فيما بعد إلى لفظة «هكسوس»، وهم القوم الذين غزوا البلاد بعد سقوط الدولة الوسطى، ويلاحظ أن هؤلاء القوم يرتدون ملابس ثمينة ملوَّنة بالألوان الجميلة الزاهية، مما يدل على أنهم لم يكونوا مجرد بدو مرتدين الجلود، بل على العكس كانت ملابسهم المزركشة تذكرنا بالرسوم والزخارف التي نشاهدها على السجاد العجمي، ولا نكون مغالين إذا قلنا إنهم أتوا من بلاد أكثر خصبًا من الصحراء القاحلة الممتدة على سواحل البحر الأحمر، ولا مشاحة في أن وجوه هؤلاء القوم تمثل الجنس السامي وبخاصة رئيسهم.

ومن الطريف أن هذه الصورة عندما كشفت، ظن بعض العلماء أنها تمثل دخول «يعقوب» وأولاده مصر، أو دخول سيدنا «إبراهيم» وأسرته؛ لأنهم لم يعرفوا أي الرئيسين كان ممثلًا على هذه اللوحة، ولكن عدد من كان على اللوحة لا يتفق عدده مع أسرة سيدنا «يعقوب» ولا مع أسرة سيدنا «إبراهيم»، والواقع أن هذه الصورة ليس لها أي علاقة بحوادث التوراة مطلقًا، غير أنها تمثل لنا الحقيقة الواقعة، وهي أن مثل هذه الزيارات التي كان يقوم بها الأسيويون قد حدثت في العصر الذي نحن بصدده، وأنه ليس هناك أي اعتراض على ما جاء في قصة التوراة، وأنه يحتمل جدًّا مجيء سيدنا «يعقوب» وسيدنا «إبراهيم» إلى مصر، كما ذكرنا من قبل. وقد عثر على صورة تمثل هذه الصورة على جعران، وتصور لنا حارسًا لمائة وعشرة من العامو «البدو» (Petrie, "Scarabs", XV, A. C).

[٢] ومعناها «حاكم البلاد الأجنبية».

(٦) علاقة مصر بجزيرة «كريت» في ذلك العصر

وهناك آثار أخرى تثبت أن مصر كانت متصلة في مدنيتها ببلاد أخرى في ذلك العهد، عن طريق التجارة وتبادل السلع؛ إذ عثر على قطع من الفخار الملون بألوان مختلفة في خرائب بلدة «اللاهون» (عند مدخل الفيوم)؛ أي في المنطقة التي كان يقيم فيها العمال الذين بنوا هرم «سنوسرت الثاني» كما سنرى بعد. وصناعة هذا الفخار ليست مصرية، بل تُنسب إلى العصر «المنواني» الثاني بجزيرة «كريت»، وهذا العصر يتفق في تاريخه تمامًا مع تاريخ الأسرة الثانية عشرة، ونحن نعلم أنه كانت هناك علاقات بين مصر و«كريت» قبل العصر الذي نحن بصدده؛ إذ إن الأشكال الحلزونية التي انتشرت على الجعارين المصرية في عهد «سنوسرت الأول» ترجع في أصلها إلى المدنية «الإيجية». وكذلك يحتمل أن صناعة طلاء الخزف قد نُقلت من مصر إلى «كريت» في عصر قبل ذلك بكثير، يضاف إلى ذلك أن أشكال الأواني الحجرية التي ترجع إلى العصر «الكريتي» الأول يظهر أنها غالبًا مقلدة من أشكال الأواني التي كانت تُصنع في مصر في عهد الأسرة السادسة وما قبلها.

(٧) نقوش «خنوم حتب الثاني»

على أن أهم نقوش عُثر عليها في عصر هذا الفرعون هي نقوش «خنوم حتب الثاني»، وهو كما نعلم أحد أفراد الأسرة العظيمة التي حكمت مقاطعة الغزال عدة أجيال، وكان لها شأن عظيم في تاريخ الأسرة الثانية عشرة. فقد كان مثلها كمثل أسرة «خيتي» حُكام مقاطعة «أسيوط» خلال الأسرة العاشرة الإهناسية التي سبق ذكرها — وقد بدأ نجم هذه الأسرة العظيمة في الصعود في «بني حسن» في بداية حكم «أمنمحات الأول» الذي نُصب جد «خنوم حتب الثاني» وهو «خنوم حتب الأول» حاكمًا لجهة «منعات خوفو»، وهو إقليم من مقاطعة الغزال، ثم انتهى الأمر بأن جعله حاكمًا للمقاطعة كلها، و«خنوم حتب الأول» هو الذي شاهدناه مرافقًا للفرعون «أمنمحات الأول» في بعثته المؤلفة من عشرين سفينة، وقد استمر هذا العطف الفرعوني في عهد «سنوسرت» الذي نصب ابني «خنوم حتب الأول» وهما «نخت» و«أمنمحات» لإدارة إقليم «منعات خوفو» ومقاطعة الغزال بالتوالي، ثم تزوجت «بقت» بنت «خنوم حتب» موظفًا كبيرًا من رجال البلاط اسمه «نحري»، وكان وقتئذ حاكمًا لمقاطعة الأرنب، وتقع جنوب مقاطعة الغزال مباشرة. وقد

أنجبت «بقت» هذه «خنوم حتب الثاني» الذي سنتكلم عنه الآن، وهو الذي تولى حكومة «منعات خوفو» بعد وفاة خاله «نخت»، وكان ذلك في السنة التاسعة عشرة من حكم «أمنمحات الثاني» ولما كان «خنوم حتب الثاني» هذا طموحًا، ويريد أن يجمع بقدر ما يستطيع في يده السلطة؛ يزوج من السيدة «خيتي» وارثة مقاطعة «ابن آوي» التي تقع في شمال مقاطعة الغزال مباشرة، وبذلك ضَمن لبكر أولاده «نخت الثاني» وظيفة حاكم مقاطعة «ابن آوي» (سيوط) بحق الوراثة من جهة أمه، على حين أن ابنه الثاني «خنوم حتب الثالث» ورث والده في إقليم «منعات خوفو»، وتوارُث هذه الأسرة لهذا الإقليم يُظهر لنا ما كان عليه حكام الأقاليم من السلطة رغم قوة ملوك الأسرة الثانية عشرة؛ إذ كان حكم الإقطاع متأصلًا في هذه الجهة بخاصة دون جهات القطر الأخرى، وربما يعزى ذلك لولاء هذه الأسرة لفراعنة البلاد مدة محنتهم ولذلك تساهلوا معهم.

وقد كان «خنوم حتب» نفسه المثل الأعلى للموظف المهذب ما دام قابضًا على وظيفته، وقد قص علينا قصة أسرته وكيف تدرجت في جمع الوظائف المختلفة في يدها، وقد بدأ هذا بتعيين جده وسميه. وهو يخبرنا أن أجداده نالوا وظائفهم بفضل ما لهم من المزايا، كما أنه حصل على مركزه بصفاته ومزاياه العظيمة، وكذلك نال ابنه النجاح بما له من عظيم الصفات.

وما عليك إلا أن تصغي لما يقوله بطلاقة عن فضائل ابنه الأصغر «خنوم حتب الثالث» وما امتاز به من الخصال الحميدة: «أمير آخر عين مستشارًا، وهو السمير الوحيد، والعظيم بين السمار، والذي يقدم هدايا كثيرة للقصر، والسمير الوحيد، وليس هناك من يفوقه في فضائله، وهو الذي يصغي إليه الموظفون، والفم الفريد، والذي يخرس الأفواه الأخرى، والذي يجلب الفائدة لمالكها، حارس على باب الأراضي المرتفعة «خنوم حتب» بن «خنوم حتب» «نحري» الذي أنجبته السيدة «ختي».»

ويعتبِر «خنوم حتب» أن أفضل ما قام به هو الأعمال الصالحة التي قدَّمها لآبائه وبخاصة بناء مقابرهم؛ إذ إليهم يرجع الفضل في كل ما يتمتع به من راحة وثروة، فيقول: «لقد أحييت أسماء آبائي التي وجدتها قد انمحت على الأبواب، وجعلتها تُقرأ شكلًا مع الدقة في كتابتها، فلم أضِع اسمًا بدل اسم آخر، وفي الحق إن الذي يعيد أسماء أجداده لولد ممتاز. ابن «نحري» «خنوم حتب» المرحوم والمحترم، وقد كان أعظم شرف لي أن أنحت لنفسي قبرًا في الصخر؛ لأنه من واجب الرجل أن يقلد ما يفعله والده.» وبالاختصار تدل نقوشه على أن معظم همه كان منصرفًا في مقاطعته لتفخيم نفسه

وأسرته وترك الشعب ظهريًّا، ولذلك لم نرَه يذكر أنه أطعم الجائع أو كسا العريان، وغير ذلك مما نقرؤه من أعمال حكام العصر الآخرين، ولكن بدلًا من ذلك نسمع منه «أعمال الحاكم «خنوم حتب» العظيمة: لقد أقمت أثرًا في وسط مدينتي فبنيت قاعة أعمدة وجدتها مخرَّبة، فأقمت فيها أعمدة جديدة منحوتًا عليها اسمي، وخلدت اسم والدي عليها، ودوَّنت أعمالي على كل أثر … وكنت عظيمًا في آثاري، وعلمت «في المدارس» كل حرفة أهملت في هذه المدينة؛ لأجل أن يبقى اسمي ممتازًا في دقة صنعه على كل أثر شيدته.»

ولا نزاع في أن «خنوم حتب» كان حاكمًا طيبًا إلى حد عظيم، وأنه سهر على مصالح قومه كما فعل الحكام الذين سبقوه، وملئوا الدنيا صياحًا بجليل أعمالهم، ولكن من جهة أخرى كان أكثر منهم صراحة وأمانة عندما ذكر لأخلافه ما يعتقده غيره ويخفونه في قرارات نفوسهم؛ ولذلك كانت تنقصهم الشجاعة والصراحة لإفشائه؛ وهو أن باقي الجنس البشري لم يوجد إلا لفخاره وفخار أسرته، وتلك هي حال الملوك في كل زمان ومكان.

(٨) بعوثه إلى الصحراء النوبية الغربية

وقد أظهر «سنوسرت» نشاطه في جلب الأحجار الصلبة من محاجر الديوريت الواقعة في الصحراء النوبية الغربية، وهي التي كُشف عنها حديثًا كما أسلفنا. وقد عُثر على لوحة من عصره تحدِّثنا عن بعثة في عهده قام بها موظف كبير يدعى «أميني» ويحمل لقب مدير هيئة الموظفين ولقب كاهن «سم» وهو من أكبر ألقاب الكهنة، والظاهر أنها أرسلت في عام ٨ + س من حكمه، وقد نُقش عليها صلاة للإلهة «حتحور» سيدة «نخنت» (والظاهر أن لفظة «نخنت» تطلق على اسم الحجر أو اسم المكان الذي كان يقطع منه الأحجار). ومن بين الأسماء التي ذُكرت مع هذه اللوحة موظف يدعى «حقا إب» بن «سنوسرت» ويحمل لقب «المشرف على فرقة قطع الأحجار الأثرية»، وهذا اللقب نادر جدًّا في الآثار المصرية. وكذلك عثر على تمثال صغير منذور من الحجر الرملي نُقش على صدره لقب «سنوسرت الثاني» «خع خبر رع» (A. S., Vol. XXXIII, P. 72).

(٩) هرم «سنوسرت الثاني» ومدينته

وقد بنى «سنوسرت» لنفسه هرمًا سماه «خع سنوسرت»، (المضيء) ومدينة مجاورة له تُسمى «عنخ سونسرت» (A. Z., Vol. 59, P. 53) مما يعطينا فكرة تامة عن مدينة هذا الفرعون وعصره أكثر مما نعلمه عن غيره من ملوك الدولة الوسطى، وسنشرح ذلك ببعض التفصيل فيما بعد.[٣]



شكل ٢: هرم سنوسرت الثاني.

وأقام «سنوسرت» هرمه في اللاهون بالقرب من مدخل «الفيوم»، ذلك الإقليم الذي كان موضع عناية فراعنة هذا العصر؛ ولذلك لم يجِد «سنوسرت» عن فكرة آبائه، وأقام هرمه عند مدخلها؛ أي في بقعة يمكن منها رؤية بلدة «الفيوم» من قمة هذا الهرم، وبناء الهرم نفسه غريب في تركيبه؛ إذ إنه أقامه فوق صخرة كبيرة، أصلح بعض جوانبها ثم أكمل البناء بالأحجار واللبن، ثم كساها بالحجر الجيري الأبيض مثل الأهرام الأخرى، والظاهر أن «سنوسرت الثاني» لاحظ أن أهرام من سبقه كانت فريسة للصوص؛ ولذا نجده يجعل مدخل الهرم المؤدي إلى حجرة الدفن في الجهة الجنوبية تاركًا بذلك نظام وضعه في الجهة البحرية، كما كان متبعًا من قبل في عهد الدولة القديمة، ثم يعمد بعد

[٣] Petrie, “Illahun”, Pl. II. PP. 1–4.

ذلك إلى إخفاء مكان الدخول إلى جوف الهرم بأن نحت كل الحجرات الجنازية في الصخر الصلد دون أن يترك فتحة يمكن الوصول إليها من بين الصخر والبناء.

وكان المدخل الرئيسي للهرم مغطى بأرضية مقبرة إحدى الأميرات؛ وذلك احتراسًا وتفاديًا من اللصوص، أما المدخل الثانوي فإنه كان مخفيًّا تحت أرضية ردهة الهرم، ورغم كل عناية «أنبو» المهندس الملكي، فإن حجرة الدفن قد نهبت، ولا يزال تابوته المصنوع من الجرانيت باقيًا للآن آية في دقة الصنع، والأخطاء التي يمكن المؤاخذة عليها إذا كانت تسمى أخطاء في تسطيح وجه التابوت واعتداله لا تتعدى $\frac{١}{١٠٠٠}$ من البوصة. وقد أقيم ناووس لعبادة الفرعون مستندًا على الجدار الشرقي للهرم كما هي العادة، وكان هذا الناووس منحوتًا وملونًا تلوينًا فخمًا، غير أنه قد مزقه شر ممزق بناء، والمخرِّب العظيم «رعمسيس الثاني» الذي لم يتورع من ترك خرطوشه على الكتل التي تركتها يد التخريب والتكسير (Naville, Ahnas el Medineh, I)، وقد عثر على بعض أحجار هذا الهرم في «إهناسية المدينة» مستعملة كرة أخرى وعليها اسم «رعمسيس الثاني»، وعلى مسافة ميل من شرقي هذا الهرم يقع معبده العظيم المسمى معبد الوادي، محاذيًا لمنتصف واجهته الشرقية، وفي غربي الهرم يقع المعبد الجنازي.

(١٠) وصف مدينة سنوسرت الثاني

أما مدينة الهرم فإنها قد أقيمت بجوار معبد الوادي، وفي هذه البلدة عثر على الفخار «الكريتي سالف الذكر»، وقد أطلق عليها الفرعون اسم «حتب سنوسرت» وهي الآن تسمى كاهون، وقد مُحي جزء منها تمامًا، غير أنها لا تزال تشغل نحو ثمانية عشر فدانًا فيها أكثر من ألفي حجرة، وقد نُظفت كلها، ونُشر تخطيط شوارعها وبيوتها تمامًا (Petrie, "Illahun", Pl. XIV) ومن ذلك نعلم تفاصيل المنازل في ذلك العصر سواء أكانت قصورًا لعظماء الموظفين أم بيوتًا للعمال، والأشياء التي وجدت في بقايا هذه المنازل تُلقي ضوءًا كثيرًا على مدنية البلاد.

وقد عثر فيها على مجموعات من أوراق البردي تعد من أهم ما عثر عليه في تاريخ هذا العصر؛ إذ إنها تبحث في موضوعات شتى كالطب والقضاء ... إلخ.
(A. Z. XXXII, 91, 96).

مقبرة الأميرة «سات حتحور أنت» ومحتوياتها

وفي الجهة الجنوبية من هرم «سنوسرت» عثر على أربع مقابر لأعضاء البيت المالك، وقد خُربت ونهبت جميعها إلا مقبرة الأميرة «سات حتحور أنت» (Brunton, "Lahun, The Treasure") فإن إحدى حجراتها الصغيرة قد أخطأها اللصوص. وعندما كشف مستر «برنتن» عن هذه المقبرة في عام ١٩١٤ عثر على محتويات هذه الحجرة، وهي مصوغات ملكية أقل كمية من كنز دهشور، ولكن نوعها لا يقل عن سابقتها جودة وإتقانًا، بل وجد فيها بعض قطع تفوق قطع كنز «دهشور» في جمالها ودقة صنعها، وأهم هذه المجوهرات تاج لملكة محلى بالرسوم والأشكال الرائعة يعد أحسن مثال معروف يبرهن على نبوغ المصري ومهارته في هذا النوع من العمل، وكذلك وجدت صدريتان واحدة «لسنوسرت» الثاني (شكل ٣) وهو والد هذه الأميرة، والأخرى «لأمنمحات الثالث» (شكل ٤) الذي تزوجت منه.



شكل ٣: صدرية سنوسرت الثاني.

ووجد من بينها أيضًا أحزمة، وأساور وخلاخيل ومرآة من الفضة مرصعة بحجر الأبسدين والذهب. وهذه الصدريات تظهر لنا بوضوح الانحطاط التدريجي في الذوق بين عصر «سنوسرت الثاني» وعصر أمنمحات الثالث، وكل منهما جميل، غير أن صناعة

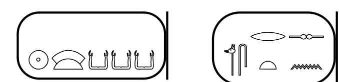
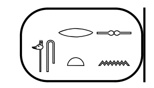


شكل ٤: صدرية أمنمحات الثالث.

الأولى تجذب النظر إليها أكثر من الثانية، وإن كانت تعد غاية في الدقة إذا امتحنت على حدة، ولكن إذا قيست بالصدرية الثانية ظهرت خشنة في صناعتها بجانب الأولى التي يظهر فيها العناية والأناقة في الصنع.

وقد كان من حظ «فلندرز بتري» أن عثر أثناء الحفر في عام ١٩٢٠–١٩٢١ في هرم «سنوسرت الثاني» على قطعة من تاج الفرعون العظيم وهذه القطعة تعد فريدة في نوعها؛ إذ كل ما عثر عليه للآن صور للتاج المزدوج وغيره، أما التاج نفسه فلم يعثر على مثال واحد منه للآن، وهذه القطعة هي الصل (الثعبان) الذي يحلي جبهة الفرعون، وهذا الصل مرصع بالأحجار نصف الكريمة. ومن المدهش أنه لم يعثَر إلى الآن على تاج كامل لأي فرعون حتى ولا في آثار «توت عنخ آمون» نفسه. وستبقى الآثار المصرية التي كُشفت خالية من تاج فرعون حقيقي إلى أن يجود جوف أرض مصر بما يسد هذا الفراغ، راجع: (Petrie, “Illahun”, and “Ancient Egypt,” (1920) PP. 65, 74).

سنوسرت الثالث (١٨٨٧–١٨٤٩ق.م)

(١) مكانته في التاريخ المصري

يعد «سنوسرت الثالث» عند المصريين من أكبر الغزاة الذين قاموا بحروب طاحنة دفاعًا عن حدود مصر من جهة الجنوب ضد السودان، ومن جهة الشمال ضد الأسيويين، غير أن الحروب التي قام بها جنوبًا كانت شغله الشاغل طوال مدة حياته، من أجل ذلك عدَّه المصريون من أكبر غزاتهم، حتى إنهم ألَّهوه فيما بعد، وبقي اسمه تتناقله الأجيال ويذكرونه في خرافاتهم باسم «سوزستريس» كما سنشير إلى ذلك فيما يأتي.

(٢) الاستعداد لمحاربة النوبيين

وأول عمل قام به «سنوسرت» عند اعتلاء عرش الملك هو تأديب قبائل السود في بلاد النوبة، وهم الذين كانوا في حالة اضطراب وقلاقل في عهد الفرعون السابق، بل كانوا مصدر خوف في داخل مصر نفسها، وكانت الشلالات أكبر عائق للقيام بالغزوات في السودان لما تسببه من قطع المواصلات أو تعويقها.



شكل ١: الملك سنوسرت الثالث.

فكان لزامًا على الفرعون أن يكون لديه أسطول عظيم لنقل الجنود ولمدِّهم بالغذاء والمهمات باستمرار. ومنذ خمسمائة عام من هذا التاريخ تغلب فراعنة الأسرة السادسة على هذه العقبة بحفر سلسلة ترع حفرها «وني» لعوامل تجارية (راجع مصر القديمة الجزء الأول)، ولكنها بعد هذا الزمن الطويل كانت قد هدمت، ولم تعُد صالحة لما يتطلبه الموقف وقتها؛ ولذلك رأى «سنوسرت» ضرورة حفر قناة عند الشلال الأول ليعبر فيها إلى أعالي الشلال، وقد لا يكون المقصود من ذلك حفر قناة بالمعنى الصحيح الذي نفهمه نحن الآن، بل قد يكون القصد تعميق الممر الموجود الآن شرقي جزيرة سِهِل،[١] ليساعد على جر السفن فيه بدون كبير عناء؛ وذلك بدلًا من معارضة التيار القوي في الممر الغربي. وعلى أية حال فإن هذه الترعة قد تم تعميقها في بداية حكم هذا الفرعون كما تخبرنا بذلك نقوش «سِهِل». وفيها نشاهد «سنوسرت» واقفًا أمام الإلهة «عنقت» إحدى إلهات الشلال، وأسفل هذه الصورة نقرأ: لقد صنعها أثرًا للإلهة «عنقت» ربة النوبة؛ إذ شق لها ترعة تسمى «أجمل طرق خع كاو رع» «سنوسرت الثالث» الحي الخالد، ولم

[١] (Rec. Trav. Vol. XIII, P. 202; A. Z., XXXII, P. 63; Breasted, A. R. Vol. 1, Par. 642–648).

نجد تاريخًا لهذا النقش، ولكن لما كان من الضروري أن تطهَّر هذه الترعة من الغرين في السنة الثانية من حكم هذا الفرعون ليسير منها بحملته؛ رجحنا أنها كانت موجودة منذ بضعة أعوام قبل ذلك العهد، ويمكننا أن نتصوَّر بعد ذلك جيش الفرعون يمر في هذه الترعة الجديدة في السنة الثانية من حكمه لغزو بلاد أعدائه.

حفر ترعة الشلال من جديد استعدادًا للحملة الثانية

والظاهر أن الحملة الأولى لم تكُن كافية لتصفية الموقف مع قبائل السود، فأعاد الفرعون الكرَّة بعد ثمانية أعوام، ولكنه وجد أن الترعة التي حفرها لم تعُد صالحة لأن تعبرها السفن الحربية وسفن النقل؛ فطهرها ثانية. وقد دوَّن هذا العمل على صخور «سِهِل». فنرى الفرعون واقفًا وعلى رأسه التاج المزدوج أمام الإلهة «ساتت» إلهة الشلال، وتقدم له رمز «الحياة» وخلفه رئيس بيت المال ومدير الأشغال، ثم يلي ذلك النقوش كما يأتي: السنة الثامنة من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري «خع كاو رع» «سنوسرت الثالث» عاش مخلدًا، أمر جلالته أن تحفر الترعة من جديد واسمها «أجمل طرق خع كاو رع» عاش إلى الأبد، وذلك عندما سار جيشه إلى أعالي النهر ليهزم الكوش الخاسئين، وطول هذه الترعة مائة وخمسون ذراعًا وعرضها عشرون ذراعًا وعمقها خمس عشرة ذراعًا؛ أي إن هذا الممر كان كافيًا لمرور أية سفينة لمثل هذه البعثة. وقد حُفرت الترعة هذه المرة حفرًا جيدًا؛ إذ بقيت مستعملة حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة سنة تقريبًا بعد حفرها. وقد طُهرت في عهد «تحتمس الأول» وكذلك في عهد «تحتمس الثالث» عندما قاما بالغزو في هذه الجهات، وقد كان لزامًا على صيادي السمك تطهيرها سنويًّا.

العناية بحصن «إلفنتين»

وعندما كان مارًّا نحو الجنوب وجه الفرعون عنايته إلى حصن إلفنتين قاصدًا بذلك تحصين مدخله، وقد ترك لنا أحد الموظفين المحليين نقوشًا تدل على إتمام هذا العمل الذي انتهى في السنة التالية، السنة التاسعة الشهر الثالث من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري «خع كاو رع» محبوب الإلهة «ساتت» سيدة «إلفنتين» عاش مخلدًا، أمر جلالته إلى حاكم الجنوب «أميني» ليقوم بعمل باب لحصن «إلفنتين» وليعمل … لأملاك

الفرعون في الجنوب ... عندما سار سيدي (له الصحة والعافية والسعادة) لهزم أهل «كوش» الخاسئين (Breasted, A. R., Vol. 1, Par. 650).

نتائج الحملة الثانية

وقد كان من نتائج هذه الحملة أن تقدم المصريون في زحفهم نحو سبعة وثلاثين ميلًا جنوب «وادي حلفا»، ولكنهم كانوا لا يزالون بعيدين عن «كرمة» التي اتخذها «زفاي حعبي» مقرًّا لحكم هذه الجهات في عهد «سنوسرت الأول» بنحو مائتي ميل، وكان الفرعون «سنوسرت الثالث» مصممًا على أن يحافظ على ما فتحه، فأقام نُصبًا في «سمنة» حيث أقام حصنًا ليحافظ على حدود فتوحه الجديدة (L. D. II. Pl, 136 d–g.): الحد الجنوبي الذي عمل في السنة الثامنة في عهد جلالة ملك القطرين «خع كاو رع» معطي الحياة أبد الآبدين ليمنع أي أَسْوَد أو أي قطيع من السُّود أن يتخطاه، سواء أكان ذلك بطريق النهر أو البحر، بسفينة أو غيرها، اللهم إلا إذا أتى أَسود للتجارة في «أيقن» (مكان مجهول) أو لأداء مهمة، وفي مثل هذه الحالة يعامَلون معاملة حسنة (أي تعطى لهم كل التسهيلات) على شرط ألا يُسمح لسفينة فيها سود أن تتخطى «حح» (سمنة) ذاهبة نحو الشمال أبدًا.

الحملة الثالثة إلى بلاد النوبة

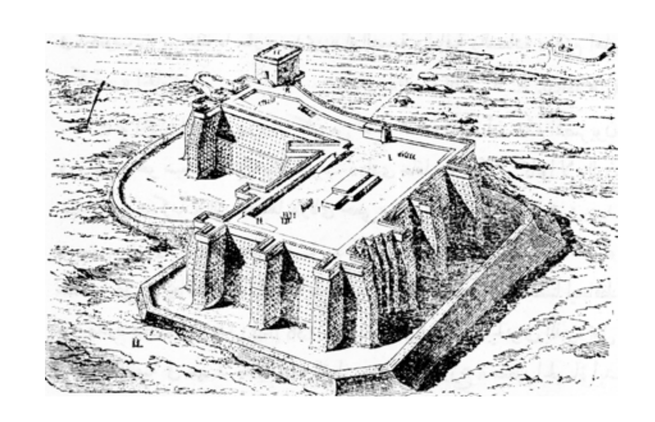
وبعد مضي أربعة أعوام على هذه الحملة في بلاد «النوبة» قامت ثالثة؛ أي في السنة الثانية عشرة من حكم هذا الفرعون، غير أننا لم نعثر على نقوش تحدِّثنا عما جرى في خلالها إلا جُملة نُقشت على صخور «أسوان»، ولم يُذكر فيها إلا تاريخها، واسم الفرعون والكلمات الآتية: سار جلالته لهزم بلاد «كوش» (Petrie, “Season”, XIII, 340).

الحملة الرابعة إلى بلاد النوبة وإقامة لوحة الحدود المشهورة

والواقع أن بلاد «كوش» هذه قد تطلبت من الفرعون غزوات عدة قبل أن تخضع وتذعن تمامًا للحكم المصري؛ إذ إنه بعد انقضاء أربعة أعوام على الحملة الأخيرة كان «سنوسرت» يزحف بجيشه كرَّة أخرى، وفي هذه المرة أقام لوحة ثانية في «سمنة» وأمر بإقامة صورة

منها في جزيرة «ورونارتي»، وتقع تحت بلدة «سمنة» مباشرة. وتمتاز لوحة «ورونارتي» بأنها تعطينا بعض معلومات لم تدوَّن على لوحة «سمنة»، فبعد ذِكر اسم الملك نقرأ:

> لوحة أقيمت في السنة السادسة عشرة الشهر الثالث من الفصل الثاني، عندما بني الحصن المسمى «طرد النوبيين» (L. D. II. Pl. 136).



شكل ٢: قلعة سمنة عند آخر حدود جنوبية في عهد سنوسرت الثالث.

الحصون التي أقامها هذا الفرعون

وهذه اللوحة تؤرخ لنا حصن «ورونارتي»، ومن المحتمل أن الحصون الأخرى التي في هذه الجهة قد بُنيت في نفس الوقت، وأهمها هو حصن «سمنة» كما كان يسميها المصريون «سمنة التابعة للملك خع كاو رع»، وقد كانت قلعة عظيمة بُنيت باللبن في موقع حصين، وقد زيد في حصانتها الطبيعية بالتحصين الصناعي، وكانت تشرف على النهر الذي لا يزيد عرضه في هذه الجهة عن أربعمائة متر، وفي الجهة الشرقية من النهر قبالة «سمنة» أقيمت قلعة أخرى صغيرة تعرف باسم «قمة» (L. D., I. 111–112; Maspero, “L’Archelogie Egyptienne”, P.P. 9, 29, 30) بُنيت على قلعة طبيعية فكان من الصعب مرور أي جيش في النهر من هذه الجهة، وخرائب هاتين القلعتين لا تزال

باقية للآن، غير أننا لا يمكننا أن نتصور بالضبط ما كانتا عليه في عهد «سنوسرت الثالث».

(٣) آلهة بلاد «النوبة العليا» وتأليه «سنوسرت الثالث»

وكان في كل من الحصنين معبد، ففي «سمنة» كان معبد الإله «ددون» وهو الإله المحلي لهذه الجهة، وفي «قمة» معبد للإله «خنوم» معبود شلال «أسوان» و«إلفنتين»، وفي هذين المعبدين احتُفل بعيد عظيم ابتهاجًا بالانتصار على السود، وكان يسمى «طرد السود»، وكان يُحتفل بعده بعيد آخر يسمى «شدُّ وثاق المتوحشين»، وفي خلاله كانت تقدِّم القربان للملكة «مرسجر» العظيمة زوجةُ الفرعون «سنوسرت الثالث». وهذه الأعياد قد بقيت ذكراها إلى أزمان بعيدة؛ حتى إن «تحتمس الثالث» عندما أعاد بناء معبد سلفه بعد مضي ثلثمائة وسبعين سنة تقريبًا، أحيا الاحتفال بها مع أعياد أخرى؛ يضاف إلى ذلك أنه ألَّه الملك «سنوسرت» وجعله ثالث آلهة الحدود التي أسسها، ولا نستغرب أن يصدر هذا العمل الصالح من رجل عظيم مثل «تحتمس الثالث» الذي لم يحمل حقدًا لأحد، بخلاف «رعمسيس الثاني» الذي كان يغتصب كل شرف ليس له فيه أدنى نصيب. ونجد في معبد «أمادا» ببلاد النوبة أن الفرعون «تحتمس الثالث» كان يتعبد للإله سنوسرت الثالث (Weigall, “Lower Nubia”, P. 104)، وفي معبد «إلزيا» نراه كذلك يُعبد. ونرى «تحتمس الثالث» يتعبد إليه أيضًا في «بوهن» «وادي حلفا» (MacIver and Wooley, “Buhen”, P.P. 41, 42)، ولم تكن عبادة «سنوسرت الثالث» قاصرة على الملوك بل تعدَّتهم إلى عامة الشعب؛ إذ عثر على نقش في جهة «تشكة» شمالي «أبو سمبل» على إحدى الصخور المطلة على النهر، وهذا النقش يمثل منظر أسرة تتألف من رجل يدعى «سنبي» وزوجة وأولادهما وقد أحضروا قربانًا لصورة «حورمام» الذي مثل جالسًا ثم «سنوسرت الثالث» والإله «رشب». (Dunbar, “The Rock–pictures of Lower Nubia”, P. P. 15, 16).

وتعد نقوش لوحة «سمنة» الثانية التي سجلت لنا حملة السنة السادسة عشرة من أهم النقوش التي وصلت إلينا من هذا العصر (L. D., II. 136)، ولا تنحصر أهميتها في أنها حددت لنا «التخوم المصرية في هذا العهد من جهة بلاد النوبة، بل لأن جملها المنمقة تذكرنا بالخطب التي ذكرها «ديدور»، والذي يقول عنها إنها كتبت على لوحة نقشها «سوزستريس» الخرافي تذكارًا لفتوحه، وتعد هذه النقوش بحق من أهم ما تركه لنا

قدماء المصريين في كل عصورهم؛ إذ يتمثل لنا فيها قوة إرادة هذا الفرعون وشدة حرصه على مجد بلاده، وإذكاؤه نار الغيرة في نفوس أخلافه للمحافظة على فتوحاته، والدفاع عن حدودها بالنفس والنفيس، وهاك ترجمتها حرفيًّا لتكون مثلًا حيًّا لأبناء هذا الجيل من المصريين في وقت أحوج ما تكون فيه البلاد لمثل هذه العظات الخالدة.

(٤) نص لوحة الحدود الخالدة

في السنة السادسة عشرة في الشهر الثالث من الفصل الثاني، عندما مد جلالته الحدود لغاية «حح» (سمنة)، «لقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي، ولقد زِدت في مساحة بلادي على ما ورثته، وإني ملك يقول وينفذ، وما يختلج في صدري تفعله يدي، وإني طموح إلى السيطرة، وقوي لأحرز الفوز، ولست بالرجل الذي يرضي لبه بالتقاعس عندما يعتدَى عليه، أهاجم من يهاجمني حسب ما تقتضيه الأحوال، وإن الرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوِّي قلب العدوِّ، والشجاعة هي مضاء العزيمة، والجبن هو التخاذل، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقًّا، ولما كان الأسود يحكم بكلمة تخرج من الفم، فإن الجواب الحاسم يردعه، وعندما يكون الإنسان ماضي العزيمة في وجهه «الأسود» فإنه يولي مدبرًا؛ أما إذا تخاذل أمامه فإنه يأخذ في مهاجمته. على أن السود ليسوا بقوم أشداء ولكنهم فقراء كسيرو القلب، ولقد رآهم جلالتي، وإني لست بخاطئ في تقديري، ولقد أسرت نساءهم، وسُقت رعاياهم، واقتحمت آبارهم، وذبحت ثيرانهم، وحصدت زرعهم؛ وأشعلت النار فيما تبقى منها. وبحياتي وحياة والدي لم أنطق إلا صدقًا، دون أن تخرج من فمي فرية. وكل ولد أنجبه ويحافظ على هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي يكون ابني، وولد جلالتي، وألحِقه بنسبي، وإن من يحافظ على تخوم الذي أنجبه، يكون منتقمًا لأبيه حقًّا، أما من يتخلى عنها، ولا يحارب دفاعًا عن سلامتها فليس ابني ولم يولد من ظهري، والآن تأمل فإن جلالتي قد أمر بإقامة تمثال عند هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي حتى تنبعث فيكم الشجاعة من أجلها، وتحاربون للمحافظة عليها.»

وهذا الروح الحربي نشاهده في الصور التي تنطق بها التماثيل العدة التي تركها لنا هذا البطل العظيم، وبخاصة تلك التماثيل التي كُشف عنها في ساحة معبد الملك «نب-حبت رع» بجوار الدير البحري؛ حيث أقامها لتكون تذكارًا لسلفه العظيم، وهذه

التماثيل تصور لنا «سنوسرت الثالث» في أطوار حياته الثلاثة المختلفة الشباب – الكهولة – الشيوخة؛ وكلها موجودة الآن بالمتحف البريطاني.

(Naville, 11 th. Dyn. Temple, Vol. I., XIX; Vol. II, Pl. II).

وتلمح في تمثال شيخوخته وجهًا ينم عن القوة الساحقة والعظمة والكبرياء التي يمتاز بها عظماء الفاتحين.

(٥) ذكرى انتصارات «سنوسرت» في الأساطير وتسميته «سوزستريس»

ولقد كان لانتصارات «سنوسرت الثالث» هذه في بلاد النوبة أثر عظيم في تاريخها، وعاش اسم «سنوسرت» محرفًا باسم «سوزستريس» ومن ذلك نشأت خرافة «هرودوت» عن «سوزستريس»؛ إذ يقول لنا فيها: «هذا الملك كان حينئذ هو الفرعون الوحيد الذي حكم «أثيوبيا» (بلاد النوبة).» وذلك طبعًا لا ينطبق على الواقع، ولكن من جهة أخرى يُظهر لنا مقدار تأثير انتصارات «سنوسرت» في هذه البلاد. ولا نعلم إذا كان هذا الفرعون قد حرَّم عبادة تمثاله الذي أقامه عند الحدود أم لا، ولكننا نعرف أن هذا التحريم، إذا كان قد حدث، فإنه نُسخ بعد مدة قصيرة، وأصبح «سنوسرت» يعد من بين الآلهة الذين كانوا يُعدون أربابًا لبلاد النوبة، وقد رأينا فيما سبق أن عبادته أصبحت على قدم المساواة مع عبادة الإله «ددون» والإله «خنوم» في قلعة «سمنة» في عهد «تحتمس الثالث»، ولما تولى «تاهرقا» الفرعون النوبي حكم البلاد بعد انقضاء ألف ومائتي سنة من حكم «سنوسرت» أعاد معبد «سمنة» وعبادة فاتح «النوبة» العظيم «سنوسرت الثالث».

ما رواه «هرودوت» عن فتوح «سنوسرت الثالث»

وكذلك يقص علينا «هرودوت» في خرافة «سوزستريس» الخلابة، كيف أن الكهنة أخبروه أن «سوزستريس» كان أول ملك أقلع بسفنه الحربية من خليج العرب، وقهر الأمم التي تسكن على شاطئ البحر الأحمر، ثم سار حتى وصل إلى بحر لا يمكن السياحة فيه؛ لأن ماءه كان ضحضاحًا (Herodotus, Book, II, Par. 102)، ولما عاد إلى مصر فيما بعد، حسب ما ترويه الكهنة، جمع جيشًا عظيمًا وسار به في القارة مخضعًا كل أمة تعترضه

في طريقه، وحينما كان يصادف قومًا شجعانًا متحمسين للدفاع عن حريتهم كان يقيم في بلادهم عمودًا عليه نقوش تدل على اسمهم واسم بلادهم، وكيف أنه تغلب عليهم بالقوة، وفي مكان آخر يقول إنه بعد أن ترك تذكارات أقل شأنًا في البلاد التي كانت أقل شجاعة من السابقة، عبر البحر إلى «أوروبة» حيث قهر أهل «طراقية» وغيرها؛ وهذا بلا نزاع حديث خرافة؛ لأنه ليس هناك ملك مصري قد قام بأعمال عظيمة مثل التي تعزى في هذه الخرافة إلى «سوزستريس». ولكن الذي يلفت النظر هنا، وربما كان فيه إشارة بعيدة إلى شيء من الصواب هو إقامة الأعمدة والنقوش التي عليها، وهي التي تشير إلى شجاعة الأعداء الذين كان يحاربهم أو جبنهم، فإن هذا القول ربما كان فيه تلميح بعيد يذكرنا بلوحة «سمنة» وما فيها من جمل الاحتقار والازدراء الموجهة إلى أعدائه السود.

(٦) آخر حملاته إلى «السودان»

ورغم هزائم «سنوسرت» المتتالية للسود فإنهم قاموا في وجهه كرَّة أخرى يظهر أنها كانت الأخيرة، وكان قد مضى على إخضاعهم والخضد من شوكتهم ثلاث سنوات، ولم تصلنا عن حملته الأخيرة معلومات شافية، اللهم إلا نقشًا لرئيس إدارة موظفيه الذي يدعى «سيسانت» وهي لوحة عثر عليها في «العرابة المدفونة» وهي الآن في متحف جنيف فيقول فيها: «حضرت إلى «العرابة» وبصحبتي كبير بيت المال «أخرنوفرت» لينحت تمثالًا للإله «أوزير» رب «العرابة» عندما كان ملك القطرين «خع كاو رع» الحي المخلد سائرًا ليهزم «الكوش» الخاسئين في السنة التاسعة عشرة.»

(٧) آثاره

ومن ذلك نرى أن بلاد «النوبة» قد نالت الكثير من اهتمامه؛ وقد وجد اسمه منقوشًا في «إلفنتين» «وسهل» «وأمادا» و«تشكة» وكل هذه الأماكن شمال الشلال الثاني، أما جنوبه فقد وجدنا اسمه كذلك على معبد أقيم تكريمًا له في «مرجرس» (J. E. A., (1916) P. 182 Mirgirsse) ويقع على الشاطئ الغربي من الشلال الثاني، ووجد اسمه على قطعة من لوحة في قلعة «جزيرة الملك» (J. E. A., (1916) P. 181) وتقع على مسافة أربعة أميال شمالي «سمنة».

والآن نعود إلى ما جاء في خرافة «هرودوت» عن «سوزستريس».

حملة البحر الأحمر: قد يكون للإشارة إلى الحملة البحرية إلى البحر الأحمر، نصيب من الصحة بالنسبة للفرعون «سنوسرت الثالث»، إذا اعتبرنا النقوش التي عثر عليها الأثري «نافيل» في «تل بسطة» (ومن الأسف أنها مؤرخة وليس عليها اسم الملك الذي دوَّنها) وفيها يصف حملة هزم فيها السود، ويشير فيها كذلك إلى بعض صعوبات بحرية عاقت السفن في السير نحو الجنوب لمشاهدة مرتفعات «حوا» ولكشف طرق الملاحة ... غير أن المؤرخين قد اختلفوا في عصر هذه النقوش فيعزوها بعضهم إلى الأسرة الثانية عشرة، ويعزوها البعض الآخر إلى الأسرة الثامنة عشرة، والفريق الآخر يظن أن ذلك يشير إلى حملة «أمنحوتب الثالث» في بلاد «النوبة».

حملته في آسيا: أما إشارة «هرودوت» لانتصارات «سوزستريس» في آسيا فليس لدينا إلا مرجع واحد؛ وهي الحملة التي قام بها «سنوسرت الثالث» في فلسطين، وليس أمامنا عن هذه الحملة إلا وثيقة واحدة وهي لوحة «خوسبك»[٢] التي عثر عليها في العرابة المدفونة، وقد ذكر عليها أعماله العظيمة تحت قيادة سيده «سنوسرت الثالث»، فيقول: «سار جلالته نحو الشمال ليهزم المنتيو «الأسيويين» وقد وصل جلالته عند مكان يدعى «سِكمم» وكان جلالته يسلك الطريق المثلى إلى القصر «له الحياة والسعادة والصحة» عندما سقطت «سِكمم» ومعها أهل «رتنو» الخاسئون، وكنت وقتئذ أعمل حارسًا، وعندئذ اشتبك أتباع الجيش في حرب مع «الأسيويين» فأسرت أسيويًّا، وسلمت أسلحته إلى تابعين من أتباع الجيش؛ لأني لم أولِّ الأدبار فرارًا من الحرب بل بقيت ووجهي إلى الأمام، ولم أولِّ ظهري للأسيويين، وإني أقسم بحياة «سنوسرت» بأني ما تكلمت إلا الصدق.

وعندئذ منحني «سنوسرت» عصا من الذهب في يدي، وقوسًا وخنجرًا مذهَّبًا هذا إلى أسلحة أسيري.»

---

[٢] Garstang, “El Arabah”, Pl. V, P. P. 32, 33, Breasted, A. R. Vol. I, Par. 676, f. f; Peet, “The Stele of Sebek-Khu,” Manchester.

«خوسبك» يقص تاريخ حياته

وبعد أن قص علينا «خوسبك» أهم لحظة في تاريخ حياته، أخذ يذكر لنا ألقابه وميلاده في عهد «أمنمحات الثاني» وعمله في الجندية فيقول: «ظهر جلالة ملك القطرين «خع كاو رع» المرحوم لابسًا التاج المزدوج على عرش «حور» وأمر جلالته أن أشتغل جنديًّا خلف جلالته وبالقرب منه، ومعي ستة من رجال الحاشية؛ من أجل ذلك كنت بجانبه على استعداد، ثم أمر جلالته أن أعيَّن حاجبًا للفرعون، وورَّدت ستين رجلًا، عندما سار جلالته نحو الجنوب ليهزم رجال قبائل النوبة، وهناك أسرت أسود في … بجوار المدينة التي كنت مرابطًا فيها، وبعد ذلك اتجهت شمالًا سائرًا مع ستة من رجال الحاشية، ثم عينني قائدًا للأتباع وأعطاني مائة رجل مكافأة.»

(٨) العلاقات بين مصر وآسيا

وهذه الحملة التي لم نعرف عنها تفاصيل شافية، هي في الواقع المثل الوحيد الذي فيه تدخل المصري في الشئون «السورية» خلال الأسرة الثانية عشرة، والظاهر أن العلاقة بين البلدين كانت علاقة مودة وصفاء كما توضح لنا ذلك الهدايا التي كانت تأتي إلى مصر من هذه الجهات في عهد أسلاف «سنوسرت»، وما نفهمه من روح قصة «سنوهيت»؛ إذ نجد أن السوريين كانوا يحترمون المصريين احترامًا عظيمًا ويعجبون بالحكم المصري والعادات المصرية، ويجوز أنه كانت هناك رغم ذلك غزوات أخرى لم نعثر على نصوص لها، وربما تعدت حتى غزوات السلب والنهب كما سنشاهد بعد، ولم يكن عصر الحروب والفتوح العظيمة قد جاء بعد من جهة المصريين، بل كان أول هجوم قُصد به الاستعمار الواسع النطاق آتيًا من جهة الأسيويين الذين غزوا وادي النيل في عهد الهكسوس.

ومن ذلك يتضح لنا أن الانتصارات العظيمة التي ينسبها «هرودوت» إلى «سوزستريس» لم تكن فتوحات واسعة النطاق، وربما خلط المؤرخ اليوناني هذه الغزوة بالانتصارات العظيمة التي أحرزها «تحتمس الثالث» و«رعمسيس الثاني» فيما بعد، ونسبوها كلها للملك «سوزستريس» «سنوسرت الثالث».

ولا يفوتنا أن نذكر هنا حادثًا من أهم الحوادث الدينية له علاقة بالحروب النوبية في عهد ذلك الفرعون، تلك هي اللوحة الخاصة بعبادة «أوزير» وما ذكر عليها من الشعائر الدينية التي كانت تقام له في هذه الفترة، وذلك أن «سنوسرت الثالث» استولى خلال

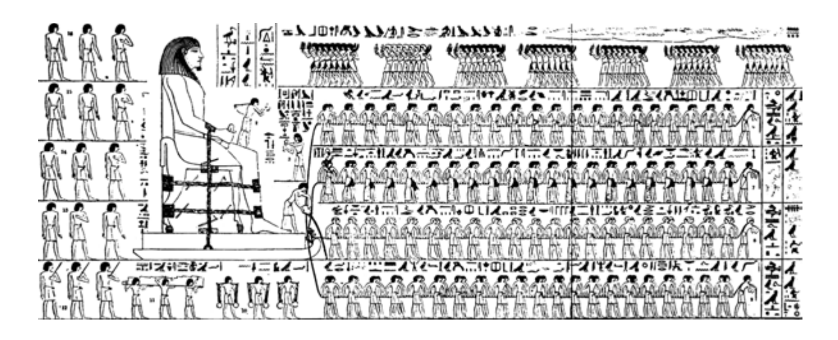
حملته المؤرخة بالسنة التاسعة عشرة من حكمه على كميات عظيمة من الذهب من بلاد «النوبة»، وقد اعتزم أن يستعمل جزءًا منه في ترميم مقبرة «أوزير» في «العرابة»، وهذه المقبرة كما نعلم هي في الواقع مقبرة الملك «زر» أحد ملوك الأسرة الأولى، وقد اختلط في ذلك العصر بإله الآخرة، وقد عهد بهذا العمل إلى رئيس ماليته «أخرنوفرت»، وكان يساعده فيه رئيس إدارة الموظفين الذي تكلمنا عنه فيما سلف (Melanges Maspero, Vol. 11, P.P. 217, 219)، وقد ترك لنا كل منهما لوحة عمَّا قام به، ولكن لوحة «أخرنوفرت» تشتمل على مادة لها أهمية عظيمة، وقد ذكر في لوحته الأمر الملكي ثم ذكر لنا بعد ذلك كيفية تنفيذه، وسنشرح ذلك عند الكلام على الحالة الدينية في البلاد.

(٩) تمثال «تحوتي حتب» أمير مقاطعة «الأشمونين»

وأهم ما عثر عليه في نقوش هذا العصر خاصًّا بأحوال البلاد الداخلية هو المنظر المشهور في مقبرة «تحوتي حتب»، ويمثل نقل تمثال ضخم، والتمثال «لتحوتي حتب» نفسه الذي كان في ذلك الوقت حاكمًا لمقاطعة الأرنب وعاصمتها «خمنو» (الأشمونين) التي أطلق عليها اليونان «هرمو بوليس»، وتقع قبالة «البرشة» حيث يوجد قبور هذا الحاكم وأسرته، وهذا المنظر مألوف جدًّا، غير أن ما ينتظمه من النقوش يدلنا على روح التعاون والألفة والحماسة التي تسود تنفيذ هذا العمل، وقد اهتم «تحوتي حتب» في نقوشه بإظهار أن إقامة مثل هذا التمثال لم تكن بوحي منه هو، بل كانت علامة عطف ملكي فيقول: «إن قلوبهم فرحة عندما يرون عطف الملك عليك»؛ لأن «سنوسرت الثالث» كان فرعونًا عظيم البطش إلى حد كبير لا يسمح لأي حاكم محلي بالحرية التامة التي كان يتمتع بها حكام الأقاليم في الدولة القديمة.

وإذا أغضينا النظر عن هذا التحفظ، فإنا نلحظ من المتن أن كل أهل المقاطعة كانوا على استعداد لتقديم يد المساعدة في نقل التمثال العظيم، فيقول لنا المتن:

> السير خلف تمثال طوله ثلاثة عشر ذراعًا من حجر حتنوب (المرمر) تأمل! فإن الطريق التي سار عليها كانت وعرة أكثر مما يتصور، تأمل! فإن جر الآثار العظيمة كان صعبًا على قلوب القوم، وذلك بسبب صعوبة أحجار الأرض؛ لأنها أحجار صلبة، وأمرت الشبان والأحداث من رجال الجيش ليشقوا طريقًا للتمثال، ويساعدهم في ذلك جماعات من حفاري القبور ورجال المحاجر، ومن



شكل ٣: نقل تمثال الأمير «تحوتي حتب».

المقدمين والمهرة.» وقال الرجال الأشداء: «أتينا لنحضره.» وكان قلبي فرحًا وقتئذ، واجتمع أهل المدينة كلهم مظهرين الفرح، وكان النظر إلى هذا سارًّا جدًّا أكثر من أي شيء، فكان الرجل المسنُّ بينهم يرتكز على الطفل ومفتول الساعد، والضعفاء زادت شجاعتهم، وقويت أذرعتهم؛ حتى إن واحدًا منهم كان في ساعده قوة ألف رجل … ما قاله الشباب الذين كان يسوقهم سيدهم الحاكم الوراثي الذي ينعم برضاء الملك والسيد: «دعنا نأتِ، دعنا نفلح وأولاده من بعده! إن قلوبنا فرحة بعطف الملك الذي يعيش مخلدًا!» ولا نزاع في أن من نظر إلى هذا العمل في ظاهره يظن أنه من أعمال السخرة، وأنه كانت هناك مظالم تُرتكب، ولكن تدل الأحوال على أن روح العدالة كانت قد أخذت تظهر في هذا العصر بصورة واضحة، ومن عاش في مصر يرى أن مثل هذه الأعمال كانت ولا تزال تعمل بين الفرح والسرور والغناء رغم ما فيها من المتاعب.

(١٠) اهتمام «سنوسرت الثالث» بمدينة «العرابة» وإلهها «أوزير»

هذا ويدلنا على اهتمام «سنوسرت الثالث» الخاص بمدينة «العرابة المدفونة» وإلهها «أوزير» ما نجده في النقش الذي خلفه لنا أحد رجال الدولة المسمى «سبكحتب» (British Museum, No. 256)، وقد أرِّخ بالسنة السادسة من حكم هذا الفرعون، فاستمع لما يقول: «لقد أمر جلالته بإرسال رسالته إلى أملاك التاج في «طينة» لتنظيف

المعابد، وأنه نفذ هذه الأوامر حتى إنها أصبحت مطهرة لقيام العيد الشهري ونظيفة لعيد نصف الشهر.» وكذلك عثر على تمثال لهذا الفرعون في معبد «العرابة المدفونة» (Petrie, Abydos, Vol. 11, pl. XVII) ووجدت له صورة في هذه الجهة أيضًا (Ibid, Vol. 111, Pl. XII. 4).

مقبرة «سنوسرت الثالث» الثانية «بالعرابة المدفونة» ووصفها

ولكن أهم حقيقة تدل على اهتمام «سنوسرت الثالث» «بالعرابة المدفونة» وإلهها، هو إقامته مقبرة ثانية لنفسه في هذه البقعة في جهة الصحراء على مسافة بعيدة جنوب الجبانة الملكية التي دفن فيها «أوزير خنتي أمنتي»، كما كان الاعتقاد. ففي هذه الجهة أقام لنفسه ضريحًا، وربما كان الغرض منه أحد أمرين، إما أنه كان قبرًا ليُدفن فيه، أو أنه كان مكانًا أُعدَّ لدفن «الكا» أو الروح، حيث كان يقدم له القربان. ونحن نعلم أن كثيرًا من فراعنة مصر قد أقاموا لأنفسهم مقبرتين، غير أننا من جهة أخرى لا نعلم على وجه التحقيق الطريقة التي كانت متبعة في استعمالهما، وقد كشف كل من «بتري» و«ويجول» عن مقبرة «سنوسرت الثالث» في العرابة (Petrie, Abydos, Vol. III, P. 11)، ولكنها وجدت منهوبة تمامًا في الأزمان القديمة، وهي عبارة عن نفق طويل منحوت في الصخر تحت سطح أرض الصحراء تنتهي بحجرة فيها تابوت من الجرانيت الأحمر، وصندوق لتوضع فيه أواني الأحشاء، وفوق ذلك على سطح الأرض أقيمت ردهة مسوَّرة تبلغ خمسمائة وعشرين قدمًا طولًا في مائتين وستة وتسعين عرضًا، وخارج هذا السور كانت توجد بعض مقابر الأشراف والأمراء، وفي هذا المكان قد أقيم بناء ضخم عمل على شكل مقبرة، وقد ظهر أنه بناء كاذب أقيم ليخفي باب النفق الحقيقي وليضلل اللصوص، ويدخل في روعهم أن الباب الأصلي الذي يؤدي إلى حجرة الدفن؛ حيث توجد الكنوز موجود هنا، وعلى بعد سبعمائة وخمسين ياردة من شرقي مدخل هذه الردهة المسورة، وحيث تلتقي الأراضي الزراعية بالصحراء أقام الفرعون معبدًا جنازيًّا صغيرًا لنفسه، وقد عثر عليه الدكتور«ماك إيفر»، والمفروض أنه أقيم لتقدَّم فيه القربان لروح الفرعون بعد موته.

(Maclver and Mace, “Él Amrah and Abydos, Pl. XX).

(١١) هرم «سنوسرت الثالث»

وقد بنى هذا الفرعون لنفسه هرمًا من اللبن، وكساه أحجارًا، ويقع في دهشور شمالي «اللشت»؛ أي في «اللاهون» وسماه «حتب» (أي سلام)، ويمتاز بتصميم حجرة الدفن فيه، فقد وضع مدخلها بعيدًا عن بناء الهرم في الجهة الغربية، كما كان لها مدخل آخر في الجهة الشرقية يؤدي إلى قاعة تخترق مقبرة إحدى الملكات وثلاث أميرات حتى يصل الإنسان إلى هذه الحجرة، وهذه طريقة مبتكرة فريدة في بابها في هذا العصر، وقد كشف عن هذه الحجرة «دي مرجان».

.(De Morgan, “Fouilles à Dahchour”, Vol. II. P. 87)

(١٢) مقابر الملكة والأميرات

وقد وجد بالقرب من هذا الهرم مدافن الملكة «نفر هنت» والأميرات «منت Ment» و«سنتسنب sent-seneb» و«مريت» و«سات حتحور»، ويحتمل أن الأخيرة هي أخت الفرعون، أما الثلاث الأخر فهنَّ بناته، وقد وجد اسم «سنتسنب» على تابوتها المنحوت من الحجر الجيري الأبيض.

مجوهرات الأميرة «سات حتحور»

وقد عثر على مجوهرات الأميرة «سات حتحور» في مخبأ في رقعة حجرة الدفن، وقد نقش على صدريتها اسم «سنوسرت الثاني»، على حين أنه وجد لها جعران عليه اسم «سنوسرت الثالث»؛ ومن ثم يحتمل أنها كانت بنت الأول وأخت الثاني، وهذه المجوهرات كنز لا يضارعه في دقة الصنع إلا ما وجد في «اللاهون».

وهذه الصدرية التي وجدت معها مصوغة من الذهب ومرصعة بشغل دقيق من حجر الكرنالين، وعجينة مطلية بالأزرق الفاتح والقاتم، وتصميم رسم هذه الصدرية يشبه تصميم صدرية «نفرت» زوجة والدها، هذا وقد زينت الصدرية بطغراء الفرعون «سنوسرت الثاني» ونقش عليها «حتب نترو»؛ (أي سلام الآلهة)، وتستند هذه الطغراء من كلا جانبيها على صقر وضع أسفله علامة «نب» (سيد)، ومن خلفها قرص الشمس

والصل، وقد وجد مع هذه الصدرية أساور وعقود من الذهب، و«دلايات» في صور أسود، ومخالب أسود من الذهب، وسلوك من الخرز المصنوع من الذهب والأمتست (الجمشت)، ورغم أن الملكة «نفرهنت» وجدت مدفونة في «دهشور»، فإنها لم تكن بالملكة المتوجة؛ إذ تدل النقوش على أنه كانت توجد سيدة أخرى تدعى «مرسجر» تحمل لقب الملكة، وبخاصة في خلال الحروب التي قام بها هذا الفرعون ضد «النوبة»؛ وذلك لأنه في معبد «سمنة» قد ترك لنا «تحتمس الثالث» نقشًا يشير إلى عيد سنوي يسمى «عيد شد وثاق المتوحشين»، وهو العيد الذي أسسه «سنوسرت الثالث» تكريمًا للزوجة الملكية العظيمة «مرسجر». وقد ذكر كذلك اسم زوجة أخرى غير أنها لم تحمل لقب عظيمة، وقد وجد اسمها ممحوًّا، ويحتمل أنها «نفرهنت»، يضاف إلى ذلك أن اسم الملكة «مرسجر» قد ذكر كذلك على نقش موجود الآن بالمتحف البريطاني (No. 846).

(١٣) مباني «سنوسرت الثالث» وبعوثه لقطع الأحجار

وقد أقام هذا الفرعون عدة مبانٍ في جهات القطر، كما أرسل البعوث لقطع الأحجار في «وادي الحمامات» وغيرها لعمائره.

فقد خلف لنا موظف اسمه «خني» نقوشًا في محاجر «وادي الحمامات» في الصحراء الشرقية مؤرخة بالسنة الرابعة عشرة من حكم هذا الفرعون في اليوم السادس عشر من الشهر الرابع الفصل الأول؛ وهذه الوثيقة هي:

> أمرني جلالته أن أذهب إلى «وادي الحمامات» لأحضر قطعًا جميلة من البازلت الأسود لعمل أثر أمر جلالته بإقامته للإله «حرشف» سيد «إهناسية المدينة» …
>
> وقد أرسلني بوصفي مدير الأشغال؛ لأني كنت رجلًا محبوبًا، وقائدًا يوثق فيه؛ إذ قد أخضعت له قبائل الصحراء الشرقية الأربعة باستمرار، كما أحضرت له المحصولات الطيبة التي تنتجها لوبيا (الصحراء الغربية)، وذلك بفضل شهرة جلالته. (Couyat and Montet, “Hammamat”, 47).

وهذا النقش يدل على أن «سنوسرت الثالث» كان قد أرسل من قبل جنوده إلى واحات صحراء لوبيا — ومن ثم نرى أن هذا الفرعون النشيط قد ساق جيوشه إلى

كل حدود بلاده — إذ انقض على بلاد السودان وتخطى حدودها الشمالية الشرقية مخترقًا الصحراء إلى حدود «سوريا»، وسار بجنوده على ساحل البحر الأحمر حتى بلاد «الصومال» (أي بلاد «بنت»).

ولدينا أدلة على أنه قد استخرج المعادن من شبه جزيرة «سينا»، إذا قد عثر على لوحة وتمثال صغير في «سرابة الخادم» باسم هذا الفرعون. (Gardiner and Peet, "Sinai", P. P. 81, 82).

وقد كان يستعمل قطع الأحجار المستخرجة من «وادي الحمامات» لبناء معبد «إهناسية المدينة» كما ذكر من قبل، وقد عثر «بتري» على قطع من معبد هذا الفرعون في «إهناسية المدينة».

(Petrie, "Ehnasya", Pls. XI, XIII, XIV; A. S. Vol., XVIII, P. 35).

وكذلك أقام معابد كثيرة في مدن أخرى، أو أصلح ما كان قد تهدَّم من المعابد القديمة، ففي «ثوان» (تانيس) الواقعة في شمالي الدلتا عثر على أجزاء من تماثيل (Petrie, "Tanis" 1, II. 67).

ووجد في «الخطاعنة» (A. Z. Vol. XXIII, P. 12) التي تقع في هذه الجهة أيضًا جزء باب من الجرانيت الأحمر (A. Z., Ibid) وعثر في «تل المقدام» الواقع في مركز «ميت غمر» على قاعدتي تمثالين. (Naville, "Ahnas", P. 29, Pls. IV, XII).

وفي «تل بسطة» عثر على قطع كبيرة تحمل اسمه من بينها قطع مؤرخة. (Naville, "Bubastis", Pls. XXXIII, XXXIX).

وفي «طيبة» بالوجه القبلي خَلف لنا هذا الفرعون كثيرًا من الآثار التي تدل على نشاطه، ففي معبد «الكرنك» عثر على تمثالين ضخمين من الجرانيت الأحمر، وكذلك عثر على قطع أخرى (Legrain, "Statues", Nos. 42011, 42012, 42013)، ويوجد في المتحف المصري مذبح عثر عليه في «الأقصر»، وأقام هذا الفرعون كذلك عدَّة تماثيل لنفسه في معبد الأسرة الحادية عشرة «بالدير البحري» (Naville, "Temple", Vol. I, Pl. XIX; Vol. II. Pl. II)، ومن هذه ثلاثة في المتحف البريطاني الآن (British Museum, Nos. 158, 159, 160).

وعثر على قاعدة تمثال له في خرائب معبد «الجبلين» على مسافة بضعة أميال من «طيبة» وهي موجودة الآن بالمتحف المصري.

على أنه توجد آثار أخرى كثيرة وجد اسم هذا الفرعون منقوشًا عليها في جهات متفرقة، فعثر في «الرقة» على حلية من الذهب في صورة صدفة، ويوجد له في متحف نيويورك تمثال (Engelbach, “Riqqeh and Memphis” Pl. 1; M. M. A. June 1920)، «بو الهول» منحوتًا من حجر الديوريت.

وفي متحف القاهرة يوجد هاون عليه اسمه (Cat. 18735)، وجيء من «قفط» بلوحة منقوش عليها اسمه (Lange and Schafer, “Grab und Denkstein”, 20702)، ولكن يحتمل أنها من تاريخ متأخر، يضاف إلى ذلك عدة أحجار لمقابر أفراد نُقش عليها اسم هذا الفرعون في أوائلها (Birch, “Alnwick Catalogue” 270, Pl. V)، وكذلك توجد عدة أسطوانات وجعارين كُتب عليها اسمه (Petrie, “Scarabs”, 12, 5, 14–16; Ibid, 12, 5, 1–13).

(١٤) إشراك «سنوسرت الثالث» ابنه «أمنمحات الثالث» في الحكم

وفي آخر أيام حكمه الذي استمر ثمانية وثلاثين عامًا؛ أشرك «سنوسرت الثالث» ابنه «أمنمحات الثالث» في حكم البلاد، متبعًا في ذلك العادة الحازمة التي سنها له آباؤه من قبل، ويظهر أن مدة اشتراك ابنه في الحكم كانت قصيرة؛ لأننا نشك أن رجلًا في قوة «سنوسرت» ومضاء عزيمته كان يميل إلى تقسيم سلطته؛ إذ في عهده لم نسمع كثيرًا عن حكام الإقطاعات، والظاهر أنه قضى عليهم قضاء مبرمًا ومحا كل سلطان لهم، حتى أصبح خلفه من بعده يتسلط على البلاد من أقصاها لأقصاها، وصار المسيطر الإلهي عليها كما كانت الحال في عهد «خوفو» و«خفرع».

(١٥) وفاة «سنوسرت الثالث» وقداسته في نفوس شعبه

ولما مات انتهى حكم ملك قوي البأس مهيب الجانب، فإذا ما قيس عهده بما ناله من شرف مكانة وعظمة جاه في نفوس الناس مدة حياته وبعد مماته بأجيال عديدة، فإنه بلا نزاع يعد من أفخر العصور وأمجدها في التاريخ المصري، ذلك العصر الذي وضع فيه أساس بناء الإمبراطورية المصرية المستقبلة. ولا غرابة إذن في أن نرى الأثر العميق الذي تركه نشاط «سنوسرت» الذي لا يعرف الملل، في نفوس شعبه، وقد تمثل هذا في

القصيدة التي كُتبت تخليدًا لذكره؛ وقد عثر عليها بين أوراق «كاهون» (اللاهون) وهي تدل على ما كان لهذا الفرعون من المكانة المقدسة في نفوس شعبه فاستمع إليها:

الأنشودة الأولى

الثناء لك يا «خع كاو رع»! يا «حور»، يا صقرنا المقدس الوجود
الذي يحمي الأرض ويمد حدودها
الذي يقهر البلاد الأجنبية بتاجه
الذي يضم الأرضين (مصر) بين ذراعيه
والذي يمسك الأراضي الأجنبية بقبضته
والذي يذبح رماة السهم من غير ضربة عصا
والذي يقوي سهمه دون أن يشد خيط القوس
والخوف منه قد أخضع «الأنو» في بلادهم
والرعب منه قد ذبح قبائل «البدو التسع» (أعداء مصر)
وسكِّينه قد أمات الألوف من رماة السهام
وذلك قبل أن تطأ أقدامهم حدوده
وهو الذي يفوق السهم كالإلهة «سخمت»
حينما يهزم الآلاف ممن لم يعرفوا بطشه
وإن لسان جلالته هو الذي يحكم النوبة
ونطقه هو الذي يجعل البدو يولُّون الأدبار
والواحد الفريد، ذو القوة الفتية، الذي يذود عن حدوده
ومن لا يجعل شعبه يدب فيه الوهن
بل يجعل الناس ينامون في أمان إلى طلوع الفجر
وشباب جنوده ينامون؛ لأن قلبه هو المدافع عنهم
وأوامره قد أقامت حدوده.

الأنشودة الثانية

ما أعظم اغتباط الآلهة! قد جعلت قرابينهم ثابتة
وما أعظم اغتباط أراضيك! وقد ثبت حدودها
وما أعظم اغتباط آبائك! فقد زدت في أنصبتهم
وما أعظم اغتباط مصر بقوَّتك! فقد حميت النظام القديم
وما أعظم اغتباط الشعب بحكومتك! فقد قمعت السلب، وقوتك قد استولت …
وما أعظم اغتباط الأرضين بشدة بأسك! فقد وسعت ممتلكاتها
وما أعظم اغتباط مجنديك! فقد جعلتهم سعداء
وما أعظم اغتباط مسنيك! فقد جددت شبابهم
وما أعظم اغتباط الأرضين بقوتك! فقد حميت جدرانها.

[وبعد ذلك تأتي الديباجة]:

«إنه … «حور» الذي يمد حدوده، ليتك تعيد الأبدية.»
ومما لا شك فيه أن ذلك كان حداء.

الأنشودة الثالثة

ما أعظم سيد مدينته! فهو يعدل ألف ألف، وآلافًا آخرين وليسوا هم جميعهم إلا قليلًا «بالنسبة إليه»
ما أعظم سيد مدينته! فهو سد حاجز للنهر ليمنع الفيضان
ما أعظم سيد مدينته! فهو حجرة رطبة توحي النوم لكل الناس حتى مطلع الفجر
ما أعظم سيد مدينته! فهو مأوى لا ترتعد يده
ما أعظم سيد مدينته! فهو محراب ينجي الخائف من عدوِّه
ما أعظم سيد مدينته! فهو ظل ظليل منعش في الصيف
ما أعظم سيد مدينته! فهو ركن دافئ وجاف في وقت الشتاء
ما أعظم سيد مدينته! فهو تل يحمي من الزوبعة عندما تكون السماء ثائرة
ما أعظم سيد مدينته! فهو كالإلهة «سخمت» لأعدائه الذين تطأ أقدامهم حدوده.

الأنشودة الرابعة

لقد جاء إلينا ليتولى أمر مصر العليا، وقد وضع التاج المزدوج على رأسه
لقد جاء إلينا ووحد الأرضين، وضم البوصة إلى النحلة، [رمز الوجهين القبلي والبحري]
لقد جاء إلينا وجعل الأرض السوداء تحت سلطانه، وضم إليه الأرض الحمراء، [الصحراء]
لقد جاء إلينا وأخذ الأرضين تحت حمايته، ومنح الأرضين السلام
لقد جاء إلينا وجعل أهل مصر يحيون، ومحا آلامهم
لقد جاء إلينا وجعل الشعب يعيش؛ وجعل حناجر الرعية تتنفس
لقد جاء إلينا ووطئ بقدمه الممالك الأجنبية، فضرب على أيد «الأنو» الذين لم يعرفوا الخوف منه
لقد جاء إلينا وحمى حدوده، وخلص من كان قد سرق
لقد جاء إلينا ... واحترم المسن بما جلبته إلينا قوته
(بيت مهشم)
لقد جاء إلينا وساعدنا على تربية أولادنا وعلى دفن المسنين منا.

الأنشودة الخامسة

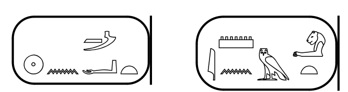
[وهي خاصة بالآلهة، ويمكن الإنسان أن يستخلص منها]:

أنت تحب «خع كاو رع» الذي يعيش إلى أبد الآبدين ... فهو يوزع نصيبك من الغذاء ... راعينا الذي يمكنه أن يمنح النفس ... وأنت تجزيه عليها في حياة وسعادة مرات يخطئها العد.

الأنشودة السادسة

ثناء «لخع كاو رع» الذي يعيش أبد الآبدين ... حينما أسيح في السفينة ... محلاة بالذهب ...

أمنمحات الثالث (١٨٤٩–١٨٠١ق.م)



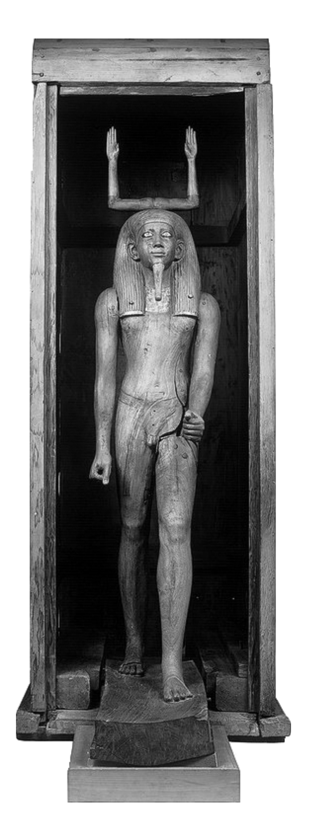
تولى «أمنمحات الثالث» عرش الملك بعد وفاة «سنوسرت الثالث» الفاتح العظيم، واتخذ لنفسه لقب «نيماعت رع» (أي صاحب عدل إله الشمس)، ويحتمل أن تكون هذه التسمية قد حُرفت وأُخذ منها الاسم الذي أطلقه مؤرِّخو «اليونان» وهو «لمارس» أو «لبارس» ... إلخ كما سيأتي بعد.

ويعتبر «أمنمحات الثالث» في نظر التاريخ من أعظم فراعنة مصر وأقدرهم، فقد كان حكمه الطويل الذي دام نحو ثمانية وأربعين عامًا عصر هدوء وسكينة ومشاريع عظيمة، وأعمال جليلة حيوية اجتماعية بقدر ما كان عصر والده «سنوسرت الثالث» عصر حروب وغزوات وتوسيع في رقعة البلاد.

والظاهر أنه أشرك معه في الحكم أميرًا يسمى «حور»[١] إلا أنه مات قبله، وبذلك يكون قد حكم البلاد منفردًا أكثر من أي فرعون آخر قبله في هذه الأسرة بقوة وحزم واتساع أفق، مما خلد أعماله العظيمة على تعاقب الأجيال.

---

[١] هذا هو الرأي الذي أورده الأستاذ «أرمان» غير أن هناك رأيًا آخر يقول: إنه أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة (راجع A. Z. Vol. 33 (1895) P.P. 142. 143; Weill, "La Fin du Moyen. Empire Egyptien", P. 477).



شكل ١: الملك «حور» بن «أمنمحات الثالث».

والباحث فيما قام به من أعمال يجد أنها كانت للإصلاحات الداخلية من حيث الزراعة والتعمير الدنيوي والديني، وسنتناول البحث أولًا في بعوثه التي أرسلها لجلب المعادن والأحجار وما قام به من مبانٍ وفتوح، ثم نتكلم عن مشروعاته الزراعية وما أفاضت على البلاد من فائدة، وأخيرًا نتناول بالبحث مبانيه الدينية وهرمه الذي دُفن فيه، ثم نتكلم عن أخلاقه واتصالها بالفن في عصره.

(١) فتوحه

إن ما لدينا من الوثائق يؤكد لنا أن هذا الفرعون قد قام في وقت ما بحملة عظيمة إلى بلاد السودان، غير أنه لم تصلنا حقائق صريحة عنها، وقد وجدت آثار لهذا الفرعون في «كرمة» عند الشلال الثالث، وهي آخر الحدود التي كان يسيطر عليها حاكم السودان «زفاي حعبي» في عهد «سنوسرت الأول» (Reisner, “Kerma”, II, P. 512) ومن بين هذه النقوش لوحة مؤرخة بالسنة الثالثة والثلاثين اليوم الأول من الشهر الأول الفصل الثالث، وقد سجل في هذا النقش أنه قد تم بناء أقامه مدير اسمه «أنتف» وقد استعمل في بنائه ٣٥٣٠٠ لبنة.

(٢) بعوثه إلى شبه جزيرة «سينا»

وقد كان أهم نشاط لهذا الفرعون في استخراج المعادن متجهًا إلى شبه جزيرة «سينا» التي كان يعتبرها جزءًا من مصر، وقد عثر فيها على نقوش تحمل اسمه، تدل على أنه كان يستغلها بدرجة عظيمة في كثير من سني حكمه، فأرسل البعوث في السنة الثانية، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والثامنة، والحادية عشرة، والثالثة عشرة، والخامسة عشرة، والثامنة عشرة، والعشرين، والثالثة والعشرين، والخامسة والعشرين، والسابعة والعشرين، والتاسعة والعشرين، والثلاثين، والحادية والثلاثين، والثامنة والثلاثين، والأربعين، والحادية والأربعين، والثانية والأربعين، والثالثة والأربعين، والرابعة والأربعين، والخامسة والأربعين من سني حكمه (Gardiner and Peet, Sinai) فمن ذلك يتضح أنه أرسل إلى هذه الجهة نحو أربعة وعشرين بعثة للتعدين وقطع الأحجار.

وأقدم هذه النقوش هي التي دوَّنها رئيس الخزنة المسمى «خنمسو» (Petrie, “Sinai”, 94) الذي يقول:

> إنه أرسل في السنة الثانية من حكم «أمنمحات الثالث» إلى «سينا» ليحضر حجر الدهنج أو الفيروز والنحاس، وكان عدد جنوده سبعمائة وأربعة وثلاثين، وترك لنا لوحة في «وادي مغارة»، هذا إلى أنه اشتغل كذلك في سرابة الخادم حيث ترك لنا جنوده رسمًا يمثل الفرعون أمام الإلهة «حتحور» ربة بلاد الدهنج أو (الفيروز) (L. D. II, Pl. 137 a).

وعثر على نقوش لأحد موظفي المالية ورئيس الصيادين اسمه «حور نخت» الذي كان لا بد مع البعثة السالفة؛ لأن نقوشه مؤرخة بنفس السنة، والظاهر أن البعثة كانت قد اتخذت طريق البحر إلى هذه المناجم بدلًا من طريق الصحراء الطويل المتعب.

وقد جاء في هذه النقوش: المنتخب أمام رعاياه والذي يسهر في سبيل المنعم عليه يقول:

لقد سرت بطريق البحر حاملًا التحف بأمر «حور» رب القصر (الفرعون).

ومن المحتمل أن «حور نخت» كان مكلفًا بحمل هذه القرابين إلى معبد الإلهة «حتحور» مما حدا به إلى كتابة هذا النقش (Breasted, A. R. Vol. I, Par. 717–718).

(٢-١) بعثة «سبك حرحب» لافتتاح منجم في «سرابة الخادم»

وفي السنة الرابعة والأربعين من حكم هذا الفرعون أرسل «سبك حرحب» ليفتح منجمًا جديدًا في «سرابة الخادم» وكان يلقب رئيس المستخدمين (أي هيئة البعثة) (Breasted, Ibid, Par. 725–727).

وقد ترك لنا نقشًا جاء فيه افتتاح مكان للتعدين بنجاح واسم المنجم «يفلح جيشها الذي يقدم ما فيه». في السنة الرابعة والأربعين من حكم ملك الوجهين القبلي والبحري … «أمنمحات الثالث» محبوب «حتحور» سيدة الفيروز معطي الحياة مثل «رع» أبدًا، أنتم يا من تعيشون على الأرض، ويا من سيأتون إلى أرض المنجم هذه؛ كما أن ملككم قد ثبتكم، وكما أن آلهتكم يحبونكم لأجل أن تصلوا إلى «وطنكم» في أمان؛ فعليكم أن تقولوا: «ألف رغيف، وآنية من جعة، وماشية وطير، وبخور وعطور، وكل شيء يعيش منه الإله لروح مدير هيئة المستخدمين للخزانة المسمى «سبك حرحب» عاش ثانية سعيدًا معيدًا حياة هنيئة»، ووالدته هي السيدة «حننوت» المرحومة، وهو الذي يقول: «لقد حفرت حجرة للتعدين لسيدي، وعاد شبابي، (جنودي) جميعهم دون خسارة، ولم يمُت منهم واحد»، وقد عزا رئيس البعثة نجاحه إلى سيدة الفيروز الإلهة «حتحور» التي كان يبتغي عطفها ورضاها ولذلك يقول: لقد أحضرت لها موائد قربان وكتان، وقدمت لها قربانًا إلهيًّا، وقد قادتني بعطفها إلى داخل المنجم الذي حفرته لها؛ وإني أقسم أني أقول الصدق.

(٢-٢) نقوش طريفة لبعض الموظفين الذين ذهبوا إلى هذه المناجم

ومن طريف النقوش التي عثر عليها لبعض الموظفين الذين أتوا إلى هذه المناجم النائية، التحذيرات التي تركوها لمن سيأتي في المستقبل طالبين منهم أن يترحموا على أرواحهم، فمثلًا جاء في إحدى هذه النقوش:

> ليته يكون محبوبًا ويصل (إلى بلاده) سالمًا، من سيقول: صلاة من أجل روح حامل الختم «سبك حتب» محبوب الإلهة «حتحور» سيدة بلاد الدهنج أو (الفيروز) ولحارس المخزن «ياتو» ورئيس قصر الفرعون «سنب تفي» وللعشرين حجَّارًا الذين معهم.

> وفي نقوش أخرى نقرأ:

> ليت الإله «بتاح» المنفِي، والإلهة «حتحور» سيدة بلاد «الفيروز» يحبان من سيقول: «صلاة من أجل روح حامل الختم «سنوسرت»».

(٢-٣) بعثة سبك حرحب والتحامه مع البدو الأسيويين

ولدينا نقش آخر تركه لنا موظف مالي اسمه «سبك حرحب» السالف الذكر يقول فيه:

> أنتم يا أشراف الملك وعظماء القصر، قدِّموا المديح للملك، وفخِّموا شهرته، وامدحوا الملك، وحافظوا على ما هو له؛ لأن الجبال تقدم ما في جوفها له، والتلال تقدم ثروتها، أنتم يا من يعيشون على الأرض ومن سيأتون إلى مراكز التعدين هذه.
>
> فكما أن الملك قد وطنكم والآلهة حفظتكم حتى تصلوا إلى وطنكم سالمين، فقولوا «دعاء» لأجل ألف قربان لروح رئيس المالية «سبك حرحب».

وقد ترك لنا حامل الختم الإلهي (أي الملكي) المسمى «بتاح ور»[٢] في السنة الخامسة والأربعين من حكمه، نقشًا يقول فيه: «كنت امرأ مرسلًا لإحضار موارد عدة من بلاد

[٢] Gardiner and Peet, “Sinai”, Pls. 18, 33, 36; Breasted, A. R. Vol. I, Par. 728.

... وكنت ماهرًا في عمل تقاريري لسيدي، وأخضعت بلاد الأسيويين لمن في القصر (أي الفرعون)، وجعلت «سينا» تركع تحت قدمه، واخترقت الوديان الوعرة، ووصلت إلى التخوم المجهولة (من العالم)، أنا رئيس هيئة المستخدمين وحامل الخاتم.» المظفر الذي وضعته أمه «ياتا».

ومن هذا النقش نعلم أن هذا الموظف قد التحم في أحد بعوثه مع قبائل البدو والأسيويين؛ وكذلك أخضع ثورة كانت في شبه جزيرة «سينا».

وهذه النقوش قد بلغ عددها ما يقرب من الستين، منها لوحات قائمة بذاتها، ومنها نقوش مدوَّنة على الصخور، وكذلك وجدت له موائد قرابين وأجزاء من نقوش معابد، وقد وجدت هذه النقوش مبعثرة في أنحاء شبه الجزيرة، فوجدت بعضها في «وادي مغارة»، وبعضها الآخر في «سرابة الخادم»، ومعبدها، والعدد الأكبر منها لوحات تذكارية للحملات والرجال الذين قاموا بها.

(٣) أهم لوحة في «سينا» من عصر «أمنمحات الثالث»

على أن أهم نقش عثر عليه من هذا العصر في «سينا» لم يُذكر عليه اسم الفرعون الذي نُقش في عهده، ولكن الآراء متفقة على أنه دوِّن في عهد «أمنمحات الثالث»، وقد حُفر هذا المتن على لوحة حُفظت لنا حتى الآن وقد جاء فيها ما يأتي:

المصاعب التي لاقاها «حور وررع» في استخراج الفيروز في فصل القيظ: أرسل جلالة الملك حامل الختم الإلهي (أي الملكي)، ومدير هيئة جماعة المستخدمين «في الحملة»، ومدير الصناع (؟) المسمى «حور وررع» إلى أرض المعادن هذه، وقد وصلت إلى هذه الأرض في الشهر الثالث من الفصل الثاني، وإن لم يكن الوقت مناسبًا للذهاب إلى أرض هذه المناجم. (Breasted, Ibid, Par. 733 f.f.)

وقد قال حامل الختم الإلهي هذا لموظفيه الذين كانوا سيجيئون لأرض المعادن هذه في هذا الفصل (أي فصل القيظ): «لا تجعلوا وجوهكم تبتئس بسبب ذلك، واعلموا أن «حتحور» ستجعل ذلك خيرًا، ولقد نظرت لنفسي وردعتها، وعندما حضرت من مصر تخاذلت، وكان الأمر صعبًا عليَّ؛ لأن الصحراء شديدة القيظ، والصخور تكوي الجلود، وعند انفلاق الفجر يرتاع الإنسان «لشدَّة الحر».» ثم بعد ذلك يصف لنا كيف أنه أغرى رجاله على المضي معه بقوله لهم: إنهم ذوو حظوة لدى الملك فأرسلهم لذلك إلى «سينا» في هذا القيظ الشديد فيقول: «ما أعظم حظوة الرجل الذي يكون في أرض المناجم هذه!»

وقد كان جواب العمال مفحمًا ينطوي على التهكم والسخرية؛ إذ أجابوه قائلين: «حقًّا إن حجر الدهنج و(الفيروز) لفي هذه التلال الخالدة، ولكن من الحمق أن يبحث عنه في هذا الفصل من السنة، وإنه لمن الشطط أن يبحث عنه في هذا الفصل المحرق.»[٣] ولكن رغم هذا التقريع الذي كاله العمال «لحور وررع»، فإنه كان واضعًا نصب عينيه الأمر الملكي الذي بعث من أجله، مما شجعه على المضي في عمله، وبعث فيه روحًا قويًّا يشجعه على السعي للحصول على ما جاء من أجله فيقول: «وعندما أرسلت لأرض المناجم هذه وضعت أرواح الملك هذه المهمة في قلبي، وبعد ذلك وصلت إلى تلك الأرض وأخذت في العمل بنجاح، وقد وصل جيشي كاملًا ولم يسقط واحد منهم، ولم يتخاذل وجهي أمام العمل.» والواقع أن الحظ لا يواتي الرجل الذي يتخاذل أمام الصعاب؛ ولذلك فإن بطلنا حامل الخاتم الإلهي مضى قدمًا في عمله حتى عثر على ضالته المنشودة في الوقت الذي يخصص لمثل هذه البعثة فيقول: «لقد أفلحت في استخراج صنف جيد من الدهنج أو الفيروز، وانتهيت في الشهر الأول من الفصل الثالث، وحملت معي أحجارًا من الطراز الأوَّل لتكون تحفًا بكمية لم يظفر بمثلها أحد قبلي، هذا فضلًا عن أنها أجود مما لو حضرت في الفصل المعتاد (من السنة) لاستخراجها.»

ومن الطبعي أن ينسِب «حور وررع» نجاحه إلى سيدة الفيروز «حتحور»، فإنها الإلهة المحلية لهذه الجهة، وقد نصح غيره أن يتضرعوا إليها إذا أرادوا نجاحًا؛ «قربوا قربانًا حينئذ إلى ربة السماء، واستعطفوا «حتحور»، فإذا فعلتم ذلك كان فيه الخير لكم، وإذا أحسنتم معاملتها سارت الأمور سيرًا حسنًا معكم.» وبعد ذلك يصف لنا نصيبه من الفخار في نجاح البعثة، ذاكرًا ما له من الصفات الحسنة كما هي عادة كل مصري في هذا العصر وما قبله: «لقد قدت جيشي بشفقة زائدة، ولم أنهر عمالي، وكنت مثال الرأفة مع جنودي كلهم، وكان اعتقادهم فيَّ عظيمًا.» ولا شك في أن موقف «حور وررع» يحتم عليه أن يتصف بهذه الصفات؛ لأن الرجل الذي يستطيع أن يستعمل مثل هؤلاء العمال والجنود في مثل الفصل اللافح الحر من السنة؛ لقمين أن يتصف بهذه الأخلاق النبيلة. وأكبر دليل على أهمية هذه المحاجر في عهد «أمنمحات الثالث» ما قام به من الإصلاحات في معبد العمال «بسرابة الخادم». وقد عثر فيه على آثار تدل على أنه كان

[٣] راجع معنى هذا اللقب في البحث الذي كتبه «بيبر» في: (Melanges Maspero, I, P. 180).

قائمًا في هذه الجهة منذ الفرعون «سنفرو»، وقد زاد «أمنمحات» في بنائه ومده بموائد القربان، وأضاف فيه رواقًا، وحذا حذوه خلفه «أمنمحات الرابع» (Historical Studies, P. 11).

(٤) نشاط «أمنمحات الثالث» في «وادي الحمامات»

أما عن نشاط هذا الفرعون في «وادي الحمامات» فقد أشرنا إلى نقش الموظف «سنوسرت» وحملته التي قام بها لقطع أحجار تماثيل الملك العشرة، وكذلك أشير إلى هذه الحملة في نقش آخر يمتاز بما يقدم لنا من المعلومات عن عدد العمال الذين كانوا يستعلَمون لقطع الأحجار اللازمة للتماثيل فيقول: عشرون من جنود الجبانة، وثلاثون حجَّارًا وثلاثون بحارًا، هذا بالإضافة إلى جيش عديد مؤلف من ألفي جندي، ومن ذلك الإحصاء يمكننا أن نعرف نسبة مهرة العمال الذين كانوا يُستخدمون لقطع الأحجار إلى غيرهم من المدرِّبين الذين كان أهم عمل لهم جر الأثقال ونقلها بإشراف عمال المحاجر، والثلاثين بحارًا من رجال الأسطول.

(Breasted, A. R. Vol. I, Par. 313, 314).

على أن «أمنمحات» لم يقتصر في استخراج الأحجار على «وادي الحمامات»، بل استعمل المحاجر الهامة الأخرى في أنحاء القطر حسب حاجته إلى نوع الحجر اللازم له.

(٥) بعوث «أمنمحات الثالث» إلى محاجر الديوريت في صحراء النوبة الغربية

فأرسل البعوث إلى محاجر الديوريت الصلبة وغيرها من الأحجار الواقعة في صحراء النوبة الغربية، وعثر هناك على لوحات أقيمت تذكارًا لبعوثه، وهي منحوتة من الحجر الرملي، منها لوحة أرِّخت بالسنة الرابعة في الشهر الأول من فصل الحصاد «أخت» من حكم الفرعون «أمنمحات الثالث»، وقد جاء في نقوش هذه اللوحة أن البعثة وصلت إلى هذه الجهات، غير أن معظم نقوش هذه اللوحة لم تحل بعد. ونجد في نهاية اللوحة نفسها تاريخًا آخر وهو الشهر الثالث من فصل الزرع «برت» السنة الرابعة …

(٥-١) لوحة «سابستت» لاستخراج الأحجار الثمينة

وفي السنة السادسة من عهد هذا الفرعون أقام «سابستت» بن «رنبت نفرت» لوحة من الحجر الرملي الأحمر في هذه الجهة، وكان يحمل لقب «رئيس الخزانة الأمين»، وقد ذكر في نقوش اللوحة أن غرض هذه البعثة هو استخراج أحجار ثمينة «ماعو» ونجد في هذه اللوحة دعاء للإلهة «حتحور» سيدة «نخنت».

ووجد لنفس الموظف مائدة قربان متآكلة نقوشها وقد ذكر عليها نسبه.

وكذلك عثر على لوحة أخرى في هذه الجهة منحوتة من الحجر الرملي، غير أنها مكتوبة بالخط الهيراطيقي وكتابتها غامضة، وهاك ما وصل إليه الأستاذ «شيرني» من حل رموزها.

السنة س + ٢ الشهر الرابع من فصل الفيضان، اليوم العشرون في عهد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نيماعت رع» «أمنمحات الثالث» عاش مخلدًا، أتى قاطع الأحجار «نختي» بن «خنتخاتي» الذي وضعته «نت»؟ … وقاطع الأحجار «إني» بن «بتاح حتب» لأجل أن يحضر … على حسب … ما أمر به «سابستت»، والكاتب «منتو وسر»، ومما يؤسف له أن نوع المادة التي ذهبت هذه البعثة لإحضارها لم تذكر، (A. S. Vol. XXXIII, P. 73).

وفي محاجر «طرة» المقابلة «لمنف» التي كان يستخرج منها أحسن نوع من الحجر الجيري الأبيض الجميل، وجد نقش باسم هذا الفرعون يخبرنا أن الفرعون في السنة الثالثة والأربعين فتح محاجر للحصول على الحجر الجيري الأبيض من «عيان» لمعبد «الإله» لملايين السنين.

(٦) آثار «أمنمحات الثالث» في أنحاء القطر

وتوجد لهذا الفرعون آثار متفرقة عثر عليها في طول البلاد وعرضها ونخص بالذكر منها ما يأتي: (L. D. II, 143, Vyse, “Operations” Vol. III. P. 94).

وجدت له لوحة في مدينة «الكاب» مؤرخة بالسنة الرابعة والأربعين من حكمه، وتحدثنا عن جدار بني في هذا المكان خارج أسواره، وقد أقامه «سنوسرت الثاني» كما أسلفنا، وفي «تل اليهودية» وجد له قاعدة تمثال وخاتم أسطواني، ويقع «تل اليهودية» هذا على بُعد عشرين كيلومترًا من شمال شرقي القاهرة على الطريق المستقيم الموصل

لأرض «غوشن»، و«وادي طليمات» والحدود المصرية السورية. (Petrie, Hyksos and Israelite Cities I).

وفي «منف» زاد «أمنمحات» في معبد الإله «بتاح»، وقد عثر له هناك على عتبة باب ضخمة باسمه عند «البوَّابة» الشمالية (Petrie, Tarkhan, Vol. I, Pl. LXVII).

وكذلك عثر على تمثال جميل في هذا المكان نفسه لهذا الفرعون، وهو موجود الآن بمتحف برلين (British Museum, No. 1121)، وفي «إهناسية المدينة» عثر على قطعة حجر من عصره أيضًا نقش عليها اسمه الحوري. (Petrite, “Ehnasya,” Pl. XIV).

أما في «الكرنك» فقد عثر له على تمثال كبير وآخر صغير (Legrain, “Statues”, Nos. 42014, 42019).

والأول مصنوع من الجرانيت الأسود.

وفي بلدة «نخن» (الكوم الأحمر الحالية) المقابلة «للكاب» عاصمة الصقر القديمة؛ وجد في وسط خرائب المعبد تمثال له أيضًا (Rec. Trav, X. 139)، وفي «بترو جراد» يوجد له تمثال (Rec. Trav, XV. 136 I–V)، وفي مجموعة «مريمار» يوجد له تمثال في صورة «بو الهول» بدون رأس (Mirmar, Catalogue XXIX)، هذا وتوجد له آثار عدة في أنحاء متاحف العالم تشتمل على مجوهرات وجعارين وأختام أسطوانية الشكل، ولوحات صغيرة وتماثيل (Petrie, “History” I, P. P. 192–194).

(٧) تعاليم «سحتب أب رع» لأولاده ومكانتها التاريخية

ومن أهم الوثائق التي تكشف لنا عن مقدار ما وصل إليه الفراعنة في أواخر الأسرة الثانية عشرة من الاحترام والتقديس، ومقدار ما وصل إليه الأمراء الوراثيون رغم ما يحملون من ألقاب ورتب من الخضوع للفرعون، «لوحة العرابة» المعروفة بالتعاليم؛ إذ تدلنا على أن روح الوحدة دب في جسم الدولة خلال حكمه بفضله وفضل ما قام به أسلافه من القضاء على الأمراء الإقطاعيين، وبخاصة «سنوسرت الثالث»، وكذلك بفضل جيل الموظفين الجديد الذي عمل ملوك هذه الأسرة على إنشائه ليلتف حولهم، وليكون لهم نصيرًا وظهيرًا على تسيير أداة الحكم في البلاد، والقضاء على حكام المقاطعات الذين كانوا أكبر عقبة في سبيل توحيد نظام الحكومة والنهوض بها؛ فلا غرابة إذن أن نرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم العادل في نفوس أولادهم، وقد بلغ بهم حب الفرعون درجة جعلت تعاليم بعضهم لأبنائهم تدور حول

حب الفرعون وخدمته والإخلاص له، لا أن ترشدهم إلى الحياة الصالحة السعيدة، كما كان شأن التعاليم التي وصلت إلينا حتى الآن في العهود القديمة، بل إن الكاتب الذي فعل ذلك غالى، فلم يشأ أن يكتب تعاليمه على ورق بردي، بل نقشها على صفحة من الحجر، وجعلها شاهدًا لقبره حتى يضمن خلودًا ويراها أولاده في كل وقت يزورون فيه قبره؛ لأن القبور كما نعلم كانت مُحاطة بكل عناية في كل أزمان التاريخ المصري، كما كان الابن الأكبر هو الذي يُنصب كاهن والده الجنازي؛ ولا غرابة إذن في أن تشيع هذه العادة في ذلك العهد، ولكن بكل أسف لم تصلنا إلا هذه اللوحة الحجرية التي ذكرناها، وقد يكون لكاتبها صلة خاصة وثيقة بالفرعون أكثر من غيره، فغالى في حبه لمولاه ونقش هذه التعاليم إظهارًا لولائه له، وليسير أولاده على نهجه في حبهم وولائهم، والواقع أن كاتب هذه النصائح كان موظفًا كبيرًا في المالية، وسنرى في المتن أن الملك كما يقول صاحب اللوحة قد مدحه أمام الملايين، وأنه كان صديقًا حميمًا لسيده الذي كان يطلعه على أسراره الخفية، ونرى في الوقت نفسه أنه صاغ عقود المدح للفرعون وأظهر عظمته، وأن المؤلف ينصح أولاده أن يحاربوا إلى جانب الملك مما يتفق وروح العصر الذي كان عصر نضال وحروب بين حكام المقاطعات والعرش لتوحيد البلاد تحت حكم ملك واحد مسيطر سيطرة تامة على كل المقاطعات من كل الوجوه، ولا نزاع في أن هذه الوثيقة كانت نوعًا من الدعاية للملكية المطلقة في ذلك العهد، ولكنها دعاية فريدة حاذقة في بابها، ومن الجائز أنها كانت دعاية منتشرة في وقتها، غير أنه لم يصلنا نحن منها إلا هذه الوثيقة، وتنقسم قسمين: مناقب المؤلف وصفاته، ثم تعاليمه لأولاده، وها هي ببعض الاختصار. (A. S, XXXVIII, P. 269; XI, P. 209 ff.).

(٧-١) تحدُّث اللوحة عن مناقب صاحبها

الأمير الوراثي، حامل الخاتم الملكي، والمشرف على ما له قرن وما له حافر وما له ريش، (أي الحيوان الملكي)، والمشرف على مستنقعي الملاهي (أي حيث صيد الأسماك ومأكولات الصيد)، ويصف نفسه بأنه عند وصوله (إلى القصر) يصغي إليه كل البلاط، وإليه يتحدَّث الناس عن أمورهم. ومن يلاحظ رب الأرضين صفاته الحسنة، وهو الذي رقَّاه، وهو يملك الفضة والذهب، ولديه الكثير من الأحجار الكريمة، وهو رجل صدق، مثل الإله «تحوت» (إله الحكمة) ورئيس الأشياء السرية في المعابد، ورئيس الأشغال في قصر الملك، وهو أكثر دقة من الموازين، ومثل ميزان، متفوق في النصيحة، يتكلم الحسن ويعيد

المرغوب فيه، حسن الإصغاء ممتاز في الكلام، وهو أمير يحل معضلات المسائل، خلو من عمل الغش، مخفف المصائب، ويعمل الأشياء على مبدأ قويم … إلخ؛ ثم يقول: إنه قد ألف نصيحة شعرية لصالح أولاده فيقول:

(٧-٢) نصيحة مؤلف التعاليم لأولاده

إني أتحدث إليكم في أمر عظيم، وأجعلكم تصغون إليه، وإني أنقل إليكم فكرة للأبدية (أي فكرة تفكرون فيها دائمًا)، وحكمة للحياة الصحيحة حتى تمضوا مدة الحياة في نعيم، احترموا الملك «نيما عت رع» بأجسامكم، وألِّفوا بين قلوبكم وجلالته، إنه هو «الفهم» (سيا) الذي في القلوب، وعيناه تفحصان كل إنسان، وإنه «رع» الذي يرى بأشعته، وإنه يضيء الأرضين أكثر من قرص الشمس، ويجعل الأرضين أكثر نضارة من نيل عالٍ، وإنه ملأ الأرضين قوة وحياة.

والأنوف تصير باردة حينما يجنح إلى الرعب، وعندما يكون طلقًا يتنسم الناس الهواء، ويعطي من يخدمونه القوة الحيوية، ويمد بالطعام من يسير على نهجه، والملك قوة حيوية، وفمه الرخاء بعينه.

وإنه هو الذي يطعم من سيكون، وإنه الإله «خنوم» (المصور) لكل الأجسام، والمبدع الذي يخلق كل الناس، وهو الإلهة «باستت» (وهي الإلهة الشفيقة لها رأس قطة التي تحمي الأرضين) ومن يحترمه ينجُ بساعده، ولكنه الإلهة «سخمت» (وهي الإلهة المريعة وإلهة الحرب لها رأس لبؤة)، لمن يتعدَّى أمره، ومن يكره فإنه سيقع تحت نيره، حاربوا لاسمه، ودافعوا عن حياته، حتى تنجوا من الكريهة (القدر)، ومن كان صاحبًا للملك فإنه سيكون محترمًا، ومن كان عدوًّا للملك فإنه لا قبر له، وجسمه يُلقى في الماء، فافعلوا ذلك لتصح أجسامكم، نعم، إن ذلك لمجد لكم إلى الأبد.[٤]

ولسنا في حاجة إلى القول بأن هذه الكلمات تنم عن الاحترام العميق الذي كانت تكنه الصدور وقتئذ لهذا الفرعون العظيم، والظاهر أن نفوذه كان ممتدًا إلى الممالك المجاورة، ولا أدل على ذلك مما وجد في خرائب «جبيل»؛ إذ عثر على مقبرة قد دُفن فيها حلي وأوانٍ مصرية، ومن بينها آنيتان للزينة من حجر الإبسيديان؛ نُقش اسم هذا الفرعون على غطائهما بالذهب.

[٤] راجع كتاب الأدب المصري القديم ج١، ص٢١٧ المؤلف.

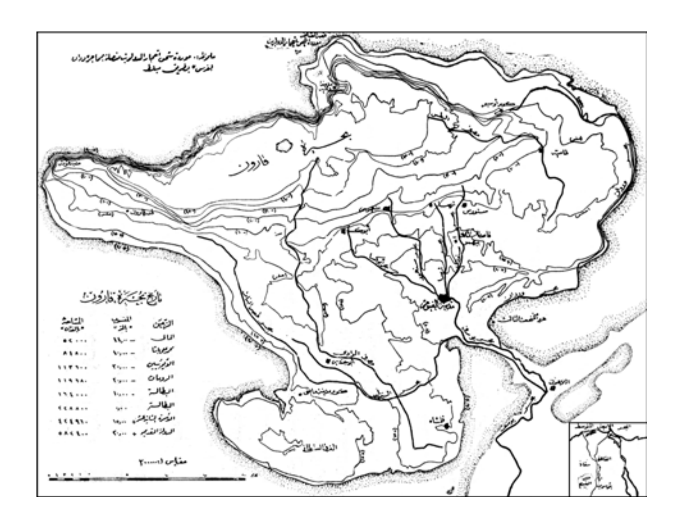
(Academie des Inscriptions; “comptes Rendus” Mai–Juin 1922).

ولا بد أنها كانت ملك أمير أسيوي لهذه المدنية، ويحتمل أنها أرسلت له من قبل الفرعون هدية.

هذا مجمل ما وصلنا عن نشاط هذا الفرعون في بعوثه وآثاره وعلاقاته الأجنبية. والآن ننتقل إلى أعماله الإنشائية في داخل البلاد، وسنتناول الكلام أولًا عن أهم مشروع حيوي للبلاد قام به، وأعني بذلك بحيرة قارون أو بحيرة «موريس» القديمة، وإصلاح أرض الفيوم.

(٨) بحيرة قارون (بحيرة موريس)

لا جدال في أن «أمنمحات الثالث» قد وجه عناية عظيمة لإقليم «الفيوم»، وأعماله العظيمة قام بها هناك. ويعتبر هذا المنخفض أو الواحة التي تتكون منها «الفيوم» بالنسبة لمصر نبات سوسن، تفرع غصنه نحو الغرب جنوب المكان الذي تتفتح فيه الساق عن الزهرة هي الدلتا اليانعة، ويحتمل أن هذا المنخفض قد نجم عن الانفصال في طبقات الأرض، ونتج عنه مجرى النيل الطويل، ولا يزال جزء من هذا المنخفض تشغله بحيرة «قارون» الحالية، التي تعتبر جزءًا من بحيرة عظيمة كانت تغطي منذ عصور ما قبل التاريخ معظم «الفيوم» الحالية بمياه الفيضان، وسطحها ينخفض نحو مائة وتسعة وعشرين قدمًا عن سطح البحر الأبيض المتوسط. وهذه المساحة من المياه كان يطلق عليها المصريون لفظة «حنومِرِور» أي بحيرة «مِرِور»، وهو الاسم الذي حرفه اليونان إلى «موريس» وبذلك أصبحت تسمى بحيرة «موريس» كما ذكر ذلك لنا «هرودوت». وقد كتب الأستاذ «جاردنر» مقالًا عن اسم بحيرة موريس (J. E. A., Vol. XXIV, PP. 37–46)، وقد برهن في هذا المقال على أن لفظة «مِرِور» (موريس) تدل على اسم المدينة «كوم غراب» التي تقع عند منحنى بحر يوسف، أو هو الاسم الذي أطلق على مجرى المياه الذي صار يسمى القناة العظيمة الموصلة إلى المدينة المذكورة، والاسم المصري لبحيرة «موريس» كان «تاحنو–مرور»؛ أي بحيرة «حنو مرور»، وفي هذه الحالة تكون كلمة «حنو» (بحيرة)، أما كلمة «مرور» (موريس) فتدل إما على البلد الآنف الذكر أو المجرى، أو القناة التي تقع عند فمها هذه البلدة.



شكل ٢: مناسيب بحيرة قارون نقلًا عن علي بك شافعي.

(٨-١) العمل على تجفيف جزء من مساحة البحيرة في عهد أمنمحات الأول

والظاهر أنه قد عملت محاولات منذ الأسرة الخامسة لتجفيف جزء من مساحتها. وفي عهد «أمنمحات الأول» فكر في تجفيف جزء أكبر من هذه البحيرة، كما يدل على ذلك بعض آثاره هناك، ولقد تضاربت الأقوال في وجود هذه البحيرة في تلك الجهة في عهد ما قبل التاريخ، وبخاصة ما ذكر في كتاب Caton Thomson عن «الفيوم»، وقد رد عليها العالم «ليل» وبعد ذلك أثبت «علي بك شافعي» وجودها في رسالة له في هذا الصدد بعنوان «بحيرة قارون وعلاقتها ببحيرة موريس وخزان وادي الريان»، وأردفه بمقال ثانٍ «ري الفيوم كما وصفه النابلسي»؛ غير أننا مع وجود هذه البحيرة لا يمكننا أن نقبل ما قاله «ديدور» نقلًا عن «هيكاتا» Hecataeus of Abdera إن بحيرة «موريس» كانت خصصت لتنظيم فيضانات النيل، في حين أن كلا من «هرودوت» و«استرابون» يقول: إن مياه النيل كانت تتوفر في البحيرة مدة ستة شهور، وفي مدة ستة الأشهر الأخرى من السنة تخرج منها المياه بطريق القناة نفسها، ولكن بوساطة عيون أخرى (Meyer, "Geschichte des Altertums" I, Par. 322).

وعلى أية حال فإن ظواهر الأمور تدل على أن هذه الواحة الغناء (الفيوم) هي من عمل النيل، وسنتكلم عنها فيما يأتي ببعض التفصيل، وبخاصة ما قام به «أمنمحات» من العمل المجيد الذي سيبقى ما بقيت (الفيوم).

ففي كل عام كانت رواسب الطمي من النيل تتخلف على هذا الحوض الطبعي المنبسط، ومن ثم ارتفع منسوب الأرض تدريجًا حتى انكمشت البحيرة في أيامنا هذه إلى مساحة ضئيلة نسبيًّا عما كانت عليه في الأزمان السالفة، وهي التي تعرف الآن ببحيرة «قارون»، أما باقي الجزء من هذا المنخفض العظيم فقد أصبح أرضًا خصبة يانعة مملوءة بالحقول الخضراء والحدائق الغناء — ونعتقد أن الفيوم في عهد «أمنمحات» الثالث قبل إصلاحها كانت رقعة شاسعة من الماء ليس فيها إلا جزء صغير من الأرض الزراعية، انتزع من الماء الضحضاح في الجهة الشرقية؛ حيث كانت تقع بلدة «شدت» (الفيوم) التي كانت الجسور تحميها مما يكتنفها من المياه.

(٨–٢) جهود «أمنمحات الثالث» في عمل خزان الفيوم

والظاهر أن الملك «أمنمحات الثالث» كان يحس الألم والمضايقة من القحط الذي كان يصيب البلاد من جرَّاء انخفاضات مياه النيل المتكررة، والتي كان من نتائجها الجوع وانتشار الأوبئة، والظاهر أنه قد رأى في منخفض الفيوم منقذًا للبلاد من ويلات القحط؛ إذ اتخذه خزانًا طبعيًّا يمكن أن يمد البلاد الشمالية جميعها بالمياه أثناء انخفاض النيل سنويًّا في فصل التحاريق، وكانت مياه الفيضان كما قلنا تنساب في منخفض الفيوم في فصل الخريف، وعند ابتداء انخفاض الفيضان كانت هذه المياه تخرج ثانية مخترقة الحقول إلى النهر ثانية، إلى أن يمنع جريانها الأراضي التي تعترضها، وهي الواقعة بينها وبين النهر، وبذلك تتبقى مساحة من المياه محجوزة في الفيوم لا فائدة منها، والظاهر أن هذا الفرعون أو مهندسيه قد فكروا في طريقة لتنظيم دخول هذا الماء وخروجه، وكانت النتيجة أن فكروا في استعمال الترعة التي يبتدئ فتحها من النيل شمال «أسيوط» عند «ديروط»، وهذه الترعة الطبعية هي المعروفة الآن «ببحر يوسف»؛ ومنها كانت تحمل مياه الفيضان مباشرة إلى خزان «الفيوم»، وهناك تحجز بوساطة حواجز لها عيون تُصرف منها المياه ثانية تدريجًا إلى هذه الترعة، فعندما تكون المياه منخفضة في النيل في شهر التحاريق؛ يمكن أن يبقى منسوب المياه في النيل مرتفعًا الارتفاع النافع لري الأراضي من «أسيوط» حتى البحر الأبيض المتوسط، وقد حسب أنه بهذه الطريقة تخزن

كمية هائلة جدًّا من مياه الفيضان تضاعف حجم المياه التي كانت تجري في النهر عندما تنساب فيه تدريجًا خلال فصل التحاريق من أبريل إلى يونيو. (Brown, “The Fayoum and Lake Moeris”.)

وقد أقيم سد عظيم أو خزان لأجل تنفيذ هذا المشروع الهندسي العظيم عند المدخل الطبعي لهذه البحيرة؛ أي عند «اللاهون» ليحصر دخول المياه وخروجها إلى القناة. هذا وقد حصر المهندسون الذين قاموا بتنفيذ هذا الخزان المياه في الجزء المنخفض من «الفيوم»، وذلك بإقامة سد آخر اتخذ صورة نصف دائرة طولها أكثر من عشرين ميلًا، وبذلك استرد من المياه نحو عشرين ألف فدان في الجهة القريبة جدًّا لوادي النيل، وقد تحولت هذه المساحة إلى حقول غنية بإنتاجها، ولولا ذلك لما تبقى من البحيرة إلا المستنقعات التي على حافتها، والجزء الذي تقوم عليه بلدة «شدت» (المستردة) وهي «الفيوم» الحالية، وبهذه الكيفية أصبحت بلدة «شدت» مفصولة عن البحيرة بمساحة من الأرض منتزعة من المياه تبلغ نحو خمسة أميال.

(٨-٣) إعادة بناء المعبد الذي أقامه «أمنمحات الأول» في «الفيوم»

وفي هذه المدينة التي أصلحها «أمنمحات الثالث» أعاد بناء المعبد الذي أقامه جده «أمنمحات الأول» (Petrie, “Hawara”, P. 57. Rec. Trav. XI, P. 98).

وقد عثر على بعض آثار لهذا المعبد (Ibid, Pl. XXVII, 10, 11) وكذلك عثر له على جزء من مائدة قربان في هذه الجهة (Lange and Schafer, “Grab und Denkstein”, No. 20699).

وكذلك أمر هذا الفرعون بإقامة نقش في هذا المعبد كان الغرض منه أن يظهر للعالم جدارته بأن ينتخبه سلفه «سنوسرت الثالث» ليخلفه على عرش الملك، ولم يبقَ منه إلا بعض قطع صغيرة محفوظة الآن بمتحف برلين، والظاهر أن كثيرًا من العبارات اللغوية التي وردت في هذا النص قد كُررت في نقش تتويج الملكة «حتشبسوت».

ويخيل إليَّ أن ترعة «بحر يوسف» التي كانت تملأ بها البحيرة ثم تفرغ كل سنة كانت تلف حول الجزء الجنوبي والغربي لمدينة «شدت» (الفيوم)، ثم تسير جهة الشمال نحو أربعة أميال إلى أن تخترق السد العظيم عند نقطة بالقرب من مدينة «بياهمو» الحالية (وهو اسم قديم لم يحقق أصله حتى الآن)، ولا بد أنه كان يوجد في هذه الجهة خزان ذو عيون تفتح وتغلق، غير أنها اختفت كلية.

(٩) تمثالا «أمنمحات الثالث» في بلدة بياهمو

وكان على الجزء العلوي من جانبي السد قاعدتان هرميتا الشكل من الحجر، يبلغ ارتفاع كل منهما نحوًا من عشرين قدمًا، نصب عليهما تمثالان ضخمان يمثلان الفرعون جالسًا على عرشه، وكان كل واحد منهما قد نُحت في قطعة واحدة من حجر الكوارتسيت الأبيض، ويبلغ ارتفاعه خمسًا وثلاثين قدمًا، وقاعدته أربع أقدام، وبذلك كان رأس كل تمثال يرتفع نحو ستين قدمًا عن قمة الخزان التي كانت تعلو عن سطح الأرض عدة أقدام، وقد كانا لا يزالان موجودين عندما زار «هرودوت» البلاد المصرية، وقد وصفهما بأنهما تمثالان جالسان أقيما على هرمين يشرفان فوق الماء، ولكنهما قد اختفيا الآن، ولم يبقَ منهما إلا بعض قطع محفوظة الآن بمتحف أشموليان بأكسفورد. (Petrie, "Hawara", Pls. XXV, XXVII).

ولا بد أن «هرودوت» قد رأى التمثالين أيام الفيضان.

ومما لا ريب فيه أن هذا العمل الهندسي العظيم قد أفاد كل البلاد الواقعة شمالي «أسيوط» ونجاها من القحط الذي ينجم عن نيل منخفض، أما الأراضي الواقعة جنوب «أسيوط» فمن المحتمل أن هذا الفرعون قد أقام في سني حكمه الأولى سدًّا عند الشلال الثاني قبل قلعتي «سمنة» و«قمة»، وبذلك يحجز مياه الفيضان في فصل الخريف لتصرف في فصل التحاريق.

(١٠) «أمنمحات الثالث» وتدوين مناسيب النيل

وتعزى فكرة إقامة خزان أو سد في هذا المكان إلى وجود نقوش في صخور «سمنة» و«قمة» في مناسيب مختلفة يستدل منها على ارتفاع النيل في السنين الآتية من حكم هذا الفرعون، وهي السنة الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والتاسعة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والثانية والعشرون، والثالثة والعشرون، والرابعة والعشرون، والثلاثون، والثانية والثلاثون، والسابعة والثلاثون، والأربعون، والحادية والأربعون (L. D. II. Pl. 39).

وقد كان هذا الفرعون أول من قام بتدوين مقاييس للنيل، ومن ثم اتُّخذت سنة، غير أن هذه المناسيب كانت أعلى من المناسيب الحالية للفيضان العالي بما يقدَّر ما بين ست وعشرين، وثلاثين قدمًا؛ على أنه لم يوجد أي أثر لمثل هذا الخزان الذي يقال إنه

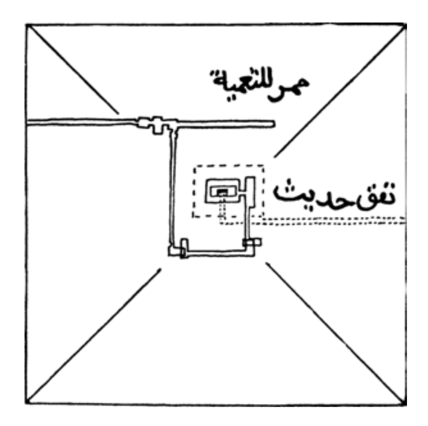
أقامه، وسبب ارتفاع منسوب مياه النيل في تلك الأزمان هو إما أن يكون مجرى النهر في بلاد «النوبة العليا» قد انخفض بفعل التعرية والتآكل، أو أن مياه الفيضان كانت منذ أربعة آلاف سنة أكثر مما هي عليه الآن، والسبب الأول أقرب إلى الذهن؛ لأننا نشاهد في عصرنا فعل التعرية والتآكل في مجرى النهر وفي الصخور القائمة في الشلالات. هذا وقد فسر الأستاذ «فلندرز بتري» وجود مقاييس النيل عند «سمنة» و«قمة» بطريقة لا بأس بها، فيقول: «ولكن عند «سمنة» و«قمة» قد وجدت سلسلة نقوش غاية في الأهمية رغم قصرها وهي تسجل ارتفاعات النيل، والأعمال المائية العظيمة التي قام بها «أمنمحات الثالث» لتنظيم مياه النيل عند دخولها وخروجها في منخفض «الفيوم» كانت تحتاج إلى تنبيه مبكر عن ارتفاع النيل وانخفاضه، وقد كان يحفظ بذلك سجل على الصخور، في حين أنه كان من الممكن إرسال المناسيب بوساطة إشارات من تل إلى تل إلى أن تصل إلى «الفيوم» في الوقت المناسب.»

هذا ما كان من أمر الأعمال الحيوية الدنيوية التي قام بها لخير مصر في عالم الدنيا. أما ما قام به لآخرته وآلهته، فكان على جانب عظيم من الإتقان مما لم يضارعه فيه ملك آخر، وبخاصة هرمه ومعبده الجنازي، وهو ما سنتكلم عنه الآن.

(١١) هرم أمنمحات الثالث

لم يشذ «أمنمحات الثالث» عن أسلافه في إعداد هرمين لنفسه، واحد منهما ليتوارى فيه جثمانه الحقيقي، والآخر لتأوي إليه الروح «كا» ويقدَّم القربان إليها فيه، وقد كانت هذه العادة متبعة عند الملوك والأفراد منذ الدولة القديمة، وقد أقام الهرم الأول عند مدخل «الفيوم» والثاني في «دهشور»، وسنفصل الكلام عنهما فيما يأتي؛ لأنهما يعتبران من أهم الآثار التي خلفها هذا الفرعون، بل ومن عجائب الآثار التي تركها لنا الفراعنة في عصور تاريخهم كلها.

أقام «أمنمحات الثالث» الهرم الذي دُفن فيه على حافة الصحراء عند مدخل الفيوم، ويبعد هذا الهرم نحو أربعة أميال من شرقي مدينة «شدت» (الفيوم)، وعلى مسافة سبعة أميال من الجنوب الشرقي لعيون الخزان عند «بياهمو»، وعلى بُعد خمسة أميال غربي هرم «سنوسرت الثالث» في «اللاهون»، وأطلق عليه اسم «نفر أمنمحات»، فكأنه أراد بذلك أن يشرف على الخزان العظيم الذي أنفق جزءًا عظيمًا من حياته ومجهوده لإنجازه.



شكل ٣: هرم أمنمحات الثالث «حجرة الدفن».

وقد أقام هذا الهرم من اللبن، ثم كساه الحجر الجيري كما فعل أسلافه في هذه الأسرة، ويبلغ طول كل ضلع من قاعدته ثلاثمائة وخمسين قدمًا، أما ممراته الداخلية فقد افتن في نحتها وبنائها لتضليل اللصوص الذين قد يأتون يومًا ما لنهب الذهب والمجوهرات التي دُفنت مع الجثة، وقد بُنيت هذه الممرات من الحجر الصلب.

(١١-١) التفنن في إخفاء حجرة الدفن

وكان أول عمل خالف به من سبقه من ملوك الدولة القديمة أن جعل المدخل في الجهة الجنوبية من الهرم بدلًا من وضعه في الجهة الشمالية كالمعتاد، حتى لا يهتدي اللصوص بسهولة إلى غرضهم فيصرفون وقتا طويلًا في البحث عنه في هذه الجهة المعتاد وضعه فيها، ومن ثم صنع سلمًا طويلًا ينحدر إلى حجرة تظهر للصوص أنها مؤدية لحجرة الدفن، ولكن الواقع أن سقف هذه الحجرة كان قد بُني بانحدار جانبي وفيه فتحة لها ممران: أحدها يمتد مستقيمًا، والثاني يتحول نحو اليمين، وهذا الممر الأخير كان يظهر للصوص أنه ممر مضلل وحسب؛ لأنه قد بقي مفتوحًا، وينتهي بحجرة خالية، أما الممر الثاني فكان مغريًا؛ لأنه كان قد سُد بإحكام بأحجار مرصوصة، كأنه يؤدي إلى الحجرة التي خبئ فيها الكنز الذي يصاحب الجثة، ولكن هذا الممر رغم ذلك قد

انتهى عند فحص اللصوص له بالخيبة؛ إذ قد وضعت هذه السدادات لتضليل اللصوص، ولتضييع ما لديهم من قوة وجهد للوصول إلى حجرة الدفن الحقيقية هباء، والواقع أن الممر الذي كان مفتوحًا جهة اليمين كان هو الممر المؤدي إلى حجرة الدفن، وقد قلنا إن هذا الممر أيضًا قد انتهى بحجرة خالية، ولكن كان يوجد هنا أيضًا سقف منحدر يؤدي إلى ممر علوي يسير نحو الشمال وينتهي ثانية بالصخر الأصم، ولكن عثر على شرك مخفي في السقف يؤدي إلى ممر ينتهي ببئر عميقة كان يأمل اللص أن ينزل فيها وهو مملوء بالأمل، ولكن هذه البئر تنتهي بلا شيء، وبعد ذلك لوحظ أن الجدار الذي على يمين هذه الحجرة وهو الذي يقوم بين البئرين، كان مبنيًّا بقطع من الأحجار يخيل أن الدفن تحصن وراءها، ولكن كشف أن هذه كانت خدعة، وأن الباب الحقيقي إلى حجرة الدفن تؤدي إليه فتحة أرضية، وهو موقع قد أحكم انتخابه بطريقة تجعل كل حيل اللصوص تنفد أو تعوقهم بقدر المستطاع؛ لأن كل الشراك الأخرى التي نُصبت لهم كانت في السقف، وهذه الفتحة التي عثر عليها في الأرض تؤدي إلى حجرة الدفن بوساطة ممر قصير، ولكن اللصوص وجدوا أن المدخل كان مسدودًا بحجر ضخم يبلغ زنته خمسة وأربعين طنًّا أعد لإنزاله في مكانه بعد الدفن مباشرة.

وقد نُحتت حجرة الدفن في الصخر الأصم الذي كان يرتفع هنا بمساواة الأرض التي أقيم عليها الهرم، وقد وضع في تجويف هذه الحجرة المستطيلة الشكل كتلة واحدة من حجر الكوارتسيت المصقول، وهذه الكتلة نفسها كانت قد أفرغت بدقة فائقة حتى أصبحت تكوِّن بنفسها حجرة ذات جدران أربعة ورقعة، فكان مثلها كمثل حوض طوله اثنتين وعشرين قدمًا وعرضه ثمانِ أقدام، وسمكه قدمان، وكان يزن بعد الفراغ من نحته نحو مائة وعشرة أطنان، وفي وسط هذه الحجرة الجميلة المؤلفة من حجر واحد وضع التابوت المصنوع كذلك من حجر الكوارتسيت المصقول، أما غطاء هذه الحجرة فكان مركبًا من ثلاث كتل من الحجر نفسه، واحدة منها كانت تسد المدخل، وذلك بإنزالها من أعلى، بعد أن وضع الجسم في مخدعه في تابوت مسطح الجوانب ومحلًّى بالزخارف وله غطاء مقبب، وفوق هذه الحجرة أقيم بناء الهرم الذي كان يخترقه عدة ممرات إلى حجر معقدة ملتوية، وهي التي وصفناها فيما سلف، (انظر شكل ٣).

(١١-٢) دفن الأميرة «بتاح نفرو» في مقبرة والدها «أمنمحات الثالث»

وبعد الانتهاء من بناء هذا القبر المدهش بمدة قصيرة فَقَد هذا الفرعون ابنته الأميرة «بتاح نفرو» التي كانت على ما يظهر أعز بناته.

ويظهر أنه رأى أكبر عزاء له في أن يجعل مضجعها الأخير في الضريح الذي بناه لنفسه، فكان هذا عملًا فريدًا في العادات الجنازية المصرية، وكان غرضه أن يجتمع روحها مع روحه في حجرة واحدة، من أجل ذلك أمر بصنع تابوت لها يتألف من ثلاثة أحجار من «الكوارتسيت»، وُضع في الفراغ الذي تخلف بين قاعدة تابوته وجدران الحجرة ودُفنت فيه، ولما مات الفرعون دفن بجوارها بطبيعة الحال، ولكن بعد مضي زمن انقض اللصوص الذين كان يُخشى بأسهم على الهرم، فضلوا السبيل بما أقامه لهم الفرعون من الأحابيل والحيل المضللة مدة من الزمن، ولكنهم في نهاية الأمر اهتدوا إلى حجرة الدفن، وسرقوا كل ما كان مع الجثتين من ذهب ومجوهرات ثم أتلفوها، وما تبقى أشعلوا فيه النار، ولم يتركوا إلا قطعًا صغيرة عثر عليها «بتري» في أيامنا، وهذه القطع تشمل بعض قطع من أواني المرمر والأطباق ونقش عليها اسم الفرعون، هذا إلى صندوقين من حجر الكوارتسيت لتوضع فيهما أواني الأحشاء، ومائدة قربان من المرمر نُقش عليها اسم الأميرة. (Petrie, “Kahun” P. 12; “History”, Vol. I, P. 197).

مائدة قربان الأميرة «بتاح نفرو»

ويلاحظ في نقوش هذه المائدة ما يكشف لنا عن اعتقاد خرافي غريب منذ الدولة القديمة كما أشرنا من قبل، وذلك أن المصري كان يعتقد أن كل صورة منقوشة أو ملونة لها كيان روحي؛ أي إنها تعيش بمثابة كائن حي في عالم الأرواح؛ حيث تسكن روح المتوفى، وكان المَثَّال نحاتًا أو رسامًا أو نقاشًا يُسمى في اللغة القديمة «سعنخ» (المحيي)؛ أي الذي يجعل الشيء يحيا، ولما كانت معظم الإشارات المصرية القديمة تأخذ شكل حيوانات وطيور وهوام، فإن الكهنة أخذوا يبثون في عقول القوم أن هذه الصور التي كان بعضها مضرًّا يمكن أن تصبح حيوانات أو هوام حقيقية وتلحِق بالمتوفى الأذى، أو تأكل ما يقدَّم له من القربان، من أجل ذلك نجد، على مائدة القربان التي عثر عليها في حجرة دفن، الأميرة أن الحيوانات والهوام التي تتركب منها الألفاظ المنقوشة عليها قد رُسمت مقطوعة أو مبتورة حتى لا يلحق بالمتوفى أي أذى، وهذه العادة نجدها شائعة منذ عهد

الدولة القديمة كما ذكرنا، وبخاصة في متون الأهرام المنقوشة على جدران حجر دفن الملوك في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة.

(١٢) هرم «أمنمحات الثالث» في «دهشور»

أما الهرم الثاني الذي أقامه، فقد انتخب له «أمنمحات» موقعًا في الصحراء عند «دهشور» القريبة من جنوبي «منف» وكذلك بالقرب من هرم والده «سنوسرت الثالث» (De Morgan, "Dahchour", Vol. II, Pls. 1, XVI, XVII)، وهو بناء ضخم له روعته، أقيم من اللبن وكُسي بالحجر الجيري الذي لم يبقَ الآن منه شيء، وكان مدخله من الجهة الشرقية خلافًا للمعتاد أيضًا، وقد كان له ممرات داخلية معقدة تؤدي إلى حجرة الدفن حيث يوجد تابوت فاخر، وقد وجدت قمة هذا القبر الهرمية الشكل والمصنوعة من قطعة واحدة من الجرانيت الأسود ملقاة بجواره، وقد نُقش على جوانبها اسم الملك وصورة الشمس المجنحة، وهي موجودة الآن بالمتحف المصري.

(Breasted, "The Dawn of Conscience", Fig. 6 facing P. 58).

ولم يوجد بطبيعة الحال؛ أي أثر لجسم الفرعون؛ لأن هذا الهرم كان قد أقيم لروحه «كا» كما سبق ذكره.

(١٣) مقبرتا الأميرتين ومحتوياتهما

وبجوار هذا الهرم عثر «دي مرجان» على مقبرتي أميرتين، وهما ابنتا هذا الفرعون، واسم الأولى «حتحور حتب»، واسم الثانية «نب حتب خرد»، وقد عثر في قبريهما على كمية من المجوهرات الفاخرة المحفوظة الآن بالمتحف المصري، غير أن صياغة هذه الجواهر التي عثر عليها في «دهشور» و«اللاهون» تقل في جودتها وإتقانها عن التي عثر عليها في العهود السالفة من هذه الأسرة؛ إذ يلاحظ أن الصدريات فيها مزدحمة بالرسوم، أو هي تقليد قبيح لسابقاتها، فيلاحظ أن ترصيع الأسوار قد استعمل فيه عجينة زرقاء بدلًا من اللازورد، وكذلك استعمل الفخار المطلي في ترصيع الصدريات بدلًا من اللازورد وحجر «الأمزون» (De Morgan "Dahchour", Vol. I, P. 128; Vol. II, P. 107).

(١٤) معبد الهرم «اللبرنت»

أما المعبد الجنازي الخاص بالهرم الذي دُفن فيه الفرعون فهو ذلك البناء الهائل الذي بناه الفرعون على الجانب الأيسر منه، وكان يُغطي مساحة من الأرض، يبلغ طولها نحو ألف قدم وعرضها نحو ثمانمائة قدم، وهو في الواقع عبارة عن مجموعة من المحاريب والأبنية والردهات، وصفها كُتاب الإغريق الأقدمون عند زيارتهم لمصر ونعتوها بلفظة «لبرنت»، وهذا هو الاسم الذي أطلقه اليونان على مجموعة من المباني في «كنوسوس» في جزيرة «كريت».

ويرجع عهدها لزمن حكام «المنوان»، وهذا البناء المصري يعده اليونان أعظم أعجوبة في مصر، وقبل أن نذكر ما كتبه اليونان عن هذا المبنى نريد أن نورد ما كتبه عنه الأستاذ «ينكر» في تاريخه (Junker, "Agypten" P. 96)، وقد وافقه في هذا الرأي الأستاذ «هول» (Hall, "Ancient History of the East", Fig. 154) و«بتري» أيضًا قال: إن البناء المسمى «باللبرنت»، هو في الحقيقة المعبد الجنازي الذي أقامه «أمنحوتب الثالث» لهرمه الواقع عند مدخل الفيوم، وتبلغ مساحته ٣٠٠ × ٢٥٠ مترًا ويشمل خلافًا لأحجار المعبد المعتادة أماكن منفصلة للمقاطعات التي كانت تتألف منها البلاد، وهذه المقاطعات كانت ترغب في أن تمثل في إقامة الشعائر الدينية بجوار الفرعون المتوفى، وقد وجدنا لهذا نظائر بصورة مصغرة في ردهة معبد الفرعون «زوسر» وفي معبد «منكاو رع» «معبد الوادي»، أما «بتري» فيقول (Petrie History, Vol. I, P. 198): إن جزءًا من هذا البناء على الأقل كان معبدًا للفرعون. والآن نعود إلى ما قاله «هرودوت» في وصف هذا المعبد فاستمع لما يقول.

(١٤–١) اللبرنت معبد «أمنحوتب الثالث» كما وصفه هرودوت

تقع «اللبرنت» بعد بحيرة «موريس» بقليل بالقرب من المكان المسمى «كروكود بوليس» وهو الاسم اليوناني لمدينة شدت (أي الفيوم الحالية)؛ وقد زرت هذا المكان ووجدته يفوق كل وصف؛ وذلك لأنه لو جُمعت كل الجدران والأعمال الأخرى العظيمة في مكان واحد، فإنها لا تضاهي هذه «اللبرنت» لا في ضخامة العمل ولا في مقدار النفقات، ومع ذلك فإن معبد «إفسوس» بناء يستحق الذكر، وكذلك معبد «ساموس»؛ هذا إلى أن الأهرام كذلك تفوق الوصف، وتضارع عددًا كثيرًا من أعظم مباني الإغريق، ولكن

«اللبرنت» تفوق الأهرام، فهي تشتمل على اثني عشر بهوًا كلها مسقوفة ولها «بوابات» تقابل الواحدة الأخرى تمامًا، ست منها تتجه شمالًا، وست تتجه جنوبًا، ويحيط بالبناء كله جدار واحد. ويوجد في المبنى نوعان من الحجرات، نصفها تحت الأرض، والنصف الآخر على سطح الأرض، والأخيرة مبنية فوق الأولى، والعدد الكلي لهذه الحجرات ثلاث آلاف وخمسمائة من كل من النوعين، ولقد مررت بنفسي في الحجرات العلوية ورأيتها بعيني رأسي؛ وما أقوله عنها هو نتيجة ملاحظتي الشخصية، أما الحجرات السفلية فإني أتكلم عنها حسبما سمعت؛ وذلك لأني لم أفلح في إغراء الحراس ليجعلوني أشاهدها؛ لأنها تحتوي على ضريح[٥] الملك الذي بنى «اللبرنت» كما يقصون، وكذلك تحتوي على أضرحة التماسيح المقدسة، وهكذا يمكنني أن أتكلم فقط بطريق السماع عن الحجرات السفلية، أما الحجرات العلوية فقد رأيتها بعيني رأسي ووجدت أنها تفوق أي شيء آخر أنتجه الإنسان؛ وذلك لأن الممرات داخل البيوت، والمنحنيات المتنوعة المؤدية للطرق الضيقة التي تخترق الردهات، بعثت في نفسي إعجابًا لا حد له، وبخاصة عندما كنت أنتقل من الردهات إلى الحجرات، ومن الحجرات إلى قاعات العمد، ومن قاعات العمد إلى بيوت جديدة، ومن هذه ثانية إلى ردهات لم تُرَ من قبل، وكان السقف مثل الجدران كلها منحوتة بأشكال، وكانت كل ردهة محاطة بعمد مبنية من الحجر الجيري الأبيض المرصوص بعضه فوق بعض بإحكام ودقة، وفي نهاية طرف «اللبرنت» أقيم هرم يبلغ ارتفاعه نحو ٢٤٠ قدمًا وقد نقش عليه أشكال كثيرة، ويدخل فيه الإنسان بممر تحت الأرض (Herodotus, Book II, Par. 148–149).

(١٤-٢) اللبرنت كما وصفه «استرابون»

أما «استرابون» فيقول عن هذا المبنى ما يأتي: «ولدينا هنا كانت «اللبرنت» وهو عمل يضارع الأهرام، ويتصل به قبر الملك الذي بنى «اللبرنت» وبعد استئناف السير بعد المدخل الأول للقناة (بحر يوسف) على مسافة ٣٠ أو ٤٠ ستاديا؛ يصادف الإنسان رقعة من الأرض على هيئة مائدة فيها بلدة وقصر عظيم مؤلف من عدة قصور عددها يوازي

[٥] لقد كان «أمنمحات الثالث» موحدًا مع الإله «سبك» الذي يمثل صورة تمساح في العهد الإغريقي الروماني كما سيجيء بعد.

عدد المقاطعات التي كانت موجودة في القطر المصري سابقًا، وكذلك يوجد عدد مساوٍ لذلك من القاعات، محاطة بعمد يلاصق بعضها بعضًا، وكلها في صف واحد وتؤلف مبنًى واحدًا كأنه جدار طويل فيه القاعات مقابلة للجدار، وأمام المداخل طرق عدة طويلة مغطاة لها ممرات متعرِّجة يوصل بعضها للبعض الآخر، حتى إنه لا يمكن لأجنبي أن يجد طريقه إلى القاعات أو يخرج منها بدون دليل.»

والأمر المدهش هو أن سقف كل من هذه المساكن يتألف من حجر واحد، وأن الطرق المسقوفة في كل امتدادها كانت مسقوفة بهذه الكيفية؛ أي بحجر واحد عظيم الحجم جدًّا يشذ عن حد المألوف دون أن يتخلل ذلك خشب أو أية مادة أخرى، وعندما كان يصعد الإنسان إلى السقف الذي لم يكن مرتفعًا ارتفاعًا عظيمًا؛ لأنه كان يتألف من طابق واحد، كان يرى الإنسان ميدان حجر مؤلف من هذه الكتل، وعندما ينزل الإنسان من السطح ثانية وينظر إلى القاعات فإنه يراها في صف واحد مرتكزة على ٢٧ عمودًا كل منها مؤلف من حجر واحد، وكذلك الجدران كانت مبنية من أحجار لا يقل حجمها عن ذلك.

وفي نهاية هذا المبنى الذي يبلغ طوله أكثر من ستاديوم[٦] يوجد القبر، ويتألف من هرم مربع كل ضلع من أضلاعه أربع بلترا (٤٠٠ قدم) في الطول، وطول الهرم مماثل لذلك. والمتوفى المدفون يسمى «إماندس» «أَمِنمِس» وقد أكد أنه بنى مثل هذا العدد من القصور؛ لأن تلك كانت العادة لكل المقاطعات التي كان يمثلها عظماؤها، وكان يجتمع كهنتها ومعهم ضحاياهم، لأجل أن يقدموا القربان للآلهة، وكذلك ليتشاوروا في أهم مصالحهم، وكانت على ذلك تحتل كل مقاطعة القاعة المخصصة بها (Baedeker; "Egypt", "1929" P. 206).

(١٤-٣) اللبرنت كما وصفه «بليني»

وكتب «بليني» ما يأتي: «لقد بُني هذا البناء الهائل بمتانة لم يقوَ كرُّ العصور كلية على تخريبه، وقد ساعد على تخريبه أهل «إهناسية المدينة» الذين قاموا بتدمير بناء كانوا ينظرون إليه دائمًا بعين المقت، وإذا أردنا أن نفصل موقع هذا البناء وأجزاءه المختلفة

[٦] ستاديوم يساوي ٥٨٢ قدمًا.

استحال علينا ذلك؛ لأنه مقسم إلى مناطق ومديريات تسمى كل منها مقاطعة وعددها ثلاثون، لكل منها قصر هائل مخصص بها، ويحتوي بالإضافة إلى ذلك على معابد لكل آلهة مصر، وأربعين تمثالًا «لتمسيس»، ويحتوي كذلك على عدد مماثل من المحاريب، هذا فضلًا عن هرم يبلغ ارتفاعه أربعين ذراعًا، ويشغل مساحة قدرها ستة «أرورا». وإذا ما أعيا الزائر الذهاب والإياب وصل إلى معابد معقدة في الرواقات، وبعد ذلك يوجد كذلك قاعات ولائم قائمة في قمة المصاعد المنحدرة؛ هذا إلى «بوابات» ينزل منها الإنسان بوساطة سلم يبلغ عدد درجاته تسعين درجة، وعمد في الداخل مصنوعة من الصخر البروفيري، وصور آلهة وتماثيل ملوك، وصور وحوش قبيحة، ويلاحظ أن بعض القصور قد أقيم بصورة خاصة، حتى إذا حانت لحظة فتح الأبواب يتردد صوت مخيف مثل صوت الرعد في الداخل، هذا ولا بد من اختراق الجزء الأعظم من هذه المباني في ظلام حالك.»

ولا نزاع في أن سلسلة المباني هذه التي تعد أعظم بناء أقيم في مصر في كل عصور تاريخها كانت تمثل المعبد العظيم الذي كان يقيمه الفرعون لعبادته بعد وفاته، وحوله المعابد الصغيرة التي كانت تمثل كل مقاطعة وملحقاتها كما قلنا من قبل؛ فكأنه كان يريد أن يمثل حكومته وما يتبعها في مماته كما كانت تمثل مدة حياته، وقد شاهدنا ذلك في عهد «زوسر» وعهد «منكاو رع» ولكن بصورة مصغرة (راجع مصر القديمة ج١)، أما ما يظنه بعض علماء الآثار من أنها كانت مقر حكومة البلاد في هذا العهد فظن لا يرتكز على مبررات سديدة؛ إذ قال «ويجول»: «كانت بناء ضخمًا، ولا بد أن يكون مركزًا لحكومة البلاد» (Weigall, “History” Vol. II, P. 124)، والواقع أن مقر الحكم في عهد «أمنمحات الثالث» كان في مكان يُدعى «عنخ أمنمحات» بالقرب من «اللاهون» (A. Z., Vol. 59, P. 53) أما ما يقال من أن أهالي «إهناسية المدينة» قد خربوا هذا المعبد، فقد يعزى إلى ما كان بين سكانها الذين كانوا يعبدون الإله «حرشف»، وهو إله في صورة كبش، وبين عبَّاد الإله «سبك» الذي كان يُعبد في «الفيوم» من عداء، وقد أهدى للأخير معبد «اللبرنت»، ولا غرابة في ذلك فإن «سبك» كان أكبر معبودات الفيوم التي عُني بها «أمنمحات الثالث» عناية خاصة، وهذا لا يحتم أن الجهات الأخرى كانت قد اتخذته إلهًا، بل على العكس كان يُعتبر في بعض الجهات حيوانًا ضارًّا.

(١٤-٤) بقايا «اللبرنت»

على أن ما أبقته يد التخريب على يد سكان «إهناسية المدينة» قد استعمله أهل القرون الوسطى في بناء مساكنهم، وهكذا قد بقيت «اللبرنت» تستعمل بمثابة محجر حتى قضي على البقية الباقية في بناء خط حديد «الفيوم» في خلال القرن التاسع عشر، فحينما كشف «بتري» عن موقع هذا المبنى عام ١٨٨٩ لم يجد إلا أكوامًا من شظيات الأحجار، وبعض أجزاء من رقاع بعض الحجرات، هذا إلى أجزاء من صور بعض الآلهة، وقطع من الأحجار المنقوشة، وقطع من الأعمدة، وبعض بقايا المحاريب وتماثيل الملك.
(Petrie, “The Labyrinth and Gerzeh”, Pls. XXIII–XXXII; “Hawara”, Pl. XXVII; L. D. Vol. II. Pl. 140).

ولا نريد هنا أن نفند ما جاء في أقوال الكُتاب الأقدمين من خيالات وأقاصيص أخذوها عن أدلاء عصرهم؛ لأن التفسير الذي عبر عنه أكبر علماء الآثار بأنه المعبد الجنازي للفرعون «أمنمحات الثالث» كفيل بأن يقوِّض كل الخرافات والمبالغات والمتناقضات التاريخية التي وردت في كتاباتهم، ومع ذلك لا ننكر أنهم قد أدلوا ببعض ملاحظات هامة تطابق الواقع، وبخاصة ما ذكره «هرودوت» وغيره من أن عدد الحُجر قد أقيم بقصد معين، وذلك ليكون لكل مقاطعة من مقاطعات القطر حجرة أو قاعة خاصة بها لإقامة الشعائر الدينية، وهذا في الواقع التفسير الوحيد الذي وصل إلينا من الكُتاب الأقدمين عن ماهية هذا البناء.

(١٤-٥) رأي في تفسير كلمة «اللبرنت»

ويقول «ويجول»: والظاهر أن «اللبرنت» كانت تُسمى في العهد الفرعوني «أمنمحات عنخ»؛ (أي حياة أمنمحات)، وقد يستدل على ذلك بالنقش الذي عثر عليه في محاجر «وادي الحمامات» المؤرَّخ باليوم الخامس عشر من الشهر الأول الفصل الثاني من السنة التاسعة عشرة من حكم هذا الفرعون، ذاكرًا أن الحملة قد أرسلت لإحضار آثار من الحجر الأسود الجميل من «وادي الحمامات» «لأمنمحات عنخ» لأجل معبد الإله «سبك»، وهذه الآثار هي عشرة تماثيل، طول كل واحد منها خمس أذرع، كل واحد منها على عرش، وكلها قد قطعت في هذا العام (L. D. Vol. II, Pl. 138)، ويعتقد الدكتور «هول» أن هذا الاسم هو تحريف لاسم الفرعون «نيماعت رع» الذي حُرف في اليونانية إلى «لمارس»

Lamaris أو «لبارس» (Journal of Hellenic Studies XXV; Hall, “Ancient Labris History” P. 153 note 3); غير أن المؤرِّخ «ويجل» تقدم في خطوة أخرى فقال: «إن لفظة «لبرنت» تقابل لفظة «أمنمحات عنخ» مع إحلال «نيماعت» وهو الاسم الأول من أسماء التتويج لهذا الفرعون بدلًا من أمنمحات»، وبذلك أصبح اسم هذا المعبد: «نيماعت عنخ»، ومن ثم أخذ اسم «اللبرنت» (Weigall, “History”, Vol. II, P. 124).

غير أن هذا التفسير بعيد عن الفهم بعض الشيء، وإن كان من الممكن قبوله شكلًا إذا أطلقناه على مقر حكم هذا الفرعون كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد ظن البعض استنادًا على أقاصيص «هرودوت» أن ملوك الأسرة السادسة والعشرين قد أقاموا هنا أبنية في هذا المكان، إما بصفة إصلاحات للمعبد القديم، أو إضافات له، غير أن البحوث والكشوف التي قامت في هذه الجهة لم تسفر عن أي عمل يبرر هذا الزعم، بل كل ما نعرفه أن «أمنمحات» قد ظل يُذكر بالفخار والاحترام في «هوارة» إلى عصور البطالمة، فقد سميت باسمه (Petrie, “Hawara”, Pl. V, 4–11) في ذلك العهد، ولا يزال كذلك جزء من هذا الإصلاح الذي قام به كل من «بطليموس» و«كليوبترا» موجودًا في مكانه الأصلي، ولا بد أن تاريخه يرجع على أقل تقدير إلى عام ١٩٣ق.م، هذه هي أهم أعمال هذا الفرعون العظيم من الإصلاحات الهامة لبلاده.

(١٥) احتفال «أمنمحات الثالث» بعيد «سد»

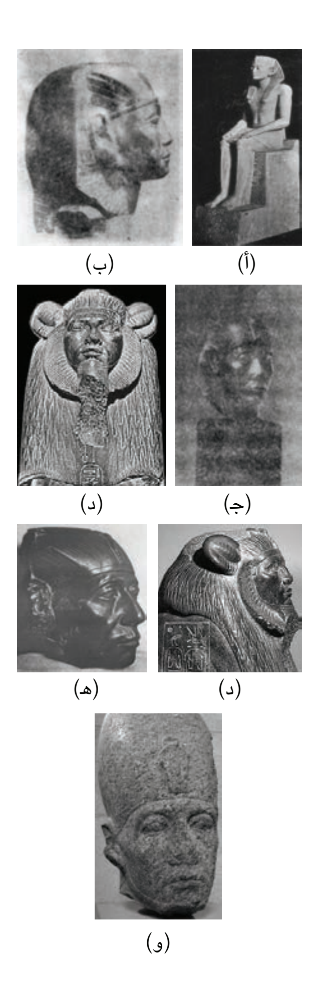
وقد احتفل هذا الفرعون العظيم بعيد «سد» وقد أقام هذا الاحتفال في العام الواحد والثلاثين من حكمه، وهذا ظاهر مما جاء في لوحة محفوظة الآن بمتحف بوستون بالولايات المتحدة واللوحة لمحارب اسمه «سعنخ» (Weigall, “History” Vol. 11, P. 132) وهي تنوِّه بهذا العيد، ويستدل مما جاء في ورقة «تورين» بعد إصلاحها أن هذا الفرعون العظيم حكم البلاد نحو تسع وأربعين سنة، ومات في خلال الخمسين من توليته العرش، غير أن أحدث تاريخ له وجد على الآثار هو السنة السادسة والأربعون، وقد جاء ذكر ذلك في ورقة «كاهون»؛ (Griffith, “Kahun Papyri”, XIV. 9.) والظاهر أنه أشرك ابنه «أمنمحات الرابع» في حكم البلاد في أواخر أيامه، فقد وجد اسماهما جنبًا لجنب في نقش، وقد ظهر اسمه واسم «أمنمحات الرابع» مرات عدة على جدران معبد «كوم ماضي» الذي يُنسب لهما معًا كما سيجيء بعد. (Prisse, “Monuments Egyptiens” P. 9).

(١٦) مباني «أمنمحات الثالث» في معبد جدِّة أمنمحات الأول في الفيوم

وتدل الكشوف الحديثة على أن «أمنمحات الثالث» قد أقام حجرة واسعة في المعبد الذي يحتمل أن «أمنمحات الأول» قد أقامه في مدينة «شدت» (الفيوم)؛ إذ عثر الأستاذ «لبيب حبشي» كبير مفتشي الوجه البحري الآن على بقايا أعمدة في «كيمان فارس» اتضح أنها كانت لقاعة أقامها هذا الفرعون، وقد وجد عليها نقوشًا قال عنها: إن أهمية هذا المتن تنحصر في أنه يظهر أمامنا النشاط الذي أظهره «أمنمحات الثالث» لتزيين هذه المدينة (الفيوم) التي شيدها جدُّه «أمنمحات الأول»، فنعلم أن «أمنمحات الثالث» قد أمر بإقامة قاعة واسعة أعمدتها ورقعتها من الجرانيت الوردي، وأبوابها من الذهب النضار، وهذه القاعة كانت قد أضيفت إلى معبد يحتمل جدًّا أن بانيه هو «أمنمحات الأول» (A. S. Vol. XXXVII, PP. 85–95).

(١٧) أخلاقه من فن عصره

وإذا كان الإنسان يمكنه أن يقرأ أخلاق الرجال من صورهم، فإن لدينا سلسلة صور لهذا الفرعون العظيم تحدِّثنا بوضوح تام عما وراء تلك الوجوه من صفات وسجايا، والواقع أنها سلسلة قل أن يوجد مثلها في الفن المصري لما تشف عنه من صادق التعبير الذي تتمثل فيه الطبيعة وتتجلى بكل معانيها، ولا غرابة في ذلك فإن الفن المصري قد بلغ في عصره لمدِّة قصيرة درجة من محاكاة الطبيعة الصافية، لم يتسنَّ له أن يصلها ثانية إلا في عهد «إخناتون»، وقد بلغ من القوة مرتبة لم تتأتَّ له بعد. وقد بدأ التقدم الفني في هذا العصر على يد حفاري الفرعون «نب حبت رع منتو حتب الثاني»، واستمر في طريقه نحو الكمال في عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة، التي يمكن أن يقال عنها إنه في عهدها وصل الفن المصري إلى أوجه، فقد كان ذوق المفتنين في الأسرة الثانية عشرة يدعو إلى الإعجاب؛ فهم سواسية مع زملائهم «اليابانيين» في حاسة التنسيق والرقة، كما أنهم يحاكون «اليونان» في حاسة التوازن والشبه، ولا نزاع في أن أحسن ما وصلت إليه يد المفتن في الأسرة الثامنة عشرة يعد سوقيًّا، إذا ما قُرن بما أخرجته يد مفتن الأسرة الثانية عشرة، فمقابر «بني حسن» تعد وحيًا جديدًا للذين قد اقتبسوا معلوماتهم من المباني الضخمة المنكرة القائمة في «الكرنك» أو «أبو سمبل»؛ إذ ليس شيء يعادل ردهة مقبرة «أميني» المتناسبة الأجزاء الرائعة التركيب بما فيها من أعمدة جميلة في كل ما كشف



شكل ٤: (أ) أمنمحات الثالث في مقتبل عمره. (ب) أمنمحات الثالث في كهولته. (جـ) رأس لأمنمحات الثالث من حجر الثعبان (في برلين) يمثل الشيخوخة المبكرة. (د) «أمنمحات الثالث» في صورة بو الهول. (هـ) تمثال «أمنمحات الثالث» من حجر الأبسيديان يمثله في شيخوخته المتقدمة. (و) «تمثال أمنمحات الثالث» من العرابة في شيخوخته الفانية.

عنه منحوتًا في الصخور المصرية في الأزمنة التي توالت، هذا إلى دقة محاكاة الطبيعة في الجم الغفير من جماعات المصارعين الذين رسموا على الجدران حول المدخل المؤدي إلى الحجرة الداخلية، وهي لا يضارعها في جمالها إلا رسوم الأواني الإغريقية في أزهر عهدها.

على أن مقابر هذا العصر الأخرى لا تقل عنها في روعتها وجمالها، وكذلك حرفه الصغيرة يظهر فيها التفوق في الدقة التي لا تجارَى، فالقطع الفنية الصغيرة من العاج والجعارين والصياغة لا مثيل لها، وبخاصة الصدريات الذهبية والمجوهرات الأخرى المطعمة بالأحجار الجميلة التي كُشف عنها في عهد «سنوسرت الثالث» وسلفه من ملوك هذه الأسرة، وهي التي كشف عنها في «دهشور» كما أسلفنا، ولم نجد ما يضارعها في الأزمان التالية من عهود الفراعنة.

أما صور الملوك المنقوشة على الجدران وتماثيلهم المنحوتة في الأحجار الصلبة فإنه رغم تصوير أجسامهم بهيئة رسمية، وتمثيلها حسب قواعد مرعية ثابتة منذ عهد بناة الأهرام، فإن وجوههم تدل على قوة التمثيل بدرجة لم تضارَع حتى في عهد الأسرة الرابعة. ولا يمكن للمرء أن يناقش صدق تصوير هذه الوجوه بغيرها، فالمثَّال الذي صوَّر الملك «منتو حتب» في الدير البحري قد وضع المثل الأول، ثم حذا حذوه أولئك المثالون الذين أبرزوا لنا وجوه «سنوسرت الأول» في «قفط» و«سنوسرت الثالث» في سلسلة من تماثيله التي وجدت في «الدير البحري» (Naville, Deir el Bahari XI Dyn. Vol. 11, Pl. XIX, Ch. 111) ثم فاقوا المثل الذي احتذوه. ومجموعة صور للفرعون «سنوسرت الثالث» العظيم التي عثر عليها في الدير البحري تمثله في أدوار مختلفة من حياته منذ شبابه إلى شيخوخته، ولدينا رأسان لهذا الفرعون من الجرانيت الأحمر من «العرابة» و«الكرنك» (Petrie “Abydos” Pl. LV. PP. 6, 7) يمثلانه في شيخوخته بوجه يسترعي النظر في كل هذه الصور، لما فيه من تقاطيع تدل على الحياة، وما ينطوي عليه من تمثيل تاريخي لا يحتاج إلى إيضاح، ولكنه مع ذلك لا يصل إلى مرتبة مثل محيا «أمنمحات الثالث» الذي كان يمتاز بتقاسيم خاصة؛ إذ يمكن الإنسان كما أسلفنا أن يقرأ أخلاقه من سلسلة صوره التي وصلتنا (Weigall, “Ancient Egyptian works of Art” PP. 95–103).

فنجد أولًا تمثالًا جميلًا في متحف القاهرة يمثله وهو شاب في مقتبل العمر (انظر شكل ٤أ)؛ وفي مجموعة «أسكار رفائيل» (بلندن) يوجد رأس صغير من حجر الأبسيديان

يمثله في كهولته حينما بدت ملامح فمه وذقنه يظهران بعض الحزم والصلابة (انظر شكل ٤ب) وكذلك حينما يلوح في عينيه التفكير. أما الدور الثاني من حياته فيمثله رأس صغير نُحت في حجر الثعبان وهو موجود الآن في متحف برلين، فيشاهد فيه أن جفن العين قد أصبح أثقل من ذي قبل، ويُرى في تقسيم وجهه نظرة الرجل الذي أنهكته الهموم (انظر شكل ٤ج)، وكذلك التمثال الصغير الموجود الآن بمتحف الهرمتاج في «بتروغراد» فإنه يمثله في نفس هذا الدور من حياته، ومن المحتمل أن تمثال «بو الهول» الفاخر الذي عُثر عليه في «تانيس» والمحفوظ الآن بمتحف القاهرة ينتسب إلى هذا الطور من حياته أيضًا، (انظر شكل ٤د)؛ ثم لدينا تمثال كامل في متحف برلين يمثله لنا في صورة رجل ربعة ينم عن وجه عبوس. كما أن تمثال «الكرنك» المحفوظ الآن بمتحف القاهرة يظهره في قصره المعهود، في حين أن وجهه هنا أخذت ترتسم عليه ملامح الكآبة، ويشاهد فيه هذه النظرة التي تنم عن الحزن السافر؛ وفي تمثاله الجميل المنحوت في حجر الأبسيديان في مجموعة «ماك بريجور» يلاحظ فيه أن الجفنين قد ثقلا، وأن تجاعيد غائرة قد خطت تحت عينيه الحزينتين، هذا إلى فم جامد، ووجه قد طغى عليه الشحوب وغمرته الهموم (انظر شكل ٤هـ)، وأخيرًا يوجد له تمثال من الجرانيت لم يبقَ منه إلا الرأس، عثر عليه «بتري» في «العرابة المدفونة»، وهو يضع أمامنا آخر مرحلة من مراحل حياة هذا الفرعون، حيث نشاهده رجلًا مسنًّا ذا عينين غائرتين في محجريهما، وملامحهما، ارتسم عليها حزن عميق يعبر عن دنوِّ الأجل ونهاية المطاف في هذا العالم الذي ملأه مجدًا وفخارًا (انظر شكل ٤و)، ومن هذه التماثيل يظهر أمامنا حقيقتان: أولاهما هي أن هذا الفرعون على ما يظهر كان غير متمسك بالتقاليد، فلم يمانع في أن يصوره مثالوه كما هو على حقيقته لا كما كان يحتمه العرف، وهو أن يظهر الفرعون صورة ناطقة تُرسم على فمه ابتسامة هادئة وجسمًا جامدًا لا حركة فيه ولا حياة، والواقع أنه فعل ما لم يفعله غيره من أجداده على قدر ما وصلت إليه معلوماتنا؛ إذ قد سمح لرعاياه أن يروه على حقيقته، شاحب المحيا مظلمه، دون أن يرتسم على وجهه تلك الابتسامة الهادئة المتغطرسة التي كان يُظن أنها رمز الملكية وعنوانها.

والحقيقة الثانية يظهر أنه استخدم مثَّالين أحذق من أولئك الذين عُرفوا من قبل، ولا نزاع في أن رأس مجموعة «ماك جريجور» وأحسن تماثيل «بو الهول» التي وجدت في «تانيس» تعدُّ قطعًا فنية من الطراز الأول في الجودة، وتضارع في عظمتها أي صورة فنية في أي عصر، وفي أي بلد.

والباحث في صور ملوك الأسرة الثانية عشرة وما انطوت عليه من حزن وآلام وبأس وقنوط وجرأة ورزانة، يستدل على أنها كانت في الواقع تمثل حالة العصر الذي وجدت فيه؛ إذ كان كله عصرًا مملوءًا بالريبة والشكوك إلى حد أن ذلك الشعور قد انعكست ظلاله على أعظم أنواع الفن في ذلك العصر، وأعني به فن النحت والتمثيل، وبخاصة في ملوكهم وعلى رأسهم «أمنمحات الثالث» الذي سار بالبلاد إلى القمة في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية، والزراعية، والدينية، والفنية.

(١٨) تأليه الفرعون «أمنمحات الثالث»

لقد كان «أمنمحات الثالث» من الملوك المصريين الذين بقي اسمهم معروفًا عند الكُتاب الإغريق، فقد كان يُذكر في البردي الإغريقي باسم «لامارس» ... إلخ (Mares, Labares, Lamares).

وهذه التسمية تحريف للقَبِه «نيماعت رع» كما ذكرنا آنفًا، وتدل شواهد الأحوال على أن «أمنمحات» أصبح ضمن الفراعنة الذين كانوا موضع تقديس بعد موتهم، بل انتهى الأمر بوضعهم في مصاف الآلهة، واستمرت هذه العبادة إلى العصور المتأخرة من تاريخ مصر كما سنرى، وقد كان «فلكن»[٧] أول من وجد اسم «بورامارس» تحريف «نيماعت رع» باسم «أمنمحات»، وقد خالجه الشك في هذا، ولكن ناصره في رأيه كثير من العلماء، وبقيت الحال كذلك إلى أن ظهرت نتائج الحفائر التي قام بها «فوليا نو» في مدينة «كوم ماضي» من أعمال «الفيوم»، فجاءت بالبرهان القاطع لرأي «فلكن» وذلك بما كشف عنه في جزء المعبد الذي أقيم في العهد الإغريقي الروماني.[٨]

(Vogliano, Primo Rapporto degli scavi … nella Zona di Madinet Madi "Milano, 1936"; secondo Rapporto Milano, 1937).

ولم تدل نتائج هذه الحفائر على أن «بورامارس» Porramarés كان موحدًا مع «أمنمحات الثالث» وحسب، بل على أن «إزيدور» كان يعلم تمام العلم بتوحيد الاسمين، وقد عثر على لوحة لا نعلم مصدرها، وهي تدل بوضوح على بقاء عبادة هذا الفرعون

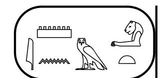
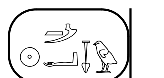
---

[٧] Gott. Gel. Anz. (1895) PP. 157; 158; A. Z. Vol. XLIII, (1906) P. 84.

[٨] A. S. Vol. XL, P. 553.

في العهود المتأخرة وهي تحمل اسمه «نيماعت رع» ويلاحظ أن «أمنمحات» كان يوحد على هذه اللوحة مع الإله «سبك» وهو إله الفيوم، وإذن فلا غرابة في هذا التوحيد؛ إذ قد وجد فعلًا أن «أمنمحات» متحد فعلًا مع «سبك» في هذه اللوحة، وكذلك في النقوش، هذا فضلًا عن أن الإله «سبك» كان في عهد «أمنمحات الثالث» يحتل مكانة عظيمة، وبخاصة في نقوش معبد مدينة «كوم ماضي»؛ إذ نجد في الواقع اسمه أبرز من اسم الإلهة «رننوتت» التي أقيم من أجلها هذا المعبد، وها نحن أولاء في نهاية المطاف نرى أن «أمنمحات» الرجل العظيم يفرض على الشعب احترامه وتعظيمه لا بالقوة والعنف، بل بما خلفه من عظيم الآثار الباقية التي أفادت البلاد، وخطت بها إلى الأمام لدرجة أنهم قد وحدوه مع أعظم الآلهة في عصرهم، بل تخطوا ذلك فحذفوا كلية اسم الإله الأصلي، ونقشوا مكانه اسم الملك الذي خلق لهم الإقليم الذي فيه يعبد خلقًا جديدًا. ولا غرابة في ذلك فإن «أمنمحات الثالث» يعد بحق محيي إقليم الفيوم ومغدق نعمة مياه الفيضان على أرض الكنانة.

أمنمحات الرابع (١٨٠١–١٧٨٨ق.م)

(١) حالة البلاد عند توليته الملك

بعد وفاة «أمنمحات الثالث» العظيم يظهر أن «أمنمحات الرابع» ابنه قد انفرد بالملك، وقد كان لقب تتويجه «ني ماع خرورع».

وتدل الكشوف الحديثة على أنه كان مشتركًا حقيقة مع والده في الملك، غير أن مدة هذا الاشتراك لم تحدَّد بعد؛ ويقول البعض إنه لم ينفرد بالملك وحده.

ولا نزاع في أن «أمنمحات الثالث» قد ترك لابنه مملكة عظيمة المنزلة، ثابتة النظام، بفضل جمع السلطة كلها في قبضة الفرعون، وتلاشي أمراء المقاطعات الوراثيين جملة من البلاد، واستبداله بهم موظفين تابعين للحكومة الرئيسية، غير أن هذا النوع من الحكم المطلق له عيبه؛ فإن السلطة المطلقة إذا جُمعت في يد فرد واحد قوي، ثم جاء خَلَفه ضعيف الشكيمة خائر القوة كان ذلك نذيرًا بانتقاض ذلك البناء الضخم الذي شيده من سبقه من الأقوياء، وتلك حال أثبتها التاريخ في كل عصوره، وبخاصة بعد أن تصعد البلاد المحكومة حكمًا فرديًّا إلى أبعد شأو لها في المدنية والتحضر والفتوح، ولقد أصبحت هذه حال البلاد المصرية بعد وفاة عاهلها العظيم «أمنمحات الثالث»؛ إذ تدل شواهد الأمور كلها على أن «أمنمحات الرابع» لم يكن بالشخصية البارزة المناضلة مثل والده وأجداده الذين كانوا يسيرون بالبلاد دائمًا إلى الأمام، نقول هذا رغم ما تركه لنا من مخلفات وآثار في طول البلاد وعرضها، تدل على نشاطه وجده اللذين كانا يتفقان مع ما أوتي من عزيمة وهمة محدودتين.



شكل ١: معبد مدينة «كوم ماضي» من عهد الدولة الوسطى.

والظاهر أن هذا الفرعون لم يشن أية حرب خارج الحدود المصرية؛ إذ لم تصلنا حتى الآن نقوش تدل على ذلك، وليس هذا بغريب، فقد ترك له والده البلاد هادئة مطمئنة في كل تخومها؛ ولذلك نرى أن «أمنمحات» قد نشط بعض الشيء بالنسبة لأسلافه في إرسال البعوث السلمية لاستحضار الأحجار والمعادن لإقامة المباني الدينية التي وصل إلينا بعض المعلومات عنها، وبخاصة المعبد الذي أقامه بالاشتراك مع والده، وهو الذي كُشف عنه حديثًا في مدينة «كوم ماضي» في عام ١٩٣٦، وقبل أن نتكلم عن بعوثه وآثاره الأخرى في البلاد، آثرنا أن نفصل القول بعض الشيء عن هذا المعبد، وتاريخ المكان الذي أقيم فيه، وأهمية البناء نفسه من الوجهة الدينية والفنية والتاريخية، وذلك لعدم صدور بيان شافٍ حتى الآن عن هذا المعبد والمكان الذي أقيم فيه.

(٢) مدينة «كوم ماضي» ومعبدها

في عام ١٩٣٦ كشفت بعثة جامعة «ميلانو» معبدًا صغيرًا يرجع تاريخه للأسرة الثانية عشرة أثناء أعمال الحفر التي قام بها الأستاذ «فوليانو» في مدينة «كوم ماضي» الواقعة جنوب غربي «الفيوم»، ويرجع تاريخ إقامة هذا المعبد إلى أيام الحكم المشترك للفرعونين «أمنمحات الثالث والرابع»، وتدل الآثار الباقية على أن دهليز هذا المعبد قد اختفى. ويتألف المعبد من صرحين على الجانبين، تتوسطهما قاعة عمد تتصل بباب عظيم وممر

ضيق إلى ثلاث مقاصير أو هياكل صغيرة لا يزال سقفها محفوظًا حتى الآن، وكانت مخصصة لعبادة ثالوث هذه الجهة، ويتألف من الآلهة «رننوتت» وهي على صورة ثعبان، تقول عنه النقوش إنه كان «حيا»، ثم الإله «سبك» الذي كان يُعبد كثيرًا في تلك الجهة في صورة تمساح، والإله «حور» أو «شدت حور»؛ أي (حور الفيوم).

ولا يدل ما بقي من النقوش والرسوم البادية في جدران هذا المعبد على ما كان عليه المتفنن المصري من الدقة والمهارة في هذا العصر الذهبي، وتحتوي هذه النقوش في جملتها على مراسيم التطهر، ووضع الأساس، وتقديم القربان، غير أن عدم الدقة لا يقلل من أهمية هذا المعبد الذي يعد من المباني الدينية النادرة في هذا العصر.

وتقع مدينة «كوم ماضي» الآن في قلب الصحراء على بعد عدة كيلومترات من الأراضي الزراعية، رغم أنها كانت في الدولة الوسطى إحدى المدن التي نشأت على شاطئ البحيرة القديمة؛ وكانت تصلها المياه العذبة ليستقي بها أهلها، ويروون بها حقولها من ترعة أشارت إليها نصوص الدول الوسطى، وكانت تبتدئ عند «اللاهون» وتسير غربًا، ثم شمالًا فتروي جميع البلاد الواقعة جنوب وغرب مديرية «الفيوم».

وظلت هذه المدينة عامرة حتى أيام العرب، فلما زاد الأهالي في تطهير الترع بعد أيام الفاطميين، وإصلاح الجسور، لم تعد المياه تصل إلى البلاد النائية، فجفت حقولها وهجرها أهلها، وتحولت بعد وقت قليل إلى صحراء بعد أن غطتها الرمال.

وكانت هذه المنطقة عامرة في أيام الدول الوسطى والحديثة، ولكن تضاءل شأنها بعد ذلك إلى أن ازدهرت مرة أخرى في أيام البطالمة، واستمر هذا الازدهار حتى أوائل عصر الرومان.

وصف معبد الدولة الوسطى وأهميته

والمعبد القديم مبني فوق ربوة تشرف على البحيرة القديمة، وجدرانه كلها مغطاة بالنقوش، وقد أصلح في عهد الأسرة التاسعة عشرة، ولكن هذه الإصلاحات لم تمتد إلى إصلاح المعبد الأصلي.

والظاهر أنه في عهد البطالمة والرومان قد زِيد في البناء القديم بإنشاء عدة ردهات أمامه، كما أنشئوا طريقًا طويلًا وضعت على جانبيه تماثيل «بو الهول» كما بنوا أيضًا في العصر اليوناني الروماني معبدًا كبيرًا خلف معبد الدولة الوسطى.

وهذه المعابد تتوسط مدينة كبيرة لم ينلها كثير من التخريب والتدمير في العصور الحديثة، وبخاصة على يد المسمدين؛ لبعدها عن الزراعة؛ من أجل هذا عثرت فيها البعثة

في الفترات المتقطعة التي قامت فيها بأعمال الحفر على آثار قيمة من أوراق البردي والاستراكا والتماثيل، ولكن لم يتناول عمل البعثة إلا جزءًا يسيرًا من المدينة القديمة التي تنتظر معول الحفار، ومعبد الدولة الوسطى هو بلا شك أهم آثار مدينة «كوم ماضي» إن لم يكن من أهم الآثار في مصر كلها؛ إذ إنه رغم صغره كما قلنا في حالة جيدة، ويضيف إلى معلوماتنا عن ديانة قدماء المصريين وهندسة بنيانهم في الأسرة الثانية عشرة شيئًا لا يستهان به.

ومن النقوش التي تلفت النظر في هذا المعبد كذلك النقوش التي تنبئ بأن «أمنمحات الثالث» احتفل بعيده الثاني من أعياد «سد» (أي عيد الثلاثين)، ولعل هذا البناء كان قد أقيم لأجل هذه المناسبة في حكمه المشترك فيه مع ابنه «أمنمحات الرابع».

(٣) هرم أمنمحات الرابع

وقد عزا المستر «ماكي»، إلى هذا الفرعون بناء هرم «مزغونة» الجنوبي وقال: إنه دفن فيه (Petrie, “Labyrinth” P. 49)، وكذلك عزا الهرم الأخير الموجود في هذه الجهة إلى أحد أخلاف «أمنمحات الثالث» المباشرين، وهذان الهرمان يقعان على بعد عدة كيلومترات جنوبًا من جسر «دهشور»، غير أن الأستاذ «جيكيه» بعد فحص هذين المبنيين ألحقهما من حيث فن العمارة إلى مباني عصر الأسرة الثالثة عشرة، وبخاصة بعد أن وجد تشابهًا عظيمًا بينهما وبين هرم «خنزر» وما وُجد فيه من الآثار المشابهة لما وجد فيهما (Jequier, “Deux Pyramides du Moyen Empire”, P. 67).

وكذلك ظن «فلندرز بتري» أن الهرم المبني من الحجر في «دهشور» هو لهذا الملك، ارتكانًا منه على نقوش مشكوك فيها وجدت في المحاجر، وهذا الظن بطبيعة الحال يثير أمامنا مسألة المكان الذي دُفن فيه هذا الفرعون، ويجعل ذلك موضع بحث من جديد (Petrie, “Season” P. 17).

(٤) آثار «أمنمحات الرابع» في أنحاء القطر

هذا وقد عُثر لهذا الفرعون على آثار عدة في جهات متفرقة في أنحاء القطر وخارجه، منها هياكل أو تماثيل، ومنها نقوش على لوحات أقامها رجال البحوث الذين أرسلهم في

حملات لقطع الأحجار، أو استحضار الأحجار نصف الكريمة، وسنتناول كلا من هذه المخلفات على حدة، فمن التماثيل التي وجدت له أو كُتب عليها اسمه ما يأتي:

(١) تمثال من الجرانيت الأسود للإلهة «حتحور» وقد عثر عليه في «طيبة» راجع (L. D. Vol. II, Pls. 120, f. g. 140, m.; Berlin. No. 1117).

(٢) ويوجد له بمتحف الإسكندرية الآن تمثال مزدوج من حجر «الكوارتسيت» المستخرج من «الجبل الأحمر»، وقد وجد رأس التمثال مهشمًا وعثر عليه في «أبي قير»، ويلاحظ أن اسم الفرعون الذي كان على صدر التمثال قد حُووِل محوه، ولكن لحسن الحظ كانت قد كُرِّرت كتابته بين مخلابي التمثال فعرف تمامًا (Daninos, "Rec. Trav.", Vol. XII, P. 213; A. S. Vol. V. P. 116).

(٣) وكذلك عثر على الجزء الأمامي لتمثال له في صورة «بو الهول» من حجر الكوارتسيت لا يعلم مصدره الأصلي، وقد كُتب صدره بحروف غائرة «ملك الوجه القبلي والبحري» رب الأرضين «ماع خرورع» ومعطي الحياة، (Borchardt, "statuen Und Statuetten Von Konigen und Privatleuten im Museum Kairo", No. 338, Cairo Register No. 25778).

(٤) وعثر على قاعدة من الجرانيت الأحمر باسم هذا الفرعون واسم والده «أمنمحات الثالث»، وقد استخرجت من رصيف الأحجار الواقع جنوب «البوابة» الثالثة للفرعون «أمنحوتب الثالث» بالكرنك، ويبلغ ارتفاعها نحو ثمانمائة وأربعة وثلاثين سنتيمترًا، أما سطحها الأعلى فيبلغ طوله ١٫٥٥ مترًا وعرضه ٠٫٨٩٧ من المتر، وتدل النقوش الغائرة في هذه القاعدة على أن «أمنمحات الثالث» قد شغل النصف الأيمن للناظر من هذه اللوحة، وشغل «أمنمحات الرابع» الجزء الأيسر منها بنقوش مماثلة تقريبًا، وهي عبارة عن تقديم هذا الأثر للإله «آمون» رب عروش الأرضين، ولا نزاع في أن هذا النقش هو برهان آخر على ما ذكرناه وذكره بعض المؤرخين من أن هذين الفرعونين كانا قد اشتركا مدة معًا في الحكم (Gauthier, "Livre des Rois", Vol. I, P. 338, Note 2; Breasted, "A History of Egypt" "2nd ed" P. 208).

والظاهر من النقوش التي وجدت على سطح هذه القاعدة أن هذا الأثر كان قد صُنع ليوضع عليه «ناووس» أو سفينة مقدسة للإله «آمون»، وهذه النقوش لم يظهر فيها أي محو من جانب، «أمنمحات الرابع»، بل على العكس نجد أن الجهة اليسرى من هذه اللوحة أكبر من الجهة اليمنى بنحو أربعة سنتيمترات، مما يدل على أنه لم يكن

هناك اغتصاب من جانب «أمنمحات الرابع»، ونجد على الجزء الأمامي من النقوش أن كلًّا من الملكين يقدّم هذا الأثر للإله «آمون» كما ذكرنا.

ونرى على الجزء العلوي من القاعدة نقشين مختلفين: أحدهما للفرعون «أمنمحات الثالث» والثاني «لأمنمحات الرابع»، فالنقش التالي للفرعون «أمنمحات الثالث» هو:

> حور الحي عظيم البأس، سيد التاجين، الذي يستولي على إرث القطرين، حور الذهبي، صاحب الحياة الدائمة، ملك الجنوب والشمال «نيماعت رع»، ابن الشمس الذي أنجبه من جوفه.[1] لقد عمل هذا أثرًا مهدى لوالده «آمون رع» سيد عروش الأرضين، وسيد «الكرنك»، لقد عمل له قاعدة من الجرانيت الأحمر يمكن الإله أن يجلس عليها لينال ملك الجنوب والشمال «نيماعت رع» «حظ آمون» من الحياة، والثبات، والسعادة، والصحة، ولينال كذلك حظ التمتع مع روحه على عرش «حور» الأحياء مثل «رع» مخلدًا.

أما النقش الخاص بالفرعون «أمنمحات الرابع» فهو:

> «حور» الحي، كائن الكائنات، سيد التاجين، الذي يجعل الأرض في عيد، حور الذهبي، رئيس الآلهة، ملك الوجه القبلي والوجه البحري، «ماع خرورع» ابن الشمس، من جوفه «أمنمحات»، لقد عمل هذا أثرًا لوالده «آمون رع» رب عروش الأرضين، وسيد «الكرنك». لقد عمل قاعدة كرسي من الجرانيت الأحمر يمكن الإله أن يجلس عليها، لينال ملك الوجهين القبلي والبحري «ماع خرورع» من آمون الحياة والثبات والصحة والسعادة، وكذلك لينال (حظ) التمتع مع روحه على عرش «حور» ملك الأحياء مثل «رع» مخلدًا.

فهذا النقش فضلًا عن أنه يظهر لنا «أمنمحات الثالث والرابع» مشتركين معًا في الحكم، فإنه من جهة أخرى يضع أمامنا اللقب «نبتي» (الصل والعقاب) للملك «حور» الذهبي للفرعون «أمنمحات الرابع» لأول مرة في النقوش التي عثر عليها حتى الآن راجع (A. S. Vol. XXIV, PP. 65–68).

---

[1] هذا تعبير مصري أصيل ويراد به الذي أنجبه من ظهره.

(٥) ويوجد بين آثار المتحف المصري قاعدة «لناووس» كان يحتوي على تمثال للملك أو تمثالين كما يقول المستر «برنتون»، لأجل أن يقدم له القربان (A. S. Vol. XXXIX, P. 178) في احتفال «فتح الفم»، كما تدل على ذلك النقوش الباقية على هذه القاعدة، وقد وجد منقوشًا عليها اسم الفرعون على تسع صور للملك، غير أنه وجد في الوقت نفسه أن هناك اسمًا آخر كان يُذكر بعد اسم الفرعون قد مُحي، وهذا المحو لا يمكن أن يعزى إلى «إخناتون» الذي كان يقصر همه على محو اسم الإله «آمون رع»، بل الواقع أنه كان يدل على خلاف أُسري في أواخر الأسرة الثانية عشرة، وهذا على ما يظهر بعيد الحصول؛ لأن «أمنمحات الرابع» والملكة «سبك نفرو» كما يقول «برنتون» كانا أخًا وأختًا، ومن الجائز إذن أن يكون «أمنمحات الرابع» قد محا اسم والده بعد انفراده هو بالحكم، ولكنا من جهة أخرى نجد اسميهما على كثير من الآثار دون أي محو، ولعل الكشوف التالية تظهر لنا ما يفسر ذلك.

وهذه القطعة وجدت في «مصر القديمة»، ولا يمكن أن نفسر وجودها في هذه الجهة إلا أن عبادة الملوك الأقدمين كانت مرعية في أمهات المدن الدينية مثل «عين شمس»، وأن هذا الأثر كان قد أقيم له أولًا في هذه الجهة، أو أنه نُقل إلى هذه الجهة واستعمل ثانية في بناء أثر آخر لأحد الملوك الذين أتوا بعدهما.

وقد ذكر اسم «أمنمحات الرابع» على لوحات بعض الأفراد في عصره، منها لوحة لشخص يدعى «خوي» ويحمل لقب الساقي، ويلاحظ أن هذا الموظف يتقرَّب في أدعيته الدينية للإله «بتاح سكر» وإلى «أوزير» رب «عنخ تاوى» وهي جزء من منف.
(Aegyptischen Grabstein und Denkstein aus Suddeutschen Sammlun-gen, Vol. I, P. 8, Pl. VII).

وكذلك توجد لوحة جنازية من الحجر الجيري لشخص يدعى «إيونف» وهو موظف يلقَّب مدير البيت عاش في الحكم المشترك لكل من «أمنمحات الثالث» وابنه «أمنمحات الرابع».

هذا؛ وقد وجدت له نقوش قيمة في «قمنة»، وهي لوحة في الصخر كُتب عليها مقاييس مناسيب النيل في السنة الخامسة من حكمه، وتلك سُنة وضعها والده «أمنمحات الثالث» من قبله (L. D. Vol. II, Pl. 152. f.).

(٥) البعوث إلى سينا

تدل النقوش التي خلفها رجال البعوث الذين أوفدوا إلى «سينا» في عهد أمنمحات الرابع على أن نشاطه كان عظيمًا في استخراج المعادن من أنحاء شبه الجزيرة.

وقد عثر رجال بعوثه على نقوش عدة بعضها على لوحات قائمة بذاتها أو على الصخور نفسها، وقد وجدت تواريخ بعوث مؤرخة بحكم هذا الفرعون في السنة الرابعة والسادسة والثامنة والتاسعة، ويلاحظ أن معظم هذه اللوحات لم تذكر لنا بالتحديد الأغراض التي كانت ترسل من أجلها البعوث، بل كان معظمها تذكاريًّا أو تقرُّبًا لآلهة هذه الجهة. ومن أهم من ترك لنا نقوشًا في عهد هذا الفرعون موظف كبير على ما يظهر اسمه «ساسبدو»، وآخر اسمه «كماونخت»، ففي السنة الرابعة أقام الأول لوحة في «سرابة الخادم» جاء فيها «السنة الرابعة في عهد حكم جلالة ملك الوجه القبلي والبحري «ماع خرورع» «أمنمحات الرابع» عاش إلى الأبد، قربان ملكي للإلهة «حتحور» سيدة الدهنج أو الفيروز لروح الشريف «ساسبدو» المبرأ، وصاحب الشرف والذي يحبه سيده حقًّا وخليله، ثابت القدم، وئيد الخُطى، ومن يمدحه سيده، ومن يخترق البلاد الأجنبية بعد الأرضين، حامل الخاتم لخادم مجلس القصر المسمى «كماونخت» المبرأ، ورب الاحترام.» ثم يأتي بعد ذلك نداء للأحياء بأن يقدموا قربانًا إلى «كماونخت» هذا.

ثم يلي هذا رسم تسعة أشخاص يظهر أنهم أهم رجال هذه البعثة يتقدمهم رئيسهم، ويلي ذلك عدة نقوش لموظف يدعى «زاف». ففي السنة السادسة ترك لنا لوحة مستطيلة الشكل تعلوها حلية في صورة جريد النخل، ومزينة من أسفل بواجهة قصر، وقد أرِّخت في السنة السادسة من حكم هذا الفرعون، ويحمل صاحبها لقب وكيل حامل الختم الإلهي (الفرعون)، ومدير مستخدمي البيت الأبيض (الخزانة)، وتشمل النقوش التي حول اللوحة ألقاب «أمنمحات الرابع» الذي يقال عنه إنه محبوب أرض الإله «عنتي»، والمرسوم في اللوحة بصورة غريبة، وهذا الإله كان معروفًا بأنه إله بحري للعبور (راجع كتاب الأدب المصري ص١٤٩) (Gardiner and Peet, Sinai, Pl. XLII, No. 119).

ولدينا نقوش أخرى مؤرَّخة بالسنة السادسة من حكم هذا الفرعون في «وادي مغارة» نقشت في الصخور على صورة لوحات أهمها اثنتان؛ الأولى: يذكر لنا فيها صاحبها إلهَي الجهة وهما: «سبدو» رب الشرق، والإلهة «حتحور» ربة الدهنج أو

الفيروز، ثم يذكر صفاته ويطلب إلى كل من أتى إلى هذه الجبال أن يقدم لحامل الختم قربانًا ملكيًّا إلى ... (Ibid, Pl. XI).

أما اللوحة الثانية التي نقشت في هذا التاريخ نفسه: فهي لحارس مخزن القصر (خعاي)، وقد جاء فيها: «السنة السادسة من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري (ماع خرورع) عاش مخلدًا محبوب «سبدو» [رب الشرق] ومحبوب «حتحور» ربة الدهنج أو الفيروز، ثم يذكر لنا أنه تتبع خطوات سيده، وأن جنوده كانت في طاعته لتنفيذ أغراضه (؟).

(Ibid, Pl. XII, No. 33; Breasted, A. R. Vol. I, Par. 750).

ويوجد نقش ثالث بهذا التاريخ نفسه مهشم، ذكر اسم الفرعون واسم صاحبه «سنبو»، وأمه، والصيغة الدينية المعروفة لطلب القربان.

(Gardiner and Peet, Pl. XII, No. 33).

نقوش الموظف «زاف» الأخرى: وفي «سرابة الخادم» أقام «زاف» السالف الذكر لوحة عظيمة (Ibid, Pl. XLII) مؤرَّخة بالسنة السادسة أيضًا، وهذه اللوحة على ما يظهر كانت آية في دقة الصنع؛ غير أنها وُجدت مهشمة ولم يبقَ منها إلا القليل، فنجد في أعلاها السنة السادسة، ولم يذكر لنا اسم الملك، غير أننا عرفناه من صاحب اللوحة، وقد ذكر عليها اسم الإلهة «حتحور» سيدة الدهنج أو الفيروز، ثم الإله «بتاح» ولقب «زاف». وفي أسفل اللوحة نجد منظرًا لشخص جالس وأمامه مائدة قربان محمَّلة بالمأكولات والشراب، ثم نجد لقب كاهن الإلهة «حتحور» حارس حجرة البيت الأبيض (الخزانة) غير أننا لا نعرف اسمه.

(Ibid, Pl. XLIII, No. 120).

ونجد لهذا الموظف بعينه لوحة أخرى، غير أنها مؤرخة بالسنة الثامنة من حكم هذا الفرعون، ومعه آخرون، واللوحة جنازية محضة في نقوشها، وقد جاء فيها ذكر الإلهة «حتحور» وكذلك الإلهة «نيت» (Ibid, Pl. XLIII, No. 121) والإله «سبدو» رب الأراضي الأجنبية (الصحراء)، ولهذا الموظف كذلك لوحة أُرِّخت بالسنة التاسعة من حكم هذا الفرعون، (Ibid, Pl. XLV, No. 122).

ومع اللوحة مائدة قربان جاء فيها: «السنة التاسعة، الشهر الثالث من فصل الزرع، اليوم السادس والعشرون (أي إن الرحلة كانت في فصل الصيف).» ويرى في هذه اللوحة منظر يقدِّم الملك فيه آنية للإله «خنتي خاتي» (في صورة صقر)، ثم للإله «سبدو»

رب (الصحراء) (؟)، وفي الجزء الأسفل من اللوحة وهو الذي لم يصبه التهشم نجد الصيغة الدينية وقد ذُكر فيها الإله «جب» إله الأرض، ثم الإله «بتاح سكر» إله الموتى في «منف» ثم الإله «أوزير» رب «عنخ تاوى» (جزء من منف)، ثم الإله «خنتي خاتي» رب الإقليم (؟) وهو الإله المحلي «لأتريب» (بنها الحالية)، ثم «حتحور» سيدة «الدهنج» أو «الفيروز» لأجل أن يعطوا «زاف» صاحب اللوحة قربانًا. ومما يؤسف له أن هذه اللوحة مهشمة لدرجة كبيرة، فلم يمكن استخلاص شيء منها كثير، وتنحصر أهميتها في أنها عملت في السنة التاسعة من حكم هذا الفرعون، وكذلك في ذكر الآلهة الذين كان يتعبد لهم في هذه الجهات.

ويوجد فضلًا عما ذكرنا ستة نقوش في «سرابة الخادم» عليها اسم هذا الفرعون، غير أنها مهشمة وغير مؤرخة، وأطولها نقش على جدار في معبد «سرابة الخادم» كتبه «زاف» المعروف لنا، وفيه يشير إلى الأحجار الصلبة والقربان التي كانت تقدَّم للإلهة المحلية في هذه الجهة (Ibid. Pl. XIVl, No. 123)، ثم لوحة كبيرة لمدير المستخدمين «سنبي»، ونجد عليها الملك يعبد كلًّا من الإله «بتاح»؛ والإلهة «حتحور» سيدة «الدهنج» أو «الفيروز»، والظاهر مما بقي على اللوحة أن هذا الموظف كان يتحدث عن مكانته عند الفرعون، وما كان يقوم له به، كما نجده في اللوحات السالفة، وفي أسفل اللوحة يرى أخو «سنبي» يقدم له الطعام على مائدة (Ibid, Pl. XLI, No. 126)، أما النقوش الباقية فليس فيها شيء يستحق الذكر (راجع Ibid, Pl. XLVIII, No. 127; XLIV, Nos. 128, 129; XL; No. 130).

(٦) بعوث «أمنمحات الرابع» إلى «وادي الهودي»

أما في الصحراء الشرقية الواقعة على بعد أربعين كيلومترًا جنوب شرقي «أسوان» فقد عثر له على لوحة في «وادي الهودي» السالف الذكر، وذلك نتيجة لبعثة أرسلها بطبيعة الحال لإحضار «حجر الجمشت» (أمتست)، وهو الذي يدعى بالمصرية «حسمن»، وكان يترجم بكلمة نحاس إلى عهد قريب كما سلف ذكر ذلك.

وهذه اللوحة هي إحدى اللوحات الثلاث التي أهداها البمباشي «زكي عبد الحميد»، وتوجد ضمن مجموعة اللوحات التي عثر عليها الأستاذ «أحمد فخري» المختص ببحوث الصحراء الأثرية والأمين بالمتحف المصري.

وقد جاء فيها:

> السنة الثانية من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري «ماع خرورع» عاش أبد الآبدين قريب الملك الحقيقي الذي يحبه وخليله، والذي يفعل كل ما يمدحه كل يوم وكل نهار، الثابت القدم، والوئيد الخطى، والذي يعبد طريق من يعظمه، رئيس الخزانة، ووكيل مدير حامل الختم، وهو الذي يخرج إلى الطريق الجبلي الخاص بالجمشت عندما يأمره جلالته، وهو الذي يخرج إلى صحراء «رشوت» (في الصحراء شبه العربية) [ولا بد أنه يقصد هنا جزيرة «سينا»] ... ثابت القدم ... [تُركت باقي اللوحة دون كتابة، وذلك يدل على أن صاحبها لم يتم كتابتها لسبب ما].

(٧) آثاره الأخرى المتفرِّقة

وخلافًا لما ذكرنا يوجد لهذا الفرعون بعض تحف صغيرة منها لوحة صغيرة، من الأردواز عليها طلاء أخضر، ومنقوش عليها اسم هذا الفرعون، وهي الآن في المتحف البريطاني (Rec. Trav. Vol. XII, P. 213) وكذلك يوجد صندوق صغير من الأبنوس والعاج مكتوب عليه اسم الفرعون واسم صاحبه «كمن» الذي كان يشغل وظيفة حارس إدارة المطبخ. (Carnavon and Carter, Explorations, XLIX).

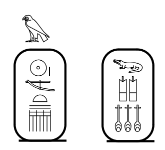
وفي «اللاهون» عثر على أوراق بردية ترجع إلى عهد هذا الفرعون، بل تدل الأحوال على أنها كُتبت في عهده، ولدينا ورقة منها مؤرخة بالسنة السادسة من حكمه على وجه التأكيد، وهناك أوراق أخرى يجوز أنها ترجع إلى السنة العاشرة من حكمه أو من حكم غيره من الملوك الذين خلفوه، وقد بقي لنا من هذه الأوراق التي وجد عليها اسمه خطابات؛ أحدها من خادم الوقف إلى سيده يطلب إليه أن يرسل له عشرة أوزات (Kahun Papyri, Vol. I, P. 67)، والثاني من خادم الوقف المسمى «خمم» إلى سيده مدير المستخدمين يسأله فيه عن صحته وأحواله، ويخبره عن موضوع صيد سمك وما يريد أن يرسله منه لسيده ... إلخ، وقد أرِّخ هذا الخطاب في السنة السادسة، الشهر الأول من فصل الشتاء (طوبة) اليوم الثاني من حكم «ماع خرو رع» «أمنمحات الرابع» (Kahun Papyri", Vol. I, P. 77). هذا وقد وجدت «لأمنمحات الرابع» عدة جعارين وأسطوانات في مجاميع مختلفة منها؛ إسطوانة في مجموعة جعارين «نيو بري»

(Newberry, “Scarabs”, Pl. VI. 18) وفي مجموعة «ماك جريجور» (Mac Gregor Sale Catalogue, Lots 517, 520) ثم جعارين أخرى (راجع: Newberry, “scarabs”, Pl. IX. 38; Petrie, “Hist، Scarabs”, 273–274; Petrie, Scarabs, Pl. XIV; Dubois, “Chois de Pierres Gravées”, Pl. IV, 9).

هذا معظم ما نعرفه عن هذا الفرعون وعصره على وجه التقريب، وقد ذكرت لنا ورقة «تورين» أنه حكم تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا، وهذا التاريخ يتفق مع ما عثرنا عليه منقوشًا على الآثار كما سلف ذكره.

أما آثاره التي عثر عليها في خارج القطر فسيأتي ذكرها في الكلام على المدنية في حينه.

الملكة سبك نفرو (١٧٩٢–١٧٨٧ق.م)



تدل الأحوال على أن «أمنمحات الرابع» قد تُوفي دون أن يترك له خلفًا من الذكور، والظاهر أن الأميرة «سبك نفرو» أخته كانت الوارثة الوحيدة للملك فتوَّجها أشراف البلاد ملكة عليهم، وقد ذكر لنا «مانيتون» أنها أخت «أمنمحات الرابع» وعلى ذلك تكون بنت «أمنمحات الثالث».

ومع «سبك نفرو» حسن الإله «سبك» وهو الإله الذي يمثل في صورة تمساح والإله الحارس «للفيوم».

آثارها الباقية

والآثار التي خلفتها هذه الملكة قليلة جدًّا، وأهمها أسطوانة موجودة الآن بالمتحف البريطاني (Hall, "Catalogue of scarabs" 2630; Petrie, "History", Vol. I, P. 208, Fig. 119) وهي مصنوعة من الإردواز الأبيض المطلي باللون الأزرق وحجمها أكبر من المعتاد، وتنحصر أهميتها في أنها القطعة الوحيدة التي عثرنا عليها حتى الآن، المنقوش عليها كل ألقاب التتويج لهذه الملكة، فاسمها الحوري هو «مريت رع»؛ أي محبوبة إله الشمس «رع» (٢) واسم نبتي (أي الصل والعقاب) هو «أخت خرب نب تاوى»

ومعناه حسن القيادة رب الأرضين (٣) واسم «حورنب»؛ أي حور الذهبي هو «زدخع» ومعناه ثابت في ظهوره (٤) والاسم نسوت بيتي = «ملك الوجهين القبلي والبحري» هو «سبك شدتي نفرو عنخ تي» = المطالبة بجمال «سبك» العائشة. وقد ذكر اسمها «مانيتون» محرَّفًا بلفظة «سكميو فريس» Skemeophris؛ ولذلك يعتقد أنها استعملت اسمها الأصلي «سبك نفرو رع» وهو تحريف الاسم اليوناني.

وقد عثر على تمثال «بو الهول» في «الخطاعنة» بالقرب من «تانيس» (صان) في الدلتا وقد وجد عليه خرطوش نُقش بين مخلابيه، ويحتمل أن يكون خرطوشها (Naville, "Goshen and the shrine of saft el Henna", 19 c.)، وذلك لاختلافه بعض الشيء عن اسمها الأصلي.

وكذلك وجدت بعض عقود بناء من الجرانيت في معبد «إهناسية المدينة» نُقش عليها اسمها، وهذه النقوش قد حفظت لنا لاستعمال الأحجار التي وجدت عليها في أبنية من العهد الروماني ثانية (A. S. Vol. XVII, P. 34) ولم نعثر إلا على جعران واحد عليه اسم هذه الملكة (Petrie, Collection, University College)، غير أن اسمها قد وجد منقوشًا على بعض قطع الأحجار التي عثر عليها في «اللبرنت» (بهوارة)، والمفروض في هذه الحالة أنها قد أقامت هناك هيكلًا أو أصلحت محرابًا أو معبدًا كان مصيره كمصير المباني التي أقيمت هناك (L. D. Vol. II, Pl. 130; Petrie, "Hawara", Pl. XXVI. 12; Petrie, "Kahun" Papyri, XI. I.).

والغريب أن اسمها قد وجد في هذا المعبد مع اسم والدها «أمنمحات الثالث»، ولم يعثر على اسم «أمنمحات الرابع» غير أن هذا يمكن أن يعزى لقلة ما بقي من المعبد، وأن بقاء اسم هذه الملكة كان محض صدفة!

وتخبرنا ورقة «تورين» أن «سبك نفرو» قد حكمت البلاد مدة ثلاث سنوات وأربعة أشهر وأربعة وعشرين يومًا، ولما لم يكن لها خلف من الذكور فإن حكمها يعد خاتمة هذه الأسرة (Gauthier, "Livres des Rois", Vol. l, P. 341).

وقد ظن البعض أن الملكة «سبك نفرو» قد اشتركت في حكم البلاد مع أخيها «أمنمحات الرابع»؛ وقد أضحد هذا الرأي الأستاذ «اجرتون». (J. N. E. S. (1942) PP. 307–314).

غير أن الأستاذ «نيو بري» يعتقد أن الملكة «سبك نفرو» قد اشتركت مع والدها «أمنمحات الثالث» في حكم البلاد؛ مبرهنًا ذلك بما جاء في نقش عُثر عليه في «هوارة»

(Petrie, “Kahun”, Pl. II, 1)، ويقول إن في هذا النص يلاحظ أن طغراء الملكة قد سبق بالعبارة: «سات رع»؛ أي بنت الشمس، ويحيطها من كلا الجانبين لقب «أمنمحات الثالث»، ويستمر الأستاذ «نيو بري» فيقول: «أما فيما يختص باسم «سبك نفرو رع» وهو الذي حرَّفه «مانيتون» إلى «سكميو فريس» واستعمله الأستاذان «برستد» و«مير» وغيرهما من المؤرِّخين، فيجب أن يلفت نظرنا أنه ليس بين ما وجد من الآثار في عهدها ما يثبت وجود كلمة «رع» في نهاية الاسم، وأن الاسم قد كُتب «سبك نفرو» أو «سبك شدتي نفرو». هذا ويلاحظ أن كتابة الاسم كما جاءت على تمثال «بو الهول» الذي عثر عليه «نافيل» في «تل البركة» (Goshen Pl. IX, cf, P. 21) لا يمكن أن يُتخذ دليلًا على قراءة الاسم؛ لأن قارئه قد اعترف أن قراءته ليست محققة. هذا وقد عثر على قطع من الحجر في «هوارة» نقش عليها طغراء الملكة هكذا: «سبك نفرو سات رع» (L. D. II, 140) ويلاحظ أن عبارة «سات رع» (بنت الشمس) هنا قد وجدت داخل الطغراء، وهذا ما حدا إلى الظن بوجود خطأ إملائي في كتابة طغراء الملكة في قائمتي الكرنك «وتورين»، هذا والواقع أن لقب الملكة كان «سبك كارع» كما يبرهن على ذلك نقش عثر عليه في «كوم العقارب» (A. S. Vol. XVII, P. 34) حيث نجد كلمة رع قد هُشم بعضها، ولكن يمكن تحقيق وجودها من أسطوانة معاصرة قد رأيتها ونقلت ما عليها منذ بضع سنين مضت في حانوت تاجر في القاهرة. وكذلك نلاحظ أن قائمة ملوك سقارة قد وضعت لقب الملكة هذا في مكانه الصحيح في نهاية أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة، وهي القائمة التي نقلها نحات الرعامسة بصورة معكوسة، أما قائمة «العرابة» فقد حذفت اسم «سبك نفرو» جملة، ويقول لنا الأستاذ «نيو بري» في نهاية مقاله هذا ما يأتي:

> إن حكم «أمنمحات» كان حكمًا طويلًا، وأكبر تاريخ له على الآثار عثر عليه حتى الآن هو السنة السادسة والأربعون، ومن المحتمل أنه في مدة هذا الحكم المديد قد كان له شريكان في الملك، أحدهما قد توفي أو خُلع من المُلك قبل أن يتولى الآخر؛ ولذلك أعتقد على ضوء ما ذكرنا آنفًا احتمال عدم انفراد «أمنمحات الرابع» بالحكم وحده قط، بل كان مشتركًا مع والده «أمنمحات الثالث» (J. E. A., Vol. XXIX, PP. 74, 75).

والواقع أن ما قاله الأستاذ «نيو بري» قد يكون له نصيب كبير من الصحة؛ إذ وجدنا في بعض الأحيان محوًّا في بعض الآثار التي عليها اسم كل من هذين الفرعونين،

وبذلك تكون «سبك نفرو» قد اشتركت مع والدها في الحكم بعد خلع أخيها «أمنمحات الرابع» وبقيت تحكم بعد وفاة والدها، ومع كل هذا فإن الموضوع لا يزال معلقًا ولا يمكن الجزم فيه بصورة قاطعة.

المدينة في عهد الدولة الوسطى

مقدمة

استقبلت البلاد المصرية بتولي ملوك الأسرة الثانية عشرة عصرًا ذهبيًّا جديدًا، فقد نهضت البلاد بعد الهوَّة السحيقة التي دُفعت فيها، وعادت ثانية إلى رفعتها القديمة، غير أن الدولة في عهدها الجديد لم تظهر بنفس المظهر الذي كانت عليه في عهد الدولة القديمة، فإن الفرعون وإن كان يحكم البلاد من أقصاها إلى أقصاها دون منازع، وأصبحت تمثل فيه وحدة البلاد وقوتها، إلا أن علاقته بها لم تكن مع ذلك هي نفس علاقة الفرعون بالبلاد في عهد الدولة القديمة، فلم يعد التاج يملك أراضي يخطئها العد والحصر، ولم تكن حكومات المقاطعات في قبضة موظفين تابعين لسلطان الفرعون مباشرة، ومن ثم يمكنه أن يعزلهم بجرَّة قلم متى اقتضت إرادته ذلك، بل أصبح سلطانه في الواقع أكثر انكماشًا لتقيده بأمراء الإقطاعات الوراثيين، وحتى عندما تغيرت هذه العلاقات في النصف الثاني من حكم هذه الأسرة لم تعد مكانته إلى ما كانت عليه في عهد الدولة القديمة، فإن الفرعون كان قد سقط نهائيًّا من عليائه الإلهية المحفوفة برهبة لا يمكن الدنوِّ منها، وأصبحت له هيبة الحاكم فقط، ولم يقضَ على نفوذه وهيبته جملة بسبب ما حاق بالبلاد من تدهور عميق طويل المدى؛ وذلك لأن الضمان الداخلي الذي كان من مميزات الدولة القديمة، لم يكن ميسورًا لملوك الأسرة الثانية عشرة، فكان لا بد لهم من أن يحاربوا في سبيل الوصول إلى ذلك حتى يستقيم لهم الأمر، ويقبضوا على ناصية الحكم.

من أجل ذلك كان لزامًا عليهم أن يكوِّنوا جيشًا في باكورة حكمهم ليشد عضد الفرعون؛ إذ كانت البلاد ملتهبة بقيام الفتن والمؤامرات خلال الجزء الأول من عصر أسرتهم؛ ولذلك يجب على الناقد الفطن عندما يسمع الشعراء يتغنون بقوة الفرعون، أو بتمثيله في صورة إله في الأناشيد التي تفيض حماسة، أو في التحذيرات والتعاليم التي تحث على الوفاء له، والخوف من غضبه وبطشه، ألا يظن أن مُثُل الملكية العليا قد تحققت بعد، بل على العكس يجب أن يرجع هذه الظاهرة إلى الانحطاط والضعف؛ فإن مصر التي درجت في عصر ما قبل التاريخ إلى مراقي المجد على مهل حتى وصلت إلى رفعتها الشامخة في عهد الدولة القديمة، كانت تختلف عن مصر التي قد بدأت تنهض من الحضيض الذي عاشت فيه أجيالًا لتكون دولة جديدة، لها بهاؤها القديم وعظمتها التالدة، وقد كان لزامًا على ملوكها أولًا أن يصلوا إلى المكانة التي كان الماضي قد أوصل بلادهم إليها، فيرجعوها إلى قوتها الغضة، ويبرزوها في ثوب من الحياة قشيب، ويتمتعوا بما وصلوا إليه من معرفة غابرة.

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الثقافة التي أتت عن طريق التطور السياسي قد تمخضت عن أسس عريضة بين الأهلين؛ فلم تعد العاصمة بعد مركزهم الرئيسي، كما أصبح بلاط أمراء الإقطاع مكانًا للعناية بالعلوم والفنون في طول البلاد وعرضها، وكذلك أصبحت الطبقة المتوسطة الحرة تقوى في البلاد، وتأخذ مكانتها في الصف الأول من الحياة الاجتماعية؛ يضاف إلى ذلك أن التطور في العلاقات السياسية في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الأواخر، قد وصل إلى درجة أدت إلى إبراز شخصية الدولة الوسطى لأول مرة في عهد الأسرة الثانية عشرة بعد أن ضاعت باختفائها شخصية الملك وهيبته، ومؤسس هذه الأسرة هو «أمنمحات الأول» كما ذكرنا من قبل.

نظام الحكم والعهد الإقطاعي الأول

لقد رأينا فيما سبق مقدار ما أظهره «أمنمحات» من النشاط العظيم للتدخل في أحوال حكام المقاطعات ليحد من قوتهم، ولا داعي لأن نفكر لحظة في قدرته على أن يقضي على هذه الأرستقراطية الرفيعة الشأن، الثابتة القدم دفعة واحدة، ويعيد البلاد إلى ما كانت عليه من نظام موحد في عهد الدولة القديمة؛ إذ كانت طبيعة الأمور توحي بأن النظام الطبعي اللائق للحكومة والمجتمع معًا يتطلب بل يحتم على العكس وجود طبقة أرستقراطية وما يتبعها من الأشراف المميزين؛ ولأجل أن نفهم هذا الوضع يجب أن نستعرض أمام القارئ في لمحة خاطفة حالة العصر الذهبي لحكومة الإقطاع ورسوخ قدمه في البلاد، ويعتبر العهد الإهناسي — في الواقع — العصر الذهبي للحكومات الإقطاعية التي قامت على حساب الدولة، فقد كانت كل مقاطعة مقسمة إداريًّا وعسكريًّا تقسيمًا محكمًا كأنها مملكة صغيرة؛ فكان لها قائد يسوق جيشها إلى ساحة القتال، ولها مدير مخازنها، ومدير ماليتها، وموظفوها وكُتابها، وكان كل أمير مقاطعة يرث مقاطعته عن أبيه، وكان أبناء أمراء الإقطاعات يشتركون مع آبائهم في توجيه دفة أملاك المقاطعة، وفي إدارة شئونها، فكان الابن يكتسب من ذلك تجارب تؤهله لحكم مقاطعة والده. وكان أمير المقاطعة يتبع في سياسته مع موظفيه من النصح ما كان يسير على نهجه حكام الدولة القديمة، فاستمع إلى الكلمات التي كان يتغنى بها أمير «أسيوط» في العهد الإهناسي: «لا يوجد امرؤ فصلتُه عن عمله، ولا إنسان اغتصبت أملاكه ما دام متبعًا حدود وظيفته؛ ولقد نشرت السعادة على الأرض، واقتفيت إثر اللص، وكنت أمقت انتهاك حرمة الملكية» (Griffith, “Suit”, Tomb No. III, line 9).

وقد كانت توجد بجانب طائفة الموظفين الذين حُرموا وظائفهم في أنحاء المقاطعات بسبب الفقر الذي عمَّ البلاد، عندما أخذت موجة التدهور الأولى تطغى على مصر في نهاية

الأسرة السادسة؛ أسر قوية جدًّا يدَّعون انتسابهم إلى أصل إلهي، نُسل من إله مقاطعتهم المحلي مثل الفرعون نفسه، وأن لهم حق الوراثة في عرش مصر منذ أقدم العهود؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى إلههم نظر الفرعون إلى إلهه. وقد توصل بهذه الوسيلة (وإن شئت فقل بهذا الادِّعاء) أمراء «طيبة» إلى أن يضربوا ضربتهم الممتازة الحاذقة، بعد أن مهدوا لها بحروب طاحنة جاءوا فيها على الأخضر واليابس. وقد مكثت سنين طويلة استطاعوا في نهايتها أن يتولوا عرش الملك، ويوحدوا البلاد بعد طول الانقسام والشقاق، وأنشئوا صرح الأسرة الحادية عشرة، وقد كان من الطبعي أن ينسبوا انتصارهم السياسي والحربي على أمراء «أسيوط» وملوك «إهناسية المدينة» المعادين إلى إله مقاطعتهم «آمون»، وقد كان في نظرهم يمثل أقدم الآلهة، ومن ثم اعتبروه رئيس الآلهة وملك الأرضين، وإن كان هذا الزعم لا يرتكز على أساس تاريخي صريح، وفي هذا الوقت ظهرت كذلك أوصاف عن مظاهر الظلم وعدم استتباب الأمن في صور مقالات أدبية كتبها جماعة من حملة الأقلام مطالبين بالعدالة الاجتماعية، وتأسيس سلطة جديدة تخلص البلاد مما حاق بها من ظلم وجور؛ غير أن النظام الإقطاعي كان متغلغلًا في نفوس الأمراء حتى إن انتزاعه من البلاد كان من أصعب الأمور وأعنفها، وقد عبر عن هذا الروح أحسن تعبير في قطعة من ترجمة حياة أحد أمراء مقاطعة «سيوط» تعد مثالية في هذا الموضع فاستمع إليه وهو يقول: «إني قد ثويت هنا (في القبر)، وقد احتل ابني مكانتي، ومجلس الحكم مطيعون له منذ أن كان حاكمًا، ولم يكن طوله قد تجاوز بعد ذراعًا (أي منذ أن ولد).» وكان عندما يخرج مثل هذا الأمير الرفيع الشأن من بيته يُحاط بأتباعه ويُحمل على المحفَّة، وتسير وراءه كلاب الصيد، ومعه رجال الصيد الذين كانوا في العادة يمشون في ركابه، وكذلك القزم الذي يقوم على خدمته الخاصة به.

ومنذ العهد الإهناسي كان يسير في ركاب أمير المقاطعة فرقة حربية، وكانت تظهر مع «أتباع الأمير» وكان جنودها مسلحين بالدروع والحراب والبلط، والأقواس، والنشاب، والسهام، وخلف هؤلاء كان يسير رجال آخرون يحملون النعال وأواني الغسيل وحقائب الملابس، كل ذلك تشبهًا بما كان يجري في عهد الدولة القديمة. وكان كذلك من الضروري لكل أمير مقاطعة رئيس أطباء، ومدير ملابس، وساق ليقوم على خدمته أثناء بسط المائدة أمامه، ولقد بقيت هذه الصورة التي رسمناها هنا عن حياة الأمير الإقطاعي في الظاهر حتى منتصف الأسرة الثانية عشرة؛ ولا أدل على ذلك من إدارة الموظفين الذين كانوا في كنف أمير «قوص» راجع Blackman, “Meir”, I–III; Newberry, B.

H., I, 45 ff.) وكذلك كان «الكُتاب» يسودون في بلاط أمير المقاطعة بطبيعة الحال، فمثلًا نرى في بلاط أمير مقاطعة «الأشمونين» المسمى «تحوتي حتب» أنه كان في خدمته مدير حقول، ورئيس خزانة، ومدير (حريم) المدينة، ومزارعون لأراضي المقاطعة، ومدير ثيران، ومدير البهائم الصغيرة، وهكذا بالتدريج نزولًا حتى نصل إلى مدير السمك. أما الإدارة المالية فكان يديرها موظفان كبيران وهما رئيس الخزانة (وهو على ما يظهر لم يكن يشغل مركزًا عاليًا) ومدير الخزانة (Newberry, "Bersheh" I, Pl. XXVII; Amenemhat II–Senwesert III).

وكذلك كان لأرض المعبد ولأرض الأوقاف الجنازية التابعة للمقاطعة مدير خاص (Blackman, "Meir" II P. 6; III, 5; Ibid, I, P. 19, II, P. 6) وكان يقف بجانب الأمير مدير مكتب وحاجب، وكذلك كان له مدير قاعة الإدارة، وهو الذي كان مكلفًا تنظيم الأعمال أمام المحكمة للسلطة العليا، (Newberry, B. H. I, Pl. XIII, P. 16) فلم يكن من الغريب إذن أن يحاط هؤلاء الأمراء بأعظم مراسم الاحترام ومظاهر العظمة في احتفالات البلاط مما كان يندر وقوعه في عهد الدولة القديمة حتى لوزير؛ ولذلك نجد في هذا العهد أن أمير مقاطعة «أرمنت» يقول عن نفسه: «إنني عند دخولي على سيدي يكون الكبراء خلفي، وحارس الباب يقف مطاطئ الرأس حتى أصل إلى المكان الذي فيه جلالته» (Griffith, P. S. B. A, 18, PP. 195 ff)، ومن جهة أخرى كانت قد ألفت في هذا العهد فكرة سياسية لمقاومة هؤلاء الأمراء، وذلك عندما أخذ الوزير يجمع لشخصه كل ألقاب الشرف التي كان يتحلى بها أمراء الإقطاع مما لم نجد له نظيرًا، وبخاصة في نهاية حكم الأسرة الحادية عشرة، ولا أدل على ذلك من الألقاب التي كان يحملها الوزير «أمنمحات» في أواخر الأسرة الحادية عشرة، وكذلك التي كان يحملها «منتو حتب» في عهد «سنوسرت الأول» (Die Veziere des Pharaonen Reiches. Von. Arthur Weil). وقد كان للوزير من الهيبة والعظمة ما جعل القوم يدعون له كما كانوا يدعون للفرعون بالحياة والصحة والعافية، وأول ما حدث ذلك في عهد «سنوسرت الأول»؛ على أنه لم يدعَ لأمير مقاطعة بمثل هذا الدعاء إلا أمير مقاطعة «الأشمونين».

على أن قوة أمراء الإقطاع التي وصفناها كان يوجد فوقها منذ الأسرة الثانية عشرة قوة أعظم من قوتها، وهي التي كانت تتمثل في الفرعون، فلم يعد الفرعون الذي يجلس على عرشه في «أثث تاوى» (اللشت) مجرد صورة أو خيال يستغله رعاياه الأقوياء، أو يتخذ ألعوبه في أيدي أمراء الإقطاع الذين كانوا لا يعترفون للملك بأي حق عليهم إلا

اسمًا، فقد أصبح الآن سيد البلاد كلها، فلا يتحرك إصبع أو يرتفع صوت إلا بأمره، وكذلك أصبح من الأمور المستحيلة أن يتصور الإنسان ملكًا «كأمنمحات» أو «سنوسرت» في ركاب أحد أمراء المقاطعات كما كان يفعل «خيتي» أمير مقاطعة «سيوط» في وقت الحروب التي كانت قائمة بينه وبين أمراء «طيبة» كما سبق ذكره، ولا جدال في أن أقل ملك من ملوك الأسرة الثانية عشرة كان في مقدوره أن يستخدم أمراء «سيوط» فيما يريد مع وضعهم في أمكنتهم اللائقة بهم إذا دعا الأمر لذلك، على أنه كان في استطاعة أصغر الأمراء في عهد الفوضى في البلاد أن يقاوم الفرعون وينتصر عليه بحدِّ السيف.

فمن ذلك أن أميرين من الأمراء الذين حكموا مقاطعة الأرنب (البرشة) وعاصمتها «الأشمونين» العظيمة كانا يفتخران بانتصارهما على الفرعون فيقول أحدهما: «لقد خلصت مدينتي في أيام الشدَّة من طغيان البيت المالك.» وهذا أكبر دليل على منتهى الفوضى في البلاد وضعف فرعونها في تلك الفترة؛ فلما جاء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة تمكنوا من وضع حدٍّ لهذه الفوضى بإدخال تغييرين عظيمين كان من جرائهما أن ضعفت سلطة أمراء الإقطاع، وأصبحوا غير قادرين على إحداث ضرر ما؛ وفي الوقت عينه لم يمس هذا التغيير ما كان لهم من سلطان مادي، وبخاصة بالنسبة لممتلكاتهم التي ورثوها عن آبائهم.

وأول تغيير هو تحريم الحروب الداخلية التي كان يثيرها هؤلاء الأمراء الأقوياء بينهم، كما كان يحدث في أوروبا في العصر الإقطاعي. أما التغيير الثاني فهو محو انتقال ملكية المقاطعة بالوراثة بلا قيد ولا شرط بين أولاد أمراء المقاطعات، وكان المبدأ الذي أصبح متبعًا هو أن يمنح الفرعون تقليد حكم المقاطعات إلى الأمراء الوراثيين المباشرين؛ أي إلى الابن أو ابن البنت عندما يكون نسل الذكور قد انقطع، ولكن إذا كان هذا التقليد خاصًّا بأسرة ثائرة على العرش، أو كانت تأتي بما يغضب الفرعون، فإنه كان يحرمهم هذا الحق، ويمنحه غيرهم من خدَّامه الذين يظهرون له إخلاصهم وولاءهم، وقد كان هؤلاء الأمراء كذلك يفتخرون بما شيدوه من قبور ضخمة وبشرف محتدهم، وشرف محتد زوجاتهم اللائي كنَّ لا تقل شهرتهن عنهم، غير أنه لم يعد احتفاظ هؤلاء الأمراء بسلطانهم راجعًا إلى أصلهم وحقوقهم الوراثية، بل كان يتوقف تقليدهم السلطة على ولائهم للفرعون الذي بيده السلطة، فهو الذي كان يوليهم بعد موت آبائهم، ويعين لهم حدود مقاطعاتهم الفاصلة، وما يخصهم من النهر العظيم حسب خط تقسيم المياه، ومن ثم بدأ أمراء المقاطعات ينقشون أسماء الملوك على جدران مقابرهم؛ غير أن

سلطة أمراء الإقطاع الوراثيين استمرت عظيمة حتى منتصف حكم الأسرة الثانية عشرة، بقدر ما كانت عليه في عهود أمراء الإقطاع في عصر الأسرة السادسة. فقد كان «أميني» أمير مقاطعة الغزال في عهد «سنوسرت الأول» يفخر بأعماله العظيمة وصفاته الممتازة التي تدل على روح العدالة الإنسانية كما سبق ذكره. ومن أقواله نعلم أن كل السكان المزارعين في المقاطعة كانوا عيالًا عليه بما أظهره من حسن الإدارة في حكم المقاطعة؛ ولم يقتصر ذلك على مواليه في ضياعه الخاصة، بل كان يدخل ضمن هؤلاء الفلاحون الأحرار والمأجورون، وكان شباب الفلاحين ينظمون فرقًا ويجندون، ويصبح من واجبهم أن يقدموا لأمير المقاطعة خدمة إجبارية (عمل يسخرون فيه)، وكذلك كان يتألف منهم الجنود الاحتياطيون للمقاطعة، وهؤلاء كان يقودهم الأمير لمحاربة أعداء الفرعون عند قيام أية حرب ضده، وعندما تكون المقاطعة ممتدة على شاطئ النيل كان لكل شاطئ فرقة تميز باسمها، فكانت فرقة الشرق وفرقة الغرب، مجاراة لما كان يحدث في الأزمان القديمة، وقد عرف بعض أمراء المقاطعات كيف يكسب قلوب أهل مقاطعته بحسن المعاملة، فمن ذلك ما نشاهده في مناظر قبور بعضهم مما يثبت ذلك كالمنظر الذي يخلد ذكرى «تحوتي حتب» أمير مقاطعة الأرنب (الأشمونين) فقد أمر بنحت تمثال له ضخم من المرمر المستخرج من محاجر «حتنوب»، وقد اشترك في جرِّه لنقله إلى مقبرة الأمير كل شباب المقاطعة، يساعدهم في ذلك الكهنة غير المحترفين بقوة ساعدهم، وكان مما زاد في قوتهم حسن إرادتهم ورغبتهم في ذلك. وقد حدث ذلك على مرأى من الشعب الذي كان يهتف لهم. هذا وكانت الجزية المستحقة للفرعون تصل إليه عن طريق المقاطعة؛ إذ كان هو الذي يجبيها، وقد افتخر «أميني» أمير مقاطعة «بني حسن» بأنه يدفع إلى بيت مال الفرعون كل سنة جزية من المواشي يبلغ عددها ٣٠٠٠ ثور من مقاطعته دون أن يكون عليه أي دين.

ولا نزاع في أن التغييرين اللذين أدخلهما الفرعون للحدِّ من قوة الأمراء الإقطاعيين كانا على جانب عظيم من الأهمية؛ فالأول: وهو إبطال الحروب الداخلية؛ كان نعمة على الأهلين، وذلك بتأليف جيش قائم تحت قيادته مباشرة. أما الثاني: وهو الاستغناء عن الحكام الوراثيين تدريجًا، وإحلال غيرهم من الموالين للفرعون محلهم، فكان له محاسنه كما كان له بعض المساوئ المؤقتة؛ إذ كان ينقص الحاكم الجديد عند توليته في بادئ الأمر الحب المتبادل في دائرة إقليمه، وبخاصة عندما يكون الحاكم أجنبيًّا عن أهل المقاطعة. وهذا لا يقدم لنا المثل الأعلى في نظام الحكم؛ على أن من حسناته في الوقت

نفسه أنه كان يحفظ حاكم المقاطعة من التحيز، وإن كانت هذه العاطفة ليس بالهين التغلب عليها؛ إذ الواقع أن الحاكم المحلي، وإن كان له خبرة بأحوال القوم وشعورهم في إدارة المقاطعة، إلا أنه في الوقت نفسه يحمل في صدره أحقادًا محلية وميولًا شخصية لا تجعل توزيع العدل بين أفراد شعبه خاليًا من الظلم والإجحاف والانحياز إلى فريق من الناس دون الفريق الآخر، على حين أن الموظف الذي كانت تنصبه الحكومة الرئيسية، رغم أنه كان جاهلًا بأحوال القوم الذين سيحكمهم؛ فإنه في نفس الوقت يكون خلوًّا من الأغراض الشخصية التي طالما كانت أكبر باعث على سوء الحكم في كل زمان ومكان.

سلطة أمراء المقاطعات لم تُمحَ جملة

ورغم هذا التغير فإن أمراء البلاد لم يُمحوا من البلاد جملة، بل كل ما حدث هو أن الفرعون قد حضد من شوكتهم؛ إذ لم تكن السلطة الرئيسية في يده قد بلغت الحد الذي يمكنه فيه أن يقضي على الأشراف في البلاد جملة؛ وكان الأشراف لم يبلغوا من الضعف بعد المرتبة التي تجعلهم في البلاد زينة أو أشباحًا، بل الواقع أن الأمير المحلي كان لا يزال قوة عظيمة في مقاطعته وإن كان يهاب مع هذا سلطان الفرعون، وكان لا يقوم بعمل هام في مقاطعته، إلا بعد الحصول على رضى الفرعون. فمن ذلك أن «تحوتي حتب» صاحب مقاطعة الأرنب كان محترسًا في عمله عندما أخبرنا أنه قد نال موافقة الفرعون عند شروعه في نحت تمثاله الضخم فيقول: «إن قلوبهم في عيد عندما رأوا سيدهم وابن سيدهم يقوم بنحت أثره، وهذه علامة على رضى الملك.» وبالاختصار يظهر أن فراعنة الأسرة «الثانية عشرة» الأول كانوا في مركز وطيد يمكنهم من الحصول من أشراف الأقاليم على أقصى ما يمكن من الأعمال المفيدة دون أن يتعرضوا للأخطار التي يسببها وجود مثل هؤلاء الأمراء، غالبًا كما حدث في الأيام الأخيرة من عهد الدولة القديمة وأدت إلى سقوطها، وهذا القول ينطبق بوجه خاص على النصف الأول من قيام هذه الأسرة.

السلطات التي اكتسبها الفرعون

وخلاصة القول نجد أن الأسباب التي نقلت السلطة جملة إلى يد الفرعون في كل البلاد من أقصاها إلى أقصاها تنحصر في أمرين عززهما ثالث؛ وهي تأليف جيش قائم، تقييد وراثة الملك في المقاطعات، وقد سبق الإشارة إليهما، ثم وضع نظام حكم ممتاز يلاءم

حالة البلاد وهو ما دعا إليه طائفة الكُتاب الذين كانوا يطالبون بالإصلاح الاجتماعي. ويلحظ في أول هذه الإصلاحات أن الفرعون لم يعد يرتكز في تنفيذ إرادته أو المحافظة على سلطانه على جنود حكام المقاطعات، بل اعتمد في ذلك على جيشه الذي ألفه هو ليكون عضده في تنفيذ سياسته داخل البلاد وخارجها (راجع مصر القديمة ج٢).

قانون وراثة حكم المقاطعة

أما الإصلاح الثاني: وهو موضوع تولي الأمراء الوراثيين حكم المقاطعات فقد وضع الفرعون في سبيلهم العقبات ليكبح من جماحهم ويكسر من شوكتهم. وحقيقة الأمر أن الأمراء العظام في البلاد كانوا لا يتولون وراثة المقاطعات عن آبائهم بدون قيد ولا شرط، بل كان كل أمير منهم يسيطر على نوعين من الضياع: واحدة منها ورثها عن والده؛ وهذه كانت تتوارثها الأسرة جيلًا عن جيل، ولا يمكن فصلها منهم؛ ومن هذه الناحية كان الأمير مستقلًّا عن ملك البلاد تمامًا، وقد كان من واجبات الفرعون أن يراعي قوانين الوراثة معه، كما تُراعى لأي فرد آخر، فلم يكن لديه الوسيلة ليتعدى عليه من هذه الناحية. ولكن من جهة أخرى كان أمير كل مقاطعة يستولي على نوع آخر من الأراضي التي كانت في الواقع إقطاعات ملكية؛ وكان لا بد عند توريثها لأي أمير آخر من الحصول على موافقة الفرعون، وإلا فلا يمكن أن يستولي عليها بأية حال، وفي العادة كان رضى الفرعون وموافقته أمرًا طبعيًّا. ولكن كان لا بد منها حتى مع أسرة «خنوم حتب» أمراء مقاطعة الغزال الذين اشتهروا بولائهم وخدماتهم للبيت المالك. وقد ذكر لنا «خنوم حتب الثاني» أن الفرعون عيَّن خاله «نخت» بحظوة خاصة أميرًا على «منعات خوفو» ... فعين ... «نخت» المنتصر المبجل ليحل بحكم وراثته في «منعات خوفو» بمثابة حظوة عظيمة من الملك، وذلك حسب الأمر الذي صدر من فم جلالة الملك «سنوسرت الأول» له الحياة والصحة والسعادة مثل «رع» أبديًّا. وقد عومل «خنوم حتب الثاني» هذه المعاملة نفسها قبل أن يتولى حكم الإقطاع الملكي فيقول: «الملك «أمنمحات الثاني» ... أحضرني؛ لأني كنت ابن حاكم لأرث حكومة أملاك أم والدي؛ وذلك لأنه كان يحب العدل كثيرًا ... ونصبني حاكمًا في السنة التاسعة عشرة على «منعات خوفو».»

ومن ذلك نرى أنه رغم استمرار الأسرة في تولي حكم الإقطاع الملكي وإدارة ضياع الأسرة الخاصة، فإن القاعدة المتبعة كانت أن يؤيد ذلك بمرسوم ملكي طوال قيام هذا النظام في عهد الأسرة الثانية عشرة. والظاهر أن سكان المدن كانوا يتمتعون في

هذا العهد بحرية عظيمة تفوق التي كان ينعم بها أهل الريف، فقد كانوا تحت إدارة حاكم المقاطعة ومراقبة الشرطة؛ ولذلك نرى أنه عندما أسس «أمنمحات الأول» مدينة جديدة في مصر الوسطى وضعها تحت مراقبة أمير المدينة وحاكمها، وهذه المدينة اسمها «سحتب إب رع» تيمنًا باسم التاج الذي يحمله الفرعون «أمنمحات»، وكانت تحت حكم الأمير «نحري» (Newberry B. H., I. pP. 62 ff)، وكان يحمل لقب حاكم المدينة الجديدة (؟)، وهو لقب كان شائعًا في عهد الأسرة السادسة، على أنه لم يكن تحت حكم الفرعون مباشرة، أو بعبارة أخرى تحت حكم وزرائه الذين كانوا يعتبرون حكام المدينة إلا مقر الملك و«منف» العاصمة الحقيقية للبلاد، ويحتمل كذلك «طيبة».

أما مدن المقاطعات فلم يكن هناك مراقبة متصلة يقوم بها «مديرون» و«كُتاب»، ولم يجند منها أفراد لأعمال السخرة، وكان من حق كل إنسان أن يباشر مهنته حرًّا، ويظن أنه كان في استطاعته أن يهاجر إلى مدينة أخرى ويتخذها له موطنًا. وقد كان لدى موظفي الفرعون الوسائل التي تخوِّل لهم التدخل في شئون المقاطعة، ورغم ما كان لحاكم المقاطعة من القوة العظيمة فإنه مما يشك فيه أنه هو الذي كان يعين قضاة المحاكم في المدن. وقد نمت في المدن حياة قوية كلها جد ونشاط؛ ولذلك نجد أن جمًّا غفيرًا من الأفراد الذين لم يكونوا منخرطين في سلك الوظائف الحكومية، يشتغلون صناعًا ونحاسين ونحاتين وتجارًا، وقد وصلوا إلى درجة عظيمة من الثراء يشهد بذلك ما يفهم من اللوحات الكثيرة التي أقاموها على قبورهم، على حين أننا نجد أقل منهم بمراحل في المدنية من دهماء القوم، فمنهم الفلاحون الذين يزرعون الأرض، ويقومون بأعمال السخرة، وكذلك نجد الصانع الصغير الذي يعيش تابعًا لغيره، وهؤلاء هم ثمرة المخالطة غير الشرعية، فليس لهم والد وهم كما يقال عبيد العصا، يُضربون أمام القوم.

تعاليم خيتي

ولدينا كتاب أدبي من هذا العصر يحتوي على نصائح والد لابنه، وقد نقلته مدارس الكتبة، وهو كتاب النصائح التي وجهها «خيتي بن دواوف» لابنه «بيبي»، وقد ظلت هذه التعاليم أو النصائح تُعرف بتعاليم «دواوف» إلى عهد قريب، والواقع أن صاحبها هو «خيتي بن دواوف» (راجع كتاب الأدب المصري ص٢٠٧ ج١)، وهذه التعاليم تصف لنا بصورة قاتمة عنيفة البؤس والشقاء الدائم الذي كان يعانيه كل فرد لا يحترف الكتابة (أي غير موظف)؛ إذ كان الموظف يعتبر مسيطرًا على الناس، وكان يغبطه على عمله كل

أصحاب الحرف الأخرى، وإذا كانت الأوصاف التي جاءت في هذه التعاليم صحيحة في تفاصيلها؛ فإنها تضع أمامنا صورة تدل على روح يغمره التعصب، ويحيط به ضيق التفكير الشديد، وكذلك تدل على أن كبرياء الموظفين لم ينحنِ أمامه قط الطبقات العاملة، ولا الصناع الذين كانوا يظهرون في كتاباتهم الجنازية كبرياء يعادل كبرياء الكُتاب، ولكنه على حق، وسنورد هذه التعاليم هنا ونعلق عليها لما لها من أهمية خاصة في كشف النقاب عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر.

تعاليم ألقاها مسافر اسمه «خيتي بن دواوف» لابنه «بيبي» في سفينة حينما سافر مصعدًا في النهر إلى عاصمة الملك ليلحِق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكام. وهذا العنوان وحده يكشف لنا عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية، فمنه نعلم أنه كان يوجد مدرسة جامعة يتعلم فيها أولاد عِلية القوم في عاصمة الملك، وأن العاصمة كانت وقتئذ في الوجه القبلي؛ لأنه كان على «خيتي» أن يقلع بسفينته مصعدًا في النهر، ومن الجائز أنها كانت وقتئذ «إهناسية المدينة» أو «طيبة». هذا إلى أن هذه المدرسة كان يعلَّم فيها أولاد حكام المقاطعات ومن في طبقتهم، وسنرى أن «خيتي» يقول لابنه وستكون رئيسًا لمجلس «قنبت» وهو ذلك المجمع الذي كان يدير حكومة البلاد في العهد الإقطاعي (راجع كتاب الأدب المصري القديم ص١٣٠) وكان معظمه في ذلك الوقت من حكام المقاطعات.

ونجد أن أول ما يُلقي «خيتي» على ابنه من النصائح هو أن يرسم له صورة قبيحة للجاهل، ثم يغريه بأن يحب العلم أكثر من حبه لأمه، ويقول له إنه عاجز عن تصوير جماله ثم يشير إليه بأن صناعة الكتابة تفوق كل الحرف، وأنه لو تعلمها هنأه القوم على ذلك فيقول: لقد رأيت من ضُرب، فعليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب، ولقد شاهدت من أعتق من الأشغال الشاقة، تأمل! لا شيء يفوق الكتب.

اقرأ في نهاية «كمت» (لعله اسم كتاب قديم) تجد فيه هذه:

> إن الكاتب عمله في كل مكان في حاضرة الملك ولن يكون فقيرًا،[١] والرجل الذي يعمل على حسب عقل غيره لا ينجح، ليتني أجعلك تحب الكتب أكثر من

[١] قد يحتمل أن كل وظيفة يشغلها لها صلة بالبلاط، وعلى ذلك فللكاتب نصيب قبل غيره في الأرزاق التي توزع هناك.

> والدتك، وليت في مقدوري أن أظهر جمالها أمام وجهك، وإنها أعظم من أية حرفة … وإذا أخذ التلميذ في سبيل النجاح، وهو لم يزَل طفلًا، فإن الناس تهنئه، ويكلف تنفيذ الأوامر، ولا يعود إلى البيت ليرتدي ثوب العمل (مثل أرباب الحرف الأخرى).

بعد ذلك يصف الأب لابنه الفرق بين مهنة الكاتب وما ينال صاحبها من الشرف وبين المهن الأخرى التي يكون من جرائها تعب الجسم واضمحلاله، وتعرض محترفها للأخطار فيقول: «على أنني لم أرَ قط قاطع أحجار كلف برسالة، ولا صانعًا أرسل في مهمة.» ثم يتناول بالشرح كل مهنة وما فيها من متاعب وحقارة بالنسبة لمهنة الكتابة، ويقدِّم لابنه درسًا في الحياة الاجتماعية، ويستعرض أمامه نواحي مصر الصناعية، ونصيب كل صانع من متاعبها، يذكر ذلك في شيء من المبالغة، ولكنه يكشف لنا في الوقت نفسه عن نوع الحرف التي كان يتخذها أبناء العصر المظلم الذي يتحدَّث عنه.

وإذا كان القارئ الأجنبي لا يحفل بهذا العرض كثيرًا فإن القارئ المصري يستهويه أن يراه؛ لأن فيه صفحة مضى عليها أربعة آلاف سنة، يستطيع أن يقرنها بصفحة مصر الحاضرة، فيرى أن الأخيرة تكاد تطابق الأولى مع طول العهد بينهما، وأن هذه المطابقة تشتد وتقوى في الدساكر والقرى حيث يضعف تأثير المدنية الحديثة.

فيتكلم أولًا عن صانع المعادن فيقول: ولكني رأيت النحاس يقوم بعمله عند فوهة الأتون، وأصابعه كجلد التمساح (أي إنها مجعدة وخشنة كجلد التمساح)، ورائحته أكثر كراهية من البيض والسمك.

ثم ينتقل إلى الخراط والسماك فيقول: وكل صانع يقبض بمهارة على المخرطة[٢] يناله الإعياء أكثر مما يفلح الأرض، وميدانه الخشب، وفأسه المخرطة (حرفيا المعدن)؛ وفي الليل حينما يطلق سراحه يعمل فوق طاقة ساعديه؛ وفي الليل يشعل النور (أي يستمر في عمله فلا راحة له).

ثم ينتقل إلى الكلام على البَنَّاء وما يناله من التعب الجثماني فيقول: والبناء يبحث عن عمل له (؟) في كل أنواع الأحجار الصلبة، وعندما ينتهي منه تكون ذراعاه قد

---

[٢] لا شك أن حكيمنا يبالغ في هذه الصورة التي يضعها أمام ابنه؛ لأنه مما لا شك فيه أن بعض أصحاب هذه الحرف كان يحب مهنته لذاتها، وإلا لما وصلت إلينا تلك القطع الفنية النادرة في إتقانها من أيدي هؤلاء الصناع.

تكسرتا، ويصبح مضني، وعندما يجلس امرؤ كهذا عند الغبش، فإن فخذيه وظهره تكون قد حطمت.

بعد ذلك يتناول حرفة الحلاق فيظهر لابنه أنها مضنية، وصاحبها لا بد أن يجول في الشوارع ليبحث عن عمل يسد رمقه بما يكسبه، فنراه يقول: والحلاق يحلق متأخرًا إلى الغروب … ويجول من شارع إلى شارع ليبحث عمن يحلق له وينهك ذراعيه لأجل ملء بطنه كالنحلة التي تأكل وهي تكد.[٣]

وكذلك يظهر له المتاعب التي يلاقيها التاجر الجوال ليحصل على ثمن سلعته فيقول: والتاجر (؟) يسيح إلى الدلتا ليحصل على ثمن سلعته، ويكد فوق طاقة ساعديه، والبعوض يقتله (لما يحمله من الجراثيم) …

ويتناول بعد ذلك أحقر الحرف وهي صناعة اللبن فيقول: وصانع اللبن (ضرب الطوب) الصغير الذي يصنعه من غرين النيل يقضي حياته بين الماشية (؟)، وهو على أية حال مختص بالكروم والخنازير (في المصرية تورية بين كلمة كروم وخنازير، وربما كان ذلك هو السبب في ذكرها هنا)، وملابسه تكون خشنة … وهو يشتغل بقدميه ويدق …

والظاهر أن حرفة البَناء كانت شاقة عند المصريين حتى إن حكيمنا هنا قد رصد لها فقرتين، غير ما ذكر، ولكن الفقرة الثانية فيها بعض الغموض فيقول: دعني أحدِّثك فضلًا عن ذلك عن البناء الذي يكون غالبًا مريضًا (؟)، وملابسه قذرة، وما يأكله هو خبز أصابعه، ويغسل نفسه مرة واحدة … وهو أتعس ما يمكن أن يتحدَّث عنه الإنسان بحق (؟) فهو كقطعة حجر (؟) في حجرة طولها عشر أذرع في ست … والخبز يقدِّمه إلى بيته، وأطفاله يضربون ضربًا … (وهذه القطعة غامضة في الأصل).

ثم يصف الحكيم لابنه حالة البستاني، ويظهر أنه يقصد به زارع الخضر والفاكهة على السواء فيقول: «أما البستاني فيحضر أثقالًا، وذراعه ورقبته تتألمان من تحتها، وفي الصباح يروي الكرَّاث، وفي المساء الكروم (لأن ذلك أحسن وقت لريها عندما تكون محملة بالفاكهة … فحرفته أسوأ من أية حرفة).

ثم ينتقل إلى وصف حالة الفلاح وهو الذي ينطبق على حالة فلاح مصرنا؛ الذي تفتك به الأمراض، وصاحب الأملاك يستنفد كل محصوله، فهو كالحيوان الضعيف الذي يعيش بين الأسود، فهو لا بد مأكول فيقول الحكيم: أما الفلاح فحسابه مستمر (أي إن

[٣] أي إنه يأكل أثناء عمله، وهذا ما نشاهده الآن في القرى المصرية.

صاحب الأرض يُطالبه دائمًا بتأدية ما عليه من الديون) إلى الأبد، وصوته أعلى من صوت الطائر «آيو» ... (دائمًا يشكو)، وهو كذلك أكثر تعبًا ممن يمكن التحدث به، وحالته كحالة الذي يعيش بين الأسود، وهو في غالب الأوقات مريض (؟) وعندما يعود إلى بيته في الغروب، فإن المشي يكون قد مزقه إربًا إربًا (أي إن طول الطريق يجهده إجهادًا كبيرًا فوق ما لاقى من التعب خلال اليوم).

يتناول بعد ذلك «خيتي» حكيمنا الناسج الذي يعمل وهو جالس طول اليوم، فيشبهه بقعيدة البيت، فهو لا يتمتع بالهواء الطلق، وهو مراقَب دائمًا، فإذا تباطأ عن العمل يومًا ضُرب بالسوط، وفي رواية أخرى انتُزع من مكان راحته كما تُنتزع زهرة السوسن من البركة، وإذا أراد أن يخرج من مصنعه ليستنشق الهواء، فلا يصل إلى ذلك إلا بالرشوة فيقول: وحال الناسج داخل مصنعه أتعس من حال المرأة، فركبتاه تكونان في بطنه، وهو لا يمكنه أن يستنشق الهواء، وإذا أمضى يومًا دون عمل انتُزع (من مكان راحته)، كما تُنتزع زهرة السوسن (وفي رواية أخرى فإنه يُضرب بسوط ذي ٥٠ شعبة) أو (فإنه يُضرب كسائمة الضحية ٥١ سوطًا)، وهو يقدم لحارس الباب خبزًا ليسمح له في ضوء النهار بالخروج.

بعد ذلك يصف الحكيم المحنك لابنه «حرفة» من الحرف التي كانت شائعة في ذلك العصر، ولكنها قد اختفت في عهدنا تدريجًا بانتشار المدنية؛ وأعني بذلك صناعة «السهام» التي لم يفتأ يستعملها المصري؛ لأنها كانت من أهم أسلحة الحرب، فيصف كيف يحتم على صاحبها أن يذهب إلى الصحاري والجبال، حيث الظران الذي تُصنع منه السهام، وما في ذلك من بُعد المسافة، وما يعانيه هو وحماره، وما يستلزمه من المال لمن يرشده إلى الطريق في وسط تلك الفيافي والقفار، وما يتطلبه كل ذلك من وقت ونصب فيقول: وصانع السهام يكون تعسًا عندما يرحل إلى الصحراء، وإن ما يعطيه حماره لكثير، هذا فضلًا عن أنه عمل يستغرق وقتًا طويلًا، ويعطي كذلك الذين في الحقول، والذين يرشدونه إلى الطريق كثيرًا أيضًا، ويصل إلى بيته في المساء بعد أن يكون السير قد أنهكه.

ثم يتناول بعد ذلك حرفة أخرى من التي أخذت تتلاشى في مصر، وإن كانت لم تزَل باقية في بعض الجهات المتطرفة التي لم تصلها المدنية الحديثة، وأعني بها نقل البريد برجال خُصوا بذلك، فيصف لنا كيف أن عامل البريد عند ذهابه إلى بلد أجنبي يترك وصيته خوفًا من عدم عودته، لما في رحلته من المخاطر، وحتى إذا عاد إلى مصر ثانية

فإنه لا يعود مرتاح النفس؛ لأن التعب يكون قد أضناه فيقول: وحامل البريد عندما يسافر إلى بلد أجنبي يوصي بأملاكه لأولاده خوفًا من الأسود والأسيويين، وهو يعلم ذلك وهو في مصر، وعندما يعود إلى بيته يكون تعسًا؛ لأن المشي قد كسره، وسواء أكان بيته من النسيج أو اللبن (؟) فإنه لا يعود منشرح القلب[٤] (وفي رواية أخرى: وعندما يصل إلى بيته مساء فإن قلبه يكون فرحًا).

ويعقب ذلك كلام على حرفة لم نصل إلى كنه معناها، والغرض من ذكرها هنا هو أن يُظهر له بشاعة رائحة محترفها؛ ولذلك سنورد الكلمة هنا بأصلها المصري.

أما الـ «سثناوي» فإن رائحة إصبعه تكون نتنة، والرائحة التي تتصاعد منها هي رائحة جثة، وعيناه تكونان مثل ... (؟) ... بسبب المسوح ... وهو لا يقصي عنه «سثناوي» وهو يقضي وقته في تقطيع الخرق (؟) وما يمقته هو الملابس.

ثم يشفع ذلك بالتحدث عن حرفة يظهر أنها تشبه السابقة في قذارتها، وأعني بها حرفة الإسكاف، فيصف الحكيم لابنه كيف أن هذا التعس يحمل أوانيه التي فيها آلاته وجلده، وكيف أن صحته تسوء وجسمه يهزل، وقد يُجبر على قطع الجلد بأسنانه فيقول: والإسكاف يحمل أوانيه إلى الأبد (وفي نسخة أخرى يحمل آلاته إلى الأبد) وصحته تكون كصحة الجيفة؛ وما يعض عليه هو الجلد.

ثم يأتي بعد ذلك الكلام على حرفة الغسال، ومجازفة صاحبها بنفسه أمام خطر التمساح — مما يدل على كثرة هذا الحيوان في ذلك العصر في النيل — وما يلاقيه بسببها من تعب جثماني، وما يشعر به من تعس عندما يضع مئزر سيده ليؤدي فيه عمله، فيقول: والغسال يغسل على الموردة، وإذ ذاك يكون جارًا قريبًا للتمساح (في صورة إله)، وعندما يخرج الوالد «الغسال» متجهًا نحو الماء المضطرب، يكون ابنه وابنته في عمل هادئ منعزل عن كل عمل آخر، وعندئذ يقول ابنه وابنته: إن هذا ليس بعمل يجد فيه الإنسان راحة، وهو منفصل عن أي عمل آخر، وغذاؤه يكون مختلطًا بمكان حساباته، وليس فيه عضو سليم، وإذا ارتدى مئزر المرأة فإنه وقتئذ يكون تعسًا، وهو يبكي حينما يمضي وقته حاملًا الـ «مكاتن» ... ويقال له «الغسيل» أسرع إليَّ ...

ويعقب هذا بحرفة أخرى ليست من نوع الحرف السابقة بل هي حرفة لهو؛ ولذلك يقول عنها إنها تجعل صاحبها يهمل أعماله، وأعني بها حرفة صيد العصافير، فيقول:

[٤] لأن أولاده يكونون قد قسموا ملكه ظنًّا منهم أنه قد مات في طريقه.

وصائد العصافير تراه في منتهى التعس عندما يشاهد ما في السماء ويهمل أعماله، (وفي رواية أخرى)، وعندما تطير الطيور المتنقلة[٥] في السماء يقول: ليت عندي شباكًا هنا، ولكن الله لا يهيئ له نجاحًا (؟).

بعد ذلك ينتقل إلى حرفة صيد السمك، ويصف الحكيم لابنه ما فيها من أخطار التمساح، فيقول: إني مخبرك كيف أن حرفة صياد السمك أكثر تعسًا من أية حرفة أخرى، فإنه يشكو منها، أليس عمله على النهر حيث يختلط بالتماسيح (؟)، وإذا لم يقُل له الإنسان يوجد تماسيح فإن خوفه يعميه.

وهنا ينتقل الكاتب الحكيم إلى إطراء حرفة الكتابة، فيقول: إن صاحبها هو الذي يصدر الأوامر.

ثم يصفها بأنها أحسن من كل الحرف التي استعرضها أمامه، فيقول: تأمل! فإنه لا توجد حرفة من غير رئيس لها إلا صناعة الكاتب، فهو رئيس نفسه،[٦] فإذا عرف الإنسان الكتب فإنه يقال عنه بحق: إنها مفيدة لك … وما أقوم به في سياحتي إلى الحاضرة، تأمل! إني أقوم به حبًّا فيك، ويوم في المدرسة مفيد لك، وما تعمله فيه يبقى مثل الجبال.

ويعقب هذه الكلمات الحكيمة بعض فقرات غير مفهومة وتدل مقدمتها هذه: «دعني ألق عليك فضلًا عما سبق كلمات لأعلمك» أنها تبحث في موضوع جديد؛ ومن المحتمل أنها إضافات قد أُدخلت على المتن الأصلي فيما بعد، فمنها فقرة تعلِّم الإنسان حسن السلوك في حضرة العظيم، فيقول حكيمنا: وإذا دخلت ورب البيت مشغول بآخر قبلك، فعليك أن تجلس ويدك في فمك، ولا تسألن عن أي شيء، وفضلًا عن ذلك لا تتكلمن بكلمات غامضة، ولا تنطق بلفظة وقحة … ثم إذا حضرت من المدرسة وقد أعلن وقت الظهر لك وأنت سائر تصيح فرحًا في الطرقات، فحينئذ … وإذا أرسلك رجل عظيم برسالة فأدِّها كما أُلقِيت عليك ولا تنقِص منها ولا تزِد …

ويلي ذلك نصيحة غالية في القناعة في المأكل والمشرب من أحسن ما قيل في هذا الباب؛ إذ يقول: «كن قنوعًا بطعامك، إذا كان يكفيك ثلاثة رغفان، وشرب قدحين من الجعة، فإذا لم يكن بطنك قد اكتفى بعد فحاربه (؟).»

---

[٥] تؤلف الطيور المتنقلة عنصرًا هامًّا في طعام المصريين.

[٦] هذه الفكرة هي الغرض الذي يرمي إليه الكاتب من أقواله.

ثم إن الحكيم يحض ابنه على أن يستمع لكلمات الرجل العظيم ويتخذ لنفسه صديقًا من سنه، فيقول: انظر، إنه لحسن أن تفض الجمهور وتستمع منفردًا إلى كلمات العظيم ... اتخذ لنفسك رجلًا صديقًا من جيلك.

وفي النهاية نرى «خيتي» يقول لابنه: إنه قد وضعه على الطريق الإلهية وإن ربة «حصاد الكتاب» على كتفه منذ ولادته؛ أي إنه لن يقاسي آلام الحاجة، وأنه بفنه يصل إلى أعلى وظيفة في البلاط، بأن يصبح عضوًا في المجلس الأعلى للحكام «قنبت»، بل قد يكون الرئيس فيه بما أوتيه من علم وحكمة، ثم يخبره أن هذه الطريق ممهدة أمامه وأمام أولاد أولاده، فيقول: انظر، إني قد وضعتك على طريق الإله، وإن «رننوتت» الكاتب (أي ربة الحصاد للكاتب) قد أصبحت على كتفه منذ ولادته، وهو يصل إلى باب مجلس «القنبت» عندما يصل إلى سن الرجولة، تأمل! إنه لا يوجد كاتب قد حُرم القوت الذي هو متاع بيت الملك (عاش في صحة وفلاح)، و«مسخنت» (إلهة الكتابة) هي سعادة الكاتب، وهي التي تضعه على رأس المجلس الأعلى «قنبت»، ويجب على الإنسان أن يشكر والده ووالدته اللذين وضعاه على طريق الأحياء، والآن تأمل! فإن هذا (أي ما نصحتك به) ما أضعه أمام وجهك ووجه أولادك، وقد انتهى هذا بسلام.

ويستنتج مما ذكر أن الكُتاب كانوا كثيرين، وأن الكاتب كان صاحب القدح المعلى، والرأي المتبع (Chronique d’Egypte, No. 43, P. 50 ff.).

نظام الحكومة في عهد الأسرة الثانية عشرة

(١) نظام الحكم

أما نظام الحكم الذي وضع في عهد الدولة الوسطى فيعتبر بالنسبة لتاريخ مصر عهد رخاء؛ إذ به وطدت وحدة البلاد، وامتدت حدودها، وهو في الواقع يعد عصرًا ذهبيًّا، ويرجع الفضل في ذلك إلى قوة شكيمة مؤسسها العظيم وأخلافه من بعده في تنفيذ المنهاج الذي وُضع لهذا النظام بكل دقة وعناية يشد أزرهما نشاط وحزم، وإذا لم يصلنا من المعلومات عن النظم الإدارية إلا الشيء القليل نسبيًّا، فإن ما لدينا يمكننا من القول بأن ما بلغته مصر في ذلك العهد من التقدم لا يقل بكثير عما وصلت إليه حكومات عصرنا الحديث من النظام والعدالة الاجتماعية.

وإذا كانت مصر في عهد الملوك الأول من الأسرة الثانية عشرة لا تزال تمثل في ظاهرها أحوال الحكومة الإقطاعية، فإن حقيقة الأمر تنبئ بأن العصر الذهبي للإقطاع قد أصبح خبر كان، حقًّا قد ظهر بلاط الأمراء بأبهة وفخامة أكثر مما كان في عهد الانتقال الذي كان عصر فقر وبؤس، ولكن ذلك في الواقع برق خلب، لا يمكن أن يعطينا صورة حقيقية عن قوتهم وعظم جاههم؛ إذ كان هؤلاء الأمراء في ذلك الوقت لا يستمدون مواردهم من قوتهم الشخصية، بل من النشاط الجديد الذي ينبعث من حكومة قوية الأركان، ومن الرخاء الذي تفيض به البلاد، فمنذ عهد «أمنمحات الأول» لم تعد المقاطعات تعتبر أنها حكومات داخل حكومة، ويتضح ذلك من مجرد كون ملوكها يقيمون من جديد المعابد

للآلهة المحليين في كل المقاطعات، وهذا برهان محس على سيادتهم، وبخاصة إذا علمنا أنهم أقاموا هذه المعابد على يد مهندسيهم وموظفيهم، لا على يد أمراء المقاطعات وهم كهنتها العظام. حقًّا إن أملاك التاج الخاصة لم يعد لها وجود في المقاطعات منذ زمن بعيد، ولكن في مقابل ذلك كانت تجبى الإتاوات من المواد الطبعية في كل المقاطعات للبيت المالك، وقد كان أمير المقاطعة مكلفًا توريدها، وكانت تحضر بطاقات في مكتب الوزير ليحصي فيها كل سكان البلاد في سنين معينة.

(Griffith, “Kahun Papyri”, 1892. Fiches de rensencements des Maison. Griffith, L. C., P. 19. Cf. Borchardt, “Votrag des Hamburger Orientalistis-.chen Congresses”, P. 29)

وقد كان لزامًا على كل رب أسرة أن يقيد في هذه البطاقة عدد أفراد أسرته ومواليه، ثم يقسم يمينًا أنه صادق ومخلص في كل ما دوَّنه في هذه البطاقة، وقد وصل إلينا عدد عظيم من هذه البطاقات التي عثر عليها في مدينة «كاهون» التي أسسها «سنوسرت الثاني» بالقرب من هرمه الواقع عند مدخل «الفيوم»، على أن هذه البطاقات لم تقتصر فائدتها على المساعدة في جمع الضرائب، بل كانت تساعد الإدارة على معرفة حالة سكان كل البلاد المدنية بمجرد نظرة خاطفة، وكذلك الواجبات الملقاة على عاتق كل فرد من أفراد الرعية، وإذا كنا نلاحظ أن أمير المقاطعة هو الذي كان يقود جنود الرديف المجندين من مقاطعته، فإن الملك هو الذي كان يقوم بعملية الاقتراع من بين الشباب الصالحين للخدمة العسكرية، ففي مقاطعة «طينة» مثلًا كان يجند واحد من كل مائة رجل، وكانت القضايا يُفصل فيها بمحاكم مؤلفة من موظفين حكوميين، وكذلك بوساطة محكمة الثلاثين التي كانت تحت إدارة الوزير، وكانت تتألف من ستة البيوت العظيمة (محاكم). وكان مجلس الثلاثين يُسمى كذلك مجلس الثلاثين العظام، وكان يضم في بادئ الأمر الحكام الذين كانوا يديرون دفة البلاد في عهد الحكم الإقطاعي، ومنهم كان يؤلف مجلس البلاط، وقد خلف مجلس الثلاثين هذا مجلس العشرة العظام للوجه القبلي الذين كانوا يتولون إدارة أمور البلاد في عهد الدولة القديمة، وكان في ازدياد أعضاء هذا المجلس الذي أنشئ لمساعدة الملك، وللحد من سلطان حكام المقاطعات تقوية لهم، وعون على تعزيز الأداة الحكومية، وداعية إلى القبض على ناصية الحال في طول البلاد وعرضها؛ لأن معظم الأعضاء كانوا يشتغلون في الوقت نفسه حكامًا للأقاليم. وسادت هذه الحال في العهد الإهناسي وعهد الأسرة «الحادية عشرة»، وقد كان أعضاء هذا المجلس

يمثلون سلطة الملك في مختلف المقاطعات، غير أنه استبدل بهم حكامًا انتخبهم بنفسه لم يكن لهم حق الوراثة، فأصبحوا في النهاية قوة عظيمة في جانبه. وقد لاحظنا أن لهذا المجلس سلطانًا قاهرًا في أوائل عهد الدولة الوسطى، وكان أعضاؤه يقومون بأهم الأعمال في كل مرفق من مرافق الدولة، وهذا المجلس بعينه كان يُسمى «قنبت» (أي المجمع) وقد عرفنا تكوينه من نقش وجد في «حتنوب» القريبة من «ملوي» جاء فيه عن أمير مقاطعة الأرنب (المقاطعة الخامسة عشرة) المسمى «نحري الأول» ما يأتي: «وقد اجتمع للتشاور مع المجمع «قنبت»، دون أن يعرف ذلك أحد، وقد كان البلاط منشرحًا للآراء التي أدلى بها، وقد كان من الرجال المخلصين، وقد كان يأتي إليه «المجلس» الحكام (حكام المقاطعات من الوجه القبلي)، والظاهر أن اجتماع المجلس هذا كان سريًّا كما يدل على ذلك سياق الكلام، وكذلك كان اجتماعه لمحاربة أهل الجنوب المعادين (راجع: Meyer, Gesch, Par. 286; Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de I'Ancienne Egypte, Vol. III, 73–75, 93–94).

وكذلك كانت كل الأمور الخاصة بقانون الأحوال الشخصية مثل الوصايا تحرَّر أمام شهود وبحضور الموظفين (الكُتاب) الذين كانوا يشرفون على هذه الإدارة لا أمام إدارات المقاطعة.

(٢) تقسيم مصر الإداري

وقد كانت مصر في عهد الدولة الوسطى مقسمة قسمين رئيسيين: وهما الوجه القبلي والوجه البحري، كما يدل على ذلك قائمة المقاطعات التي كُشف عنها حديثًا في معبد «سنوسرت الأول» الذي وجدت أحجاره مستعملة في مباني «البوابة» الثالثة التي أقامها «أمنحوتب الثالث» في معبد «الكرنك»، وقد أعيد بناء معبد «سنوسرت» هذا ثانية في ناحية من معبد «الكرنك»، ويلاحظ أن كلًّا من هذين القسمين قد رُسم فوقه سماء واحدة منفصلة عن الأخرى؛ ولذلك نجد في هذه الوثيقة أن مقاطعات الوجه القبلي قد غُطيت بسماء تبتدئ بالمقاطعة الأولى، وتنتهي عند المقاطعة الثانية والعشرين، وكذلك الحال مع مقاطعات الوجه البحري، نجده تحت سماء منفصلة أيضًا مما يدل على أن كلًّا من القطرين كان عالمًا منفردًا بنفسه قبل توحيد القطرين.

(٢-١) تقسيم الوجه القبلي قسمين إداريين

ومن جهة أخرى نعرف أن الوجه القبلي قد انقسم قسمين رئيسيين داخليين يبتدئ بالمقاطعة الأولى جنوبًا وهي مقاطعة «آبو»؛ أي (إلفنتين) إلى أن تصل إلى المقاطعة العاشرة، وهي التي تُسمى مقاطعة «وازيت» وعاصمتها مكان بلدة «أبو تيج» الحالية، ثم نلاحظ أن المقاطعة الثانية والعشرين التي تُسمى مقاطعة «السكين» في قوائم البطالمة قد ذُكرت في قائمة «سنوسرت» باسم المقاطعة الفاصلة «حنت»؛ أي التي تفصل بين القطرين الرئيسيين، الوجه القبلي والوجه البحري، والواقع أن تقسيم الوجه القبلي قسمين كان معروفًا في المتون المصرية قبل عهد «سنوسرت الأول». وقد فهم بعض علماء الآثار هذا التقسيم ضمن المتون المصرية، فمثلًا نجد في نقش من نقوش الأسرة الحادية عشرة أن مصر العليا كانت تشمل المقاطعات من أول «إلفنتين» (أسوان) إلى مقاطعة «وازيت» وعاصمتها «أبو تيج» الحالية و«كوم أشقاو»، وقد سميت في المتن نفسه بأنها «باب الشمال»؛ أي باب مصر الوسطى. وكذلك نجد أن «سيوط» كانت تُسمى «تب شمع» (رأس الجنوب) أو نهايته، راجع هذا الموضوع في كتاب أقسام مصر الجغرافية للمؤلف، وكذلك راجع (Erman, A. Z., Vol. 29, P. 119; Griffith, “The petrie Hieratic Papyrus,” P. 21; Steindorff, “Die. Aegyptische Gaue,” Abh. d’Sachs, Ges. Phil. Cl. 27, 1909, 896; Meyer, “Gesch”, Par: 284).

والظاهر أن تقدُّم الفرعون في جمع كل السلطة في يده كان مستمرًّا؛ فنرى أن كل مقابر حكام المقاطعات التي يمكن أن يحدد تاريخها يرجع عهدها إلى النصف الأول من هذه الأسرة، فالمقابر الضخمة التي نُحتت في الصخور في عهد كل من «سنوسرت الثاني» حوالي عام ١٨٨٠ق.م، وبخاصة مقابر أمير «منعات خوفو» المسمى «خنوم حتب الثاني» في «بني حسن»، ومقبرة أمير مقاطعة الأرنب المسمى «تحوتي حتب» في «البرشة»، ومقبرة أمير «النوبة» المسمى «سرنبوت الثاني» في «إلفنتين» كل هذه تعد أفخم المقابر، غير أنها في الوقت نفسه كانت آخر ما أقيم لأمراء في جبانات هذه المقاطعات، هذا ولا نجد قط في أية بقعة من بقاع القطر مقبرة لحاكم مقاطعة، أو لوحة تذكارية لأمير مقاطعة إلا رجع تاريخها إلى ما قبل عهد هذين الفرعونين، وهذه الحقيقة تحتم علينا أن نفرض حدوث انقلاب بعيد المدى في عهد «سنوسرت الثالث»، أو على الأقل ينبغي أن نعترف أن مثل هذه المقابر قد انقضى عهدها؛ أي إن حكم المقاطعات قد قُضي عليه نهائيًّا، وقد استمر بقاء الأملاك العقارية بطبيعة الحال، وحفظ لبعض الأسر مركزها

الأميري. وعندما تصادفنا أسرة قوية من هذا النوع (في عهد الأسرة الثالثة عشرة أو حتى في عهد أوائل الدولة الحديثة في المقاطعة الثالثة من الوجه القبلي «الكاب») ونشاهد في قبورها إحياء هذا التقليد ثانية؛ وهو الذي كان خاصًّا بأمرائها القدامى، فإنا نرى مع ذلك رؤساء هذه الأسرة لا يحملون لقب حكام المقاطعات القديم «حري زازات»، بل يحملون ألقاب موظفين قد وضعت حديثًا، وعلى ذلك يظهر لنا في عهد كل من «سنوسرت الثالث» و«أمنمحات الثالث» أن قوة الأشراف واستقلالهم قد قُضي عليه قضاء مبرمًا، ومن المحتمل أن الأنظمة التي تكلمنا عنها فيما سبق لم تكن قد وضعت إلا في هذه الفترة.

(٣) الإدارة الرئيسية

وكانت إدارة البلاد تسير على نمط إدارة الدولة القديمة، فكانت تسير بعدد عظيم من المصالح (بيوت) والمخازن، وبيوت للمالية يقوم بإدارتها جم غفير من الموظفين على رأسهم حاملو أختام الملك، وأمناء الخزانة، ومديرون أيضًا. وقد حافظ النظام الجديد على معظم الألقاب القديمة، غير أن ترتيب وظائف المصالح لا يزال معقدًا، فقد كانت تحتوي على آلاف من العمال والنحاتين وعمال المناجم، والحمالين والمجدِّفين ... إلخ، وكل هؤلاء كانوا يعملون لخدمة الفرعون، وقد استمر دفع الأجور من الموارد الطبعية، كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة، وذلك بمنحهم عطايا من المائدة الملكية، وكان يعطاها كل على حسب درجته، هذا بالإضافة إلى هدايا كان يقدمها الفرعون من حقوله وعبيد أجنبية أو موال مصريين، وحيوانات وأشياء ثمينة من كل نوع.

(٤) أعمال المالية العامة

أما أعمال المالية العامة فكان يشرف عليها رئيسان للخزانة، وكان عملهما ينحصر في مراقبة الدخل والخراج، وجزية البلاد الخاضعة لمصر، وكذلك محصول المحاجر والمناجم، هذا إلى مباني الأشغال العامة، وكان الرئيس الأعلى للإدارة وممثل الفرعون في داخل البلاد وخارجها هو الوزير الذي يضع الخارجين عن الطاعة تحت النير، ويلاحظ الموظفين، ويدير شئون ترقيتهم، ويفصل في منازعات الحدود، «ويجعل الأخ وأخوته يعودون إلى بيوتهم متصالحين بقرار فمه.» وقد كان في الوقت نفسه هو رئيس الشرطة في العاصمة،

وقد كان منذ أقدم العهود هو الذي يشرف على محكمة ستة البيوت، وهذه المحكمة كما قلنا تتألف من الثلاثين العظام للوجه القبلي، فاللقب القديم يظهر ثانية ولكنه يفقد معناه الأول، والواقع أنه لم يعد يعني مدير المقاطعات، بل يعني ممثلي السلطة المركزية التي كانت تقسم فيها أعظم أمور الإدارة أهمية، فمثلًا كان على أحد هؤلاء الأعضاء أن يجمع بيانات عن أحوال البيوت، وآخر كان مكلفًا من قبل الفرعون أن يقوم برحلات تفتيشية أو بإقامة مبانٍ، وفي كثير من الأحوال كانوا يرأسون مثل الوزير حملات حربية.

(٥) بطانة الفرعون

بعد أن عين الفرعون رجالًا ممن يثق بهم ويعتمد على إخلاصهم حكامًا للمقاطعات، وبعد أن منحهم حقوقًا إدارية مماثلة للتي يتمتع بها الأمراء الوراثيون (Kees, "Kul-turgeschichte" P. 205) فكر في تقوية الملكية عن طريق آخر، فأخذ يعمل بجد في انتخاب أناس يثق بهم ليكونوا بطانة له يعتمد عليهم في مهام الأمور وقت الشدة، وقد رأى ألا فائدة من انتخابهم من أشراف بيوتات الدولة القديمة الذين كانوا عمادها، بل اتخذ أتباعه الذين وضع فيهم الثقة بمثابة حرس شخصي له، وقدمهم على كل الموظفين القدامى، ومنحهم مدافن في داخل محيط هرمه في الجبانة الفرعونية الواقعة في «اللشت» أو في «دهشور»، ثم أمر مدير مباني الجبانة الفرعونية أن يقيم لهم مدافن، وحبس عليها كل الأوقاف اللازمة لإقامة شعائرهم الدينية، وعين لهم الكهنة الجنازيين، كل ذلك على حساب الفرعون الخاص، ومن أملاكه الخاصة. وكذلك كانوا يمتلكون مدة حياتهم عقارًا وموالي، وذلك لارتباطهم بالبيت المالك كما كان يحدث في عهد الدولة القديمة، وقد قص علينا «خوسبك» في لوحته Stéle Manchester أنه بوصفه تابعًا للفرعون، وبوصفه وكيل مدير أتباع الملك، يملك ٦٠ رأسًا من الموالي، وكذلك كوفئ بمائة رأس من الأسرى منحها إياه الفرعون على ما قام به في الحروب التي شنها الفرعون ضد أعدائه (Sethe, "Lesestuke", P. 83)، وقد كان «سنوهيت» الذي مر ذكره تابعًا من هذا الطراز في بداية الأسرة الثانية عشرة، ويدل تاريخه على أنه يمثل الرجل المخلص الذي يبقى بجانب سيده وقت الشدة، وقد وصف لنا «أمنمحات الأول» في الحِكَم المنسوبة إليه أخلاق التابع عندما خانه كل من حوله عند اغتياله بقوله: «وفي يوم المصيبة ليس للمرء خادم أو تابع» وهذا وصف حق ينطبق تمامًا على الإنسان في كل زمان ومكان.

والظاهر أن هؤلاء الحراس هم الجنود الذين كان يعتمد عليهم ملوك الأسرة الثانية عشرة في حراستهم؛ إذ كان الجيش قبل تأليفهم يتكون من فرق من المقاطعات، ومن

جنود الشرطة «مازوي» النوبيين، وكان الفرعون يضم أحيانًا إلى هؤلاء رديفًا دائمًا له، وكانوا يجنَّدون إما بالاقتراع أو كانوا جنودًا محترفين، ثم كوِّنت فرقة الحرس هذه، وكان يطلق عليها «رجال حاشية الملك»، وأخيرًا نجد أن الفرعون قد أخذ يسترد مكانته الدنيوية والروحية في نفوس الشعب، وصار ينظر إليه القوم بأنه ابن «رع» الذي أنجبه من ظهره، وأنه أصبح المختار من قبله ليحكم مصر وغيرها، وكذلك أصبح في يده السلطة المطلقة في البلاد، كما كانت الحال في عهد عظماء ملوك الدولة القديمة، وقد بدأ فعلًا روح الوحدة يدب في جسم الدولة بصورة ظاهرة خلال حكم أواخر ملوكها، وبخاصة في عهد «أمنمحات الثالث» وسلفه من قبله، ويرجع الفضل في ذلك لجيل الموظفين الجديد الذي عمل ملوك هذه الأسرة على إنشائه ليلتف حولهم، وليكون لهم نصيرًا وظهيرًا على تسيير أداة الحكم في البلاد، والقضاء على حكام المقاطعات كما أسفلنا. ولا غرابة إذن في أن نرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم في نفوس أولادهم، وقد بلغ بهم حب الفرعون درجة جعلت تعاليم بعضهم لأبنائه تدور حول حب الفرعون وخدمته والإخلاص له، لا أن ترشدهم إلى الحياة الصالحة السعيدة كما كانت التعاليم التي وصلت إلينا حتى الآن، كما أسلفنا عند الكلام على «أمنمحات الثالث».

ومع كل ذلك فإن مركز الفرعون كان مختلفًا تمام الاختلاف عما كان عليه الملوك القدامى مثل «سنفرو» أو «خوفو»؛ إذ قد اختفت الفكرة الساذجة التي كانت توحي بأن البلاد لم تُخلق إلا لخدمة الفرعون وإقامة المباني الضخمة له، ولغيره من العظماء، بل على العكس قد أصبح على قوة العرش يرتكز رخاء البلاد وسعادة الأهلين، وكذلك لم يكن لكثرة عدد رجال البلاط الفرعوني أهمية عظمى؛ لأن ألقاب البلاط التي كانت تفوق كل الألقاب الأخرى في عهد الدولة القديمة عددًا وضخامة أصبحت الآن في المؤخرة، وحتى بالنسبة للوزير، وحامل الختم الملكي، ولم يعد يتحلى بهذه الألقاب الاسمية إلا حكام الأقاليم، ومن ثم أصبحت الفوائد الحيوية للبلاد هي التي تحتل المكانة الأولى، ويرجع الفضل في ذلك إلى تركيز السلطة وإلى الاختصاص المحلي اللذين كان يشد أحدهما أزر الآخر في تسيير الأعمال، مما جعل قوة الفرعون تسير على نهج حدود معينة، ومن هنا نشاهد هذا الازدهار الفني وتلك النهضة الداخلية اللذين يتميز بهما هذا العصر. ومن المحتمل أن هذا الجهد العظيم الذي بُذل لإقامة هذا النظام الدقيق الذي يميز عهد الدولة الوسطى كان بمثابة رد فعل لا بد منه ضد سوء النظام والفوضى اللذين ميزا عهد الإقطاع الأول. فنرى أن الوظائف قد وُزعت توزيعًا دقيقًا، وكذلك ظهرت وظائف

جديدة وبخاصة بين أفراد الطبقة الوسطى التي أمكننا أن نكوِّن عنها فكرة طيبة من اللوحات التذكارية العدة التي أقامها أفرادها في مدينة «العرابة المدفونة» المقدسة، مثال ذلك وظيفة «النائب للسلطة العليا»، أما رؤساء المصالح والإدارات فنخص بالذكر منهم وظائف كل رؤساء المكاتب المختلفة، وهم الذين كان عملهم لا يقتصر على كونهم رؤساء تشريفات وحسب، بل كانوا كذلك يقفون بجانب رئيس الخزانة، ومن هؤلاء نذكر اثنين ظهرا في بلاط الأسرة «الثالثة عشرة» وكان كل منهما يحمل لقب «مدير هيئة الموظفين»، وإليهما يرجع الفضل في وضع كتاب إحصاء قيم يبحث في تدبير شئون البلاط والإدارة (راجع: Ein Rechnungbuch des Koniglichen Hofes aus der 13 dynastie, A. Z. Vol. 75, P. 51 ff.; Mariette, Le Papyrus Boulaq, 1874).

وهذا الكتاب هو المعروف بورقة بولاق نمرة ١٨، وعلى حسب ما ذُكر في هذه الوثيقة نجد أنه قد جاء بعد الوزير في ترتيب الوظائف التي كان أصحابها يشرُفون بالمثول بين يدي الملك، القائد، ثم مدير الحقول، ثم كاتب الوثائق الملكية، وأحيانًا رئيس الموظفين، وكل منهم كان يحمل لقب حامل الختم للوجه البحري، وهذه الوظيفة كان يحملها كذلك مدير قاعة الإدارة العامة؛ وهي المركز الرئيسي الذي كان يدير منه الوزير شئون الدولة. ومن بين الوظائف التي كانت متصلة بإدارة البلاط اتصالًا وثيقًا وظيفة «فم نخن» أو «قاضي نخن» «هيراكنبوليس» وهي «الكاب» الحالية، وإن صاحبها قد رُقي فيما بعد إلى وظيفة حامل الختم للوجه البحري.

وقد كان يوجد بجانب هذه الوظائف أنواع جديدة من المشرفين مثل المشرف على مائدة الحاكم، وهو بوجه خاص تابع لإدارة بيت المال أو الخزانة، وغير ذلك من المشرفين بالترتيب حتى المشرف على حراس الكلاب. وكذلك تذكر لنا هذه الوثيقة ألقابًا قديمة خاصة بالبلاط والإدارة، فمن ذلك نجد كثيرًا ممن يحملون لقب «عظيم عشرة الوجه القبلي» وأسنُّ رجال القاعة، وكذلك ألقاب محضة مثل «قريب الفرعون».

وقد حفظ لنا كذلك كتاب الإحصاء هذا بعض معلومات سمحت لنا بأن نأخذ فكرة عامة عن إدارة الموارد الطبعية الاقتصادية، وهي تعد من أصعب الأمور وأعوصها في هذا العصر؛ إذ وجدنا مقيدًا فيها مجمل الحقائق العامة عن المواد الغذائية التي كانت تقدَّم لرجال البلاط وغيرهم في مقر الحكم «بطيبة»، ويشمل ذلك كل من كان يأكل من مائدة الفرعون من الموظفين، وهؤلاء كان يزداد عددهم بطبيعة الحال ازديادًا عظيمًا في المواسم والأعياد. ولما كانت هذه الورقة من الأهمية بمكان فإنا سنورد هنا ملخصًا لها ليرى القارئ ما كانت عليه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والدينية.

(٥-١) كتاب الإحصاء لبلاط الفرعون من عهد الأسرة الثالثة عشرة

عَثر على هذه الورقة «مريت» عام ١٨٧٢م، وقد أطلق عليها العلماء الباحثون ورقة بولاق رقم ١٨؛ وقد فحص محتوياتها الأستاذ «جرفث» ومن بعده «بورخارت» وأخيرًا علق عليها الأستاذ «شارف» (A. Z. Vol. 57, PP. 51 ff.) وقد أرَّخ «بورخارت» هذا المتن بحق عن الأصل باسم الملك «سبك حتب»، وكذلك بوجود اسم الوزير «عنخو» وهما ينسبان للأسرة الثالثة عشرة؛ هذا فضلًا عن طراز كتابة الورقة ولغتها فإنها خاصة بهذا العصر.

وهذه الورقة تحتوي على متنين كُتبا بخطين مختلفين، وسنقصر بحثنا على المتن الطويل، وهذا يشمل اللوحات من ١٤–٤٦ منها اللوحات من ١٤–٣٠ على ظاهر الورقة، ومن ٣١–٤٦ على باطن الورقة، هذا إلى بعض قطع ممزقة نجدها في اللوحات الباقية حتى لوحة ٥٥، ويلاحظ أن بداية الورقة قد ضاع وكذلك جزء كبير من وسطها، ويمكن القول بأن طول الورقة كان ٧½ من الأمتار، ويتبع ما جاء في ظاهر الورقة ثلاثة نقوش على ظهرها (لوحة ٤٢ ج٢ سطر ١–٣ ولوحة رقم ٤٢ جزء ٣ من سطر ١–٣)، وهي ملاحظات قصيرة قد نسيها الكاتب فكتبها بسرعة عند لف الورقة.

(٥-٢) الكاتب ومسك دفتره

يُدعى الكاتب الذي وجدت معه البردية في القبر حسب كتابات أخرى وجدت مع الورقة «نفر حتب» ويحمل لقب «كاتب البيت العظيم للحريم»، والمدهش أنه لم يأتِ اسمه بين الموظفين الذين ذُكروا في هذه الورقة، وقد كانت إدارته في «طيبة»، وكان مختصًّا بمسك الدفاتر الخاصة بإطعام البلاط والأسرة المالكة، وكذلك موظفي البلاط، وكانت الميزانية اليومية تشمل الدخل والخرج، وقد كان كل منهما يدوَّن في سجل على انفراد ثم يصفى حسابهما، وما تبقى يرحَّل لحساب اليوم التالي، ومما تبقى من هذه الورقة يمكننا مراقبة حسابات المؤن المنصرفة في البلاط من المدة التي تقع بين ٢٦ من الشهر الثاني لفصل الفيضان حتى اليوم الرابع من الشهر الثالث من نفس هذا الفصل، وقد دوِّنت هذه المدة على وجه الورقة، ثم من اليوم السادس عشر إلى اليوم الثامن عشر من نفس الشهر من السنة الثالثة من حكم الملك «سبك حتب» وهذا الجزء الأخير مدوَّن على ظهر الورقة، وقد دوَّن الكاتب فضلًا عن ذلك القوائم الخاصة بتلك المصاريف العظيمة لأولئك الأشخاص العديدين، ومنها ترى الآن الجم الغفير من الموظفين الذين كانت معهم أسرهم أحيانًا يعيشون من فيض البلاط الملكي.

(٥-٣) المصروفات التي كانت تُعطى بأمر شفوي

كان الرئيس المباشر للكَتبة هو مدير هيئة الموظفين لحجرة الأرزاق المسمى «رنف ام اب»، وهذا الموظف الكبير، كان يصدر الأمر للكاتب، وكان هو بدوره يتلقى معلوماته من مكتب الفرعون مباشرة؛ ولذلك كانت القاعدة المتبعة في بداية الأمر الذي يصدره أن يكتب «…»

ولهذا أتى مدير هيئة المستخدمين لحجرة الأرزاق بالأمر الذي صدر له من مكتب الفرعون، ولما كانت هذه الأوامر تصدر الواحد تلو الآخر، فإن الصيغة كانت تُختصر، فيكتب فقط: «أمر آخر قد جاء من أجله هذا الموظف الكبير.» وفي حالة شاذة قد أعطى كذلك إدارة «خنت» أمرًا، ولما كان «رنف ام اب» هو الذي يتسلم أوامر المؤن، فإنه لم يسمح لكاتب الإدارة «خنت» بالدخول في مكتب الفرعون، بل كان يتسلم هذا الأمر على يد خادم؛ ولذلك كان يعبر عن ذلك في بادئ الأمر الصادر بهذه الطريقة كما يأتي: الأمر الذي خرج به خادم الحاكم (الملك). وكانت محتوياته يعبر عنها في كل الأوامر بصورة واحدة تقريبًا: اسمحوا لفلان أن يتسلم شيئًا من الطيبات؛ وعلى ذلك كان الكاتب يؤشر على الأمر: «يُعمَل حسب الأمر»، وبهذه الطريقة كانت تصدر الأوامر بصورة مدهشة في الدقة لدرجة أننا وجدنا في حالة واحدة، صدر الأمر بصرف أشياء طيبة، ولم تُذكر قط تأشيرة مثل هذه في أمر آخر.

والآن يتساءل المرء هل كان للكاتب قاعدة معينة يسير على مقتضاها؟ والواقع أنه لا بد أن نسلم بأنه كانت هناك طريقة للتوزيع حسب نظام معلوم لتنفيذ هذه الأوامر الخاصة بالمؤن. ففي ما يختص بالخبز، والجعة كانت نسبة التوزيع فيهما هي عشرة إلى واحد، وقد استنتجنا ذلك من الموازنة بين الأوامر والتأشير على تنفيذها، وهي التي ستمر علينا مفصلة هنا في توزيع الطعام؛ ففي حالة نجد أن الفرد حينما يأخذ عشرة أرغفة يأخذ إبريقًا واحدًا من الجعة، وفي حالة أخرى نجد أن فردًا أخذ من الخبز ثلاثين رغيفًا، ومن الجعة ثلاثة أباريق. وكان يطلق على مفردات الطعام باعتبارها وحدة مشتركة لفظة «فكا»؛ أي (هبة)؛ وهذه الكلمة تدل في هذه البردية على الزيادة التي تُعطى فوق المرتب المعتاد؛ وبخاصة هبة العيد من الطعام وما شابه ذلك. ومثلها كلمة «شابو» = هبة، ونكاد لا نعلم قط الأساس الذي كان يسير عليه الموظف في صرف أشياء خاصة، ففي بعض الأوامر القليلة نجد أن الكاتب كان يقتصد في تعداد المئونة المنصرفة، ثم

يؤشر بما يدل على صرفها بالعبارة المألوفة، غير أنه يأتي بعد ذلك ببعض ألفاظ غير مفهومة، ثم جزء مهشم يجوز أنه يحتوي على لقبين.

(٥-٤) المصروف بأوامر مكتوبة

كان الكاتب يصله مع الأوامر الشفوية أوامر أخرى مدوَّنة كان ينقلها هو، وهي ما يطلق عليها في عرفنا أوامر عادية، وقد كانت هذه الأوامر لا تخرج عن تلك التي تصدر من مصلحة رئيسية، وكانت في العادة إلى إدارات المخازن وهي: إدارة مخزن رأس الجنوب، وإدارة ما يقدِّمه القوم، ثم إدارة الخزانة، وقد أطلق على الجهات الثلاث لفظ «ثلاث الإدارات». وقد كان الكاتب من باب الحيطة يدوِّن اسم الرسول الذي يحمل الأمر، وعلى هذا النحو كان الأمر يسير في طريقه الطبعي بكل وضوح، فكان على الكاتب أن يعمل عملية توزيع المئونة، أما عملية الصرف الرئيسية فكانت تقوم بها الإدارة المختصة. فمثلًا كان بعث «المازوي» يتسلم مؤنًا من الإدارات الثلاث للمخازن، وقد كتب لرجال البعث مع الأمر مقدار ما يصرف من المؤن من كل إدارة، وكذلك كانت الحال بالنسبة للعطايا التي كانت تصرف من هذه الإدارات الثلاث للبلاط، حيث كانت إدارة رأس الجنوب تقوم بصرف النصيب الوافر من هذه المؤن، فتصرف من الخبز مثلًا ٨٥٠ رغيفًا في مقابل ٤٦٠، ٣٦٠ رغيفًا تصرفها الإدارتان الأخريان على التوالي، وبهذه الطريقة كانت كل إدارة تعرف ما يصدر لها من الأوامر وما يجب عليها أن تنفذه. أما الأعمال الكتابية المتبادلة فكان على الكاتب الخاص بمسك الدفاتر بكل إدارة أن يعده للتنفيذ وبذلك يسهل العمل.

(٥-٥) المصروف من غير أوامر

وفضلًا عن تنفيذ الطلبات والأوامر المكتوبة، وهي التي كانت على وجه خاص تحتوي على صرف الخبز والجعة واللحم، فإنه كان من واجب الكاتب صرف أشياء خاصة (مثل الكحل والنبيذ والشهد وما أشبه ذلك). والواقع أن عمله لم يكن هنا قاصرًا على تسجيل هذه الأشياء بل صرفها أيضًا، والتسجيل الخاص بهذه المصروفات كان في العادة يبتدئ هكذا: «مأخوذ من المكان المختوم». ومما يلاحظ هنا أن الكاتب ليس لديه قط أي أمر كتابي، ويجوز أن الذي صرف بهذه الكيفية كان يرتكز على قاعدة لم يعد لها وجود بعد. وقد وضع مرة في هذا النوع من المصروف بخور غفل أخذ لتحضير بخور … فكان

يؤخذ ٣/٨ حقات (٣/٨ جالون) من البخور الغفل لأجل تحضير ثلاث قطع من البخور على شكل الرغيف الأبيض المثلث الشكل، طول الواحدة منها ذراع وخمسة أشبار، وثلاث أخرى طول الواحدة منها ذراع. وقد كان حجم قطع البخور التي ذكرت في هذه الورقة يتراوح بين ذراعين وخمسة أشبار، وكذلك كان يوجد في هذه الطلبات كندر مطحون، وغيره من أصناف البخور. والنوع الآخر من البخور الذي جاء ذكره في هذه الورقة هو بخور «ساتت» وكان يكال بالمكيال (حقات)؛ أي جالون أوال (هن) وهو مكيال ١/١٠ من الجالون، ومن الأشياء الأخرى التي كان يأخذها الكاتب من الحجرة المختومة الكحل، وكان يوزن «بالدبن» (= ٩١ جرامًا) والنبيذ، وكان يكال بالإبريق «هبنت». ثم أصناف خاصة من النبيذ (نبيذ الواحة البحرية ونبيذ الواحة الخارجية) وفاكهة … وشهد «أوان»، وغالبًا ما يدوِّن الكاتب اسم المتسلم من باب الاحتياط فيكتب:

عُهد به لموظف مخزن فلان، أو سُلم إلى عامل البيت، أو الخادم فلان.

على أنه في نفس المتن نجد موظفًا آخر اسمه «بيت اللحم» يتسلم شهدًا وبخورًا. ومما هو جدير بالملاحظة في كل هذه الأشياء التي أُخذت من الحجرة المختومة (أو المغلقة) أنها لم تسجَّل في الحساب الختامي اليومي.

(٥-٦) الدخل

وكان يوجد بجانب مجموعة أوجه الصرف الثلاثة التي ذكرناها قوائم عدة خاصة بالدخل. وكان يعبَّر عن الدخل اليومي المعتاد بلفظة مشتقة في المصرية من فعل دخل كما في العربية، وفي أحوال أخرى خاصة كان يعبر عن الدخل بكلمة «إتاوة»؛ أي ما يُؤتى به، والفرق بينهما يصبح واضحًا عندما يتتبع الإنسان قيد الخبز في الحساب الختامي اليومي؛ إذ نجد هناك خبز الدخل وخبز كل منهم على حدة. والواقع أن ذلك كان صحيحًا لدرجة أن الدخل أو الخرج العادي كان دائمًا يعتبر من الدخل «عقو»، أما الدخل الخاص، أو الهبات الخاصة فكانت تعتبر من الإتاوة «إنو»، ولكن عند عدم وجود خبز من الإتاوة في الإيراد يكون خبز الدخل كافيًا. وإذا اتفق أنه في يوم ما لا يوجد توزيع هبات فإن العنوان «خبز الإتاوة» لا يوجد كذلك في النقوش. ولدينا لأجل مسك دفاتر الدخل اليومي قائمة تعتبر كقاعدة أساسية نريد فحصها، وقد نُقلت هنا برمتها

لما لها من الأهمية لفحص هذا الموضوع، وقد وضعت في بداية الجزء الذي بقي لنا من هذه البردية: ورد فعلًا بمثابة دخل السيد (الملك) له الحياة والصحة والسعادة.

ورد لإدارة مخزن رأس الجنوب		إدارة مخزن ما يقدمه القوم	إدارة المالية	المجموع
خبز مختلف الأنواع	٨٥٠	٤٦٠	٢٠ (٣)	= ١٦٣٠
جعة في إبريق دس	٧٠	٣٦	٤ (٢)	= ١٣٠
حلوي	١			= ١
حنو	٥٢			= ٥٢
خبز حرت	٢			= ٢
خضر في حزم	١٠٠	٥٠	(٥٠)	= ٢٠٠

فمما سبق نجد أن هذا الدخل كان في الواقع يوزع إلى ثلاث إدارات للمأكولات، وسنجد الأرقام التي وضعناها بين قوسين مكررة بصورة واحدة، وكذلك العناوين الستة التي وضعت لأنواع المأكولات في الميزانيات الأخرى التي وردت في هذه الورقة.

فهذه القائمة تضع أمام الكاتب الدخل الذي يُصرف منه العطايا الضرورية، وهذا الدخل كان قد وضع لمدة ٢٧ يومًا، يُصرف منه كل يوم أكثر من ٥٠ رغيفًا من الخبز و٥ أباريق من الجعة، كما تدل على ذلك كل عمليات الطرح الختامية، وقد كان الأمر الكتابي التابع لهذه القائمة موجهًا إلى مكتب الوزير «إدارته»، وقد نقله الكاتب على عجل، وإذا كانت هناك زيادة فإنها كانت تدوَّن ويؤشَّر عليها بملاحظة قصيرة، ويعبر عنها كما يأتي: وردت بمثابة زيادة للسيد (الفرعون) له الحياة والصحة والسعادة، ثم تُذكر الزيادة بعدد الأرغفة والجعة. أما الدخل الذي كان خارجًا عن ذلك «الإتاوة»، فكان الكاتب دائمًا يقيده لضرورة طارئة، مثل مصاريف الأعياد، وكان حساب كل منهما يظهر منفصلًا عن الآخر من أول الأمر، ولكننا لا نعلم كيف كان جَبْي هذا، فهل كان عن طريق الضريبة أو الجزية أو محصول الأملاك الفرعونية؟ كل هذا لا نعلم عنه شيئًا قط، وقد كان هذا بالنسبة للكُتاب على حد سواء؛ لأنه كان يدوِّن ما كانت تمليه إدارة المخزن بوصفه دخلًا، وهذا الدخل كان ينقسم ثلاثة أقسام: (١) ما يجب أن يدخل. (٢) ما

دخل فعلًا. (٣) ما بقي ولم يسدَّد بعد. أما موضوع ما دخل فعلًا فنجد البرهان عليه في الميزانيات التي في القوائم.

ولدينا قوائم للدخل من إدارة «رأس الجنوب»، ومن «إدارة» ما يقدمه الشعب، ففي الإدارة الأولى كان الموظف الأعلى المسئول عنها هو الوزير، غير أننا نجد في قائمة أخرى مماثلة أن المورِّد للأطعمة هو مدير هيئة المستخدمين لبيت الأرزاق، وقد كانت الأشياء التي تُصرف في عيد «منتو» للمئونة يعبَّر عنها: هبات لعيد «منتو»، دون أن يذكر اسم الموظف الذي يصرفها، وإننا إذ نجد في أول مكان ذكرت فيه قائمة الإتاوة «إنو» نرى في الواقع النموذج للتعبير عنها في القيد في كل القوائم الأخرى الخاصة بهذا النوع من الدخل.

فثلاثة أنواع الخبز «بعت» و«بايت» و«برسن نزم» وهي التي تُسمى إجمالًا في الميزانية دائمًا باسم خبز مختلف الأنواع «تا-شبن»، تُذكر بعد أنواع مختلفة من الفطائر. وكذلك كان عدد الفطائر الذي كان يكتب أحيانًا بالمداد الأحمر، وأحيانًا بالمداد الأسود، يدل على مختلف أنواع الفطائر أو نوع الغلة التي صُنع منها، ثم تتبع ذلك الجعة مع ذكر نوعها وحلاوتها؛ ففي القائمة الأولى قسمت هذه إلى «نزمت خنتو (؟)» و«شويت» و«حنباس تاحز»، ولكن كان يطلق عليه في الميزانية الخاصة بدخل العيد أنواعًا أخرى مختلفة من الجعة مثل جعة «قفط» وجعة «جاشو نشو دس» (مكيال)، أو إناء خاص وغير ذلك. وعند هذا الحد تنتهي القائمة بكومة القربان المجهزة بكل شيء. وتبتدئ محتويات هذه الكومة بالجعة في إبريق «قبي»، وأنواع أخرى من الجعة، ثم يأتي بعد ذلك فطائر مشطرة، وخبز «بَيِت حتا»، وخبز «برس وزع»، وخبز أبيض، وخضر، و«نبات الأرض»، وطير «عشا». ومما يبرهن على أن أكوام القربان هذه لم تكن لغرض القربان فقط، أنها كانت تُضم مع مجموعة جعة، حسب الميزانية، وقد كانت كومة القربان تُمد كذلك بأنواع فطائر أخرى، مع إضافة فطائر حلوة و«كعك حلو»، ونجد أن الكاتب قد جمع ثلاث قوائم قصيرة للإتاوة في واحدة (مجموع دخل هذه الأيام)، وذلك اختصارًا في تسجيل الميزانية، ونجد غير دخل إدارتي «رأس الجنوب» وإدارة «ما يقدمه الشعب» دخلًا خاصًّا قد أضيف إليهما، وقد كُتب عليه ما أُخذ بوساطة الخادم لهذا اليوم، ويحتوي ذلك على جعة وفطائر، وخبز، وكذلك نجد في قائمة دخل عنوانها: «مجموع دخل هذا اليوم»، وفي هذه القائمة نجد مذكورًا الموظفين المختلفين، هذا إلى ذكر إحدى أخوات الملك بوصفها مورِّدة للطيور أو العطور، فذكرت الطيور «زن زن»

والبط «ست» والإوز «سر» والحمام، ثم جاء ذِكر الكندر «بخور»، كل هذه الأشياء كانت تقدَّم هدية لعيد «منتو» السابق الذكر، وقد قدَّم كل واحد من الموظفين ما يمكنه أن يقدمه، فالوزير الذي كان على رأس القائمة قدَّم قطعة من البخور طولها ذراع، أما رئيس الكتبة «رنف ام اب» فقد قدَّم خمس حمامات، في حين أن مدير الأملاك الأعظم قد ضرب الرقم القياسي؛ إذ قدَّم أحد عشر من الطيور المختلفة، ولا ندري إذا كان ذلك مجرَّد مصادفة أم لا.

(٥-٧) المتأخر

ولا بد أن نقول كلمة مختصرة هنا عن المتأخر الذي نجد ذكره من وقت لآخر في أنحاء البردية، فمثلًا نجد في ٢٩ يومًا أن ٩٠ رغيفًا من المتأخر قد سدِّدت، وكذلك لدينا قائمة أخرى، غير أنه مما يؤسف له ممزقة، وقد كتب فيها: «خصم من المتأخر»، وكان لا يزال هناك متأخر، جديد آخر؛ وعلى أية حال فإنه لم يكن هناك مراقبة شديدة في موضوع المتأخر؛ ولذلك يفهم الإنسان ضمنًا أن المتأخر كان يتراكم بعضه على بعض.

(٥-٨) الميزانية

ونجد من أنواع السجلات التي فحصناها حتى الآن أن الكاتب كان يضع ميزانيته يوميًّا وسنشرحها هنا ببعض التفصيل، كما جاء في لوحة ٢٧ / ٢ من رقم ٣–١٥:

ونرى من هذه القائمة أنه من السطر الثالث إلى الثامن كان يحتوي مجموعها على الإيرادات التي منها أخذ المنصرف الذي تشتمل عليه الأسطر من ٩–١٤، ويلاحظ أن الجملة التي في السطر الثامن وهي التي ترجمناها: ما يخصم من هذا (أي الوارد)، وهي في الواقع تساوي في حسابنا اليوم علامة ناقص. أما السطر الثالث فيتألف منه العنوان الكلي للقائمة، والسطر الرابع يقدم لنا الدخل اليومي على أساس القوائم السالفة الذكر التي أُضيف لها زيادات مرتبة حسب مصدرها، وكل قائمة يقابلها العنوان الذي كُتِب فوقها. ولا نجد شاذًّا في هذه الأعمدة التي تحتوي على الأعداد إلا عمود الخضر، فإنه قسم إلى «حادت» وهو (مكيال للخضر) و«خرش» (حزمة خضر)، أما السطر الخامس، فيعني نقل ما تبقى من ميزانية اليوم السابق، والسطر السادس يدل على ملحق يومي من معبد آمون. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن معبد «آمون» هذا كان في نهاية الدولة

٣ الدخل المتنوع للسيد (الفرعون) له الحياة والصحة والسعادة السنة الثالثة الشهر الثالث من فصل الفيضان	خبز متنوع		جعة إبريق دس	خبز حرت	حلوى		خضر حادت مكيال	خرشو حزم
	دخل	إتاوة			إناء (باجا)	إناء (حنو)		
٤ قائمة بدخل السيد له الحياة والصحة والسعادة في السنة الثالثة الشهر الثالث من فصل الفيضان	١٦٨٠		١٣٥	٢	١	٥٢		٢٠٠
٥ نقل ما تبقى من السنة الثالثة الشهر الثاني من فصل الفيضان يوم آخر الشهر	٢٠٠		٢					
٦ نقل ما أخذ بأمر ملكي من معبد آمون	١٠٠		١٠					
٧ نقل ما نقص في هذا اليوم من دخل الإتاوة		٩٣٨	٩٠	٧			٧	
٨ المجموع – وما يخصم من هذه القائمة	١٩٨٠	٩٣٨	٢٣٧	٩	١	٥٢	٧	٢٠٠
٩ ما يعطاه بيت الفرعون من دخل مقدَّمًا	٦٢٥		١٥ (+) ٤٥	٢	١	٥٢		١٠٠

٣ الدخل المتنوع للسيد (الفرعون) له الحياة والصحة والسعادة السنة الثالثة الشهر الثالث من فصل الفيضان	خبز متنوع		جعة إبريق دس	خبز حرت	حلوى		خضر حادت مكيال	خرشو حزم
	دخل	إتاوة			إناء (باجا)	إناء (حنو)		
١٠ عطايا جرايات المخزن التي يعطاها الناس وبيت المرضعات	٦٣٠		٦١					٥٠
١١ عطايا المخزن التي يأخذها الخدم الكثيرون المخلصون	٥٢٥		٣٨					٥٠
١٢ هدايا تُعطى للعظماء وأصحاب بيت المرضعات		٣١٠	٣٥	٥			٧	
١٣ هدايا تُعطى لكبير المقاطعة والتابع والمواطنين		٢٩٠	٢٢					
١٤ مجموع ما صُرف	١٧٨٠	٦٠٠	٢١٦	٧	١	٥٢	٧	٢٠٠
١٥ المتبقي	٢٠٠	٣٣٨	٢١	٢	طيب	طيب	طيب	طيب

الوسطى يعيش على الضرائب التي تجبَى له، في حين أن معبد «منتو» في مدينة «المدمود» وتمثاله كانا يعيشان على أعطية العيد وطعام العيد.

وأخيرًا نجد في السطر السابع كذلك إضافة ما نقص في اليوم؛ أي إنه أضيف ما وجد ناقصًا بعد عمل حساب الدخل السابق في هذه القائمة (راجع لوحة ٢٧، ١٨، ٢٥). أما المنصرف فقد وُضع في ثلاثة أسطر ويحتوى على العطايا التي تورَّد يوميًّا، ففي السطرين العاشر والحادي عشر نجد أن لفظتي «بعت-شنع» قد عُبر عنهما بجرايات المخزن.

أما السطر التاسع فقد جاء فيه ما يُعطى للبيت المالك، والسطر العاشر ما يُعطى لموظفي البلاط، وأما السطر الحادي عشر فيحتوي على ما يُعطى للخدم، أما السطران ١٢، ١٣، فيحتويان على مصاريف خاصة.

والسطر الخامس عشر يحتوي على الباقي المنصرف وهو ما يُنقل إلى ميزانية اليوم التالي. ويلاحظ أن الصنف الذي جاء فيه المنصرف قدر الدخل كان يعبَّر عنه عند المصري بكلمة «طيب» (أي مضبوط). وعلى أية حال يلاحَظ هنا أنه في أحوال كثيرة كان ما يصرفه الكاتب من بعض المواد لا يظهر في القائمة، وبخاصة اللحوم؛ ولذلك يجب أن يبحث عن ذلك في قوائم أخرى غير هذه.

(٥-٩) الأشخاص الذين يُطعَمون في مناسبات منوَّعة طعامًا خاصًّا

بعد أن وجهنا نظرة خاطفة إلى مسك دفاتر الكاتب، نريد الآن أن نوجه نظرنا فيما يأتي إلى موضوعات أخرى تتعلق بمصاريف ومؤن خاصة، وكذلك الأشخاص الخاصة بها، وسنتناول أهم ما جاء في هذه البردية.

أولًا: الملكة المسماة «إي» التي كانت لا بد تتمتع بنصيب وافر من العناية، فقد كانت نظيراتها من الملكات الأخر المعروفات تملك بيتًا خاصًّا، وكذلك كان لها أملاكها الخاصة، وكانت لها إتاوة خاصة تورَّد إليها في صورة نوع من الخبز لم نجد نظيره في هذه البردية مثل الخبز «شنس» والخبز «خاز»، وفي موضع آخر نجد أن الكحل … إلى «بيت الأرزاق» (قب) يورَّد إلى دخل الملكة، ومن ثم نعلم أن كلمة «قب» قد حدِّد معناها بأنها مكان للمئونة أو ما يشبه ذلك.

ثانيًا: وقد كانت تحفظ أشياء مشابهة للأشياء السابقة كذلك في بيت مدير هيئة المستخدمين لبيت الأرزاق، واسمه «رنف ام اب» وهو نفس رئيس الكتبة الذي جاء ذكره كثيرًا في هذه الورقة.

ثالثًا: وقد ذُكر اسم السيدات هنا خلافًا لما جاء ذكره … في الطعام والقوائم الخاصة بالعيد في موضعين فقط، ففي واحد منهما كان خاصًّا بتوزيع البخور والنبيذ لإقامة الشعائر الدينية، فمن بين الذين تسلموا ذلك أخت أمير «أرمنت». هذا إلى ذِكر امرأتين إحداهما تسمى «خوتي» والثانية «ست نت بر …» في أحد الطلبات العادية المحفوظة في هذه الورقة.

رابعًا: ولدينا سجل يختلف عن النموذج المتبع تمامًا؛ إذ قد ابتدئ بدون أمر سابق: إنها زيادة للموظفين، وأخوات الفرعون، وأصحاب بيت المرضعات في هذا اليوم حسب الأمر … لكل واحد منهم من تلك الزيادة التي في مخزن بيت الصباح (؟) وفي بيت «خنت» غير أنه مما يؤسَف له أننا لا نعلم شيئًا البتة عن تلك المصاريف.

خامسًا: قد جاء ذكر أصحاب الحرف كثيرًا في السجلات، فمثلًا نجد أنهم كانوا يتسلمون عطاياهم التي كانوا يتناقشون في أمرها مع الرئيسين: وهما عظيم عشرات الجنوب، والمشرف على الكتبة (XXII, 13–20) ويجب أن يكون أصحاب الحرف أولئك تابعين لمصنع للأعمال اليدوية، ونجد حسب ما جاء في طلب آخر وهو الوحيد الذي قد أُشير فيه إلى وحدات الطعام بالضبط أن عمال صناعة السفن قد نالوا زيادة خاصة (XXII, 13–22).

سادسًا: وقد ورد في هذه الورقة ذكر هبة لمواطنين مختلفين من عامة الشعب مرة واحدة، وكانت هذه الهبة تحتوي على طعام. وقد عبر عنها بصريح العبارة أنها وُزعت في قاعة الاستقبال الملكية، وقد اشترك فيها كبار المدينة، وتابع الفرعون، والمواطنون وكان عددهم يبلغ نحو العشرين.

سابعًا: بعث «المازوي»: وهذا البعث يُعتبر من الأشياء القليلة التي نعلم عنها بعض التفاصيل في هذه الورقة، فنعرف أولًا أن هذا البعث من «المازوي» الذين جاءوا من بلاد النوبة، قد شغل موضوع إطعامهم حيزًا كثيرًا من الورقة. فنسمع أولًا في اليوم الثاني من الشهر الثالث من فصل الفيضان، عن توريد من إدارة «خنت» لأجل «المازوي» الذين أُتوا مطأطئين الرءوس، وفي اليوم التالي ذكر لنا اجتماع رجال هذا البعث، ومن

ثم نفهم أنهم لم يأتوا إلى العاصمة بوصفهم رجال شرطة. يدل على ذلك أيضًا وصف استقبالهم: «لقد استقبِلوا شخصيًّا وأحضِروا بوساطة كاتب الوزير فلان.» وبعد ذلك تأتي القائمة التي ذُكروا فيها وهي: اثنان من كبار «المازوي» وتابع، و«مازوي» «حو» و«مازوي» صغير وثلاث سيدات من سيدات الإدارة (؟)، وقد وُزع رجال بعث «المازوي» على إدارتين من إدارات المخازن الثلاثة لصرف المؤن منهما، وقد صدر أمر عادي للإدارة بإطعامهم، غير أنه قد وقع ما يحدث في كل زمان ومكان من الأمور المتناقضة لإنجاز شيء واحد يصدر به أوامر مختلفة متضاربة في أمر صرف العطايا لإطعام بعث المازوي، فقد أصدر رئيس الكتبة المسمى «رنف ام اب» طلبًا شفويًّا بإطعامهم، وهو يحتوي على عدد مخالف بالمرة للعدد الذي يحتويه الأمر الكتابي، ولا نعلم أي الأمرين قد نُفذ؛ لأن المتن عند هذه النقطة وُجد مهشمًا في الميزانية، وما ذكر من رجال «المازوي» حتى الآن، وهم الذين اتخذت الإجراءات لإطعامهم، يتألف منهم عماد البعث، في حين أن قائدهم الذي كان يحمل اسمًا أجنبيًّا «آو شبكوي» قد وصل بعدهم ببضعة أيام؛ أي في اليوم الثامن عشر من الشهر، وقد أرسل الوزير في الوقت نفسه كاتبًا ليستقبله، وكتب له أمرً لإدارة «رأس الجنوب» لصرف الجراية له.

ثامنًا: مقتطف من يوميات الفرعون: كثيرًا ما يحدث أن نجد في المكان الذي تُكسر عنده البردية موضعًا له أهميته، وهذا نفس ما حدث في البردية التي بين أيدينا على ما يظهر؛ إذ نجد أنه قد تبقى في أيدينا قطعة من يوميات الفرعون، وهي تحدِّثنا عن مشروع يقصه علينا الملك نفسه، فالجزء الموجود يقول:

> السنة الثالثة، الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم الرابع سار … من باب طريق الفرعون في القصر … وسار إلى هذا المكان … وأقلع نحو الشمال أمام … وقد نزل في هذا المكان في وقت الـ … ووقعت هناك مذبحة معه بوساطة (؟) الخشب (؟) … ونزل الرقيق وعذب في الجزيرة (؟) … وبقي مستيقظًا في أماكن الحياة والصحة والعافية …

ومن بقايا هذه الأسطر التي ضاع نصفها الأخير يمكننا أن نقدِّر أن الفرعون قد قام بسياحة نهرية في مكان ما، ونزل فيه وأمضى الليلة، أما الغرض الذي كانت ترمي إليه هذه الرحلة فيمكن استنتاجه من كلمة مذبحة التي جاءت في سياق الكلام، وكذلك كلمة «تب خت» التي تعني نوعًا من التعذيب «الخازوق»، فلا بد أنه كان

هناك نوع من التأديب بالذبح، أما عن التفسير الحقيقي لهذه الرحلة فنحن بعيدون جدًّا عنه لقلة ما بقي من المتن. ولكن المهم أنه قد بقي لدينا محتويات الأمر الذي صدر بإعداد المعدات لهذا المشروع قبل يوم سفرها بيوم؛ أي في اليوم الثالث من نفس الشهر، فقد صدر الأمر بتجهيز سرير، ثم استحضار التين المجفف، والبلح والشعير والشوفان، وكانت كلها تُكال بمكيال «حقات» = (جالون) وقد كان التوريد منظمًا بالنسبة لإدارات التوريد، حتى إدارة «رأس الجنوب»، وهي أغنى الإدارات كانت تورد ضعف إدارتي المخزنين الآخرين. وقد ختمت قائمة المأكولات بنوعين من الخبز وهما خبز «أحا» وخبز «الحقل»، ومن هذا يرى القارئ كيف كان يستعد الفرعون أو الجيش للقيام بحملة أو رحلة.

تاسعًا: زيارة تمثال الإله صاحب «المدمود»: أشرنا فيما سبق إلى أن معبد الإله «منتو» في «المدمود» وتمثاله كانا يلعبان دورًا هامًّا في العهد الذي كُتبت فيه هذه الورقة أكثر من الدور الذي كان يلعبه الإله «آمون» نفسه في «طيبة»، والواقع أن لدينا تسجيلًا من بين كثير من الكتابات الأخرى يوضح لنا بشيء من التفصيل ما كان يحدث في ثلاثة أيام من عيد الإله «منتو»، وهي من اليوم السادس والعشرين إلى اليوم الثامن والعشرين من الشهر الثاني من فصل الفيضان، وذلك عن زيارة تمثال هذا الإله للبلاط الفرعوني، وما يتبع ذلك من الأعياد التي كانت تُقام تكريمًا لهذه الزيارة، والتي تفتتح بقربان كان يقدِّمه البلاط في «المدمود»، وتحتوي على ثور وخمسة طيور وبخور. وفي اليوم نفسه قد أسند إلى مدير هيئة المستخدمين لحجرة الأرزاق المسمى «ككي» (وقد ذُكر مرارًا بالنسبة لزملائه رؤساء الكُتاب في هذه الورقة) شرف الذهاب إلى «المدمود» لإحضار تمثال الإله. وقد أعطى له هبة من الطعام خاصة، وكان قد أعلن في اليوم الثاني بأنه يوم عيد خاص، وقد حُملت صورة الإله «منتو» في «المدمود»، وكذلك صورة الإله «حور نزتف» (حور المنتقم لوالده) إلى القصر الفرعوني، ويلاحظ أن صورة «حور نزتف» المذكورة هنا لم يأتِ لها ذكر في هذه الورقة في غير هذا المكان، وقد وضع كل من التمثالين في قاعة الاستقبال بالقصر الملكي، وقد كان يسير في ركاب تمثال الإله «منتو» نساء (حريم) الإله، وكذلك كان الفلاحون يقدِّمون له البقر قربانًا، وقد قدِّم لكل من التمثالين هبة حرة، وأخرى بأمر ملكي. وخلافًا لذلك كانت توزع الأعطيات الخاصة في يوم العيد هذا على كل رجال البلاط، وفي اليوم التالي كان يتسلم نفس هذا الموظف المسمى «ككي»، الذي أحضر تمثال الإله طعامًا خاصًّا

قد أشير إليه كما يأتي: تأمل! إنه خاص بالعودة إلى المدمود؛ أي خاص برحلة إعادة تمثال الإله إلى مقره الأصلي في «المدمود». وأخيرًا نسمع كذلك عن قربان أخير لعودة تمثال الإله في هذا اليوم، وهذا القربان كان في الواقع يتألف من بخور يطلق نصفه عند خروج التمثال من حجرة الاستقبال الملكية، ونصفه الآخر عند وصول التمثال إلى «المدمود» مقر الإله الأصلي.

ونعرف عن حادث آخر هام له علاقة بعيد الإله «منتو» تفاصيل هامة: ففي اليومين السابع عشر والثامن عشر من الشهر الثالث من فصل الفيضان كان يحتفل بعيد الإله، وكانت توزع الأطعمة العظيمة إكرامًا لذلك، وقبل أن نفحص القوائم الطويلة الخاصة بالأشخاص وهم الذين قد رُتبوا حسب مكانتهم يجب أن نتكلم باختصار عن القوائم الباقية المحفوظة لنا في هذه الورقة.

عاشرًا: لدينا أربعة أنواع من قوائم الأشخاص يجب أن نفرِّق بينها:

(أ) قائمة بأسماء الأشخاص العادية لكل يوم.
(ب) قائمة يتبعها تصميم لتوزيع الطعام على دائرة مجتمع البلاط الضيقة.
(ج) قائمتان بتوزيع العطايا في زيارة تمثال الإله خارج «المدمود».
(د) القوائم الخاصة بالطعام في عيد «منتو».

أ

هذه القائمة مضافًا إليها السجل السابق الذكر الذي يشتمل على الدخل اليومي يؤلفان معًا بقية بداية البردية، هذا خلافًا للملاحظات اليومية التي تحتوي على المعلومات التي تُستعمل في كل يوم، وفضلًا عن ذلك فإن مثل هذه السجلات التي يجب أن تبقى كانت قبل كل شيء أساسًا ترتكز عليه الميزانية المتكررة يوميًّا. ففي القائمة نجد أنه كان يوزع على كل شخص إبريق جعة، فقائمة الأشخاص إذن قد استُخدمت أساسًا لتوزيع الجعة في أحد الأعمدة الثلاثة الخاصة بالمنصرف من الحساب الختامي، وتحتوي مع ذلك على أشخاص من البلاط يتمتعون بطعام يومي، وقد حُفظ لنا من أسماء هؤلاء الأشخاص أربع أخوات للفرعون وخمسة بيوت لأخوات أخريات للفرعون، والمقصود من كلمة البيت هنا أن بعض زوجات الفرعون الثانويات كان لهنَّ عقار، وقد كان لبعضهن بجانب عقارهن نصيب خاص في هبات العيد، وهذه الهبة لم ترد في الورقة أنها

أُعطيت لأحد غيرهنَّ؛ ولذلك يجب أن يفرض الإنسان أنهنَّ كنَّ قد تُوفين، وأن أملاكهنَّ كانت لا تزال باقية في يد أولادهنَّ الذين كانوا لا يزالون يتسلمون نصيبهم من البلاط. وفي القائمة التي نبحث فيها يأتي بعد أولئك الزوجات الملكيات موظفون آخرون وهو «فم نخن» وعظيم عشرات الجنوب، وأسنُّ رجال المحكمة، وقريب الفرعون؛ ثم مدير هيئة المستخدمين لحجرة الأرزاق، وهما اللذان سبق ذكرهما، وهؤلاء الموظفون يكادون يعتبرون هيئة موظفي بلاط الفرعون الضيقة، وقد كُررت أسماؤهم في مثل هذه القوائم أو في مجموعات مماثلة، أو في قوائم أخرى.

ب

والواقع أن أفراد هذه القائمة هم نفس الأشخاص الذين جاء ذكرهم في القائمة «أ»، غير أنه هنا يُبذل لهم هبة خاصة لا تستند على أمر من المكتب الفرعوني، فعلى رأس هذه القائمة في هذه المرة نجد الملكة، ثم يأتي بعدها الأمير «رع نف» وثلاثة أميرات. وقد حُشر بين أخوات الملك وبيوته امرأتان إحداهما زوجة لقاضي «نخن» والثانية زوجة «أسن رجال المحكمة»؛ ولذلك يلاحَظ أنهما كانا يحتلان مكانة علية، وبخاصة أنهما وضعا في الترتيب قبل زوجيهما، وعلى ذلك لا بد أنهما كانا يعدان من الأسرة المالكة. أما الموظفون الذين تجري عليهم الهبات في هذه القائمة فإنهم تقريبًا هم الموظفون الذين ينحصر عددهم في دائرة أشخاص البلاط الضيقة جدًّا، وأما الأشياء التي كانت تجري عليهم فهي الخبز، والجعة، والفطائر. وقد كانت الملكة وحدها هي التي تأخذ من هذه الأشياء نصيبًا وافرًا بنسبة ثلاث أو خمس مرات أكثر من الآخرين، هذا فضلًا عن أنها كانت تمتاز بهبة من الخضر. أما نسبة توزيع هذه المواد فكان المتوسط بنسبة ١٠ أرغفة إلى إبريق واحد من الجعة وفطيرة واحدة.

جـ

تؤلف جماعة هؤلاء الأشخاص أنفسهم؛ أي الأسرة المالكة وبعض رجال الحاشية الجزء المتوسط من هذه القوائم الطويلة، وهي التي ذُكر فيها توزيع الهبات في مناسبات زيارة تمثال إله «المِدمود» إلى القصر الملكي. ومن هذه القائمة نشاهد سلسلة من الموظفين الذين يحتل معظمهم مكانة عالية، والظاهر أنهم ليسوا من الذين يعيشون يوميًّا على

الجرايات الفرعونية، بل كانوا يُدعون فقط في مناسبات خاصة لتناول الطعام على المائدة الفرعونية. وتبتدئ القائمة التي تنظم هؤلاء الموظفين، وهي التي صدرت بأمر ملكي عادي، كما يأتي: قائمة بأسماء الموظفين الذين أُحضر طعامهم في هذا اليوم حسب الأمر الملكي، والموظفون هم: الوزير «عنخو»، ثلاثة من حملة الخاتم الملكي للوجه البحري، وهم: قائد الجيش، ومدير الحقول، وكاتب الملك في حضرته، وأربعة من الرجالات الذين كانوا يجلسون على المائدة الملكية، وثلاثة ممن يحملون لقب عظيم عشرات الجنوب، ثم وكيل الخزانة، وقائد المحاربين (؟) وحاجب الملك (المبلِّغ)، وغير ذلك من الألقاب التي قد هُشمت. وخلافًا للوظائف الرفيعة التي ذُكرت أولًا في هذه القائمة، فإنا لا نجد قط ترتيبًا ثابتًا بالنسبة للوظائف في أي مكان آخر في هذه الورقة، وبخاصة وظيفة «عظيم عشرات الجنوب» التي جاء ذكرها في هذه الورقة ثماني عشرة مرة، وكذلك وظيفة «أسن رجال المحكمة» فقد وُضعوا في أماكن مختلفة حسب توزيع الأطعمة، فمثلًا هنا نجد أن أحد الثلاثة الذين يحملون لقب «عظيم عشرات الجنوب» أخذ ضعف ما يأخذه كل من زميليه. أما الأشياء التي كانت تُوزع فهي: الجعة، والحلوى، واللحوم، وخضر. وقد كان كل موظف حتى الذي يحمل لقب «مدير المحاربين» يتسلم نصيبًا من هذه الأطعمة الأربعة، وما عداهم كان يعطَى فقط الجعة واللحم. أما الخبز الذي لا يوجد في القائمة هنا فإنا نجده مذكورًا في العمود الثاني، وهو كما قلنا من قبل كان يجري على أفراد الأسرة المالكة. أما الملكة فكانت تمتاز دائمًا بكثرة ما يجري عليها؛ إذ كانت هي الوحيدة التي تمتاز بهبة من الحلوى. أما الباقون فكانوا يأخذون من ١٠–٢٠ رغيفًا، وإبريقًا أو إبريقين من الجعة، وخمس قطع من اللحم. ونجد في العمود الثالث من هذه القائمة كشفًا تكميليًّا عن توزيع الأطعمة، ففي أوَّله نجد أربعة ألقاب لنساء: مغنية، ومرضعة، ولقبين آخرين ربما كان واحد منهما لغزَّالة والثانية كاتبة … وفي نهاية العمود نجد مغنيين، غير أنه على ما يظهر لم يكن الطعام كافيًا لإطعام كل هؤلاء؛ ولذلك نجد توزيعًا ثانيًا قد حدث في اليوم التالي، وفي هذه الدفعة يلاحظ أنه قد شمل كل النساء والأطفال؛ ولذلك ذُكرت صيغة مقدِّمة الأمر العادي مشتملة على ما يأتي: وهو ما كان ينبغي أن يقدَّم أمس، وقد عدِّدت أسماء نساء مختلفات هنا وُزعت عليهن الأطعمة، كما عدِّدت في القائمة الرئيسية، وقد عُرف بعضهنَّ بوصفهنَّ أمهات وأخوات أو أطفال الموظفين، وكذلك أضيف هنا أسماء موظفين، وقد ذكر في الجزء الثاني امرأة بوصفها «أخت الحاكم» (الملك)، وفي قائمة نساء أخرى قد ذكرت بلقب «الأخت الملكية»، ولا ندري

إذا كانت هي أخت الفرعون الحقيقية بموازنتها بالحظيات أم لا. وكذلك نجد أن عددًا من أولئك النسوة كانت كل منهنَّ تأخذ إبريق جعة في عيد «منتو» في قائمة منفصلة (XLIV, 1–18).

ننتقل بعد ذلك إلى القوائم الخاصة بطعام العيد، وهي التي تؤلف الجزء الرئيسي من هذه البردية.

عيد الإله «منتو»: كان يبلغ عدد الأشخاص الذين كانوا يجلسون إلى مائدة البلاط في كل مرة من عيدي الإله «منتو» نحو السبعين، وقد كانت كل من القائمتين معنونة بالعنوان التالي: «قائمة بالأشخاص الذين يأتون إلى قاعة الاستقبال الملكية في هذا اليوم لتناول الطعام.» وحجرة الاستقبال هي الحجرة التي كان يقام فيها الأعياد في القصر، ومما يلفت النظر أن الأسرة المالكة ليس لها وجود في هذه القائمة، وقد كانت دائمًا تذكر مع موظفي البلاط في القوائم الأخرى، ولا نجد في كتابة هذه القائمة؛ أي نظام في ترتيب الموظفين؛ اللهم إلا أن الموكب يُفتتح باسم الوزير، ويأتي بعده حامل الختم وقد زِيد فيه «مدير البيت العظيم»، «وفم نخن» (أي قاضي نخن). وقد رُقي الأخير في عيد «منتو» إلى رتبة حامل ختم الوجه البحري، وقد ذكر خلفه بدون ذكر لقب الشرف هذا في القائمة الثانية؛ وبترقيته إلى وظيفة حامل الختم للوجه البحري ينتظر أن يكون عمله قد تغير تمشيًا مع هذا التغير أيضًا، وخلافًا لهؤلاء الموظفين الذين كانوا يحملون هذه الألقاب الذين ذُكر اسمهم في القوائم الأخرى، فإنه قد جاء في قائمة العيد عدد عظيم آخر من الموظفين الذين لم يكونوا من حاملي الألقاب العظيمة؛ مثال ذلك «مدير حراس الكلاب»، «ووكيل حظائر الطيور»، هذا فضلًا عن أننا نجد حارس البوابة، ثم وظائف حربية متنوعة أخرى مثل المشرف على الحرس، والرامي، والتابع والفارس (؟)؛ وأخيرًا نجد أربعة ممن يحملون لقب رئيس المواطنين، ثم مواطنًا. وقد كانت الموسيقى كذلك تمثل هنا تمثيلًا عظيمًا؛ إذ في ختام القائمة نجد ثلاثة مغنيين، وهؤلاء ملحنون يوقعون الأنغام بإشارات الأيدي، وضاربين على العود، (وقد سقط عددهم)، وبين هؤلاء الملحنين والضاربين على العود نجد مضحكًا؛ مما يدل على أنه كان لا بد من وجود من يسلي جميع المدعوين على مائدة العيد بأنواع التسلية. وإنه لمن الأشياء التي تلفت النظر عندما نشاهد في قائمة الطعام أن كل عظيم يتسلم عشرة أرغفة، والصغير لا يأخذ إلا خمسة فقط، هذا فضلًا عن فطيرة لكل من الصنفين، ويلاحظ هنا أن الشراب كان لا وجود له قطعًا، وكان الوزير وقائد الجيش هما اللذان يتميزان بأخذ جزء من الحلوى. وفي اليوم الثاني

للإطعام من يومي هذا العيد كان يُدعى جماعة معظمهم غير الذين دُعوا في اليوم الأول، وليس من بينهم من يحمل ألقابًا جديدة، ولما كانت المئونة قد قلت وأصبحت لا تكفي، فإنه لم يقدَّم لكل واحد من هؤلاء إلا رغيفان وفطيرة. ولما كان الاعتماد العادي لتقديم وجبتين لعدد كبير مثل هذا العدد لا يكفي، فإن القائمين بالأمر قد اهتموا بالموضوع لتدبير الطعام؛ ولذلك نجد الكاتب يقيد ذلك زيادة لأجل عيد «منتو»، وكذلك نجد في هذا الجزء الخاص بالكتابات الخاصة بالعيد قائمة مهشمة جدًّا، غير أننا نلاحظ فيما تبقى منها أن الطبقة الدنيا كان يُوزع عليها جزء ضئيل من هبات العيد، ثم نجد ملاحظة خاصة بإطعام أطفال، غير أن الورقة مهشمة هنا فلا يمكن أن نحدد شيئًا بالضبط. وقد ذكر أصحاب الحرف في قائمة هبات العيد: العمال الذين كانوا تحت مراقبة فلان، وكذلك نجد أن «المازوي» (حرس الفرعون)، والحراس قد نالهم نصيب من هبات هذا العيد. ومما تجدر ملاحظته هنا أن سبعة أنواع مختلفة من الأطعمة قد ذُكرت أثناء التوزيعات المختلفة للأرزاق في المصاريف. ومما يلفت النظر هنا قلة العدد، مثال ذلك أن أصحاب الحرف يأخذون خمسة أباريق جعة، وفطيرة، ورغيفين من الخبز الأبيض.

وكذلك لا بد أن العمال الذين كانوا يشتغلون في البلاط، وغيرهم من جماعات الناس، لا يمكن أن يكون عددهم عظيمًا، ومما يؤسف له أنه ليس لدينا صورة واضحة في هذه الورقة تمكننا من معرفة الإطعام اليومي في البلاط الفرعوني، كما شاهدنا في الصورة التي وجدناها في طعام العيد؛ وذلك لأن الميزانية اليومية تتحدث عن مجموع حسابي، ولم تتحدث لنا قط عن كيفية توزيع هذا المجموع. فالجماعات الثلاث التي كان يجب إطعامها هم الأسرة المالكة والموظفون، والخدم، كانوا يتسلمون يوميًّا على وجه التقريب العطايا التالية بالتوالي، فالأسرة المالكة كانت تأخذ ٦٢٥ رغيفًا، ٤٥ أبريقًا من الجعة، ١٠٠ حزمة من الخضر مضافًا إلى ذلك الحلوى وفطائر «حرت»، أما الفئة الثانية وهم الموظفون فكان يُصرف لهم ٦٣٠ رغيفًا، ٦١ إبريقًا من الجعة، ٥٠ حزمة خضر، وطائفة الخدم كان يُصرف لهم ٥٢٥ رغيفًا، ٣٨ إبريقًا من الجعة، ٥٠ حزمة خضر.

والواقع أننا إذا أمعنا في النظر إلى التفاصيل الدقيقة التي وجدناها فيما بقي لنا من «ورقة بولاق» هذه، وبخاصة في تفاصيل الأطعمة الطبعية التي كانت تقدَّم في بلاط الفرعون في وقت أفول مجد الدولة الوسطى، فإنا نعلم منها حقائق متفرقة مما يجعلها وثيقة من أهم الوثائق التي وصلت إلينا عن تاريخ الإدارة المصرية وسيرها في العهد الفرعوني.

وبغض النظر عن الخزانة التي كانت تدير كل أمور الخراج المختلفة الأنواع، فقد كان لا يزال في الإدارة فروع خاصة بوزارة الزراعة، وأهمها بيت محاصيل القمح، وبيت تعداد الثيران، فقد جاء في لوحة بالمتحف البريطاني (Erman, “Agypten”, P. 107) ما يأتي: الأمير الوراثي والحاكم، وحامل الخاتم الملكي للوجه البحري، والسمير الوحيد، ومدير بيت محاصيل غلال الوجه البحري.

وكذلك يلاحَظ أن وظيفة مدير الوجه القبلي بوصفها وظيفة مستقلة، قد أُلغيت بعد العهد الإهناسي ولكنها بقيت بوصفها لقب شرف، وكان من مستلزمات نقل العاصمة إلى الجنوب في «طيبة» أن عُين مدير للوجه البحري، وأقدم نقش لمن حمل هذا اللقب في الدولة الوسطى عثر عليه في شط الرجال وكان يحمله «إتو» الذي عاصر «منتو حتب الثاني» (Bissing and Kees, “Munich Ak, S. B. 1913; Petrie, “Season”, No. 448).

(٦) نموذج الموظف المثالي في هذا العهد

أما عما ينتظره الإنسان من الموظف المستقيم فقد رُسمت لنا صورة مثالية في الأدب التعليمي لهذا العصر، وأحسن مثال لذلك ما وجدناه في شكاوى الفلاح الفصيح، عندما وصف لنا في صورة رائعة للموظف المتعسف بغير حق، وما يجب أن يكون عليه الموظف المستقيم العادل.

وهكذا صوَّر لنا مدير مكتب من عصر «سنوسرت الأول» حياته المثالية التي كان يسير على نهجها في معاملته للناس، مما يدل على بعث جديد من الأخلاق يتجه نحو العدالة الإنسانية (B. M. Stelae, II, Pl. 23, No. 581; Sethe, “Lesestucke,” P. 80) فاستمع لما يقول: «لقد كنت إنسانًا يلزم الصمت أمام المتهوِّر، صبورًا في حضرة الجاهل، مبتعدًا عن الثائر، وكنت حليمًا خلوًا من الاندفاع، وعالمًا من قبل بمعنى ما يصدر عني وما أستوعبه، وكنت إنسانًا يتكلم عن الأحمق، عالمًا بالمآزق التي يخرج منها الإنسان إلى الفلاح، وكنت عطوفًا عندما كنت أسمع اسمي بالنسبة لمن كان يفضي إليَّ بما يكنه صدره، وكنت سيدًا يرنو بعطف، ويسكنُّ دمعة الباكي بكلمات طيبة، وكنت إنسانًا مصادقًا مع رعاياه، واضعًا مصالح الناس على قدم المساواة، وكنت إنسانًا يُعتمد عليه في بيت سيده، وكنت أعرف كيف أديره كما يجب أن يكون، وكنت مسالمًا سخيًّا، وكنت

رب الطعام (سخيًّا) بعيدًا عن الشح، صديق المعوز، رحيمًا بالفقراء، وكنت امرأ يأوي المسكين الجائع، كريمًا مع الفقراء.

وكنت مثقفًا لمن لا علم له، ومعلِّمًا لأي إنسان ما يفيده، وكنت مخلصًا لبيت الملك، عالمًا بكل ما يجري في كل مصلحة، وكنت مستمعًا عندما يكون ما أستمع إليه هو الصدق، وكنت بخاصة إذ ذاك أزنه في صدري؛ وكنت وديعًا مع بيت سيدي، وإنسانًا يذكره الناس بنجاحه العظيم، وكنت طيبًا في قاعة الحكم، متواضعًا بعيدًا عن الكبرياء، وكنت حليمًا بعيدًا عن الاندفاع، وكنت امرأ لا يستولي عليه أي إنسان بكلمة، مستقيمًا كالميزان، عادلًا يعتمد عليه مثل الإله «تحوت»، وكنت مستقيمًا من أصل يوثق به، يخدم بصدق من يطلب إليه خدمته، وكنت فردًا يعلم ما يعرف، ويستشيره الناس فيما يحبون أن يستشيروه فيه؛ ولذلك كان لا يستشار غيره قط، وكنت امرأ يتكلم في قاعة العدل بفم فصيح غير هياب.» لقد عرفنا أفرادًا فصحاء اللسان على جانب من الزهو مثل هذا كما سمعنا موظفين يؤكدون لنا أنهم عند دخولهم في قاعة المجلس ينحني لهم العظماء عند السلام احترامًا، أو كما يقول لنا أحد قواد الفرعون «سنوسرت الأول»: «كان العظماء ينحنون، أمَّا الصغار فيأتون لي ساجدين.» (Louvre C. I.; Sethe, “Lesestucke”, P. 82, 1, 2–3).

الحروب والعلاقات الخارجية

كانت الثقافة والأنظمة الحكومية في عهد الدولة الوسطى مصرية بحتة، لا يعزى شيء منها إلى بلد أجنبي؛ لذلك كان تقدمها محليًّا، ولكن هذه الحال قد أخذت تتبدل بعض الشيء على يد ملوكها العظام، والواقع أن مصر كانت تجد كفايتها في تربة بلادها، وكانت لا تخرج عن نطاق حدودها، إلا عندما كانت إحدى الممالك المجاورة تهدد حدودها، أو عندما كانت تغير على تخومها طلبًا للغنائم. ولم تشذ مصر عن هذه الخطة على ما يظهر إلا عند قيامها بالتوسع في رقعتها من جهة الجنوب في أوائل الدولة الوسطى، حيث قد امتدت الحدود المصرية في عهد الدولة القديمة إلى الشلال الثاني، وقد بقي السبب الذي دعا إلى هذا الفتح غامضًا حتى كُشفت عنه الحفائر الأثرية التي قامت في بلاد النوبة كما ذكرنا آنفًا.

ولما تولى ملوك الأسرة الثانية عشرة عرش الملك، رأوا من واجبهم أن يعيدوا سيطرة الفراعنة القدامى على فتوحاتهم في بلاد النوبة ويدافعوا عن حدودها الأخرى بعد أن ضاعت في عهد الفوضى الذي تلا الأسرة السادسة. ففي أوائل عهد «أمنمحات الأول» نجد مذكورًا في النقوش أن من بين أعدائه السود والأسيويين، ولكن يحتمل أن هؤلاء كانوا جنودًا مرتزقة، يحاربون في جانب أعدائه من المصريين، وعلى أية حال فقد افتخر قائده «نسومنتو» بأنه قد هزم «المنتيو» (الأسيويين) و«الحروشع»؛ أي سكان الرمال من الأسيويين، وخرب قراهم، والظاهر أنه تقدم في زحفه حتى «فلسطين».

ويرجح أن «أمنمحات الأول» كان أول من استعمر الواحات، وتدل النقوش التي عثر عليها حتى الآن أن الواحات كانت معروفة للمصريين منذ الدولة القديمة؛ إذ عثر على نقش من عهد الأسرة السادسة لموظف يدعى «خوفوحر»، وقد جاء فيه أنه ذهب إلى «إلفنتين» على طريق الواحة (Sethe, Urkunden I, 125)، ومن ذلك نعلم أن طريق

القافلة التي كانت تربط الواحات المختلفة في الصحراء الغربية من جهة الشمال حتى «دارفور» كان معلومًا في ذلك الوقت. والظاهر أن الواحات كانت آهلة بالسكان، غير أنها لم تكن على ما يظهر تابعة لمصر، ولكن عندما نظم «أمنمحات الأول» مصر ثانية فإنه بدأ بسياسة حماية تخومه الغربية؛ ولذلك أقام قلعة في «وادي النطرون» لهذا الغرض، ومن المحتمل كذلك أنه أقام أخرى في «الواحة الخارجة».[١]
(Ahmed Fakhry, A. S., Vol. XL, PP. 815–847; "The Egyptian Deserts, Siwa Oasis", P. 24).

وقد كان يرسل الحملات لتأديب اللوبين، وقد أرسل ابنه «سنوسرت الأول» بحملة من هذا النوع، وعندما سمع بموت والده رجع في الحال (راجع [أمنمحات الأول ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م – المؤامرة ضد ولي العهد ونصيب «سنوهيت» فيها وفراره])، ولما تولى «سنوسرت» المُلك اتبع سياسة والده؛ ولذلك يقول أحد عماله المسمى «دديكو» (A. Z. 42, P. 124): «لقد غادرت «طيبة» بوصفي شريفًا يعمل كل ما يمدح على رأس جيش من الشباب لأعيد الحكم في أرض أهل الواحات بوصفي موظفًا ممتازًا.» ثم يقص علينا في نفس النقش أنه امرؤ يراقب ويحمي تخوم الفرعون.

وفي لوحة «كاي» (A. Z. LXI, P. 108) التي سبق ذكرها، وكان صاحبها يحمل لقب رئيس صيادي الصحراء ومدير الصحراء الغربية ورئيس بعث، وجاء فيها على لسانه: «لقد وصلت إلى الواحة الغربية، وفحصت كل طرقها وأحضرت الهاربين الذين وجدتهم هناك» (Fakhry, "Bahria Oasis", PP. 12–13).

ومنذ ذلك العهد اتجهت أنظار «أمنمحات الأول» وخلفه إلى إخضاع اللوبين «تمحو»، وهذا ما يفسر لنا صور اللوبيين من رجال، ونساء، وأطفال، وهم اللذين رسمهم «خنوم حتب الأول» على جدران مقبرته «ببني حسن» ليمثلوا الغنائم التي استولى عليها في حروبه في جانب الفرعون (Newberry, B. H. I, Pls. 45 ff.) ولما مات هذا الفرعون وجد «سنوسرت الأول» نفسه في حروب ضد اللوبيين، وفي السنة التي سبقت ذلك تحدثنا الآثار عن حملة قامت ضد إقليم «واوات»، وقد أصبحت منذ ذلك العهد خاضعة «مثل المازوي» للحكم المصري، وتحميها قلاع، ومن ثم كان مفروضًا على رؤساء السود أن

[١] Breasted, A. J. S. L., (1905), XXII, PP. 154 ff.

يقوموا بغسل التبر واستخراج الذهب بمثابة (A. Z. 20, 30, 12, 112, 13, 50; Petrie, "Season", P. 540; Maspero, "Melange d'Arch.," PP. 217. ff)، جزية يدفعونها.

وعلى أية حال فإن أشد أعداء مصر وأصلبهم عودًا هم «الكوش» سكان بلاد «النوبة الوسطى»، وقد ظهر اسمهم هنا لأول مرة في المتون المصرية، وقد هزمهم كذلك «سنوسرت الأول». ولما تقدم «خنوم حتب» في السن في تلك الفترة أخذ ابنه «أميني» قيادة جيش مقاطعة الغزال بدلًا من أبيه ليحارب بجانب الفرعون، وقد ساق الفرعون جيوشه حتى آخر الدنيا، وقد أمر بإقامة تذكار في «وادي حلفا»، بالقرب من الشلال الثاني رمزًا لانتصاره، فنجد هناك الإله «منتو» إله الحرب في «طيبة» يقود الأسرى وهم القبائل المغلوبة، ويلاحظ أن معظم أسمائهم لا نعرفها إلا من هذه الوثيقة؛ (Breasted, A. R, I, Par. 540).

وكان من نتائج هذه الحملات على بلاد «النوبة» أن وضعت في يد المصريين مناجم الذهب التي كانوا يستغلونها؛ وتشمل أودية سهل صحراء وادي «علاقي». وفي عهد «سنوسرت الثاني» رجع «أميني» وهو «أمنمحات الثاني» إلى مصر يصحبه حراس أقوياء، ومعه ما حصل عليه من الذهب المستخرج من هذه الجهة. وقد أقيمت قلعة لحماية الطريق إلى هذه المناجم في المكان المسمى الآن «كوبان» حيث تنفصل الطريق من وادي النيل. أما إخضاع هذا الإقليم فقد تم على يد الفرعون «سنوسرت الثالث»، وقد قام بعدَّة حملات في العام الثامن والثاني عشر والسادس عشر والتاسع عشر من حكمه، ضد الكوش الخاسئين، ومنذ حملته الأولى إلى هذه الجهات قام بحفر قناة صالحة للملاحة في صخور الشلال الأول لنقل جنوده فيها، على أن هذه الحروب لم تعدم مجالًا للقيام بأعمال بطولة عظيمة، اللهم إلا أن الفرعون وضباطه قد وجدوا فيها مادة للفخار، فقد حرقوا القرى، ونهبوا الحقول، وأتلفوا الآبار، وساقوا السكان إلى ذل الاستعباد.

ومع ذلك فإنه كان من الصعوبة بمكان ضمان الأمن واستتباب السكينة في هذا الشريط الضيق المنزرع بين قبائله الذين كان في مقدورهم أن ينسابوا في وديان الصحراء، وقد مد «سنوسرت الثالث» الحدود المصرية حتى منحدرات مياه «سمنة» و«قمة» فيما وراء الشلال الثاني وحماها بإقامة ثماني قلاع على مرتفعات،[٢] وفي الجزيرة التي وسط النهر هناك؛ وكانت آخر هذه القلاع من جهة الجنوب قلعة «أورنارتي» Ouronarti

[٢] Steindorff, "Ber. Sachs Ges. phil. Cl. (1900), P. 230; Meyer, Gesch. 1, P. 287.

واسمها يعبر عنها؛ أي التي تقصي السودانيين «إينتيو» Iountiou، هذا إلى أن بلاد «النوبة السفلية» كان يحميها أربع قلاع أخرى، وقد أقيم هناك لوحتان في السنة الثامنة والسنة السادسة عشرة في عهد «سنوسرت الثالث» ذكر فيهما ما يحرم على السود المستقلين أن يتخطوا الحدود إلى الشمال في النهر، اللهم إلا إذا كان يقصد التجارة مع إقليم الحدود المسمى «إقن» على شرط أن يستعملوا في هذه التجارة سفنًا مصرية. والواقع أنه منذ هذه اللحظة بدأت فعلًا بلاد «النوبة السفلية» تكون جزءًا حقيقيًّا من الإمبراطورية المصرية، ومن ثم أخذ المصريون يستعمرونها، وكذلك أصبح «سنوسرت الثالث» يعدُّ في أعين أخلافه الفاتح الحقيقي لبلاد النوبة، وقد رفعه «تحتمس الثالث» إلى مرتبة إله هذه البلاد وشيد له معبدًا في «سمنة»، وقد استمرت علاقات مصر بأملاكها في بلاد النوبة في عهد هذا الفرعون، كما كانت في عهد خلفه «أمنمحات الثالث»، على أحسن ما يكون. وقد عثر في «الرمسيوم» ضمن البردي الذي عثر عليه «كوبيل» سنة ١٨٩٦ على برديتين إحداهما تحتوي على معلومات جغرافية ولغوية وتلقي بعض الضوء على القلاع التي أقامها «سنوسرت الثالث» لتحصين بلاده. أما الثانية فتحتوي على صور رسائل يرجع تاريخها إلى عهد الفرعون «أمنمحات الثالث»، وسنتكلم عن كل منهما. وهذه الرسائل على جانب عظيم من الأهمية من الوجهة الاقتصادية والعلاقات التي كانت قائمة بين مصر وبلاد النوبة، وهي صورة عدد من الرسائل أرسلت من قلعة «سمنة» التي كانت تسمى «خع كاو رع» (سنوسرت الثالث)، ومن مكان آخر.

وهذه الرسائل قد كُتبت على ظاهر الورقة أما خلفها فكتب عليه متن سحري. ولسوء الحظ لم نجد رسالة من هذه الرسائل كاملة، ويظهر أن صاحبها كان من كبار رجال الدولة.

والرسائل تحدثنا عن ذهاب بعض «النوبيين» إلى «سمنة» لتصريف متاجرهم، وكذلك عن قوم من «المازوي». وقد ذكر في هذه الرسائل أكثر من مرة الخطوات التي اتخذت لاقتفاء أثر حركات أهل الجنوب في الصحراء. والشيء الذي يسترعي النظر في أمر هذه الرسائل وما جاء فيها أن الحكومة كانت تهتم في هذا العصر باتخاذ التدابير لإرسال تقارير رسمية عن مثل هذه المعاملات البسيطة في ذاتها لترسلها إلى الجهات العليا، وإلى الحصون الأخرى غير قلعة «سمنة»، وتحفظ منها صورة في سجلاتها.

(١) التحصينات التي أقامها «سنوسرت الثالث» في بلاد النوبة

كان من بين الأوراق التي كشف عنها «كوبيل» في معبد «الرمسيوم» والتي يرجع عهدها لعصر الدولة الوسطى بردية مهشمة، وقد ظهر بعد فحصها أنها تحتوي على قائمة مفردات مرتبة في مجاميع فنية، والظاهر أنها كانت تُستعمل في وقتها بمثابة كتاب هجاء، أو قاموس، أو دائرة معارف إذا قسناها بنظائرها في عصرنا. ومما يؤسف له جدَّ الأسف أن لم يبقَ لنا من محتويات هذه البردية أكثر من ٣٢٣ كلمة مختلفة، يضاف إلى ذلك حاشية غريبة تشمل أسماء نحو عشرين نوعًا من الحيوانات المختلفة كُتبت أسماؤها باختصار، ومن بين هذه الأسماء التي ورد ذكرها في هذه البردية أسماء زيوت وطيور، ونباتات وحيوانات من ذوات الثدي، وأسماء فطائر، وأنواع حبوب، وبعض أسماء أجزاء من جسم الإنسان، وفي وسط هذه المجاميع وجد كذلك قائمة بأسماء حصون في بلاد «النوبة»، غير أن هذه القائمة لم تقتصر على ذكر هذه الحصون النوبية، بل استمرت تذكر لنا سلسلة من أسماء مدن الوجه القبلي. وتنحصر أهمية هذا القسم الجغرافي من هذه البردية في ذكر هذه القلاع والمدن مرتبة حسب الموقع الجغرافي ترتيبًا متتابعًا من الجنوب إلى الشمال، والمهم في هذا أنه لم تصلنا وثيقة أخرى من عصر مبكر كهذه وموضوعه على هذا النحو من الترتيب. وتدل شواهد الأمور أن هذه الورقة يرجع تاريخها إلى أواخر الدولة الوسطى.

ويبلغ عدد هذه الحصون سبعة عشر حصنًا وسنذكرها هنا حسب ما جاءت في البردية من الجنوب إلى الشمال، ثم نتكلم عن أهميتها بالنسبة للفرعون «سنوسرت الثالث» الذي يعتبر أكبر ملك فاتح في عهد الدولة الوسطى:

(١) ... ...

(٢) قلعة «خع مع خرو» ومعناها «سنوسرت الثالث» مظفر، وموقعها قلعة «سمنة الغرب» الحالية.

(٣) قلعة «انتو بدوت» «صد الأقواس» وهي قلعة «قمة» الحالية وتسمى كذلك «سمنة الشرق».

(٤) قلعة «خسف أونو» «صد الؤنو» وهي «أورونارتي» الحالية، ويطلق عليها كذلك اسم «جزيرة الملك»، وقد عثر في هذا المكان على اللوحة التذكارية التي أقامها «سنوسرت الثالث» في السنة السادسة عشرة من حكمه، وقد جاء في بدايتها ما يأتي: «لوحة أقيمت

في السنة السادسة عشرة الشهر الثالث من فصل الشتاء في الوقت الذي أقيمت فيه القلعة المسماة «صد الؤنو»» (L. D. 11, 631 h).

(٥) قلعة «وعف خاسوت» (كبح الممالك)، ومن الجائز توحيدها ببلدة «شالفاك» الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل على مسافة قريبة من سكة حديد محطة «سرس». وقد قام الأستاذ «ستيندورف» بحفائر في داخل هذه القلعة، فوجد فيها مباني عظيمة ذات جدران سميكة. ومن الجائز أنها كانت مخازن للأسلحة أو الحبوب ... إلخ.

(٦) قلعتا «در-وتيو» (إخضاع سكان الواحة) و«إقن»؛ وهاتان القلعتان تقعان بين القلعة الخامسة و«بوهن» = (وادي حلفا)، ومن الطبعي والمحتمل أن توحدا بقلعتي «مرجيس» و«دينارتي» على التوالي، غير أننا لا يمكننا الآن أن نفرق بينهما على وجه التأكيد، ولكنا من جهة أخرى نعرف بعض التفاصيل عن «إقن» من لوحة الحدود الصغيرة التي عثر عليها في سمنة (L. D. 11, 136 I) وهي التي أقامها «سنوسرت الثالث» كما سلف ذكره. وذكر لنا الكابتن «ليونز» أن القلعة الأولى اسمها «مرجيس» ولكن المستر «سومرز كلارك» ذكرها في مقاله باسم «متوكا» (J. E. A. Vol. 111, P. 165) وقد أقيمت هاتان القلعتان لصد أهالي السودان المغيرين.

(٧) قلعة «بوهن» وهي (وادي حلفا الحالية).

(٨) قلعة «إنق تاوى» = (ضام الأرضين).

(٩) قلعة «خسف مزاو» = (صد المازوي). وهاتان القلعتان الأخيرتان لا بد أنهما تقعان قبل «وادي حلفا» و«عنيبة». ويظن الأستاذ «جاردنر» أن موقع الأولى هو المكان المعروف الآن «بسرة الغرب» على مسافة ١٥ ميلًا من شمال حلفا. أما الثانية فلا يمكن تحديد موقعها على وجه التحقيق.

(١٠) قلعة «معام» وهي «عنيبة» الحالية، وتقع على الشاطئ الغربي، ولا تزال بقاياها إلى الآن.

(١١) قلعة «باقي» وهي «قبان» أو «كوبات» الحالية وتقع على الشاطئ الشرقي للنيل، وعلى مسافة بضعة أميال شمالي «كوبان» توجد قلعة «كشتامتة» = (إككور) أو (كوري)، ويرجع تاريخ أقدم جزء فيها إلى الدولة القديمة، غير أن هذين المكانين لم يُذكرا في البردية، ولكن المستر «فرث» Firth يظن أنهما يكوِّنان مع «كوبان» وحدة.

(١٢) قلعة «سنمت» Snmt وهي «بجة» الحالية.

(١٣) قلعة «آبو» (إلفنتين أو أسوان الحالية)؛ وقد جاء ذكرها في مقبرة «رخ مارع» وزير «تحتمس الثالث».

(١٤) وجد اسم هذه القلعة مهشمًا في البردية.
(١٥) وجد اسم هذه القلعة مهشمًا في البردية.
(١٦) «خني» (بلدة السلسلة).

هذه هي أسماء القلاع كما وجدت على هذه البردية، وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القائمة نجد أن ثمانية من هذه الحصون السبعة عشر قد أقيمت في إقليم الشلال الثاني؛ أي من «سمنة» إلى (وادي حلفا)، وكذلك نلاحظ أن ثلاثة منها على أقل تقدير كان لها علاقة بالفرعون «سنوسرت الثالث»، بل ومن المحتمل أن سبعة الحصون التي في جنوب «وادي حلفا» تنتسب إلى هذا الفاتح العظيم أيضًا، وإذا كان هذا الفرض صحيحًا فإنه يفسر لنا سبب عبادة هذا الفرعون في كل أنحاء بلاد النوبة السفلية، على أننا من جهة أخرى نعلم أن هناك قلاعًا ضخمة كانت قد أقيمت في جنوبي هذه القلاع في تاريخ مبكر عن الذي نحن بصدده. وقد أماط لنا اللثام عن هذه الحقيقة الدكتور «ريزنر» بالحفائر التي قام بها في بلدة «كرمة»، غير أن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التي خطاها «سنوسرت الثالث»، والتي كان غرضه المعين منها أن يضم مصر وبلاد النوبة السفلية تحت لواء واحد؛ وذلك بإقامة حاجز منيع عند «بطن الحجر» (الشلال الأول)، ولكن لسوء الحظ سنجد فيما بعد أن سياسته كان مصيرها الخيبة لما حل بالبلاد من تقلبات أسرية هدمت كل ما قام به من فتوح في هذه الجهات (J. E. A. Vol. III, P. 184) وهذه الوثائق المدهشة تضع أمامنا بوضوح جلي أن بعض القلاع النوبية كان لها وظيفتان؛ إذ كانت من جهة قد أقيمت لتكون بمثابة سد منيع أمام أي اعتداء حربي منتظر، وكذلك كانت حاجزًا ضد الضغط المستمر الذي كان يهدد مصر وأملاكها من جهة الشمال، وهو ما كان يقوم به أهل السودان من الغارات، ومن جهة أخرى كانت تستعمل بمثابة مَحاط تجارية. وقد كانت «سمنة» في عهد الدولة الوسطى آخر الحدود كما نعلم ذلك من لوحتي بطل مصر «سنوسرت الثالث» كما سلف ذكره.

وتحدثنا هذه الرسائل عن أهل الجنوب الذين نزحوا إلى الحدود المصرية ليبيعوا سلعهم؛ إذ كانوا يصرفون متاجرهم ثم يقفلون راجعين إلى أوطانهم، وكذلك نجد أن بعض أهل «المازوي»، وهم الذين كانوا يعلنون أنهم أتوا لخدمة الحكومة المصرية، قد سرحوا إلى الصحراء. ومن ثم يظهر أن هؤلاء القوم لم يكن مصرحًا لهم أن يتخطوا الحدود، وهذا يتفق مع الأمر الملكي الذي نُقش على لوحة «سمنة» الصغرى؛ حيث يذكر فيها أن النوبي الذي أتى ليتجر مع «إقن» الواقعة شمالي الحدود، أو الذي جاء لأمر

رسمي يمكنه أن يمر شمالي «حح»، وهي التي تعرف الآن عادة بأنها واقعة في إقليم سمنة، وكذلك لا يسمح لقوارب النوبيين أو قطعانهم بأية حال من الأحوال أن تتخطى الحدود. فالنوبيون الذين كان يسمح بمرور بضائعهم كانوا تجارًا قاصدين «إقن»؛ حيث كانت تصرف بعض أنواع من منتجات بلادهم، وكانوا يقطعون باقي رحلتهم بالقوارب فقط، وكانت هذه القوارب دائمًا مصرية.

ومما يلفت النظر كذلك في هذه الرسائل، فضلًا عن الصيغ العادية التي نجدها في أسلوب الكثير منها في عهد الدولة الوسطى، أنها كانت تحتوي على شيء جديد، وهو التأكيد غير العادي بسلامة الضياع الملكية، والظاهر أن أملاك الفرعون هنا كانت تحتوي على أراضي التاج، ثم تشمل دخل التاج الذي كان يُجبَى من الضرائب، ومن مصادر أخرى، كالاحتكار وغير ذلك. ومن هذا يتضح أن التجارة حسب ما جاء في هذه الرسائل كانت عند الحدود يقوم بها موظفون حكوميون لحساب الضياع الملكية «برنسو»، وكذلك كان هؤلاء الموظفون هم المسئولون عن البضائع التي كانت تُرسل من مصر للمبادلة، وكذلك كان موكولًا لهم أمر إرسال البضائع التي حصلوا عليها من النوبيين بوصفها ملكًا للتاج (J. E. A., Vol. XXXI, P. 5).

(٢) نشاط مصر خارج حدودها من جهة آسيا

وقد استمر ملوك الأسرة الثانية عشرة يستغلون محاجر «وادي الحمامات»، وكانت الحملات قد بدأت ترسَل إلى «بنت» منذ عهد الأسرة الحادية عشرة كما سبق ذكر ذلك، وقد كانت تبتدئ رحلتها من ميناء «ساوو» (وادي جاسوس).

أما المحاصيل التي كانت تأتي من «بنت» فقد ذُكرت بالاسم مرات عدة في النقوش، وليس من المحتمل أنه كانت توجد علاقات تجارية حرة بين تجار مصر، وتجار بلاد العطور؛ وذلك لأن السفن كانت مِلك الفرعون. أما رؤساء الحملات البحرية فكانوا يلقَّبون بحاملي أختام الفرعون (وكلاء)، يرافقهم جنود الفرعون. وقد وصلت إلينا قصة خرافية من هذا العصر، وهي تصوِّر لنا إلى أي حد كانت هذه الحملات تؤثر في مخيلة الشعب.

على أن الممالك الأخرى المجاورة لمصر عندما رأوا غزو مصر لبلاد النوبة تراجعوا عن تنفيذ مشروعاتهم ضد مصر تمامًا؛ وذلك لأنه منذ عهد الانحطاط الذي جاء بين عهدي الدولتين القديمة والوسطى أخذ الأقوام الذين على حدود مصر يستغلون ضعف

البلاد ويغيرون عليها، ولكن عندما رأوا أن مصر قد أصبحت ثانية في يد فراعنة أقوياء كان همهم تنظيم ملكهم وعلاقتهم بالأصقاع المتاخمة، فأخذوا ينكمشون في بلادهم. وقد قامت على وجه التحقيق حروب بين مصر و«لوبيا» رغم أن المعلومات تعوزنا في هذا الصدد، ولكن من المؤكد أن (A. Z. Vol. 35, PP. 112 ff.; Lange und Schafer, "Grab und Denkstein", No. 20539 b. 16 ff)، «أمنمحات الأول» قد أدبهم. هذا ونعلم أن «الواحة الخارجة» كانت تابعة لأمير «طيبة»؛ وذلك لأن طريق القوافل كان يبتدئ من «العرابة المدفونة» إليها، أما في شبه جزيرة «سينا» فقد أخذ المصريون يستغلون المناجم.

وفي عهد «أمنمحات الثاني» فُتح منجم جديد وأُعيد استعمال آخر في «سرابة الخادم» شمالي «وادي مغارة» (Weill, Rec. PP. 159 ff.; Petrie, "Sinai")، أما عن المناوشات التي قامت بين المصريين والبدو فقد انتهت، وكذلك عادت العلاقات بين مصر وجارتها في الشمال الشرقي في «سوريا» و«فلسطين» على أحسن ما يكون من ود وصفاء بسرعة مدهشة. وقد كان هؤلاء الأعداء من طراز خاص؛ إذ كان في مقدورهم أن يهددوا الأمن على الحدود، ولكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا قادرين على المقاومة، وقد وصفوا وصفًا دقيقًا لا مثيل له في الدقة في تحذيرات «مري كارع» فاستمع لما يقول: «والعامو (الأسيويون) التعساء بلادهم التي يعيشون فيها لا تسكن؛ إذ لا ماء فيها ولا شجر يكثر، وطرقها وعرة، لما يتخللها من الجبال، فهم لا يسكنون في مكان معين، بل دائمًا يرخي الواحد منهم لساقيه العنان، وهم دائمًا في حرب منذ زمن «حور» فهم لا يَهزمون ولا يُهزمون، وهم لا يعلنون يوم هجومهم. فمثلهم في هذا كمثل من يقوم بمؤامرة؛ ولذلك كان أكبر ضمان ضد جار كهذا، أن يقيم الإنسان المعاقل والحاميات على الحدود.

وقد فطن لذلك المصريون منذ عهد ما قبل التاريخ، فأقاموا الجدران والحصون؛ ولذلك لما جاءت الأسرة الثانية عشرة وجدنا مراقبة شديدة عند الحدود الشرقية المصرية حيث يحمي الطريق المسمى «طريق حور» بقلعة «سارو»؛ حيث الطريق الذي يؤدي إلى الصحراء بوساطة «وادي طليمات» قد سُدَّ «بجدار الأمير»، ولكن سلطان الفرعون كان يمتد إلى أبعد من ذلك بكثير في داخل بلاد «سوريا»، وقد كانت توجد بعوث تروح وتجيء بين البلاط المصري وهذه البلاد، وقد كانت المحاصيل الأسيوية ترد إلى مصر، وكان «أمنمحات الأول» يملك على النيل، مثل سلفه «سنفرو»، أسطولًا من السفن المصنوعة من خشب الأرز المصدَّر بلا شك من «جبيل» (ببلوص)، وقد كان البدو «سوتيو»، وهم الرماة على ما يظهر يأتون غالبًا إلى مصر يحملون متاجرهم، وحتى عندما يكونون في

ضيق في وطنهم، فإنهم يسعون في الإقامة في مراعي وادي النيل، وبهذه الطريقة كان قد وفد في السنة السادسة من حكم «سنوسرت الثاني» رئيس الأجانب «إبشا»، ومعه عشيرته التي كانت تتألف من ٣٧ عامو (كنعانيين) الصحراء «شسو» من رجال ونساء وأطفال (L. D. II, Pl. 133; Newberry, “B. H.” 1, 28, 30, 31, 38)، وظهرت فيهم الملامح السامية بوضوح، وقد مثل أمام «خنوم حتب الثاني» صاحب «منعات خوفو» سيد إقليم الصحراء حاملًا له هدية من الكحل، ومما لا شك فيه أنه كان يرجو من وراء ذلك أن يحصل على تصريح بالإقامة في إقليمه، على أننا نعرف كيف كانت تسير الأمور من قصة «سنوهيت» التي سبق الكلام عنها.

وبلاد «رتنو العليا»التي وصفها لنا «سنوهيت» في صورة حية هي إقليم «فلسطين» الجبلي الذي كان على اتصال بمصر كثيرًا، ولدينا لوحة مهشمة جدًّا عثر عليها في مناجم «سينا»، ويرجع تاريخها إلى السنوات الأخيرة من عهد الأسرة الثانية عشرة، وهي تعدد لنا أسماء الذين أرسلوا في بعوث إلى ملك بلاد «رتنو» (Weill, “Rec. Insch, Sinai”, P. 186).

وقد كانت «آسيا» كذلك ميدانًا للحروب، غير أنه مما لا شك فيه أن سيطرة كل من «أمنمحات الأول» و«سنوسرت الأول» لم تمتد قط كما نعلم من قصة «سنوهيت» أكثر من إخضاع شبه جزيرة «سينا»، وكذلك عندما يحدثنا «منتو حتب» وزير «سنوسرت الأول» أنه أخضع الأسيويين، وجعل سكان الرمال يلزمون السكينة والسود يجنحون إلى السلم، فإن ذلك لا يكفي لأن يجعلنا نفكر في أنه كانت تقوم هناك حرب حقيقية. (Lange & Schafer Grãb No. 20539).

وكذلك تحدِّثنا الآثار كثيرًا عن إماء أتينَ من آسيا، ولكن هؤلاء أيضًا يمكن أن يكنَّ قد اشتُرِين أو اغتصِبن من العدو في الهجمات التي كانت تقوم بين الفريقين (Muller, “Asien Und Europa,” P. 391; Griffith, Kahun Papyri, 35).

ومن جهة أخرى نعلم يقينًا من نقش للضابط «سبك خو»، في عهد «سنوسرت الثالث» أنه قام بحملة إلى فلسطين (Garstang, “El–Aŕabah,” P. 4; Breasted, A. R. I, Par. 676).

وقد سار بجيشه نحو الشمال ليخضع الأسيويين «مونتو ساتت» وعسكر في إقليم يسمى «سكمم»، أو «زكمم». وهذا الاسم لا بد أنه اسم جمع كنعاني ومعناه سكان «زخم» وتقع وسط «فلسطين».

وعندئذ هُزم «زكمم» كما هُزمت في الوقت نفسه الخاسئ «رتنو»، على أن «سبك خو» لم يخبرنا بشيء أكثر من هذا؛ اللهم إلا شيئًا عن شجاعته، وذلك أنه في طريق رجعته هاجمه «العامو» على غرة، أما عن حوادث الحرب نفسها فلا نعلم عنها شيئًا قط، على أنه قد يكون من الصعب جدًّا أن يعتقد الإنسان أن هذه الحملة كانت الوحيدة التي قام بها المصريون ضد إقليم سوريا، وهم في هذه النقطة لم يفعلوا شيئًا أكثر من أنهم اقتفوا أثر الدولة القديمة؛ ولذلك فإن ظهورهم بمظهر أسياد على كل الأجانب لم يكن ليرتكن على غير أساس؛ إذ نرى «سنوسرت الثالث» ممثلًا على صدرية من الذهب مرصعة بالأحجار الثمينة، وجدت في مقبرة ابنته بدهشور، فيظهر عليها حسب الطراز القديم في صورة أسد برأس صغير تحميه إلهة العقاب، وهو يطرح أرضًا أسيويين وزنوجًا، وكذلك نشاهد على حلي من نفس النوع، الفرعون «أمنمحات الثالث» قابضًا على ناصية بدوي من الأسيويين ورافعًا سيفه المقوَّس ليقطع رأسه (انظر شكل ١).
.(De Morgan, “Dahchour”, Vol. I, PIs. 15, 19, 20, PP. 63 ff)

ولما كان كل ما ذكرنا يوحي بوجود سيادة مصرية في بلاد آسيا كالتي كانت لها في بلاد النوبة؛ آثرنا أن نفرد بابًا خاصًّا عن المعلومات التي وصلت إلينا حتى الآن في هذا الصدد فنقول:

الإمبراطورية المصرية في آسيا في عهد الدولة الوسطى

لا يزال حتى الآن موقف مصر بالنسبة إلى البلاد المتاخمة لها من جهة الشمال يحوطه بعض الغموض والإبهام، ولكن الكشوف الحديثة في مصر وفي تلك الأصقاع الشمالية المجاورة تزيح الستار عن ذلك شيئًا فشيئا، ومن ثم يمدنا ما توافر لدينا من المصادر ببعض الشيء لبحث هذا الموضوع على ضوئها واستخلاص نتيجة منها بقدر ما تسمح المعلومات التي في متناولنا.

والواقع أن العلاقات بين الأمم تنحصر في القوى الكامنة في كل منها، وما تقوم به الواحدة من معاملات مع جارتها، وردَّ الفعل الذي ينتج عن تلك المعاملات، فقد يكون السيطرة وقد يكون المساواة، وهذا يتوقف على قوة البلاد الحيوية. ففي عصر ما قبل الأسرات المتأخر تدل البحوث على أن آسيا كان لها تأثير عظيم على سكان وادي النيل، ولكن سرعان ما نرى أن مصر قد استثمرت بدورها شبه جزيرة «سينا» ومن المحتمل «فلسطين» من الوجهة الاقتصادية، وذلك في عهد الدولة القديمة، ولكن نجد

ثانية في العهد الإقطاعي الأول أن الأسيويين قد غزوا الوجه البحري، وبعد ذلك عادت مصر وزحفت ثانية إلى الأقاليم الأسيوية في عهد الدول الوسطى ونشرت بعض سلطانها، أما العصر الذي تلا سقوط الدولة الوسطى، فيشاهد أن الهكسوس قد اجتاحوا البلاد المصرية واستوطنوها لمدة طويلة، ثم لم نلبث أن رأينا نجم الغزاة قد أفل، وقامت الدولة الحديثة، وأسست إمبراطورية شاسعة في آسيا، ثم مال الميزان كرة أخرى، وأخذت كفة مصر تهوي، عندما أراد أعداؤها في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد أن يغزوها.

ومما سبق نعلم أن الأدوار التاريخية التي مرت على البلاد كانت واضحة لا يعتروها أي غموض، غير أننا في عهد الدولة القديمة والعهد الإقطاعي وعهد الدولة الوسطى لا نعلم إلا القليل عن مقدار نفوذ مصر، وامتداد حدودها في البلاد المتاخمة لها وبخاصة من جهة الشمال.

والسؤال الذي نريد أن نضعه الآن هو: ما نوع السيطرة الإمبراطورية المصرية في عهد الدولة الوسطى؟

وفي الحق أن الدولة الوسطى لم يجلس ملوكها على عرش الملك آمنين؛ إذ نعلم أن ملوك الأسرة الحادية عشرة، وملوك الأسرة الثانية عشرة، قد بذلوا زمنًا طويلًا وجهدًا عظيمًا في توطيد سلطانهم داخل البلاد، وبعد أن تم لهم ذلك أصبحوا في مأمن للسير إلى أقطار خارج حدودهم، فنعلم أن «سنوسرت الثالث» قد مد سلطان بلاده حتى الشلال الثاني، ووصلت المحاط التجارية في عهده حتى «كرمة» بجوار الشلال الثالث، فهل كان سلطان مصر مشابهًا لذلك في «سوريا» و«فلسطين»؟

ولأجل أن نجيب على السؤال الأخير إجابة شافية يجب أن نفحص كل ما وصل إلينا من الآثار المصرية التي عثر عليها في الأقطار الأسيوية، وكذلك الآثار التي عثر عليها في مصر نفسها خاصة بهذه الأقطار، أو تشير إليها من بعيد أو قريب، ثم نستخلص منها نتيجة علمية.[٣]

كان أهم أثر يلفت النظر عثر عليه أخيرًا هو الجزء الأسفل من تمثال جالس لشخص يدعى «تحوتي حتب» وقد عثرت عليه بعثة «المعهد الشرقي الأميركي» في بلدة «مجدو» بفلسطين وهي «تل المتسلم الحالية» وكذلك عثر مع هذه القطعة على ثلاث قطع

[٣] A. J. S. L., Vol. VIII, “July 1941” PP. 225 ff.

أخرى عارية من النقوش، وقد حدد رئيس الحفائر عمر هذه القطعة حسب الطبقة التي وجدت فيها من المعبد، وأكد أنها ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أما مادة هذا التمثال فهي الجرانيت الأسود الصلب، أو حجر البازلت. ويستدل من القطعة الباقية من التمثال على أنه كان جالسًا على كرسي وراحته اليسرى على ركبته، ويده اليمنى قابضة على منديل وموضوعة على فخذه، ويرتدي قميصًا مجدولًا ذا طيات في جزئه الأمامي، وتدل عضلات الساق الأيسر التي لا تزال محفوظة على أن صانع التمثال كان ماهرًا.

وقد نقش على الجانب الأيسر من قاعدة التمثال هذه أربعة سطور بالهيروغليفية، وأربعة أخرى على الجانب الأيسر، ويحتمل أن العمود الذي يحمي ظهر التمثال كان يمتد حتى الرأس، وقد نُقش عليه سطر واحد. وصاحب التمثال هو فرد يدعى «تحوتي حتب». أما النقوش التي على القاعدة فهي كما يأتي:

(١) على الجانب الأيسر: «قربان يقدمه الملك إلى «خنوم» رب الأرض الأجنبية وللإله ليقدم قربانًا من خبز وجعة أو [وما شيه] وطيور … إلخ، إلى روح المحترم الشريف (حاكم) ومراقب التاجين أو «العرشين»، والمشرف على الكهنة، ورئيس الخمسة، والصديق الملكي، والمطلع على أسرار [بيت الملك؟] والحاكم العظيم [لمقاطعة الأرنب] … والمحبوب الملكي … على رأس الـ … «وتحوتي حتب» الذي وضعته «ست خبر كا».«

(٢) على الجانب الأيمن: نقش ما يأتي:

> قربان يقدمه الملك إلى «تحوتي حتب» رب الكلمات المقدسة … المحترم في حضرة الإله العظيم، الحاكم «الشريف» ومراقب التاجين (أو العرشين) والمشرف على الكهنة والقاضي وحاكم «بوتو» وفم نخن (هيراكنبوليس) وهي (الكاب الحالية) وكاهن … عشرون … في القصر وكاهن «تحوت الأعظم» والكاهن سم (وهو لقب كهنوتي عظيم جدًّا) الذي قرأ له المتن … ابن كاي «تحوتي حتب»؛ أي «تحوتي حتب» بن «كاي».

(٣) على العمود خلف القاعدة: «… في بيت «تحوت» عظيم الكشف وحاكم [الجبلين]، ويحتمل أن اللقبين الأخيرين هما لقبان دينيان لبعض كهنة في معبد «خنوم» إله الشلال، وهذه النقوش التي أوردناها هنا رغم ما أصابها من التهشيم فإنها تدل بالموازنة على أنها للموظف المصري والكاهن، «تحوتي حتب» ابن «كاي» واسم أمه «ست خبر كا»، ويستخلص من الأسماء والألقاب التي وردت في النقش أن «تحوتي حتب» هذا

هو بلا نزاع نفس «تحوتي حتب» حاكم مقاطعة الأرنب، وهي المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي، وعاصمتها «هرمو بوليس» «الأشمونين» الواقعة على الجهة المقابلة للنيل قبالة «البرشة» الحالية، (Sethe, "Historische Biographische Urkunden des Mittleren Reiches," Vol. I, Par. 688 ff.).»

ونجد في نقوش قبر هذا الأمير أنه كان يدعى «الطفل الملكي» في عهد «أمنمحات الثاني»، وفي عهد «سنوسرت الثالث» كان لا يزال موظفًا نشيطًا يقوم بمهام مقاطعته، وقد قلده والده «كاي» حُكم مقاطعة الأرنب، وأمه تسمى «ست خبر كا»، ولا نزاع في أن هذه القطعة الصغيرة من تمثال هذا الأمير كانت من تمثال خاص ببلدة «مجدو» في وقت ما خلال حياة «تحوتي حتب» كاهن الإله «تحوت» الأعظم في «الأشمونين»، وحاكم مقاطعة الغزال في مصر الوسطى.

والآن يتساءل المرء ما الذي دعا إلى وجود مثل هذا التمثال في بلدة «مجدو»؟ وأقرب الظن أن صاحبه كان مقيمًا في هذه البلدة يؤدي عملًا ما، ولكن ما هذا العمل؛ هل كان عضوًا في مستعمرة تجارية هناك؟ والجواب على ذلك لا بد أن يكون بالنفي؛ لأن ألقابه وما يوحي به مجال حياته في عهد ثلاثة ملوك بالتتابع من ملوك الأسرة الثانية عشرة لا يدل على أنه كان تاجرًا، ولا أنه كان قد نُفي من الأرض مثل «سنوهيت»، ولكن من المحتمل أنه كان يقوم بأعمال سفير مصري في هذه الجهة، رغم أننا لا نعرف شيئًا كثيرًا عن المبعوثين المصريين في ذلك الوقت لنتأكد من أن رجلًا في منزلة «تحوتي حتب» ومسئولياته يمكن أن يرسل سفيرًا إلى بلدة مثل «مجدو»، وعلى ذلك لا بد أن نلخص فيما يلي ما جاء على بعض الآثار التي وصلتنا من عهد الدولة الوسطى من أرض آسيا أو لها علاقة بها، لنصل إلى نتيجة تزيح الستار عن وجود هذا التمثال في مثل هذا المكان؛ إذ الواقع أنه قد عثر على بعض القطع الأثرية في «آسيا»، وتحمل أسماء مصرية، غير أن هذه يمكن أن تُنسب إلى أعمال تجارية قام بها صاحبها. ولكن تمثال «تحوتي حتب» الذي نحن بصدده وتمثالًا آخر لشخص يُدعى «سنوسرت عنخ» كُشف عنه في «رأس شمر»، كان كل من صاحبيهما له مركز مسئول في خارج البلاد المصرية، وإذا كانت هذه النظرية صحيحة فلا بد من تغيير الفكرة السائدة عن علاقات مصر بآسيا، وهي التي كانت تعد علاقات تجارية وثقافية وحسب، ولم تكن علاقات حربية، أو إدارية.

وتدل شواهد الأحوال على أن ملوك الدولة الوسطى قد مدوا نفوذهم في «آسيا» كما كانت الحال في بلاد النوبة، وبخاصة من الوجهة الإدارية؛ مما جعلها تقبض بالقوة على شرايين التجارة الرئيسية مع بلادها عبر الحدود المصرية في الشمال والجنوب.

وسنورد هنا قائمة بالآثار الهامة التي وجدت خاصة بمسألة العلاقات بين مصر وسوريا وفلسطين، وهي في مجموعها على ما يظهر توحي بوجود إمبراطورية من نوع خاص في هذه الأقاليم الأسيوية المتاخمة.

والواقع أن تاريخ حياة «تحوتي حتب»، كما نقرؤه في مقبرته، أو على قاعدة التمثال التي عثر عليها في «مجدو» لم يقدم لنا مادة هامة تساعد بصفة قاطعة على تأييد هذه الفكرة، هذا إلى أن قبره لم يمدنا بأي دليل على أنه كان يسكن خارج مصر، ولكن لدينا لقب واحد من بين ألقابه يوحي بشيء من هذا وهو لقب «باب كل بلد أجنبي» (Newberry, "Bersheh", I, P. 16) والواقع أن هذا اللقب لم يعثر عليه بين الألقاب المصرية في عهد الدولة والوسطى؛ ولذلك نتساءل هل هذا اللقب يعني أنه كان مشرفًا على الحدود أو العوائد أو المسئولية القنصلية؟ يضاف إلى ذلك أنه قد لفت نظر الأستاذ «بلاكمان» في اللوحة رقم ١٨ من كتاب «البرشة» للأستاذ «نيوبري» (J. E. A., Vol. II, PP. 13 ff)، نص في هذا المنظر يفسر منظر حيوانات، فقد خوطبت هذه الحيوانات أو ماشية «رتنو» «سوريا وفلسطين» بالكلمات التالية: «لقد كنت ذات مرة تسيرين على الرمال ولكنك الآن تسيرين على الكلأ»؛ ومعنى هذه العبارة أن هذه الماشية قد نُقلت من آسيا إلى مصر. ويعقب الأستاذ «بلاكمان» على هذه العبارة بأنها إشارة غير مباشرة إلى حملة حربية إلى بلاد «سوريا» و«فلسطين»؛ وعلى ذلك فإن هذا النص يجعل الإنسان ينظر إلى تمثال «تحوتي حتب» بنظرة تقرِّبه مما تشير إليه الجملة الخاصة بهذه الحيوانات الأسيوية، وقد يعضد هذه الفكرة أو هذا الرأي أيضًا ما جاء في منظر من مناظر أحد مقابر «مير» التي تُنسب إلى الدولة الوسطى، وهو يمثل مواشي نقش فوقها العنوان التالي، «ماشية الأسيويين «عامو» قد أحضرت من (أو أحضرت بمثابة» ...» ولكن من الجائز أن هذه الحيوانات (Meir, II, P. 18 n)، في كل حالة من الحالات السالفة قد تكون أحضرت إلى مصر عن طريق التجارة لا عن طريق الفتح، وتوجد لوحة محفوظة الآن في متحف منشستر ذكر فيها فتح «سنوسرت الثالث» لقطر أسيوي يُدعى «سكمم»، وقد تكلمنا عنها فيما سبق، غير أن هذا الفتح أو الغارة يمكن أن تكون غزوة تأديبية ضد العصاة الذين كانوا على الحدود المصرية يهددونها. والواقع أننا لم نجد إشارة مباشرة أو نصًّا صريحًا عن حملة حربية مصرية في عهد الدولة الوسطى إلى بلاد «آسيا» إلى الآن، ولكن لا بد أن نلاحظ هنا قطع الأحجار التي عثر عليها في «الكرنك» وتعزى إلى الدولة الوسطى، فقد وجد منقوشًا عليها أسماء حاملي الجزية من «فلسطين».

.(K. M. Engberg, “The Hyksos Reconsidered”, P. 33 No. 38)

هذا؛ ولا يدل وجود «العامو» (الأسيويون) في مصر؛ تجارًا أو عبيدًا، على أن بلادهم كانت تحت النير المصري، بل قد تكون بين البلدين علاقات سلمية كالتجارة، وأكبر دليل لدينا على ذلك المنظر المشهور في «بني حسن» الذي يمثل دخول ٣٧ أسيويًّا إلى مصر جالبين معهم الكحل (Beni Hassan, Vol. I. Pls. XXX–XXXI).

ولدينا إشارات عابرة عن إحضار أسيويين إلى مصر بمثابة عبيد اشتُروا بالمال كما جاء في ورقة «كاهون» (Kahun Papyri, 12, 10–11; 13, 15–17; 30, 35).

وكذلك لدينا في نفس هذه الورقة إشارات لراقصات أسيويات كنَّ يرقصن في الأعياد المصرية (Ibid, 24, 4–6; 13–14).

ولا يدل ما احتوى عليه كنز «طود» من التحف الأسيوية المحضة في عهد «أمنمحات الثاني» على أن هذه البلاد كانت تحت حكم مصر، بل كانت تعتبر إما مواد تجارية محضة أو هدايا ملكية، دون أن تعتبر جزية فرضت على هذه الأصقاع (Fouilles de l’Institut Française, “Vol. XVII, Pls. XV–XVII,” PP. 113 ff).

على أنه لدينا أدلة متنوعة كثيرة على نوع العلاقات بين مصر وسوريا، وهذه تقع في حيز عهد طويل، من ذلك غارة الأسيويين على الدلتا المصرية في العهد الإقطاعي الأول، وكذلك موضوع بناء «سور الأمير» على الحدود الشرقية، وهو ما سبق الإشارة إليه. ويحتمل أن تكون سلسلة قلاع أقامها «أمنمحات الأول» ليصد بها الستيو «الأسيويين» ويحطم سكان الرمال، وكذلك لدينا متون اللعنة فإنها مهما كان تاريخها الحقيقي يدل على تهديد التاج المصري ونشاط علاقات المدن الأسيوية؛ هذا بالإضافة إلى معلومات مفصلة بعض الشيء عن موظفي هذه البلاد الأسيوية. (Sethe, Die Achtung Feindlicher Fursten Volker und Dinge. etc).

وقد عثر على وثائق أخرى من نوع متون اللعنة هذه، وقد فحصت كتابة هذه الوثائق على ضوء جديد، ووجد أنها لا تتعدى عهد «سنوسرت الثالث» (Albright, Bulletin of the American School of Oriental Research, No. 18, (1941) PP. 16 ff).

ولا يدل استثمار المناجم في عهد الدولة الوسطى في «سينا» وبخاصة في عهد الأسرة الثانية عشرة على أن العلاقات بينها وبين مصر كانت علاقات تدل على السيطرة المصرية المطلقة، فمثلًا في عهد «أمنمحات الثالث» أعظم ملوك هذه الأسرة أرسلت حملة مؤلفة

من ٧٣٤ جنديًّا[٤] إلى مناجم «سينا» (Breasted, A. R. 1, Par. 713) وهذه القوة لم تكن قد أرسلت لتحمي المناجم من البدو، بل كان الجند يعملون هناك لاستخراج المعادن، وذلك ينطبق على ما فعله «منتو حتب» الرابع في عهد الأسرة الحادية عشرة من قبل، وما فعله «رعمسيس الرابع» فيما بعد عندما أرسل ٥٠٠٠ جندي إلى «وادي الحمامات» لقطع الأحجار، (Breasted, A. R. IV. Par. 466).

وبعبارة أخرى فإن هذه القوة لا يمكن أن تحمي الحدود المصرية في «آسيا» في عهد «أمنمحات الثالث»، وعلى أية حال فإنه لا يمكن للباحث أن يفهم هذا العصر بوجه عام دون أن يدرس الخطوات التي أدَّت إلى إقامة «الهكسوس» في مصر، وتدل البحوث الحديثة على أنهم كانوا قد بدءوا ينزحون إلى البلاد المصرية قبل عهد الأسرة الثانية عشرة، ثم بلغوا منتهى مجدهم بعد أن مزقوا شمل قوة الدولة الوسطى.

(Engberg and Albright's Studies, "Journal of the Palestine oriental So-ciety," Vol. VIII, P. 223; Vol. XV, P. 94).

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الجعارين والأختام التي وجدت في «فلسطين» و«سوريا» وبخاصة مجموعة «رو» (Rowe, "Catalogue of Egyptian Scarabs in the Palestine Archaeological Museum.").

ويمكن تقسيم هذه الوثائق قسمين، واحد منهما خاص بالجعارين التي تشمل الألقاب والأسماء المصرية الخاصة بالمصريين النزلاء في «آسيا»، والآخر خاص بالجعارين التي تحتوي على ألقاب وأسماء أمراء أسيويين، فمثلًا نجد على جعران: كاتب الوزير «سنبف» وقد عثر عليه في «جريكو» (Rowe, S. 5) وآخر نُقش عليه «حارس ١١٠ أسيوي» المسمى «وسرخبش»، ولا يعرف مصدره في «فلسطين» ((?) Rowe, No. 15) أما في «سوريا» فنجد أنه قد نقش على جعران: «ربة البيت (ست وسر)» ("Syria", VIII, PP. 85, ff.) ثم الأمير الوراثي الحاكم «إمبي» (Ibid)، وكل هؤلاء الأشخاص كان لهم وظائف مؤقتة في «آسيا»[٥] على أنه من جهة أخرى لدينا جعارين خاصة بأشراف

---

[٤] ومن الجائز أن الحملة التي قام بها «أمنمحات» وزير «منتو حتب الرابع» وكانت مؤلفة من عشرة آلاف جندي لمحاربة أهل «سينا» وحماية الذين كانوا يقطعون الأحجار للمباني الفرعونية، وليس هذا بغريب، فإن سلطان الدولة الوسطى لم يكن ثابت الأركان في هذا العهد، وبخاصة في عهد «منتو حتب الرابع»، الذي تولى المُلك اغتصابًا، وكان عصره عهد اضطرابات.

[٥] J. E. A., Vol. XIV, P. 109.

«ببلوص» (جبيل)، وهؤلاء الأشراف يحملون أسماء أسيوية مثل «عتنتن» و«عيبشمو» «وأبشمويب» ("Syria", X, PP. 12 ff.; "Kemi," Vo. I, PP. 90.ff J. E. A., Vol XIV, P. 109, Vol. XIX, P. 54).

وهؤلاء الأسيويون قد حكموا «جبيل» بوصفهم أمراء مواطنين، غير أن بعضهم كان يحمل اللقب المصري «حاتي عا» الذي يترجم على حسب التقليد بكلمة «شريف» أو «حاكم مقاطعة»، وهذا له أهميته؛ إذ في مصر كان هذا اللقب يمنحه الفرعون لمن يريد من الأفراد المقربين له؛ ولذلك نشاهد أن «زفاي حعبي»، بوصفه شريفًا (حاكم مقاطعة) لم يكن في مقدوره أن ينقل ملكية ضيعته بوصفه حاملًا لهذا اللقب، (Breasted, A. R., Vol. I, Par. 358)، وحتى إذا كان هذا النظام لا يطبق على خارج مصر، فإن حمل أمراء «ببلوص» لهذا اللقب يضع أمامنا الدليل على أن الحكام الأسيويين في «ببلوص» كانوا معضدين في حكمهم بملك مصر، وفي هذا ما يدل على مقدار الرقابة والسيطرة المصرية.

وفضلًا عن ذلك يوجد في نهاية قائمة الجعارين التي دوَّنها الأستاذ «رو» ملخص نسبي للآثار المصرية التي عثر عليها في فلسطين لمختلف الدول التي قامت في مصر، ففي الدولة الوسطى نجد النسبة ٣ إلى ٧ في عهد الهكسوس، إلى ١٠ في الدولة الحديثة، ٣ في العصر الذي تلا الدولة الحديثة، وهذه النسبة لا تشعر حقًّا بوجود دولة مصرية في آسيا في عهد الدولة الوسطى، ولكن على الرغم من ذلك فإنها نسبة تشعر ببداية تلفت النظر إلى مد النفوذ المصري في «آسيا».

والآن ننتقل إلى فحص القطع الأثرية المصرية التي تحتوي على تراجم نُقشت على الحجر وعثر عليها في التربة الأسيوية، فمن ذلك نقوش الساقي «حقا اب» والمواطن «ددي آمون» وكلاهما وجد في «جيزر» (راجع: R. A. S. Mac Alister, "The Excavation of Gezer", Vol. II, PP. 311 ff) وكذلك كُشف عن تمثال «لأمنمحات الرابع» في صورة «بو الهول» في «بيروت» (راجع: Breasted, "Museum Quarterly", Vol. II, PP. 78 ff. (Syria, Vol. IX, P. 300) هذا إلى تمثال للأميرة «أتا» Ita بنت «أمنمحات الثاني» في جهة المشرفة (قطنا) (راجع: Syria, Vol. IX, P. 300)، ووجد كذلك في «رأس شمر» تمثال للفرعون «أمنمحات الثالث» في صورة بو الهول» (راجع: Syria, Vol. XIV, Pl. XV, P. 120)، ثم قاعدة تمثال لزوج الفرعون «سنوسرت الثالث» المسماة «خنمت نفرحزت» (راجع: "Syria", Vol. XIII, Pl. XVI, P. 20")، وكشف أيضًا عن تمثال صغير للوزير «سنوسرت عنخ» (Ibid, Vol. XV, Pl. XIV, PP. 116, 131 ff) والتمثال الأخير يعتبر أهم

وثيقة للموضوع الذي نبحثه الآن؛ إذ عندما أراد الأستاذ «برستد» أن يعلق على العبارة التي وردت في نقوشه وهي: «الذي أعطى ذهب الشرف» قال: «إن هذا الذهب كان قد مُنح لهذا الوزير مكافأة لعمل عظيم قام به في الخارج، فلا بد أن هذا الوزير المصري كان يقيم في بلد أجنبي هام ويشغل مركزًا ساميًا فيها، ويحتمل أنه كان سفيرًا فوق العادة أو حاكمًا، وقد يكون المركز الذي كان يشغله يشبه في أهميته ما نشاهده يجري في الدول العظيمة، فمن الجائز أن «سنوسرت عنخ» كان مبعوثًا مصريًّا عاليًا، أرسل من قبل الحكومة المصرية ليراقب بعين يقظة إقليما سوريًّا، ربما كان مستقلًّا اسمًا، ولكنه في حقيقة الأمر كان تحت الحماية المصرية.»

ولسنا في حاجة إلى أن نقف هنا لنعدد الآثار التي عثر عليها في قبور أمراء «ببلوص» (جبيل الحالية) وتحمل اسم «أمنمحات الثالث» وابنه «أمنمحات الرابع»؛ إذ فيما ذكرنا ما يكفي (راجع Montet “Byblos et l’Egypte”, P. 155) والواقع أن هذه الأشياء كانت هدايا ملكية لأمراء موالين، أو كانت دليلًا على الحب والمصافاة، وهذا ما ينطبق على تماثيل «بو الهول» التي سبق ذكرها.

أما التمثالان الصغيران اللذان كُشف عنهما في بلاد «الأناضول» فلهما شأن آخر، فواحد منهما للمرضعة «ست نفر» وقد عثر عليه في «أطنة» (M. M. A. Vol. XVI, PP. 208 ff.) أما التمثال الآخر فلشخص يُدعى «كري» والنقوش التي عليه تدل على أنه عارٍ عن كل لقب، وقد كشف عنه في شرقي «أنقرة» (A. J. S. L. XLIII, p.p. 294 ff) والواقع أن الإنسان لا يذهب تفكيره إلى حد أن مصر قد امتدت فتوحاتها حتى وصلت إلى هذا البعد الشاسع، وكونت إمبراطورية وصلت إلى بلاد الأناضول في هذه الفترة من تاريخها، ولكن المعقول أنه من الجائز أن السيدة «ست نفر» كانت مربية مصرية تعمل في بلاط أحد أمراء بلاد «الأناضول»، أما «كري» فيحتمل جدًّا أنه كان تاجرًا مصريًّا. ولكن المهم أن وجود هذين التمثالين في قطر ناءٍ كهذا عن وادي النيل يمكن أن يتخذ مقياسًا على مدى انتشار نفوذ الثقافة المصرية في عهد الدولة الوسطى، هذا إذا طرحنا جانبًا كل اعتبار آخر لوجودهما هناك، يضاف إلى ذلك إنه قد وُجدت قطعة من قضيب سحري في خرائب بلدة «مجدو»، وقد بقي من نقوشها السحرية ما يدل على أن ربة البيت «بعاتومو» كانت تلتمس الحماية السحرية في وقت الغروب لمدة الليل وأثناء النهار (راجع: The Illustrated London News, November, 1939, p. 25) وهذه القطعة قد وجدت في طبقة من طبقات الحفر يقرب تاريخها من الدولة الحديثة، ولكن سياق

الكلام يرجع بها إلى عهد أقدم، وبخاصة أن القُضب السحرية كانت شائعة جدًّا في عهد الدولة الوسطى. وأخيرًا نوجه النظر إلى قصة «سنوهيت» وهو هارب سياسي قد فر من منطقة المراقبة المصرية عند موت «أمنمحات الأول»، ولا نزاع في أن جغرافية البلاد التي مر بها والتي آوى إليها في «آسيا» ليست واضحة تمامًا، غير أنه ذهب في جولاته حتى «ببلوص» على ساحل «فينقيا»، والظاهر أنه بعد ذلك اخترق تلك الجهة إلى الجهة الشرقية حيث استقبله أحد أمراء «رتنو العليا» في إقليم فيه الفاكهة والكروم والحبوب والماشية، ورغم أنه كان يعيش على مقربة من طريق يرى منه الذاهب إلى مصر والراجع منها، فإنه لم يكن في متناول الشرطة المصريين، أو تحت سلطانهم القضائي، ولا يبعد أنه كان يسكن في إقليم «بقعا» الذي يحتوي على طريق عظيم يمتد شمالًا وجنوبًا بين «لبنان» والإقليم المقابل لها.

وإذا كان هذا الزعم مقبولًا أمكن القول بأن المراقبة الفعلية المصرية في هذه الجهات كانت في «فلسطين» و«فينقية» أكثر منها في داخل بلاد «سوريا»، أو قد يجوز أن مصر كان لها مكانة ضئيلة في أوائل الأسرة الثانية عشرة في آسيا، وذلك قبل أن يتمكن الفراعنة الذين حكموا في نهاية هذه الأسرة من أن يجعلوا لمصر نفوذًا عظيمًا في القارة الأسيوية. ويظهر أن الرأي الأخير هو المرجح، وعلى الرغم من كل ما أوردناه هنا من الأدلة والبراهين، فإنا لم نصل إلى نتيجة فاصلة، ولكن انتداب الوزير «سنوسرت عنخ» ليقيم في «أوجاريت» Ugarit (رأس شمر الحالية)، وكذلك إقامة الكاهن الأعظم لمدينة الأشمونين في مدينة «مجدو» له أهميته؛ إذ الواقع أن هذه الإقامة كانت تعتبر أكثر من سلطان تجاري أو ثقافي، فإرسال شخصيات مثل أولئك لهم مقامهم في بلادهم إلى «آسيا»، يدل على أنهم كانوا يبعثون إلى مراكز ذات قيمة عظيمة في خارج بلادهم، وهذا ما يحتم وجود نفوذ إداري، وحربي يوحي بنفوذ إمبراطوري. وعلى ضوء البراهين التي لدينا حتى الآن يمكن قبول النظرية التالية وهي أن مصر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد كانت تؤيد حكم الأمراء المحليين وفي الوقت نفسه كانت تجعلهم تحت مراقبتها بإرسال مندوب سامٍ مقيم، ويحتمل أن حامية كانت تشد أزره؛ ولذلك لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن مصر في القرن التاسع عشر بعد الميلاد كان مثلها كمثل الإمبراطورية المصرية في آسيا في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

(٣) علاقة مصر بجزر البحر الأبيض المتوسط

أما علاقات الوجه البحري بالبلاد الواقعة وراء البحار فلم ينقطع أسبابها أيضًا. فمنذ الأسرة السادسة نجد في مصر أختامًا كل منها على صورة زر، وغالبًا ما يكون له مقبض مستدير الشكل، وقد رُسم عليها أشكال بعضها يحتوي على خطوط منوَّعة وبعضها يحتوي على صور حيوانات مختلطة الشكل خيالية، وهي تشبه تلك الحيوانات الهائلة المرسومة على لوحات طحن الكحل التي وجدت في العهود العتيقة جدًّا، وهذه الصور كانت تعتبر علامة خاصة يعرف بها صاحبها، والواقع أن هذه الأختام قد عثر على أمثالها في «كريت». ومنذ بداية الأسرة الثانية عشرة بُدئت تصنع الأختام في صورة «جعل» (أو جعران)، وهذا الجعران أصبح في نهاية الأمر يحل محل الأسطوانات والأزرار القديمة جملة (Evans J. H. S. Vol. XIX, PP. 335 ff.; Garstang, “Bet Khallaf”, P. 33, Pl. XXXIX; Newberry, “Scarabs”, PP. 56 ff.; Meyer, Gesch. Par. 200).

أما الإشارات المنقوشة على هذه الأختام (وهي في غالب الأحيان اسم صاحبها) فإنها تحاط بخطوط حلزونية ملتف بعضها ببعض بصورة متكررة. وليس هناك من شك في أن ظهور الشكل الحلزوني في مصر له بعض العلاقات بانتشاره العظيم في وقت واحد في «كريت»، و«جزر بحر إيجه»، ولا نزاع كذلك في أن فراعنة الأسرة الثانية عشرة كان لهم أسطول يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط كما كان لأسلافهم فراعنة الدولة القديمة، ومن الجائز جدًّا أنهم كانوا أحيانًا يتدخلون في أمور جزر هذا البحر. حقًّا إن النقوش لا تتحدث قط عن هذه الجزر، غير أن حامل الختم «حنو» في عهد الفرعون «منتو حتب الثالث» كان يفخر بأنه قضى على قوم «الهنبو» (شعوب البحر أو الشمال) (Lange und Schafer, “Grab und Denkstein”, 20425) ويقص علينا موظف آخر يحتمل أنه من عهد «سنوسرت الأول» بلغة هذا العصر المتكلفة أن «قلمه يأخذ ويشمل الهنبو»؛ ويعني بذلك أنه ضمن الإدارة التي تشرف على العلاقات التي مع شعوب البحر، وعلى حسب الوجهة المصرية كانت هذه الإدارة هي التي تصدر لهم الأوامر. وقد وصل إلينا آثار من آثار شعوب البحر هذه على غرار التي وصلتنا من العهد الطيني، وتشتمل على قطع من الخزف الأجنبي. ونجده ثانية في مصر في أماكن خاصة، فقد أقام «سنوسرت الثاني» عند مدخل «الفيوم» بالقرب من هرمه عند «كاهون» بالقرب من «اللاهون» مقر حكمه، وقد هجرت منذ بداية الأسرة الثالثة عشرة، وعلى ذلك لم تعمر أكثر من قرن «من حوالي ١٩٠٦–١٧٨٠ق.م». وقد عثر فيها، غير عدد عظيم من قطع

الخزف المصري، على قطع أخرى من طراز يدعى «كامارس»، وهو طراز كان شائعًا وقتئذ في «كريت» وفي جزر «سيكليد». وقد أمدتنا مصر بتاريخه، ومن ثم نعرف أن أهالي «كريت» كان لهم في هذه الجهة مؤسسات يرجع أسبابها لأمر من الأمور التالية، فإما أن يكونوا قد أقاموا في هذه الجهة بوصفهم أسرى (ويحتمل أنهم في هذه الحالة كانوا قرصان بحر)، وإما أنهم كانوا تجارًا ومن أصحاب المخاطرات الذين يقومون بجولات إلى البلاد النائية. وقد أتوا إلى مصر باحثين وراء الثروة كما فعل أهالي «سردنيا» الذين أتوا بعدهم بزمن طويل، وقد حُفظ لنا في قبر «بالعرابة المدفونة» آنية فاخرة من طراز «كامارس»، وعثر بجانبها على أسطوانات باسم «سنوسرت الثاني» و«أمنمحات الثالث». وكذلك عثر في «كاهون» وفي خرائب مدينة «الخطاعنة» بالقرب من «فاقوس» على قطع من الفخار الأسود مرسوم عليه خطوط غائرة باللون الأبيض، ويظهر أنه أُتي به من «قبرص» (Chataana; Hall, “The Oldest Civilization of Greece”, P. 68) وعلى العكس وجد في «كنوسوس» عاصمة «كريت» في أقدم الطبقات الأثرية للقصر تمثال صغير مصري (Evans, “Annual of the British School of Athens”, Vol. Vl. P. 27, Griffith, “Archaeological Report”, (1889–1900) P. 65) وهذا التمثال الجنازي يرجع تاريخه إلى حوالي الأسرة الثالثة عشرة، على أنه لو جادت تربة الدلتا بعدد عظيم من الوثائق لأصبح في مقدورنا أن نفهم الكثير عن هذه العلاقات، على أن مجرد عثورنا في بئر جنازي قديم في بلدة «تركويني» (الأترسكية) (بإيطاليا) على دمية صغيرة، وهي تمثال الإلهة «باست» المصرية، وعلى جعران للملك «منتو حتب الثالث» لدليل على بُعد الأماكن التي نُقلت إليها المحصولات المصرية (راجع: Targruni Ghirardini not degli Scavi 1882; 183, pl. 13 bis 10 Helbig Homer Epos, 2, 24.).

هذا وقد عثرنا على بعض الأواني التي تعزى إلى «كريت» في حفائر الجيزة، غير أنها لم توجد في مقابر، بل وُجدت في الرمال والأتربة المتراكمة حول المقابر المدفونة تحت هذه الرمال.

المباني

تدل شواهد الأحوال على أن خَلَف «أمنمحات الأول» ورثوا عنه النشاط، ومضاء العزيمة في تسيير أحوال البلاد، على أن أخلاق كل من هؤلاء الفراعنة ليست من الأخلاق التي يمكن لمسها لا في ألقابهم الرسمية ولا من نقوش رعاياهم ولا من بعض تماثيلهم التي كانوا يقيمونها في معابد الآلهة؛ إذ الواقع أنهم كانوا يريدون أن يظهروا لنا دائمًا آلهة أحياء يتوقف عليهم فلاح بلادهم ورخاؤها، فكان لا يمكن الاقتراب منهم دون أن ترتعد من هيبتهم الفرائص حتى ولو كانت مقاصدهم حسنة، وأنهم يريدون إغداق الهبات ومنح الرتب.

والظاهر أن المواهب الحربية لهذه الأسرة قد تقمصت بوجه خاص في «سنوسرت الثالث»، وهو البطل الذي نسبت إليه الخرافات كل أعمال الفروسية والفتوح التي قام بها فراعنة آخرون. ولكن في مقابل ذلك نجد في عهد خلفه «أمنمحات الثالث» أن هذه الملكية القوية الجانب الحسنة النظام قد فاضت بضوئها المتلألئ الوهاج على البلاد بما قامت به من الأعمال الخالدة. ويمتاز كل ملوك هذه الأسرة بغيرتهم وتحمسهم لإقامة المباني، وبخاصة المعابد التي شيدوها للآلهة؛ ولذلك نجد أسماءهم في كل مكان في بقايا آثارهم التي وجدت تحت أساس مباني الدولة الحديثة، وهي مبانٍ قد أقيمت بصورة متواضعة، إذا قيست بمباني أخلافهم في الدولة الحديثة، فنجد أن «أمنمحات الأول» قد أقام خلافًا للمباني التي أضافها لمعبد الإله «بتاح» في «منف» معبدًا للإله «آمون» في «الكرنك» (بطيبة) ومعبدًا للإلهة «حتحور» في «دندرة»، وكذلك يظهر أنه أقام معبدًا للإله «سبك» في مدينة «الفيوم» كما أسفلنا ذكره. وشيد «سنوسرت الأوَّل» معبدًا في «هليوبوليس» للإله «آتوم» كما أسلفنا. ولا تزال المسلة التي أقامها فيه تذكارًا لعيد «سد» باقية في مكانها الأصلي، وكذلك أقام معبدًا «بالكرنك»، وسنتكلم عنه فيما يأتي.

معبد سنوسرت الأول بالكرنك



شكل ١: معبد «سنوسرت الأوَّل» بالكرنك.

لقد ظل طراز المعابد المصرية في عهد الدولة الوسطى مجهولًا إلى أن قام المهندس «شفربيه» بالعمل في إصلاح أساس «البوابة» الثالثة التي أقامها الفرعون «أمنحتب الثالث» في معبد «الكرنك»، فقد لاحظ أثناء العمل أن معظم الحجارة التي بُنيت منها هذه «البوابة» كانت حجارة منقوشة، وأنها كانت تُنتزع من مبانٍ أخرى ترجع إلى عهد أقدم من عهد هذه «البوابة» الآنفة الذكر، وقد بدأ العمل في استخراج هذه الأحجار وترتيبها منذ سنة ١٩٢٤، واستمر العمل إلى سنة ١٩٣٦، فاستخرج منها زهاء ٩٥١ كتلة من الأحجار المختلفة، وقد اتضح في نهاية الأمر أنها مأخوذة من أحد عشر مبنًى أثريًّا قديمًا، ولحسن الحظ وجد المسيو «لاكو» من بينها حجارة تؤلف معبدين كاملين تقريبًا: أحدهما يرجع تاريخه للأسرة الثانية عشرة، والثاني يرجع إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة. والذي يعنينا من هذين المعبدين الآن هو معبد الأسرة الثانية عشرة، وهو الذي أعاد «شفربيه» بناءه، ومادته من الحجر الجيري الأبيض الذي كان يُستخرج من محاجر «طرة»، وهو نوع الحجر الذي كان شائع الاستعمال في عهد الدولة الوسطى، ويفسر لنا استعمال هذا النوع من الحجر وقتئذ السر في اختفاء آثار هذا العهد؛ وذلك لأن القوم كانوا يحصلون عليه بمثابة جير يحرق ليستعمل في مبانيهم. وقد ظل هذا النوع من

التخريب المشين منتشرًا إلى أن أسست مصلحة للمحافظة على الآثار، وقد ظل طراز هذا المعبد مجهولًا لعلماء الآثار حتى أعيد إقامة هذا المبنى «بالكرنك» سنة ١٩٣٦، وهو يتألف من قاعدة مرتفعة مربعة الشكل تقريبًا يصل إليه الزائر بدرج ذي ميل خفيف من جهتين متقابلتين، ولكل منهما «درابزين» بسيط له قمة مستديرة ومنخفضة جدًّا، ويقع بين مجموعتي الدرج مطلع خفيف الانحدار، والظاهر أنه كان يستعمل ليُجرَّ عليه جرارة تحمل محراب الإله أو تمثاله (الإله آمون)، والمعبد المقام على هذه القاعدة المرتفعة يحتوي على ستة عشر عمودًا موزعة على أربعة صفوف؛ كل منها يحتوي على أربعة عمد، أقيم فوقها عقود وسقف مستوٍ، ويلاحظ أن العمد المقامة في واجهة المدخل وعند مخرجه، وهي التي تقابل السلالم؛ رباعية الشكل ليرتكز عليها عقود الواجهة المقامة طولًا، والعقود الموضوعة عرضًا.

أما الأعمدة الثمانية الباقية فتكاد تكون مربعة (٦٤ × ٦٢) سنتيمتر، ويشاهد أن الأعمدة الخارجية متصلة بقواعدها بوساطة «درابزين» غير مفرَّغ ومستدير، إلا التي في وجه درج السلم فليست كذلك؛ وذلك لارتفاع دعامتها، وعقود المعبد موزعة في أربعة صفوف موازية لمحور المعبد ومكملة لواجهتي المدخل والمخرج بصفين عموديين للعقود الأولى، ويرتكز على هذه العقود أو السقف. وقد قصد أن تكون هذه الأحجار بارزة بعض الشيء لتكون بمثابة طنف للمعبد (كرنيش)، أما زخرف الجدران فقد صُنع بكل دقة وعناية. فنشاهد أولًا على القاعدة المرتفعة منظرًا يحتوي على أرقام خاصة بحاجيات المعبد على ما يظهر، غير أنها لم تحَل بعد حلًّا مؤكدًا، ويشاهد ثانية على قاعدة العمد الخارجية وعلى الجزء المستوي من خارج «الدرابزين» منظرًا نُقش عليه أسماء مقاطعات الوجه القبلي، والوجه البحري، كما سبق الإشارة لذلك. وهذا المنظر فضلًا عن أهميته التاريخية والجغرافية قد سهل علينا معرفة الجهات الأصلية لاتجاه المعبد. ونعرف أن مقاطعات الوجه البحري كانت في الجهة الشمالية، ومقاطعات الوجه القبلي على الواجهة الجنوبية، في حين أن واجهتي المدخل والمخرج كانتا في الشرق والغرب على التوالي، وكان مرسومًا على كل واجهة عدد من صور إله النيل تحمل القرابين.

وثالثًا نجد على كل العمد في الجزء الأعلى الواقع فوق المساحة التي تشغلها هذه القائمة الجغرافية أو على سطح عارٍ من النقوش، أولًا سطرين أفقيين من الكتابة تحدثنا بأن هذا المعبد كان قد أقيم احتفالًا بالعيد الثلاثيني الأول (حب سد) للفرعون «سنوسرت الأول»، وأسفل ذلك صف آخر يحتوي على منظر قربان يقدمها الفرعون للإله «آمون رع»،

ويلاحظ أن هذا الإله قد مثل في معظم مناظر المعبد في صورة الإله «مين». وكذلك يشاهد على أوجه العمد العريضة، وهي العمد المستطيلة الشكل، أن عدد الأشخاص الذين رسموا عليها لا يزيد عن ثلاثة، ونجد على بعضها الإله «منتو» إله طيبة القديم يقدم الفرعون للإله «آمون»، وهذا المنظر له أهمية عظيمة الشأن من الوجهة الدينية؛ إذ يؤكد لنا التاريخ الذي تخلى فيه الإله «منتو» إله «طيبة» المعبود الرسمي للبلاد في عهد الأسرة الحادية عشرة عن مكانته هذه للإله «آمون» بوصفه أولًا معبود مدينة «طيبة»، ثم الإله المقدس الرسمي لمصر كلها. هذا ويشاهد فوق الصفوف المنقوشة التي تحتوي هذه المناظر متن ديني كتب في أسطر عمودية توِّجت بصورة النسر أو الصقر حسب شكل الأعمدة؛ إذ كان بعضها مربعًا فكان يرسم عليه النسر والصقر معًا، وبعضها مستطيلًا فكان يرسم عليه الصقر وحده. وأخيرًا نجد على العقود منقوشًا صيغة إهداء المعبد جاء فيها أن هذا الأثر قد أقامه «سنوسرت الأول» ليكون فخارًا لوالده «آمون رع» من الحجر الجيري الأبيض المستخرج من محاجر طرة.

ويلاحظ أن الزخارف والإشارات الهيروغليفية والمناظر قد حُفرت بإتقان بالغ، وقد نُقشت كلها بالحفر البارز، ولا يُستثنى من ذلك إلا إطارات الأبواب التي نُقش عليها ألقاب الملك وأسماء المقاطعات، وأسماء إله النيل، ومنظر الأرقام، فإنها قد نُقشت نقشًا غائرًا، والأخيرة خاصة بالمقاطعات. وكانت الإشارات التي تزين بها إطارات الأبواب قد لوِّنت باللون الأزرق، أما الطنف (الكرنيش) التي كانت تمثل في هيئة خوص جريد النخل فقد كان عسفها ملوَّنًا بالأزرق فالأبيض فالأحمر على التوالي، وخلافًا لهذه الألوان، فإنا لم نجد أثرًا لأي لون آخر في أي جزء من أجزاء المعبد الباقية. ومما يلفت النظر وجود خروق صغيرة في مباني المعبد مما يوحي إلينا بأن جدرانه كانت مغطاة بورقة من الذهب قد ثُبتت بدسر من الخشب في هذه الخروق (A. S. Vol. XXXVIII, P. P. 567 f.f).

أما «سنوسرت الثالث» فإنه شيد معبدًا للإله «حرشف» في «إهناسة المدينة»، ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد أننا نجد أسماء هؤلاء الملوك وتماثيلهم في كل المدن التي أمكن أن نجد فيها آثارًا لم تغمرها مباني الدولة الحديثة، أو لم يمحُها الزمن مثل «تانيس»، وفي بقعة بالقرب من «نبيشه» (آمت)، وفي تل المقدام (مدينة الأسد)، وفي وسط الدلتا؛ وهذا يبرهن لنا عن مقدار الدور الهام الذي لعبته الدلتا في ذلك الوقت وفي الإمبراطورية المصرية. والواقع أن هذا الشطر من البلاد المصرية لا نكاد نعرف عن آثاره وقتئذ شيئًا يذكر (راجع: Mariette, “Karnak” II; “Petrie” Abydos, I, II, Maclver and Mace, El Amrah).

اتخاذ مقر الملك بجوار الجبانة

ويلاحظ أن ملوك الأسرة الثانية عشرة قد اتخذوا مقر ملكهم ثانية في الشمال، وجعلوا جباناتهم على حافة الصحراء الغربية، كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة، واتخذوا الشكل الهرمي المحض مقابر لهم تدفن فيها أجسامهم، وكذلك اتخذ رجال البلاط لمقابرهم شكل المصطبة، غير أن معظم هذه المقابر قد شُيدت من اللبن وكسيت غطاء من الحجر، فنجد أن «أمنمحات الأول» أقام هرمه في «اللشت»، واقتفى أثره في ذلك ابنه «سنوسرت الأول»، ثم جاء «أمنمحات الثاني» فنقل مقر الملك إلى نقطة أعلى في الشمال عند «دهشور» بالقرب من هرم «سنفرو» ومقره، أما «سنوسرت الثاني» فإنه على العكس أقام مدينته وهرمه بالقرب من «اللاهون»، ولكن ابنه «سنوسرت الثالث» عاد إلى «دهشور»، وهناك بنى هرمًا له يسمى «حتب سنوسرت»، ومقرًّا أطلق عليه اسم «عنخ سنوسرت»، ولكن ابنه «أمنمحات الثالث» عاد إلى «هوارة» وبنى هرمًا له هناك ومقرًّا يدعى «عنخ أمنمحات»، كما أمر ببناء هرم ثانٍ له في «دهشور»[١] كما فعل سلفه «سنفرو»، وأقام معبدًا لهرمه في «هوارة»، وهو البناء الذائع الصيت عند «الإغريق»؛ إذ كانوا يعتبرونه أكبر عجائب مصر، وهو الذي كان يطلق عليه اسم «اللبرنت»، وقد فصلنا القول فيه فيما سبق.

وفي النصف الأول من الأسرة الثانية عشرة ظهرت مقابر فخمة أقامها حكام المقاطعات في عواصم مقاطعاتهم؛ مثل مقابر «بني حسن» و«البرشة» و«مير» و«قاو»، وكل هذه المقابر نُحتت في واجهة الصخور الواقعة في واجهة الجبال في الجهة الغربية، إلا مقابر «بني حسن» فإنها تقع في الجهة الشرقية، وكلها نُحتت على طراز واحد، وغالبًا نجد أنه كان يصعد إليها بطريق مدرَّج من الوادي، ثم ينتهي برصيف يؤدِّي إلى مزار المقبرة المنحوتة في الصخر، وهذا المزار نفسه يؤدي في الغالب إلى قاعات أمامية خلفها ردهة نُحت فيها كوَّة في الجدار الخلفي كان يوجد فيها تمثال المتوفى، ولا نزاع في أنه توجد نقطة اتصال ظاهرة بين هذا الطراز من المقابر المنحوتة في الصخر وبين مقابر

---

[١] وقد عثر أخيرًا على قطعة من الحجر في «حوض البلسم» بالمطرية، كتب عليها اسم هرم لملك يدعى «أمنمحات» لم يكتب معه لقبه المميز له، ويظن موريس أفندي روفائيل كاتب المقال عن هذه القطعة أنه اسم هرم «أمنمحات الثالث» (A. S., Vol. XXXVII, P. 79).



شكل ٢: مقبرة أميني.

الدولة القديمة، ولكن مع ذلك نرى أنه توجد خطوة ظاهرة إلى الأمام تدل على تقدم في الطراز الأصلي القديم، وبخاصة من حيث التأثير الذي أحدثه انتخاب المكان. وأهم هذه المقابر تلك التي أقامها أمراء المقاطعات في «بني حسن»، ففيها نشاهد قاعات ذات أعمدة، وردهات ذات أسقف مقببة ترتكز على عمد ذات أضلاع تكون غالبًا رباعية أو ثمانية الأضلاع، وقد تكون ذات ستة عشر ضلعًا، وأضلاعها على هيئة قنوات جميلة المنظر، (انظر شكل ٢).

وقد انتشر هذا النوع من التقبيب الذي نشاهده في هذه المقابر؛ حتى إنه أصبح شائع الاستعمال من أطراف الدلتا حتى أعماق بلاد النوبة؛ إذ قد عثر في هذه الجهات على قبور مصنوعة من اللبن ذات قباب. وفي المقابر العظيمة نشاهد خارجة عظيمة المساحة يزينها عقد محكم الشكل مثل الذي كان يستعمل في عصور ما قبل التاريخ، غير أنه في عصرنا قد بلغ حد الكمال.

فن نحت التماثيل (تماثيل الملوك)

يمتاز فن نحت التماثيل في هذا العصر بما يظهره المثَّال من دقة التعبير في الحجرات عن العواطف والمشاعر والوجدانات، غير أن هذا الفن لا يتبع قاعدة معينة ثابتة؛ ولذلك لا نجد له وحدة ولا حدودًا معينة يسير بمقتضاها.

وكذلك يظهر أمامنا بوضوح في هذا العصر أولًا التناقض في فن نحت تماثيل الأفراد، وتماثيل الفراعنة، وحتى في نحت تماثيل الملوك أنفسهم فيما بينهم، فنجد اختلافًا كبيرًا في الفكرة والإخراج، فنلاحظ منها مثلًا مجموعة مرتبطة في كيفية نحتها ارتباطًا واضحًا بتقاليد النحت في الدولة القديمة، وبخاصة في بداية هذه الأسرة، ونجد أن تماثيل الفراعنة كانت تحاكي طراز تماثيل الأسرة السادسة المهذبة؛ وهي التي تنم عن رقة وليونة تعبران عن ذلك المجد الذي أصبح في عالم الفناء. فمثلًا يلفت النظر تمثال «سنوسرت الأول» المنحوت[١] في الحجر الجيري الأبيض بما يعبر عنه تقاسيمه من طراوة وإبهام وقلة الشخصية، وغير أن محياه في الوقت نفسه يعبر عن طراز الحاكم الوقور اللين العريكة بما ترتسم على وجهه من ابتسامة يُرى من خلفها «الإله الطيب».

وكذلك تمثال الملك «حور» (انظر [أمنمحات الثالث ١٨٤٩–١٨٠١ق.م]) الممشوق القوام اللطيف القد، فإنه مع ما فيه من جمال لا ينجذب إليه النظر لما ينقص تقاسيم محياه من قوَّة التعبير التي تدل على الشخصية، وكذلك يعوزه ذلك الروح الذي تنبعث

---

[١] أما تمثاله الضخم الذي عثر عليه في «تانيس» فتدل ملامحه على العنف والصلابة في الأخلاق؛ ولذلك يعتقد أنه قد كانت توجد مدرسة خاصة للنحت في «تانيس» بعيدة في فنها عن المدرسة القديمة (A. S., Vol. XXXVII, P. 81, Pl. I).

من وحي الفن الرفيع؛ ولذلك يلاحظ الإنسان أن هذه التماثيل تنسب إلى تقليد فني خاص لم يعد ينطق بما تعبر عنه هذه الحياة الدنيا؛ ولذلك يظن البعض أن هذه التماثيل قد نُحتت لتوضع مع المُتوفَّ في عالم الآخرة. ولا غرابة إذا وجدناها موضوعة في المعبد الجنازي، وهذا ما جعل صناعة نحتها تقليدية. والواقع أنها نحتت لتكون بمثابة عدَّة للمتوفى في عالم الآخرة، ومن ثم يمكننا أن نحكم أن طراز نحتها قد انحدر إلينا من عهد الدولة القديمة عن طريق التقليد المحض، وذلك كان من الصعب أولًا أن نفسر وجودها جنبًا لجنب مع تماثيل عصر الدولة الوسطى التي أُخرجت للناس في صور جديدة ممثلة لروح العصر والحياة اللتين وجدت فيهما؛ إذ من جهة أخرى نجد أنه تنبعث من تمثال الملك «منتو حتب الثاني» روح آخر يمثل شخصية الرجل الذي أعاد لمصر وحدتها. فنرى في تمثاله الجالس ملامح تدل على صلابة في الخلق، وسيطرة قاهرة، وعزم نافذ؛ مما جعله يعتبر من أحسن القطع الفنية التي أنتجتها يد النحات في الفن المصري المبكر لهذه الدولة، وتمثيل الفرعون في الحجر بما يفوق الوصف البشري في عهد الدولة الوسطى كان نسيج وحده في فن نحت التماثيل؛ وذلك لأن الطراز الخاص في نحت تماثيل الملوك في هذا العصر كان شيئًا آخر بالمرة، فلأول مرة تبرز لنا شخصية الفرعون بعد تحفظه المتناهي الذي ظل متبعًا عدَّة قرون، فنشاهد في صوره الجديدة أنه عارٍ عن كل تصنُّع، وأنه أصبح من أهل هذه الأرض، وصار لزامًا عليه أن يحارب، وكذلك أَصبح في مقدوره أن يحس ويشعر في داخلية نفسه، كما أنه صار يتألم.

وكل هذه الوجدانات كان قد أهملها تمامًا المثَّال المصري عند تصويره تقاسيم محيا الفرعون حتى هذا العصر الذي نحن بصدده. حقًّا إن تماثيل ملوك الدولة القديمة تنم ملامحها عن شخصيات قوية، غير أنها في الوقت نفسه لا تدعنا ننظر إليها بعمق؛، حتى إننا لا نشاهد منها إلا ما توحي به من هيبة في الوقت الذي نتطلع فيه في شغف إلى معرفة تجاربهم، وما تنطوي عليه حياتهم من مشاعر. أما الآن فإن المثَّال قد جعل الحاكم يقف أمامنا كأنه واحد منَّا لدرجة أن أحد أدباء هذا العصر وهو «خيتي» بن «دواوق» قد جعل «أمنمحات الأول» لا يخجل من أن يلقن تحذيراته وتجاربه لابنه «سنوسرت الأول» عن تلك المؤامرة الفظيعة التي أدت إلى اغتيال حياته، فهذا الفرعون عندما قص علينا فجيعته لم يكن في نظره هذا القول مخزيًا ولا مزريًا، عندما نزل من عليائه الإلهية التي كان لا يمكن الدنو منها، وأخذ بقسطه الوافر مع بني البشر من الهموم، والمصائب التي يعانونها (راجع [أمنمحات الأول ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م] … إلخ).

وفي الحق إنه لمن الصعب أن يوازن الإنسان موازنة صادقة بين تماثيل ملوك الدولة الوسطى وتماثيل ملوك الدولة القديمة، ثم يستخلص من هذه الموازنة نتيجة ذات قيمة؛ وذلك لأن قطع النحت الفنية في عهد الدولة القديمة قد أخرجتها يد الفنان على أساس فكرة خاصة معينة تختلف عن الفكرة التي كانت شائعة في عهد الدولة الوسطى؛ فإن الفن في عهد الدولة الوسطى كان له مثل أعلى آخر في تصوير الملوك، وإذا كان ملوك هذه الأسرة لم يصلوا إلى القوة العلوية التي وصل إليها ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة — إذ كانت سلطتهم قد انكمشت — فإنه مع ذلك تنم تماثيل الدولة الوسطى عن تقاسيم أقوى تمتاز بأنها تعبر عن قوة بشرية وتنبعث منها إرادة قدَّت من حديد.

على أنه مما يسترعي النظر في هذا العصر شيوع استعمال التماثيل التي تفوق الحجم البشري الطبعي، وهذا الطراز من التماثيل لم يكن معروفًا من بداية الدولة القديمة؛ إذ لم نعثر منها في هذا العهد حتى الآن إلا على تمثال للفرعون «وسركاف». ولا نزاع في أن الفراعنة قد استعملوا هذا الطراز من التماثيل ليساعد على قوة التأثير، وكثيرًا ما تكون التماثيل التي من هذا النوع ضمن القطع الفنية، ولا يمكننا أن نجزم بأن تماثيل الملوك في الدولة القديمة كانت وقفًا على المعابد الجنازية حيث كانت محجوبة عن أعين الناس، وأنها نُحتت لتجعل روح الملك المُتوفَّى تبقى حية، ولكنا نعرف على وجه التحقيق أن التماثيل الضخمة كانت قبل كل شيء تقام كذلك في عهد الدولة الوسطى في المعابد وغيرها، ولا بد أن زائر هذه المعابد كان يرى قوة الفرعون وعظمته متقمصة في تماثيله هناك؛ إذ كان هو الذي وضع في يديه مصير البلاد، وهذا ينطبق على «سنوسرت الثالث» وتمثاله الذي نصبه عن الحدود الجنوبية لدولته عند «سمنة» ليكون رمزًا لقوته ومهدِّدًا للعدو حتى لا يجسر على تخطى الحدود أو انتهاك حرمتها. أما تمثيل الفرعون في صورة أسد فقد اتخذت شكلًا جديدًا، ويشاهد ذلك في تماثيل «بو الهول» الذائعة الصيت التي عُثر عليها في «تانيس»، وتمثل كل منها وجه الفرعون «أمنمحات الثالث». والواقع أن هذه التماثيل قد نُحتت لتصوِّر أمامنا بكل شدة بأس الحيوان الملكي المفترس وبطشه، فهذا الوجه المفترس الذي تحيط به معرفة هائلة وملامح غاية في الشجاعة وعضلات مفتولة لا يمثل لنا الفرعون بجسم أسد، بل يمثل الأسد بوجه إنسان، فالفرعون إذن عدو مخيف رهيب، يقبض على عدوه ويمزقه إربًا إربًا، (انظر شكل ٤د).

تماثيل الأفراد

أما تماثيل الأفراد فإن السائد في جودة فنها لا يتعدى الحد المتوسط في الإتقان، ويلاحظ في صناعة هذا النوع من التماثيل أنها متصلة بصناعة تماثيل الدولة القديمة، ومنتسبة إليها أيضًا، وهي تلك التماثيل التي كانت قد نُحتت بخاصة لتوضع مع المُتوفَّى في مقبرته. ومع ذلك فقد عثرنا على بعض التماثيل في عهد الأسرة الحادية عشرة تكاد تشبه في خشونتها فن تمثال «منتو حتب»، بل وغلظته أيضًا؛ غير أن هذا النوع من النحت قد انمحى فيما بعد تمامًا، وكذلك نجد بجانب كثير من التماثيل التي نُحتت في الحجر نحتًا مختصرًا لا تظهر فيه التفاصيل، تماثيل أخرى قد أُخرجت إخراجًا فنيًّا مختارًا، وتعد فريدة في نوعها تمامًا، غير أنها لا تُقاس في تعبيرها عن تقاسيم الوجه بتماثيل الملوك؛ لأنها بدل من أن تُنحت بالحجم الطبعي، وتجعل مرتبطة بالحياة الحقيقية، قد اجتهد المثَّال في أن يجعلها تتخطى الحقيقة، وتسير بعيدًا عن تقلبات حياتها الدنيوية، ونرى ذلك التناقض قد انتُهج حتى في تمثيل صور الملكات، فالنحات قد نحت للملكة جسمًا ممشوق القوام فتِي الطلعة وفي الوقت نفسه قد حلى رأسها بشعر الإلهة «حتحور» الغزير، على أن ملامح وجهها تنم عن شخصيتها المحضة، وإن كان لا يظهر بها التقاسيم الدقيقة الجميلة كإظهار عظام الوجه مما يبرز تفاصيله.

ومع ذلك فإن ما مثل أمامنا ملكات ولَسن نساء عابرات. وعلى النقيض من ذلك؛ قد ظهر بعض تماثيل ساحرة لكبار الموظفين في هذا العصر؛ إذ يندر في الفن المصري أن يرى الإنسان موظفًا مصريًّا عظيمًا يشعر بشخصيته ورفعة مركزه واحترام مكانته منحوتًا في الحجر مثل تمثال «خرتي حتب»[٢] الجالس، وهو المحفوظ الآن في متحف برلين، أو مثل تمثال «سبك امساف»[٣] الواقف، وهو من طرائف متحف فينا؛ على أن بحثنا وراء النماذج الروحية في التماثيل لا ينعكس في تقاسيم هذه التماثيل، بما توحي به من وجاهة واحترام، كما نشاهد في تماثيل عظماء الدولة القديمة، بل بما يرتسم على محياها من الوداعة ونبذ الكبرياء ظهريًّا، وليس من الصعب أن نحلل نفسيًّا الفرق بين فكرة نحت تماثيل الملوك، ونحت تماثيل عظماء الدولة الوسطى. ويتلخص ذلك في أن

[٢] Steindorff, “Kunst der Agypter”, P. 295.

[٣] Ibid.

الفرعون كان يعلم أنه لا يزال يحتفظ بالكثير من هيبته وجلالته الموروثة، على الرغم من أنه أخذ يظهر بمظهر البشر، في حين أن الموظف الكبير كان لا يزال في حاجة إلى الظهور بمظهر محاط بالاحترام والوقار؛ ولذلك كان لا بد من إبراز صورته بما يشعر بمركزه الاجتماعي بين مرءوسيه، وفي أعين عامة الشعب.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد أنه يوجد بين تماثيل الدولة الوسطى أحيانًا طراز ابتُدع في هذا العهد لأول مرة؛ وذلك مثل التماثيل الجالسة مرتدية ثوبًا فضفاضًا يلف كل الجسم، وبجانب هذه تشاهد كذلك تماثيل واقفة مرتدية قميصًا بارزًا، وأخرى جالسة على الأرض أو راكعة وأطرافها مغطاة بثوب طويل.

تماثيل العمال

أما التماثيل المصنوعة من الخشب، وهي التي كانت توضع في المقابر لتقوم مقام الخباز والطحان والعجان والجندي والراعي، فقد عثر منها على جيش بأكمله، ولكن لا بد من تمييزها عن التماثيل الفنية؛ لأن الأولى كانت على وجه عام تصنع بكميات وفيرة وتورد حسب ما يطلب منها.

النقوش الغائرة والبارزة

ومنذ إعادة توحيد البلاد نشاهد أن فن النقش سواء أكان غائرًا أم بارزًا قد وصل إلى القمة ثانية من حيث الإتقان، ويلاحظ هنا كذلك أن التقاليد القديمة قد لعبت دورها في إحيائها، فكان لا ينقصها إلا وجود فرصة مواتية لتستردَّ بهاءها وجمالها، وقد سنحت الفرصة فعلًا في نقوش الفرعون «منتو حتب الثاني» التي عثر عليها في «الجبلين»، فنرى أن الصانع المفتن الذي نقش رسوم الفرعون قد أحكم نقشها بما لا مزيد عليه في أسلوب قوي كان جديرًا بتخليد انتصارات هذا الفرعون على أعدائه من جهة، وانتصاره في عالم فن النقش في عصره من جهة أخرى، والواقع أنه انحدر إلينا من عهد «سنوسرت الأول» عمود حفظت عليه نقوش بارزة رُسمت أولًا حروفه بدقة، ثم نُقشت بمهارة وحُسن تنسيق يثيران الدهشة والإعجاب. هذا فضلًا عن المعبد الذي أقامه نفس الفرعون للإله «آمون» في صورة «مين»، وقد كشفت كل أحجاره حديثًا في معبد الكرنك أيضًا، ويكاد يكون منقطع القرين من حيث الإتقان والإبداع بالنسبة لعصره، وقد عثر على أحجار هذا المعبد ضمن الأحجار التي شيد بها «أمنحوتب الثالث» (بوابته الثالثة) كما ذكرنا آنفًا.

وكذلك عثر على نقش لهذا الفرعون أيضًا يمثل جزءًا من عيد «سد» وهو منظر يمثل احتفال «جري» الفرعون، ويلاحظ أنه نقش نقشًا بارزًا تمثلت فيه القوة والليونة في وقت واحد، وهذه النقوش تنبعث منها حيوية أكثر من التي نشاهدها على العمود السالف الذكر، وبخاصة من حيث تأثيرها في النفس؛ إذ تجذب النظر لها اجتذابًا، وعلى وجه عام فإن كل النقوش التي وصلتنا من هذا النوع في الدولة الوسطى سواء أكانت غائرة أم بارزة كانت قوية لحد يفوق المعتاد، فهي إذا كانت على النقيض التام لنقوش الدولة القديمة التي كان يظهر فيها الرخاوة والضعف. ومن جهة أخرى يلاحظ أن

الأشكال الجامدة الجافة التي كانت شائعة الاستعمال في العهد الإقطاعي، أخذت تسترد صورها المتناسبة الطبعية فجرى فيها الدم وانبعثت منها الحياة.

ونجد في مقابر أمراء الإقطاع مادة غزيرة منقوشة على الجدران، والواقع أن هذه النقوش لها علاقة وثيقة تربطها بنقوش مصاطب الدولة القديمة، وما جد فيها هو على ما يظهر استمرار في نمو هذه النقوش وارتقائها. وقد كان ملحوظًا منذ الأسرة الخامسة حتى بداية الأسرة السادسة، على أن هذا النمو لا ينطبق فقط على المختار من المناظر؛ بل كان يشاهد كذلك في الطراز الذي كان متبعًا وقتئذ؛ ولذلك نشعر أحيانًا بتقدم ملموس معبر عن حرية لم تكن مقيدة بقواعد الماضي، مثال ذلك ما ابتدعه المثال في مقبرة من مقابر «مير»[١] فنرى أنه بدلًا من فصل أجزاء المنظر الواحد في صيد الصحراء بخطوط أفقية مما كان يشوِّه وحدتها، استعاض بدلًا من هذه الخطوط التي كانت تقطع حبل الاتصال في المنظر بخط ملتوٍ من أعلى يدل على استمرار المنظر، وكذلك نجد نفس المتفنن قد ابتدع بدلًا من الصور الهزلية الجميلة التي كانت تبالغ في تصوير الحقيقة؛ صورة بدوي هزله الجوع حتى أصبح هيكلًا عظميًّا يسوق قطيع[٢] الماشية إلى قبر سيده. ثم رسم نقيض لهذه الصورة النحيلة صورة رجل مسنٍّ بدين بارز الكرش له رأس أصلع ولحية كثة مشعثة.

[١] Blackman “Meir”, Vol., Pls. II, III.

[٢] Ibid, II, Pl. III.

الرسم بالألوان

أما فن الرسم بالألوان فقد ظهر في عهد الدولة الوسطى بقوة تفوق التي كان عليها في عصر الدولة القديمة، وقد كان يُستعمل على وجه خاص في المقابر المنحوتة في الصخر، غير أنه لا توجد أسباب داخلية يمكن أن يعزى إليها كثرة انتشاره في هذه الفترة، والواقع أنه كان يستعمل من قديم الزمان عندما كان استعمال النقوش غير ممكن أو بادي الصعوبة، كما هي الحال في المباني المقامة من اللبن مثل البيوت والمقابر، هذا إلى أنه كان سهل المنال في الاستعمال عندما تكون عملية نحت الأحجار ونقشها تعترضها المصاعب، أو غير ممكنة، وهذا هو نفس ما نشاهده في مقبرة «كاي[1] أم عنخ» بالجيزة ويرجع عهدها للأسرة السادسة.

فنرى جميع المناظر اللهم إلا حجرة المزار العلوية التي نُقشت بصور منحوتة قد رسمت على طبقة من الملاط، وهذا هو نفس ما اتبع في تزيين جدران الحجر المنحوتة تحت الأرض في مقابر الدولة القديمة، وبخاصة في «سقارة» و«مير» و«الجيزة» أيضًا، غير أن مقابر الدولة الوسطى كانت في غالب الأحيان منحوتة في الصخور، وكانت أحجارها تتطلب كذلك من المثَّال جهدًا كبيرًا لإخراج نقوش جميلة.

ولذلك كانت طريقة وضع طبقة من الملاط ثم رسم المناظر عليها في الحقيقة أبسط وأقل تكاليف من النقوش المنحوتة، نعم كانت هذه الرسوم أقل تماسكًا، فضلًا عن أنه كان من نتائج استعمالها نبذ التظليل الجميل الذي كانت تمتاز به النقوش المصرية

---

[1] Junker Giza, IV, Die Mastaba des Kai-em-anch.

الغائرة والبارزة على السواء، وهي التي تحتل مركزًا وسطًا بين فن نحت التماثيل والرسم بالألوان.

وكانت من نتائج كثرة استعمال الرسم بالألوان أن أدَّى ذلك بطبيعة الحال إلى نهضته وازدهاره بدرجة عظيمة، وذلك أن التفاصيل في التلوين لم يكن يسبق لها مثيل، وحسبنا ما نشاهده في رسم الحيوانات، بل قد ظهر فيه كذلك تقدُّم بخطوات واسعة المدى في التخلص من القيود القديمة؛ ولذلك نرى في رسم حركات الحيوان حرية ملموسة، هذا إلى أن رسم الأشياء المنظورة كانت تمثل كما هي.

الصناعات اليدوية

أما الصناعات اليدوية فقد مرت بعصر ازدهار جديد، غير أنه لم تبقِ لنا يد التخريب من تراث هذه الصناعات العظيمة الإنتاج إلا الشيء القليل، وهو مع ذلك يدل على ما كانت عليه من الفخامة والرونق والبهاء. ولا أدل على ذلك مما تبقَّى لدينا من صناعة الخزف الملون الفاخر، مثال ذلك الدُّمى التي تمثل أفراس البحر، ويحتوي المتحف المصري على نماذج منها، وكذلك توجد منها قطع في متاحف «لندن» و«فينا»، وهي بسيطة في صناعتها، ولكنها في الوقت نفسه فريدة في حسن تصويرها، يضاف إلى ذلك قطع مختارة من الخزف الملوَّن وأوانٍ مختارة تدل على سلامة ذوق صانعها.

الصياغة في هذا العصر

أما ما وصل إليه الصائغ من الدقة الفنية وعلو الكعب في فنه فتدل عليه المجوهرات التي عُثر عليها في «دهشور» وقد فصلنا القول عنها فيما سبق.

والواقع أن كنز دهشور[١] قد أهدى إلى العالم مجوهرات لأميرات من الدولة الوسطى فريدة في حسن ذوقها، من بينها تاجان لا نظير لهما في حلاوة السبك ورقة الذوق.

وقد أصبح طرازهما كلاسيكيًّا، هذا إلى صدريات من ذهب مرصع بأحجار ثمينة، وأساور، وتعاويذ، وعقود صيغت من أثمن المواد، غير أن صياغة الصدريات قد أخذت تنحط بعض الشيء في أواخر الأسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في الصدرية المنسوبة للملك «أمنمحات الثالث».

وقد ساد في صياغة العقود استعمال أحجار «الجمشت» (الأمتست) والكرنالين؛ وكانت تصاغ في هيئة حبات مستديرة مع حبات الذهب.

---

[١] ويجد القارئ قائمة بمجموعة القطع التي كانت ضمن مجموعة «ماك جريجور» من هذه الكنوز، وقد اشتراها من اللصوص «أرل كرنارفون» وباعها ورثته بدورهم إلى متحف متروبوليتان بأمريكا (راجع: A. S., Vol. XXXIII, P. 135).

أول ظهور الجعارين

وقد ظهر كذلك لأول مرة في التاريخ المصري الجعارين كما ذكرنا آنفًا، وقد استعملت في صور تعاويذ ثم أصبحت يتخذ منها أختام، وكانت في بادئ الأمر تستعمل غالبًا للزينة.

وقد صنعت من الأحجار نصف الكريمة عارية عن أي نقش، ثم صُنعت بعد ذلك من الخزف المطلي وحُليت بأشكال حلزونية على باطنها الذي كان يُصنع مسطحًا لهذا الغرض. ويمكن الحكم على مقدار ذوق القوم السليم في اختيار المادة التي كانت تصنع منها هذه الجعارين، وفي الشكل واللون وعظم انتشارها بما نشاهده في القطع المنتخبة التي عثر عليها حتى في الجبانات الصغيرة جدًّا.



شكل ١: صدرية أمنمحات الثالث.

الأواني الحجرية

أما الأواني الحجرية فكان استعمالها في الدولة الوسطى يحتل مكانة عالية تلفت النظر، والواقع أن استعمالها وقتئذ كان إحياء للقديم.

حقًّا لم يلعب استعمالها الدور الذي كانت تلعبه في الأزمان الأولى، غير أن انتشار صنعها من الأحجار الصلبة كان لا يزال كما كان عليه من قبل؛ ولذلك تنم لنا الأدوات والزجاجات والأطباق التي عُثر عليها مصنوعة من الأحجار عن الذوق المصري الحقيقي، وكان أشراف القوم وعليتهم يستعملون هذه الأدوات في صورة مكبرة ومصنوعة في صور خالية عن كل الرسوم الرخيصة المبتذلة.

صناعة الخزف

أما الخزف فقد اندمجت صناعته في شخصية فن الدولة الوسطى، ولهذا هُجر استعمال الطراز الذي كان شائعًا في الدولة القديمة، وقد كان الاتجاه في هذا العصر يميل نحو الأشكال البسيطة الرشيقة، هذا إلى أن حب تنميقها وتزيينها قد انتشر ثانية بصورة واضحة (راجع: Junker, “Agypter”, PP. 97 ff).

الأدب في عهد الدولة الوسطى

لا نزاع في أن ما بقي لنا من تراث أدب الدولة الوسطى يعد بمثابة مرآة ينعكس عليها انعكاسًا صادقًا روح العصر الذي تمثله. وفي الحق أن المظهر الروحي لهذا العصر يبرز في الطليعة بوضوح بيِّن، وإن كان غالبًا لا يجد من التعابير الخلابة المتكلفة في نظرنا ما يعبر به، كما نجد في أدب العصر الذي سبقه، وهو عصر الكارثة التي حلت بالبلاد في باكورة العصر الإقطاعي، كما أوضحنا ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ومع ذلك فإن الحركة العنيفة التي قاستها مصر واكتوت بويلاتها كانت لا تزال تهز البلاد في أوائل العهد الذي نحن بصدده، ولا أدل على ذلك من تعاليم «أمنمحات» التي تعتبر أهم قطعة أدبية في هذا العصر فهي وصية جاءت على لسان «أمنمحات» لابنه ووريثه «سنوسرت الأول»، استعرض فيها الكاتب «خيتي» كل مأساة حياة «أمنمحات»، فهذا الملك العظيم المخلِّص لبلاده، وصاحب الانتصارات في عدة مواقع يقف وحيدًا وقت الشدة، ولا أحد يعترف له بجميل ممن كانوا حوله؛ إذ قامت ضده مؤامرة في عقر داره صمد أمامها ولاقى فيها حتفه، ولكنه نصح لابنه من وراء صحائف قبره أن يحتمل أعباء الملك مثله بقلب شجاع (راجع [أمنمحات الأول ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م] ... إلخ).

وفي هذا الوقت نفسه كتبت «نبوءات نفرروهو» وهي تمجد «أمنمحات» في صورة تنبؤات قيلت في الأزمان الغابرة (انظر [أمنمحات الأول ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م] ... إلخ)، وكذلك ألفت مخاطرات «سنوهيت» في باكورة عهد الأسرة الثانية عشرة وهي عبارة عن حوادث تاريخية حيكت في ثوب أدبي قصصي، ويجد القارئ في هذه القصة مع حوادثها الظاهرة أنها قد اندمج في نسجها الفني تنسيق روحي (راجع [أمنمحات الأول ٢٠٠٠–١٩٧٠ق.م، سنوسرت الأول حوالي (١٩٨٠–١٩٣٦ق.م)] ... إلخ).

وأخيرًا نجد في هذه المجموعة الأدبية «قصة الغريق» وهي لا تقل في الحوادث الخرافية التي تروى عن البحار السندباد المصري؛ بل إن مغزاها في تجارب الحياة هو أن يحافظ المرء على شجاعته وثقته بنفسه والهدوء ورباطة الجأش (راجع [أمنمحات الثاني ١٩٣٨–١٩٠٣ق.م] … إلخ)، يضاف إلى كل ما تقدم تعاليم «خيتي بن دوا وف» لابنه «بيبي» وقد فصلنا فيها القول فيما سبق.

هذا من جهة الأدب القصصي والتعليمي، أما في فنون الشعر فقد وصلتنا من هذا العهد بعض قصائد مديح وأخرى دينية محضة. وكذلك لدينا بعض الأغاني الدنيوية الطريفة، وأخيرًا وصلت إلينا مسرحية لتتويج الفرعون من عهد «سنوسرت الأول» (راجع كتاب الأدب المصري جزء ٢ ص١٩ … إلخ).

العدالة الاجتماعية وتعميم المسئولية الخلقية في عهد الدولة الوسطى

لم ينشأ هذا النظام الحكومي الدقيق، ولم تظهر تلك الصفات والأخلاق الكريمة التي كان يتخذها حكام الدولة الوسطى نبراسًا يسيرون على ضوئه من تلقاء نفسها، بل ترجع إلى عوامل إصلاح اجتماعية كانت قد بدأت ترسم خطتها منذ أن قلبت الأوضاع الاجتماعية على أثر سقوط الدولة القديمة، وانهيار الملكية الضعيفة البغيضة، وقيام حكم أمراء الإقطاع واستئثارهم بالسلطة. وقد قام بحملة الإصلاح هذه كُتاب اجتماعيون قد فصَّلنا الكلام فيما قام به كل منهم، فبعضهم كان متشائمًا، وآخر كان متفائلًا بعض الشيء، وقد رأينا بعض أولئك المتفائلين في المستقبل. وإن الملك العادل الذي يتوقع مجيئه قد يكون عاجزًا عن أداء رسالته دون أن يساعده طائفة من الموظفين العدول.

ولا بد أن القارئ قد أدرك في قصة الفلاح الفصيح أن الغرض منها هو المساعدة على إنشاء طائفة من الموظفين المتصفين بالكفاية والأمانة؛ حتى يقوم على أكتافهم بناء طبقات العهد الجديد الذي تسود فيه العدالة الاجتماعية. والآن لا يسعنا إلا أن نتساءل عما إذا كانت تلك المقالات الاجتماعية التي وضعها أعلام الفكر في هذا العصر قد أصبحت هي الحقيقة المعبرة عن القوى الاجتماعية التي كانت تجيش في صدور الشعب في ذلك العهد؟ والواقع أن هذه المقالات الاجتماعية كان لها أثر عظيم في نفوس الشعب المصري في ذلك العهد، وفي العهود التي تلت لدرجة أنها كانت تُتخذ بمثابة نموذج أدبي يحتذى حذوه في عهد الدولة الحديثة؛ إذ قد عثر على بعض شظيات في عهد الدولة الحديثة كُتب

عليها أجزاء من «قصة الفلاح الفصيح». غير أنه لدينا أسئلة أخرى، وهي هل الوثائق التي عثرنا عليها حتى الآن، وهي الخاصة بكشف النقاب عن حالة قدماء المصريين الاجتماعية والحكومية في العهد الإقطاعي، تدل على أن تلك الحملة الكتابية المقدسة التي قامت في سبيل إرجاع العدالة الاجتماعية قد أدت إلى النتيجة التي كان ينشدها الكُتاب؟ أو هل الآمال في ظهور المخلِّص وقيام المثل العليا للحياة الاجتماعية التي تكلم عنها المتنبئون الاجتماعيون أمثال «أبور» و«خع خبر رع سنب» في ذلك العصر صراحة قد بقيت مجرد أحلام؟ وهل استمرت تلك الصور الكئيبة المحزنة التي قرأناها في مقالات رجال الفكر المتشائمين أمثال «الرجل الذي سئم الحياة» و«خع خبر رع سنب» ونصائح «خيتي بن دواوف» التي قيلت على لسان «أمنمحات الأول»، تدل على الحقيقة الواقعة؟ وهل تلك النهضة التي قامت في العهد الإقطاعي مترسمة ما يمكن أن يكون الخلق الحقيقي للمجتمع البشري ورغبته في التخلص من تلك الأوهام المزعجة التي نتجت عن ذلك قد بقيت موجودة دون أن تصل لأية نتيجة إنسانية ذات ثمار؟

ولقد شاهدنا في شكوى «خع خبر رع سنب» (راجع الأدب المصري القديم ص٢٩٠) أن آمال الذين ينتظرون ظهور البطل الذي سيخلص البلاد من ويلاتها كانت مؤسسة على ظهور ملك عادل، في حين أنه كان من جهة أخرى يوجد مصلحون اجتماعيون لهم آراء عملية أكثر من غيرهم، وهؤلاء كانوا يبحثون في قلب نظام المجتمع، متوسلين في الوصول إلى ذلك بإيجاد جيل جديد من الموظفين العدول. ورغم ما كان عليه «أمنمحات» من تشاؤم، فقد ظهرت لنا أدلة قاطعة تبرهن على أنه هو نفسه قد قام بمجهودات ومشروعات دبرت بعناية لتضمن له عهد حكم عادل، وقد تكلمنا عنها فيما سبق. وقد كان الوزير الأعظم في تلك الفترة هو لسان حال الفرعون، ويعتبر أهم عضو في الحكومة بعده، كما ذكرنا آنفًا. وقد حفظت لنا نسخ من الخطاب الذي كان يوجهه الملك شفويًّا في ذلك العهد «لوزيره الأعظم»، غير أن النسخ التي في أيدينا يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة فقط؛ أي بعد العهد الإقطاعي ببضعة قرون. وقد كان الملك يُلقي ذلك الخطاب كلما سنحت له الفرصة، عند إسناد مسئولية الحكم للوزير الجديد، وهذا الخطاب العظيم يقدِّم لنا الدليل على أن أحلام المتنبئين أمثال «أبور» و«نفررروهو» اللذين كانا يتنبآن بظهور مخلِّص للبلاد من شقائها قد حققت أمانيهم فيما له علاقة بالأخلاق الملكية؛ إذ إن روح العدالة الاجتماعية الذي كانوا يشعرون به قد وصل إلى الفرعون

نفسه، ثم انتشر حتى في نفس كيان الحكومة كما يدل على ذلك نص[1] هذا الخطاب فاستمع إلى ما جاء فيه.

وكان أعضاء المجلس يجتمعون في قاعة استشارة الفرعون (له الحياة والفلاح والعافية)؛ وكان الملك يأمر بإحضار الوزير الذي نُصبَّ حديثًا ويقول له جلالته: «تبصر في وظيفة الوزير، وكن يقظًا للقيام بكل مهامها، انظر! إنها الركن الركين لكل البلاد، واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق بل إنها مُرة ... فالوزير هو النحاس الذي يسور حول ذهب بيت سيده، واعلم أن الوزارة لا تعني إظهار احترام الناس للأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن ينتخب الوزير لنفسه عبيدًا من الشعب ... واعلم أنه عندما يأتي إليك سائل متظلم من الوجه القبلي، أو من الوجه البحري، أو من أية بقعة من الدولة، فعليك أن تطمئنه إلى أن المعاملة التي عومل بها كانت وفق القانون، وأن كل شيء قد تم حسب العُرف، فتعطي كل ذي حق حقه. واعلم أن الأمير يحتل مكانة بارزة، وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله. واعلم أن كل ما يأتيه لا يبقى مجهولًا أبدًا ...»

وبعد ذلك يضع الفرعون لوزيره التفاصيل التي يجب أن يسير على نهجها في القضايا التي تقدَّم إليه، ثم يستشهد له في ذلك بقضية حكم فيها ظلمًا أو خطأً وزير يسمى «خيتي»، وهو وزير قديم ذائع الصيت من عهد الدولة القديمة؛ إذ يقول: «انظر إن ما ألقيته عليك مدَّون في تعيين الوزير في «منف»، عندما كان ينطق به الملك ليحث الوزير على الاعتدال ... احذر ما قيل عن الوزير «خيتي» فإنه حُكي عنه أنه جارٍ في حكمه على بعض عشيرته الأقربين ممالئًا أجنبيًّا خوفًا من أن يُتهم بمحاباة أقاربه خيانة منه، وأنه عندما استأنف أحدهم هذا الحكم الذي أصدره ضدَّهم أصر على حكمه المجحف، واعلم أن ذلك يعدُّ تخطيًا للعدالة، فلا تنسَ أن تحكم بالعدل؛ لأن التحيز يعد طغيانًا على الإله، وهذا هو التعليم (الذي أعلمك إياه)، فاعمل وفقًا له.

وعامل ما تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرَّب من الملك كالمُبعد عنه، واعلم أن الأمير الذي يعمل بذلك سيستمر هنا في هذا المكان (أي كرسي الوزارة ...) ولا تغضبن على رجل أخطأ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه، اجعل نفسك مهيب الجانب، ودع الناس يهابونك، والأمير لا يكون أميرًا إلا إذا هابه الناس ... واعلم أن الخوف من الأمير يأتي من إقامته للعدل.

[1] Breasted, “Dawn of Conscience”, P. 208–212, 216–217, 342–343.

واعلم أن الرجل إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما يجب دل ذلك على ناحية نقص فيه في نظر القوم؛ ولذلك لن يقال عنه إنه رجل بمعنى الكلمة، واعلم أن رهبة الأمير تبعث الخوف في نفس الكاذب، عندما يعامله الأمير حسب خوفه منه، واعلم أنك ستصل إلى ذلك إذا جعلت العدل رائدك في عملك، تأمل! دع الرجل الذي يؤدي وظيفته يعمل حسبما يؤمر به، واعلم أن نجاح الرجل هو أن يعمل حسبما يقال له، ولا تتوانَ قط في إقامة العدل والقانون الذي تعرفه.

واعلم أنه جدير بالملك أن لا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف، انظر في القانون الملقى على عاتقك (تنفيذه). ويلحظ في هذه الوثيقة الحكومية أن أهم تشديد فيها منصَب على العدالة الاجتماعية، فلم يكن الغرض من الوزارة إظهار ما للأمراء والمستشارين من فضل على غيرهم أو استعبادهم أي فرد من أفراد الشعب، بل إن كل عدالة تجري بتطبيق القانون في كل قضية، ويجب على الوزير ألا ينسى أن وظيفته بارزة جدًّا؛ ولذلك كانت كل تصرفاته معروفة شائعة بين الناس حتى إن المياه والرياح كانت تذيع أخباره بين الأنام، على أن العدالة لا تعني أن يقع أي ظلم على من كانوا من أصحاب المكانة السامية كما حدث في القضية المشهورة التي حكم فيها «خيتي» ضد أقاربه، مع أن الحق كان في جانبهم، وهذا لا يتفق مع العدالة المنشودة، هذا وتعني العدالة من جهة أخرى الحياد المطلق والمساواة بين الناس دون تمييز فرد على فرد، فيكون سواء لديك من تعرفه ومن لا تعرفه، ومن قرب من الملك ومن لا علاقة له بأحد من بيت الملك.

وإدارة الأمور على هذا النحو تضمن للوزير الاستمرار الطويل في وظيفته، ومن الواجب المحتم على الوزير أن يُظهر منتهى الحزم عند الغضب؛ إذ من واجبه أن يكبح غرب جماح غضبه ليكسب بذلك احترام الشعب له، ورهبتهم منه، ويجب أن يكون عماد هذه الرهبة الوحيد إقامة العدل من غير تمييز؛ لأن الرهبة الحقيقية من الأمير هي إقامة العدل؛ ومن ثم لا يكون في حاجة إلى بعض خوفه في نفوس الناس بالشدة والغطرسة؛ إذ إن ذلك يولد تأثيرًا كاذبًا عنه بينهم، فإقامة العدل كافية وحدها لأن تكون لهم رادعًا، والناس يتطلعون إلى العدالة في ديوان الوزير؛ لأن العدالة كانت قانونه المعتاد منذ أن قام بالحكم إله الشمس فوق الأرض. ولقد كان قدماء المصريين في العهد الإقطاعي ينظرون إلى ذلك بثاقب النظر إلى الوراء خلال ألف السنة التي مكثتها اتحاد مصر الثاني إلى عهد الاتحاد الأول الذي كان قائمًا في «عين شمس»، ومنذ ذلك العهد كان الوزير هو الشخص الذي يُذكر في أمثالهم بأنه سيقيم العدل بين الناس كلهم، فنجاح الرجل كان يتوقف على

مقدرته في تنفيذ تلك التعليمات واتباعها «وعلى ذلك لا تتوانَ في تصريف الأمور بالعدل»، ولا تنسَ أن الملك يحب الضعيف ومن لا ناصر له أكثر من المستكبر.

أما فيما يختص بالأراضي التي يحتمل أنها تكون ثروة الملك، وكذلك فيما يختص بالموظفين المكلفين برعايتها فإن الملك قد ختم ذلك القانون الذي يسمى بحق دستور إعلان الحقوق للفقراء بالكلمات التالية: «راع القانون الذي أُلقي على عاتقك.»

ويجوز أن رؤية الملك المثالي الذي ذكره «أبور» أمام البلاط، أو الرؤية المظلمة لصورة الفساد التي صوَّرها «الرجل التعس»، أو رؤية ذلك المنظر الرائع الذي دل على الاضطهاد الرسمي، وهو الذي كشفته قصة الفلاح الفصيح، هي التي أحاطت العرش الملكي بنور فياض من العدالة الاجتماعية، حتى إن تنصيب رئيس الوزراء رئيسًا لقضاة البلاد جميعًا، قد جعل الملك يلقي خطبة العرش هذه فتكون بمثابة تصريح رسمي من رئيس البلاد الأعلى إلى موظف منفذ للعدل، ويشمل كل المبادئ الأساسية التي تقوم عليها العدالة الاجتماعية.

ويمكننا إذن أن نقول بحق، بناء على ما ذكرنا، إن تلك الوثيقة الرسمية المملوءة بروح العدالة الاجتماعية إلى حد بعيد كانت النتيجة المباشرة لتلك المقالات الاجتماعية التي دوَّناها في هذا الكتاب وفي الجزء الثاني من هذه المجموعة.

وتوجد أدلة كثيرة على صحة هذا الاستنتاج؛ إذ إن نفس الاحترام الذي أظهره الفرعون في هذه التعليمات بتفضيله الضعيف على المستكبر أو العنيف القلب؛ يوجد مثله في تحذيرات «أبور»، وعلى وجه عام فإن قانون تنصيب الوزير يتفق تمام الاتفاق مع تعاليم تلك المقالات المصرية الاجتماعية السالفة الذكر.

وسواء أكان المقصود من سياسة الملك الاجتماعية المذكورة في مقاله ذلك هو إجابته الخاصة عن تلك المقالات أم أوحى به إليه؛ فليس لذلك أهمية ذات شأن، إذ كان من الظاهر جدًّا أن موضوع «الوعي» في ذلك العصر الإقطاعي قد صار يعد شيئًا أكثر من مجرد تأثير خاص بسلوك الفرد. فقد صار الضمير في الواقع قوة اجتماعية ذات تأثير عظيم على الحياة الاجتماعية لأول مرة في التاريخ البشري.

ومن الواضح أن الفرعون قد صار منقادًا لنفوذ رجال الفكر الأدبي في ذلك، وبهذا صارت سياسة العدالة الاجتماعية تكوِّن جزءًا من هيكل النظام الحكومي، وقد انتهى عهد تلك الأيام الخالية التي كان يعتبر فيها سلوك الإنسان الخلقي مرضيًا برضاء الأب، والأخوة، والأخوات فقط، وجاء العهد الذي يصح أن نسميه عصر الوعي الاجتماعي، وهو

الذي بحلوله بزغ عصر الأخلاق والمسئولية الخلقية العامة. وقد رأى أنصار ظهور البطل المخلِّص الاجتماعي أن حلمهم قد تحقق بظهور الملك العادل؛ عندما اعتلى «أمنمحات الأول» عرش الملك، ولكننا من جهة أخرى نتساءل عما صار إليه المصلحون الذين كانوا أقل سموًّا في مطامحهم، وأعني بهم الذين كان أساس آمالهم إنشاء جيل جديد من الموظفين العدول، كما جاء في قصة الفلاح الفصيح.

وحقيقة الأمر أنه لا يمكننا أن نفصل المنهاجين أحدهما عن الآخر؛ لأن حكم الملك العادل لا يكون له تأثير بمفرده قط، إذا لم يعتمد على طائفة من الموظفين العدول ليقوموا بتنفيذ السياسة الملكية العادلة، وقد كان الملك «أمنمحات» يؤمن بتلك الحقيقة ويرقبها، ولكن لما كان هذا الفرعون غير واثق بالناس، فإن آماله فيهم كانت ضعيفة؛ مما جعله يرى أن استقامته بمفرده لا تأتي بالنفع المنشود. على أن مؤلف قصة الفلاح الفصيح، الذي نجهل اسمه للآن، كان يتطلع إلى ظهور نتائج ما كتبه، وأن لدينا بعض الأدلة التي تثبت أنه لم يخفق فيما كانت تصبو إليه نفسه، بل تحققت أمانيه. وقد أبقت لدينا يد الدهر عددًا قليلًا من الوثائق التي كشفت لنا عن كيفية سير نظام الحكومة المصرية في ذلك العهد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن النقوش الجنازية التي دوِّنت على مقابر حكام المقاطعات والموظفين في ذلك العهد الإقطاعي قد كشفت لنا عن العقائد الاجتماعية لذلك العصر، ولا أدل على ذلك من النقوش التي وجدت على جدران مقبرة «أميني»، فهي في الواقع تعد أثرًا جليل القدر في التاريخ الاجتماعي لذلك العهد؛ إذ يسهل لنا على الأقل أن ندرك بعض التأثير على جيل الموظفين الجديد، وكذلك النقش الذي تركه لنا مدير مكتب الوزير في عهد «سنوسرت الأول»، فقد ذكرناه فيما سلف. ويخيل لنا عندما نقرأ هذين النصين أننا نسمع في هذين السجلين صدى الأوامر التي صدرت للوزير عند تنصيبه، وبخاصة في العبارة التي يقول فيها «أميني» «التي لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير في شيء أعطيته إياه.» وإنه لمن السهل علينا أن نعتقد أن أميرًا كذلك الأمير كان حاضر بالبلاط الملكي وسمع الفرعون وهو يلقي تلك الأوامر على رئيس وزرائه عند تنصيبه، وإذا كانت إدارة «أميني» لمقاطعته قد وصلت إلى أي حد مما يدعيه فيما كتبه، فإنه يجب علينا أن نستخلص هنا من ذلك أن تلك الأوامر الاجتماعية التي فاه بها الحكماء الاجتماعيون أمام البلاط الملكي كانت معروفة بدرجة عظيمة ومنتشرة في طول البلاد وعرضها. وإذا وصل بنا الاستنتاج إلى المثل الأعلى للرقي الخلقي الذي ذكرناه هنا، فإنه لا يغرب عن الذهن أنه أراد أن يحدث مثل هذا التأثير كما

نقرؤه في تاريخ حياته، وهذه الحالة تنطبق كذلك على سجلات حكام المقاطعات الأخرى في نفس ذلك العصر، وهذه السجلات نقشت على صخور محاجر المرمر في «حتنوب»، وتحتوي على عدة تأكيدات من صنف الوثيقتين السابقتين؛ إذ تقص علينا أن الأمير كان رجلًا خلص الأرملة وواسى المتألم، ودفن المسنَّ، وأطعم الطفل، وحمل عبء مدينته كلها في زمن الجدب، وهو الذي أطعمها في وقت القحط؛ وهو الذي زوَّدها بسخاء حتى إن عظماءها صاروا مثل أصاغرها.

وكذلك افتخر في عهد «سنوسرت الأول» شريفان في ترجمة حياتهما بأنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتيهما بالعدالة وبدون محاباة، وأنهما كانا لا يفكران في مكافأة (رشوة) يأخذانها، وقد قصَّا علينا افتخارهما كذلك بنفس لغة النصائح الموجهة إلى «مريكا رع»، فهما بذلك يظهران أن المثل العليا الاجتماعية التي فاه بها ذلك الملك الحكيم في العهد الإهناسي كانت لا تزال ذات نفوذ بعد قرون مضت على التفوه بها في ذلك العصر الإقطاعي. فمن البدهي إذن أن المثل العليا للعدالة الاجتماعية التي كانت تحتل مكانة بارزة جدًّا في أدب ذلك العصر لم يقتصر تأثيرها على الملك وحده، بل كان كذلك لها أثرها العميق بين طبقة الحكام في كل مكان.

وحينئذ يمكننا أن ندرك منها حدوث انقلاب عظيم، فالتشاؤم الذي كان ينظر بمنظاره رجال العصر الإقطاعي الأول للحياة الآخرة، ويتأملون به مصير الجبانات المخرَّبة التي يرجع تاريخها إلى عصر الأهرام، أو اليأس الذي كان يغمر بعضهم في الحياة الدنيا، كل ذلك قد قوبل بتيار مضاد بكتابات تنشد الحق والعدالة الاجتماعية، وهذه الكتابات قد أُخرجت للناس في صورة نصائح وقصص ملؤها الأمل على لسان أولئك المفكرين الاجتماعيين، وهم رجال رأوا الأمل في القيام بالمجهودات الإيجابية التي توصل إلى الغرض المنشود.

وعلى ذلك يجب علينا أن نعتبر تحذيرات «أبور» وتنبؤات «نفرروهو» وقصة الفلاح الفصيح من الأمثلة التي تستدعي الاهتمام بالقيام بمثل تلك المجهودات، كما يجب أن نتعرف في كتاباتهم أنها تعبر عن الأسلحة التي استعملها أقدم طائفة قامت بحروب مقدسة في سبيل توطيد الأخلاق والمجتمع البشري.

والواقع أن منتهى ما كان يرغب في الوصول إليه رجل مثل «أبور» هو خطاب العرش الذي كان ألقاه الملك عند تنصيب رئيس الوزارة.

والحقيقة أن الملك الذي كان في إمكانه أن يلقي خطابًا مثل هذا ليقرب في سموه من ذلك الملك الأمثل الذي كان يحلم «أبور» بظهوره، ومثل الملك الذي اعتقد «نفرروهو»

أنه قد عثر عليه، على أن لدينا ما يحملنا من جهة أخرى على الاعتقاد بأن «أميني» أمير مقاطعة الغزال لا يبعد أن يمثل بحق جيل الموظفين الجدد العدول، وهم الذين كان يؤمل مؤلف قصة «الفلاح الفصيح» أن يراهم قائمين بأعباء الحكومة في مصر.

ويلاحظ أن استحسان الأسرة لسلوك الفرد لم يعد كافيًا في ذاته، فقد نما عصر تفكير في المثل العليا للسلوك الشخصي، تشمل طبقات بأسرها من المجتمع، وهو السلوك الذي يكون عرضة لحكم المجتمع عليه. وهذا الحلم الاجتماعي قد وضع الآن في فم إله الشمس، فقد قال ذلك الفلاح الفصيح لمدير البيت العظيم: «أقم العدل لرب العدل.» وكذلك كان يشير في كلامه إلى هذه الكلمة الطيبة التي خرجت من فم «رع» نفسه «تكلم الصدق وافعل الصدق»، وفيها يذكر أن «الصدق» معناه كذلك الحق والعدالة «ماعت»، وقد رأينا في أوامر الملك للوزير أن ذلك المنهاج الخاص بالشفقة الاجتماعية والعدالة، وهو الذي يفضل فيه الملك الرجل الضعيف، ومن لا ناصر له على الرجل القوي المستكبر قد يرمي بوضوح إلى غرض ديني ينسب إلى الإله، فيقول الملك في ذلك: «إنها لعنة من الله أن يُظهر الإنسان تمييزًا أو محاباة.» ولذلك ترى أن إدراك العدالة الاجتماعية عندما وجدت منفذًا عمليًّا لظهورها أولًا في الملكية المثلى، ثم بعد ذلك في أخلاق الفرد المكلف بإقامتها انعكست صورتها على أخلاق إله الشمس ونشاطه، وهو الملك الأمثل؛ وبذلك صار وجوب المحافظة على العدالة الاجتماعية التي أخذ الناس يشعرون بها في قرارة أنفسهم أمرًا إلهيًّا، واعتقدوا في الحال أن مقت أنفسهم للظلم هو مقت الإله للظلم؛ وبذلك صارت مثلهم العليا في الأخلاق هي كذلك مثل الإله، فاكتسب بهذا المظهر الجديد قوة مسيطرة جديدة. وحينئذ كان من السهل علينا أن نعتقد زيادة على ما ذكرنا أن العدالة هي القانون التقليدي لوظيفة الوزير منذ الزمن الذي كان يحكم فيه إله الشمس مصر، وكذلك كان حكم الفرعون الذي صار وراثيًّا مدة ألفي سنة منذ تأسيس اتحاد مصر الأول، وكان المفروض فيه أنه استمرار لسريان دم «رع» وسلالته، فكان كذلك مستمرًا في إقامة نظام العدل القديم الذي أقامه إله الشمس على الأرض، وقد ألقى الملك أمره بكل وضوح على الوزير، غير أنه لم يتردد في الوقت نفسه في الالتجاء إلى المحكمة العليا، فكان على الوزير أن يقيم العدل؛ لأن الإله الأعظم الذي يشرف على الحكومة يمقت الظلم، وليس ذلك اتباعًا لأمر الملك وحسب.

ويرجع تأثير مثل تلك المثل العالية للعدالة الاجتماعية التي وجدت سبيلها إلى الحكومة بدرجة عظيمة إلى الحالة التي انتشرت بين كل طبقات الشعب، والواقع أن مثل

هذه العقائد، لو كانت أُعلنت بين أفراد الشعب المصري في شكل مبادئ معنوية، لما لفتت إليها الأفكار، ولما أحدثت إلا أثرًا ضئيلًا، بل قد لا يكون لها أثر بالمرة. يضاف إلى ذلك أن المصري كان يفكر دائمًا في الصور المحسة، فهو مثلًا لا يفكر في معنى الحب، بل في المحب، ولا يفكر في الفقر، بل في الرجل الفقير، وهلم جرًّا؛ ولذلك لم يبصر الفساد الاجتماعي، بل شاهد المجتمع الفاسد؛ ولهذا كان الوزير «بتاح حتب» رجلًا قائمًا بأعباء الوظيفة بإيمان سليم في قيمة السلوك الحق والإدارة الحقة ليخلق بذلك السعادة، وسلم إرث تلك التجربة إلى ابنه (راجع الجزء الثاني)؛ ولذلك فإن «الرجل التعس» كان قد حلَّ به الظلم الاجتماعي، فعبر عنه في صورة الروح البائس الذي يعبر عن يأسه وأسبابه (انظر الجزء الثاني). ولذلك كان «أبور» أيضًا رجلًا تسكن في نفسه الرؤية التي أدركت كلًّا من الفساد الفتاك بالمجتمع، والحلم الذهبي بظهور الملك الأمثل الذي يصلح كل شيء، وكذلك كان الفلاح الفصيح أيضًا رجلًا يتألم من اضطهاد الموظفين له، ويصرخ بأعلى صوته مستغيثًا من ذلك الظلم؛ ولذلك كانت الأوامر التي جاءت على لسان الملك «أمنمحات الأول» أيضًا تظهر في أنه يتألم من الخيانة المخزية التي حدثت له وجعلته يحذِّر ابنه أن يضع كل ثقة بالناس، وذلك بإلقاء تجاريبه تلك بين يدي ابنه «سنوسرت الأول».

ولذلك كان من اللازم أن تكون هذه العقائد أو التعاليم التي تعزى إلى أولئك المفكرين الاجتماعيين في شكل تمثيلي، أو كان يعبر عنها في صورة محاورات نشأت عن تجارب وحوادث مثِّلت كأنها حقائق واقعية.

ولا نزاع في أن تلك الأبحاث الأخلاقية والفلسفية التي تلقى في صورة محاورات بعد التمهيد لها بمقدمة تجعل كل البحث في هيئة قصة، كان لها أثرها في ظهور الشكل الحواري في «آسيا وأوروبا».

وقد لاحظنا من قبل أن المثل العليا الاجتماعية قد نالت في العهد الإقطاعي سلطة مقدسة، كما أنها عزيت إلى أصل إلهي.

وإنه لمن المهم أن نفحص هنا الدليل على قيام الحقيقة، ونثبت بصفة قاطعة شخصية هذا الإله الذي كان يلتجئ إلى سلطانه رجال المثل العليا الاجتماعيون، وهذا المثل الأعلى في الاجتماع، وهو أقدم شيء من نوعه، كان بلا جدال مرتبطًا بحكم إله الشمس على الأرض، وهو الذي نعرف أنه كان في بادئ الأمر إلهًا للشئون البشرية أيضًا في عالم الأحياء، في حين أن «أوزير» كان إلهًا للموتى، ولا نزاع في أن «رع» إله الشمس

كان هو الملك الأمثل، وهو الذي كان يجدد بها حكمه الخلقي في الفرعون الذي كان خليفته على الأرض؛ ولذا كان يسمى دائمًا ابن الشمس.

ولقد التجأ الملك في أوامره إلى رئيس وزرائه بأن يجعل ما يضعه من قواعد الحكم منطبقًا على حكم إله الشمس، وجريًا على تقاليده المتبعة وهو الإله «رع» الذي كان صاحب السيادة على أفكار أولئك الفلاسفة الاجتماعيين في العهد الإقطاعي؛ لأننا نجد مثلًا في أغنية الأعمى الضارب على العود (انظر جزء ٢) أنه حتى مومية المُتوفَّى قد وضعت أمام إله الشمس، وكذلك كان يتطلع إليه «الرجل التعس» ليبرئه في الآخرة، وقد كان «خع خبر رع سنب» كاهنًا لإله الشمس بمدينة «هليوبوليس»، وكانت رؤية «أبور» للملك الأمثل الذي سيأتي في المستقبل ليخلص البلاد قد برزت إليه من ذكريات النعيم المقيم لحكم «رع» عندما كان يقطن على الأرض بين الناس، في حين أن ملخص كل شكاوى الفلاح الفصيح كانت تنحصر في هذه الكلمة الطيبة التي خرجت من فم «رع» نفسه وهي: «تكلم الصدق، وافعل الصدق (الحق)؛ لأنه عظيم وإنه قوي ودائم.»

فالواجبات الخلقية التي تظهر في اللاهوت الشمسي ليست إذن إلا صورة لأقدم نظام اجتماعي جديد، وجد لم يُعرف له نظير في تاريخ العالم.

وقد كان من أهم نتائج الملكية المثلى لحكم إله الشمس، الأمل في تكرار هذا الحكم الذي كان مفعمًا بالخير، وقد كان هذا الأمل هو الذي جلب معه انتظار مملكة تخلص مصر من ويلاتها، ستأتي فيما بعد.

ومن الواضح هنا أن علاقة «أوزير» بالمثل العالية للحق والعدالة في ذلك الوقت كان أمرًا ثانويًّا؛ لأن «أوزير» كان قد حوكم ثم اتضحت براءته في قاعة «هليوبوليس» العظمى؛ أي إنه حوكم أمام محكمة الشمس التي كان معترفًا بها أنها المحكمة التي لا بد أن يفوز الإنسان أمامها ببراءته، وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه أسطورة «أوزير» لا تزال في دور التكوين والتأليف.

أما رفع «أوزير» إلى منصب قاضٍ فيما بعد، فليس إلا صبغًا لوظائفه بالصبغة الشمسية على أساس المحاكمة الشمسية التي كانت سائدة في متون الأهرام؛ إذ نجد في تلك المتون أن «أوزير» قد صعد بالفعل فوق عرش «رع» السماوي، ثم نراه الآن يستوي على كرسي القضاء الخاص بالإله «رع»، وبهذه الكيفية صار إله الشمس المتصرف الخلقي العظيم الذي يحاكَم أمامه جميع البشر بمقتضى العدالة، حتى إنه لم يستثنِ من هؤلاء البشر أحدًا، حتى «أوزير» هذا. ولا ضرورة للقول هنا بوجود بعض المبادئ الخلقية في

العقيدة الأوزيرية المبكرة، وهي التي نجد بعض الأدلة على صحتها في المذاهب المحلية، لعدة آلهة مصرية من عصر الأهرام، ولكن يجب علينا هنا ألا ننسى أن متون الأهرام قد حفظت لنا بعض المتون التي اعتبر فيها «أوزير» بعيدًا جدًّا عن أن يكون ملكًا أمثل، أو صديقًا للإنسان؛ لأنها تميط اللثام عن عداوته للموتى وخصومته لجميع الناس (راجع: Sethe, “Pyramiden Textés” 1. 145 b,146a)، ولم يظهر «أوزير» حاميًا للعدالة بشكل صريح إلا في العهد الإقطاعي. وسنرى الآن أن «أوزير» و«رع» قد وُضعا جنبًا لجنب في التفكير الخلقي لذلك العصر، والواقع أنه كان لا بد في ذلك الوقت لكل عظيم وكل قوي أن ينتظر المحاكمة أمام محكمة العدل، على أن يكون كل من الفقير، ومن لا ناصر له على قدم المساواة معهما في المعاملة وفي الأحكام، وتلك المعاملة لم تُذكر فقط في الاعتقادات الدينية أو المبادئ الاجتماعية، بل ذكرت كذلك رسميًّا في السياسية الملكية. ولا يكاد يكون هناك أي شك في أن مثل تلك العقائد الخاصة بالعدالة الاجتماعية كما وجدناها في هذا العصر قد ساعدت مساعدة عظيمة على نمو الاقتناع بأن الإنسان الذي يصير مقبولًا أما محكمة عدالة الإله العظيم هو الرجل الذي لا يكون صاحب سلطان وثروة، وإنما يكون رجل الحق والعدالة، والكهنة الذين كانوا مشتغلين باللاهوت في ذلك العصر قد تأثروا تأثرًا عظيمًا بذلك الميل الذي يرمي إلى نشر الديمقراطية (أي تعميم المساواة بين الناس). ويكشف لنا عن مقدار ذلك التأثير خطاب أساسي هام لإله الشمس عثر عليه في متون التوابيت الخشبية التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الإقطاعي فاستمع لما يقول:

> لقد خلقت الرياح الأربعة ليتنفس منها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته، ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد، ولقد خلقت كل رجل مثل أخيه، وحرمت عليهما إتيان السوء، ولكن قلوبهم هي التي نكثت بما قلته، ولقد جعلت قلوبهم لا تغفل عن الغرب (الموت) ليقربوا قربانًا للآلهة المحلية.

وإنه لأمر هام جدًّا أن نجد في هذا المتن المساواة التامة بين بني الإنسان في قوله:

> لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه.

وكذلك أظهر لنا حقيقته الخلقية في قوله:

ولقد حرَّمت عليهم السوء ولكن قلوبهم هي التي نكثت بما قلته.

مع أن ظهور مثل هذه النظرة إلى الإنسانية، وهي نظرة قضت على كل الفوارق الاجتماعية، في نظر الخالق العظيم عند خلقه للناس، وجعلهم متساوين أمام المسئولية الخلقية يعد أمرًا غريبًا، ويزيد في غرابته ظهوره قبل المسيح عليه السلام بألفي سنة،[٢] فإننا نلاحظ أن ظهور ذلك الرأي كان معاصرًا على وجه التقريب لعهد الملك «حمورابي» الذي سنَّ قانونًا للعقوبات ليعامل به أهل عصره، وقد جاء فيه: «إن كل الجرائم والأحكام القضائية تُرتب حسب المركز الاجتماعي للمجرمين، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية.» وهذه الحقيقة تفسر لنا على الفور السبب الذي من أجله اعتبر ما أضافته المدنية «البابلية» إلى إرثنا الخلقي في غربي آسيا في حكم العدم.

ومن ثم نجد أن الحقوق الخاصة التي كان يدعيها العظماء والأقوياء لأنفسهم من الإجلال والسعادة في عالم الآخرة، أخذت تختفي وتزول في هذا الوقت.

ومن هنا أيضًا بدأت المساواة تنتقل إلى التمتع بنعيم الآخرة لجميع البشر على السواء، ومعنى هذا أن عالم الحياة الآخرة قد صار كذلك ديمقراطيًّا لكل البشر، وذلك تبعًا للآراء الخاصة بالعدالة الاجتماعية التي ظهرت في العهد الإقطاعي.

[٢] ولقد ورد في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

الحياة الدينية في عهد الدولة الوسطى

لقد كان من نتائج تدهور السلطة في البلاد بعد سقوط الدولة القديمة أن أصبحت الحالة الاجتماعية في تأخر ملموس في كل نواحيها، فقد كان المعمار وزخرفة المقابر يظهر فيها الانحطاط من جيل إلى جيل، وقد كان القوم يحاولون أن يقلدوا المناظر القديمة، غير أن قلة المال والاستعداد العقلي قد قاما حائلًا دون بلوغ ذلك؛ ولذلك نشاهد مما بقي لنا أن عتاد المقابر أخذ يتضاءل أكثر فأكثر حتى أصبح شيئًا حقيرًا تافهًا؛ لأن أهل هذا العصر لم يكن لديهم الموارد التي كانت في يد رجال الدولة القديمة. وكذلك نشاهد في هذا العصر أن رجال الفن قد اختفوا، ولم يبقَ إلا أصحاب الحرف والصناعات، ومع ذلك فإن عصر الانحطاط هذا كان له أهمية عظمى في تاريخ مصر؛ لأنه كان من نتائج محو سلطة الأشراف أن قام في البلاد طائفة الطبقة الوسطى لتناهضها، فاكتسبت من الحقوق ما كان له شأن عظيم في توطيد العدالة الاجتماعية، وإذا كنا نلاحظ أن مقابر هذه الطبقة كانت أبسط بكثير من مقابر هؤلاء الأشراف، فإننا من جهة أخرى نلاحظ أن المبادئ الأصلية في عبادة الأموات ومعتقداتهم، وهي التي كانت وقفًا على علية القوم، قد أصبحت ملكًا مشاعًا لكل الشعب المصري؛ ويرجع السبب في ذلك أيضًا إلى ما قام به رجال الفكر في هذا العصر من حملة شنعاء على النظم القديمة العتيقة، والمطالبة

بحقوق الإنسان في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة، ناشدين الوصول إلى مساواة الناس جميعًا في الدنيا والآخرة. وقد تكلمنا في الفصل السابق عن العدالة الاجتماعية في هذه الدنيا، وسنتناول الآن الكلام عن العدالة في حقوق الإنسان في الآخرة، ومعتقدات القوم عامة في هذه الفترة.

لقد كان من نتائج التخريب والتدمير والفوضى التي حدثت في البلاد في العهد الإقطاعي الأول أن تحوَّلت النفوس إلى سوء الظن والتشكك في فائدة الاستعداد للحياة الآخرة الذي كان مظهره بناء قبر ضخم مجهز بالأثاث الجنازي، وبخاصة أن كُتاب هذا العصر أخذوا ينادون بعدم فائدة العتاد المادي للمتوفى، غير أن المعتنقين لهذا المذهب كانوا فئة ضئيلة جدًّا، وذلك بالرغم من مبالغة الكُتاب في هذا الاتجاه، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، والواقع أن مثل تلك الاتجاهات كانت من جهة من مستلزمات عقيدة التشاؤم واليأس المطلقين، كما كانت من جهة أخرى من مستلزمات الاعتقاد بضرورة التحلي بالقيم الخلقية للحياة الآخرة بدلًا من الالتجاء إلى الوسائل المادية التي كانت تنحصر في بناء المقابر الضخمة وتزويدها بالأوقاف والكهنة. وهذا الاعتقاد الخلقي أخذ ينمو ويزداد نفوذه، غير أن هذه الآراء التي كانت تعتبر ثورية ورجعية على العادات القديمة لم ينحدر في تيارها الجم الغفير من الشعب المصري القديم؛ ولذلك لما صارت سعادة الآخرة حقًّا مشاعًا لجميع المتوفين، كما سنرى، فإن عامة الشعب الذين كانوا متمسكين بامتيازاتهم هذه الجديدة التي تجعل لهم حق التمتع بذلك المصير السماوي الفخم، والذي كان منذ زمن بعيد حقًّا موقوفًا على الفرعون فقط، قد اتخذوا تلك الشعائر الجنازية، واستمروا قائمين بالمحافظة على مزاولتها، وقد استمرت العناية بإقامة تلك الشعائر تزداد وتنتشر دون أي التفات إلى ذلك الصمت البيِّن والخراب البادي الذين كانا يخيمان فوق هضبة الأهرام، وفوق جبانات الأجداد القدامى؛ ولذلك نجد أنه بالرغم من أن والد «مريكا رع» كان يشعر وهو يلقي تعاليمه لابنه شعورًا عظيمًا بتلك الأهمية الخطيرة التي تنتج من التحلي بالأخلاق القيمة، فإنه مع ذلك لم يرَ بدًّا من الإفصاح لابنه بضرورة العناية بإقامة القبور؛ إذ يقول له: «زين مثواك (أي قبرك) الذي في الغرب، وجمِّل مقعدك في الجبانة»، ثم اضطَّر أن يضيف إلى ذلك قوله: «كإنسان أقام العدالة؛ لأن ذلك هو ما يرتكن عليه القلب.»

ويتضح من ذلك القول أن هذا الملك لم يكن يعتبر القبر الوطيد البنيان وحده كافيًا لضمان السعادة في الحياة الآخرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن «أبور» قال في تحذيراته للملك فضلًا عن ذلك: «فإنه من الخير أن تقيم أيدي الناس الأهرام وتحفر البحيرات وتغرس خمائل الجميز للإله.» والواقع أن فقدان القبر كان يعد في نظر الموظف الثري أفظع دليل ممكن على عدم ولائه للفرعون؛ ولذلك قال حكيم لأولاده: «لا قبر لإنسان خارج على جلالة الفرعون، بل إن جثته سيُلقى بها في الماء.»[١] ومن أجل ذلك كان كثير من الأشراف في ذلك العصر يقومون ببناء المقابر وتجهيزها بمعدَّات، جريًا على ما كانت عليه الحال قديمًا.

وحقيقة الأمر أنه لم يعُد في قبضة يد الفرعون ذلك السلطان المطلق على رجال الحكومة حتى يمكنه أن يتخذ منها مجرد العامل السامي المنظم لإقامة المقبرة الملكية الهائلة، ومع ذلك فإن الموظفين القائمين بإقامة مثل تلك المقابر لم يتردَّدوا طرفة عين في موازنة تلك المقابر بجبانة الجيزة، وقد كان ذلك من باب المبالغة، فقد أظهر مثلًا «مري» أحد مهندسي الملك «سنوسرت الأول» ارتياحه العظيم عندما كُلف من قِبل الملك بإقامة مثوى له أبدي تفوق شهرته «روستاو» (أي جبانة الجيزة)، وهي المنطقة الممتازة الخاصة بالآلهة، فكانت عُمد ذلك المثوى تخترق السماء، والبحيرة التي حُفرت هناك قد وصلت إلى النهر، وأبوابه العظيمة المناطحة للسماء في طولها قد أقيمت من أحجار «طرة» البيضاء.

وقد فرح الإله «أوزير» رئيس أهل الغرب بكل آثار سيدي (الملك)، ولقد سُسررت أنا نفسي وكان قلبي مبتهجًا بما قد قمت بإنجازه. و«المثوى الأبدي» هذا هو قبر الملك، ويشتمل كذلك على المزار أو المعبد الجنازي الذي كان قد أقيم قبالته كما يدل على ذلك الوصف المذكور. ومع أن مقابر الإقطاعات لم تَعد تبنى حول هرم الملك، كما كان يفعل الأشراف ورجال البلاط في عهد بناة الأهرام؛ إذ صارت الآن قبور الأشراف مبنية في الإقطاعات في طول البلاد وعرضها، فإنهم مع ذلك قد استمروا يتمتعون إلى حد ما بالهبات الجنازية التي تُصرف من الخزانة الملكية، وكانت الصيغة الدينية الجنازية المألوفة في ذلك الوقت هي «قربان يهديه الملك»، وهي نفس الصيغة التي كانت شائعة

[١] راجع تعاليم «سحتب أب رع» [أمنمحات الثالث ١٨٤٩–١٨٠١ق.م].

الاستعمال في المقابر التي حول الأهرام، وقد صارت تُنقش بكثرة في ذلك الوقت على جدران مقابر الأمراء والأشراف. وعلى أية حال فإن هذه الصيغة لم تصبح بعد مقصورة على مقابر عِلية القوم؛ إذ باتساع انتشار المذهب الديني الذي كان خاصًّا بالأشراف بين عامة الشعب صار من العادات المعروفة المتفق عليها عند القوم أن يتضرع كل إنسان إلى الملك حتى يعطيه نصيبًا من تلك الهبات الجنازية الملكية؛ ولذلك نجد كل طبقات المجتمع حتى أحقر العمال من المدفونين في «العرابة المدفونة» وغيرها كانوا يتضرعون لنيل «قربان يهبه إليهم الملك»، بالرغم من أنه كان يستحيل أن يتمتع عامة الشعب بامتياز كهذا.

على أننا لم نحصل على فكرة ما عن تلك العادات البهيجة الخاصة بتموين المُتوفَّى في الحياة الآخرة إلا في العهد الإقطاعي، وهي تلك العادات التي صارت الآن متأصلة في حياة الشعب المصري القديم.

وقد حفظت لنا المقابر التي لا تزال باقية إلى الآن في مقابر مقاطعات الوجه القبلي بعض بقايا تلك الشعائر اليومية العادية، وكذلك ما كان خاصًّا منها بالاحتفالات والأعياد التي كان الشعب يظن أنه بها يُدخل السرور على الذين رحلوا عن دار الدنيا إلى دار الآخرة، حتى تصير حياتهم أكثر مرحًا وأعظم حبورًا، وهذه الاحتياطات نفسها كانت متبعة في عصر الأهرام عند الأشراف أيضًا؛ إذ نجد أن الشريف «زفاي حعبي» الأسيوطي المنبت، وأمير مقاطعة «سيوط» الذي كان يعيش في عهد «سنوسرت الأول» قد أقام لنفسه تمثالًا في كل من المعبدين الرئيسيين في المدينة؛ أي إنه أقام تمثالًا في معبد الإله «وبوات»، وهو الإله المحلي القديم لذلك المكان، وكان يمثل في صورة ذئب، ومن ذلك الاسم باليونانية اشتقت المدينة اسمها «ليكوبوليس» (بلد الذئب)، أما التمثال الآخر فقد أقامه في معبد «أنوبيس» وهو إله معروف في صورة كلب أو صورة ابن آوى، وقد كان ذلك الإله يومًا ما أحد الآلهة المناهضين للإله «أوزير». وقد ترك الأوقاف الخاصة لإقامة الشعائر والاحتفالات للآلهة، ولتقديم الطعام اليومي لروحه «كا» في مقبرته، وقد نُقش على جدران مقبرته شروطًا عشرة لإقامة هذه الاحتفالات وتقديم الطعام، وهي توضح لنا الحياة الدينية في هذا العهد. وقبل أن نتكلم عن هذه الاحتفالات سنضع أمام القارئ ترجمة حرفية لهذه الشروط العشرة وهي:

(١) شروط الوقف العشرة[٢] المنقوشة على جدران معبد الأمير «زفاي حعبي»

الشرط الأول

(٢٧٣–٢٩٦) الشرط الذي تعاقد عليه الأمير الإقطاعي، ورئيس الكهنة المسمى «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة[٣] لمعبد الإله «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) أن يقدم رغيف من الخبز الأبيض من كل كاهن مطهر لتمثاله الذي في معبد «أنوبيس» سيد «رقررت» في أول يوم من أيام النسيء، وذلك عندما يسير الإله «وبوات» سيد «سيوط» إلى معبده.

(٢) ما يقدَّم لهم في مقابل ذلك نصيبه في الثور الذي يقرِّب إلى «وبوات» سيد «سيوط» في معبده عندما يذهب إلى هناك، وهو نصيبه من اللحم المقرَّب، وهو ما يستحقه أمير المقاطعة.

(٣) وقد تكلم لهم قائلًا: «انظروا لقد أعطيتكم هذا القربان من اللحم الذي أستحقه من المعبد، وذلك في مقابل أن تقدموا إليَّ هذا الخبز الأبيض»، وعلى ذلك قدِّموا له نصيبًا من الثور لتمثاله المعهود به إلى كاهن لروحه «كا»؛ ومن أجل ذلك أعطاهم قربان اللحم هذا.

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الثاني

(٢٧٧–٢٨٢) الشرط الذي تعاقد عليه الأمير الإقطاعي رئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة لمعبد الإله «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) أن يقدِّم رغيف من الخبز الأبيض من كل منهم لتمثاله الذي في حراسة كاهن روحه، في اليوم الأول من الشهر الأول من الفصل الأول وهو يوم السنة الجديدة، وذلك عندما يعطي البيت سيده، بعد إنارة المصباح (الشعلة) في المعبد، وأن يخرجوا خلف

---

[٢] Griffith, "The Inscriptions of Suit and Dier el Rifeh", Pl. VI, 1, 273 ff.

[٣] كهنة الساعة هم الكهنة غير الرسميين الذين كانوا يتناوبون العمل كل شهر.

كاهن روحه عند الاحتفال بتنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا) إلى أن يصلوا إلى الركن الشمالي من المعبد، كما يفعلون عندما ينعمون موتاهم أنفسهم المحترمين في اليوم الذي يضاء فيه المصباح (الشعلة؟)

(٢) وما يقدِّمه لهم في مقابل ذلك هو مكيال «حقات» (جالون) من شعير الشمال من كل حقل من حقول الوقف، من باكورة محصول ضيعة حاكم المقاطعة، طبقًا لما يقدِّمه كل رجل سيوطي معتاد من باكورة حصاده؛ وذلك لأنه أول إنسان يجعل كل فلاح من فلاحيه يقدِّمها (الباكورة) لهذا المعبد من باكورة حقله.

(٣) وقال: «انظروا! إنكم تعلمون أن التخلي عن أي رجل عظيم، أو رجل يقدِّم شيئًا للمعبد من باكورة حصاده، ليس بالحسن له، وليس هناك أمير مقاطعة ينقص في زمانه من شرط أمير آخر عمل مع الكهنة المطهرين في زمانهم، يضاف إلى ذلك أن هذا الشعير يجب أن يكون ملكًا لكهنة الساعة للمعبد كل على حدته؛ أي لكل كاهن مطهر سيقدم لي هذا الرغيف من الخبز الأبيض، ويجب أن لا يقسموه (أي الشعير) بين أولئك التابعين لشهر بعينه؛ وذلك لأنه يجب عليهم أن يعطوا هذا الخبز الأبيض كلًّا على انفراد.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الثالث

الشرط الذي تعاقد عليه أمير المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع هيئة موظفي معبد الإله «وبوات»؛ لأجل أن يقدم له خبز وجعة، في اليوم الثامن عشر من الفصل الأول، وهو يوم عيد «واج»:

(١) قائمة (بما يقدمونه له):

قائمة بأسماء هيئة الموظفين	آنية قبي من الجعة	رغفان خبز قن	رغفان خبز أبيض
الكاهن الأعظم	٤	٤٠٠	١٠
الحاجب	٢	٢٠٠	٥
كاتم السر	٢	٢٠٠	٥

قائمة بأسماء هيئة الموظفين	آنية قبي من الجعة	رغفان خبز قن	رغفان خبز أبيض
حافظ الملابس	٢	٢٠٠	٥
رئيس الحجرة الواسعة	٢	٢٠٠	٥
المشرف على المعبد	٢	٢٠٠	٥
كاتب المعبد	٢	٢٠٠	٥
كاتب مائدة القربان	٢	٢٠٠	٥
المرتل	٢	٢٠٠	٥

(٢) أما ما قدَّمه مقابل ذلك فهو ٢٢ يومًا من أيام المعبد من متاعه الذي من بيت والده (إرثه من والده)، وليس من ضيعة حاكم المقاطعة، منها أربعة أيام لرئيس الكهنة ويومان لكل واحد من الآخرين.

(٣) وقال لهم: «انظروا! إن يوم المعبد هو $\frac{١}{٣٦٠}$ من السنة، ويجب أن تقسموا كل العطايا اليومية التي تدخل هذا المعبد، وهي التي تحتوي على خبز وجعة ولحم؛ وذلك لأن يوم المعبد، يحسب $\frac{١}{٣٦٠}$ من الخبز والجعة، وكل شيء يدخل المعبد لكل يوم من أيام المعبد هذه التي قدَّمتها لكم، واعلموا أنها متاعي الخاص من ضياع والدي، وليست من ضياع حاكم المقاطعة؛ لأني مثلكم ابن كاهن مطهر، ولاحظوا أن هذه الأيام «دخل المعبد»، يجب أن تنتقل إلى هيئة الموظفين المستقبلين الذين يعملون في المعبد؛ لأنهم هم الذين يقربون لي هذا الخبز والجعة التي يجب أن أعطاها.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الرابع

(٢٩٠–٢٩٥) الشرط الذي تعاهد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة لمعبد «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) على أن يقدم له رغيف خبز أبيض من كل واحد منهم لتمثاله الذي في المعبد، وذلك في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول من الفصل الأول، وهو يوم عيد «واج»، وأن

يخرجوا خلف كاهن روحه عند تنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا) عندما ينار المصباح (الشعلة) له، وذلك على غرار ما يفعلون عند تنعيم أمواتهم المحترمين في يوم إنارة المصباح (الشعلة) في المعبد.

يضاف إلى ذلك أن هذا الخبز الأبيض يجب أن يكون في ذمة كاهن روحه، أما ما يقدِّمه في مقابل ذلك فكان حقيبة من الفحم لكل ثور، وسلة من الفحم لكل معزي، وهي التي كانوا قد اعتادوا أن يقدِّموها لمخزن حاكم المقاطعة عندما كان يقرِّب ثورًا أو معزي للمعبد، وذلك في مقابل ما يجب عليهم دفعه لمخزن حاكم المقاطعة، وهو يقدِّمها لهم دون أن يجبرهم على أخذها منهم عنوة.

(٢) وكذلك كان يقدم لهم ٢٢ إناء من الجعة و٢٢٠٠ رغيف خبز. وهذه كانت هيئة موظفي المعبد يقدمونها له في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول من الفصل الأول، وذلك في مقابل ما يقدمونه، وهو رغيف خبز أبيض لكل فرد مما هو مستحق لهم في المعبد، وكذلك في مقابل تنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا وهو احتفال خاص يقام على روح المتوفى).

(٣) ثم تكلم إليهم قائلًا: «إذا أخذ منكم هذا الفحم عنوة على يد أي حاكم مقاطعة في المستقبل، فاعلموا أن هذا الخبز وهذه الجعة يجب ألا ينتقص منها، وهي التي توردها لي هيئة موظفي المعبد، وهي التي قد أسلمتها لكم؛ تأملوا إني قد تعاقدت معهم عليها.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الخامس

(٢٩٦–٣٠١) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة، «زفاي حعبي» صادق القول مع حافظ ملابس معبد الإله «وبوات»:

(١) لأجل ثلاث فتائل يُنار بها المصباح (الشعلة) للإله.

(٢) أما ما قدَّمه «زفاي حعبي» له (حافظ الملابس) في مقابل ذلك فكان ثلاثة أيام من أيام المعبد، وثلاثة الأيام من أيام المعبد هذه ستكون مستحقة لكل حافظ ملابس في المستقبل؛ لأن هذه الفتائل الثلاث تكون مستحقة له «زفاي حعبي».

(٣) ثم تكلم قائلًا: «إن واحدة من هذه (الفتائل) تقدَّم إلى كاهن روحي بعد أن يكون قد عمل بها ما يجب أن يعمله في المعبد، ويجب أن يعطى أخرى في يوم أول السنة

الجديدة في الفجر المبكر، وذلك عندما يقدم البيت إلى سيده بعد أن يكون كهنة الساعة للمعبد قد قدموا إلى هذا الخبز الأبيض، وهو الذي يجب أن يقدِّمه كل واحد منهم منفردًا في يوم أول السنة الجديدة، وسيقدم بوساطة كاهن روحي عند تنعيمي (أي تعطى له وتستعمل به).»

وسيعطى آخر.

في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول الفصل الأول وهو يوم عيد «واج» في الوقت نفسه مثل الخبز الأبيض الذي يقدمه كل واحد من الكهنة المطهرين، وهذه الفتيلة ستخرج بوساطة كاهن روحي عند تنعيمي (الذي يحضره كهنة الساعة التابعون للمعبد)، ثم قال «زفاي حعبي» له: «انظر! إن يوم المعبد هو $\frac{١}{٣٦٠}$ من السنة، ويجب أن تقسَّم العطايا اليومية التي تدخل المعبد (وتحتوي على) خبز وجعة وكل شيء يدخل المعبد لكل يوم من أيام المعبد هذه التي قدمتها لك، انظر! إنها متاعي الخاص من ضيعة والدي ومن ضيعة حاكم المقاطعة.

والآن يجب أن تئول أيام المعبد الثلاثة هذه لكل حافظ الملابس في المستقبل (؟)؛ لأن هذه الفتائل واجبة له («زفاي حعبي»)، وهي التي قد حملتها لي بسبب أيام المعبد الثلاثة هذه التي حملتها لك وقدَّمتها لك.»

(٤) وقد كان مسرورًا بذلك.

الشرط السادس

(٣٠٢–٣٠٤) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع رئيس كهنة «وبوات» (أي مع نفسه):

(١) لأجل شواء، وهو الذي يوضع على مائدة القربان ويوضع على حجر القربان لكل ثور يذبح في المعبد، وإناء جعة «ستا» من كل $\frac{١}{٤}$ إناء دس.

في كل يوم «ظهور» (في المعبد).

وهي حق لكل رئيس كهنة في زمنه.

(٢) أما ما أعطاه «زفاي حعبي» له (أي رئيس الكهنة اسمًا) في مقابل ذلك؛ فهو يومان من أيام المعبد من ضيعة والده، ومن ضيعة حاكم المقاطعة.

(٣) وعندئذ تكلم «زفاي حعبي» قائلًا: هذا الشواء وإناء الجعة «ستا» سيقدم في كل يوم (ظهور التمثال في المعبد.

وهي مستحقة لتمثالي الذي في رعاية كاهن روحي.

(٤) وإنه «زفاي حعبي» بوصفه يحمل لقب رئيس الكهنة، كان مسرورًا بذلك في حضرة هيئة موظفي المعبد هؤلاء.

الشرط السابع

(٣٠٥–٣٠٦) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع الكاهن المطهر الأعظم للإله «أنوبيس»:

(١) من أجل ثلاث فتائل يستحقها؛ لإنارة المصباح (الشعلة) في معبد «أنوبيس»، واحدة في اليوم الخامس من أيام النسيء في مساء يوم السنة الجديدة، وأخرى في يوم السنة الجديدة.

والثالثة في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول في مساء عيد «واج».

(٢) أما ما قدمه في مقابل ذلك فكان ٢٢ «أرورا» (مقياس) من الأرض المنزرعة في «سمارسي» من أرض والده، وذلك في مقابل ثلاث الفتائل التي سيعطيها كاهن روحي لأجل أن يضيء لي المصباح (الشعلة) بها.

(٣) وقد كان مسرورًا بذلك.

الشرط الثامن

(٣٠٧–٣١١) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع كهنة الساعة لمعبد «أنوبيس»:

(١) من أجل أن يقدم له رغيف خبز أبيض من كل واحد منهم لتمثاله في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول في مساء عيد «واج»، ومن أجل أن يذهبوا بعد كاهن الروح عندما يُنار المصباح (الشعلة)، له عند تنعيمه إلى أن يصلوا إلى السلم السفلي (مزار الوادي) لقبره كما ينعمون موتاهم المحترمين في يوم إضاءة المصباح (الشعلة)،

ومن أجل التقدمة الشهرية التي يقدمها الكاهن المطهر، المؤلفة من طبق من الخبز وإناء من الجعة لتمثاله الذي في السلم السفلي (مزار الوادي) لقبره عندما يخرج لتأدية الاحتفالات في المعبد كل يوم.

(٢) أما ما قدمه لهم في مقابل ذلك فكان شعير الشمال من باكورة محصول كل حقل من ضيعة حاكم المقاطعة، كما يفعل كل رجل أسيوطي عادي يقدم من باكورة محصول حصاده. وعلى أية حال فإنه كان أول من جعل كل واحد يقدمها من باكورة حقله لمعبد «أنوبيس».

(٣) ثم قال حاكم المقاطعة «زفاي حعبي»: «انظروا فإنكم تعلمون أن أي رجل عظيم، أو أي رجل عادي يقدم باكورة حصاده للمعبد، ويمتنع عن أدائها ليس بالشيء الحسن له، على أنه لم يجد حاكم مقاطعة في عصره انتقص من الشرط الذي تعاقد عليه حاكم مقاطعة آخر مع الكهنة المطهرين في أزمانهم، وشعير الشمال هذا سيكون ملك كهنة الساعة التابعين للمعبد، كل على حدته، من الذين يقدمون لي هذا الخبز الأبيض، وإنه لن يقسم مع الكهنة في شهورهم؛ لأنه لزامًا عليهم أن يقدموا هذا الخبز الأبيض كل على انفراد.»

(٤) وقد كانوا مسرورين بذلك.

الشرط التاسع

(٢١٢–٢١٨) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع مدير أعمال الجبانة وحراس الصحراء:

(١) من أجل أن يجعلهم يذهبون لمعبد «أنوبيس» في اليوم الخامس من أيام النسيء مساء السنة الجديدة.

وفي يوم السنة الجديدة.

بشأن تسليم فتيلتين قدمهما الكاهن الأعظم للإله «أنوبيس» المطهر إلى حاكم المقاطعة «زفاي حعبي»، وبشأن ذهابهم لتنعيمه إلى أن يصلوا إلى قبره، وبشأن تقديمهم الفتيلة (أي الخاصة بمساء السنة الجديدة) لكاهن روحه بعد أن نعموه كما ينعمون موتاهم المحترمين.

(٢) أما ما قدمه لهم في مقابل ذلك فكان ٢٢٠٠ (مقياسًا) من الأراضي الزراعية في «واعبت»، وهي من أملاكه الشخصية من ضيعة والده، وليست من ضيعة حاكم المقاطعة.

قائمة.

	أرض	
مدير عمال الجبانة	٤٠٠	
قائد الصحراء	٢٠٠	= ٢٨,٤ أرورا (مقياس)
ثمانية حراس للصحراء	١٦٠٠	

وقد كان قدَّم لهم الجزء الأسفل من الجزء الخلفي من كل ثور ذُبح في الصحراء «لجبانة» في كل مزاراتها.

(٣) أما ما قدَّموه له فهو:

رئيس عمال الجبانة: إناءين دس من الجعة، ١٠٠ رغيف من خبز قفن، ١٠ أرغفة من الخبز الأبيض.

قائد الصحراء: إناء جعة، ٥٠ رغيفًا قفن، ٥ خمسة أرغفة من الخبز الأبيض.

الثمانية (حراس الصحراء): ثمانية آنية دس من الجعة، ٤٠٠ رغيف من خبز قفن، ٤٠ رغيفًا من الخبز الأبيض من أجل تمثاله الموكَّل به كاهن روحه، وذلك في اليوم الأول من الشهر الأول من الفصل الأول يوم أول السنة الجديدة عندما ينعمونه.

(٤) ثم قال لهم: «انظروا! إن هذه الأرض التي سلمتها لكم ستكون ملكًا لكل مدير عمال جبانة مستقبلًا، ولكل قائد صحراء، ولكل حارس جبانة مستقبلًا؛ وذلك لأنهم هم الأفراد الذين سيقدِّمون لي الخبز والجعة.»

(٥) وستكونون خلف تمثالي الذي في حديقتي وترافقونه [عندما يسير إلى معبد وبوات أو «أنوبيس»؟] في كل عيد أول فصل يقام في هذا المعبد.

(٦) وكانوا مسرورين بذلك.

الشرط العاشر: (٣١٩–٣٢٤)

(١) من أجل أن يقدم له إناء هبث من الجعة وفطيرة واحدة كبيرة (؟)، ٥٠٠ رغيف خبز قفن، ١٠٠ رغيف من الخبز الأبيض لتمثاله المنوط به كاهن روحه، في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول مساء عيد «واج».

(٢) أما ما قدمه «زفاي حعبي» في مقابل ذلك فهو ٢٫٢ أرورا من الأراضي الزراعية في «وعبت» من أملاكه الخاصة من ضيعة والده، وليست من ضيعة حاكم المقاطعة، والربع الأمامي من كل ثور يُذبح في الصحراء (الجبانة) في كل مزارات قبورها.

(٣) ثم قال لمدير الصحراء: «انظر! إن هذه الأرض ستنتقل لكل مدير صحراء مستقبلًا؛ وذلك لأنه هو الذي سيقدِّم لي هذا الخبز والجعة.»

(٤) وقد كان مسرورًا بذلك.

المرحوم حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صاحب الاحترام.

(٢) تصوير الاحتفالات الدينية التي كانت تقام للأمير «زفاي حعبي»

وسنضع أمام القارئ صورة من هذه الاحتفالات تخيلناها مأخوذة من نص العقود العشرة التي على جدران المقبرة؛ وقد أردنا بذلك أن نكسو عظام الحقائق التاريخية الجافة التي ذكرناها في هذه الشروط لحمًا ودمًا، ثم نبعث فيها روحًا يحركها فتصبح حية يراها القارئ ويتمثلها.

وقبل أن نورد هذه الصورة نقول: إن «زفاي حعبي» أقام لنفسه قبل وفاته تمثالًا في كل من المعبدين الرئيسيين في المدينة؛ أي إنه أقام تمثالًا في معبد الإله «وبوات»، وهو إله محلي قديم في صورة ذئب، ومن ذلك الاسم اشتقت المدينة اسمها اليوناني «ليكوبوليس» (أي بلد الذئب). أما التمثال الآخر فقد كان في معبد «أنوبيس» وهو إله معروف في صورة كلب أو صورة ابن آوى، وقد كان ذلك الإله يومًا ما من الآلهة المناهضين للإله «أوزير»، وكان معبد «وبوات» يقع في وسط المدينة في حين أن معبد الإله «أنوبيس» كان يقع بعيدًا عنه على ظاهر حدود الجبانة في سفح الجبل الذي نحتت في واجهته مقبرة «زفاي حعبي» على مسافة من ارتفاعه، وقد نصب في ذلك القبر الفخم كذلك تمثال لنفسه يقوم برعايته كاهنه الجنازي، ولم يكن له إلا كاهن واحد يُعنى بقبره ويقوم بالاحتفالات التي كان يرغب فيها في الحياة الدنيا قبل وفاته.

وأهم هذه الاحتفالات تلك التي كانت تقام في مناسبات الاحتفال بالسنة الجديدة، وكانت تقام قبل حلولها، وعند بدايتها، فكانت تقام قبل نهاية السنة القديمة بخمسة أيام في أول يوم من أيام النسيء الخمسة التي تنتهي بها السنة، فكان يُرى في ذلك اليوم كهنة الإله «وبوات» سائرين في موكب مخترقين شوارع «سيوط» وأسواقها، وكانوا في نهاية المطاف يخرجون من المدينة حاملين إلههم «وابوت» إلى معبد الإله «أنوبيس»، الذي كان يقع في سفح جبانة الجبل، وكان يذبح في ذلك المعبد ثور للإله الزائر؛ أي الإله «وبوات»، وكان كل كاهن؛ إذ ذاك يحمل بيده رغيفًا كبيرًا أبيض مخروطي الشكل، وعند دخولهم ساحة معبد «أنوبيس» كانوا يضعون أرغفتهم عند قاعدة تمثال «زفاي حعبي».

ثم بعد مضي خمسة أيام من ذلك التاريخ كان ينزل «مدير الجبانة» وبصحبته تسعة أفراد من موظفيه من فوق الجبل في وقت المساء مارِّين بأبواب القبور المفتحة، والتي كانت حراستها موكولة لهؤلاء الموظفين، ثم يدخلون في ظلال المدينة التي كانت في سفح ذلك الجبل. وكانت هذه المدينة في تلك الآونة من ذلك اليوم يخيم عليها الظلام؛ إذ كانت تقع في ظلال هذا الجبل المطل عليها، وكان هذا المنظر يحدث في مساء اليوم الأول من السنة الجديدة، وكانت الأنوار المبعثرة هنا وهناك، وهي التي أشعلت ابتهاجًا بالعيد قد بدأت تنبعث عند الشفق من داخل البيوت، ومن الشرفات، وأثناء انطلاق تلك الفئة في سيرها في الشوارع الضيقة الواقعة في أطراف المدينة كان يعترضهم فجأة في طريقهم الجدار العالي لسور معبد الإله «أنوبيس»، وعندما كانوا يدخلون من أبوابه العظيمة العالية يسألون عن الكاهن الأعظم الذي كان يقدم لهم على الفور حزمة من المشاعل فيأخذونها، ويعودون أدراجهم صاعدين في الجبل بتؤدة، فيشرفون على المدينة رويدًا رويدًا كلما تسلقوا الجبل مصعدين ثانية، وحينما كانوا يشرفون بأنظارهم من فوق الجبل على أسقف المدينة الملتفة في الظلام الدامس كانوا يكشفون في وسطها مجموعتين مشتعلتين من الأنوار المتلألئة، تقع إحداهما بالضبط تحت أنظارهم في حضيض الجبل، والأخرى تقع على مسافة بعيدة في قلب المدينة، فكانتا تشبهان جزيرتين متلألئتين بالنور في بحر من الظلمة يمتد إلى مسافة من تحت أرجلهم. وهاتان المجموعتان من النور هما ساحتا المعبدين اللذين كانت الأنوار تنتشر في أرجائهما.

وبالرغم من أن سيدهم القديم «زفاي حعبي» كان مدفونًا في بلاد النوبة النائية، فإنه كان حاضرًا معهم بتمثاله المقام في وسط تلك الأفراح والأعياد التي كانت حفلتها

تملأ ذينك المعبدين، فقد كان تمثاله المنصوب في المعبد يتكلم بعينيه اللتين يشرف بهما على الجموع التي كانت تزخر بهم هاتان الساحتان المختالتان بجمال أعمدتهما الزاهية، وكان التمثال يتمتع مثل أصدقائه الأحياء الموجودين أسفل منه بروح ذلك الفيض العميم الذي كان مبسوطًا أمامه، حينما كان يشاهد رغفان القربان موضوعة عند قدميه، وهي التي ذكرنا فيما سلف أن الكهنة كانوا يضعونها هناك، وكانت أذناه (أي التمثال) تُملآن بضجيج آلاف الأصوات التي كانت تتعالى مع أصوات الأفراح المنبعثة من جماهير المدينة المجتمعين بمعبدي الإلهين، يترقبون انقضاء ذلك العام الراحل، ويستقبلون أول العام الجديد، وكأن أصواتهم اصطفاق بحر يزخر بأمواجه ينبعث من بعيد فوق الأسقف المظلمة؛ إلى أن يصل جرسه المتضائل إلى آذان طائفة حرَّاس الجبانة المرتفعة القائمة بين ظلمات الجبال، وهم يشرفون على المدينة في صمت رهيب، وكانت تطل من فوق رءوسهم بالضبط واجهة تلك المقبرة التي كانت قد أعدت لتضم جثمان سيدهم الراحل «زفاي حعبي». وقد كان المتقدمون في السن من بين أولئك الحراس يذكرونه جيدًا أو يذكرون الكرم الذي طالما لاقوه على يده. أما المحدثون الذين كان في نظرهم اسم «زفاي حعبي» مجرَّد اسم لا يحمل معنى، فكانوا لا يجيبون إلا متباطئين، وعلى كره منهم، عندما كان شيوخهم يحثونهم على إضاءة أنوار القبر، وعندما كان يتعجلهم صوت كاهن «زفاي حعبي» من أعلى الجبل قائلًا: «لا تتأخروا أكثر من ذلك في إضاءة النور»، وعندئذ يخرج الشرر من قدح الزناد، وعلى أثر ذلك تُضاء أول شعلة، ومنها تُضاء المشاعل الأخرى بسرعة. وكان الموكب الذي يشمل أولئك الحرَّاس حول مرتفع من الجبل فسيح الأرجاء، ثم يعود الموكب ثانية إلى باب القبر العالي حيث يكون في انتظارهم كاهن «زفاي حعبي» فيدخلون توًّا إلى مزار القبر العظيم.

وكان يشاهد انعكاس أنوار تلك المشاعل المتلألئة في غير نظام فوق جدار ذلك المزار الذي تُرى فوق جدرانه صورًا ضخمة مرسومة للسيد الراحل، ترتفع عالية حتى تختفي رأسه وسط الظلمة التي لم تصل إليها أنوار تلك المشاعل المتضائلة، ويبدو على صورته كأنها تحثهم على تأدية واجباتهم نحوه بالدقة والعناية، كما هو مدوَّن بالعقود العشرة المنقوشة فوق جدار المزار نفسه وهي التي سبق ذكرها. وكان «زفاي حعبي» يبدو في الصورة مرتديًا لباسًا بهيجًا ومتوكئًا في رفق على عصاه التي بيده، وطالما كان المسنون من تلك الطائفة يرونه قائمًا في هذا الوضع وهو يفصل في القضايا التي كانت تُعرض عليه، بينما كان يساق المجرمون إلى داخل باب ديوانه بين صفين من ضباطه المتزلفين.

ويشاهد في حالة أخرى كأنه يراقب سير تقدم العمل في إحدى ترع الري الهامة حتى يفتتح بها زراعة جديدة، فكان هؤلاء الحراس يسجدون خضوعًا أمام صورته هذه المهيبة؛ يسوقهم إلى ذلك الدافع الطبعي الذي ليس لهم فيه اختيار، كما كان يسجد أمامه أيضًا الكُتاب، وأصحاب الحرف، والفلاحون الذين نشاهد صورهم تملأ الجدران التي أمامه. وقد لونت بألوان جميلة محفورة فوق الجدران، وهذا المنظر يمثل الصناعات والملاهي التي كانت تضمها تلك الضياع العظيمة التي كان يملكها «زفاي حعبي» وقتئذ، وهي تؤلف دنيا مصغرة يُرى فيها ذلك الشريف الراحل عندما كان يدخل مزار قبره، فكان يشعر أنه لا يزال يغدو ويروح بين مناظر حياة الرفاهية والملاذ في الحياة الدنيا، وكان يمثل هو فيها الشخصية البارزة العظيمة؛ إذ كان يخيل إليه أن جدران مقبرته قد رحبت واتسعت حتى صارت تشمل حقول زراعة عماله، وأسواقهم، ومصانع السفن، وأحواضها، ومستنقعات الصيد، والطيور، والأسماك، وردهات لإقامة الحفلات. وقد عمر النحات والرسام الجدران بتلك المناظر حتى صارت في الواقع كأن الحياة تدب فيها، وكانت المشاعل الموقدة تنبث حول القربان الخاص بمائدة القرب العظيمة المصنوعة من الحجر في المزار، وكان يقوم خلف ذلك تمثال «زفاي حعبي» في كوَّة منحوتة في أصل الجدار.

وبعد ذلك تنسحب جماعة الحرَّاس الصغيرة على مهل، ملقين عدة نظرات خاطفة على الباب الوهمي المقام في جدران المزار الخلفي، وكانوا يعرفون أن «زفاي حعبي» يمكنه أن يخرج منه من عالم الظلام المستتر خلف هذا الباب الوهمي ليدخل إلى عالم الأحياء، ويحتفل مع الأحياء من أصدقائه بعيد رأس السنة المذكور.

وأما اليوم التالي وهو اليوم الأول من السنة الجديدة فيعد أعظم أيام الأعياد في التقويم السنوي، وكانت تتبادل فيه الهدايا بفرح كما تتوافد أهل الضياع أيضًا يحملون الهدايا إلى سيد ضيعتهم، وإذا اتفق أن سلالة «زفاي حعبي» قد انهمكت في ملاذها وجرت فيها إلى آخر شوطها، فإن شروطه التي دونت بانتباه ويقظة في سجلات المدينة تضمن له الاهتمام بأمره، وعدم إهمال قربانه. وفي الوقت الذي كان فيه الفلاحون ومستأجرو الإقطاعات يشاهَدون مزدحمين عند الباب العظيم لبيت ذلك الشريف حاملين هداياهم لسيدهم الحي غير مفكرين في سيدهم الراحل؛ كان حراس الجبانة العشرة بقيادة رئيسهم يجتازون أطراف المدينة سائرين نحو أحد المخازن بالضيعة التي من حقهم أن يتزودوا منها، ثم لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم حاملين ٥٥٠ فطيرة مستديرة

و٥٥ رغيفًا من الخبز الأبيض، ١١ إناء مملوءًا بالجعة، ثم يعودون من حيث أتوا يقتحمون طريقهم على مهل وسط مرح الزحام، حتى يصلوا إلى مدخل الجبانة عند سفح الجبل، فيجدون هناك زحامًا عظيمًا أيضًا، وكل واحد من أولئك المزدحمين محمل بمثل ما حملوا به. وإذا كان الطيبون من أهل «سيوط» يحملون عطاياهم من الأطعمة والشراب في وسط جلبة عظيمة من الأفراح القائمة وسط تلك المناظر الخلابة التي لا عداد لها من صور تلك الحياة الشرقية، فإن مثل ذلك يُشاهد إلى اليوم في الجبانات الإسلامية في مصر في أيام عيد الفطر وباقي المواسم والأعياد الإسلامية، ويقصدون إلى الجبل ويدخلون بما يحملون إلى أبواب المزارات العديدة التي كانت منتشرة في وجه الجبل على مثال خلية النحل في كثرتها، حتى تتمكن موتاهم من مشاطرتهم تلك الأعياد المرحة.

والواقع أن ذلك العيد يعد أقدم «عيد[٤] لكل الأرواح» وكان حراس الجبانة يسرعون إلى قبر «زفاي حعبي» بما لديهم من المؤن التي يسلمونها على الفور إلى كاهنه الجنازي، ثم يعودون أدراجهم حتى يحافظوا على النظام بين جمهور الشعب المرح الذي كان أفراده يتسلقون الجبل من كل مكان. وكلما بليت جدة النهار قامت المعدات اللازمة للاحتفالات المسائية على ساق وقدم من إشعال الأنوار وتنعيم المرحومين (أي جعل المُتوفَّى روحًا منعمًا) الذين ماتوا.

وكان حراس الجبانة مع كثرة نصيبهم من تأدية واجباتهم الشاقة طول اليوم بالجبانة المزدحمة، ينحدرون للمرة الثانية من فوق الجبل إلى معبد الإله «وبوات» بالمدينة حيث يكون جميع كهنة المعبد عن بكرة أبيهم في انتظارهم، وكان الكاهن الأعظم رئيسهم يقوم بتقديم عشرة المشاعل اللازمة لإنارة مقبرة «زفاي حعبي» فكانت تضاء في الحال المشاعل التي كانت تحملها الكهنة، ثم يتحرك بعد ذلك الموكب المؤلف من الحراس والكهنة معًا فيسير على مهل مجتازًا ساحة المعبد، ثم يخترق السور المقدس سائرًا نحو الركن الشمالي للمعبد كما يصف لنا ذلك العقد الذي أجراه «زفاي حعبي» مع الكهنة وهم يرتلون تنعيم[٥] «زفاي حعبي» (أي جعله روحًا منعمًا)، وكان كل كاهن يحمل

---

[٤] عيد يوم كل الأرواح هو عيد مسيحي، يعقد في اليوم الثاني من شهر نوفمبر، وفيه يعقد احتفال مهيب بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليضرعوا إلى الله لأرواح الأموات المخلصين.

[٥] إن طبيعة هذا الاحتفال الذي كان يحتفل به الأحياء في عيد رأس السنة وغيره لأجل الأموات ليس واضحًا في تفاصيله، غير أنه لا بد كان يعبر عما يدل عليه اسمه.

معه رغيفًا كبيرًا مخروطي الشكل من الخبز الأبيض كالذي سبق أن وضعوا مثله أمام تمثال «زفاي حعبي» في معبد «أنوبيس» منذ خمسة أيام مضت. وكان الكهنة عندما يصلون إلى الركن الشمالي من المعبد يعودون ثانية إلى القيام بواجباتهم في وسط المحراب المزدحم بدهماء الشعب، وكانوا بطبيعة الحال يسلمون رغفانهم إلى حراس الجبانة؛ لأن هذه الرغفان كانت كما نص العقد خاصة بتمثال «زفاي حعبي» الذي في قبره. أما موكب الحراس الصغير المؤلف من عشرة أشخاص فكان يطوف في شوارع المدينة المتألقة بالأنوار والحراس يقتحمون طريقهم بمشقة عظيمة وسط زحام الشعب، وفي النهاية يخترقون الباب العظيم لمعبد «أنوبيس» حيث تكون الأنوار قد بلغت غايتها من البهجة والرواء، ولم ينسَ في ذلك تمثال «زفاي حعبي»، وحينما كان الموكب يظهر خارج المدينة ثانية كانوا كذلك لا يزالون يشقون طريقهم بصعوبة بسبب دهماء الناس الذين كانوا يسيرون في نفس طريقهم. وكانت واجهة الجبل المظلمة التي تشرف عليهم يتخللها هنا وهناك أقباس من النور تسير وئيدة مصعدة فوق الجبل، وكانت تلك الأنوار صادرة من مشاعل أهل المدينة الذين صعدوا مبكرين، ووصلوا إلى الجبانة لوضع تلك الأنوار هناك أمام تماثيل أمواتهم ومقابرهم. وأما الحراس فإنهم صعدوا إلى مقبرة «زفاي حعبي» كما فعلوا الليلة المنصرمة، وسلموا المشاعل والخبز الأبيض لكاهن «زفاي حعبي» الذي كان في انتظارهم.

وهكذا يشترك ذلك الشريف المُتوفَّى وأولاده ورعاياه الأحياء في الاحتفال بأعياد رأس السنة، وخلافًا لتلك الأعياد وغيرها من الأعياد العظيمة التي كان يتمتع بها المُتوفَّى بتلك الكيفية فإنه لم ينسَ في أي عيد من الأعياد الرسمية الصغيرة التي كان يحتفل بها في أول كل يوم من الشهر وفي منتصف الشهر، أو في أي يوم من الأيام المحتفَل بها. وأما حاجاته اليومية فكان يقوم بها طائفة خارجة عن هيئة الكهنة تخدمه بالتناوب بمعبد «أنوبيس»؛ لأن ذلك المعبد كان على مقربة من الجبانة، فكان أولئك الخدم يذهبون في كل يوم بعد الفراغ من تأدية أعمالهم في المعبد حاملين نصيبًا من الخبز، وإناء مملوءًا بالجعة ويضعونها أمام تمثال «زفاي حعبي» الذي يكون منصوبًا فوق السلم السفلي لقبره، وعلى ذلك كان لا يمضي يوم واحد من أيام السنة لا يتسلم فيه «زفاي حعبي» ما يلزمه من الطعام والشراب. هذه صفحة من الحياة المصرية من الناحية الدينية والاجتماعية تركها لنا «زفاي حعبي» في قبره في مصر، وإن مثل تلك المعتقدات والعادات لتدل على شدة استمرار تعلق قدماء المصريين بتلك الأعمال المادية الخاصة بالحياة في

عالم الآخرة التي هي الضمان الوثيق لاستمرار بقاء جثمان المُتوفَّى بعد الموت، بالرغم مما ظهر من الأفكار التي ألقت ضوءًا جديدًا على ضرورة التحلي بالأخلاق العظيمة استعدادًا لاستقبال الحياة الآخرة فيما بعد الموت.

على أن استمرار إمداد ذلكم الشريف المُتوفَّى بمثل هذا العتاد المادي الذي قدمنا وصفه إلى الأبد، كان من غير شك متخيلًا؛ ولذلك قال «خنوم حتب» أحد الأمراء الإقطاعيين في مقاطعة الغزال فيما يختص بأوقافه الجنازية: أما فيما يختص بالكاهن أو بأي شخص آخر يعبث بها فإنه لن يستمر بعد، وكذلك ابنه لن يستمر بعده في هذا المكان (أي لن يبقى مشرفًا على حراسة مقبرته) فيظهر من خوف ذلك الشريف المذكور من عدم دوام تقديم القرابين له بعد الموت، ومثل هذه المخاوف كانت منتشرة يكثر ذكرها في الوثائق التي من هذا النوع. هذا؛ وقد شاهدنا أن «زفاي حعبي» أمير «سيوط» كان يبدي مخاوفه من إحجام الخلف عن تقديم القربان اللازم للحياة الآخرة، وليس هذا بغريب، فنحن أبناء هذا العصر الحديث لا يكاد يدفعنا البر نحو الاهتمام بأي قبر من قبور أجدادنا الذين رحلوا عنا إلى الحياة الآخرة منذ زمن بعيد نسبيًّا، بل في بعض الأحيان لا نكاد نعرف أين دُفنوا بالضبط، فضلًا عن مواقع مقابرهم.

وقد كان كهنة «أنوبيس» و«وبوات» وحراس الجبانة في «سيوط» يؤدون واجباتهم ما دام كاهن «زفاي حعبي» الجنازي يتسلم مرتباته، وما دام مخلصًا في القيام بالتزاماته، بأن يذكرهم بالقيام بما عليهم من الواجبات وأن يلاحظ تنفيذها.

ونحن نعلم تمام العلم أن مثل هذه الأوقاف كانت تستمر نافذة المفعول إلى ما بعد تغير الأسرة نفسها، وكانت تمكث على أقل تقدير حوالي ثلاثين أو أربعين سنة في منتصف القرن الثامن والثلاثين قبل الميلاد.

(٣) احترام مقابر الأجداد في هذا العصر

وفي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد نجد أنه كان هناك احترام كبير في مصر العليا لأجداد الدولة القديمة؛ إذ ذاك، فقد قام حكام مقاطعة «البرشة»؛ أي المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي في القرن التاسع عشر والعشرين ق.م، بإصلاح مقابر أجدادهم التي يرجع عهدها إلى عصر الأهرام، وكذلك المعبد أو المزار الذي كشف عنه في «أسوان» وهو الذي أصلحه «سرنبوت» ويرجع عهده إلى الدولة القديمة وهو «لحقا اب».

وكذلك نجد أنه في عهد ملوك الدولة الوسطى كان الملوك قد حافظوا على إقامة الشعائر في معابد بعض ملوك الدولة القديمة، فقد عثرنا فعلًا على تمثال جالس من الحجر الرملي الصلب بالقرب من «بو الهول» وقد نقش على حجره الدعاء التالي:

> قربان يقربه الملك و«بتاح سكر» و«أوزير» سيد «شتيت» و«أونوبيس» الذي يقطن في جبله، والذي في لفائفه رب الأرض المقدسة (ليعطوا) ألفًا من الخبز والجعة والخمر والبقر والإوز والملابس إلى روح الكاهن «سخمت حتب» الذي وضعته «سان أميني».

في معبد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر أركارع» الصادق القول، وهذا دليل قاطع على أن معبد هذا الإله كان موجودًا في هذا العصر في جهة «بوصير».

وهذه المقابر والمزارات كان قد مضى عليها حينئذ أكثر من ٦٠٠ سنة، وكانت متداعية مشرفة على العفاء والخراب، وقد اعتاد الحاكم البار لكل مقاطعة أن يسجل ما يقوم به من الإصلاحات بالكلمات التالية:

> إنه (يعني حاكم المقاطعة)، قد عملها بصفتها أثرًا للأجداد الذين في الجبانة، وهم أرباب هذا المرتفع، فأصلح ما قد وجده مخرَّبًا، وجدَّد ما قد وجده مهدَّمًا، ولم يقُم الأجداد الذين كانوا من قبله بذلك.» ثم نجد أن أشراف هذه المقاطعة قد استعملوا تلك الصيغة في مقابر أجدادهم خمس مرات، كما نجد أن «أنتف» أمير «أرمنت» قد اتبع نفس هذه الطريقة حيث يقول: «لقد وجدت مزار الأمير «نخت بوكر» آل إلى الدمار، فجدرانه قديمة وتماثيله محطمة، ولم يعتنِ به أي إنسان؛ فبنيته من جديد، وزدت في بنائه، وجدَّدت تماثيله، وأقمت أبوابه بالحجر حتى يصبح مكانه ممتازًا عن أماكن الأمراء العظام الآخرين.

وكان القيام بمثل هذا البر للأجداد الراحلين نادرًا جدًّا، ومع ذلك فإن القيام بمثل هذه الأعمال التي ذكرناها لم تكن لها فائدة، إلا أن تؤخر مئونة وقوع اليوم المشئوم الذي تزول فيه تلك الآثار الجميلة، والمدهش في ذلك أنهم كانوا مع وجود مقابر أجدادهم مخرَّبة أمامهم وأحيانًا يخرِّبونها بأيديهم، لا يزالون يقيمون لأنفسهم الأضرحة التي كان لا بد أن تلقى محتوياتها نفس المصير من النهب والسلب والنسيان المطلق، ولا أدل على ذلك مما نشاهده في قبر «خنوم حتب» الذي يعد أكبر القبور التي تركها لنا أمراء

مقاطعة الغزال «بني حسن»؛ إذ نجد بين الرسوم الملونة الجميلة التي على جدرانها كتابات قد حُشرت حشرًا بين الكتابات القديمة الأصلية يرجع تاريخها إلى ١٢٠ جيلًا من الناس. وقد خطها كاتبوها على عجل باللغة المصرية القديمة، وكذلك باللغة القبطية والعربية والفرنسية، والإيطالية والإنجليزية.

وأقدم هذه الكتابات كانت لكاتب مصري قديم دخل هذا المزار المذكور منذ ٣٠٠٠ سنة مضت، وقد كتبها باليراع بمداد أحمر فوق الجدار وهذا نصها:

> لقد حضر الكاتب «أمين سي» ليرى معبد «خوفو» وقد وجده كالسماء يسطع فيها النجوم.

وهذه العبارة كانت قد كُتبت هنا بعد أن مضى على بناء المقبرة نحو ٧٠٠ سنة من زيارته، فنرى من ذلك أنه على الرغم من أن صاحبه الأمير «خنوم حتب» كان من أعظم أمراء عصره فإن ذلك الزائر على ما يظهر قد نسي كل شيء من أمره؛ ولذلك فإنه لما وجد اسم «خوفو»، قد كُتب عرضًا فوق الجدار في سياق نقش جغرافي، ظن خطأً أن ذلك المزار هو مزار الملك «خوفو» باني الهرم الأكبر في جبانة «الجيزة». وهذا الحادث يدل دلالة واضحة على أن كل معرفة بهذا الأمير العظيم قد اختفت، وبالطبع كانت أوقافه الجنازية التي كانت تمده في عالم الآخرة قد أصبحت في زوايا النسيان التام، وذلك بالرغم من تلك الاحتياطات التي قام بتسجيلها فوق جدران قبره؛ ولذلك فإن اللعنات التي كانت تُكتب على جدران المقابر لتضر بمن يعبث بها كانت تافهة ولا فائدة منها، وقليلة الجدوى. وقد حاول المصري القديم أن يجد علاجًا يضمن به المُتوفَّى سعادة خالدة، فقام بنقش صلوات وأدعية فوق واجهة قبره كان يعتقد أنها ذات تأثير في إمدادها للمتوفى في الآخرة بكل ما يحتاج إليه فيها، فيضمن لنفسه بذلك الحصول على السعادة في الآخرة؛ فكان لذلك يستحلف كل من يمر على قبره أن يقدم الاحترام له؛ بأن يتلو على قبره تلك الأدعية المنقوشة «أنتم يا من تمرون بهذا القبر بقدر ما تحبون الحياة وتكرهون الموت، وترغبون في أن يحبكم آلهة مدنكم، ويكافئوكم، وبقدر ما ترغبون في أن يرث أولادكم مكانتكم: قولوا قربانًا ملكيًّا من الأطعمة والملابس والزينة … إلخ إلى فلان.» وتلك الأدعية توضح لنا الاعتقاد في مقدار ما كان لتلك الكلمات من التأثير الفعال، حينما كانت تُقرأ من أجل المتوفى. وقد انتشرت أمثال تلك الصيغ الدينية انتشارًا عظيمًا منذ عصر الأهرام، فكان ذلك تدرجًا يسير مع تعميم هذه العادات الجنازية التي كانت وقتئذ خاصة بالطبقة

العليا من الشعب فصارت إذ ذاك حقًّا للطبقة المتوسطة وبطائفة الموظفين على السواء. وكان مثل تلك الصيغ الدينية في عهد الأهرام ينحصر استعماله في عهود الأهرام المتأخرة فقط، وكانت هذه الصيغ خاصة بمصير الفرعون في عالم الآخرة، ولكن صارت الطبقة الوسطى مع طائفة الموظفين يستعملونها بكثرة.

(٤) ظهور متون التوابيت

ونجد كذلك في الوقت نفسه أنه ظهر في عالم الوجود طائفة أخرى من «الأدب الجنازي» وهو ما يسميه علماء الآثار «متون التوابيت» وهي صيغ مشابهة لسابقتها وتتحد معها كل الاتحاد في القيام بوظيفتها، غير أنها كانت أكثر ملائمة لحاجات الإنسان العادي من أي شخص آخر من الطبقات العالية؛ ولذلك كان كل دهماء الشعب يستعملونها في ذلك الوقت؛ أي في العهد الإقطاعي. وقد كان ما يسمى «كتاب الموتى» الذي جاء فيما بعد مؤلفًا من منتخبات أُخذت من «متون التوابيت»، وهذه كانت في الواقع تتألف من مقتبسات كثيرة أخذت من «متون الأهرام»، وكانت تكتب في هذا العصر على أوجه التوابيت الداخلية المصنوعة من خشب الأرز. ولا يزال عدد تلك المتون الجنازية آخذًا في الازدياد؛ إذ تكشف الآن توابيت جديدة من ذلك العصر تضاف متونها إلى المجموعة التي وُجدت من قبل. وكان كهنة كل بلدة يمدون كل صانع محلي لهذه التوابيت بنسخ من تلك المتون أو التعاويذ، وكان الكُتاب المختصون بملاحظة صانع التابوت قبل تركيب قطعه يملئون أوجهه بالكتابة بالقلم والمداد، وذلك بتدوين نسخ من هذه المتون.

وكانت كلها تدوَّن بدون اعتناء وعدم دقة؛ إذ كان مجهود الكُتاب إذ ذاك منصرفًا إلى ملء تلك الألواح المؤلفة لأوجه التابوت بالكتابة بأسرع ما يمكن؛ حتى إنهم كانوا في بعض الأحيان يكررون كتابة الفصل الواحد مرتين أو ثلاث مرات فوق نفس التابوت الواحد، وقد وجدنا الفصل الواحد قد كتب ما لا يقل عن خمس مرات فوق تابوت[٦] بعينه

[٦] إن متون التوابيت هذه يتألف منها أعظم وأكبر مجموعة من المصادر الدينية المصرية التي بُدئ في نشرها الآن، وقد ظهر جزءان فعلًا. ويوجد من هذه التوابيت مائة بالمتحف المصري، وهذا خلافًا لما يوجد في المتاحف الأوروبية والأمريكية، ومجموعها كلها ١٣٨ تابوتًا. وفي عام ١٩٢١ أخذ معهد جامعة «شيكاجو» الشرقي على عاتقه إنقاذ هذه المجموعة الضخمة من الأدب الديني المصري من الضياع فهو

(انظر شكل ١ [الحياة الدينية في عهد الدولة الوسطى]) وقد لا يكون ذلك إهمالًا من الكاتب أو مجرد ملء الفراغ الذي أمامه بالكتابة، بل يكون ذلك التكرار مقصودًا؛ وذلك لأجل أن يضمن بقاء صيغة من هذه الصيغ إذا ضاعت أو هُشمت الأخرى.

أما فيما يختص بالجزء الذي اتحدت فيه «متون التوابيت» هذه مع «متون الأهرام»، فإنا قد ألفنا وظيفتها ومحتوياتها؛ وذلك لأن عالم الآخرة الذي كان يتطلع إليه أهل هذا العهد الإقطاعي كان لا يزال إلى درجة عظيمة عالمًا سماويًّا وشمسيًّا كما كان في عصر الأهرام؛ أي إن عبادة الإله «رع» كانت العبادة السائدة في ذلك الوقت، ولهذا فإن «متون التوابيت» تكشف لنا عن السيادة المدهشة التي كانت لتلك الآخرة السماوية؛ إذ نجد نفس توحيد المُتوفَّى مع إله الشمس كالذي وجدناه في متون الأهرام.

فمثلًا يوجد فصل عنوانه «صيرورة المُتوفَّى رع آتوم» (Lacau, Ibid, P. 100).

ثم عدة فصول أخرى عنوانها «صيرورة المُتوفَّى صقرًا» (Lacau, Ibid, P. 37) وهو الطائر المقدس الممثل لإله الشمس.

وعلى أية حال فإن اللاهوت الأوزيري الذي كان قد أخذ في الانتشار بصفة واضحة منذ الأسرة الخامسة قد تدخل في «متون التوابيت» بل في الواقع استولى عليها كما تدخل كذلك في «متون الأهرام» بالضبط، وأحسن مثال لذلك هو المتن الذي صار فيما بعد جزءًا من «كتاب الموتى» باسم الفصل السابع عشر،[٧] وقد أصبح في العهد الإقطاعي الذي نحن بصدده من الفصول المحبوبة؛ إذ نجده يتقدَّم على كل المتون الأخرى المكتوبة على عدة من التوابيت، وهو في جملته يعبر عن توحيد المُتوفَّى مع إله الشمس ولو كان يظهر معه بعض الآلهة الآخرين أيضًا.

الآن يقوم بنشرها تباعًا، وقد قام الدكتور «دي بك» بنقل هذه المتون فاستغرق عشر سنين وقد تم نقلها الآن، وهذه النسخ تحتوى على ٣٠٠٠٠ سطر و٦٨٢٥ صفحة من المخطوطات (De Buck, “The Egyptian Coffin Texts”, Vols. I and II).

[٧] Grapow, “Religiose Urkunden”, Sprúch 17.

إذ يقول الرجل المتوفى:

إني «آتوم» وأنا الذي كنت وحيدًا
وإني «رع» عند أول ظهوره
وإني الإله العظيم خالق نفسه
والذي سوى أسماءه ورب الآلهة
والذي لا يدانيه أي إله بين الآلهة
وأمس ملكي وإني أعرف الغد.

وقد عثر على شرح لهذا المتن القديم يرجع تاريخه إلى العهد الإقطاعي، وهذا الشرح كُتب بصفة تعليق على السطر الذي جاءت به عبارة «أمس ملكي» «وإني أعرف الغد» ففسر هذا السطر بقول الشارح: «ذلك هو «أوزير»»، مع أنه من الواضح تمامًا أن هذا النص كان خاصًّا بإله الشمس فقط كما يُفهم من سياق الكلام.

ولقد كان من جراء صبغ تلك المتون بالصبغة الأوزيرية، أن أدخل العالم السفلي الذي كان خاصًّا بأوزير في المتون الشمسية والسماوية، وبهذه الكيفية لم يكن لدينا في متون التوابيت مجموعة المعتقدات الشمسية والأوزيرية وحسب، وهي التي امتزج بعضها بالبعض الآخر بحالة أتم وأكثر مما كانت عليه من قبل، بل كانت النتيجة أن «رع» إله الشمس قد حشر الآن في عالم الآخرة السفلي الخاص «بأوزير»، وعلى ذلك يمكن عرض الحوادث في ذلك الصدد بصورة تشعر بشيء من المبالغة إذا قلنا إن «أوزير» في «متون الأهرام» قد رفع إلى السماء في حين أننا نجد أنه في «متون التوابيت» و«كتاب الموتى» قد أنزل «رع» من مقره السماوي إلى الأرض، ولكن الارتباك «اللاهوتي» الذي نتج عن ذلك كان أدهى وأمرَّ مما جاء في متون الأهرام؛ فقد تم الامتزاج بين المصير السماوي المتألق الفاخر وبين عالم آخر مظلم واقع في ظلمات العالم السفلي، وبجانب ذلك مثوى سماوي.

وإنه لمن الأمور الصعبة أن يكوِّن الإنسان أية فكرة متصلة الحلقات عن الحياة في عالم الآخرة التي كان يأمل أهل ذلك العصر الوصول إليها؛ إذ نجد الصورة الشمسية الأوزيرية المركبة وهي التي ذُكرت في متون الأهرام، وفيها قد أرخى أولئك الكهنة الذين ترجع إليهم كل الارتباكات التي نجدها في «متون التوابيت» لخيالهم العنان يجول كيف يشاء.

فالمتوفى المصري القديم الذي كان يشاطره «أوزير» مصيره — وكان كذلك يُسمي «أوزير» ابنه «حور» (ابن أوزير) — يُسمِع نفسه كلمات الخضوع والوعد بالسعادة، الموجهة إليه من ابنه المقدس «حور»، على أن مثل تلك الصور كانت تنتقل فجاءة فتغير امتيازات شمسية كما يأتي هكذا:

> إنك تطوف حول الأقطار مع «رع» فهو يجعلك ترى الأماكن الممتعة، وتجد الأودية مفعمة بالمياه لغسلك وإنعاشك، فإذا أنت تقطف أزهار البطاح ونوار «هني» وزهور السوسن، والزئبق، وتأتي إليك طيور البرك آلافًا جاثمة في طريقك، وعندما ترمي مقمعك لصيدها يسقط منها ألف برنين صوته وتشمل الإوز، والعصفور الأخضر والسمان، وطيور «كونست»، وقد أمرت بأن يؤتى إليك بالغزلان الصغيرة والعجول البيض، وأمرت بأن يحضر إليك الجَدَّاء والكباش المسمنة بالحبوب، وقد ربطت لك سلم السماء، والإلهة «نوت» تفتح لك ذراعيها، وإذا أنت تسبح بسفينتك في بحيرة الزئبق.

ففي هذا المتن نشاهد المُتوفَّى يصطاد في الأودية والبطاح؛ وهي التسلية المحببة إلى الفرعون وأشرافه، ولكنا نلاحظ أن المؤلف ينتقل فجاءة إلى بحيرة علوية في عالم السماء.

ومع أن ذلك المصير الذي نجده خاصًّا بالملوك في كل الصيغ التي جاءت بها متون الأهرام قد صار الآن على هذا النحو من نصيب كل إنسان من الشعب، فإن الحياة التي كانت أبسط من تلك التي وصفناها، وهي التي كان الفرد المتواضع يعيش فيها ويصبو إلى دوام استمرارها معه في عالم الآخرة فيما بعد الموت؛ كان يلحظ وجودها كذلك أيضًا في متون التوابيت. فكان المُتوفَّى حيثما يكون وضعه في التابوت يمكنه أن يقرأ تعويذة خاصة، ببناء بيت لرجل[٨] في العالم السفلي، وحفر بركة لحديقة، وغرس أشجار فاكهة. وعندما كان المُتوفَّى يصير صاحب بيت تحيط به الحديقة والبركة حولها الأشجار الوارفة، فإنه كان يحب أن يضمن استيطانه فيه، ومن ثم كان لا بد له من فصل يتضمن وجود الرجل في بيته،[٩] غير أن سكناه هذا البيت منفردًا من غير مرافقة أسرته وأصحابه كانت

---

٨ Lacau, “T. R.” LVII, P. 114.

٩ Ibid, XXXIV; P. 84.

فكرة لا يمكن احتمال وجودها؛ ومن ثم كان يوجد كذلك فصل آخر لذلك عنوانه «ختم[١٠] مرسوم خاص بالأسرة وإعطاء الرجل أهل بيته في العالم السفلي.» ونجد في المتن الخاص بهذا الفصل أن تفاصيل المرسوم قد عُينت خمس مرات مختلفة في أشكال مختلفة، فنجد «أن الإله «جب» إله الأرض قد قرر بأن أهل بيتي يعطون إليَّ وهم أولادي وإخوتي ووالدي ووالدتي وعبيدي وكل عقاري.» وخشية أن ينتزعها منه أي شيطان رجيم نجد الفقرة الثانية من هذا الفصل تؤكد «أن «جب» قد قال إنه سيطلق لي في الحال سراح أهل بيتي أي أطفالي وإخوتي وأخواتي ووالدي ووالدتي وكل عبيدي وعقاري ناجين من كل إله ومن كل إلهة ومن كل متوفى (غيره) أو أي إنسان ميت غيره»، ولضمان تنفيذ ما جاء بهذا المرسوم كان يوجد فصل آخر أيضًا عنوانه «ضم[١١] أهل بيت الرجل في العالم السفلي.

وبهذا الفصل كان يتم اجتماع شمل أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم وكل ما يملكه الرجل ليكون معه في العالم السفلي، مع أن فكرة إعادة بيت الرجل وأهل بيته إليه في عالم الآخرة كانت تتضمن الاعتقاد القديم بضرورة تقديم الطعام باستمرار إلى المتوفى، ومن ثم كان يوجد فصل آخر لذلك عنوانه «فصل[١٢] في أكل الخبز في العالم السفلي»، أو أكل الخبز على مائدة «رع» وبذل الرخاء في «هليوبوليس»، ويظهر لنا في الفصل الذي يلي هذا الفصل مباشرة في متون التوابيت كيف «أن القاعد يقعد ليأكل الخبز عندما يقعد «رع» ليأكل الخبز أيضًا، أعطني خبزًا عندما أكون جائعًا، وأعطني جعة عندما أكون عطشان.» وقد ظهر لنا في متون التوابيت هذه اتجاه ظاهر جدًّا سنراه بعد، وقد انتشر انتشارًا تامًّا بحسب الغرض الذي قصد منه، وهذا الاتجاه ينحصر كذلك في أن عالم الآخرة هو مكان الأخطار والمشاق التي لا عدد لها، وأن معظم تلك الأخطار مادية، وإن كانت في بعض الأحيان خاصة بتأهيل المُتوفَّى وإعداده إعدادًا عقليًّا. وكان السلاح الذي يستعمل للنجاة من تلك الأخطار والمشاق يعد أضمن الوسائل التي يمكن الحصول عليها لحماية المتوفى؛ وذلك بتمكن المُتوفَّى من بعض القوى السحرية التي كانت في العادة رقية خاصة تتلى عند

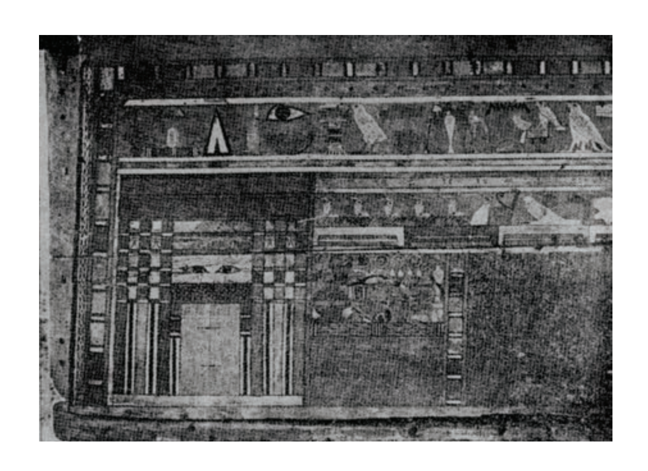
---

[١٠] Ibid, LXXII, P. 116.

[١١] Lacau, “T. R.” II, P. 9.

[١٢] Ibid, III, P. 15.

اللحظة الحرجة، وقد تحوَّل هذا الاتجاه الفكري بعد ذلك فصار «متون التوابيت» ثم صار في النهاية «كتاب الموتى» الذي جعل من هذه المتون مجموعة من التعاويذ تزداد على مر الأيام، وكانت تعتبر في نظر القوم لا محالة ذات أثر فعال في حماية المتوفى، أو تضمن له في الحياة الأخروية الحصول على أي نعيم كان يحبه في الحياة الدنيا (Lacau, "T. R.", LXXVIII, P. 126).



شكل ١: تابوت من الخشب من عهد الدولة الوسطى.

وعلى ذلك كانت توجد تعويذة يصبح بها المُتوفَّى ساحرًا، وهي موجهة إلى الأفراد المنعمين الذين في حضرة «آتوم» إله الشمس، وهذه التعويذة في ذاتها رقية تُختم بالكلمات التالية: «إني ساحر». وخوفًا من فقدان المُتوفَّى قوَّته السحرية كان هناك احتفال يحتوي على وضع رقية سحرية مع المُتوفَّى حتى لا تُنزع منه قواه السحرية حينما يكون في العالم السفلي، مع أن أبسط هذه الأخطار التي من أجلها أُلفت هذه الرقى كان منشؤه من غير شك التخيلات الصبيانية الساذجة التي كان دهماء الشعب يتخيلونها، وكانت تكون في غالب الأحيان سخيفة إلى أقصى حد؛ إذ نجد تعويذة عن منع أخذ رأس الرجل منه، مع أنه يوجد في متون الأهرام الرقية القديمة التي تمنع إجبار المُتوفَّى على أكل براز نفسه (Lacau, "T. R." XXIII, P. 66)، أو شرب بوله. وكان لا بد لجسم الإنسان

من التحلل، ومن ثم كان يوجد لمنع هذا التحلل رقيتان حتى لا يتحلل جسمه في العالم السفلي (Lacau, "T. R." XXV, P. 73)، وقد كان من جراء ثقة الإنسان العمياء بمثل هذه التعاويذ أن صار في يد الكهنة فرصة لا حد لها بما تدره عليهم من الكسب الوفير، وقد كان في مخيلاتهم باضطراد إنتاج التعاويذ الجديدة باستمرار، وقد كانت تباع هذه التعاويذ مثل صكوك الغفران في القرون الوسطى في أوروبا بطبيعة الحال إلى المشترين السذج الذين كان عددهم يزداد على الدوام. وقد ساعدت هذه الوسيلة كثيرًا على ازدياد مخاوف الشعب من أخطار ومشاق الحياة الآخرة، كما ساعدت على نشر الاعتقاد في كفاية مثل هذه الطرق لدرئها. ويجب علينا أن نتعرف عمل أولئك الكهنة، وكان يمثل في صورة كاتب سري اسمه «جيجا» (Lacau, "T. R.", IX, P. 26)، وهو يعد عدوًّا للموتى؛ من أجل ذلك أُلفت رقية خاصة لمساعدة المُتوفَّى على تكسير القلم، وتهشيم أدوات الكتابة، وتمزيق الملفات الخاصة «بجيجا» الشرير.

وكذلك نجد أن الخطر المهدِّد الذي كان يتقَى شره في متون الأهرام هو مهاجمة الثعابين السامة للمتوفين، وكان أهل العهد الإقطاعي كذلك يحبون أن يدرءوا هذا الخطر نفسه عنهم؛ ولذلك كان يوضع مع المُتوفَّى لفافة فيها رقى لأجل دفع الثعبان ودفع التماسيح عنه (Lacau, "T. R.", LXXIII, P. 119)، وفضلًا عن ذلك كانت الطريق الخاصة بالمتوفى معرقلة بالنيران، وكان لا بد له من الهلاك المحتم، إذا لم تكن لديه رقية ليخرج بها من النار أو يتمكن بها من الخروج من النار خلف الإله العظيم.[١٣]

وعندما كان المُتوفَّى يضطر بالفعل إلى الدخول في النار كان في قدرته أن يدخلها في أمان منها بوساطة «تعويذة لدخول النار والخروج من النار خلف السماء.» والواقع أن الكهنة قد رسموا للمتوفى مصورًا للسياحة التي ينتظر أن يقوم بها ليكون مرشدًا له عند باب النار العظيم في المدخل ليريه الطريقين اللتين يمكنه أن يستأنف منهما سيره، وقد كانت إحدى تينك الطريقين برية والأخرى مائية، وكان بينهما بحيرة من نار، وكان هذا المصور ملونًا بالألوان المختلفة على مسطح قعر التابوت من الداخل؛ حيث يكون جثمان المُتوفَّى فوقها؛ إذ إن ذلك المكان هو الملائم لرسم مصور العالم السفلي فيه، وكان مع هذا

[١٣] لقد أصبح من الثابت تقريبًا أن سيدنا «إبراهيم» كان يعيش في هذا العصر؛ أي عصر الدولة الوسطى الذي ظهرت فيه متون التوابيت، وربما كان من معجزات هذا العصر الدخول في النار والخروج منها بالسحر ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (قرآن كريم). (Lacau, "T. R.", XLVIII, P. 95).

المصور دليل سحري أيضًا يسمى «كتاب[١٤] الطريقين» وكان كذلك مكتوبًا فوق رقعة التابوت، على أنه كان يحتمل أن يحدث بالرغم من كل هذه الإرشادات أن المُتوفَّى لسوء حظه قد يجول في مكان إعدام الآلهة، ولكنه كان ينجو من ذلك بتعويذة تسمى «عدم الدخول في مكان إعدام الآلهة».

وخوفًا من أن يُحكم على المُتوفَّى بالمشي منكسًا على رأسه؛ فإنه كان يجهز بتعويذة تمنعه المشي على رأسه منكسًا (Lacau, "Textes Religieux Egyptiens, XLIV, P. 91)، وكان أولئك الموتى التعساء الذين حُكم عليهم بالمشي المنكس أشد أعداء الإنسان في عالم الآخرة؛ ولذلك كانت الحيطة منهم أمرًا ضروريًّا جدًّا؛ إذ يقال للمتوفى: «إن الحياة تأتي إليك ولكن الموت لا يسعى إليك ... وهي «الجوزاء والشعرى ونجم الصباح» تنجيك من حنق الموتى الذين يمشون ورءوسهم إلى أسفل وأنت لست منهم ... استيقظ للحياة فإنك لن تموت، قم للحياة فإنك لن تموت.»

وبهذه الحالة كان الاعتقاد في قوة تأثير السحر آخذًا في الانتشار، وكان بمثابة سلاح لا يخطئ في يد المتوفى، وسنرى في النهاية أن السحر يسود كل المعتقدات الجنازية الأخرى، كما سيكشف لنا ذلك «كتاب الطريقين» الذي دوِّن في هذا العصر ثم «كتاب الموتى» الذي جاء بعد مضي عدة قرون على ذلك العهد الذي نحن بصدده؛ إذ ليس من شك في أن المذهب الأوزيري كان له أثر عظيم في انتشار استعمال هذه الطرق السحرية الجنازية. ولا شك في أن أسطورة «أوزير» التي كانت منتشرة في هذا الزمن انتشارًا عامًّا قد جعلت كل طبقات الشعب يعرفون نفس هذه الطرق التي اتخذتها «إزيس» لإحياء زوجها «أوزير» من الموت، وهي تلك الطرق التي كان يعتقد كل مصري قديم أنها ذات تأثير عظيم في عالم الآخرة، كما كانت ناجعة التأثير بالنسبة إلى «أوزير» من قبل. وبقدر ما كان مذهب «أوزير» قويًّا في عصر الأهرام فإن انتشاره العام الآن في العهد الإقطاعي كذلك قد فاق كل انتشار معروف سبق من قبل؛ إذ نجد فيه ظفر ديانة الشعب التي كانت مناهضة وقتئذ لعبادة «رع» الحكومية، وهي التي كانت تشبه أية كنيسة معترَف بها الآن. وقد كانت سيادة «رع» تعتبر ظفرًا سياسيًّا، أما ظفر ديانة «أوزير» التي كان

[١٤] كتاب الطريقين متون سحرية لم تظهر أولًا إلا في عهد الدولة الوسطى على توابيت من مقاطعة الأشمونين، وسنتكلم عنها في فصل خاص لأهميتها (راجع: Lacau, "Sacrophages Anterieurs au Nouvelle Empire", Vol. I, PP. 189 198, 207–221; Vol. II, PP. 26 ff. Pls. LV, LVII.)

يشد أزرها بلا ريب طائفة من مهرة الكهنة وربما كانوا يقومون لها بدعاية مستمرة وقتئذ؛ فإنه لم يكن في طاقة أية طائفة، ولا طاقة الحكومة، ولا الأشراف مناهضتها؛ وذلك لأن النعم التي كان يقوم بإغداقها المصير الأوزيري في الحياة الآخرة على كل الناس يجعلها ذات جاذبية قوية شاملة لا تناهضها أية جاذبية أخرى منافسة لها، وإذا كانت تلك النعم المذكورة في زمن ما قاصرة على الفرعون وحده كما كان المصير الشمسي في متون الأهرام قاصرًا عليه، فإننا قد شاهدنا أنه حتى الآخرة الشمسية الملكية قد صارت الآن من حق الجميع يستوي فيها الفرعون مع بقية أفراد الشعب.

(٥) الحج إلى بيت أوزير

ومن بين القبور المحترمة التي يرجع تاريخها إلى عهد الأسرات الأولى في «العرابة المدفونة» قبر كان يعتبره القوم في ذلك الوقت قبر «أوزير» وقد صار بسرعة المقام المقدس في القطر المصري، فكانت تحج إليه كل طبقات الشعب. وكانت أعظم البركات التي ينالها الإنسان هي أن يُدفن بجوار ذلك القبر المقدس؛ ولذلك كان كثير من الموظفين عند قيامهم بمأمورية رسمية، أو رسالة في هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هناك، وإذا تعذر عليه بناء قبر حقيقي كان يقيم الإنسان لنفسه مقبرة وهمية على الأقل، ويكتب عليها اسمه وأسماء باقي أفراد أسرته وأقاربه، وإذا تعذر ذلك أيضًا أقام لنفسه لوحة تذكارية ينقش عليها أدعية للإله «أوزير» العظيم خاصة بالزائر وأسرته، وقد فعل مثل ذلك كثير من الحجاج والزوار من الموظفين لهذه البقعة المقدسة؛ ولذلك يقول موظف من عهد الفرعون «سنوسرت الأول»: «لقد أقمت هذا القبر عند طريق سلم الإله العظيم لأكون من أتباعه، والجنود الذين يأتون في ركاب جلالته يقدمون إلى روحي «كا» من خبزه ومئونته، كما يفعل ذلك كل رسول ملكي يأتي للتفتيش على حدود جلالته.»

وكان داخل سور معبد الإله «أوزير» وما يجاوره مزدحمًا بتلك اللوحات التذكارية، وهي كما نجدها اليوم تؤلف جزءًا هامًّا من المصادر التي يصح الاعتماد عليها في تدوين تاريخ ذلك العصر من الوجهات السياسية والاجتماعية والدينية.

(٦) زيارة جثمان المُتوفَّى «العرابة المدفونة»

وقد كان في قدرة كل واحد من حكام المقاطعات القوية أن يُحمل جثمانه إلى العرابة المدفونة بعد وفاته لتقام له شعائر خاصة هناك، ثم يجلب معه بعض التذكارات المقدسة لتوضع معه في قبره المقام له في مقاطعته، كما يحمل المسلمون معهم الآن الماء من «بئر زمزم» إلى أوطانهم، وكما كانت تحمل السيدات الرومانيات المياه المقدسة من معبد «إزيس» «بالفيلة» إلى حيث يتبركون بها في الجهات البعيدة عنها. وقد رسم «خنوم حتب»[١٥] فوق جدران مزار قبره «ببني حسن» هذه السياحة في النيل، وفي ذلك المنظر نرى جسمه المحنط محمولًا في قارب جنازي صاعدًا في سيره نحو الجنوب، وخلفه الكهنة والمرتلون، وتسمى هذه النقوش «السياحة صعودًا في النهر لمعرفة أشياء العرابة»، ويوجد مع هذا المنظر منظر آخر يظهر فيه سياحة المُتوفَّى منحدرًا مع التيار في النهر، وقد فُسر بالكلمات الآتية: العودة محملين بأشياء «العرابة»، ولا ندري كنه هذه الأشياء المقدسة بالضبط، ولا سبيل لدينا للآن لمعرفتها، غير أنه من الواضح أن الغرض من تلك الزيارة الخاصة بالإله العظيم في العرابة المدفونة هو أن يقدم المُتوفَّى نفسه شخصيًّا للإله العظيم، وبتلك الكيفية يضمن لنفسه عطف الإله في الحياة الأخرى.[١٦]

وهكذا كان الزوَّار الذين يأتون إلى «العرابة المدفونة» قبل الوفاة وبعده يحملون معهم القرابين التذكارية، وهي التي يعثر عليها خلال أعمال الحفر الآن مدفونة على بُعد عميق تحت كومة عظيمة من الفخار المهشم ومعها كثير غيرها من الهدايا الأخرى التي تركها هناك الحجاج، الذين وفدوا على هذا المكان المقدس مدة آلاف السنين، ولا بد أنه

---

[١٥] Newberry, B. H., Vol. I, Pl. XXIX.

[١٦] والواقع أن هذين المنظرين قد رُسما ليوضحا لنا السياحة للعرابة المدفونة، وواضح من النقوش «السياحة صعودًا في النهر والعودة»، ومن المناظر المرسومة نفسها أن السياحة إلى «العرابة» والعودة منها هي التي مثلت، فالسفينة الصاعدة إلى أعالي النيل؛ أي ضد التيار نشاهد شراعها منتشرًا بهيئة توحي بذلك، على حين أن السفينة الأخرى التي للعودة يشاهد أن ساريتها قد أُزيلت من مكانها كما جرت العادة عند السير مع التيار في أيامنا هذه، وفضلًا عن ذلك فإن كلتا السفينتين تشاهَد فعلًا في الرسم الذي على جدران القبر المذكور، واحدة منها ذاهبة إلى «العرابة» والأخرى عائدة منها. على أن هذا الرسم للعودة والذهاب لا يقتصر على هذا المنظر فقط، بل نجد ما يماثله في سفن الملكة «حتشبسوت» المرسومة على جدران معبد الدير البحري ذاهبة إلى بلاد «بنت» وآتية منها.

كان يجتمع هناك الجم الغفير من أولئك الحجاج الزائرين لذلك المقام المقدس بالقطر المصري في كل العصور، وبخاصة في ذلك الموسم الذي كانت تمثل فيه حوادث أسطورة الإله في شكل مسرحي يمكننا أن نسميها بحق مسرحية الآلام أو المأساة.

مسرحية آلام أوزير

وبالرغم من أن تلك المسرحية قد فُقدت تمامًا فإن لدينا لوحة «إخرنوفرت» التذكارية المحفوظة الآن بمتحف برلين تمدنا الملخص الذي يمكننا به أن نستخلص، ولو على أقل تقدير عناوين أهم فصول المسرحية المذكورة. ولا نزاع في أن هذه المسرحية قد مثلت أهم الحوادث الواردة في أسطورة «أوزير» وقد كان «إخرنوفرت» ضابطًا من ضباط الملك «سنوسرت الثالث»، وكان قد أرسله ليقوم ببعض الإصلاحات في معبد «أوزير» «بالعرابة المدفونة»، وقد ذكر في لوحته الأمر الملكي، ثم ذكر لنا بعد ذلك كيفية تنفيذه.

وهاك ما جاء في هذه اللوحة العظيمة بعد ذكر مقدمة لا داعي لنقلها هنا: (Breasted, A. R., Vol. 1, Par. 661) «أمر ملكي للأمير الوراثي، والحاكم، وحامل الخاتم الملكي، والسمير الوحيد، وسيد بيتي الذهب، وسيد بيتي الفضة، ووزير المالية، «إخرنوفرت» المعظم، أمر جلالتي أن تذهب إلى «العرابة المدفونة» لتقيم آثارًا لوالدي، «أوزير أول أهل الغرب»؛ وذلك لتزيين مكانه السري بالذهب، الذي أمر جلالتي أن أحضره من «النوبة» العليا فائزًا منتصرًا. انظر! إنك ستعمل ذلك قربانًا لإرضاء والدي «أوزير»، ومنذ أن أرسلتك جلالتي فإن قلبي متأكد بأنك ستقوم بعمل كل شيء حسب رغبة جلالتي، ولقد كنت ممن درَّبتهم جلالتي، وتعليمك منحصر في القصر، وعينتك جلالتي عندما كنت لا تزال حدث السن في السادسة والعشرين من عمرك، وقد عمل جلالتي هذا؛ لأني رأيت أنك رجل ممتاز في أخلاقه، سلط اللسان منذ نشأتك، وملم بالكلام. وقد أرسلتك جلالتي لتقوم بهذا؛ لأن جلالتي قد عرف أنه ليس هناك فرد آخر يعملها ويحرز صفاتك الحسنة، فأسرع في الذهاب، وافعل حسب كل ما أمر به جلالتي.»

ثم يتلو ذلك ما قاله وزير المالية إطاعة للأمر.

«لقد نفذت التعليمات حسب كل ما أمر جلالته، فزينت كل ما أمر به سيدي، من أجل والده «أوزير أول أهل الغرب» ورب «العرابة» العظيم، المهيمن، الواحد القاطن في «طينة» ولقد أنبت عنه بوصفي «ابنًا يحبه» (أي بدل الملك) لأجل «أوزير» أول أهل الغرب، وزينت «القبر» العظيم إلى أبد الآبدين، وصنعت له محفة (سميتها) «حاملة جمال

أول أهل الغرب» من الذهب والفضة واللازورد، والخشب والعطر والخشب الخرنوب، وخشب المرو. وكذلك صنعت آلهة تاسوعه المقدس، وعملت لها مقاصير جديدة، وجعلت كل كاهن غير محترف يقوم بواجباته، وجعلتهم يعرفون شعائر كل يوم، وأعياد أوائل الفصول، وأشرفت على صنع القارب المقدس، وصنعت مقصورته، ورصعت جسم رب «العرابة» باللازورد والفيروز، والذهب وكل الأحجار الثمينة، وذلك بين الحلي التي كانت من قبل على أعضاء الإله (تمثاله)، وألبست الإله ثوبه بحكم وظيفتي رئيسًا للأشياء السرية وقيامًا بواجبي بصفتي كاهنًا، وكنت طاهر اليد نظيفها عند تزيين الإله، وكاهنًا نظيف الأصابع.

ولا نزاع في أن كل ما ذكر مفيد جدًّا؛ لأنه يكشف لنا عن بعض الشعائر الخاصة بعبادة الإله «أوزير»، وبعد ذلك يقص علينا طورًا فريدًا من أطوار حياة الإله «أوزير» خاصًّا بإحياء ذكرى موته وبعثه في «العرابة» فيقول: احتفلت بطلعة الإله «وبوات»، عندما طلع ليحارب والده، وأقصيت العدو من القارب المقدس وهزمت أعداء «أوزير»، واحتفلت بالطلعة العظيمة مقتفيًا الإله عند ذهابه، وجعلت القارب المقدس للإله «تحوت» يجري على «البحيرة المقدسة»، وجهزت القارب مضيئًا حقًّا لرب «العرابة» بمقصورته، وألبسته حلته عندما خرج ذاهبًا إلى القرية (الجبانة الملكية)، وقدت طريق الإله إلى قبره أمام «بقر» ونازلت «نفر»؛ أي «أوزير» في يوم الشجار العظيم، وذبحت كل الأعداء على شاطئ ماء «نديت» وحملته إلى القارب المسمى العظيم عندما كان يحمل جماله، وأدخلت السرور على قلب المرتفعات الشرقية، وأوجدت الانشراح في المرتفعات الغربية، ولما رأوا جمال القارب المقدس عندما رسا في «العرابة المدفونة»، أحضروا «أوزير أول أهل الغرب»، ورب «العرابة المدفونة» إلى قصره، ومشوا خلف الإله حتى بيته ليحتفلوا بشعائره عندما يعود إلى مسكنه، وحللت عقدة (المقصورة) في وسط أتباعه وبين حاشيته.

وقد تبين لنا من هذه العناوين المدونة بتلك اللوحة التذكارية عن المسرحية المذكورة أنه كان لا بد من أن يستمر تمثيلها عدة أيام، وأنه كان من الجائز أن يستمر تمثيل كل فصل من فصولها الهامة على أقل تقدير يومًا كاملًا، وأن الجمهور كان يشترك في كثير مما كان يحدث فيها، وإننا ندرك من ذلك المختصر المدَّون على لوحة «إخرنوفرت» أن تلك الرواية كانت ذات فصول ثمانية.

فالفصل الأول يكشف لنا عن ذلك الإله الجنازي القديم «وبوات» خارجًا في موكب ليشتت أعداء «أوزير» ويفتح له الطريق (ومن ثم اشتق هذا الاسم).

وفي الفصل الثاني يظهر «أوزير» نفسه في قاربه المقدس الذي ينزل فيه بعض الحجاج ومنهم «إخرنوفرت» كما يقص ذلك علينا في نقوش لوحته التذكارية بزهو وافتخار، وكان «إخرنوفرت» هذا يساعد «أوزير» في صد الأعداء الذين يعرقلون سير القارب، ولا شك في أنه كانت تحدث بين الجمهور؛ إذ ذاك معركة عامة كالتي شاهدها «هرودوت» في بابريمبس، بعد ذلك الحادث بألف وخمسمائة سنة — فكان بعضهم يقوم بحماية الإله في القارب، بينما يمثل الآخرون دور أعدائه المزدحمين في خارج القارب برءوسهم المهشمة في زهو من أجل ذلك الاحتفال.

ويلحظ هنا أن «إخرنوفرت» هذا قد مر على موضوع قتل الإله مر الكرام دون أن يذكر شيئًا من ذلك، كأن ذلك في نظره موضوع مقدس لا يصح وصفه.

وقد ذكر لنا فقط أنه قام بتنظيم «الموكب العظيم» للإله، وهو احتفال مظفر نوعًا ما عندما لاقى الإله حتفه، وهذا كان موضوع الفصل الثالث.

وفي الفصل الرابع: يخرج «تحوت» رب الحكمة، ولا شك أنه مجدَّ الجثة، وإن كان ذلك لم يرِد ذكره. ويتألف الفصل الخامس: من الاحتفالات المقدسة التي يجهز الإله بوساطتها للتحنيط. في حين أن الفصل السادس: يشاهد الجمهور يسير في زحام عظيم إلى المقام المقدس بالصحراء التي خلف «العرابة المدفونة» حيث يضعون جثمان ذلك الإله الراحل في قبره.

وأما الفصل السابع فلا بد أنه كان مشهدًا رائعًا، فعلى شاطئ (أو ماء) «نديت» القريبة من «العرابة المدفونة» تهزم أعداء «أوزير» بما فيهم الإله «ست» وأتباعه بطبيعة الحال في موقعة عظيمة على يد «حور» بن «أوزير». ولم يذكر لنا «إخرنوفرت» شيئًا عن بعث الإله وقيامه ثانية من بين الأموات.

ولكن في الفصل الثامن نشاهد «أوزير» وقد عاد إلى الحياة يدخل إلى معبد «العرابة المدفونة» في موكب مظفر.

فكان من الواضح إذن من كل ما ذكر أن «المسرحية» المذكورة قد مثلت أهم الحوادث الواردة في أسطورة «أوزير».[١٧]

وقد كان لمثل ذلك العيد الشعبي الكبير مكانة عظيمة في نفوس القوم؛ إذ نشاهد مرارًا وتكرارًا قيام الحجاج بالصلاة للإله العظيم لينالوا بعد الموت حظوة الاشتراك في

[١٧] .Breasted, “Dawn”, PP. 245, 246; M. Kamal, A. S. XXXVIII, p. 272

هذا الاحتفال العظيم، وهذا يماثل بالضبط ما رتبه «زفاي حعبي» لنفسه فيما بعد الموت ليشاطر بنصيبه في الاحتفالات بالأعياد في «سيوط».

وهكذا كان لصياغة حوادث أسطورة «أوزير» في شكل مسرحي أثر قوي في نفوس عامة الشعب.

على أن مسرحية مأساة «أوزير» هذه في أي شكل من أشكالها قد استولت على خيال المجتمعات المصرية، فهي بالضبط كما قد وجدها «هرودوت» فيما بعد في «باريمبس»، وكانت؛ إذ ذاك تنتشر من بلدة إلى أخرى لتحوز المكانة الأولى في تقويم الأعياد السنوية؛ وبهذه الكيفية نال «أوزير» مكانة سامية في حياة عامة الشعب وآمالهم لم ينلها إله آخر. وقد كان مصير «أوزير» الملكي الذي صور بهذه الصورة المسرحية الناطقة سببًا في انتشار الاعتقاد بين الشعب، بأن هذا المصير الذي كان في وقت ما (عصر الأهرام) وقفًا على الفرعون فقط قد صار من نصيب كل الناس؛ ولم يكن يلزم لأي شخص كان يريد مثل هذا المصير إلا أن يحصل كما ذكرنا من قبل على نفس العوامل السحرية التي استعملتها «إزيس» لإرجاع الحياة ثانية إلى زوجها الميت وهو «أوزير» المقتول ظلمًا بيد أخيه «ست»، وهذه العوامل تجلب لكل إنسان هذا المصير المبارك الذي ناله هذا الإله العظيم الراحل.

وقد كان محتمًا حدوث مثل ذلك التدرج في تلك العقيدة الجنازية (الشعبية) كما شاهدناه من قبل حتى صارت ثقة الناس بها تزداد باضطراد دالة على كفاية السحر وقوة تأثيره ونفعه في الحياة الآخرة.

(٧) أثر السحر في نفوس الشعب في هذا العهد بخاصة

وإنه لمن الصعب أن يفهم العقل الحديث الذي لم يندمج في أفكار هؤلاء القوم الدينية وتاريخهم، كيف أن مرافق الحياة جميعها قد تسرب إليها الاعتقاد في السحر بحالة صيرته صاحب السيطرة على السعادة الشعبية، وكان ذلك ظاهرًا على الدوام حتى في أبسط الأحوال المنزلية العادية؛ إذ صار من الأشياء التي يزاولها الإنسان بطبيعة حياته كالنوم أو تجهيز الطعام، فقد صار السحر يتألف من نفس الجوِّ الذي كان يعيش فيه أهل الشرق قديمًا.

وقد كانت الحياة المنزلية في الشرق قديمًا غير ممكنة إلا بالالتجاء إلى نفوذ تلك العوامل السحرية الناجعة، التي كانت تستعمل على الدوام، والتي لولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الخفية كل البشر كما كانوا يعتقدون، وبخاصة عند العامة.

ولما كان من الضروري استعمال هذه الطرق ضد الأمراض بخاصة؛ فإن الوسائل العادية المتعلقة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع دائمًا تحت حماية السحر فكانت الأم[١٨] لا يمكنها أن تهدئ من روع طفلها المتألم المريض وتجعله يضطجع طلبًا للراحة إلا بعد الاستنجاد بالقوى الخفية لتقوم بتخليص هذا الطفل من المرض، ومن الحسد، ومن سلطان أشباح الشر السوداء التي كانت تنزوي في أحد أركان البيت المظلمة،[١٩] أو التي كانت تتسلل من الأبواب المفتحة عندما يسدل الظلام خيامه فوق البيت حتى تدخل جسم هذا الطفل الصغير فتنتشر فيه. وكان من أشباح الشر الشيطان الذي يمكنه أن يتشكل في صورة محبوبة ثم يتقرب من المريض الصغير مظهرًا له أنه في قدرته أن يشفيه من أوجاعه أو تخفيف آلامه. ويمكننا أن نستمع — حتى في أيامنا هذه — إلى صوت الأم وهي منحنية على طفلها ترنو إليه بنظراتها السريعة من هذا الباب المفتوح في تلك الظلمة المسكونة بقوى الشر هذه وتقول: «أسرع إلى الخارج أنت يا من يأتي في الظلمة، ويا من يدخل إلينا خلسة، وأنفه إلى خلفه، ووجهه ملتفت إلى الوراء، ويا من تفقد من قد جئت من أجله.

هل تأتي لتقتل هذا الطفل؟ إني لن أسمح لك بقتله
هل تأتي لتخفف آلامه؟ إني لن أسمح لك بتخفيف آلامه
هل تأتي لتضره؟ إني لن أسمح لك أن تضره
هل تأتي لتأخذه؟ إني لن أسمح لك بأن تأخذه مني

لقد أعددت ما يحميه منك من نبات «افت» إنه يسبب الآلام؛ ومن البصل الذي يلحق بك الضرر، ومن الشهد الحلو المذاق (للأحياء) من الرجال ومر المذاق لمن هنالك (يعني الموت)، ومن الأجزاء المؤذية من سمك «ابدو» ومن فك «مررت»، ومن العمود الفقري للسمك …»

[١٨] (Erman, Zauberspruche für Mutter und Kind, aus dem Papyrus 3027 des Berliner Museums).

[١٩] هذه العادات لا تزال مستعملة حتى الآن في ريف مصر وصعيده بين الطبقات الدنيا، وحتى بين علية القوم الذين تستحوذ على أفكارهم الخرافات الموروثة.

ولم تكن الأم الوجلة على ابنها تستعمل هذه التعويذة المذكورة بمثابة رقية وحسب، وإنما كانت تتبعها بمزيج شهي تعطيه الطفل المريض فيبتلعه، وهو مزيج مصنوع من الأعشاب والشهد والسمك، وكان خاصًّا بطرد الشياطين المرجومة التي كانت تعذب المرضى من الأطفال ذكورًا وإناثًا مهدِّدة بانتزاع حياتهم. كما نجد في وصف الشهد بأنه حلو المذاق (للناس الأحياء)، ومرُّ المذاق لمن هم هنالك (الموتى).

فكان الواضح إذن أن من الشياطين من يخاف الإنسان بأسه؛ لأن بعضهم يكونون هم نفس الأموات الذين تجردوا من أجسامهم؛ ولذلك كانت حياة أهل الدنيا في تصادم مع الأموات طوال مدة حياتهم في هذه النقطة، فكان من اللازم حينئذ العمل على كبح جماح أولئك الأموات الأشرار، ووقفهم عند حدودهم؛ ومن هنا كانت التعاويذ والحيل السحرية التي دلت على تأثير فعلهم ضدهم في الحياة الدنيا لها قيمتها في الحياة الآخرة أيضًا، فإن هذه الرقية السالفة التي منعت أخذ الطفل بعيدًا عن أمه يمكن استعمالها كذلك ضد من يسعى لسلب قلب أي رجل في العالم السفلي، فلأجل أن يتمكن الرجل المُتوفَّى من الدفاع عن نفسه يقول «هل حضرت لتأخذ قلبي هذا الحي: إن قلبي هذا الحي لن تُعطاه».

وعلى ذلك فإن الشيطان الذي يريد أخذ قلبه ليضر به كان يتسلل بعيدًا عنه لا محالة، وبتلك الطريقة كان السحر الذي يستعمل في الحياة الدنيا يستعمل بحالة مضطردة في الحياة الآخرة، وكان الأموات يعرفونه؛ إذ كانت تعاويذه توضع تحت تصرفهم.

(٨) تعميم المحاكمة العامة أمام الإله

ونعرف أن الاعتقاد الديني لم يكن يحتم في عهد الأهرام وجود محاكمة عامة تجري على كل الناس في الحياة الآخرة؛ لأن الأمر وقتئذ كان يتطلب حضور المذنب للمحاسبة في عالم الآخرة عن ذنب خاص اقترفه، فكان إله الشمس يعقد هناك محكمة للفصل في أمثال تلك القضايا، ولكن في العهد الإقطاعي كان إله الشمس يعلن أن كل إنسان مسئول عن خطيئته كما يستدل على ذلك من «متون التوابيت»: «لقد جعلت كل رجل مثل أخيه، وقد حرمت عليهم إتيان الشر، ولكن قلوبهم هي التي تعصي ما قلت.» وقد ذكرنا في النصائح الموجهة إلى «مر يكارع» ما يأتي: «إن ذنوب الرجل كانت تكوَّم بجانبه كالجبال في حضرة القضاة المهابين في عالم الآخرة.» ولذلك فإن حياة الإنسان

مهما كانت نقية فإنه كان من مستلزمات معتقدات هذا العصر الإقطاعي أن ينتظر الإنسان ريثما يجتاز المحاكمة الخلقية للحصول على السعادة المنشودة في الحياة الآخرة، وقد صار ذلك الشعور بالمسئولية الخلقية فيما بعد الموت من العوامل القوية في حياة الشعب المصري القديم، غير أنه كان هناك عاملان قويان يعملان على هدم تلك المسئولية وهما؛ أولًا: استمرار اعتقاد عامة الشعب في كفاية العوامل المادية مثل إقامة القبور مع إعداد معداتها لضمان سعادة المُتوفَّى في الحياة الآخرة. ثانيًا: الاعتماد الزائد على نفع قوة السحر في عالم الآخرة، وهو الاعتقاد الذي نال تشجيع الكهنة الذين تطرفوا في ابتداع تعاويذه، واشتطوا فيها إلى حد أنهم حاولوا إنتاج تعاويذ سحرية تنفع المُتوفَّى في ضمان قبوله خلقيًّا عند محاكمته في عالم الآخرة.

ورغم انتشار العقائد الشمسية والأوزيرية في عهد الدولة الوسطى فإن ملوكها كانوا متمسكين بعبادة آلهتهم المحلية، ففي الأسرة الحادية عشرة كانت عبادة «منتو» هي السائدة حتى جاءت الأسرة الثانية عشرة فأصبح ملوكها يعتنقون عبادة إلههم المحلي «آمون»، ولما كانت عبادة هذا الإله في «طيبة» وكيفية ظهوره في أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة، ثم انتشار عبادته في عهد الأسرة الثانية عشرة وما بعدها آثرنا أن نتبع خطوات ظهوره في عهد الدولة الوسطى.

(٩) ظهور الإله آمون وعبادته في الدولة الوسطى

تدل الآثار المكشوفة حتى الآن على أن عبادة الإله «آمون» رغم أنه الإله المحلي لمدينة «طيبة» منذ الأزل كما تقول النقوش الدينية لم يُذكر اسمه إلا في عهد الأسرة الحادية عشرة، وحتى هذا التاريخ لم يذكر إلا أربع أو خمس مرات؛ أولًا: يحتمل أن الأمير «واح عنخ أنتف عا» يشير في لوحته الرئيسية التي وجدت في قبره إلى تجهيز معبد «آمون» وإعداد سفنه المقدسة.

(Lange Und Schafer, “Grab und Denkstein”, 20512, II and 6), (Sethe, “Amun und die Acht Urgotter”, Par. 9, 54). ثانيًا: أمنمحات (آمون في مقدمة الآلهة)، وهو الذي أصبح فيما بعد أحد رجال بلاط «حور نخت نب تب نفر-أنتف» لا بد أنه كان قد ولد في عهد «واح عنخ» هذا نفسه، ولوحته في متحف متروبوليتان (14, 2, 6). ثالثًا: يحتمل وجود إشارة أخرى إلى معبد آمون على لوحة مهشمة في الجبانة التي دفن فيها «واح عنخ» (Pterie, “Qurneh”, P. 17, Pl. X; Sethe, “Amun”, Par.

(II. رابعًا: جاء ذكر اسم السيدة «أمونت» وقد سميت باسم الإلهة التي كانت تعتبر زوج الإله «آمون»، وهذه السيدة لا بد قد وُلدت وسميت بهذا الاسم في باكورة حكم الفرعون «نب حبت-رع»، فقد وجد على أكفانها السنة الخامسة والثلاثون من حكم هذا الملك، وكذلك في السنة الثامنة والثلاثين، ويحتمل الثانية والأربعين من حكمه أيضًا. وقد قال الدكتور «دري» الذي فحص جسمها فحصًا علميًّا إنها كانت امرأة في مقتبل العمر. (A. J. S. L., Vol. 58, P. 158, Note 60).

وقد ولد «أمنمحات الأول» الذي أصبح فرعونًا فيما بعد في نفس حكم هذا الفرعون، ولكن في نهايته، وقد عاش بعد الأسرة الحادية عشرة ليحكم البلاد لمدة ٣٠ عامًا. وخلافا للقليل الذي ذكرناه عن «آمون» فإنا لا نعرف شيئًا عنه قط قبل الأسرة الثانية عشرة.

أما الأستاذ «زيته» فيريد أن يقول إن الإله آمون رغم ذكره في متون الأهرام فإن عبادته قد أدخلت في «طيبة» على يد أميرها «حور واح عنخ-أنتف عا»؛ وذلك نتيجة لانتصاره على أهل «إهناسية المدينة». وقد فرض الأستاذ «زيته» عندما لم يجد شواهد معاصرة تدعم قوله أن الفتوح الطيبية قد امتدت شمالًا حتى «الأشمونين» التي كان يعبد فيها الإله «آمون» وهو أحد ثمانية آلهة كانت تعبد هناك، وتعتبر الآلهة المحلية لهذا الإقليم (مقاطعة الأرنب) (J. E. A., Vol. XVII, P. 151) ومهما يكن من زعم الأستاذ «زيته» في دخول الإله «آمون» في «طيبة» سواء أكان ذلك من جراء الانتصار في الحرب على الدلتا أم لا، فإنا قد وجدنا عبادة «آمون» كانت موجودة في أوائل الأسرة الحادية عشرة، غير أنها من المحقق أنها لم تكن عبادته هي الديانة الرسمية لملوك هذه الأسرة. وقد كان أول من جعلها ديانة الحكومة هو «أمنمحات الأول» فاتحة ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويحتمل أن السبب في ذلك يرجع إلى أسباب أسرية. ومن ثم أخذت شهرته تنمو وتنتشر بخطًى واسعة، ولم يمضِ طويل زمن حتى وحده مع إله الشمس «رع» إله الدولة القديمة وأصبح يسمى «آمون رع». وقد ذكر «زيته» أمثلة لاسم الإله «آمون رع» ترجع إلى عهد «سنوسرت الأول» (Sethe, “Achung”, P. 236) ولقد كان من الطبعي أن يعمل الحاكم الجديد كل ما في وسعه لتقوية مركزه بازدياد نفوذ الإله معبوده هذا الذي يحميه.

وتدل الشواهد على أنه كان في الشعائر الدينية الأولى الخاصة بعبادة «آمون» ما يشير إلى سياحة بالسفينة المقدسة، ويحتمل أن أقدم سياحة سنوية له كانت إلى «ابت الجنوبية» (الأقصر)، وقد نشر «فوكار» قطعة من نقش وجد في «الدير البحري»، ويعتقد

أنه يظهر عليها مقدمة سفينة «آمون» في عهد الملك «نب حبت رع» (Foucart "B. I. F. A. O", Vol. XXIV, Pl. IX; Naville, "XI Dyn Temple", Vol. I, Pl. XIII).

وربما كان ذلك مما سهَّل جدًّا لسميه العظيم «أمنمحات» أن يؤسس عيدًا جديدًا أطلق عليه السياحة إلى «وادي نب حبت رع»، وهو ذلك الفرعون الطيبي الذي وحَّد الأرضين، والواقع أن «وادي نب حبت رع» كان الاسم الشائع «للدير البحري» في عهد الأسرة الثانية عشرة، فقد كتب هكذا على لوحة «سنوسرت الثالث» التي وجدت في المعبد (Naville, Ibid, P. 59, Pl. XXIV).

وقد أصبح «عيد الوادي» الذي ذكر هنا لأول مرة فيما بعد من أيام العطلة الدينية الهامة جدًّا في «طيبة» كما نعلم من عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى العهد الإغريقي الروماني[٢٠] وفي هذا اليوم كان يؤتى بتمثال هذا الإله من معبد الكرنك في سفينته المقدسة ويعبَر به في سفينة عظيمة إلى الشاطئ الآخر من النيل، ومن ثم يُحمل على أكتاف الكهنة من الجهة الغربية للنيل، ويسير في موكب حافل حتى الملك «نب حبت رع» وهناك يمضي الليل.

لقد بقي اسم «عيد الوادي» يطلق على هذا العيد حتى بعد أن جاءت الأسر الأخرى وبنت معابد جديدة في «طيبة» الغربية وكان القوم يحجون إليها، رغم أنها كانت مقامة في السهل لا في الوادي.

على أنه لم يخطر ببال الملك «نب حبت رع» أن القوم سيحجون إليه هذا الحج العظيم، وكذلك لم يفكر المهندسون الذين وضعوا تصميم معبده بهذه الكيفية أن هذا الحج سيحدث؛ لأن بناء المعبد لا يصلح لأي احتفالات يحمل فيها قارب الإله، ويسير بين طرقاته الضيقة الملتوية كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وفي الحق أن سياحة القارب المقدس

---

[٢٠] وقد كان هذا القارب أو السفينة كما نعلم فيما بعد يرسو أولًا عند معبد وادي «الدير البحري» ثم في مقصورة في منتصف الطريق للمعبد، وأخيرًا في معبد حتشبسوت. وفي كل حالة من هذه الحالات كان يوجد في القارب تماثيل أوزيرية الشكل للملكة في أركان المقصورة.

(Annales du Musée Guimet) Vol. XXX (1902); Winlock M.M.A. (March 1932) Part II, PP. 14 ff.; Breasted, A. R. Vol. II, Par. 885, Vol. III, pp, 212, 215, 218, 515, 517, 522; Vol. IV, Par. 17; Foucart, B. I. F. A. O., Vol. XXIV: Kees, "Orientlische Literaturzeitung", Vol. XXX, P. 242; Sethe, "Achtung", Par. 8, Note Steindorff and Wolf, Thebaniche Graberwelt", P. 27.

لم يسمع بها قط في كل ما وصل إلينا من النقوش حتى الآن في عهد الأسرة الحادية عشرة.

أما في الأسرة الثانية عشرة فنعلم أنها كانت تقاوم سنويًّا ويتطلع إليها الأهلون في تلهف وشغف، وقد حدد لنا أحد الكهنة المسمى «نفرابد» تاريخ سياحة «آمون» إلى الوادي: «الكاهن المطهر «نفرابد» يقدم المديح إلى الإله «آمون» ويقبِّل الأرض أمام رب الآلهة في عيده في اليوم الأول من فصل «شمو» (الصيف) عندما يعبر في يوم السياحة إلى وادي الملك «نب حبت رع» كتبه كاهن «آمون» المطهر «نفرابد»»، فلا بد أن هذا العيد كان يقام في أيام «أمنمحات الأول» في اليوم الأول من أغسطس (Winlock, "Proceedings of the American Archaeological Society", Vol. LXXXIII, (1946), P. 447).

وهذا الفصل من السنة لم يكن له أهمية من الوجهة الزراعية؛ إذ فيه فصل الركود الزراعي؛ لأن الأراضي تكون مغمورة بمياه الفيضان حينئذ، وسنرى الدور الفريد الذي لعبه هذا الإله الذي كان مغمور الذكر في عهد الأسرة الحادية عشرة عندما امتدت الفتوح المصرية في كل بقاع العالم في عهد الأسرة الثامنة عشرة.

كتاب الطريقين إلى عالم آخرة «أوزير»

(١) مقدمة

كان من نتائج الثورة الاجتماعية التي قام بها عامة الشعب من جراء الظلم الذي حاق بهم من طبقات الأشراف في البلاد؛ أن انقلبت الأوضاع الاجتماعية المألوفة رأسًا على عقب، فأصبح السيد مسودًا، وصار الفقير غنيًّا، فسادت الفوضى مدة من الزمان مما دعا إلى قيام جماعة من حملة الأقلام المصلحين يطالبون بالعدالة الاجتماعية ويندِّدون بالملك الذي كان منزويًا في عقر داره يلهو ويلعب، ولا علم له بشيء مما آلت إليه البلاد من سوء الحال وفساد النظام، وقد ظل هؤلاء الكُتاب يعالجون الموقف بحكمتهم ويصورونه بصور شتى محسة إلى أن قُيض لهم النجاح في مهمتهم الشاقة، وظهر المصلح العظيم المنتظَر في شخص الفرعون «أمنمحات الأول» كما أسلفنا؛ فأعاد للبلاد بعض مجدها القديم وبث فيها روح العدالة، وأخذ يفسح المجال للحرية الشخصية من الناحية الاجتماعية والقضائية، غير أن هذه الحركة الفكرية العظيمة التي أوجدها أولئك الكُتاب لم تقف عند هذا الحد من الإصلاح الاجتماعي بل اتسعت دائرتها وتشعبت نواحيها، فكان مما تناولته الناحية الدينية، ولا سيما ما يختص منها بحقوق الإنسان في عالم الآخرة والجنة السماوية التي كانت حتى هذا العهد وقفًا على الفراعنة وأسرهم؛ من أجل ذلك أخذ القوم يفكرون في أمر آخرتهم وما فيها من نعيم وبدءوا يطالبون بمساواتهم أمام الإله دون فرق بين فقير وغني.

وعلى أثر ذلك نجد بعض الأفكار الدينية الشعبية الجديدة أخذت تظهر في المتون الدينية الخاصة بهذا العهد؛ أي العهد الإقطاعي الأول، بعد أن تحرَّر القوم من سطوة العقائد الدينية الملكية التي كانت قد طغت على ديانتهم جملة وجعلتها كأن لم تكن.

وأول ما ظهرت هذه العقائد الشعبية في «متون التوابيت» التي كانت تتعارض في كثير من الأمور مع متون العقيدة الشمسية الأصلية، وهي التي كانت العماد الأول الذي تقوم عليه ديانة الملوك، والتي نراها منتشرة في «متون الأهرام»، كما فصلنا القول في ذلك، على أن مثل هذه المتون الدينية الجديدة لم تكن شائعة في بادئ الأمر بل كانت محلية، وإن أصبحت فيما بعد ذائعة منتشرة وكونت وحدة عظيمة في عهد الدولة الحديثة؛ إذ ظهرت في صورة كتب يتداولها أفراد الشعب على السواء، ونخص بالذكر منها كتاب «أمي دوات»؛ أي (ما يوجد في العالم السفلي) ثم «كتاب البوابات»، وهي الأبواب التي كان لزامًا على المُتوفَّ أن يمر بها في طريقه إلى عالم الآخرة الذي هو جنة المأوى، وأخيرًا «كتاب الموتى» الذي كان يحتوي على عدة فصول توضع بجوار المُتوفَّ في تابوته ليكون دليلًا له، وحافظًا من كل الأخطار التي تعترضه في سبيله إلى جنة الخلد.

وأول كتاب ظهر من هذا النوع في مقابر الشعب يرجع تاريخه إلى عهد الدولة الوسطى على التوابيت المصنوعة من الخشب، وهو الكتاب الذي اصطلح على تسميته حديثًا كتاب «الطريقين»[١] ومن غريب الصدف أن كل التوابيت التي دوِّن عليها فصول هذا الكتاب قد وجدت في بقعة واحدة بعينها، وأعني بذلك جبانة «البرشة» الواقعة في المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي، وهي التي كان يطلق عليها قديمًا «مقاطعة الأرنب» وعاصمتها «الأشمونين»، الحالية. وتعد هذه المقاطعة كذلك المركز

[١] وهو يصف لنا العقبات والمصاعب التي كان لا بد أن يجدها المتوفى أثناء انتقاله من هذا العالم الدنيوي إلى العالم السفلي الذي يقطن فيه الإله «أوزير» إله الموتى، كما تصورتها أخيلة الشعب، وقد كان لزامًا على المتوفى أن يتخذ لسيره إلى هذا العالم السفلي إحدى طريقين، إما طريق الماء أو طريق اليابسة، وكان يفصل هذين الطريقين بحيرة من نار يسقط فيها المتوفى إذا حاد عن الطريق الذي اختاره لنفسه من الطريقين المذكورين. هذا ولم يكن مصرحًا للمتوفى أثناء سيره على الطريق الذي يسير عليه أن يلتفت يمينًا أو شمالًا؛ لأنه لو فعل ذلك كان مصيره الهلاك. وقد كان كل من هذين الطريقين يحتوي على عدة منحنيات ومبانٍ يسكنها حراس من الجن ومخلوقات بشعة مريعة تحرس أبواب تلك المباني والمنحنيات، ولا تسمح للمتوفى بالمرور إلا إذا كان مسلحًا بتعويذة سحرية تفسح له الطريق عند تلاوتها أمام أولئك الحراس الذين يعترضون طريقه إلى أن يصل إلى «روستاو» وهو المكان الذي يأوي إليه «أوزير»، وهنا يثوي الجسم، ثم يستمر روح المتوفَّ بعد ذلك في سياحته في العالم السفلي مع إله الشمس في سفينته إلى أن تعود ثانية إلى الشرق وتظهر معه، وهكذا يقوم روح المتوفى بهذه الرحلة مع إله الشمس في سفينته يوميًّا مجدِّدًا نفسه مثل الإله «رع» نفسه.

الرئيسي لعبادة الإله «تحوت» إله العلم والكتابة والحساب والمواقيت، الذي كان يمثله المصريون في صورة قرد طورًا، وفي صورة القمر تارة أخرى، وجبانة البرشة تقع قبالة بلدة «الأشمونين» على النيل، ولا نعجب إذن إذا وجدنا ميلًا ظاهرًا في متون هذا الكتاب لعبادة الإله «تحوت»، والواقع أن هذا الإله كان يقوم بأهم دور في هذه المتون، ولا غرابة في ذلك؛ إذ إنه يعتبر من أعظم الآلهة المصرية، فضلًا عن أنه يعد في بعض المذاهب الممثل للإله «رع» أعظم الآلهة المصرية في كل العصور التاريخية للبلاد.

وحقيقة الأمر أن قيمة «كتاب الطريقين» قد أصبحت عظيمة بالنسبة لنا؛ لأنه يعد بوجه خاص الحلقة التي تربط بين «متون الأهرام»، وهي الخاصة بالملوك وبين الكتب التي ظهرت في عهد الدولة الحديثة مثل «المرشد» الذي يُسمى (ما يوجد في عالم الآخرة السفلي) ومثل «كتاب البوابات» وهذان الكتابان كان يستعملهما الملوك والشعب على السواء كما سبق، على أن الباحث المحقق يجد أن الفكرتين اللتين احتواهما «كتاب الطريقين» لا يخرجان عن تلخيص لكل من المذهب الشمسي (ديانة الملوك) والمذهب الأوزيري (ديانة الشعب)، وهاتان الفكرتان قد وضحتا توضيحًا شافيًا في كتابي «ما يوجد في العالم السفلي» و«كتاب البوابات»: فالأول يفسر لنا العقيدة الشمسية، والثاني يوضح لنا المذهب الأوزيري. ولكن لا يفوتنا أن ننبه هنا على أن هذين الكتابين لم يشتق أصلهما من «كتاب الطريقين» بل أُخذ عن «كتاب الموتى» الذي ترجع أصوله إلى «متون التوابيت» «ومتون الأهرام» معًا. وكتاب «الطريقين» كان يعد في «متون التوابيت» فصلًا ضمن فصولها، والواقع أن «كتاب الطريقين» له اتصال «بكتاب البوابات»؛ لأنه يعد مرشدًا يستعينه المُتوفَّى بما يحتويه من إرشادات في صور تعاويذ سحرية على شق طريقه الوعرة المحفوفة بالمخاطر في عالم الآخرة ليصل سالمًا إلى جنة الخلد (روستاو) التي كان يلقى فيها النعيم المقيم مثل الإله «أوزير». ويدل المنطق وما لدينا من معلومات حتى الآن على أن المتون المصرية منذ أقدم العهود أخذ بعضها من بعض؛ أي إن كلًّا منها قد استقى من سابقه؛ ولذلك لا نكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا تصوَّرناها على الصورة التالية:

العهد العتيق: مصدره الرواية.

الدولة القديمة: مصدرها «متون الأهرام» التي يوجد فيها كثير مما يرجع إلى العهد العتيق.

الدولة الوسطى: مصدرها «كتاب الطريقين» و«متون التوابيت»؛ وقد أخذا كثيرًا عن «متون الأهرام».

الدولة الحديثة: مصدرها «كتاب الموتى» وهو مأخوذ من كتب العصر السالف وعنه أخذ كتاب «ما يوجد في العالم السفلي» و«كتاب البوابات».

العصر المتأخر: مصدره النصوص السالفة جميعًا.

ويمكننا القول إن «متون الأهرام» التي كانت لا تخرج في معظم الأحيان عن مجموعة من الفصول الدينية والتعاويذ السحرية غير المتصلة الحلقات؛ قد جمعت من المعتقدات العتيقة ما يوافق هوى الملك الحاكم وذوقه، وقد كانت المصدر الأصلي الذي أخذ عنه المؤلفون في الأدب الجنازي فيما بعد، وبخاصة «متون التوابيت» و«كتاب الموتى». ومثل هذه المؤلفات كان يستعين بها المُتوفَّى لضمان حياة في عالم الآخرة ملؤها السعادة والنعيم.

أما الصنف الثاني من المؤلفات التي ظهرت في نفس الوقت الذي ظهر فيه «كتاب الموتى» فكان الغرض منه أن يقص عليه قصة متصلة الحلقات كما يقصها علينا «كتاب الطريقين»، وأعني بذلك كتاب «ما يوجد في العالم السفلي» و«كتاب البوابات»، ولكن الغريب في هذين المؤلفين أننا لم نجد نسختين من أي كتاب منهما متحدتين في ألفاظهما تمامًا، وقد يعزى ذلك إلى اختلاف العقيدة، وإلى الآلهة المحليين الذين كانوا يلعبون دورًا عظيمًا في معتقدات القوم؛ من أجل ذلك كله لم تصلنا رواية متفق عليها يسير الكل على نهجها في طول البلاد وعرضها، ولكن نرى بوجه عام أن مجموع الشعب متمسكون بلب ما في هذه النسخ المختلفة، فكانوا يرسمون في النسخ التي توضع معهم في قبورهم؛ الشخصيات الهامة بين الآلهة والمناظر التي تدور حولها المتون، وإن كان الحوار فيها يختلف بعض الشيء، وهذا الاختلاف كما قلت راجع إلى المعتقدات المحلية.

وإذا كان القارئ أو الباحث المدقق سيجد بعض الإبهام في «كتاب الطريقين»، فإن جريرة ذلك لا تقع على جامع هذا الكتاب، بل يجب أن نعزو ذلك إلى جهلنا التام بديانة الشعب في هذا العهد بعينه، بل والعهد الذي سبقه، فقد ظهر هذا المؤلف في عصر كانت البلاد غارقة فيه في بحر من ظلمات الفوضى والارتباك الاجتماعي والسياسي، فكان فيه التدهور الخلقي والديني بطبيعة الحال على أشد ما يكون من العنف، وإذا وجدنا أن التشويش والتشويه والغموض تسود فصول هذا المؤلف فإن ذلك راجع إلى أننا بعيدون

كل البعد عن فهم الأفق العقلي والديني لمؤلفيه، فمن الجائز أن ما يظهر أمامنا مشوشًا غامضًا كان في نظر أهل هذا العهد منطقيًّا مفهومًا. وهذه الحقيقة يدركها تمامًا أولئك الذين يدرسون التاريخ القديم وتطوراته، ولا يبعد من جهة أخرى أن هذه الكتب كانت مبهمة كذلك على غير المتعلمين في هذا العصر، وهم الذين يقبلون في كل زمان ومكان ما يلقيه عليهم رجال الدين دون معارضة أو سعي لتفهمه، وبخاصة إذا كان يتفق وعقليتهم الساذجة.

(٢) مصادر كتاب الطريقين

وصل إلينا حتى الآن من الكشوف الأثرية عشر نسخ من كتاب الطريقين، تسعٌ منها محفوظة على رقع توابيت موجودة بالمتحف المصري.

(Lacau, “Sarcophages Anterieur au Nouvel Empire”, Vol. I, PP. 189–198, 209–222; Vol. 1I, PP. 29 ff. Pls. LVI, LVII, (Vol. I)).

ونسخة أخرى على رقعة تابوت بمتحف برلين (Berlin Museum, No. 14385).

وقد نشرت متون هذه التوابيت بطريقة مختصرة، وبخاصة متون توابيت متحف القاهرة، هذا فضلًا عن أنه لم يحاول أحد من العلماء ترجمتها أو درسها درسًا شافيًا. ومما يؤسف له أنه حتى التوابيت التي أبقتها يد التخريب لم نجد بينها إلا أربعة دوِّن عليها هذا الكتاب بحالة لا بأس بها: ثلاثة منها بمتحف القاهرة، وتحمل الأرقام التالية ٢٨٠٨٣، ٢٨٠٨٥، ٢٨٠٨٩ في السجل الرسمي، وهي التي سنعتمد عليها، أما النسخة الرابعة ففي متحف برلين وقد دوِّن التابوت الذي كتبت عليه تحت رقم ١٤٣٨٥ في سجل المتحف.

ومما يجب التنويه عنه هنا أن نسخة «برلين» قد امتازت بطابع خاص؛ إذ تحتوي على بعض متون لا نظير لها في نسخ متحف القاهرة كما سنرى بعد، على أنها وإن كانت من جهة أخرى ينقصها ثلثا المتون التي كُتبت على نسخ متحف القاهرة؛ هذا بالإضافة إلى أن جزءًا كبيرًا من المصوَّر الجغرافي الذي وجدناه على توابيت متحف القاهرة وبخاصة الصور الإيضاحية قد خلا منها مصور متحف «برلين».

(٣) ما نعرفه عن ديانة الشعب في عهد الدولة القديمة

وقبل أن نتناول محتويات هذا الكتاب بالبحث والدرس، يجب أن نفهم أولًا أنه لا يمتاز بوجود معتقدات جديدة مبتكرة، بل إنه هو في الواقع يضع أمامنا صورة تعبر عن ديانة الشعب ومعتقداته؛ وهي تلك الصورة التي حتمت الأحوال أن تبقى مغمورة منزوية بمعزل عن المتداول من المعتقدات الملكية الشمسية التي كان لها السيطرة التامة دون سواها؛ ولذلك لم تترك مجالًا ما لظهور معتقدات الشعب ومذاهبهم الدينية. وعلى الرغم من أننا نجد الآثار التي كُشف عنها حتى الآن قد صمتت صموتًا تامًّا عن ذكر أي شيء يتعلق بديانة عامة الشعب ومذاهبهم، فإننا كنا نسمع من حين لآخر أصداء تلك المعتقدات على نقوش الأبواب الوهمية واللوحات الجنازية في عهد الدولة القديمة. وقد ألف الأستاذ «جارنو» حديثًا كتابًا يلقي بعض الضوء على معتقدات الطبقة الوسطى وعظماء القوم من الوجهة الخلقية، وسلوك الفرد في الحياة الدنيا، وتأثيره عليه في حياته الآخرة، وما يتطلبه من قربان من زائري قبره؛ فقد جمع المؤلف في كتابه النداءات التي كان يناشد بها المُتوفَّى الأحياء الذين يمرون بقبره طالبًا إليهم تلاوتها، ومع ذلك فقد بدت مبهمة لا تبحث في صميم موضوع ديانة الشعب (Garnot, “L’Appel aux Vivants”).

والواقع الذي لا مراء فيه أن كل فرد كان له دين يسير على منهاجه، وأنه من أجل ذلك كان يقيم لنفسه مقبرة يعدها بكل ما في استطاعته من عتاد مادي، وكذلك نعرف أن القوم كانوا مدة حياتهم يتعبدون إلى آلهة مختلفة ويتضرعون إليها كلما أصابهم خَطب أو حلت بهم مصيبة، كما كانوا يستعطفونهم ليمدوهم بالقربان الملكي بعد مماتهم. على أنه في الوقت الذي نعرف فيه كل ذلك لم تصلنا من جهة أخرى أية معلومات عن جنة الشعب التي كانوا يتطلعون إليها ويبتغون النعيم فيها، وجل ما نعرفه أنهم كانوا ينتظرون يوم حساب أمام الإله العظيم إذا دعا الأمر إلى ذلك.

(٣-١) جنة الفرعون السماوية المحرَّمة على الشعب

أما فيما يتعلق بادِّعاء الملوك وأسرهم ورجال حاشياتهم بأن الجنة السماوية كانت وقفًا عليهم، وأنها كانت محرَّمة على عامة الشعب فلدينا من المتون من عهد الأهرام ما يبرهن على ذلك بكل جلاء. وقبل أن نبحث هذه المتون يجب أن نوضح هنا أن هذه الجنة السماوية كانت أولًا وقبل كل شيء للفرعون، أما أسرته وكبار موظفيه وحاشيته فكانوا

يتمتعون بها تبعًا له بوصفهم أسرته وخدَّامه، كما كانوا في الحياة الدنيا، ولولا ذلك ما نالوا هذا الامتياز الأخروي الذي حُرِمه عامة الشعب الذين كانوا يعدُّون كالأنعام بل هم أضل سبيلًا. ولا أدل على ذلك مما جاء في متون الأهرام (Pyr. 669) عندما خوطب الملك الراحل بالجملة التالية: «إن ماءك مأواه السماء، أما الآلاف فمأواهم الأرض.» ويقصد بكلمة «ماء» ما يخرج من بين الصلب والترائب؛ أي النطفة التي يخرج منها نسله وهم ذريته، وهؤلاء كان مصيرهم جنة السماء، أما الآلاف وهم أفراد الرعية الذين يحكمهم الفرعون فكان مصيرهم الأرض، وسنتكلم عن جنتهم الأرضية فيما بعد. وكذلك نقرأ نفس الفكرة السابقة في متن آخر من متون الأهرام (Pyr. 408) فاستمع إليها: «إن «وناس» (الملك) إله أسنُّ من أي مُسِن، تخدمه آلاف، ويقدَّم له القربان مئات.» والمقصود هنا بالآلاف والمئات هم عامة الشعب، ونقرأ كذلك في المتون نفسها (Pyr. 488) ما يأتي: «إن ماء الملك «تيتي» في السماء وشعب «تيتي» على الأرض فما أوجع تحسر القلب! (؟)» وفي موضع آخر من نفس المتون (pyr. 655 b) نقرأ خاصًّا بالملك: «إنك تدخل أبواب السماء التي حُرمت على المواطنين.» ونحن نعلم أن المقصود من المواطنين هنا الطبقة الوسطى من الشعب، وقد حُرم عليهم دخول أبواب السماء التي فيها الجنة. وهذه الفكرة بعينها نجدها موضحة بصورة أظهر في مكان آخر من نفس المتون (Pyr. 876) فاستمع إليها: «لقد فُتح لك مصراعا باب السماء، وانفرجت لك أبواب السماء، وهي التي تصد الناس بعيدًا عنها.» وفي مناسبة أخرى نقرأ: إنك تفتح للملك «مرنرع» المزلاج إلى باب السماء المحرمة على الناس.»

(٣-٢) جنة الشعب مركزها الأرض

ذكرنا فيما سلف نقلًا عن «متون الأهرام» أن الملك وذريته كانوا يعرجون إلى السماء فينعمون هناك بجنة الخلد، أما الألوف وهم عامة الشعب فكان مأواهم الأرض، والواقع أنه لدينا بعض الإشارات في المتون الجنازية توحي إلينا بأن جنة عامة الشعب كانت على الأرض، فقد كان يظن حتى نهاية الأسرة الخامسة تقريبًا أن مركز هذه الجنة هي حقل القربان الذي يظن أن موقعه كان في بلدة «هليوبوليس» (عين شمس) وهذه البقعة المباركة كانت تعتبر المركز الرئيسي لعبادة الإله «رع»، الذي كان يزعم القوم أنه أول من حكم الدنيا ناشرًا العدل والمساواة بين الجميع، ولكنه تخلى عن حكم العالم الدنيوي ورفع نفسه إلى عالم السموات، وكان من جراء ذلك أن رفع معه حقل قربانه إلى العالم

العلوي، وأصبح مأواه الأبدي السماء مثل والده «رع»، وهناك ينعم بعيشة راضية في حقول قربان والده. أما عامة الشعب فقد ترك لهم حقول القربان التي على الأرض في «هليوبوليس» ليتمتعوا بها، وقد جرت العادة أن تقام مقابر القوم في تلك الجهة كلما وجد إلى ذلك سبيل، ويمكن التدليل على وجود حقول قربان في السماء وأخرى على الأرض بما وصل إلينا من النقوش الجنازية التي تركها الملوك والقوم في مقابرهم، فقد جاء في «متون الأهرام» ما يثبت صراحة وجود حقول قربان للملوك في عالم السماء، أما عن وجود هذه الحقول على الأرض ليتمتع بها أفراد الطبقة الوسطى وعظماء القوم فلدينا صيغة جنازية نقرؤها كثيرًا، ولكنا نمر بها مر الكرام دون التدقيق فيما تحتويه من معنى عميق، وهذه الصيغة هي جزء من دعاء للمتوفى شائع الاستعمال يطلب فيه أن يقرب له قربان ملكي، وأن يعيش عمرًا طويلًا، وكذلك يدعى له بأن «يتمكن من السير على الطرق الطيبة التي سلكها المقربون من قبل.» وليس ثمة شك في أن هذه الصيغة تشير إلى حادث معين خاص بشعيرة بعينها كان يحتفل بها القوم، وكانت تؤدى عند دفن المتوفى. وتفصيل ذلك أن المُتوفَّى كان لزامًا عليه أن يزور قبل الدفن المعابد القديمة التي كانت مقامة من قديم الزمان في «بوتو» («ابطو» الحالية القريبة من «دسوق») و«سايس» «صا الحجر» «هليوبوليس» وغيرها، وهذه المعابد كانت أهم المراكز الرئيسية في طول البلاد وعرضها من أقدم العهود. وتدل شواهد الأحوال على أن هذه الشعيرة كان يقوم الشعب بأدائها قبل ظهور ديانة «أوزير» وقبل أن تحتل «العرابة المدفونة» المكانة الأولى في عبادة هذا الإله، وقبل أن تطغى عبادته على الشعائر التي كانت تقام في المدن الدينية العظيمة السالفة الذكر.

وحقيقة الأمر أن الزيارة التي كان يقوم بأدائها جثمان المُتوفَّى قبل الدفن إلى هذه المدن المقدسة كانت تعمل في قناة من القنوات المتفرعة من النيل تكون مؤدية إلى الجبانة المقصودة في ذلك العهد، وكان القارب الذي يحمل المُتوفَّى يقف حتمًا عند كل المحاط المعهودة وهي «سايس» و«بوتو» وغيرهما، ثم ينتهي به المطاف إلى حقل القربان؛ أي في «هليوبوليس» (Metterlung Kairo, IX, P. 39) ويمكن استنباط رغبة المُتوفَّى «في السير على الطريق الطيبة» من شعيرة دينية نُقشت على إحدى جدران المقابر (L. D. II, P. 101 a) وهي:

> … لأجل أن يتمكن المُتوفَّى من الوصول إلى الحقل الجميل الذي على الطريق الطيبة»، ولا نزاع في أن هذا الحقل الجميل لا يمكن أن يكون شيئًا آخر

خلاف حقل القربان، وهو الهدف النهائي للسياحة في القارب، هذا فضلًا عن أنه قد جاءت إشارات إلى هذه السياحة في العبارات التالية: «التجديف إلى حقول القربان الجميلة» (Junker, Giza, II, Fig. 22) وقد جاء في نقش على جدران مصطبة «أخت حتب» الموجودة الآن بمتحف اللوفر العبارة التالية: السياحة إلى حقول القربان الخاصة بالإله العظيم (Boreaux, "La Nautique Egyptienne", PI. I)، غير أن إياب القارب ثانية بجثمان المُتوفَّى إلى الجبانة كان لا يعني بداهة أن الطريق الجميلة قد انتهت، وبذلك انتهى ما كان يعمل للمتوفى، بل على العكس كان من حقه أن ينال إلى الأبد حقه في التمتع بما تنتجه حقول القربان الخاصة بالإله العظيم في «هليوبوليس»، وقد كان ذلك صحيحًا فيما يختص بالملك وسراة القوم على السواء، ففي ما يخص الملك لدينا متون صريحة في نقوش متون الأهرام تثبت ذلك، فاستمع مثلًا ما يقال عن الملك «بيبي»: «إنه صعد إلى السماء بين النجوم الثابتة، وإنه تآخى مع نجم الشعرى اليمانية ونجم الصباح يرشده، وكلتاهما تأخذان بذراعه إلى حقل القربان» (راجع: Sethe Pyr. 1123). وكذلك يقال للملك: إنك تخترق السماء وتتخذ مسكنك في حقل القربان بين الآلهة (الملوك الذين توفوا) الذين ذهبوا إلى أرواحهم.

أما تمتع رجال الدولة بحقل القربان على الأرض فنستخلص هذه الفكرة من المسلة التي نراها في كثير من الأحيان منصوبة أمام قبور العظماء في عهد الدولة القديمة، وهذه المسلة تنتسب إلى «هليوبوليس» التي تعتبر المأوى الأصلي لإله الشمس «رع» عندما كان يحكم في عالم الدنيا. ففي «متون التوابيت» نقرأ مثلًا ما يأتي: «إني أحتفل بعيد الربع الأول من الشهر في «عين شمس» (Lacau, "Rec. Trav", XXXI, P. 32)» وكذلك نقرأ في نفس المتون (Ibid, XXIV, 181): ليت الطعام يقدَّم لك مثل «رع» على يد هؤلاء الذين في أماكنهم في «عين شمس»، ومما سبق نعلم أن حقول القربان كان مركزها بادئ الأمر في «عين شمس»، وكان كبار رجال الدولة يتمتعون بها على السواء، ولكن عندما رفع «رع» نفسه إلى السماء رفعت حقول قربانه كذلك إلى السماء بداهة، في حين أن حقول قربان الشعب بقيت على الأرض في «هليوبوليس» مكانها الأصلي؛ وهذا هو السبب الذي من أجله يقوم الفرد العادي برحلة إلى هذا المكان المقدس، وكذلك كان هذا هو السبب الذي من أجله كانت تقام المسلة التي تعد رمزًا لإله الشمس أمام مقبرة المُتوفَّى لتكون

عنوانًا مصغرًا لبلدة «هليوبوليس». ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الجزء الذي يُرمز به إلى الهرم في المسلة هو الجزء الهرمي منها كما شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب. ومن جهة أخرى تنبئنا «متون الأهرام» أن حقول القربان التي في السماء قد أصبحت وقفًا على الملك المتوفى؛ لأنه كان يعتبر ابن «رع»، ولكننا وجدنا أن هذا الامتياز الخاص بالملك أخذ يشاركه فيه في نهاية الدولة القديمة الأسرة المالكة ورجال البلاط بوصفهم أهله وحاشيته، ثم لم يمضِ طويل وقت حتى نهض عامة الشعب عن بكرة أبيهم وقاموا بثورة اجتماعية دينية، وطالبوا بالتمتع بالآخرة السماوية، فأصبحت حقًّا مشاعًا لكل الشعب على السواء كما أسلفنا. وبعبارة أخرى أخذت المبادئ الديمقراطية الدينية تنتشر بين الأهلين وبخاصة حرية التمتع بالجنة السماوية، غير أن هذا الانقلاب الديني على ما يظهر لم يأتِ فجأة، بل أتى تدريجًا. إذ نلاحظ في بعض نقوش كبار الموظفين في عهد الأسرة السادسة أن المُتوفَّى الشريف كان يُسمح له أن يقوم بالسياحة السماوية التي كان يقوم بها الفرعون في سفينة الشمس مع الإله «رع»، ومن ثم يفهم أنهم لم يحرموا حق التمتع بالجنة السماوية، والواقع أن هذا التمتع الذي أصابوه كان تمتعًا محدودًا؛ وذلك لأنهم كانوا يذهبون فعلًا إلى جنة السماء، ولكن بوصفهم أتباعًا للفرعون يقومون له بمثل الخدمات التي كانوا يؤدونها له في عالم الدنيا، راجع: Teti-ankh. Tomb No. 15 Davies, “Shaikh Said”, 33) (Petrie, “Deshasheh”, P. 46, Pl. XXVIII etc.).

فهؤلاء كانوا بهذا الوضع لا يزالون في منزلة الخدم للفرعون؛ ولهذا صحبهم الفرعون معه. أما باقي طبقات الشعب فلا نعلم شيئًا عنهم قط، والظاهر أنهم كانوا محرومين التمتع بالجنة العلوية في خلال الدولة القديمة.

(٣-٣) وصف جنة الفرعون

وقد ساعد الحظ بوجود بعض تلميحات في «متون الأهرام» تساعد على معرفة صورة عن متاع جنة الملوك السماوية تلك الجنة التي كانوا يغارون عليها، وحرَّموها على أفراد شعبهم في عهد الدولة القديمة، وهي التي حارب الشعب للحصول عليها إلى أن ظفر بها من بين براثن أولئك الملوك فاستمع لما يقال للملك: (Sethe, Pyr. 815)، «هل تريد أن تحيا؟ يا «حور» يا من يسيطر على حربة الصدق؟ (وهي الحربة التي لا تدع أي شخص يمر بباب الجنة غير الصادقين المبرئين أمام الله) إذا كان الأمر كذلك فينبغي عليك ألا

تغلق مصراعي باب السماء، ويجب عليك ألا تحمي عقبه (أي عقب الباب)، وخذ روح «بيبي» إلى هذه السماء بين المنعمين حول الإله، والذين يحميهم الإله، وهم الذين يتكئون على صولجاناتهم وهم الذين يحرسون صعيد مصر، والذين قد ارتدوا أحسن الملابس الكتانية الأرجوانية، والذين يأكلون التين ويشربون الخمر ويتضمخون بأحسن العطور، وعند ذلك سيتكلم الروح عن «بيبي» أمام الإله العظيم، ويسمح «لبيبي» أن يصعد إلى الإله العظيم.»

وفي هذه الأسطر القليلة قد صور لنا باب الجنة الذي يقف أمامه الإله «حور» مسلحًا بحربة سحرية في يده استعدادًا لمنع أي فرد الدخول فيها غير المبرئين، والظاهر أن هذه أقدم إشارة عن وجود حارس[٢] لباب الجنة الذي نجده مذكورًا في كتب الديانات السماوية (راجع: Genesis 24)، غير أن «حور» قد حذر بطريقة خفية ألا يمنع روح «بيبي» ولوج باب الجنة، ولا شك في أن هذا الخطاب الموجه إلى «حور» هو طراز من الخطابات العادية التي نجدها كثيرًا في الصيغ السحرية التي كانت عديدة شائعة في «متون الأهرام»، فهي تختلف بطبيعة الحال عن الصلوات الدينية التي يتضرع بها الفرد لربه، والواقع أن الجنة التي وصفتها لنا «متون الأهرام» هي صورة من حياة الفرعون الدنيوية نُقلت إلى عالم السماء لتمثل لنا حياة «رع» في السماء، وهي الحياة التي كان يعيشها على الأرض قبل أن يرفع نفسه إلى السماء. فنجد فيها الإله الأعظم محاطًا برجال بلاطه الذين يحملون ألقابًا مثل الألقاب التي كانوا يحملونها في الحياة الدنيا، ويعيشون في نعيم فيلبسون الأرجواني «ولباسهم فيها حرير» وطعامهم فيها التين وشرابهم الخمر وشذاهم العطور.ولا نزاع في أن هذه الصورة لها نظائرها في الكتب المنزلة (القرآن).

أما روح الملك الذي كان قد سبقه فكان يمهد له السبيل للمثول أمام والده الإله العظيم «رع»، فإذا ما فرغ من الشعائر الجنازية الخاصة بدفن الملك أمكنه أن يصعد مباشرة إلى السماء ويعيش في جنة عالية. هذا ونجد في «متون الأهرام» فصلًا يبين حياته في عالم النعيم السماوي فاستمع إلى ما جاء فيه:

> إن «بيبي» هو أحد أولاد «جب» (إله الأرض) الأربعة الذين يجولون جنوبًا وشمالًا ويقفون متكئين على صولجاناتهم، وعطورهم ممتازة، ولباسهم

---

[٢] جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (سورة الجن).

الأرجواني، وطعامهم التين، وشرابهم الخمر، و«بيبي» هذا يعطر مما يعطرون به، و«بيبي» هذا يرتدي مما يرتدونه و«بيبي» هذا يأكل مما يأكلونه ويشرب مما يشربونه، و«بيبي» هذا على وئام معكم فهو يعيش مما تعيشون منه، فعليكم أن تقدموا له وجبته مما يعطيه إياكم والدكم «جب» (إله الأرض)؛ وبذلك لن يجوع واحد منكم ولن يُبلى، وعليكم أن تقبضوا بشدة على يد «بيبي» هذا للحياة أمام الشذي العَطِر. إن عظام «بيبي» هذا تجمع، وأعضاؤه قد ركبت ليجلس على عرشه (أي بعد أن فككها الموت).

ومما سبق يمكننا أن نستخلص أن الجنة السماوية كما صورها ملوك مصر في عهد الدولة القديمة كانت جنة لذة ومتاع، وفي الواقع إن هي إلا صورة لحياة الفراعنة على الأرض، ولكن دعنا الآن نفهم ماذا حدث لهذه الجنة التي وُعد بها الملوك في عالم السماء في «كتاب الطريقين» الذي ظهر في العهد الإقطاعي الأول عندما بدأنا نعرف شيئًا عن عقيدة الشعب في أمر آخرته، والجنة التي كانت تصبو إليها نفسه.

(٣-٤) الفرق بين روح الملك وروح الفرد العادي

ولأجل أن نقف على فكرة صحيحة عما كان ينتظره الفرد من عامة الشعب من الحياة الآخرة يجب علينا أن نوجه عناية خاصة إلى المتون المتعلقة بآخرة الإله «أوزير» ومثواه المسمى «روستاو». فمن الحقائق الغريبة في بابها، والتي يجب معرفتها عن معتقدات الشعب في عهد الدولة القديمة أنه لم يرد في المتون الجنازية عامة إشارة إلى روح الفرد العادي «با» وقرينته «كا» مدَّة حياته، كما أنه لا توجد صورة لأيهما في النقوش والرسوم حتى بعد الموت، وهذا خلافًا لما نعرفه عن الملوك؛ إذ نجد أن روح الفرعون «با» أو قرينته «كا» مرسومة على الآثار في حياته وبعد مماته. وقد كان الاعتقاد عندهم أن روح الفرد تعيش بجانبه مدة حياته، غير أنها لا تُرى، وقد كان الملك مثله في ذلك مثل الإله له عدة «قرينات» (كاو) وعدة أرواح (باو) فقد كان له ٧ أو١٤ قرينة (Kees, Totenglauben, P. 10).

وكذلك نعلم من «متون الأهرام» أن روح الفرعون كان يسبقه إلى عالم السماء، ولكن في عالم الدولة الوسطى أو بعبارة أدق منذ العهد الإقطاعي الأول نجد أنه عندما

وحد الفرد العادي مع الإله «أوزير» أصبح على قدم المساواة مع الملك في كل متاع الآخرة، ومن ثم نجد المتون تتكلم عن روحه مدة حياته، (Erman, "The Literature of Ancient Egyptians", P. 86).

ومن وقتئذ أصبحت الامتيازات التي كانت وقفًا على الملك وحده؛ مُلكًا مشاعًا لعامة الشعب، هذا فضلًا عن أنهم أخذوا يتمتعون بنسيم الحرية والعدالة الاجتماعية والدينية، فأخذوا يعبرون عن آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي ظلت زمنًا طويلًا تضيق عليها كل المنافذ فكانت تغلي في صدورهم كالحمم الذي يتقد في جوف بركان تحت ستار المذهب الملكي، الذي كان قد طغى على كل ما سواه، ولكن عندما حدث الصدع العظيم بتداعي القوة الملكية عند نهاية الدولة القديمة، وجدنا المذهب الأوزيري الذي كان بلا شك مذهب عامة الشعب، أخذ ينمو وينتشر ويزداد قوة على قوة ونفوذًا على نفوذ، مما وسع هذا الصدع وسمح لأفكار الشعب الدينية ومعتقداتهم أن تندفع إلى الخارج وتأخذ في الظهور في صورة حمم ملتهب، على أن الشعب لم يكتفِ في أي مكان في البلاد بحرية التعبير عن معتقداته وصلواته الخاصة به، بل طالب بحق التمتع بالجنة السماوية التي وُعد بها الملوك، فأجيب مطلبه بعد حرب شعواء، قلبت خلالها كل الأنظمة الاجتماعية رأسًا على عقب.

ومن ثم نجد أن كثيرًا من «متون الأهرام» الخاصة بالملوك قد اندمجت في المتون الدينية الخاصة بعامة الشعب في هذا العصر، ولما استحوذ أفراد الشعب على حق التمتع بالآخرة السماوية، وهي التي كانوا يتطلعون إليها؛ أصبح منذ ذلك الحين باب السماء مفتوحًا أمامهم على مصراعيه ولم ينزلوا منذ ذلك الوقت عن هذا الحق المكتسب بالنضال، وبقي في أيديهم طوال العهود التالية من العصور التاريخية المصرية، ولكن يلاحظ أن خيال أفراد الشعب الذي كان محشوًّا بالخرافات قد شوَّه هذه الجنة التي اكتسبوها بنضالهم العنيف؛ لدرجة أنه يصعب علينا أحيانًا أن نتعرَّف عليها بوصفها الجنة السماوية التي كان يتمتع بها الملوك أمثال «وناس» و«بيبي» و«تبيي» وغيرهم، ويسيرون فيها مع أولاد «حور» مرتدين الأرجواني، ينبعث من أجسامهم شذى العطور، وأكلهم فيها التين، وشرابهم خمر الجنة ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (سورة محمد الآية ٤٧).

(٤) شرح كتاب الطريقين إلى عالم الآخرة

والآن نبدأ بشرح كتاب الطريقين كما جاء على مصوَّر التابوت رقم ٢٨٠٨٣ وهو المحفوظ الآن بالمتحف المصري؛ وذلك لأنه يحتوي على إيضاحات كثيرة مصوَّرة أكثر من أية نسخة وُجدت حتى الآن، رغم ما أصاب هذه النسخة من العطب في بعض أجزائها. وسنستعين في تكملة الأجزاء المهشمة بالنسخة التي على التابوت رقم ٢٨٠٨٥، وهذا التابوت لامرأة تدعى «سات حزحتب»، ومما يستحق الملاحظة هنا أن الصيغ التي استعملت في تابوت «سات حزحتب» وهي امرأة من الطبقة الوسطى نفس الصيغ التي استعملها «سبي» قائد الجيش صاحب التابوت الأول، وهذا يبرهن لنا على أن هذه الصيغ الطنانة الرنانة الألفاظ وما جاء فيها من تهديد ووعد ووعيد — وهي الألفاظ التي كان مفروضًا أن يتلوها المُتوفَّى — كانت تعاويذ سحرية محضة؛ هذا إلى جانب أنها تدل على المساواة الدينية المطلقة بين أفراد الشعب على مختلف طبقاتهم دون فرق بين قائد جيش وامرأة متوسطة الحال.

وقد وضع التصميم الرئيسي لهذا الكتاب بالرسم الملون على رقعة التابوت، سواء في ذلك التابوت الخارجي أو الداخلي، وذلك زيادة في المحافظة على بقاء هذا المصور مع المُتوفَّى في قبره، فإذا أصاب أحد التوابيت عطب بقي الآخر (انظر شكل ١).

وقبل البدء في وصف هذا المصور يجدر بنا معرفة أن تابوت «برلين» يختلف مصوَّره عن مصورات توابيت القاهرة؛ هذا فضلًا عن أنه خالٍ من كل صور إيضاحية.

(٤-١) وصف مصور تابوت «سبي» رقم ٢٨٠٨٣ مع موازنته بتابوت «برلين»

أول ما يلاحظ في مصور هذا التابوت أن كل التصميم قد أحيط بإطار ذي لون أزرق، وربما كان هذا اللون رمزًا للمحيط الأزلي الذي كان يعتقد المصري أنه يحيط بالعالم السفلي؛ (راجع: Shackenberg, “Zweiwegbuch” P. 6) كما يلحظ وجود شريط أزرق يخترق كل الرسم أفقيًّا مقسِّمًا إياه قسمين متساويين، ويشاهد في بداية المصور من الجهة اليمنى في القسم العلوي بناء مستطيل الشكل ملونة جدرانه بالأحمر ليمثل النار، وفي الركن الشمالي العلوي لهذا المستطيل يوجد باب أحمر اللون كذلك يدور على عقب ملون باللون الأسود، وهذا الباب يؤدي إلى بناء مستطيل آخر ينقسم أفقيًّا من فوق

منتصفه بقليل، ويوجد في الجزء العلوي باب لونه أحمر يؤدي مباشرة إلى بداية طريقي «روستاو»، (و«روستاو» هو عالم الآخرة السفلي الخاص بالإله «أوزير»)، فالطريق العلوي هو عبارة عن مجرى ماء ملتوٍ، أما الطريق السفلي فملون بالأسود، وهو طريق البر.

والجزء السفلي من المستطيل العمودي الشكل السالف الذكر؛ هو حجرة يؤدي بابها إلى الطريقين، وقد قُسم ثانية قسمين؛ أحدهما أكبر من الآخر بقليل، فالجزء الأسفل لونه أحمر مما يشعر بأنه قد مُلئ بالنار، أما في الجزء العلوي فيشاهد حارس في صورة شيطان جاثم يحمي هذا المكان، وتركيبه غريب؛ إذ له رأس كبش أسود وجسم تمساح أحمر اللون، وهذا المخلوق المخيف يقبض بيده على سكين كبير مهدّدًا بها، ويوجد تحت هذا الشيطان صورة نصف دائرة عظيمة ذات لون أسود، ويرتكز جزؤها المسطح على الجدار الأيسر لجدار الحجرة الثانية، وليس في المتن تفسير لهذه الظاهرة، ولكن نجد في كتاب «ما يوجد في العالم السفلي»، الذي وضع بعد كتابنا بزمن، أن نصف الدائرة هذه قد وضع في مكان ظاهر في «روستاو» بعنوان: «الليل» أو «الظلمة». (Budge, "The Eyptian Heaven and Hell", Vol I, P. 103).

هذا؛ ويختلف مصوَّر تابوت «برلين» بعض الشيء عن مصوَّرات القاهرة، وقد ضربنا عنها صفحًا تفاديًا من الإطالة.

المتون الخاصة بهذا الجزء

هذا هو الوصف الإجمالي لبداية هذا المصوَّر لعالم الآخرة حسب العقيدة الشعبية الجديدة، وسنتناول الآن شرح متون هذا الجزء وصوره مفصلين القول عن الخطوات التي كان يجب على المُتوفَّى اتباعها في سياحته بإحدى هاتين الطريقين، وما يجب عليه أن يفعله ليتغلب على العقبات والصعاب التي كانت تعترضه في تلك السياحة الخطرة.

كان أول عمل يقوم به المُتوفَّى أن يتلو المتن الذي قد كُتب في المستطيل الملون باللون الأحمر وحوله، وهو الذي يمثل «بوابة» هذا القسم، وقد وصفناه فيما سلف.

وهذه المتون تعتبر بمثابة مقدِّمة، ومنها تألف فيما بعد في عهد الدولة الحديثة الفصول ١٣٣، ١٣٦، ١٣٦ب من «كتاب الموتى»، وهذه الفصول تشير إلى بزوغ الشمس بعد غيابها في عالم الآخرة السفلي أثناء الليل، ولا أدل على ذلك من أن عنوانها في كتاب

الموتى: «فصل في الإسراع بطلوع «رع» (الشمس) في أفقه ومعه تاسوعه الذين في ركابه، وشروق الإله من الأماكن الخفية (أي بعد أن اخترق طريقه في العالم السفلي).» وسنرى فيما بعد أن هذا الرسم وهذه المتون ستساعد على تفسير رحلة المُتوفَّى في السماء نهارًا ثم مروره في «روستاو»؛ وهي المكان الذي يعبر عن الفكرة الشعبية الجديدة، ثم رحلته في العالم السفلي، وهو الذي قد مثل في المصور الذي نحن بصدده في الصف الثاني منه، وحقيقة الأمر أنه لدينا في هذه المتون ومصورها ثلاثة آراء أو مذاهب دينية، وهي السياحة الشمسية شرقي السماء؛ أي سياحة الإله «رع» من الشرق إلى الغرب، والرحلة إلى «روستاو» وهي المقر الأخير للإله «أوزير»، ثم السياحة في العالم السفلي المسمى عند المصريين «دوات»، ومعنى ذلك سياحة المُتوفَّى مع الإله «رع» في العالم السفلي من مغيب الشمس إلى مطلعها في المشرق، والواقع أن رءوس الموضوعات الثلاثة التي ذكرناها هنا ليست موجودة في «كتاب الطريقين» بل استخلصناها من دراسته، والمتن الذي قبل المستطيل الناري السابق الذكر هو أنشودة تعد بمثابة مقدمة يتلوها المُتوفَّى تهيئة للسير في إحدى الطريقين، فاستمع لما جاء فيه (رقم ١):

> لقد أخذت النجوم المتلألئة التي في الأفق الشرقي تأفل عند سماع صوت «نوت» (إلهة السماء) عندما كانت تفسح طريق «رع» أمام الواحد القديم حتى يسير في دورته (اليومية)، فلترقَ إلى العلا يا «رع» الذي في محرابه (الذي في سفينة النهار) واستنشق النسيم، وشم ريح الصبا، وابتلع … شبكتك في اليوم الذي تقدم فيه الخضوع لإلهة العدالة (ماعت)، وتقسم فيه أتباعك عندما تتقدم السفينة نحو «نوت» (إلهة السماء)، والآلهة القدامى يتقدَّمون عند سماع صوتك.» وعند هذه النقطة من المتن تنتهي أنشودة إله الشمس، ومن ثم يخاطَب المتوفى، فيقال له: «احسب عظامك، ورتب أعضاءك، وول وجهك شطر الغرب الجميل الذي تذهب إليه مجدَّدًا كل يوم؛ لأنك هذه الصورة الذهبية عندما توحد مع قرص السماء مع النجوم اللألاءة التي تعمل دورتك معها، وعندما تجدد يوميًّا مثل «رع» يعم الحبور في الأفق والترحاب من أمراسك (أي حبل سفينة الشمس الذي أصبح يمثل في صورة شخص).

وفي نهاية هذا المتن في تابوت القاهرة يوجد متن بمثابة شرح وهو:[٣]

فصل السياحة في سفينة «رع» العظيمة

«تأملوا أنتم أيها النجوم التي تطلع في «خرعحا» (مصر العتيقة)، إن الإله صاحب الأجزاء الألف! (يعني السفينة) قد وُلد، وأمراسه قد شُدت ومكانه قد هُيئ (؟)؛ وإني أقطع خشب الآلهة التي أبني بها السفينة من أولها لآخرها، وهي التي أصعد بها إلى السماء، وبها أُحمل إلى «نوت»، وإني أُحمل عليها مع «رع»، وإني أُحمل عليها مع القرد (القمر)، وإني أسير قدمًا بانشراح على ماء «وعرت» الخاص بالإلهة «نوت» عند باب الإله «سيح» (هو المريخ، ويسمى كذلك ابن آتوم إله الشمس عند الغروب).» وبعد ذلك ينتهي متن تابوت المتحف المصري بشرح يكاد يكون نسخة طبق الأصل من الفصل الأول: فصل السياحة في السفينة العظيمة لشمس الإله «رع» يوميًّا[٤] (؟) (٢)[٥] يا أيها اللهيب الوهاج الذي خلف «رع»، والذي يعقد تاجه، إن سفينة «رع» تهاب العاصفة! وإنك لامع، وإنك رفيع، وإنك تأتي اليوم مع «تحوت» (أو مع سفينة الليل) في دورته الفاخرة (أي دورة القمر أثناء الليل)؛ وبذلك أرى مجيء «ماعت» (إلهة العدالة رفيقة «تحوت» في سفينة الشمس)، والآلهة الذين في صورة أسود (تماثيل بو الهول، وهي تمثل إله الشمس عند الغروب)، وهم القائمون على حراسة المحاريب العدة المصنوعة من اليراع، حتى أراهم هناك وتفرح، ويكون عظماؤهم في حبور وصغارهم في سعادة، وإني قد مهدت طريقي إلى مقدمة سفينة [رع] وهي التي ترفعني إلى عليين مثل قرص الشمس، فأضئ مثل بهاء «رع» الذي أمده بثرائه، وقد ضمني ربًّا «للعدالة»، وعندئذ قال تاسوع الآلهة: «إن الذي هناك هو «رع» وأنتِ يا روح «أوزير» النائمة اجعلي والده الذي فيها (أي سفينة الشمس) يحكم في صالحه، وإني أجعل الميزان له مستقيمًا، وإني أتيت بالآلهة «تفنوت» ليعيش.

---

[٣] Lacau, Ibid. P. 189.

[٤] Lacau, Ibid, P. 189 (2).

[٥] يلاحظ هنا أن الأرقام العربية الموجودة بين قوسين تشير إلى الأرقام الموجودة على المصور، وهي التي تدل على مكان المتون فيه.

تعالي أسرعي؛ لأن الأب ينطق بقرار «ماعت» (العدالة)، إنه الإله «آتوم» أسرع.» هكذا صاح الذي في أصيله في حينه، «تأمل! لقد أتيت لأحضر له فكي «روستاو»»، والنور الذي هو عين الشمس. هذه إشارة صريحة إلى الطريقين اللذين يسلكهما المتوفى؛ أي طريق الماء وطريق الأرض، وقد مثل كل منهما بفك الإله «جب» إله الأرض، (وفي نسخة أخرى قد مثلتا بطريقي «روستاو»)؛ ولأجل أن أضم إليه جموعه (يقصد هنا أعضاءه المختلفة التي تفككت وانتثرت بعد الموت)، وأبعد عنه الثعبان «أبو فيس» المؤذي؛ ولأجل أن أشفي له جراحه (بالتفل عليها)، وقد مهدت طريقي ومررت عليها بينكم، وإني أنا الذي يسكن بين الآلهة، تعالَ ودعني أمر قدمًا في سفينة رب «سيا» (إله الفهم)، أنت يا صورة «حوروز» (ويا صورة تحوت) الذي يشعل النار ويطفئها، ولقد مهدت طريقي يأيها الوالد المقدس، ويأيها القرد المقدس (أي تحوت). لقد دخلت الأفق، فانتقل بجانب الأمراء المقدسين، سأكون شهيدًا على من في السفينة المقدسة، وسأمر قدمًا على حاشية اللهيب اللامع التي خلف رب صاحب الذؤابة (أو أصحاب الذؤابات).» ثم يختم متن تابوت متحف القاهرة بالعنوان التالي: اقتحام الباب الذي يسمى ««حور» سيدها»: إنك تدير السفينة التي هي عينك (أي عين إله الشمس) يأيها الأب (أي رع). ثم يتلو ذلك: «تعويذة المرور على ردهات النار الخاصة بباب سفينة «رع» كل يوم.»

ومما هو جدير بالملاحظة في هذه المتون السالفة أن العقيدة الشمسية هي الفكرة الهامة فيها، مما يدل على أن هذه العقيدة كانت هي السائدة في هذا الوقت رغم ظهور العقيدة الأوزيرية وشيوعها. فنجد الجزء الأول يحتوي على أنشودة مدح لإله الشمس الذي كان يتطلع إليه المُتوفَّى بوصفه ابنه ليعد له مكانًا في سفينته التي كان يسيح فيها كل يوم من الشرق إلى الغرب؛ أي إن المُتوفَّى كان يرغب في أن يوحد بإله الشمس «رع». أما الجزء الثاني فقد كُتب على ما يظهر في صورة تعويذة سحرية الغرض منها إعداد سفينة للمتوفى يمكنه العبور بها إلى عالم الآخرة، ويدل المتن على أن المُتوفَّى قد وصل فعلًا إلى باب «روستاو» بعد اقتحام الحواجز النارية التي كانت مقامة في سبيله، وبخاصة ردهة النار التي تظهر على المصوَّر في شكل مستطيل، ويسمى بابها: «حور سيدها»، وهو الباب الناري المرسوم على الجهة اليسرى من هذه الردهة (رقم ٧).

على أنه يوجد في متن التابوت رقم ٢٨٠٨٥ المحفوظ بمتحف القاهرة إيضاحات كُتبت بالمداد الأحمر في نهاية هذا الفصل، وهي تمدُّنا بفكرة سديدة عن المقصود من هذا الكتاب، وهي: «إن من لا يعرف بداية هذا الكتاب ونهايته، يغمر الخوف اسمه

الذي في جوفه، وإن فلانًا يعرفه ولا يجهله، وإنه الروح المسلح الذي على رأس الأبواب، وكل إنسان يعرف هذا الفصل يكون مثل «رع» في شرقي السماء، ومثل أوزير في أعماق العالم السفلي، وسينزل إلى رجال البلاط الأربعة أصحاب النار، ولن يُحرق بها أبدًا وأنه وصلها بسلام آمنًا.»

ولا نزاع في أن هذا الإيضاح يدل بجلاء على أنه تعويذة سحرية، كما أنه يضع أمام القارئ الفكرتين الهامتين الخاصتين بعالم الآخرة، وهما العقيدة الشمسية والعقيدة الأوزيرية. ويلاحظ هنا ما جاء في المتن أن المُتوفَّى سيكون مثل «رع» في شرق السماء ومثل «أوزير» في أعماق العالم السفلي، والعقيدة الأخيرة مضادة للأولى تمامًا؛ وذلك لأن إله الشمس في شرق السماء يدل على الحياة، أما الإله «أوزير» الذي يعيش في العالم السفلي المظلم فيدل على الموت، ومع ذلك فإن العقيدتين قد امتزجتا وصارتا تكوِّنان فكرة واحدة؛ لأن «أوزير» توحد مع الإله «رع» كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أما ما جاء عن ردهة النار التي ذكرت فيما سبق فقد وضحت على المرشد الجغرافي، وهي في الواقع مسكونة بطائفة من الجنِّ لم يرسم صورهم، وكل ما نعرفه عنهم هو أنهم ذكروا في أحد النقوش أربع مرات على الجدران النارية باسم «ندماء اللهيب»، ولا بد أنهم الكائنات الذين أشير إليهم في المتن باسم «ندماء النار الأربعة»، ومن ثم نعرف أنهم مخلوقات ضارة لا يمكن المُتوفَّى أن يقترب منهم إلا إذا كان مسلحًا بتعويذة سحرية، (انظر رقم ٦) ((2) Lacau, Ibid, P. 207).

ولذلك يستمر المتن الافتتاحي مؤكدًا لك ذلك فيقول: «دعني[٦] أمرُّ، إني أنا الواحد القوي سيد «الآلهة» الأقوياء، وأحد أشراف «رع» ورب العدالة «ماعت» وخالق «وازيت» (إلهة الوجه البحري). تأمل! إني أحد أتباع «رع». تأمل! إني امرؤ يتنزه في حقول قربان «رع». تأمل! إني أنا الإله العظيم، ومعترف بي أمام التاسوع الإلهي ليقدم لي القربان.»

ولا نزاع في أن هذا متن سحري به يتمكن المُتوفَّى من التغلب على كل الصعاب التي تعترضه في عالم الآخرة بقوة الكلمة التي فيه؛ ومن أجل ذلك نجد أن المُتوفَّى قد انتحل فيه لنفسه ألقاب الإله الأعظم ومناقبه، ويلاحظ أن المُتوفَّى قد اتخذ لنفسه هذه الصفات في بداية العهد الذي سمح فيه لعامة الشعب أن يعتنقوا المذهب الشمسي؛ أي مذهب

[٦] Lacau, Ibid, P. 189 (4).

الإله «رع» ويتمتعوا بمميزاته، ثم يستمر بعد ذلك المتن فاستمع لما جاء فيه على لسان المتوفى: «لقد اجتزت طريقي «روستاو» برًّا وبحرًا، وهما طريقا «أوزير» اللتان توصلان إلى السماء، وكل امرئ يمكنه السير عليهما يكون صاحب سلطان على أتباع «تحوت»؛ (أي القمر)، ويكون في وسعه أن يخترق كل سماء يُريد أن يعرج فيها، أما من لا يعرف كيف يسير على هاتين الطريقين فإنه سيُقضى عليه ويصبح قربانًا للموتى، أو يصير طعامًا للمعدمين، ولن يقام له العدل أبدًا. وإني من أتباع سماء «أوزير» والوارث بعد الرئيس (أي «أوزير»)، وإني «سبي» (اسم المُتوفَّى صاحب التابوت) محيي «أوزير» وإني أنا الذي أضرب لك الحراس «حات حزو» الذين هم ملك إله الشمس (وقد مثل هنا في صورة أسد).» وفي نهاية المتن نجد الشرح التالي: «تعويذة المرور عليها؛ أي (الطريق).»

ومما هو جدير بالملاحظة أن المُتوفَّى يخبر حراس الباب المؤدي إلى «روستاو» في هذه التعويذة أنه ليس بزائر جديد، بل إنه على علم بالسياحة بطريقي الماء واليابسة في عالم الآخرة، وأنه هو الذي بعث الحياة من جديد في نفس «أوزير» صاحب هذه الآخرة، بل إنه أكثر من ذلك ادعى أنه حامي الإله «رع» وبعبارة أخرى يدعى أنه هو المسيطر على الإلهين الرئيسيين اللذين يشرفان على السياحة السماوية والسياحة السفلية، وهذه التعبيرات الخارقة لحد المألوف من القوة والتهديد لا نجدها قط إلا في التعاويذ السحرية، وهذا المتن هو نهاية ما جاء على تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٣.

قرأنا في التعويذة السالفة أن طريقي «روستاو» بالماء وباليابسة هما «لأوزير» وأنهما يوصلان إلى السماء، وقد كان لزامًا على المُتوفَّى بعد أن ينتخب إحدى هاتين الطريقين أن يقتفيها دون أن يحيد عنها قيد شعرة؛ إلى أن يصل إلى هدفه المنشود وهو «روستاو»، وإلا كان مصيره جهنم وبئس القرار. وبعد ذلك كان على المُتوفَّى أن يقوم برحلة أخرى ليصل إلى سماء العالم السفلي حيث يستمر في رحلته في عالم الآخرة الأدنى؛ إلى أن يصل ثانية إلى شرقي السماء ليحيا مع الإله «رع» ثانية، وهكذا كل يوم. والواقع أن طريق الماء السالفة الذكر ليست طريق السماء، بل من المحتمل جدًّا أنها كانت بالنيل؛ لأن المُتوفَّى كان دائمًا عند قدماء المصريين يُحمل إلى مقرِّه الأخير على ظهر النيل، أو على الأرض حسب الأحوال؛ أي إنه كان صاحب الخيار في ذلك. ونعنى بالنيل هنا نيل عالم الآخرة.

تاريخ روستاو ومعناها

أما عن «روستاو» فلا بد أن نذكر أن هذا الاسم كان في بادئ الأمر يطلق على جبانة «منف» منذ الدولة القديمة، وقد جاء ذكرها في «متون الأهرام»، والواقع أن هذا الاسم كان يطلق بنوع خاص على جبانة الجيزة الغربية من منطقة الأهرام، ومن المحتمل أن هذا الاسم قد اشتُق من معناه اللغوي وهو: «باب الممرات»؛ أي باب المقابر في الجبانة، ومن ثم استعمل هذا الاسم في عالم الخرافات الخاصة بالمذهب الأوزيري؛ ولذلك نجد هذا الاسم يذكر منذ ظهور «كتاب الطريقين» في مملكة «أوزير» التي تقع في العالم السفلي في عهد الدولة الوسطى، وبخاصة في المتن الذي أصبح يطلق عليه فيما بعد الفصل السابع عشر من كتاب الموتى. وهاك الفقرة التي جاء فيها ذكر «روستاو» في هذا الفصل، وهي تُظهر بوضوح كيف أن ديانة «أوزير» أخذت تطغى على المذهب الشمسي (مذهب رع)؛ أي إن ديانة الشعب أصبح لها مكانة عظيمة، فاستمع لما يقوله المُتوفَّ أيًّا كانت منزلته الاجتماعية. وقد وُضع ذلك في صورة سؤال وجواب: إني أسير على الطريق المعروفة أمام جزيرة «العدل»، ما معنى هذه العبارة؟

الجواب: أنها الطريق التي يمشي عليها والدي «آتوم» عندما يسافر إلى حقول اليراع (وآتوم هنا يمثل إله الشمس المغربة). وفي رواية أخرى ترجع إلى عهد الدولة الحديثة نجد الجواب أو التفسير كالآتي: إنه «روستاو» الذي بابه الجنوبي «نارف»[٧] (جبانة إهناسية المدينة)، وبابه الشمالي مكان «أوزير»، ولكن جزيرة المبرئين هي «العرابة المدفونة».

ومن ذلك يمكن الإنسان أن يرى تغير العقيدة بإحلال المذهب الأوزيري مكان المذهب الشمسي، وبعبارة أخرى إحلال «أوزير» مكان «آتوم» إله الشمس عند الغروب، وكلا الإلهين يدل على عالم الآخرة. وكذلك يلاحظ هنا أن موقع حقل اليراع في الرواية القديمة في السماء وهو ما يقابل «روستاو» الذي موضعه الآخرة السفلي. والواقع أن «روستاو» كانت عالمًا سفليًّا آخر يحاكَم فيه المتوفى، كما يدل على ذلك متن من «كتاب الموتى» (Grapow, “Religiose Urkunden”, P. 107) أمام المجلس العظيم في «روستاو» في الليلة التي بُرئ فيها «حور» أمام أعدائه.

---

[٧] كان يعتبر الإله «أوزير» إله «إهناسية المدينة» في العهد الإقطاعي (راجع كتاب الأدب المصري القديم، ج١، ص١٤٠).

وقد كتب في داخل الباب الناري مباشرة ما يأتي:

انظر إليَّ إني شخص قد بُعثت مثل «أوزير» وعظامه لم يلقَ بها بعيدًا.

أما على تابوت «برلين» فنجد أن المتن الافتتاحي يختلف اختلافًا بيِّنًا عن متن توابيت القاهرة، وينتهي بعبارة تشعر بضرورة هذا الكتاب لأي شخص يريد أن يقوم بسياحة موفقة في عالم الآخرة، كما ذكرنا من قبل في متن القاهرة. ومما يؤسف له أن المتن مهشم تهشيمًا مريعًا،[٨] ويبتدئ هكذا: «الابتهال لوجهك يأيها الوالد …» وينتهي هكذا: «وكل إنسان يعرف هذه التعويذة يمكنه أن يمر هناك ويجلس بجوار الإله في كل مكان يوجد فيه. والإنسان يخافه؛ لأنه روح مسلح تمامًا. وكل فرد يعرفها (أي التعويذة) لا يهلك أبدًا. وقد صمتت «الأرواح الخبيثة» أمامه مثل صموتها أمام أي إله من الآلهة.»

ونجد سطرين عموديين أمام البناء الأحمر المستطيل الشكل (انظر رقم ٧) جاء فيهما: «إن باب السماء قد فتحه «أوزير» أمامي … انظر إنه «رع» الذي معي معلنًا الطريق الخاصة ببحيرتي «شو» (إله الجو)؛ وإني فلان الذي أحيا «أوزير».»

ثم يشاهد بعد الحجرة التي تكلمنا عنها في الصف الأعلى من المصور مبنى قُسِّم قسمين أفقيين يفصلهما شريط أحمر، ويلاحظ أن القسم الأعلى أضيق من الأسفل، وفيهما شُق الطريقان، فأعلاهما يمثل نهرًا متعرِّجًا أزرق اللون، أما الطريق السفلية فمتعرِّجة كذلك ذات لون أسود.

وعندما كان يصل المُتوفَّى إلى هذه النقطة في رحلته كان لزامًا عليه أن يسلك الطريق التي اعتزم انتهاجها؛ لأنه كان حتمًا عليه أن يستمر في السير فيها مهما كان الأمر؛ إذ كان محظورًا عليه أن يحيد عنها، أو يلتفت يمينًا أو يسارًا، أو يرجع خطوة واحدة إلى الوراء؛ إذ كان في ذلك هلاكه؛ لأنه كان يوجد بين هاتين الطريقين بحيرة مستقيمة طويلة من النار كان مصيره السقوط فيها إذا حاد عن الطريق، وقد مثلت على المصوَّر بالخط الأحمر الذي يفصل بين شقي الصف الأعلى الذي نحن بصدده الآن.

وسنفرض الآن أن المُتوفَّى قد اختار لنفسه السير في طريق الماء ليصل إلى عالم الآخرة الذي فيه «أوزير»، فكان أول واجب عليه أن يبتدئ رحلته عند النهاية العليا

[٨] Schackenberg, ibid, ch. I, L. 1–11.

للصف الأعلى من المصوَّر حيث يبتدئ النهر ذو اللون الأزرق، ومن ثم ينحدر هذا النهر بشدة وينطلق محاذيًا بحيرة النار مسافة قصيرة، وبعد ذلك يتعرَّج كثيرًا، ويشاهد في أول هذه الطريق شيطان جاثم بمثابة حارس، وقد مثل في صورة تمساح أحمر الجسم يقبض بيده على سكين ضخم مهدِّدًا به كل من يحاول الاقتراب منه، (انظر رقم ٩) وقد كمن أمام بناء مستطيل الشكل أصفر اللون، والظاهر أن هذا المبنى مسكون بطائفة من الأرواح؛ وبعد أن يجتاز المُتوفَّ هذا المبنى يجد النهر يسير مصعدًا في منحنى شديد، وقد أقيم على الجانب الأسفل منه بناء آخر مستطيل الشكل كالسابق، ويظهر أنه مسكون بأرواح أيضًا (انظر رقم ١٤). ثم يصادف المُتوفَّ تمساحًا أصفر اللون مسلحًا بسكين عظيم، غير أن رأسه هنا يشبه رأس الحمار، وله قرنا غزال، وقد كمن جاثمًا على بناء مستطيل آخر مقبب أصفر اللون، وهذا البناء مسكون كذلك بأرواح (انظر رقم ١٨)، وبعد أن يجتازه الراحل بأمان يعترضه حارسان آخران خبيثان في طريقه، أحدهما في صورة شيطان رجيم له رأس حمار وجسم ثعبان، يخرج من رقبته ثعبان آخر رافعًا وجهه أمام هذا الشيطان؛ ولا بد أن المقصود من خروج الثعبان الثاني من رقبة هذا الشيطان، هو جعله مؤذيًا؛ لأن جسم الشيطان وحده في صورة جسم ثعبان لا يجعله مؤذيًا؛ وذلك لأن رأس الحمار لا يمكنه أن ينفث سم الثعبان القاتل، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن له مخالب ليقبض بها على سكين، وهو يحرس أحد البنائين المستطيلين اللذين يظهران مختفيين جزئيًّا في منحنيات النهر، وكان لزامًا على الراحل أن يمر بهما (انظر رقم ١٩ و٢٠).

أما البناء الثاني فيظهر أن حارسه إوزة تقبض بيدها على سكين، ويحتمل جدًّا أنها تمثل الإله «ست» إله الشر في إحدى مظاهره المؤذية، ويساعد هذين الحارسين ثعبان متدلٍّ من نهاية منحنى النهر الواقع بين البناءين المستطيلين السالفي الذكر، وهذا الثعبان يرمز للتضليل عن الطريق المستقيم، أو بعبارة أخرى يمثل طريقًا مضللة من يتبعها يُحرق في لهيب بحيرة النار. ولدينا متن على تابوت «برلين» يشير إلى هذا، وهذه الطريق المتفرِّعة الخطرة قد ظهرت على تابوت متحف القاهرة رقم ٢٨٠٨٥ (Lacau, Ibid, Pl., LVI) وهي متفرِّعة من النهر الأساسي الذي يسبح فيه المتوفى، غير أنها لم تُذكر في المتن، ولكن من جهة أخرى نجد أنه قد عبر عنه في تابوت رقم ٢٨٠٨٩ (Lacau, Ibid, Pl. LVII) دون أن يرسم بالألفاظ التالية: «الطريق الخاصة التي يجب ألا يسير فيها الإنسان.»

ويلحظ أن الطريق بعد اجتياز هذه العقبة قد أصبح خاليًا من الشياطين، وأهم ما يصادفه الراحل بناء مستطيل لونه أصفر ويُرى مقامًا على انحناء سفلي في النهر، ثم يرتفع في علوه حتى الإطار الأزرق الخارجي (انظر رقم ٢٢)، وتخبرنا النقوش المفسرة له أنه حقل «القربان المشهور» الذي سبق الكلام عنه. بعد ذلك يشاهد أن النهر يصعد من هذا المنحنى حتى الإطار الأزرق الذي يحيط بكل عالم الآخرة، ثم ينثني كرة أخرى وينتهي عند شاطئ بحيرة النار أمام جدار سميك؛ وبذلك ينتهي الجزء الأول من طريق الماء.

وجدير بالملاحظة هنا أن الرسام قد قلب وضع المتون المفسرة للرسم، فجعل متن طريق الماء مكان متن الطريق البرية، وكذلك يلاحظ أنه ليس هناك فرق عظيم بين متن تابوت «برلين» ومتون «توابيت القاهرة» في هذا الجزء من المصوَّر؛ ولذلك سنكتفي بترجمة متن تابوت كامل من توابيت القاهرة مع إضافة الزيادات الهامة التي تكون في متن «برلين».

ترجمة المتون الخاصة بالجزء السابق

(أولًا) نجد مكتوبًا على بحيرة النار ما يأتي: (٢٧)

> بحيرة النار العظيمة المحاطة باللهب، وكل إنسان لا يعرف أن يدخل في النار فإنه سيعذَّب فيها. وأن الراحل وريث الإله «أوزير» الذي سيمر هناك بباب بحيرة العدل.

وعند بداية الطريق المائية كُتبت تعويذة كان لزامًا على الراحل أن يتلوها (١٠) قبل أن يبتدئ رحلته المحفوفة بالمخاطر، غير أنها كما سبق الإشارة إلى ذلك خاصة بمتن الطريق البرية، وهي تعويذة أوزيرية الصبغة، فاستمع إليها:

> إني أنا الذي ولد في «روستاو» ووارث «أوزير» (أي ابنه حور)، وأن اسمي أصبح منعمًا بوساطة الذين أصبحوا منعمين (وهم الملوك الذين تُوفوا) هناك في «بوتو» وفي معبد «أوزير»، وهم الذين تتقبلهم آلهة الأرض (الثعابين) في «روستاو» عندما يقودون «أوزير» في المكانين المقدسين له، وإني أحد قوَّادهم إلى مكاني «أوزير» المقدسين (ما يقابل على الأرض الوجه القبلي والوجه البحري).

ولا بد أن هذه التعويذة كانت تُتلى للتمساح ذي الرأس الآدمي (انظر رقم ٨)، وسُمي «الحارس صاحب الصوت المحزن».

ونجد داخل المستطيل الأصفر اللون أسماء طائفة من الجن وقد عبر عنهم بما يأتي: (١١) «هؤلاء الذين فيه» (أي في هذا المكان)، وهاك بعضهم: (١) «الصولجان المهدَّم» (٢) «الصولجان المحرق» (٣) «الصولجان العظيم». وبعد ذلك نقرأ تعويذة خاصة بالمحافظة على الراحل من الأخطار التي تعترض سبيله وهي: (١٣) «إني واحد من قوادهم وإني «أوزير» المنعم سيد المنعمين، وواحد منعم يؤدي الشعيرة، وأنه «أوزير» الذي يحيا، وأنه «أوزير» الذي يحتفل بعيد اليوم الخامس عشر، وأنه بشير عيد نصف الشهر، يا «أوزير» الراحل الذي يعمل دورته اليومية مثل الشمس، ويا عين «حور» التي أعطيت «حور»، وهي التي كانت قد أعطيت «تحوت» ليلًا، (هذه إشارة إلى الاعتقاد القائل بأن عين «حور» اليسرى هي القمر)، عندما كان يسبح في السماء منتصرًا في سلام، وأنه يسبح في سفينة «رع». تأمل! إني فلان عظيم الاسم، وإنك تجعل اسمي عظيمًا على الطريق الحق، وإن ما أرتعد منه هو قاعة محاكمة الشر، وإن صفاتي هي صفات «حور» بكر أولاد «رع» الذي أوجد قلبه. إن «أوزير» الراحل ليس مصفدًا في الأغلال، وأنه لم يُطرد عند الأبواب». وفي رواية أخرى: «إن ما يخافه «أوزير» الراحل هو أن تحفر الأرض بالدم، وإن صفات «أوزير» هي صفات «حور» بِكر أولاد «رع» الذي أحيا قلبه.» وعبارة «حفر الأرض» بالدم تشير هنا إلى شعيرة كانت مرعية خلال عيد يحتفل به في «بوصير»، وهذا العيد كان يطلق عليه اسم «عيد حفر الأرض بالدم»؛ وتفسير ذلك أن الأرض كانت تُحفر باحتفال بعد أن تُروى بدم الأعداء المذبوحين؛ لأجل أن تصير خصبة، وخوف «أوزير» هنا هو خوفه من أن يراق دمه على الأرض التي ستحفر في هذا العيد (Relig. Urk. P. 127).

وهذا العيد في الأساطير المصرية كان يتمثل في عصبة الإله «ست» إله الشر وشركائه في قتل «أوزير»، وهم الذين تحولوا إلى ماعز أو كباش في بلدة «بوصير»، ثم ذُبحوا أمام مجلس القضاة، وبعد ذلك أُخذت دماؤهم وأعطيت للسكان في «بوصير» ليسمدوا بها أراضيهم.

وفي هذه التعويذة نشاهد أن الإله «تحوت» ومذهبه الذي كان مقر عبادته بلدة «هرموبوليس» (الأشمونين الحالية) قد برزا تمامًا. كما يلاحظ أن الإله «تحوت» هو الذي أعاد للإله «حور» عينه (والعين هنا هو القمر) بسلام؛ في حين أن «تحوت» نفسه كان

يمثل القمر سابحًا في كبد السماء منتصرًا على الظلام الذي كان يمثل «ست» إله الشر والظلمة.

ونرى أنه عندما صار المُتوفَّى منتصرًا؛ أي مبرئًا من كل ذنوبه أمام محكمة العدل، وأصبح يتحلى بكل صفات «حور الأكبر»، أمر حارس الباب أن يخلي سبيله ليدخل من الباب الذي يؤدي إلى «روستاو». والظاهر أن هذه التعويذة كانت تتلى عند الاقتراب من البناء المستطيل الأصفر الثاني، (١٤) وهو الذي كتب فيه أسماء ستة عفاريت أخرى وهم (١) «انحر». (٢) «الصوت العظيم». (٣) «مين». (٤) الثائر. (٥) الهائج. (٦) ...

أما الشيطان الذي مثل بتمساح له رأس حمار فاسمه «المراقب اللاعن» (١٥) وكذلك كتب في داخل المستطيل المقبب السقف (رقم ١٨) أسماء ستة كائنات، وهي إما جن خلقت من مارج من نار في صورة كائنات، وقد وصلتنا أسماؤهم أما صورهم فقد تُركت لخيال القارئ، وهاك الأسماء: (١٨) (Lacau, Ibid, P. 197 (18); Berlin Coffin, Ch. XII b, 1–4).

(١) النار المحرقة. (٢) اليقظ القلب. (٣) المتنبه الوجه. (٤) حاد الوجه. (٥) الذرب. (٦) العالي الصوت.

أما اسم الشيطان الذي له رأس حمار وجسم ثعبان فهو المراقب «المقنع الوجه»، (١٥) والثعبان الناري يدعى: «البحيرة التي تقطر» (نارًا) (٢٠)؛ وقد وصف بأنه يعيش مع الذين يعيشون في بيت الشاطئ (أي شاطئ بحيرة النار).

بعد ذلك يجد الراحل الطريق خالية مسافة قصيرة من الشياطين، غير أننا نجد الإرشادات التالية قد دوِّنت فيها (١٦): «هذه هي الطريق، وهذه هي التعويذة للمرور عليها (أي على الطريق)»، ثم يتلو الراحل التعويذة التالية التي على ما يظهر تحدِّثنا عن أشياء خاصة بالسعادة المقبلة (١٧):

> إن «أوزير» الراحل هو الإله «روتي» المسلح (أي الإله «رع» في صورة أسد)، وإن «أوزير» الراحل يعتبر ضمن أتباع أول أهل الغرب (أي أتباع أوزير) يوميًّا، وأراضيه في «حقل القربان» بين الذين يعرفون الشعائر المقدسة، وبين عمال «أوزير» الراحل، وهو الكاتب الذي بجانب «تحوت»، وإني أنا الراحل الذي يطهر «أوزير» هذا، ويطلق البخور يوميًّا بين الذين يحضرون القربان، وقد أمر «أنوبيس» (إله الجبانة) أولئك الذين يحملون القربان «لأوزير» الراحل بألا يأخذها منه أولئك الذين في الأسر، وإن «أوزير» الراحل مثله كمثل الأفق الأعلى، يبشر بمقدم المُتوفَّى عند الباب (باب الجنة).

والظاهر أن الباب المذكور هنا، وهو باب المبنى الأصفر المستطيل، فيه الخيرات والنعيم، ويدل على ذلك متن قد سبقه وهو بمثابة مشجع للراحل وعد فيه بالمتاع الذي ينتظره فاستمع إلى ما جاء فيه (٢١):

> إن كل روح من أرواح الشاطئين (أي شاطئا البحيرة النارية) قد وُضع فيه (في هذا المبنى) بين أتباع «أوزير»، أما التابعون الذين يقطنونه فإنهم أولئك المنعمون الذين يجلسون فيه في حماية الشاطئين هناك على مقربة من ربهم، وهم سكان حقول القربان الذين يطعم معهم «أوزير»، وكذلك كل سكان حقل القربان ممن يؤتى لهم بخير منه مع «أوزير» يوميًّا.

ومن مدلول هذا المتن نعلم أننا أمام حقل القربان السماوي الذي جاء ذكره في «متون الأهرام» بوصفها متونًا شمسية، ولكنه هنا قد صبغ بالمذهب الأوزيري لشيوعه في هذا العصر، وهو الذي كان مقره على الأرض في «عين شمس» كما سبق تفصيل ذلك.

وكان الراحل يعتقد أنه ليس في مقدوره التمتع بطيبات «حقل القربان» إلا إذا كان مجهزًا بالتعويذة التالية التي كُتبت في المكان الذي يتلو هذا البناء الأصفر.

.(Lacau, Ibid, P. 191 (25–26); Berlin Coffin, Ch. XII b. 39–50)

وهي: (٢٥ و٢٦) «تعويذة لوجود الإنسان في «حقل القربان» بين الآلهة أتباع «أوزير» كل يوم طعامهم ... بين الأحياء، وأنهم ليسوا أمواتًا أبدًا، ونصيب الراحل من الحقول موجود هناك، وهو يرى «أوزير» كل يوم، وكذلك «تحوت»، وأنه لن يصده الأشرار أرباب الأبواب، (أي حراسها)؛ لأنه ليس من بين أولئك الذين ذهبوا ليوقع عليهم العقاب.»

وقد ذكرت هذه التعويذة على مصوَّر تابوت «برلين» مع بعض اختلافات وهاك ما جاء فيها:

> تعويذة لوجود الإنسان في «حقل القربان» بين الذين بعثهم أوزير، وبين أتباع «تحوت»، ومعهم خبزهم بين الأحياء الذين لا يموتون، بل مُنحوا ريح الحياة في أنوفهم ... وهم الذين لا يموتون أبدًا، وكل إنسان يملك نصيبه من الخصب في حقل القربان، وسيرى «أوزير» كل يوم مع «تحوت» ولن يطرده الأشرار حراس الأبواب الذين يصدون البطش.

وبهذا تنتهي المتون التي دوِّنت على الجزء الأول من طريق الماء على تابوت القاهرة الذي نحن بصدده.

وصف طريق البر إلى عالم الآخرة

والآن نعود بالقارئ لبحث الطريق اليابسة التي كان يسير عليها الراحل إلى عالم الآخرة إذا وقع عليه اختيارها.

ولأجل أن نفهم سيره في هذه السبيل يجب علينا أن نعود بالقارئ إلى الحجرة الخلفية التي تتفرع من الطريق الثانية من ركنها الأسفل الواقع خلف جدار من نار، عند هذه النقطة يتفرع طريق اليابسة ذو اللون الأسود ويسير بانحدار ملتوٍ يأخذ في الاتساع حتى يصبح منحنيًا واسعًا، وعند هذه النقطة يعترض الراحل أول شيطان حارس للطريق في صورة «بو الهول» له رأس إنسان ذو لحية طويلة، ويحلي رأسه قرص شمس وضع على قرني كبش، وجسمه وقائمتاه الخلفيتان لأسد. أما قائمتاه الأماميتان فتشبهان الدودة التي كان المصري يفزع منها في كل زمان ومكان خوف أن تأكل جسمه بعد الموت، والظاهر أن هذا الحيوان الغريب في مجموع أعضائه كان من مارج من نار.

بعد ذلك يعترض الراحل في سيره انحناء ثانٍ يقوم بحراسته حارس في هيئة كلب أصفر اللون، ويلاحظ أنه واقف على قائمتيه الخلفيتين، وقابض بمقدمتيه على سكين. ونجد في نفس هذا الانحناء شيطانًا آخر في صورة «بو الهول» له رأس إنسان محلى بريشة، ويقبض بمخلبه على سحلية ويلتفت خلفه، والظاهر أنه حارس غير مؤذٍ؛ إذ يحدثنا المتن أنه يعلن قدوم الراحل. ويعقب هذا الانحناء سبيل مرتبك متشعب يخرج منه ثلاث طرق كلها مسدودة، والجزء الأوَّل من هذا المكان المتشعب النواحي على هيئة مربع منحرف الأضلاع. ويرى في شيطان حارس جسمه جسم دودة ورأسه رأس ثور، وفي الجزء الثاني من هذا المكان، وهو بناء متوازي الأضلاع، ويُرى حارس في صورة حيوان صغير ذي رأس أسود يشبه رأس الحمار وجسمه جسم نمس، ومن المعلوم أن النمس كان حيوانًا مقدسًا يرمز به للإله «آتوم»؛ أي الشمس عند الغروب.

وبعد أن يخرج الراحل من هذا المكان المعقد المسالك بسلام؛ يعترضه في بداية المنحنى الذي كان ينزل فيه حارس في صورة قط ليس له قوائم خلفية، واقف في الفضاء على مقدمتيه على ظهر سكين عظيم، ولا يكاد الراحل يفلت من خطر هذا الشيطان الحارس حتى يعترضه في طريقه ثعبان أزرق اللون له رأسان، في كل طرف من نهايتي

جسمه رأس، ويشاهد بجواره ثعبان آخر يتجه اتجاهًا مضادًا للحراس السابقين، وشكله عادي. وفي الانحناء العميق الذي يقع فوق هذين الثعبانين نشاهد كائنًا خرافيًّا له رأس كبش أسود اللون وجسم دودة حمراء، وكذلك يشاهد قبالة الثعبان الأزرق السالف الذكر فرس بحر ضخم أحمر اللون يقف على مؤخرتيه ويقبض بمقدمتيه على سكين ضخم، ويلاحظ أن الطريق من فوقه منحنية ومنحدرة انحدارًا شديدًا، متجهة إلى أعلى وينتهي هذا الانحدار عند بحيرة النار قبالة نهاية الطريق المائي التي في الصف الأعلى، ويقف في نهاية هذه الطريق البرية حارس آخر في صورة قرد يلَوِّح بيده سكين، ولا يفوتنا أن ننوِّه هنا بأن القرد هو الحيوان المقدس الذي كان يتقمصه الإله «تحوت»، كما كان يظهر القرد كذلك في صورة روح مخيف مسلح بشباك صيد السمك، كما جاء ذكر ذلك في كتاب الموتى (Book of The Dead, Ch. CLVIII b).

ولا بد أن نلاحظ هنا أن المصوَّر الذي رسم على قعر تابوت «برلين» يختلف عن مصوَّر تابوت القاهرة في بعض النقط، هذا فضلًا عن أنه خالٍ من الرسوم الدالة على صور أولئك الحراس الذين وجدناهم على تابوت القاهرة، وقد سبق وصفهم.

المتون المفسرة للمناظر السالفة

وبعد وصف الطريق وما فيها من عقبات نتكلم عن المتون التي تفسر لنا ماهية الصور التي عليها، وهي التي وصفناها فيما سلف.

ففي البداية نجد متنًا قصيرًا بمثابة مقدمة وهو (٢٨):

> هذه التعويذة خاصة بالمرور عليها (أي على الطريق) وإنهم (أي الحراس) أصحاب هذه البحيرة.

وهذا المتن في الواقع هو مقدمة لتعويذة يجب على الراحل تلاوتها، وكما أسفلنا فإن هذه المتون التي نجدها مع «الطريق البري» هي في الواقع خاصة بالطريق المائية؛ إذ نجد متنًا مقابلًا لها على مصور متحف برلين غير أنه مهشم. (Lacau, Ibid, P. 192 (30); Berlin Goffin, Ch. XII, c. 3–8).

والتعويذة (٣٠) هي: «دعني أمر بسلام، إني أسلك طريقي، دعني أقلع بالسفينة، إن صفاتي هي صفاتها (أي السفينة)، وما ينبغي أن يعمل ضدي سيعمل ضدها إذا اتفق أنكم قمتم بعمل شيء ضدي، وإن واجبي أن أكون ضد التمساح (الخطر).»

وبعد هذه التعويذة يذكر لنا اسم الحارس الأول الذي مثل في صورة «بو الهول» وهو (٢٩): ««اللاعن الذي يصد التمساح»، هذا هو حارس المنحنى وهذا هو اسمه»، وبعد أن ينجو الراحل من خطر هذا الشيطان، كان عليه أن يتلو التعويذة الآتية لأجل أن يعتصم من الأخطار التي كانت تقترب منه بسرعة وهي: (٣٢) «إني إنسان يصيد التماسيح عندما تقترب منه، ويملك بيضة «رع» (قرص الشمس) فيخفيها اليوم ويظهرها في الصباح المبكر، وإن حارسها هو مخفيها، وإني أنا المهاجم له، وإن أبغض شيء عندي أن أنثني عندما أتعرَّف عليه، وإنه لن يسكن في الأفق؛ لأني سأقصيه مع الإله بوصفه ثائرًا» (ضدِّي).

ويظهر أن هذه التعويذة كانت موجهة لشيطان حارس في صورة حيوان يشبه الكلب اسمه «مدس حر» (صاحب الوجه القاطع) حارس الباب هذا هو اسمه.» أما «بو الهول» الذي يقوم بحراسة المنحنى الذي يأتي بعد الأول فقد كتب معه الشرح التالي (٣٣) «اسمه «معكتي نتر» (أي الحامي المقدس) وهذا هو حارس المنحنى، وأنه حارس من ينزل فيه (أي المنحنى).» على أنه توجد تعويذة لاتقاء خطر هذا الحارس وهي: (٣٤) «لقد أتى الراحل مثل «حور» فخار الأفق السماوي عند أبواب الأفق، وإن الآلهة تفرح عند اقترابه، وحينئذ يكون شذى عبير الآلهة متجهًا نحوه، ولن ينتابه شر حراس الأبواب، ولن يعادوه، وإنه الخفي الوجه في معبد الإله.»

نذكر بعد ذلك التفسير الذي صحب الشيطان الممثل برأس ثور (٤١) وجسم دودة وهو (٤١): «إن وجهك وجه فرس بحر يضرب الغاضب (أو القرن الذي يطعن الغاضب)»؛ وعلى ذلك يلاحظ أن الرسام لا بد قد أخطأ في رسمه، وقد كان لزامًا على الراحل أن يتلو التعويذة التالية ليمر بسلام في الجزء الثاني من هذا المكان وهي: (٤٢) «هذه هي التعويذة الخاصة باختراقها (أي الطريق) بالذين على بحيرتهم.»

ويأتي بعد ذلك اسم الشيطان الحارس الممثل برأس حمار وجسم نمس وهو: «وجه حمار» هذا هو اسمه.» أما التعويذة التي كان يتلوها الراحل لينجو من شر هذا الشيطان الحارس فهي (٣٥): «إني فلان صاحب الاسم العظيم، وإني أنا العظيم الذي يمهد طريق «ماعت» (العدالة)، وإن ما أشمئز منه هو مكان المحاكمة الظالمة، وإن صفاتي هي صفات حور الأكبر الذي نفذ ما يرغب فيه، وعلى ذلك لن يقبض علي، ولن أصد عن الأبواب، وإني الراحل بوصفي «روتي» (إله الشمس) المسلح، وإني «حقات» (إلهة تحمي «أوزير») سيدة المحيط الأزلي، وإني أعيش على الآثم، وإني أرث أفق «رع»، وإني

الراحل بوصفي «آتوم» (الشمس المغربة) رب السكين، وإني أقول بأني أرث الأفق، وإني أمهد طريقًا للإله «رع» عندما يضع الوراثة، وإني أعرف اسمه.»

بعد ذلك يأتي متن في صورة خطبة يشرح فيها الراحل كيف تُفتتح أبواب السماء والأرض أمام قوة الشمس القاهرة، وهو (٤٤):

> فصل في تنعيم الروح الذي ولد من «أوزير» يقول الراحل: لقد فُتحت أبواب السماء، لقد فُتحت أبواب الأرض، لقد فُتحت أبواب الغرب (الآخرة)، لقد فُتحت أبواب الشرق، لقد فُتحت أبواب محاريب الجنوب والشمال، ولقد فُتحت الأبواب والبوابات على مصارعها عندما يشرق «رع» من الأفق، ولقد فتحت له أبواب سفينة الشمس الليلية، ولقد فتحت له أبواب سفينة الشمس النهارية عندما يصل «شو» (إله الفضاء) وعندما يخلق «تفنوت» (إلهة الندى) وهما اللذان كانا يتبعانه من بين الذين في ركابه.

وهنا نجد الثعبان أو الحية ذات الرأسين يعترض الطريق وقد كتب اسمه (٤٥): «سركت» التي على امتداده (أي على امتداد الطريق).

أما المنحنى العميق الذي يأتي بعد ذلك فكان يحتاج اجتيازه إلى تعويذة خاصة يتلوها الراحل حتى يمر بالحارس دون أن يلحقه أذى، وعنوانها هو (٣٦): «إنه فصل للمرور عليها (أي الطريق) (Lacau, Ibid, 36; Berlin Coffin, Ch. XII d, 7).

أما التعويذة نفسها فهي (٣٧): إني فلان الذي يبلِّغ رسالات الإله «رع»، ولقد حضرت، وإني أبلغ الرسالة لسيدها.» والظاهر أن التعويذة كانت موجهة للشيطان الذي رأسه رأس كبش وجسمه جسم دودة، وقد كتب عنه (٣٨): «إنه حارس المنحنى واسمه صاحب الوجه الذي ينبئ عنه والذي يعيش على القذى.» وكذلك نعلم عنه ما يأتي (٤٦): إنه هو الذي في المنحنى.»

أما الثعبان العادي فقد ذكر عنه (٤٧، ٤٨) أنه حارس المنحنى (أو حارس منحنى البحيرة) الذي يصد حامل المقمعة، والذي يخاطب والدته في صورة «شيفت» (إله في صورة كبش يُعبد في إهناسية المدينة).»

أما التعويذة التي كان يجب على المُتوفَّى أن يتلوها ليفر من سكين الحارس الذي في صورة فرس البحر فإنها وجدت على كل من تابوت القاهرة وتابوت «برلين» وهي (٤٩): «إني فلان صاحب الأوجه العدة الذي يجعل صوت السماء يرعد، والذي يصعد إلى

«رع» (أو الذي يبلغ الصدق «لرع»)، والذي يقمع قوة «أبو فيس» (الثعبان عدو رع)، ويخترق القبة الزرقاء، ويقف عاصفة (أو ثورة) نواتي الإله «رع»؛ وذلك لأني أعطيت سيفي الذي أخفيته، وأعلنت حضور رب القربان في صوره إلى المكان الذي هي فيه (أي سفينة الشمس).

وأخيرًا قيل عن القرد الحارس الذي يقف في نهاية الطريق البرية ما يأتي (٣٩–٤٠): «عظيم الوجه الذي يصد التماسيح حارس محرابه.» وكذلك قيل عن القرد والتمساح معًا: «إنهما حارسا منعطف البحيرة.»

وبذلك ينتهي الجزء الأول من الطريق البرية، والواقع أن وصفه هي وصف الطريق المائية.

(٤-٢) الجزء الثالث من مصور تابوت القاهرة رقم (٢٨٠٨٣)

لقد لاحظنا في الجزء السابق أن كلًّا من طريق البر وطريق الماء ينتهي عند شاطئ بحيرة النار أمام جدار سميك قد مثل عليه ثلاثة أبواب سود موضوعة بعضها فوق بعض يؤدي كل منها إلى الإقليم الذي يقع خلفه، فالباب العلوي منها على ما يظهر كان خطره لا يقل عن الخطر الذي كان يتهدَّد الراحل حتى الآن عند الأبواب التي مر منها، والمساحات التي تقع خلفها هذه الأبواب قد قُسمت أفقيًّا في الرسم ثلاثة أقسام يفصل كل منها عن الآخر حاجز من نار، وكل جزء يحتوي على ساكنيه من الشياطين العجيبة الخلق، الشاذة التركيب، ولكن يظهر أنه لم يخلق واحد منهم من مارج من نار، ففي القسم الأعلى نجد حارس الباب الرئيسي له جسم دودة ورأس تشبه رأس القط أو رأس ابن آوى، وكذلك مقدمتاه، ويشاهد ملوِّحًا بسكين في كل من مخلابيه ويشاهد خلفه مباشرة كبش أسود طبعي الشكل، هذا وقد رسم خلف الحارس الأول عشرة كباش جاثمة، وكل منها على حامل، ويلحظ أنه في يد كل من ثمانية منها سكين، وكذلك يرى أن خمسة منها قد رشق في مؤخر كل منها سكين، وهذا القسم يعلوه حاجز من نار.

أما الجزء الثاني الذي هو أسفل السابق فنجد أن الحارس الأول الذي عند الباب مباشرة قد مثل على هيئة رجل قد مثل نصفه الأسفل خط سميك متموِّج أسود اللون ويحمل في يده عصا، أما الحارس الذي يليه فهو في صورة آدمي مثل جالسًا في الفضاء؛ وهذا الوضع نشاهده كثيرًا في الرسوم الخاصة بعالم الأرواح المصرية، ويوجد بكثرة في كتاب «ما يوجد في العالم السفلي» وفي «كتاب البوابات»، وهذا المخلوق يحمل في يده

سيفًا عظيمًا، ويشاهد خلفه مباشرة عشرة رءوس كل منها يمثل رأس أرنب ومرتكزة على حامل أسود متموِّج قد رشق فيه سكينان واحد منهما أسود والآخر أبيض اللون.

أما القسم الثالث فنجد الحارس الأول الذي يقف عند الباب مباشرة قد مثل في صورة آدمي محنط له رأس كلب أو ابن آوي، ويلاحظ أنه قد وضع يده على الباب إما ليفتحه للراحل الذي كان يعرف التعويذة السحرية الحقيقية، أو ليمنع فتحه لكل من يجهل هذه التعويذة، وخلف هذا الحارس يشاهد قط محنط يحمل في يده قضيبًا، وخلف هذا الحارس يأتي سبعة جعارين سود يرتكز أسفل كل منها على عماد ملتوي الشكل، وينتهي كل من هذه الأقسام الثلاثة بباب أسود كالذي نجده عند بداية كل منها، ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا الرسم يختلف عن الرسم الذي على توابيت القاهرة الأخرى.

وأهم ما يلفت النظر في هذا الجزء من «كتاب الطريقين» هو أشكال الشياطين الحراس، فبعضها قد صُبغ بصبغة المذهب الشمسي الصريح؛ إذ نجد أن الكباش تمثل الكثير من الآلهة المصرية مثل الإله «آمون رع» والإله «خنوم» والإله «حرشاف» وكذلك الإله «رع» نفسه بوصفه إله الشمس ليلًا.

أما مجموعة الكائنات الثانية التي مثلت في الجزء الثاني برءوس اثني عشر أرنبًا فإنها تعيد إلى ذاكرتنا في الحال مجموعتي ساعات الليل والنهار، وقد رمز لعددهما هنا بالسكين الأسود والسكين الأبيض المرشوقة في العمود الأسود المتموج الذي يرتكز عليه كل رأس من هذه الرءوس.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الأرنب كان الحيوان المقدس الذي كانت تتقمصه الإلهة «وننت» التي كان يرمز بها للمقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي، وعاصمتها «الأشمونين» الحالية، وهي المقاطعة التي كان يعبد فيها الإله «تحوت» إله القمر، هذا فضلًا عن أن كلمة ساعة كانت تكتب بصورة الأرنب في اللغة المصرية القديمة.

أما مجموعة الكائنات الثالثة في القسم الثالث وهي الجعارين فهي معروفة لنا بأنها صور لإله الشمس «خبر» وقت الصباح.

المتون الخاصة بهذا الجزء التي على التابوت ٢٨٠٨٣

نقرأ أمام الجدار الذي فيه الأبواب السوداء التعويذة التالية (٢٤): «تلك هي الثعابين حراس الأبواب المشرفون على الطريق»؛ وتشير بطبيعة الحال هذه التعويذة إلى أن بعض

الثعابين كانت حراسًا لأبواب هذا القسم الجديد من عالم الآخرة، غير أنه قد أهمل رسمها على المصورات التي وصلتنا حتى الآن. ولكن من جهة أخرى نجد فيما بعد في «كتاب البوابات» أن كل بوابة من البوابات الإحدى عشرة الخاصة بعالم الآخرة كان يحرسها ثعبان، في حين أن صلالًا كانت تمطر من الجزء الأعلى من البوابات وابلًا من اللهيب (Budge, "E. H. H.", Vol. II, PP. 87, 101, 121, etc) ويشاهد على أول باب من مصورنا المتن التالي (٥١) (Lacau, Ibid, P. 195) «النار التي يبعدها هذا الشيطان.» وهذا المتن قد وُجد مكررًا على البابين الآخرين.

والظاهر أن الحارس الأول لم يسمَّ، أما الحارس الآخر وهو في صورة كبش أسود فنُعت (٥٤) «رب الغضب»، في حين أن الكباش الجاثمة لم يذكر إلا اسم واحد منها وهو (٥٥) «عظيم الريح». وقد أطلق على جميعها اسم (٥٦) «الحرَّاس» عامة؛ ولذلك نجد أنهم نُعتوا في المتن بالذين في حراسته (أي الباب)، ولا بد أنهم هم الحراس الذين جاء ذكرهم في التعويذة التي كان يتلوها الراحل لأجل اقتحام هذه العقبة، والتعويذة هي (٥٧) «إني فلان عظيم الصوت في السماء وأنتم يأيها العظماء، ابتعدوا يأيها الحراس (أي الأموات)، إني أنا الذي أمهد الطريق لأسيادكم.» وعنوان هذه التعويذة هو: «فصل المرور عليها» (يقصد المرور بثلاثة الأبواب التي كان لا بد أن يمر منها الراحل، أما اسم الحارس الأول الذي يحرس القسم الثاني فهو (٦١): بيت نافث اللهيب»، واسم الشيطان الجالس في الفضاء في صورة إنسان هو (٦٢): «صاحب الأوجه النارية». أما الكائنات التي مثل كل منها برأس أرنب فقد أطلق عليها اسم (٦٠): «الحراس له» (أي الباب)، وكذلك كانوا ينعتون (٦٣): «أرباب الصولجانات»، هذا فضلًا عن أننا نجد العنوان التالي: «فصل المرور عليها (أي الطريق).» ثم يتلو ذلك نص التعويذة (٦٤): «إن وجهي مثل وجه» حور «ومثل وجه التاج العظيم، والصولجانات ملكي، وإني أنا الراحل.»

والظاهر أن هذه التعويذة كانت تمكن المُتوفَّى من المرور؛ إذ نجده يوحد نفسه بتلك الكائنات التي كان لزامًا عليه أن يمر بها، وفي هذه الحالة كان يدعي لنفسه السيادة عليهم، وكان الحارس الأول للقسم الأول يُسمى (٦٨): «صاد الأعداء»، (٦٩): «ضارب الوجه»، أما تسعة الجعارين التي نشاهدها في المصور بعد هذا القط فكان يطلق عليها لقب (٧٠): «الذين وكل إليها أمرها» (أي أمر الطريق)، وكان لزامًا على الراحل أن يتلو (٦٦): «فصلًا للمرور عليها»، وهذا الفصل هو (٧١): «إني أنا الراحل الذي يجلس أمام عين «حور» لأقيم العدل بوصفي «تحوت» (مثل رع) وإن صفاتي صفات

«تحوت» (الذي كان يجلس عند المحاسبة ويشرف عليها).» وبعد ذلك يواصل الراحل سيره فيصادف بعد تخطي هذه الأبواب برجًا عاليًا أزرق اللون، وقبته حمراء كتب عليها كلمة (٧٢) «نار». والواقع أن الراحل قد دخل الآن جزءًا هامًّا من عالم الآخرة، وقد أفلح الرسام في تصويره تصويرًا منطقيًّا. فقد قسم هذه المساحة المستطيلة الشكل ثلاثة أقسام أفقية، يحتوي القسم الأسفل منها على ما يظهر على متن مؤلف من سبعة أسطر أفقية قد مُحي معظمها، أما القسمان الآخران فتدل ظواهر الأمور على أنهما كانا مهبطًا لشياطين غريبة الشكل، وسنرى أنها قد وُزعت على مقدار طول الطريق، ويلاحظ هنا أنه قد صار يطلق على الطريق العلوية الطريق البرية، وهي التي كانت حتى الآن تظهر في الرسم بأنها الطريق المائية، رغم أن المتن الذي كان يفسر مناظرها يدل صراحة على أنها الطريق البرية.

ويلاحظ أنه كان مصورًا على القسم الأول في الأصل خمسة كائنات لم يبقَ منها إلا ثلاثة صورت في شكل آدمي ملونة باللون الأحمر، مما يدل على أنها قد خُلقت من نار، غير أن كل واحد من هذه المخلوقات العجيبة له رأس جعل، وقد مثل كل واحد منها جالسًا في الهواء، ويحمل في يده اليسرى صل، وفي اليمني سحلية.

أما القسم الثاني فقد كان مسكونًا بخمسة كائنات غريبة الشكل كذلك مُحي واحد منها.

ويلاحظ أن الكائن الأول قد مثل في صورة إنسان له رأس كبش أحمر اللون يجلس في الفضاء أيضًا، ويقبض بيده اليسرى على صل عظيم في حين أن صلًّا آخر يُرى خارجًا من فمه، ويواجه صفًّا من الكائنات العجيبة الشكل مُحي واحد منها، واثنان منها قد أصابهما عطب في النصف الأسفل منهما.

وأول هذه الكائنات الثلاثة الباقية ذو لون أزرق ورأسه رأس حيوان يصعب تحقيق نوعه، ويلاحظ أن سكينًا قد رشق في كتفه وآخر قد مرقت في دبره، وفي يده سحلية حمراء اللون. أما الكائن الثاني فهو قط أصفر اللون، والكائن الثالث يمثل ابن آوى برأس أحمر وجسم إنسان أزرق.

وهنا ينتهي هذا القسم من «كتاب الطريقين» ببرج أزرق اللون تعلوه قبة من نار، غير أنه ينقصه هنا شكل التيه الذي شاهدناه مرسومًا في نهاية القسم السابق. ومما أوضحناه نعرف أن الطريقين لا تزالان مستمرتين ولكنهما ليستا في العراء كما كانت الحال من قبل؛ إذ نشاهد من الآن فصاعدًا أنهما تمران في ربوع وطرق ومبانٍ مسقوفة.

نجد أولًا مكتوبًا على القبة الحمراء القائمة عند بداية هذا القسم كلمة «نار»، كما كُتب في داخل البرج نفسه تعويذة هامة وهي (٧٣): «تعويذة طريقي «روستاو» وهما الطريقان اللتان توصلان إليه، ومن سار على واحدة منهما فإنه محرم عليه السير على الأخرى؛ إذ يصد، ومن يعرف هاتين الطريقين فإنه سيجدهما دائمًا؛ وذلك لأن لهما جدرانًا عالية تحميهما مدى حادة خاصة «بروستاو». وهاتان الطريقان إحداهما على الماء والأخرى باليابسة.

ومن هذه التعويذة نعرف بوضوح أن المُتوفَّى قد حذر صراحة التردد بالعدول عن إحدى الطريقين بعد اختيارها؛ لأنه لو حاول ذلك كان فيه هلاكه، ومن ثم نعلم أن الطريقين لا تزالان مستمرتين، أما الإشارة إلى الجدران الشاهقة المحمية بالمدى فالمقصود منها ذلك البناء المقبب الذي وصفناه فيما سبق، والظاهر أن هذا الإقليم هو في الواقع «روستاو».

وبعد أن يجتاز المُتوفَّى البرج في سلام كان لزامًا عليه أن يتلو تعويذة أخرى؛ هي في الواقع تكملة للسابقة وهي (٧٤): يأيها المتعبون «الأموات»، والذين قد أكبوا بوجوههم على أحجارهم، ومن قد أخفيت محياهم، والذين يعيشون على صدقهم، ومن أسنانهم هي سن، «أوزير» (أي عمرهم مثل عمر أوزير)، إني أنا عظيم القربان في وقته المحدد، والذي يسلك طريقه في النار، والذي أحيا «أوزير»، وإني أنا الذي مهد الطريق، فدعوني أمر حرًّا، وأرى «رع»، وأكون بين أولئك الذين يقدمون القربان، (وإني أنا الواحد الخفي في المحيط العظيم، وإني محاكم الرجلين «حور» و«ست»، وإني قد أتيت ومحوت كل ضار بأوزير).

ومما ينبغي النص عليه هنا أنه بالرغم من أن هذا المتن أوزيري الصبغة، وأنه خاص «بروستاو» أن المُتوفَّى كان يعقد أمله الأخير على رؤية «رع»، على أن رؤيته كانت لا تتسنى له إلا نهارًا في السماء أو ليلًا في العالم السفلي. وكذلك يشير هذا المتن إلى «تحوت» إله القمر الذي لمح به عند ذكر الرجلين «حور» و«ست»، هذا ونجد في الجزء الأعلى من هذا القسم متنًا مفسرًا له هو: «الطريق إلى «روستاو» على اليابسة، الطريق إلى روستاو على الماء.»

وعلى أثر دخول الراحل في هذا القسم كان لزامًا عليه أن يتلو التعويذة التالية (٧٦): «إني أنا الراحل الخفي، والفيضان الذي يفصل بين الرجلين («حور» و«ست») ولقد أتيت لأبعد الحزن وأخفف آلام «أوزير» ولقد أتيت لأصد الشر.

أما أوَّل شيطان حارس في الصف الأعلى فينعت (٧٨): «النيل المنتشر» واسم الحارس الثاني هو (٧٨): «المعطي له» واسم الحارث الثالث (٧٩): «نحب كاو» وهو ثعبان عظيم له رأسان وذيله ينتهي برأس ثالث، كما جاء ذكر ذلك في كتاب «ما يوجد في عالم الآخرة»، وهو معروف بأنه مقدِّم القربان، وقد ذكر عنه ما يأتي: «إن صاحب هذه الصورة موجود في مكانه «نت مو» على الطريق المقدس المؤدية لطريق «روستاو»، وإنه يسافر إلى كل مكان يوميًّا ويعيش من فيض ما يخرج من فمه.»

ونجد هنا أنه رغم تغيير صورة هذا الحارس فإن «نحب كاو» كان يعمل بوصفه حارس طريق «روستاو» وهي الوظيفة التي كان يقوم بها على تابوت رقم ٢٨٠٨٣، أما الحارس الرابع فاسمه (٨٠): «الآكل آبائه».

أما في القسم الثاني فأول حارس فيه يسمى (٨٢): «الطارد ست»، أما الحارس الثاني فيحمل اسمًا غريبًا وهو (٨٣): «والد ثور عين شمس السيئ الحظ»، واسم الحارس الثاني قد مُحي بعض الشيء، وما تبقى من الأسماء الأخرى قد مُحي كلية.

والمتن الذي يشغل الصف الأسفل من هذا الجزء من المصور قد هشم تهشيمًا كبيرًا، وقد وجدنا فيما بعد أنه الفصل ١٤٦ من كتاب الموتى وهو (٨٨): لقد ثُبت بقوة الأملاك في العرابة، وقد مهد الطريق «لروستاو» لأجل أن يختلط بأولئك الذين يرون الآلهة في القصر العظيم، وهم يقدِّمون له الثناء؛ ولقد حضرت اليوم أمام باب «إمنتت» (أي باب الآخرة في الغرب)، وفي رواية أخرى «باب الأرباب» (أي أرباب الآخرة).

الجزء الأخير من الصف العلوي

هذا الجزء من الصف العلوي لا يزال يمثل جزءًا من البناء، وهو الشرفة التي كان يطل منها الفرعون عادة ليوزع المكافآت على عظماء رجال دولته في مناسبات خاصة في عالم الدنيا؛ غير أن الجزء الأسفل من مناظره قد هشم في المصور الذي بين أيدينا، والجزء الأعلى يحتوي على صورة قرد ضخم أحمر الوجه وخلفه يشاهد صورة آدمي يظهر كأنه جالس على الأرض.

بعد ذلك ننتقل إلى جزء آخر مؤلف من قسمين؛ وضع أحدهما فوق الآخر، أعلاهما يمثل مبنى طويلًا مقسمًا عدة أقسام، فنجد في بدايته جدارًا من الخشب الأحمر يفصله أفقيًّا عن الجزء الأسفل حاجز من نار، وخلف الحاجز الأحمر فاصل أصفر ففاصل أسود، ثم آخر أصفر، ويلي ذلك باب ناري يدور على عقب أسود، ثم يصادف الراحل

مساحة ملونة باللون الأصفر ومقسمة عموديًّا تسعة أقسام، وفي نهاية ذلك يصادفنا حارس في صورة إنسان عادي، غير أن رأسه قد مُحي، وهو يضع إحدى يديه على آخر جزء من القسم الأصفر الذي وصفناه الآن، ويده الأخرى على مصراع الباب التالي الذي يشاهد خلفه وهو من نار أيضًا، ويعقب ذلك فجوة في التصميم قد زال كل ما عليها من صور ورسوم، وبعد هذه الفجوة يشاهد بناء منحدر قد جثم فوقه صقر أزرق اللون يظهر أنه الإله «سكر» رب «روستاو» (أي صقر «روستاو» وهو إله الموتى في «جبانة منف»؛ أي صورة من صور «أوزير»)، ويُظن أن هذا البناء الذي على هيئة قصر يمثل نهاية المطاف ويعدُّ «روستاو»، وأن القرد الذي يمثل مكانة بارزة في هذه المتون يمثل الإله «تحوت»، كما أن الصقر يمثل «سكر»، وهو مظهر من مظاهر «أوزير».

أما الجزء الأسفل من هذا القسم فقد هشم معظمه؛ اللهم إلا الجزء النهائي فقد حفظ لنا منظرًا يشاهد فيه الراحل متجهًا نحو باب، وهذه أول مرة يشاهد فيها المُتوفَّى مرسومًا في «كتاب الطريقين».

المتن الخاص بهذا القسم كما وجد على تابوت القاهرة

ومما يؤسف له جد الأسف أن المتن الخاص بهذا الجزء وُجد مهشمًا تمامًا في النسخة التي ندرسها (انظر شكل ١)، غير أنه أمكننا أن نستبدل به متنًا مقابلًا له على تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٥، وهذا المتن يتفق بعضه مع متن تابوت «برلين»، ففي القسم الذي فيه الشرفة والقرد والإنسان نجد المتن التالي:[٩]

> (٦٧) إنه جدار من الخشب وإني أفتح الطريق إلى «روستاو» وإني أخفف آلام «أوزير»، وإني أنا الراحل الذي ينتج ما يوجد، والذي يتعرف على عرشه، والذي يمهد طريقه في الوادي العظيم؛ وإني مهدت الطريق، وحافظت على النور البهي (نور الشمس)؛ لأجل أن أمرَّ به، هذا هو ما تقوله بسبب ظلمة الليل، وإن كل روح منعم سيعرفها (التعويذة) فإنها تعيش بين الأحياء، وستحفظ النار جسم «أوزير»؛ وكل إنسان يعرفها (أي التعويذة) لن يسقط

[٩] الأرقام التالية تشير إلى تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٥.

> أبدًا في «روستاو»؛ ومكانه الخفي هو «روستاو» منذ أن عرف أنه قد أنزل فيها على جبله الرملي، وستكون له الكلمة التي أعطيت في «روستاو» (وفي رواية أخرى: إنه هو الذي جعل نفسه ينزل فيها على جبله الرملي، وأنه صاحب «العرابة المدفونة» التي فيها بقايا «أوزير» سيد «روستاو».)

«وجبل الرمل» المذكور هنا هو أحد مميزات «روستاو»، كما جاء ذكر ذلك في متون الأهرام وفي كتاب «ما يوجد في عالم الآخرة»؛ إذ المفهوم أن الرمال تحفظ الأجسام من البلى ولذا كانت الأجسام تُدفن في الرمل.

ويتلو هذا المتن آخر وجد كذلك على تابوت «برلين» وهو (٦٨): «كل إنسان سيعرفها (التعويذة) لن يسقط أبدًا؛ وذلك لأنه يعرف تعويذة المرور على الجن الذين رءوسهم منكبة على أحجارهم، وهم أربعة الحراس للأبواب الأربعة، والراحل هذا هو صاحب الاسم العظيم يخلق النور، ويأتي لك «يا أوزير»، وإنه يمجدك ويساعد الذين جمعوا له مادة جسمه، (أو الذين طهروا مادة جسمه).»

ومما يلاحظ في هذا المتن أن الراحل يدعي أنه يخلق النور في الظلام، وهذه فكرة موجودة منذ متون الأهرام.

ثم يتلو علينا الراحل بعد ذلك تعويذة طويلة يحتمل أنه كان يلقيها عند الاقتراب من باب النار المزدوج وهي (٧٢-٧٣) إنها طريق «تحوت» هذا صاحب بيت الصدق: مرحبًا بك يا «تحوت» يا من مع أتباع «رع»، إن هذا الراحل قد أحضر العين السليمة ثانية، وإنها للامعة، وإن الراحل هذا قد أقصى عنها المرض، وبذلك هي لامعة. تأمل! إن الراحل يأتي إليك مع أتباعك الليليين بين أولئك الذين يقدِّمون القربان، وإن الراحل قد نزل سفينتك يا «رع»، وإن ماء الراحل في النار التي تضيء الظلمة بين أولئك الذين يأتون بالقربان التي تجلب «لماعت» (العدالة) عندما تخترق بحيرتها، وإن الراحل يسمع كلام الثعبان «هيو» المشرف على الحي العظيم الشمالي (من السماء)، وإن الراحل هذا يسرع الخطى ليحمي «رع» من غضب الثعبان «أبو فيس» (عدو «رع» أثناء رحلته الليلية).

ففي هذه التعويذة نجد أن المتن قد صُبغ بصبغة العقيدة الشمسية؛ أي مذهب ديانة الإله «رع»، وكذلك وجه الكلام فيها للإله «تحوت»، وقد ادعى فيها الراحل أنه قد أعاد عين الإله (أي القمر) إلى حالتها الأولى من الصحة بعد أن كان «ست» قد اقتلعها من «حور». وكذلك يلاحظ أن الراحل كان يتبع «تحوت» الذي كان يمثل هنا «القمر» في

عالم الظلام. أما الجزء الثاني فشمسي الصبغة، ويشير إلى أن المُتوفَّ يسبح مع الشمس في سفينتها، ويظهر أن له ضلعًا في المحافظة على الإله «رع» من هجمات الثعبان «أبو فيس» الذي كان يعتبر أكبر عدو خطر لإله الشمس خلال رحلته في عالم الآخرة السماوية (أي في المخاطرات التي كان لا بد أن يقابلها هذا الإله كما جاء في الأساطير أثناء سياحته السفلية)، وفي هذه الحالة كان الراحل يوحد نفسه بالإله «حور الأكبر» الذي يقوم غالبًا بهذا الدور في سفينة الشمس كما كان يقوم به «ست» أحيانًا.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن هذه المجموعة من المتون موجودة في تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٩، ولكن في غير المكان الذي وجدت فيه على المصور في متون تابوت ٢٨٠٨٣، هذا فضلًا عن أن الأولى أطول ولكن تدل على نفس المعنى الذي في الثانية وهي: أنها طريق «تحوت» إلى بيت الصدق، وإني من أتباع «تحوت» ليلًا في وقت تخبئتهم، دعني أحضر «تحوت»، وإني أنا الذي فتحت العالم السفلي (دوات) إلى «رع»، وإني أنا الذي أرفع رأسك وأجدف في سفينتك، وإني أمهد طريقك في السماء، وإني أنزل في مكان سفينتك التي أحملك فيها ليلًا، وإني قابع في جهة مياه «وعرت» (مكان في السماء)، وإني أنا الذي مهدت الطريق ... والإله «حتبي» قد أعد الطريق، وإني قد أقصيت مرض العين من وجه رب الخلق، وإني شفيت بالبصق جراح «رع» وبذلك سيعيش عيشة راضية؛ وإني أعرف الثعبان «أبو فيس» وأتباعه. مرحبًا بك يا «تحوت» الذي بين أتباع «رع»، إني أنا الذي أحضرت العين السليمة فهي براقة، وإني أنا الذي أقصيت الظلمة عن العين المتعبة، وبذلك أصبحت براقة ثانية. تأمل! لقد أتيت إليك بين أتباعك هؤلاء مع أولئك الذين أحضروا القربان، ولقد نزلت في سفينة «رع»، ولقد أطفأت النار بالماء وكشفت الظلمة عن أولئك الذين حضروا بالقربان التي جلبت لماعت (العدالة) المسافرة بالماء، ولقد سمع «رع» صوت الثعبان «هيو» في الإقليم الشمالي العظيم من السماء ... وإني أنا مخلِّص «رع» من غضب الثعبان «أبو فيس»، وأنه لن يضع في أغلاله، وإني أنا الكائن «شد حرو» الذي يشفي الجروح، ويخدم باب المعبد ويلبس الإله ما حيك له. دعني أحضر إليك يا «تحوت»، وإني لن أطرد من جوارك خلال الليل، فإني أنا الذي أحضرت العين السليمة (أي القمر)، والذي خلصها ممن ألحق بها الأذى، وهذا هو خلاص بيت القمر (أي تحوت).

ومن المحتمل أن بيت «تحوت» المشار إليه هنا هو القصر الذي أقيم على هيئة قبة في مصور تابوت رقم ٢٨٠٨٣، ويلاحظ أنه قد صور في أعلى صف في هذا المصور في داخل

مبنى يحتوي على سلسلة من الحجرات الضيقة والأبواب النارية، وكذلك نرى أن بداية هذا القسم هو حاجز من النار. ولدينا متن في تابوت «برلين» يفسر لنا معناه، وهو: «إنه جدار من الخشب الأحمر أفتح به الطريق إلى «روستاو»».

والظاهر أن مجموعة التعاويذ الأخيرة التي على تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٥ وهي التي تكلمنا عنها قريبًا يجب أن تتخذ مكانتها في الصف الأعلى كما يجب أن تكون هي نهايته؛ ولكن إذا أنعمنا النظر نجد أن الأمر على خلاف ذلك؛ إذ الواقع أن المتون التي درسناها حتى الآن خلافًا للمقدمة كان معظمها متونًا خاصة بعالم «روستاو» في حين أننا نلاحظ في المتون النهائية التي في الصف الأعلى في كل مصورات التوابيت التي فحصناها أن ذكر «روستاو» قد اختفى، وأن المتون التي لدينا فيها هي في الواقع مقدمة لموضوع آخر؛ وأعني بذلك رواية أشمونية، أو بعبارة أخرى مذهب العقيدة القمرية التي تتمثل في معبود «الأشمونين» وهي خاصة بسياحة الشمس في سفينة الليل الذي يلعب فيه الإله «تحوت» إله القمر دورًا هامًّا. وحقيقة الأمر على ما يظهر أن المتون الخاصة «بروستاو» قد انتهت بالتعويذتين رقم ٦٩، ٧٠ من التابوت رقم ٢٨٠٨٥ وهما اللتان تحملان العنوان التالي: فصل الاستقرار في «روستاو»، وهذا يدل على أن الراحل قد وصل فعلًا إلى «روستاو» حيث يسكن الإله «أوزير»، وهنا يخلق الإله نورًا ليضيء الظلمة، وعلى ذلك يجب أن نعتبر هذا الجزء من المصور المحاط ببرج عالٍ يمثل «روستاو»؛ إذ الواقع أننا لا نجد بعد ذلك ذكر الاسم «روستاو» في كتاب الطريقين. والظاهر من المتون أن الصف الأعلى من المصور يمثل الطريقين اللذين يؤديان إلى «روستاو» وهو كما ذكرنا عالم «أوزير» السفلي؛ وهو مكان مظلم يشبه القبر، ويحتمل أنه الهدف النهائي الذي يستقر فيه جسم المتوفى، ومن ثم نعلم أن السياحة إلى «روستاو» هي للجسم فقط، وبعد ذلك تستمر الروح في سياحتها في عالم الآخرة مع إله الشمس حتى تظهر ثانية مع إله الشمس «رع» في الشرق يوميًّا. ولا أدل على صحة ذلك من التفسير الشافي الذي نجده في مقبرة «سيتي الأول» الرمزية المقامة في «العرابة المدفونة» (Frankfort, “The Cenotaph of Seti I at Abydos” Vol. I, PP. 37, 38).

وقبل أن ننتقل إلى الصف الأسفل من المصور نذكر هنا متنًا جاء على مصور تابوت برلين ولم نجد له مثيلًا في متون توابيت القاهرة، في المكان المقابل للشرفة، هو:

> أما فيما يخص أي رجل هناك فإنه سيرى «أوزير» كل يوم وسيكون الهواء في أنفه، ولن يموت أبدًا ما دام يعرف تعويذة المرور عليها (أي الطريق).

وكذلك نجد عند النقطة المقابلة لمنظر القصر على «تابوت القاهرة» أن بعض عبارات الفصل الخامس عشر من متون تابوت «برلين» موحدة مع متن تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٥ (٦٩–٧٠) وسنذكر هنا بقية متن تابوت «برلين» لأهميته، وها هو ذا:

> دعني أمرُّ في سلام … أوزير مار بكل الأبواب، إني أقف منتصبًا، وقد جعلت اسمي في «روستاو» منذ عرفت أني قد ثويت فيها.

مرحبًا بك «يا أوزير» – مرحبًا بك «يا أوزير»، إني أرفع بقوتك وبسلطانك حسب المحاكمة، وإنك قوي في «روستاو»، وإنك مهيمن في «العرابة المدفونة» عندما تجول فيها، ووجهك لسماء «رع»، وكل الناس قد رأوك، إنك الواحد الذي يناديك «رع» عندما ينزل إلى السماء «السفلى» ويسبح فيها إلى الأفق «الشرقي ثانية»، وإني أقول مثل «أوزير»: إني الراحل، هذا الإنسان الروحاني، الشريف القوى، وإني أتكلم بما يحدث مثل ما يقوله هو، ولن أبعد من أمامك «يا أوزير» يا من قد قدِّم له القربان أمس، وإني قد أتيت بنفسي اليوم، وقد مهدت طريقي، وإني أفرح وأسير في صورة «أنوبيس» (إله الموتى)، وإني أنا الراحل «شاد النواصي» الذي يخرج من الأفق، وإني أنا الراحل، وإني أنا «نونت» هذه التي تأتي من صولجانها، وإني ذلك الراحل صاحب التاج العظيم، وإني أنا الراحل الثالث للإله «حقا»؛ لأنتقم للإلهة «ماعت» (العدالة)، وإني أنا الراحل الذي أنتقم لعينه، وإني أنا الذي ثويت أمس وبُعثت اليوم، وإني قد مهدت طريقي، أما حارس الباب الذي أحاربه في الطريق بقوَّة عندما أخرج مثل «رع» ضد أعدائي فقد ظفرت به، وقد جعلني لا أدعه ينجو من أمامي عندما سمعت أمام مجلس القضاة الذي وضعني على الطريق الرئيسية، وصولجان الإله كان بين مخالبي التي هي مخالب أسد، وهي ملك كفي الذي يشبه كف التمساح، وإني قد هيأت طريقي التي أحضرت عليها أعدائي، وإني أنا الراحل، وإني «أوزير» صاحب المكان الخفي، والذي على رأس أهل الغرب (الأموات)، عندما وضعت على رأس الأربعة (؟)، وإني أنا الراحل، وإني سيد الدم في أيام الظهور، وإني سيد الأقوياء (حراس الأبواب)؛ وإني لم أسرق، وإني قد مهدت طريقي التي أمام المعبد، وأملك أكفاني من الكتان العجيب (؟)، وهي التي قد أُحضرت لي مع التاج الأحمر العظيم، وهو الذي أُعطِيته حتى أتمكن من الظهور به في هذا اليوم على أعدائي، ولقد أُحضر لي لأكون قويًّا به.»

إيضاح: «هذا الكتاب كان تحت جنب «تحوت» لقد انتهى.»

وبعد هذا الفصل نجد في نفس تابوت «برلين» أن الفصل السادس عشر يتلوه مباشرة وليس يفصله عن السابق إلا شريط رفيع جدًّا، وقد ذكرنا فيما سبق جزء ١ منه وهاك ما تبقى: «إني … إلى السماء والأرض، وإني هذا الراحل القوي في قلبه، وإني أملك إله القطيع، وإني أملك الآلهة الخمسة أرباب القطيع، وإني أنا ذلك المخصب أحمل بذرتي جاعلًا هذا وذاك خصبًا.»

شرح: إن كل إنسان يعرف هذه التعويذة سيكون خصبًا على هذه الأرض ليلًا ونهارًا، وسيكون قلب زوجه ملكًا له ما دام يريد أن ينكحها. وهذه التعويذة يجب أن تُتلى على سوار من الجمشت يضعه المُتوفَّى على ذراعه اليمنى، ثم يستمرّ المتن فيقول: «إن تاج «رع» فاخر على رأس «ماعت» (العدالة) كل يوم، وإنه يلبس التاج العظيم الكبير في حين أني سليم عندما أكون محميًّا ضد كل شر يخرج من فم كل إلهة، وإني أنعم تلك الزوجة المتوفاة، ولن يكون في أول هذه السنة في هذا اليوم الجميل الخاص بمعبد «تننت»[١٠] (أوزير) هناك شر في هذا اليوم الجميل في معبد «تننت» لأجل عيد «نحب كاو» (إله القربان)، (وهو عيد يقام في أول يوم من رأس السنة)، في اليوم الجميل الخاص بمعبد «تننت»، وهو الذي يكون فيه الأربعة الذين يحضرون القربان، ويأتون بالقربان من «عين شمس» على مائدة قربان كل يوم؛ حبًّا في «رع» يوميًّا، وإني أنا الخارج من الأفق، وقرباني في الأمام، وقرباني في الأمام، وقرباني يأتي في المقدمة، وقرباني يأتي في المقدمة، وقد وضعت في الأمام، وإني أنا المقدم، وإني أنا الذي خرج من الكرنالين (الأحمر)؛ أي نذير الشر، والإله الأعظم يُقاد أمامي … وإني ثور القربان المشرف على الأشياء (الطعام) في … صاحب الوجبات على الأرض مع «حور» والوجبات على الأرض مع الإله «مين»، وإني أجعل القربان تقدَّم لي، وإني أذهب وحدي، وعندما أجلس لآكل الخبز فإن «رع» يجلس لأكل الخبز، ويجب إعطائي الماء على يد «إزيس» عندما يقف الفيضان على شاطئ «أجب» (الفيضان الأبدي)، وإني أقترب منك يا ساقي «رع» وإني أنا بجوارك، وإنك تبهج وجه «رع»، وإن وجه «إزيس» يشع لك، وإنك تعطيني خبزًا عندما آتي جائعًا، وإنك تهبني جعة عندما أكون عطشان، وإني الإله «مخنتي إرتي» … وإني آكل الشعير الذي في الحقل، وإني أحافظ على القربان الذي على شاطئ الإله …»

[١٠] معبد في «منف» للإله «بتاح» أو «أوزير».

القسم الأسفل من مصور كتاب الطريقين

يظهر أن هذا القسم من المصور قد سُجل عليه كما سبق سياحة سفينة الشمس الليلية في العالم السفلي حاملة روح المتوفى، ولما كان متن تابوت القاهرة رقم ٢٨٠٨٣ مهشمًا فقد استعضنا عنه متن التابوت رقم ٢٧٠٨٥، وهو يتفق تمام الاتفاق مع سابقه من حيث الرسم.[١١]

والرسم الأول الذي في بداية هذا القسم يدل على أنه يمثل غروب الشمس؛ إذ نجد في الجزء الأعلى منه جعرانًا في سفينة (شكل ١)، ويلوح أنه يتسلم بيديه قرص الشمس الملون باللون الأصفر من سماء زرقاء نُصبت فوقه، أما السفينة التي يقف فيها هذا

[١١] لقد ضربنا صفحًا هنا عن شرح القسم المقابل لهذا في مصور تابوت «برلين»؛ وذلك لأنه ليس لدينا إلا نسخة واحدة منه مما جعل فهمه غاية في الصعوبة، وبخاصة أنه يحتوي على فجوات وتهشيم في المتن، والواقع أنه يوجد تشابه كبير بينه وبين مصورات القاهرة من حيث الرسم، أما من حيث المتن فإنه يشتمل على عشرة فصول يتكلم فيها الراحل عن العقبات التي كان يقابلها والحراس الذين كانوا يعترضونه في طريقه، وكيف كان يتغلب عليها بالتعاويذ السحرية، وبخاصة أنه كان يخبر هؤلاء الحراس المخيفين أنه قد زار الأماكن المقدسة التي كان لزامًا عليه أن يزورها جثمانه قبل أن يذهب إلى عالم الآخرة، فيخبرنا أنه قد زار «عين شمس» و«بوتو» و«خرعحا» (مصر العتيقة) و«العرابة» وبلد العجل «أبيس» وغيرها من الأماكن المقدسة. ونلحظ في الفصل الثاني أن الراحل يهدد الحراس بأنه رب الظلام، وأنه صاحب سلطان، وأنه أتى اليوم من «عين شمس» مقر حقول القربان، وموطن عبادة «رع»، وأنه هو نفسه «ثور عين شمس»؛ أي الإله «رع». ثم يعدد بعد ذلك الأماكن المقدسة التي زارها في الفصول التالية، وكذلك يخبر الحراس في الفصل الثالث أنه أتى بموائد قربان مفعمة بالخيرات، وأنه الإله «حو» إله الأمر والنهي الذي يصحب الإله «رع» في سفينته، وأنه يمكنه أن يمر في طريقه بمجرد ذكر اسمه، وإنه يمر في طريقه لأجل أن يصبح من المنعمين، ولا أحد يمكنه أن يعترضه في تلك الظلمة؛ لأنه رب الظلام وروحه، وكذلك نشاهد أنه يتقمص كل صور الإله «رع». وفي الفصل الخامس يخبر الراحل الحراس أنه موقد النار، وأنه الواحد العظيم الذي سجل اسمه في كتب الأبدية، وأنه السكين العظيمة المصنوعة من النار التي توضع في أم رأسه. وفي الفصل السادس يخبرنا أنه هو بارئ الإله «رع» نفسه، وكذلك الإله «شو» رب الفضاء وأنه الإلهة «ماعت» ربة العدالة التي تحلي التاج؛ ولذلك فإن كل من يقترب منه بسوء من هؤلاء الحراس فإنه يقصيه في الحال. وفي الفصل السادس نجد أسماء آلهة وشياطين يحتمل أنهم يعترضون طريق المتوفى. أما الفصل الثامن فيذكر لنا بعض أسماء الحراس. ويشتمل الفصل التاسع على تعويذة فيها يطلب إلى الآلهة الأربعة أن يجعلوه يمر على طريقه دون أن يصد عنه، ثم نجده يخبر الحراس بأنه واحد لا يراه من حوله. وفي الفصل العاشر نجد تعليمات عن المكان الذي سيأوي إليه لينام فيه بعد أن ينتهي من قطع طريقه إلى عالم الآخرة.

الجعران فتمثل الثعبان «محن». ولا غرابة في ذلك؛ إذ نجد في القسم العاشر من «كتاب البوابات» أن الثعبان «محن» يظهر في صورة سفينة ينتهي كل من طرفيها بثلاثة رءوس ثعابين منتصبة، وفي الوسط يقف إله له رأسان واحد منهما يمثل رأس الإله «حور» والثاني يمثل رأس الإله «ست»، وقد فسر هذا المنظر كالآتي: «هذا هو الثعبان «محن» ذو الصلين، وهو الذي يمشي فرحًا في العالم السفلي، وقد شدت الأقواس ليحمل عليها صاحب الوجهين «حور» و«ست» في خفائه الخاص بهما.»

أما ما جاء في وصف «محن» في متن الطريقين في مصورنا تفسيرًا للسفينة فهو:

> إن «محن» هو الذي في داخلها (السفينة)، وإن «أوزير» هو الذي أحضره إلى «حور» الكبير، وإن «رع» هو الذي صنعها (السفينة) لأجل أن يقضي على أي فرد ضده في الأفق عندما تكون حاشية الأفق مقسمة (قسمين من الملاحين)، وذلك عندما يحضرون عظيمهم «رع»؛ لأن ما ينطق به موجود في الآلهة الذين تتألف منهم الحاشية، وهم من المواطنين، والذين سمحت لهم أن يذهبوا إلى سماء «رع» (وهذه السماء كانت من قبل وقفًا على الملوك) ويضيئون فيها ليلًا. وكل إنسان بين أتباعه سيعيش إلى الأبد في ركاب «تحوت» الذي منح قوة الإضاءة ليلًا؛ وجعل قلب «أوزير» فرحًا؛ لأنه أحد الذين يرافقونه، وقد وضع بين أتباعه مثل رجال الحاشية.

ومن أمتع ما جاء في هذا المتن أنه ينتظم عدة آراء ترجع إلى متون قديمة وأخرى ظهرت في العصر الذي نحن بصدده، فمثلًا نجد الثعبان «محن» لم يأتِ ذكره في متون الأهرام، وقد صور هنا في صورة صل له رأسان في نهايتي جسمه الذي شُكل بصورة سفينة، وسنرى فيما بعد أنه سيحل محل رأس إله وذراعيه؛ وكذلك نجد في «كتاب ما يوجد في العالم السفلي» أنه سيظهر بوصفه حامي الإله «رع»؛ لأنه يشكل جسمه بطريقة تجعله يحل محل الناووس الذي يقف فيه الإله في سفينة الشمس، وقد كان لا يوجد إلا في سفينة الليل فقط؛ إذ إن ظهوره في الصف الأسفل من المصور يبرهن على أن البحث هنا ينحصر في السياحة الليلية لإله الشمس «رع». ومما يلفت النظر في هذا المتن كذلك ما جاء فيه من أن القوم (الناس) سيسمح لهم بالذهاب إلى سماء «رع» ويضيئون هناك ليلًا، وهذا القول بلا نزاع إشارة إلى الاعتقاد القديم الخاص بالعقيدة النجمية، وهي التي كانت حتى ذلك العهد وقفًا على المتوفين من الملوك؛ أي إن الملك كان يصبح

نجمًا بعد أن يرتفع إلى السماء، ولكن أصبح الآن هذا الحق مشاعًا لعامة الشعب كما أصبح المصير الشمسي حقًّا لهم. ولا أدل على أن هذا الحق المكتسب كانت لا تزال ذكراه قوية في أذهان الكُتاب الدينيين مما جاء في هذا المتن مشيرًا إلى أن المُتوفَّى كان ذاهبًا إلى سماء «رع» مع أنه في السطر التالي لهذه الفكرة نجد أن الإله الرئيسي المشار إليه هو «تحوت» الذي يضيء كذلك ليلًا ويشرح قلب «أوزير» (المُتوفَّى). وقد احتفظ عامة الشعب بما نالوه من حق التمتع بالآخرة النجمية؛ ولذلك لم يعد الملك وحده يتمتع بهذا الحق ويفتخر بأنه سيصير نجمًا لا يأفل، بل نجد أنه حتى الموظف المشرف على البيت كان ينعم بمثل هذا الحق.

ونجد أسفل هذا المتن الافتتاحي في مصورنا (شكل ١) رسمًا آخر يظهر أنه يمثل سفينة الشمس وهي تسبح في سماء صافية الأديم، في وسطها إله أحمر الجسم جالس في الفضاء؛ مُثِّل رأسه بجعران كما مُثل ذراعاه بثعبانين، هذا فضلًا عن وجود صلين متدليين من ذراعيه. وقد انتشرت فوق هذه السفينة سماء صافية في وسطها قرص الشمس. ويلاحظ في هذا الرسم أن قدم هذا الإله ترتكز على ثعبان ينتهي طرفاه برأسي صلين منتصبين، أما المتن الخاص بهذه المجموعة فهو (٣): إن «أوزير» الراحل يتبع «رع» الذي يضيء السماء، وإني قابع في محرابي مثل «حور» صاحب المهد المرفوع، وإن مكانه القريب من محرابه قد أُخفي، وإن الإله يفتحه لمن يريد «يا أوزير» الذي تحييه الإلهة «ماعت» (إلهة العدل) وترشده، وإن ما يهلع منه «أوزير» الراحل هو السحاب الذي يأتي بالمطر إلى جانبه (وذلك لأن المُتوفَّى كان دائمًا يخاف الماء الذي كان يطغى على المومية ويتلفها؛ ولهذا كان المصري يدفن موتاه في الأماكن الصحراوية، هذا فضلًا عن أن «أوزير» قد مات غرقًا كما جاء في إحدى الروايات عن سببه وفاته).

وإني «أوزير» الراحل ولن يبعد عن «رع» ولن يصد؛ وذلك لأنه نشط بيديه المتمرنتين، وإن «أوزير» الراحل لن يسير إلى وادي الظلام،[١٢] وإن «أوزير» لن يدخل بحيرة المجرمين (أي بحيرة النار)، وإن «أوزير» لا يقفز ليكون في قبضة القدر، وإن «أوزير» الراحل لن يقع بين أولئك الذين يحبسون الأرواح، أو يخرج أمام أولئك الذين يجرونه خلف مقصلة الذبح التي هي ملك الإله «سبدو»، السلام عليكم يا من رءوسهم

[١٢] كان المفروض أن الشمس تعمل رحلتها في العالم السفلي المظلم لتضيء لسكانه وهم الأموات.

منكبة في أحجارهم، إن السيف الإلهي مخبأ في يدي الإله «جب» (إله الأرض) وقت الصباح؛ وذلك لأنه يُسر عندما يحضر لنفسه كلا من المسن والشاب في حينه (الإله جب هنا يمثل القبر الذي يدفن فيه أي ميت)، والآن تأمل! إن «تحوت» على علم بخفايا أسراره، وإنه يقوم بالتطهير وبحساب لا نهاية له، مخترقًا السماء (لأنه القمر) ومبدِّدًا العواصف التي حوله، وبذلك أصبح في مقدور «أوزير» الراحل أن يصل إلى كل أماكنه (في عالم الآخرة)، وإني سويت عصاي وتسلمت قربان «رع» صاحب السير السريع، والجميل الطلعة، والمسيطر بما فعل، وإنه قد وضع حدًّا لآلامه ومتاعبه، وكذلك فإن «أوزير» الراحل قد وضع حدًّا لآلامه؛ وفي الحق أنه يدخل البِشر على وجه «تحوت» («أو «رع»)، وذلك بعبادة «رع»[١٣] و«أوزير».

إن «أوزير» الراحل قد دخل أفق «رع» وساح مظفرًا ومضيئًا وجه «تحوت» (ولدينا في هذه العبارة برهان على أن القمر كان في اعتقاد المصريين يأخذ نوره من الشمس)؛ لأجل أن يصغي إلى «رع» ويقضي على العقبات التي تعترضه في طريقه.

لا تدع «أوزير» الراحل يغرق في سياحته على يد من وجهه في حجره، (اسم إله)؛ وذلك لأن اسم «رع» في جوف «أوزير» الراحل، (أي إن المُتوفَّ يدَّعي هنا إنه يعرف الاسم السري للإله «رع»؛ وهو الاسم الذي كان يعرفه الإله وحده، ولكن «إزيس» انتزعته منه بحيلة (راجع «كتاب الأدب المصري القديم» ص١١٣)»، وشرفه في فمه، وهو الذي يتكلم لمن يصغي إلى كلماته، الفخار لك يا «رع» يا رب الأفق: سلام عليك يا من تطهر المنعمين، ويا من تقرر ضد القدر، إن قيادة السفينة خالية من كل سوء. تأمل! ها هو ذا «أوزير» الراحل (أي إنه قد وصل إلى نهاية المطاف).

وبعد هذا المتن الطويل يسير الراحل نحو بناء مقسم أربعة أقسام لكل واحد منها باب خاص مستطيل الشكل، وهذه الأبواب رسمت في مصور برلين، لكل منها مصراعان لونهما أحمر، وكتب عليها كلمة «نار». ويمتاز المصور الذي نبحثه الآن بأن لكل باب حارسًا خاصًّا من الجن قد هشموا كلهم أو مُحوا. ونجد منقوشًا عند قمة الباب الأول ما يأتي (٤): «إن الذي يبسط جزءه الأمامي هو حارس الباب الخلفي»، والواقع أن

[١٣] ومن ثم نعرف السبب الذي من أجله قد اجتمعت المتون الشمسية والأوزيرية والأشمونية في هذا الكتاب؛ إذ نجد هنا أن عبادة «رع» و«أوزير» قد سرت «تحوت» الذي كان بطبيعة الحال متصلًا بهذين الإلهين في كثير من الأحوال، وبخاصة في رحلة المُتوفَّى ليلًا في سفينته.

الحارس الذي قد أشير إليه في هذا المتن يمد رأسه إلى الأمام في المصور، وفي أسفل هذا الباب دون المتن التالي (٨): «إن الراحل هذا قد أتى اليوم بسكين عظيم، وقد سلَّح نفسه بسيف طرفه قاطع في الحال دون أن يصد، وإنه يصد الشرور الأربعة (يقصد بها هنا الحراس الأربعة)، دون أن يصدوه عندما يعترضونه، وإن من يبسط وجهه قد حمل هناك، ولن يحدث ظلمة بين القوم المنعمين أتباع «رع»، وإنه يخلي سبيل الإله، وإذا أتيت في صورة «حف آن» رب الموت، فإن «رع» يذبحك في الحال كما قرب «أبو فيس» (عدو رع) في داخل مكان المذبحة.» وهذه التعويذة كانت موجهة طبعًا إلى حارس الباب الأول. أما الباب الثاني فقد نقش عليه ما يأتي (٥): «إن «آنتي» هو حارس الباب الثاني»، أما التعويذة التي كانت تتلى أمام هذا الباب فهي (٩): (Lacau, Ibid, P. 214, No. 28083) «إن رأس فلان هذا قد أصبحت محمية بهم وإن «هيو» (اسم الثعبان) … الذي يقف ليصدك عندما تقف السفينة على الماء الراكد، وإنك أنت الذي ميزته (؟) وقد أمر الإله «رع» بأنك لن تسير ضد أتباعه. ولديك البطش أمامك … تقهقر إلى مكانك ولا تأتِ! وإنه هو الذي يراك كالتمساح باسم «الآتية عظيمة» (اسم للإلهة حتحور (؟)).

أما اسم حارس الباب الثالث فإنه يحمل الاسم القبيح (٥): «الآكل براز دبره»، ولا بد للراحل من أن يتلو التعويذة التالية ليتخلص من شره (١٠): تقهقر أيها القبيح الذي يسكن المستنقع، إن ظهرك من الخشب الخشن؛ لأنك تبتلع بمثابة طعام نبات «ممت»، إن الراحل يعرفك ويعرف اسمك … تقهقر واسجد، ودع ذراعيك يسقطان، وبذلك يظهر نور الشمس ليلًا عندما يكون روحه في السماء، وتبعد الظلمة عن الوجه (الوجه هنا هو السماء).» وهذه التعويذة موجهة للتمساح غير أننا لا نعرف إذا كان حارس الباب قد مثل في صورة هذا الحيوان أم لا.

أما اسم حارس الباب الرابع فقد هشم المتن الخاص به وما تبقى منه هو (٧): «… هو حارس الباب الرابع»، ويدل ما بقي من رسمه على أنه كان في صورة حيوان، والتعويذة التي كان يتلوها الراحل عند الاقتراب منه هي (١١): «يا «شو» ويا «روتي»، إن «شو» في السماء و«روتي» في الأرض (روتي يقصد به الإلهة «تفنوت»)، إن الراحل هذا يخاطبك لتفصل السماء عن الأرض، اسجد تقهقر … إنها تبعث الخوف، وإن الممقوت الوجه يرتعد خلف الإله المقدس الذي يعلن إعداد السفينة التي تقوم بالسياحة العظمى (أي سفينة الشمس التي تسبح كل يوم من الغرب إلى الشرق)، وإن شرفه قد فُصل فيه، وقد أمر «تحوت» أن يصلح من شأن السفينة المكسورة في الصباح المبكر، فإذا أتيت

فإنك ستصد على يد الراحل هذا، وإن الراحل هذا يأتي فرحًا معلنًا صور «رع» الأربع عندما ولد «حور» بكر أولاد «رع»، ويقوم بدورته السماوية. وكذلك يرى الراحل بين أولئك المجدفين (الذين يجدفون في سفينة الشمس).»

فيشاهد في هذا المتن رغم ما فيه من الإبهام أن المُتوفَّى يدَّعي لنفسه مكانة بين المجدفين في سفينة الشمس؛ أي إنه يوحد نفسه بالنجوم الثابتة، وهي التي نعلم أنها تُسير سفينة الليل.

بعد ذلك نجد الراحل يقترب من جدار سميك فيه ثلاثة أبواب من نار، ولكن قبل أن يفتح أبوابه لا بد للراحل من تلاوة التعاويذ التالية (١٣): (Lacau, Ibid, P. 215, (12), No. 28083 (13)).

إن الراحل وهو «روتي» (إله الشمس) يأتي، والراحل هذا ينجي «ماعت» (العدالة)؛ والراحل هذا يمهد الطريق، ويتسلم التاج العظيم المزدوج الذي على رأس «رع»، و«أمراس» الراحل التي أحضرتها له، وقد مهدت الطريق التي يمر عليها الراحل، وإن العدالة هي دليلي خلال الليل على يد روح الظلام.»

ويتبع هذه التعويذة أخرى (Lacau, Ibid, P. 215 (13) – No. 28083 (14)) وهي (١٤): «إن الراحل يأتي إليك يا عظيم الكبراء بين أرواح الليل، وبين أربعة الآلهة السماوية، لقد خلصت الراحل هذا، أما إلهتا الصدق «إزيس ونفتيس» …»

ففي هذه التعويذة نلحظ أن العدد أربعة قد احتل مكانة بارزة، وهو في هذه المرة يعبر عن أربعة الأرواح التي في السموات الأربع السالفة الذكر، وهذه الأرواح التي هي أشير إليها في كتاب «ما يوجد في العالم السفلي وهي «أوزير»، و«رع»، و«آتوم»، و«خبر رع».» ورغم أن المتن هنا مهشم فإنه يحتمل أن فيه إشارة إلى محاسبة يخلص المُتوفَّى منها العدالة المزدوجة، وهما «إزيس» و«نفتيس».

وفي داخل الباب نجد متنًا مهشمًا جاء فيه (١٥): «إنه يعيش على حراس الأبواب الأربعة الذين لا يريدون أن يخبروا كيفية المرور منها.»

«فصل للمرور منها (الطريق) على يد من هو في الأمام ولديه وقاية منه (الحارس) وإن الراحل هذا هو فرد يعرف السياحة التي يقوم بها نفسه (وذلك لأنه موحد بإله الشمس الذي يعمل السياحة الشمسية من الغرب إلى الشرق يوميًّا.» والسطر الممحو في بداية هذا المتن كان بطبيعة الحال يحتوي على اسم الحارس، وقد ذكر في الفصل ٤٤ من كتاب الموتى وهو: «الحارس المنكس الرأس (أي الذي يقف على رأسه) والمتعدد الصفات،

وهو حارس أول باب للإله «أوزير».» وقد مثل هذا الحارس في ورقة «نو»[١٤] بصورة إنسان، أما ورقة «آني»[١٥] فله رأس أرنب، وفي كلتا الورقتين يشغل وظيفة حارس الباب الأول، ويستدل من كتابة اسم هذا الحارس برسم رجل عاليه سافله، أن هذا الباب الذي يحرسه هو باب العالم السفلي الذي ينزل منه المُتوفَّى إلى الآخرة (أي إنه ينزل في العالم السفلي برأسه). والظاهر أن أول تعبير عن هذه الفكرة مصدره «كتاب الطريقين». والمتن السابق تعويذة من التعاويذ التي كان يهدد بها الأرواح، إذا تنحت عن مساعدة الراحل أو أحجمت عن إطاعته في تنفيذ ما يريد. والواقع أن مثل هذه المتون التي تنطوي ألفاظها على التهديد والوعيد ليست إلا متونًا سحرية، وهذا ما نراه في كل متون هذا الكتاب. ويشاهد بعد ذلك في المصور مساحة كبيرة مستطيلة تسبق بابًا ناريًّا يمتد في طول هذا القسم، ويشاهد أمام هذا الباب السالف الذكر ثلاثة حراس كل منهم في صورة طائر يقبض على شبه عصا معقوفة ملونة باللون الأحمر؛ والحارس الأول له رأس قط لونه أسود وجسمه أصفر، أما الحارس الثاني فقد مُحي رأسه، في حين أن الثالث قد مُحيت صورته تمامًا، ولم يبقَ ما يدل عليه إلا جزء من العصا المعقوفة التي كانت بيده. ويخاطب الراحل أولئك الحراس بالتعاويذ التالية (Lacau, Ibid, P. 210 (15–16), No, 28083 (17–18)) «إن من يعيش على … هو حارس الباب الأوسط، وإنه يعيش على من لا يعرف كيف يمشي إلى هذه السماء الخاصة «بحور» أكبر الثلاثة الذين صعدوا إلى سيده؛ حيث مثل من أصبح ديدانًا، وأنها تأكله؛ لأنه لا يعرف التعويذة الخاصة بالمرور منها (الأبواب)، وأن من كان في المقدمة لديه الوقاية من شر ذلك، وأن الراحل يوحد نفسه بالثعبان «محن» في مكان السياحة (أي في السفينة).»

ونعلم من مضمون هذه التعويذة أن حراس الأبواب سيعيشون على الأرواح الجاهلة التي لا تعرف كيف تسير على الطريق.

والحقيقة أن مثل هذه التعويذة، إن هي إلا إغراء بارع على حض الناس على شراء نسخة من «كتاب الطريقين» لتوضع معهم في القبر. هذا إلى أن ذكر «حور الأكبر» بوصفه أحد الثلاثة الذين صعدوا إلى سيدهم، مما يلفت النظر، ومن المحتمل أن هذا الثالوث مكوَّن من «حور» و«أوزير» و«تحوت» أما سيدهم فهو الإله «رع».

[١٤] Budge Book of the Dead (Text) Vol. II, P. 218.

[١٥] Budge Book of the Dead (Text) Vol. II, P. 218.

ويستمر المتن فيقول: «إن الذي يضع الرغفان بصوت عالٍ» هو اسم حارس الباب الثالث، وهو الثالث الذي قد صعد إلى سيده، والذي يعيش على لهيب كلمته، فصل المرور فيها بالذي كان قبله، وإن وقاية الراحل في هذا في يده …»

وتستمر التعويذة على ما يظهر في داخل الباب؛ إذ جاء فيها: «افتح لمن يقصي ظلمة «رع» (الكسوف والعاصفة)، والذي يتسلح بسحر طيب شافٍ كل يوم، والذي يقصي بناره الظلمة و(؟)، إن الراحل هذا قد حضر إلى «رع» في سفينته، وأن الراحل هذا هو أحد الآلهة الذين في جانب السماء، وإنه يعلن ما في يومه فرحًا، وأنه لن يصدك عن السبيل.»

ومما يلاحظ هنا أن هذه التعويذة عندما أصبحت جزءًا من «كتاب الموتى» أخذت عنوانًا جديدًا يدل على أنها ترجع إلى أصل قمري، وهاك العنوان: «فصل آخر يُتلى عندما يجدِّد القمر نفسه عند أول يوم في الشهر»؛ في حين أن الشرح الذي جاء في نهاية الفصل يقول: «إذا علم هذا الفصل فإن من يعرفه سيكون روحًا ممتازًا في عالم الآخرة؛ ولن يموت ميتة ثانية في العالم السفلي، وسيأكل طعامه بجانب «أوزير» وإذا عرفت هذه التعويذة لفرد على الأرض، فإنه سيكون مثل «تحوت» (أي عاقلًا قويًّا) وسيعاد مع الأحياء ولن يقع (Budge, Text Vol. II, 179) فريسة لغضب الإلهة «باستت» الملكية «أكبر بنات الإله آتوم»، وإن الأميرة القوية «باستت» تجعله يخطو في سلام.»

أما المتن الأصلي فإنه لا يزال مستمر؛ إذ يقول (Lacau, Ibid, P. 216 (18) – No. 28083 (19)).

ارفع عاليًا وصعِّد فلانًا هذا، ارفع عاليًا فلانًا هذا؛ لأن «أبو فيس» يفزع منه منذ أن شفى الجروح الأربعة، وأن الراحل قد رئي يشفي الآلام ويخففها، وأن الراحل هذا لم يصد أمام «رع»، وأن «حور» الأكبر هو الذي في هذه السماء التي تعد سيدة كل السموات، وكل إنسان يعرف هذه التعويذة، وهو عظيم في صورته سيكون عظيمًا هناك، مرحِّبًا بك يا «رع»، فإن الراحل هذا عندما يرى حسنك فلن تصل الروح الخبيثة إلى حارسك.» وفي مصور التابوت رقم ٢٨٠٨٣ يستمر المتن قائلًا: «هذا هو مورد السماء التابع لمسكن الإله، وأنه قد أسس في السماء وبدايته في النار ونهايته في الظلمة.»

وإن من قرأ «متون الأهرام» وما جاء فيها عن جنة النعيم لا يسعه إلا أن يتصور أن هذه الصيحة قد أتت من حافة المياه السماوية؛ حيث يجد الإنسان المنعمين في جنة الخلد يشربون من رحيقها، إلى هذا المكان الذي هو الجحيم والظلمة التي فسرت كذلك بأنها توجد في السماء أيضًا!

ففي هذا المكان الذي نحن بصدده في المصور نرى سفينة عجيبة الصورة لا يمكن تعرف كنهها إلا بعد إعمال الفكر، وبخاصة عندما يشاهد المجاديف الأربعة الصغيرة الموضوعة على إحدى جانبيها، وكذلك يلاحظ أن مؤخرتها ومقدِّمتها تنتهي بصقر جاثم على سكين، ويشاهد في وسطها مومية جالسة على عرش، وهذه المومية لها رأس حيوان يعتقد البعض أنه رأس فأر أو ضفدعة، غير أن الأذنين القصيرتين المنفصلتين ليستا من خصائص هذين الحيوانين، بل تشبهان أذني القط. ويشاهد خلف العرش الذي في السفينة صل منتفخ الصدر، وهذه السفينة تسير على سماء صافية زرقاء، ويدل المتن المفسر لهذا المنظر أن السفينة تسبح في مكان روح منعم حقيقة، ولن ترسو قط على المرفأ (أي لن تموت قط). ومن ذلك نستخلص أن المُتوفَّى يعمل سياحة أبدية مع الشمس من الشرق إلى الغرب وبالعكس كل يوم في سفينة «رع» التي تقوم كل يوم بسياحة بالليل وأخرى بالنهار.

أما الإله الذي في السفينة فيقال عنه (٢٢–٢٥)، «ليس هناك إله يعرف أوله (أصله)»، وله أربعة رءوس كل منها لكائن … وفي الجهة الأخرى من هذا النقش كتب «مكان الأرواح المنعمة»، وأخيرًا كتب «أنه هو الإله نفسه»، ومن كل هذا يمكن أن نستخلص أن الإله الذي في السفينة هو الإله «رع» بعينه رغم تمثيله بصورة غير مألوفة. ويشاهد تحت هذه السفينة مكان محاط بجدران سوداء يظهر أنها عماد ترتكز عليها، وقد ذكر لنا المتن (٢٦): «أنه مكان الروح الذي يعرف الموت في نار الليل، وروح الظلام الذي يعرف كيف يصعد إلى سماء «رع» وسماء «حور» الكبير الذي بين أتباع «رع»، وأن «حور» الكبير في سكينة في أفق «رع»، وأن «حور» الكبير هو عدالة الإله «رع».» والظاهر أن هذا المكان هو مأوى لهذه الأرواح التي رغم امتيازها كانت حتى الآن لا تعرف كيف يمكنها الاستمرار في طريقها إلى السماء التي يسكنها «رع» و«حور» الكبير صاحب عدالة «رع»، وذلك لخلوها من التعاويذ السحرية. فكان لا بد لكل من يريد الذهاب إلى الجنة من اصطحاب نسخة من هذا الكتاب، وهذا ما يقابل بالضبط «صكوك الغفران» في عهد القرون الوسطى في أوروبا التي كان ينشرها القساوسة بمثابة جواز لدخول الجنة. هذا ونجد قبل الصورة التالية متنًا، ورغم ما ينطوي عليه من غموض فإنه يحتوي على مادة شيقة وهو (٢٧)؛ ((Lacau, Ibid, P. 217 (27)): «إن كل فرد يعرف التعويذة الشافية سينعم هناك مثل «أوزير»، وإنه سيتغلب على كل القضاة، وإنه سيحيا ما دام «تحوت» حيًّا؛ وذلك لأن «تحوت» سيكون في محكمة «أوزير»، وإذا تلاها

أي رجل عظيم على بحيرته التي يسير عليها إلى الغرب الجميل، أو إذا تلاها أي إنسان في مكان التحنيط عند بداية اليوم الثامن، وكان قد مضى عليه أربعة أيام وهو ميت، فإنها ستكون مفيدة له أكثر من أي شيء، ومن يرِد معرفة القيامة فلا بد من أن يقولها كل يوم بعد أن يدلِّك أعضاءه بعطور بنت من الأبكار لم تختَّن، وبرِيق رجل مسن لم يختن.» ولا شك أن المقصود هنا من البنت البكر والرجل المسن هو الجمع بين فتوة الشباب وطول العمر.

وبعد ذلك ننتقل إلى صورة من أعظم الصور المنطقية في كل صور هذا التابوت؛ إذ نجد مجرى ماء متعرج يلف حول سفينة كبيرة تنتهي كل من مقدمتها ومؤخرتها برأس إنسان ذي لحية، ويظهر أن هذه السفينة قد صُنعت من نار؛ لأن لونها أحمر، وقد شغل كل سطحها محراب ذو لون أصفر حمل سقفه على عمودين على هيئة ساق بشنين، وفي داخل المحراب يقف إله في صورة إنسان ذي لون أصفر، ومن المتن نفهم أنه الإله «أوزير». أما المتن الخاص بهذه السفينة فهو ما يأتي (٣٣): «ثابتة الحياة، هذا هو اسم هذه السفينة»، والظاهر أن كلًّا من الرأسين اللذين يمثلان مقدمة السفينة ومؤخرتها يمثل إلهًا، فالرأس الذي في المقدمة يُسمى (٣٢): «نحح» والذي في المؤخرة يسمى (٣٤) «سبا»، أما الإله الذي في وسط المحراب فقد قيل عنه إنه (٢٨): «أوزير» صاحب المعبد الأرضي للأرواح الأربعة.» ورغم أن الإله «ست» لم يُرسم في السفينة فإنه كان موجودًا فيها كما يدل على ذلك المتن الذي يقول (٢٩): «ست» صاحب الأرض ذات الأرواح الأربعة.»

ولدينا متن طويل فوق هذا المنظر جاء فيه ((Lacau, Ibid, P. 217, (30) «إن المخاطب هو «أوزير»، وإن الماء حوله، وهو يعيش من كلمته (السحرية)، حقًّا إن «أوزير» هو الذي يجعل الحقول الأربعة المروية مفيدة، والإله «ست» يرفع ذراعيه تعبدًا له، ولكل عضو من أعضائه في كل مكان يصل إليه، (أي إن الإله «حور» عندما تغلب على الإله «ست» قاتل والده وجعله يتعبد إليه) وإن أعضاءه هذه أصبحت مفعمة بقوته، مرحبًا بك يا «أوزير» الذي يملك معبده الخفي، ويا من أتعب «ست» الشرير قلبه (أي قتله)، إن قلبك ثابت، وهو مظفر في الحرب عندما يُقطِّع «ست» المشاغب إربًا إربًا. وإن الراحل هذا يقول: إن ما تتوق إليه نفسي هو دم قوي القلب (أي الإله «ست»)، وإن الراحل هذا يقدِّرك يا «أوزير»، ويجمع لك العظام الأربع السليمة الخاصة بالراحل هذا، وإن أعضاء الراحل قوية.»

والإشارة إلى أعضاء «أوزير» المنعمة هنا ترمز لأعضاء «أوزير» التي مزقها «ست» وطوَّح بها في مختلف جهات القطر، وهي التي جمعتها «إزيس» من كل هذه الجهات بعد أن أقامت لكلٍّ معبدًا في الجهات التي وجدت فيها.

ورغم أن رسم المُتوفَّ غير ظاهر في السفينة إلا أنه يمكننا أن نتصور أنه كان مسافرًا مع «أوزير» فيها؛ إذ يقول المتن: (٣١): ((Ibid, (31)) إن فلانًا هذا يقف مع «أوزير» عندما يقف، وإن روحك[١٦] يأتي إليك فافتح حلقك مع «أوزير» صاحب الأشكال الأربعة، وعندئذ يأتي إليك الريح البارد، وعندما توضع في الأرض؛ (أي وقت الدفن)، وإنها (الرياح) ستسرع عندما تهب العاصفة عليها (أي السفينة).»

وكذلك نجد فوق السفينة مباشرة مكتوبًا (٣٥): «إنه لا يجهل «ست»، قف «يا أوزير» وانصب «نفسك».» ونقرأ كذلك أمام السفينة العبارة التالية (٣٦): «إن روح الليل هي أذناك، وإن العين السليمة قد أُعطيتها.»

أما عن المُتوفَّ فيقول المتن (٣٦–٣٨): «إن الراحل هذا يصعد إليك بعين «حور» (وعين حور هي القربان)؛ لأجل «أوزير»، وإن عينك قد طهرت، قم واحيَ! وإن فلانًا هذا قد ارتاح، وإن «تحوت» سيد الأشياء (القربان) هو الذي يطهر محراب الراحل هذا، وهو سيد طعام «أوزير»، وسيد قربان الراحل هذا ابن «أوزير»، ساكن الأرض العالية (أي الجبانة) التي يملكها الإله «أكبر» والإله «محنت» (؟).»

بعد ذلك ينتقل الراحل إلى منظر يمثل الواقعة التي حدثت بين إله الشمس «رع» في سفينة وبين الثعبان «أبو فيس» عدوه، وقد مُحي الجزء العلوي من هذا المنظر، ولكن لحسن الحظ ما بقي يمكِّننا من فهم الغرض الأساسي منه، والمتن في هذا المنظر يبتدئ بخطاب إلى الأبواب على لسان المُتوفَّ؛ ومما يؤسف له أن هذه المتون قد مُحيت من مصورنا غير أننا أخذناها من مصور التابوت رقم ٢٨٠٨٥ ((P. 218, (40))، وهي: مرحبًا بك أيتها الأبواب صاحبة الأسماء الأربعة السرية! أنت يا صاحبة الأماكن الرفيعة، ليتك تطلقين سراح الراحل هذا من كل سحر مؤذٍ للأحياء الذين أمامك إلى أن يصل فلان هذا أمام رب الكل، وإلى أن يقوم السلام بين المتحاربين «حور» و«ست»؛ وذلك إكرامًا للراحل هذا، وإن الراحل المواطن يبكي من أجله بسبب الجروح التي أصابت والده (أي

[١٦] يلحظ في هذه المتون الدينية والسحرية تغيير الضمير بصفة عامة.

«أوزير») عندما قُطعت أوصاله على يد «ست» (وهذا مثل من الأمثلة النادرة التي تشير إلى فرد من الطبقة المتوسطة يذكر فيه أن رجلًا من هذه الطبقة يحنو على «أوزير»، والمثل بعينه يدل على أن «أوزير» كان في الأصل إله الشعب).

ويذكر لنا بعد ذلك المتن أسماء المشتركين في هذه المعركة المدهشة وهم (٤١–٤٦) أولًا الثعبان «أبو فيس»، وقد ظهر الجزء الأسفل من صورته على المصور الذي في أيدينا، كما يلاحظ وجود إلهين يهاجمانه، ثم الآلهة «تسف» و«أمستي» و«حابي» و«دواموتف»، والأخير يهاجم «أبو فيس» بحربة طويلة، أما الإله «كبح سنوف» الذي يهاجم «أبو فيس» بالقوس والنشاب فإنه لم يُرسم هنا، والظاهر أنه كان ينعت (٤٧–٤٨) «الذي يرى والده، والذي عمل اسمه بنفسه.» اللهم إلا إذا كان هذان الاسمان لإلهين لم يُرسما هنا (Ibid, P. 47, 48) (وهذه الآلهة هي أولاد حور). ومما يجدر ذكره هنا أنه جاء في «كتاب الموتى» أن أولاد «حور» كانوا يقومون بمثل هذا الدور في «كتاب البوابات».

ونجد هنا كذلك متنًا وضع على لسان إله السحر «حقا» ((Ibid, P. 219, (50))؛ إذ يقول (٥٠): «إنك الأمير «أوزير» الذي ترى ما يسقط أمامك، وأنت الذي يُقتنص له رءوس البدو، والذي يُجر له الأشرار الأربعة.»

ولا نزاع في أن هذا المتن يشير إلى الشياطين الذين يهاجمون «أبو فيس» عدو إله الشمس «رع»، ويلي ذلك المنظر صورة كبيرة لسفينة الشمس ذات لون أصفر، وهي تشبه السفينة التقليدية التي تعمل الشمس فيها سياحتها اليومية، فنجد في وسطها المحراب الذي يجلس فيه وبابه مفتوح على مصراعيه، غير أننا لا نجد الإله جالسًا في محرابه؛ ولكن نجد متنًا صغيرًا على جانب المحراب يخبرنا أن الإله «رع» موجود في السفينة، وكذلك كتب اسم الإلهين (٥٧–٥٨) «سيا» و«حو» (أي «الفهم» و«الأمر»)، وهما الإلهان اللذان لا يفارقان «رع» في سياحته اليومية في سفينته ويقفان دائمًا بجانب الدفة. ومما يلفت النظر هنا أن سفينة الشمس هذه قد وضعت هنا على جرارة لها رأس صقر مما يذكرنا بالجرارات الخاصة بالقوارب الجنازية، وبخاصة نشاهد أن الجرارة لها رأس صقر، وذلك مما يذكرنا كذلك بالإله «سوكر» إله الموتى في جبانة «منف»، وهو يمثل في صورة إنسان برأس صقر في سفينة على شكل جرارة، ويُنعت بأنه إله منف العظيمة وسيد «روستاو»، ويشد هذه الجرارة ثلاثة رجال وقد كُتب بجوارهم المتن التالي (Ibid, 49) (٤٩): «أربع مجاميع من سكان السماء وأربع مجاميع من بحارة «رع» الذين لا حصر لهم.» وتفسير هذا المتن معروف لنا منذ عهد الأهرام؛ إذ نعلم أن

بحارة «رع» كانوا يتألفون من نجوم ثابتة ومن كواكب سيارة. ويمكن أن نستنبط هنا نفس هذه الحقيقة؛ فالبحارة الذين لا يحصى عددهم هم بلا شك النجوم. والواقع أن نفس الفكرة قد تمسك بها رجال الدين فيما بعد، كما نجد ذلك في كتاب «ما يوجد في العالم السفلي»، وفي «كتاب البوابات»؛ حيث نجد أن سفينة الشمس في سياحتها في العالم السفلي الذي لا هواء فيه تقوم برحلتها فيه حيث يجرها أولئك البحارة الذين يتألفون من النجوم، ولكن يلاحظ أن الجرارة لم توجد في الكتابين الأخيرين؛ إذ كانت السفينة تجر على الماء بالأمراس لانعدام الهواء؛ اللهم إلا في الجزء الذي كان يُسمى «روستاو»؛ وحيث كانت تغير صورتها وتُجر على رمال الصحراء. وعدد البحارة هنا كان يتألف من أربع مجاميع بدلًا من المجموعتين العاديتين؛ واحدة لسفينة النهار والأخرى لسفينة الليل، ومن المحتمل أنهم قُسموا أربع مجاميع ليتفق هذا مع أربع السموات السالفة الذكر؛ أي إنه كان لكل سماء مجموعة تعمل فيه.

وفي مصور التابوت رقم ٢٨٠٨٥ نجد الآلهة التالية أسماؤهم قد ذكروا مع هذا المنظر (Ibid, 51–55.) كما يأتي (٥١–٥٥): «الحاشية الذين في المقدمة (أي مقدمة السفينة)، و«إزيس» والإله «ست» والإله «حور» ثم الحاشية المؤلفة من الأربعة الذين في المؤخرة (أي مؤخرة السفينة).»

وأخيرًا ينتهي هذا الصف من المصور بمتن طويل يدل على آخر المطاف فاستمع لما جاء فيه ((Ibid, P. 220 (58) «الشاطئ الشمالي للنهر المتعرج الذي لا نهاية لعرضه، وهو يحيط به جميعه نار ارتفاعها ذراع، مرحبًا بك يا من قد كفيت شر لهيبها، ويا من أقصيت نارها عنك، وإن الراحل هذا قد ضرب على يد كل شر بسر ذكائه الذي عمله، وإنه قد أصبح حيًّا بأعضائه ويتحرك بها، وإن الراحل لا والد له.»

ثم يتلو ذلك عنوان بالمداد الأحمر جاء فيه متن مهشم، ويأتي بعده متن كُتب بالمداد الأسود هو (٥٩): «إن رب الجميع تكلم للصامت (أي «أوزير») عن الآلام في السياحة: يا رجال الحاشية الأصحاء بما أنتم فيه من سكينة، إني أكرر لكم أعمالي الجميلة جدًّا؛ لقد عملت ما سَر قلبي في داخل «محن» (السفينة)؛ لأني أخرست الشر وعملت الطيبات أربع مرات في داخل باب الأفق، وقد خلقت النَفَس الذي يستنشقه كل إنسان في حياته، وإني أنا الذي خلقت الفيضان العظيم، وجعلت الفقير قويًّا مثل العظيم، وهذا هو عملي هناك، وقد جعلت كل إنسان مثل أخيه، ولم آمر بعمل شر لهم؛ وبذلك أجعل قلوبهم راضية بما فعلت، هذا هو عملي هناك، ولقد جعلت أفئدتهم صالحة حتى يذكروا الغرب (الآخرة)؛

ولأجل أن يقدِّموا للآلهة الأربعة الخفية، هذا هو عملي هناك، ولقد خلقت الآلهة الأربعة من عرقي، والناس من دموع عيني.

وإن الراحل هذا هو الضوء الذي ينير كل يوم (أي الشمس) في مكان النوم عندما يذهب رب الجميع للنوم، وعيني الخاصة بالليل (القمر) لمتعب القلب (أي أوزير)، وإن الراحل هذا ضمن بحارة سفينة «ماعت» (العدالة)، وإن الراحل هذا هو رب الفيضان والسياحة السماوية التي لا يترك فيها عضو من أعضاء الراحل هذا، وإن الإله «حور» والإله «حقا» قد قضيا على هذا الشر جميعًا، الذي رآه الراحل هذا، وإن الراحل هذا قد جلس في مكانه، وإنه يفصل بين التعس والقوي بالعدل، … وإن الراحل يمضي ملايين السنين التي يملكها «صاحب القلب المتعب» (كتاب عن الموت) (أوزير) وهو ابن «جب» (إله الأرض) …

ولا مراء في أن القارئ لا يتردد لحظة في القول بأن هذا المقال الأخير هو أعظم قطعة خلقية قدَّمها لنا مؤلف كتاب الطريقين في ختام مطافه؛ إذ نجد أن رب العالم؛ (أي الخالق) يحدِّثنا عن جزء من قصة خلق العالم، فقد برأ الآلهة الأربعة من عرقه، وذرأ الناس من دموعه؛ وبذلك أوجد نَفَس الحياة للخلق، وذرأ الفيضان، وجعل الضعيف والقوي أمامه سواءً؛ فعدل بينهما، وجعل كل الناس إخوانًا، وعرف أن قلوب الناس قد جُبلت على الشر غير أنه تنحى عن المسئولية في ذلك؛ لأنه لم يخلقه كذلك، بل على النقيض جعل قلوب الناس سليمة؛ حتى يذكروا يومًا لا ريب فيه؛ ويتدبروا واجبهم نحو الإله خالقهم يوم يقدِّم كل إنسان ما عملت يداه ويكون الجزاء من جنس العمل.

قائمة المصادر المختصرة[١]

A. J. S. L.: The American Journal of Semetic Languages and Literature.

Anthes, "Hatnub": Anthes, "Die FeIseninschriften von Hatnub", Leipzig, 1928.

A. S.: "Annales du Service des Antiquities de l'Egypte", Cairo.

A. Z.: "Zeitschrift fur Agyptische Sprache", Leipzig.

B. I. F. A. O.: Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale, Cairo.

Birch, "Alnwick": Birch, "Catalogue of the Collection of Egyptian Antiquities at Alnwick Castle".

Blissing and Kees, Munich Ak. S. B.: "Sitzungsberichte der Bayer, Academie der Wissenschaften Munchen".

Blackman, "Meir": Blackman, "The Rock Tombs of Meir", London, 1914–15.

[١] List of Abbreviations.

Borchardt, "Statuen": Borchardt, "Statuen und Statuettes von Konigen und Privatleuten", (Vol. 33, Catalogue General, Cairo Museum) Berlin, 1911.

Breasted, A. R.: Breasted, "Ancient Records of Egypt", Chicago, 1906.

Breasted, "Dawn": Breasted, "The Dawn of Conscience", New York, 1934.

Budge, "Sculpture": Budge, "A Guide to the Egyptian Galleries, (Sculpture)", London, 1909.

Carnavon and Carter, "Explorations": Carnavon and Carter, "Five Years Explorations at Thebes", Oxford, 1912.

Couyat et Montet, "Hammamat": Couyat et Montet, "Inscriptions Hieroglyphique et Hieratique du Ouadi Hammamat", (Vol. 34, Mém. de l'Inst.) Cairo, 1912.

De Morgan, "Cat. Mon.": De Morgan, "Catalogue des Monuments et Inscriptions de l'Egypte Antique", Cairo, 1893.

De Morgan, "Dahchour": De Morgan, "Fouilles à Dahchour", Vienna, 1895.

Drioton and Vendier, "L'Egypte": Drioton and Vandier, "Les Peuples de l'Orient Medeterraneen, L'Egypte", Paris, 1938.

Gardiner and Peet, "Sinai": Gardiner and Peet, "Inscriptions of Sinai", London, 1917.

Griffith "Suit": Griffith, "Inscriptions of Suit and Der Rifeh", London, 1889.

Griffith "Kahun Papyri": Griffith, "Hieratic Papyri from Kahun and Gurob", London, 1897–98.

Hall, "Ancient History": Hall, "The Ancient History of the Near East", London, 1920,

Hall, "Catalogue of Scarabs": Hall, "A Catalogue of Egyptian Scarabs in the British Museum", London, 1913.

J. E. A.: "The Journal of Egyptian Archaeology", London.

J. N. E. S.: The Journal of Near Eeastern Studies.

Junker, "Agypter": Junker, "Die Volker des Antikens Orient. Die Agypter", Freiburg im Breisgau, 1933.

Kees, "Kulturgeschichte": Kees, "Kulturgeschichte des Alten Orients", Munchen, 1933.

Lacau, T. R.: Lacau, "Textes Religieux Egyptiens", Paris, 1910.

Lange and Schafer, "Grab und Denkstein": Lange und Schafer, "Grab und Denkstein des Mittleren Reiches", Vol. 5, 7, 36, (Cat. Gen. Cairo Mus.), 1902, 1908.

Legrain, "Statues": Legrain, "Statues et Statuettes de Rois et de Partic- uliers", (Vol. 30, 49, 71, Cat. Gen. Cairo, Mus.) Cairo, 1906–1914.

L. D.: Lepsius, "Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien", Berlin, 1849–56.

Maclver and Mace, "EI Amrah": MacIver and Mace, "El Amrah and Aby- dos", 1899–1901, London, 1902.

Maspero, "Melange d'Arch.": Maspero, "Melange d'Archaeologie".

M. M. A.: The Metropolitan Museum of Arts Bulletin, New York.

Meyer, "Gesch": Meyer, "Geschichte des Altertums Nachtrag", Stuttgart and Berlin, 1910.

Naville, "Ahnas": Naville, "Ahnas el Medineh", London, 1894.

Naville, "Goshen": Naville, "Goshen and the Shrine of Saft el Henna", London, 1887.

Naville, "Temple": Naville, "The Eleventh Dynasty Temple at Deir el Bahari", London, 1909-1910, 1913.

Newberry, B. H.: Newberry, "Beni Hasan", London, 1893—1900.

Petrie, "History": Petrie, "A History of Egypt", London.

Petrie, "Hist. Scarabs": Petrie, "Historical Scarabs", London, 1889.

Petrie, "Labyrinth": Petrie, "Labyrinth and Gerzeh", London, 1911.

Petrie, "Scarabs": Petrie, "Scarabs and Cylinders"; London, 1917.

Petrie, "Season": Petrie, "A Season in Egypt", London.

Petrie, "Tarkhan": Petrie, "Tarkhan and Memphis", London, 1913.

P. S. B. A.: The Proceedings of the Society of Biblical Archaeology", London.

Quibell, Sakkara: Quibell, "Excavations at Sakkara" (1905-1906), Cairo, 1907.

Scharff, "Merikare": Scharff, "Die Historische Abschnitt der Lehre fur Konig Merikare", in Sitzungsberichte des Bayerischen Akademie der Wissenschaften", Munchen, 1936.

Scott-Moncrieff, B. M. Stelae: Scott-Moncrieff, "Hieroglyphic Texts in the British Museum", London, 1911—1925.

Sethe, "Achtung": Sethe, "Achtung Feindlecher Fursten Vloker und Dinge", Berlin 1926.

Sethe, "Amun": Sethe, "Amun und die Acht Urgotter", von Hermopolis, Berlin, 1929.

Sethe, "Lesestucke": Sethe, "Aegyptische Lesestucke", Leipzig, 1928.

Sethe, "Pyramidentextes", "Pyr.": Sethe, "Die Altægyptischen Pyramidentextes", Leipzig, 1908—1922.

Sethe, "Urkunden IV": Sethe, "Urkunden der 18 Dynastie", Leipzig, 1908.

Vyse, "Operations": Vyse, "Operations Carried on at the Pyramids", London, 1840–42.

Weigall, "Guide": Weigall, "A Guide to the Antiquities of Upper Egypt", London, 1913.

Weigall, "History": Weigall, "A History of the Pharaohs", London, 1931.

Weigall, "Lower Nubia": Weigall, "Report on the Antiquities of Lower Nubia", Oxford, 1907.

Weill, "Rec".: Weill, "Recueil des Inscriptions Egyptiennes du Sinai", Paris, 1904.

Wiedemann, "Geschichte": Wiedemann, "Agyptische Geschichte", Gotha, 1884.

Winlock, "Deir el Bahari": Winlock, Excavations at Deir el Bahari, 1911–1931", 1942.


هنداوي